وهم الإله

ريتشارد دوكينز

وهم الإله

بقلم

ريتشارد دوكينز

ترجمة بسام البغدادي

تحرير نور الهدى و وفاء البحري

Translated by: Bassam Al-Baghdady

Edited by: Nour Al-Hoda, Wafa Bahri

لذكرى دوغلاس آدامز

2001- 1952

ألا يكفي النظر لروعة الحديقة دون ان يكون علينا الإعتقاد بان هُناكَ جنيات تعيش تحتها أيضاً؟

مقدمة المترجم

كانت الساعة الواحدة والنصف فجراً عندما دق جرس الساعة ينبهني بأنهُ حان وقت العمل. كان فجر الأربعاء وكان عليّ الانتهاء من شيء مهم قبل أن يبدأ موعد العمل الساعة الرابعة صباحاً. نظرت من خلال نافذتي العارية من الستائر فلاحظت أن الثلج لازال يهبط دون انقطاع. في ساعتي الرقمية عرفت كذلك بأن درجة الحرارة في الخارج كانت ثلاث عشر درجة تحت الصفر. ركنت ساعتي على الطاولة وتمنيت لو بقيت بضع دقائق أخرى دافئاً في السرير. لكنني لا أقدر. في ذلك الوقت كنت لاجئاً جديداً في السويد وكان عملي يتطلب مني العمل خلال ساعات مبكرة في الفجر أيام الإثنين والأربعاء والخميس، ثم بقية الأسبوع متأخراً في الليل كي أتمكن من دراسة اللغة في النهار. لم يكن بالأمر الهيِن، لكنهُ كان طريقتي كي أعيش بكرامة وأتعلم لغتي الجديدة. كنت ذلك اليوم مصمماً على أن أنتهي من ترجمة الصفحات الأخيرة من الفصل الثالث من كتاب وهم الإله إلى العربية قبل أن أبدأ العمل.

كان يوم عمل مرهق لكنني كنتُ مرتاحاً بإنجازي الذي بدأ يتشكل أمامي. سطر بعد سطر وكلمة بعد كلمة أقوم بجعل هذا الكتاب المهم الذي يتناول موضوع الايمان بالله متوفراً للقارئ العربي. هذا الكتاب تمت ترجمتهُ تحت ظروف خاصة جداً وفي أوقات وأماكن لم أتوقع أنني سأكون فيها. تطلبت ترجمة هذا الكتاب الكثير من الجهد والوقت كي يخرج بالصيغة التي هو عليه الآن، فلماذا هذا الكتاب بالذات دون كل الكتب الأخرى؟

ولدت في بغداد وعندما كُنتُ صغيراً نشأت في بيئة ينتشر فيها الايمان بالكثير من الغيبيات. الله والأديان لم تكن يوماً من الأيام خياراً شخصياً مطروحاً لي أو لأي شخص أعرفهُ حولي، بل كانت هوية ثقافية نتوارثها كما نتوارث لون العينين والشعر والبشرة. فأنت أما مسلم، أو مسيحي، أو يهودي لأنك وُلدتَ في عائلة مسلمة أو مسيحية أو يهودية وليس لأنك اخترت أن تكون مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً.

حسناً... ماذا لو اخترنا أن نكون بلا دين ونعيش حياتنا بسلام مع من حولنا؟ ماذا لو سعينا لفعل الخير فقط دون الطمع في ثواب أو الخوف من عقاب؟ مثل هذه الخيارات لم تكُن أساساً مطروحة. لا يحق لك أن تكون ملحداً لأنك مسبقاً تنتمي لأحد هذه الأديان. فأنت إما تنتمي لهذا الدين أو ذاك منذ ولادتك، ولا تستطيع ألا تنتمي لشيء، كما أن السمك لايستطيع العيش بدون ماء فالبشر لايستطيعون الحياة بدون دين. في وسط هذه البيئة الفكرية نضجت، وهذا كان الواقع الذي كنتُ أعيشهُ، ولمدة طويلة ولازالت تعيشهُ الملايين من البشر حتى يومنا هذا. لحسن الحظ فإن ولعي بالمطالعة دفعني للاطلاع على الثقافات الأخرى عندما بدأت الدراسة الجامعية في بغداد. اهتماماتي المبكرة بدراسة الأديان، ثم علم الأحياء والفلسفة ازداد بمرور الأيام. قضيت ما لا يقل عن ساعتين كل يوم في مكتبة الجامعة للقراءة، وقرأت مُختلف الأنواع من الكتب، وبعض هذه الكتب دفعني للتسائل والشك حول عقيدتي، أو بالاحرى عقيدة أهلي. اليوم أتذكر ذلك واقول في نفسي لولا شغفي بالقراءة لكنت بلا شك حتى اليوم مؤمناً بأن الدين مثل الهواء للإنسان ولا نستطيع العيش بدونه.

اكتشفت كتاب وهم الإله عام 2007، كنت حينها ومنذ سنتين أكتب المقالات في الصحف العراقية أحذِّر فيها من خطورة التطرف الديني الذي يجتاح العراق والشرق الاوسط. لم تكن الدولة الاسلامية وقتها سوى فكرة سخيفة يضحك منها البعض عندما نتحدث عنها. لكن السؤآل الذي طرحتهُ وقتها... كيف تواجه متطرف بحزام ناسف يؤمن بأن الجنة موجودة على بعد كبسة زر. يبدو الموقف ميؤوساً منه، لكنهُ في الواقع ليس كذلك. كي تكبس زر الموت عليك أن تؤمن إيماناً لا يتزحزح بأنك بعد لمحة بصر ستكون في الجنة. بالطبع الموقف معقد جداً لكن كل ما نستطيع أن نفعلهُ هنا أن نزرع بذرة شك عقلانية صغيرة في رأس هذا الانتحاري المسكين بوقت مناسب ونترك الزمن يتدبر الامر، علَّهُ يغير رأيه.

أهم ما في هذا الكتاب الذي بين يديك الآن هو أنهُ يذكرنا بما نسيناه وهو أن الله عبارة عن فكرة زرعت فينا في عمر مبكر مثل أي فكرة أخرى. من حقنا كبشر أن نفتح باب أفكارنا على مصراعيه ونستنشق الهواء الطلق ونتبادل الافكار مع كل البشر ولا نبقى نصارع من اجل الدفاع عن فكرة واحدة لم نخترها اساساً. فالإنسان ليس ضحية لصدفة كونية تركتهُ حبيس المُعتقدات التي وجد نفسهُ يؤمن بها. بل يستطيع أن يكون فاعلاً قادراً على أن يشق طريقه الفكري والفلسفي والعقائدي بنفسه. ربما سيختار البعض نفس ما وجدوا انفسهم عليه حينما ولدوا أو ربما يختارون شيئاً آخر، فليس هذا المهم، بل المهم أن نختار ونكون مسؤولين عن خياراتنا.

ريتشارد دوكنز في كتابه هذا يتناول الفكرة الأساسية التي تقوم عليها الغالبية العظمى من الأديان وهي فرضية الإله. فما هي الأدلة على وجود الله؟ وإن لم يكن الله موجوداً فمن أين جاءت الأديان؟ وإن لم يكن هناك ثواب أو عقاب فما الفائدة من فعل الخير وتجنب الشر؟ هذه الاسئلة وغيرها الكثير يوجهها الكاتب بأسلوب لبق باستخدام الحجج المنطقية والبراهين العقلانية مع جرعة من المعلومات العلمية لتدعيم هذه البراهين بلغة سلسة ورشيقة. الكاتب ريتشارد دوكنز يعتبر اليوم من أهم الأصوات العقلانية التي تدعو لتحرير الإنسان من سلطان الأديان. ويُسعدني أنني ساعدت على ايصال صوتهُ للقارئ العربي.

بعد انتهائي من ترجمة هذا الكتاب للعربية حاولت التواصل مع الناشر الأصلي وريتشارد دوكنز كي أحصل على موافقة بنشر الترجمة العربية لكن محاولتي لم تكن موفقة للأسف. فقررت أخيراً أن اتحمل المسؤولة القانونية وأقوم بنشره على موقعي الشخصي www.Bassam.nu. كل ما كنت أطمح لهُ أن أقوم بإيصال صوت وأفكار ريتشارد دوكنز للعالم العربي. في البداية لقيت ترجمتي الكثير من الترحيب ووصلتني الكثير من ردود الفعل الايجابية. لكن، بمجرد ارتفاع عدد مرات التحميل للكتاب وبدء انتشاره في العالم العربي مثل الماء في أرض يابسة مُنذ قرون، بدأت تصلني رسائل اولاً كانت تدعو لهدايتي، ثم سرعان ما تحولت الى تهديدات مباشرة بالايذاء والقتل لي ولأفراد عائلتي. بعض من هذه الرسائل كان مزعجاً جداً وجعلني أشعر بالغضب على نفسي قلقاً على عائلتي. بالرغم من ذلك، لم أندم يوماً على ترجمة هذا الكتاب كي

يكون في متناول القارئ العربي. منذ ذلك اليوم الذي نشرتهُ فيه حتى ساعة كتابة هذهِ السطور تم تنزيل الكتاب من موقعي لأكثر من خمسة عشر مليون مرة. لو استطعت بعملي هذا مساعَدة إنسان واحد في شق طريقهُ بنفسه فهذا يكفي. لكن في الحقيقة وصلتي العديد والعديد من الرسائل التي يشكرني فيها القراء على ترجمة هذا الكتاب الذي ساعدهم على اختيار طريق جديد في الحياة. وأريد بدوري هنا أن أشكر كل القراء، ولكن بالدرجة الأولى أشكر كاتب هذا الكتاب، ريتشارد دوكنز. سرني كذلك المشاركة في مشروع الترجمة لجعل ترجمتي المنقحة والمدققة متوفرة لكل القراء العرب، مجاناً.

ما أتمناه وأسعى لهُ من ترجمة هذا الكتاب هو زرع ولو بذرة صغيرة لعصر نهضة جديد في الشرق الأوسط وشمال أفريقا. عصر تستطيع فيهِ الاجيال القادمة دراسة وتبادل الافكار والمعتقدات المختلفة بصورة نقدية متحررة من قيود الخوف التِي زرعت فينا وكبلت عقولنا لقرون. فحتى نتخلص من سلطان رجال الدين، على غرار ما فعلت أوربا قبل ثلاثمئة سنة، فلن نجرؤ أن نخطو خطوات واثقة نحو عالم أكثر حرية وسلام نحترم فيه حقوق الإنسان أكثر من حقوق الله أو الأنبياء أو الأديان.

بسام البغدادي

ستوكهولم 2019

فهرس محتويات الكتاب

مقدمة الطبعة الورقية

تمّ وصف "وهم الإله" إلى حد بعيد في طبعته الورقية بالمفاجأة بين الكتب الأكثر مبيعاً لعام 2006. وقد استُقْبِل بحرارة من الغالبية العظمى من أولئك الذين أرسلوا مراجعاتهم الشخصية إلى أمازون (أكثر من 1000 مراجعة وقت كتابة هذه المقدمة). ومع ذلك، فإن القبول كان أقل عدداً في المراجعات المطبوعة. قد يقلّل سيء الظنّ من أهمية ذلك ويرجعه إلى رد فعلٍ غير متدبِّر للمُعلِّقين: إنه يحتوي على كلمة "إله" في العنوان، إذاً أرسله إلى شخص رأسه معبّأ بالإيمان. هذا سيكون سيء الظنِّ جداً بأية حال. العديد من المراجعات غير المحبّبة بدأت بالعبارة التي تعلمتُ منذ زمن طويل أن أتعامل معها على أنها نذير سوء، "أنا ملحد ولكن...". كما لاحظ دانيال دانيت في "كسر التعويذة"، فإن عدداً كبيراً من المفكرين "يؤمنون بالإيمان" رغم أنهم أنفسهم يفتقرون إلى الاعتقاد الديني. هؤلاء المؤمنون من الدرجة الثانية، غالباً ما يكونون أكثر حماسة من المؤمنين الحقيقيين، حماسهم يُعَزّز بتسامحٍ متملِّق:"للأسف، لا يمكن مشاركة إيمانك، لكني أحترمه وأتعاطف معه".

"أنا ملحد، ولكن ...." التكملة تكون غير ملبية للتوقعات بشكل دائم، تقريباً، عدمية أو -أسوأ من ذلك- مشبعة بنوع من السلبية المبتهجة. بالمناسبة، لاحظ التميّز عن نوعٍ مفضَّل آخر: "لقد كنتُ ملحداً، لكن...." تلك هي واحدة من أقدم الخدع في الكتب، مفضَّلة كثيراً لدى المدافعين عن الدين أبتداء من سي.أس.لويس حتى يومنا هذا. إنها تصلح لتأسيس نوع من القبول أو الشعبية لدى العامة سلفاً، ومن المذهل كم عدد المرات التي تنجح فيها. لاحظ ذلك.

لقد كتبتُ مقالة على موقع RichardDawkins.net بعنوان "أنا ملحد ولكن..." وقد استعرتُ منها اللائحة التالية من النقاط النقدية، أو بمعنى آخر سلبية، جاءت في مراجعات النسخة ذات الغلاف المقوّى. لقد اجتذبتْ تلك الصفحة الالكترونية التي أدارها الملهَم جوش تيمونين عدداً هائلاً من المساهمين الذين قاموا بإبطال كل هذه الانتقادات بشكل فعّال، لكن بوتيرة أقل تحفُّظاً وأكثر صراحة مني، أو من نظرائي الأكاديميين أ.س.غرايلِنغ، ودانيال دانيت، وبول كورتز، وستيفن وينبرغ، وآخرون قاموا بذلك كتابةً (وترد تعليقاتهم على الموقع نفسه).

لا يمكنك انتقاد الدين دون تحليل مفصّل لكتب اللاهوت المعتدّ بها.

الكتاب المفاجأة الأكثر مبيعاً؟ إذا خضتُ في الموضوع بعمق، كما تمنى أحد النقاد الذي يعتقد بأنه مُفكِّر، في الاختلافات المعرفية بين آكوينس ودانس سكوتس؛ إذا كنتُ أنصفتُ إريوجينا بشأن الذاتية، وراهنار بشأن النعمة، أو مولتمان بشأن الأمل (كما كان دون جدوى يأمُل أن أفعل)، فإنَّ كتابي سيكون أكثر من مفاجأة بين الكتب الأكثر مبيعاً: سيكون كتاباً معجزة. ولكن ليست تلك هي النقطة. على عكس ستيفن هوكينغ (الذي قبل النصيحةً بأن كل معادلة ينشرها ستخفض مبيعاته إلى النصف)، سأكون مسروراً بالتضحية بكثرة مبيعات كتابي لو كان هناك أدنى أمل بأن يضيء دونس سكوتس على سؤالي المركزي عمّا إذا كان الله موجوداً. الغالبية العظمى من الكتابات اللاهوتية تفترض ببساطة بأنهُ موجود وتنطلق من هناك. من أجل غايتي، أحتاج أن آخذ بعين الإعتبار فقط أولئك اللاهوتيين الذين يأخذون على محمل الجد احتمال أن يكون الله غير موجود ويجادلون بأنه موجود. أعتقد أن هذا ما ينجح بهِ الفصل الثالث بدعابة وشمولية كافية كما أتمنى.

عندما يتعلق الأمر بالدعابة الجيدة، لا أستطيع أن أجعلها أحسن من "رد كوريتيار الرائع" المنشور من قِبَل ب.ز.مايرزعلى صفحته الالكترونية

فارينغولا (Pharyngula)

> "لقد فكرتُ بالاتهامات الوقحة للسيد دوكينز بالسخط عليهِ لافتقارهِ لثقافة جادة. لم يقرأ كما يبدو المناقشات المُفصلة للكونت روديروكو من إشبيلية عن الجلود الرائعة والغريبة لأحذية الامبراطور، كما أنه لم يعطِ لحظة اهتمام لرائعة بيلليني، "عن تألُّق قبعة الامبراطور المريّشة". لدينا مدارس بأكملها مكرّسة لكتابة أطروحات عن جمال ثياب الامبراطور، وتدير كل صحيفة كبرى قسماً مخصّصاً للأزياء الإمبراطورية...
>
> دوكينز يتجاهل بغرور كل هذه التأمّلات الفلسفية العميقة ليتّهم بوقاحة الامبراطور بالعري...إلى أن يتدرّب دوكينز في محلات باريس وميلانو، إلى أن يتعلم أن يميِّز بين الكشكش والبنطال المنتفِخ، علينا جميعاً التظاهر بأنه لم يتحدث ضدَّ ذوق الامبراطور. قد يكون تدرّبه بعلم الأحياء قد أعطاه القدرة

على التعرّف على الأعضاء التناسلية المتدلّية عندما يراها، لكنه لم يعلّمه التقدير المناسب للأقمشة الخيالية".

لتوسيع هذه النقطة، معظمنا ينكر بسرور الجنيّات، والتنجيم، والوحش المعكروني الطائر قبل حتى أن نغوص في كتب اللاهوت الباستافاريا[1] الخ.

الانتقاد التالي هو انتقاد ذو علاقة بما سبق: الهجوم العظيم على "رجل القشّ".

أنتَ دائماً تهاجم أسوأ ما في الدين وتتجاهل الأفضل.

"أنتَ تلاحق مقتنصي الفرص، مهيِّجي الرعاع الفظّين، أمثال تيد هاغارد، وجيري فالويل، وبات روبرتسون، بدلاً من اللاهوتيين الرّاقين، أمثال تيليش، أو بونهوفر، الذين يدرِّسون هذا النوع من الدين الذي أؤمن به".

لو أن مثل هذا الدين الفصيح والدقيق فقط ساد، فإن العالم سوف يكون مكاناً أفضل بالتأكيد، وكنتُ سأكتب كتاباً مختلفاً. الحقيقة المحزنة هي أن هذا النوع من الدين المصرّح عنه بطريقة جذّابة، واللائق والمعتدل، محدود الإنتشار. بالنسبة للغالبية العظمى من المؤمنين حول العالم، فإن الدين يشبه إلى حدٍّ كبير ما تسمعه من أمثال روبرتسون، أو فالويل، أو هاغارد، أو أسامة بن لادن، أو آية الله الخميني. هؤلاء ليسوا "رجال قشٍّ"، إنهم جميعاً مؤثِّرون جداً، وعلى كل شخص في العالم أن يتعامل معهم.

أنا ملحد، لكن أرغب أن أنفصل عن لغتِكَ الصاخبة، الحادَّة، المتطرِّفة، غير المتسامحة، والغاضبة.

في الواقع، إذا نظرتَ إلى لغة "وهم الإله"، فهي أقلّ صخباً أو تطرّفاً من الذي تعوّدنا عليه بانتظام عند الاستماع للمعلّقين السياسيين على سبيل المثال، أو نقّاد الفنون، أو المسارح، أو الكتب. فيما يلي بعض انتقادات الصحف اللندنية الرائدة لمطعم جديد:

[1] . الباستفاريا هي حركة اجتماعية تروّج لنظرة ساخرة للدين، وهي تعارض تعليم "نظرية التصميم الذكي" في المدارس.

"إنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً، تخيّل أي شخص يستحضر مطعماً، حتى في نومه، حيث الطعام بهذا السوء فيكاد يكون غير صالح للأكل".

"مع أخذ كل شيء في الاعتبار، إنه تماماً أسوأ مطعم في لندن، وربما في العالم... يقدم طعاماً مروِّعاً، على مضض، في غرفة تُعَدُّ متحفاً لذوق النوادل الإيطاليين من حوالي عام 1976".

"أسوأ وجبة أكلتها على الإطلاق. ليس بهامش صغير، بل أقصد الأسوأ! الأكثر فظاعة وبشكل غير مريح".

"ما بدا أنه يشبه منجم البحر في شكله المُصغّر، كان أكثر شيء مثيراً للإشمئزاز وضعتُه في فمي منذ أن أكلتُ ديدان الأرض في المدرسة".

الاسلوب الاكثر حدةُ والذي يمكن العثور عليه في "وهم الإله" فهو مهذب وموزون بالمقارنة. إذا بدا الاسلوب متطرَفاً، فذلك فقط بسبب الاتفاق الغريب المقبول في كل العالم تقريباً (أنظر الاقتباس من دوغلاس آدامز في صفحات 3-42)، وهي أن الإيمان الديني يتمتع بأمتياز فريد، يجعله فوق النقد. إن إهانة مطعم قد تبدو أمراً تافهاً مقارنةً بإهانة الإله. ولكن أصحاب المطاعم والطُّهاة موجودون حقاً ولديهم مشاعر تتأذى، في حين أن إزدراء الأديان، كما يقول الملصَق البارع، هو جريمة بلا ضحية.

في عام 1915، أوصى عضو البرلمان البريطاني، هوراشيو بوتوملي، بعد الحرب "إذا كان عليك أن تكتشف يوماً ما أنك في مطعم يقدِّم لك الخدمة فيه نادل ألماني، فسترمي الحساء في وجهه الكريه؛ إذا وجدت نفسك جالساً إلى جانب موظف ألماني، فسوف تسكب الحبر على رأسه الكريه". هذا ما يمكن أن نسميه خطاباً فظّاً وغير متسامح (وكان عليّ أن أفكر أنه سخيف وغير فعَّال من الناحية الخطابية حتى في زمانه).

قارن بينه وبين جملة الافتتاحية للفصل الثاني، والتي تُقْتَبَس في الغالب كمثال لعبارة "حادة" أو "شديدة". لست أنا من يقول إذا ما نجحتُ، لكن قصدي كان أقرب إلى هجوم بلاغي مُركَّز، متين وفكاهي، منه إلى هجوم عدائي وشديد. في القراءات العامة لـ "وهم الإله"، هذا هو المقطع الوحيد الذي يتضمن ضحكة طبيعية. ولهذا نستخدمه أنا وزوجتي دوماً كوسيلة لكسر الجليد مع جمهور جديد. إذا كان بإمكاني المغامرة لاقتراح سبب فعالية الدعابة، فأعتقد أنه بسبب التعارض غير المتناسب بين موضوع كان من الممكن التعبير عنه بشكل صارخ ومبتذل، وبين التعبير الفعلي في قائمة مطوّلة من كلمات لاتينية، أو علمية زائفة ("قاتل

الأبناء"، "مُصاب بجنون العظمة"، "مُسبِّب للوباء"). كان نموذجي هنا واحداً من أطرف كُتَّاب في القرن العشرين، ولم يكن بمقدور أحد أن يسمي إيفلين ووه بِـ "الشديد" أو "الحادّ"، (حتى أني كشفت اللعبة بذكري اسمه في القصة التي تتبع مباشرة في صفحة 51).

يمكن أن يكون نقَّاد الكتب أو المسرح سلبيين بشكل ساخر ومع ذلك يحصلون على ثناء مبهج لحذق الفكاهة في مراجعاتهم. لكن في نقد الدين، حتى الوضوح يتوقف عن كونه فضيلة، ويبدو كأنه خصومة عدوانية. قد يهاجم أحد السياسيين الخصم بشدة في جميع أرجاء مجلس النوّاب، ويكسب الثناء على مشاكسته القوية. لكن، عندما يستخدم ناقد منطقي ومعتدل للدين ما يبدو في سياقات أخرى مجرد لغة مباشرة وصريحة، فإنَّ كلامه سيوصَف على أنه "تبجح". وهنا سوف يزمّ المجتمع المهذب شفاهه ويهزّ رأسه: حتي المجتمع العلماني المهذب، وخاصة ذلك الجزء منه الذي يحب أن يعلن، "أنا ملحد، ولكن...".

كأنك تعزف على الفرقة الموسيقية، ما الغاية من ذلك؟[1]

"ركن المتحوِّلين عن دينهم"على RichardDawkins.net يبيِّن عدم صحة هذا الافتراض، لكن حتى مع أخذه على ما هو عليه، فإن هناك إجابات جيدة. أحدها أن الفرقة الغير المؤمنة أكبر بكثير مما يعتقد الكثيرون، خاصة في أميركا، لكن، مرة أخرى، خاصة في أمريكا، إنها إلى حدٍّ كبير فرقة غير معلنة عن نفسها، وهي في أمسِّ الحاجة للتشجيع على الظهور علناً. إستناداً إلى الشكر الذي تلقَّيتُه في جميع أنحاء أمريكا الشمالية في جولة كتابي، فإن التشجيع الذي يمكن أن يقدِّمه أشخاص، مثل سام هاريس ودانيال دينيت وكريستوفر هيتشنز وأنا، هو موضع تقدير كبير.

سببٌ آخر أكثر دقة لوعظ الفرقة، هو الحاجة إلى رفع الوعي. عندما رفعت الحركة النسوية وعينا حول تحيّز الضمائر اللغوية ضدَّ النساء، كنَّ يعظنَ الجوقة حيث القضايا الأكثر جوهرية لحقوق النساء وشرور التمييز ضدهنَّ كانت موضع اهتمام. لكن تلك الفرقة الليبرالية المُعتدَّ بها لا تزال محتاجة لرفع وعيها فيما يخص اللغة اليومية. مهما كنا على حق بالنسبة للقضايا السياسية حول الحقوق والتمييز، فإننا ما زلنا، دون وعي منَّا، نقبل صفقات لغوية جعلت نصف الجنس البشري يشعر أنه مستَبْعَدٌ.

---

[1] الناقد هنا يلوم ريتشارد دوكنز وكأنهُ يخاطب الملحدين مسبقاً فقط. (المترجم)

هناك صفقات لغوية أخرى يجب أن تسير بنفس طريقة ضمائر الجنس، والفرقة الملحدة ليست معفيّة منها. نحن جميعاً بحاجة إلى رفع وعينا. الملحدون، كما الألوهيون، يتماشون بشكل لاواعي مع اتفاق المجتمع المسبق على أنه يجب علينا أن نكون مهذَّبين ومحترِمين بشكل خاص مع الإيمان. وأنا لا أتعب أبداً من لفت الانتباه إلى قبول المجتمع الضمني بوسْم الأطفال الصغار بآراء أهلهم الدينية. يحتاج الملحدون لرفع وعيهم الخاص بهذه الحالة الشاذة. الرأي الديني هو أحد أنواع آراء الأهل التي ـ وبموافقة العالم كله تقريباً ـ يمكن ترسيخها لدى الأطفال الذين هم في الحقيقة أصغر بكثير من أن يعرفوا ما هو رأيهم في هذا الموضوع حقاً. ليس هناك شيء اسمه طفل مسيحي: فقط طفل لوالدين مسيحيين. إغتنِم كل فرصة لتؤكد على هذا.

أنتَ شخص متطرف بقدر تطرّف مَنْ تنتقدهم.

لا، من فضلكَ، من السهل جداً الوقوع بخطأ رؤية الشغفُ والذي يمكن أن يغيَر رأيه على أنهُ تعصّباً لا يتغيّر أبداً. يعارض المتعصِّبون المسيحيون بحماسٍ التطوّرَ، وأنا أؤيِّده بحماس. نحن متطابقون بالشغف والحماس وهذا، حسب البعض، يعني أننا متعصِّبون بنفس القَدَر. لكن، لاستعارة قول مأثور، لا أستطيع تحديد مصدره، عندما يتمّ التعبير بنفس القوة عن وجهتي نظر متعارضتين، فإن الحقيقة لا تكمن بالضرورة في منتصف الطريق بينهما. من الممكن أن يكون أحد الطرفين ببساطة على خطأ، وذلك يبرِر العاطفة على الجانب الآخر.

المتعصِّبون يعرفون ما يؤمنون به، وهم يعلمون أن لا شيء سيغيَّر رأيهم. الاقتباس من كورت وايز في الفصل الثامن يبيَن ذلك بوضوح: " إذا كانت كل الأدلة في الكون ضدَّ الخلقية[1]، فسوف أكون أول من يعترف بتلك الأدلة، لكنني سأظل خَلْقِياً لأنَّ هذا ما تشير إليه كلمة الرب. هنا يجب أن أقف". من المستحيل المبالغة في التأكيد على الفرق بين هذا الالتزام الشغوف بالأساسات التوراتية والإلتزام الشغوف للعالِم الحقيقي بالأدلة.

يعلن المتعصب كورت وايز أن جميع الأدلة في الكون لن تغيِّر رأيه. العالِم الحقيقي، بصرف النظر عن "إيمانه" الشغوف بالتطوّر، يعرف بالضبط ما سوف يتطلَّبه الأمر لتغيير رأيه: الدليل. كما قال جي.بي.أس.هالدين عندما سُئل عن الأدلة التي قد تتناقض مع التطوّر: "أحفوريات لأرانب من عصر ما قبل الكمبري". دعني أضع روايتي المقابلة لبيان كورت وايز:

[1] الخلقية وهي المدرسة الفكرية التي تقول بأن الإنسان والكائنات الحية الاخرى مخلوقة كما هي ولم تتطور. (المترجم)

"إذا تحوّلت كل الأدلة في الكون لصالح الخلقية، فسوف أكون أول من يعترف بذلك، وسأغيَر رأيي على الفور". لكن، في ظل الوضع الراهن، فإن كل الأدلة المتاحة (وهناك قدر كبير منها) تؤيِد التطوّر. إنه لهذا السبب، ولهذا السبب وحده، أنا أجادل من أجل التطور بعاطفة تضاهي شغف من يجادل ضدَّها. شغفي يستند على الدليل. شغفهم، المتناقض معه، هو تعصّب بحقّ.

أنا نفسي ملحد، لكن الدين موجود ليبقى. تعايَش معه.

"أنتَ تريد أن تتخلَّص من الدين؟ بالتوفيق! تعتقد أنكَ تستطيع التخلُّص من الدين؟ على أي كوكب تعيش؟ الدين هو من الثوابت. دعْكَ منه.

يمكن أن أتحمّل أيّاً من هؤلاء المحبطين للعزيمة إذا كانوا ينطقون بشيء يقترب من نبرة الأسف أو القلق. العكس تماماً. نبرة الصوت تكون أحياناً طروبةً بكل ما في الكلمة من معنى. لا أعتقد أنها مازوخية. يمكن أن نضعها، على الأرجح، في خانة "الإيمان بالإيمان" مرة أخرى. قد لا يكون هؤلاء الأشخاص أنفسهم متدينين، لكنهم يحبون فكرة أن الآخرين متديِنون. هذا يقودني إلى الفئة الأخيرة من المعترِضين.

أنا نفسي ملحد، لكنّ الناس يحتاجون الدين.

"ما الذي ستضعه مكانه؟ كيف ستريح المكْومين؟ كيف ستسدُّ الحاجة؟

ما هذه الفوقية الرَعائية! " أنتَ وأنا بالطبع أكثر ذكاءَ وأكثر تعلُّماً من أن نحتاج للدين، لكن الناس العاديين، الجماهير العامة، الطبقة العاملة الأوريولية[1]، شبه المغفلين الهاكسليين[2]، يحتاجون الدين. لقد ذُكِّرت بمناسبة حيث كنتُ أحاضر بمؤتمر حول فهم العامة للعلوم، وندَّدتُ بموضوع "التبسيط". في جلسة الأسئلة والأجوبة في نهاية المحاضرة، وقف أحد أعضاء الجمهور واقترح أن "التبسيط" ربما يكون ضرورياً "لجلب الأقليات والنساء إلى العلم". نبرة صوته أنبأت أنه اعتقد حقاً بأنه كان ليبرالياً وتقدُّمياً. أستطيع أن أتخيّل فقط ما الذي فكرت به النساء و"الأقليات" في الجمهور.

---

[1] نسبة إلى الكاتب الإنكليزي جورج أورويل. (المحرَر)
[2] نسبة إلى الكاتب الإنكليزي آلدوس هاكسلي. (المحرَر)

بالعودة إلى الحاجة الإنسانية للراحة، إنها بالطبع حقيقية، ولكن أليس هناك شيء طفولي في الاعتقاد بأن الكون مدين لنا بالراحة وكأن هذا حقٌّ لنا عليه؟

ملاحظة إسحاق أسيموف عن الطفولية في العلوم الزائفة تنطبق بنفس القدر على الدين: "تفقَّد كل قطعة من العلوم الزائفة وسوف تجد غطاءَ لإعطاء الشعور بالأمان وإبهاماً ليَمَصّ وتنورة لتُمْسَك". أكثر من ذلك، إنه لأمر مدهش كم الناس غير قادرين على فهم أنَّ "س مريح" لا يعني أن "س صحيح".

شكوى ذات صلة بالحجة السابقة تُرجِع الأمر إلى الحاجة لهدف في الحياة. على حدٍّ تعبير أحد النقَّاد الكنديين:

> " قد يكون الملحدون محقّين حول الله. من يدري؟ لكن مع أو بدون الله، من الواضح أن شيئاً ما في النفس البشرية يحتاج اعتقاداً بأن الحياة لها غاية تتجاوز بعدها المادي. قد يظن المرء أن عالماً تجريبياً يتبجّح بعقلانيته مثل دوكينز سيتعرّف على هذا الجانب الساكن من الطبيعة البشرية... هل يعتقد دوكينز حقاً أن هذا العالَم سيكون مكاناً أكثر إنسانيةً إذا لجأنا جميعاً إلى "وهم الإله" بدلاً من الإنجيل من أجل الحقيقة والراحة؟".

في الواقع، نعم، بما أنك ذكرتَ "إنسانية"، نعم أنا أعتقد ذلك، لكن يجب عليّ أن أكرَر مرة أخرى أن كمية المواساة التي يوفرها المعتقد لا يرفع من قيمة الحقيقة فيه. بالطبع، لا يمكنني إنكار الحاجة إلى الراحة العاطفية ولا يمكنني الإدِّعاء بأن وجهة النظر التي يتبناها هذا الكتاب تقدم مواساة أكثر من عادية للمكْلومين مثلاً. لكن، إذا كانت المواساة التي يقدمها الدين مبنية على فرضية غير قابلة للتصديق بنسبة عالية وفقاً لعلم الاعصاب، وهي أننا نعيش بعد موت أدمغتنا، هل حقاً تريد الدفاع عن هذا؟ بأي حال، لا أعتقد أني قابلتُ أي شخص على الإطلاق في جنازة يعارض وجهة النظر التي ترى أن الأجزاء غير الدينية (كالتأبين، قصائد المتوفى المفضَّلة، موسيقاه المفضلة) هي أكثر تأثيراً من الصلوات.

بعد قراءة "وهم الإله"، كتب لي الدكتور دايفيد أشتون، وهو إستشاري بريطاني، عن الوفاة غير المتوقَّعة في عيد الميلاد عام 2006 لإبنه الحبيب البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، لوك. قبل وقت قصير من وفاة لوك، تحدث الإثنان بتقدير عن المؤسسة الخيرية التي أؤسّسها لتشجيع المنطق والعلم. في جنازة لوك على جزيرة مان، إقترح والده على المجتمعين أنه إذا كان أحد يرغب في تقديم أي نوع من العزاء المالي لذكرى لوك، أن يرسلها إلى مؤسّستي، كما كان لوك يتمنى. بلغت الشيكات المستَلَمة أكثر من 2000 جنيهاً استرلينياً، من ضمنها 600

جنيهاً استرلينياً من جولة سريعة في حانة قرية محلية. من الواضح أن هذا الفتى كان محبوباً جداً. عندما قرأتُ برنامج حفل التأبين بكيتُ بكل ما للكلمة من معنى (مع أنني لم ألتقِ أبداً بلوك)، وطلبتُ إذناً لإعادة إنتاج الحفل على صفحتي RichardDawkins.net. لعب عازفُ مِزْمارٍ وحيد رثاء مانكس لـ"ألِنْ فالِن Ellen Vallin". تحدث إثنان من الأصدقاء بكلمات تأبين، قام الدكتور أشتون نفسه بتلاوة قصيدة ديلان توماس الجميلة "تلَّة السّرْخَس Fern Hill "، ("الآن وكما كنتُ شاباً وخاليَ البال تحت غصن التفاح"ـ مفعمة بالحيوية عن الشباب الضائع). ومن ثم، ألتقطُ أنفاسي لأعلن، لقد قرأ سطور إفتتاحية كتابي "تفكيك قوس قزح" وهي السطور التي خصّصتُها منذ زمن طويل لجنازتي.

من الواضح أن هناك إستثناءات، لكنني أظن أن السبب الرئيسي في التشبّث بالدين بالنسبة للكثير من الناس ليس أنه يعزيهم، بل لقد خُذلوا من قِبَل نظامنا التعليمي، ولم يلحظوا حتى أن عدم الإيمان هو خيار. هذا صحيح بالتأكيد بالنسبة لمعظم الناس الذين يعتقدون أنهم خلقيون. إنهم ببساطة لم يتعلموا بشكل ملائم بديلَ داروين المذهل. ربما ينطبق الشيء نفسه على الأسطورة المقلِّلة من شأن الناس والتي تقول بأن الناس "يحتاجون" الدين. في مؤتمر عُقد عام 2006، نقل عالم أنثروبولوجيا إقتباساً عن غولدا مائير عندما سُئلَت عمّا إذا كانت تؤمن بالله: "أنا أؤمن بالشعب اليهودي، والشعب اليهودي يؤمن بالله". عالم الأنثروبولوجيا استبدل العبارة بنسخته الخاصة: "أنا أؤمن بالناس، والناس يؤمنون بالله". أنا أفضل أن أقول إنني أؤمن بالناس، والناس عندما يُمْنَحون التشجيع الصحيح ليفكروا لأنفسهم في جميع المعلومات المتاحة الآن، فإنَّ ما سيحدث في أكثر الأحيان، أنهم لن يؤمنوا بالله، وسيعيشون حياة مكتفية وراضية، بل وحرّة بالفعل.

في هذه النسخة الورقية الجديدة، انتهزتُ الفرصة لإدخال بعض التحسينات الطفيفة، ولتصحيح بعض الأخطاء الصغيرة التي لفت انتباهي لها بلطف قُرّاء النسخة ذات الغلاف المُقَوّى.

مُقدِّمة الكاتب

عندما كانت زوجتي طفلة صغيرة، كرهت المدرسة وتمنَّت لو أنها تستطيع تركها. بعدها بأعوام كثيرة، وعندما كانت في العشرينيات، صارحت أهلها بتلك الحقيقة غير السارة، أمّها كانت مذهولة: "ولكن، يا ابنتي العزيزة... لماذا لم تقولي لنا ذلك وقتها؟" جواب "لالة" يومها هو عبارتي لهذا اليوم: "لكنني ما عرفتُ أنني أستطيع فعل ذلك".

ما عرفت أنني أستطيع فعل ذلك.

أعتقد، لا بل أعرف، أن هُناكَ العديدين من الذين تربوا على دينٍ ما هم ليسوا سعداء به، أو هم قلقون لما يُرتكب باسمه من شرور، أناس يشعرون بتَوّقٍ مُبهَمٍ لترك دين آبائهم ويتمنون لو استطاعوا لذلك سبيلاً، لكنهم لا يدركون أن ذلك هو خيار ممكن. إنْ كنتَ واحداً منهم، فهذا الكتاب من أجلك. كتاب قُصد منه زيادة مستوى الوعي، زيادة مستوى الوعي بحقيقة أن الإلحاد هو تطلّعٌ واقعي، وشجاع، ورائع. مِن الممكن أن تكون مُلحداً، وأن تكون في الوقت ذاته سعيداً، ومتوازناً، وأخلاقياً، ومثقَّفاً. هذه هي أولى رسائلي لزيادة مستوى الوَعي، وستأتي ثلاث رسائل أخرى لاحقاً.

في كانون الثاني 2006، قدّمت برنامجاً وثائقياً على التلفزيون البريطاني (القناة الرابعة) بعنوان "أصل كلّ الشر"، باديءَ ذي بَدْء، لم يعجبني العنوان، وعارضته بشدة. الدين ليس أصلاً لكُل الشرور، إذ أنه ليس هُناكَ من شيء معين بذاته هو أصلٌ لكل شيء آخر. لكنني سُررت بالإعلان الذي وضعته القناة الرابعة في الجريدة الوطنية، وهو عبارة عن صورة لأفق مدينة مانهاتن تحت عنوان "تخيّل عالماً بدون دين"، فما هو الرابط؟ بُرجَي مركز التجارة العالمي كانا ظاهرين بوضوحٍ في الصورة.

تخيل مع جون لينون[1] عالَماً بدون دين، عالماً بدون انتحاريين أو تفجيرات 11 أيلول 2001، بلا تفجيرات لندن 7 تموز 2005، أو حملات صليبية، بدون تقسيم للهند أو حرب فلسطينية إسرائيلية وبدون مذابح الصّرب والكروات للمسلمين وبدون اضطهاد لليهود كونهم "قتلة المسيح" أو مشاكل طائفية في أيرلندا الشمالية. بدون "جرائم الشرف" أو مبشِّرين إنجيليين بهندامٍ لامع على التلفزيون الأمريكي يأخذون أموال السّذَّج مردِّدين:"الرب يريدك أن تعطي إلى أن يُصبح الأمر مؤلماً". تخيّل أنه ليس هناك طالبان ليفجروا تماثيل بوذا الأثرية ولا قطع لرؤوس الكفار بشكلٍ علني ولا سياط على جسم المرأة لأنَّ أحداً لمح من جلدها سنتمتراً. أخبَرني صديق اسمه "ديزموند موريس"، بأن أغنية جون لينون العظيمة (تخيّل) تُغَنّى،

---

1. جون وينتسون أونو لينون JOHN WINSTON ONO LENNON مغنٍ وشاعر وعازف غيتار لفرقة البيتلز له اغنية مشهورة تحمل اسم تخيّل IMAGINE (المترجم)

بعض الأحيان، في أمريكا مع تحوير أو حذف لعبارة "وبدون دين أيضاً"، لا بل إنهم في بعض الأحيان يبدِّلونها بوقاحة بعبارة "ودين واحد أيضاً".

ربما تفكر هنا بأنّ اللاأدرية هي الموقف المعقول وأنّ الإلحاد هو توجه عقائدي تماماً كالتوجه الديني؟ في هذه الحالة، أنا أعتقد أن الفصل الثاني من هذا الكتاب سيغير رأيك وذلك بإقناعك بأنَّ "فرضية الإله" هي عبارَة عن فرضية علمية عن الكون ويجب تحليلها ودراستها بصورة نقدية كأيٍ فرضية أخرى. ربما تعلَّمتَ أن الفلاسفة وعُلماء الدين قدَّموا أسباباً جيدة للإيمان بوجود الله. إنْ كنت تفكر كذلك، فأعتقد أنك ستستمتع بقراءة الفصل الثالث "براهين على وجود الله"، وفيه يظهر الضعف المُدهش لهذه البراهين. ربما تعتقد بأن وجود الله هو من البديهيات الواضحة، وإلاَّ فكيف وُجِدَ الكون؟ وكيف يمكننا تفسير الحياة وتنوعها الغني حيث يبدو كل كائن حي كما لو كان"مُصمّماً"؟ إنْ كانت أفكارك تميل لما ذُكر في السطور أعلاه، فأتمنى أن تنال بعض التنوير من الفصل الرابع "لماذا الإحتمال الأكبر هو عدم وجود الله". بعيداً عن فكرة وُجوب المُصمِّم، فإنَّ وَهْمَ التصميم في الكائنات الحية يمكن تفسيره بطريقة أكثر عقلانية ومنطقية بناء على نظرية الإنتخاب الطبيعي لتشارلز داروين. وبينما تنحصر نظرية الإنتخاب الطبيعي في تفسير العالم الحي، فهي تعمل كـ"الرّافعات" في رفع مستوى وعينا، والتي قد تساعدنا في فهمنا للكون نفسه. إنَّ قوة "الرّافعات"، كنظرية الإنتخاب الطبيعي، هي ثاني رسالة من رسائلي الأربعة لرفع مستوى الوعي.

ربما تعتقد بأن وجود إله، أو آلهة، هو من الضرورات لأنَّ المؤرخين أخبرونا بأن المؤمنين كانوا العامل الأكبر في نشوء وارتقاء كُل الحضارات الإنسانية. إنْ وجدتَ هذه الفكرة مُقنعة، فأرجو أن تقرأ الفصل الخامس عن "جذور الدين"، والذي يشرح سبب انتشار الإيمان في كُل مكان. هل أنتَ ممن يعتقدون بأن وجود الدين ضروري لتقويم الإنسان وإيجاد أُسس أخلاقية حصينة لهُ؟ ألا نحتاج الله كي نكون صالحين؟ رجاء، إقرأ الفصلين السادس والسابع لترى لماذا أنّ الأمر ليس كذلك. هل لا زلتَ تفكر بأن وجود الدين هو شيء جيد في الحياة مع أنك أنت نفسك فقدتَ الإيمان؟ الفصل الثامن سيدعوك للتفكير بحالاتِ وُجودُ الدين فيها ليس أمراً جيداً للعالَم.

إذا كنت تشعر بأنكَ عالق في الدين الذي وُلدتَ عليه، فمن المُجدِي أن تسأل نفسك كيف حدث ذلك؟ الجواب عادة هو بعض أشكال التلقين في مراحل الطفولة. إنْ كنت مُتديناً، فالإحتمال الأكبر أنك على نفس دين آبائك. إن كنت من إحدى الولايات الجنوبية في أمريكا (أرْكنْسا مثلاً)، وتفكر بأنَّ المسيحية هي الدين الحق، والإسلام ليس سوى كذبة كبرى، فاعلم يقيناً بأنَّك كنت فكرتَ العكس تماماً فيما لو كنت مولوداً في أفغانستان. لهذا، فأنت ضحية التلقين الديني من مرحلة الطفولة في كُلٍّ من أمريكا، أو أفغانستان.

علاقة الدين بالطفولة هو موضوعِ الفصل التاسع والذي يتضمن رسالتي الثالثة لزيادة مستوى الوعي. فتماماً كما يمتعض النّسويون استياءً عندما يسمعون ضمير "هو" عوضاً عن "هو أو هي"، أو "رجل" عوضاً عن "انسان"، أُريد من الجميع أن يجفلوا عند سماع كلماتِ مثل "طفلٌ كاثوليكي"، أو "طفلٌ مُسلم".

بالإمكان السماح بقول "طفلٌ لأبوين كاثوليكيّين"، لكن لو سمعنا أحداً يتكلم عن "طفل كاثوليكي" فلنوقفه، ونحاول بلباقة لفت انتباهه إلى أن الأطفال ما زالوا صغاراً ليتخذوا موقفاً من قضيةٍ كهذه، تماماً كما أنهم ما زالوا صغاراً ليتخذوا موقفاً من الأحداث الإقتصادية أو السياسية. ولأن موقفي هنا هو موقف إرشادي فلن أعتذر عن التكرار وذكر هذا الأمر مرة تلو الأخرى في الفصل التاسع. مهما حاولنا فلن نكرر هذا بما فيه الكفاية. وسأقولها مرة ثانية: ليس هُناكَ طفل مُسلم، بل هُناكَ طفلٌ لأبوين مُسلمَيّن. الطفل أصغر من أن يعرف ما إذا كان مسلماً أم لا. لا وجود لما يمكن تسميته بالطفل المسلم، وليس هُناكَ ما نسميه بالطفل المسيحي.

الفصل الأول والعاشر يستهلان ويختمان الكتاب بالشرح، وبطرق مختلفة، كيف أنّ فهماً لائقاً وصحيحاً لروعة العالم الحقيقي كما هو، وبدون أن يتحوّل ذلك إلى دين، يمكن أن يقوم بالدَّوْر الإلهاميَ الذي احتكره الدين بشكل غير لائق عبر التاريخ.

رسالتي الرابعة في رفع مستوى الوعي هي "فخر الملحد". أنْ تكون ملحداً ليس بالشيء الذي عليك أن تعتذر عنه. بل على العكس، هو شيء لتفتخر به. إنه الوقوف بشموخ والتطلع للأفق البعيد، إذْ إنَّ الإلحاد، يدلُّ غالباً على إستقلالية فكرية صحية وعلى عقل صحي بالفعل. هُناكَ العديدون ممن يعلمون بأعماقهم أنَّهم مُلحدون، لكنهم لا يجرؤون على الإعتراف لعائلاتهم، أو حتى لأنفسهم في بعض الحالات. سبب ذلك، ولو بشكَل جزئي، هو أنَّ كلمة "مُلحد" قد تمّ تحميلها الشيء الكثير كي تعني شيئاً قبيحاً ومخيفاً. الفصل التاسع يقتبس مشهداً من قصّة المَمثلة الكوميدية جوليا سويني[1] مع أهلها، بعد أن عرفوا عن طريق الجرائد أنَّ ابنتهم مُلحدة. لقد تقبّلوا على مضض عدم إيمانها بالله، ولكن أن تكون مُلحِدة! مُلحِدة؟ (هكذا علا صراخ الأمّ في المشهد).

أُريد أن أقول شيئاً للقرّاء الأمريكيين فيما يخصّ هذه النقطة. إنَّ ظاهرة التديّن في أمريكا ظاهرة تستحق الدراسة فعلاً. كانت المحامية ويندي كاميني تبالغ قليلاً في ملاحظتها عن أن السخرية من الدين في أمريكا هي بخطورة إحراق العلم الأمريكي وسط معسكر يعجّ بالجنود الأمريكان[1]. وَضْعُ المُلحدين في أمريكا الآن يشبه وَضْعَ المثليين فيها قبل حوالي 50 عاماً. والآن وبعد حركة الفخر بالمثلية[2] أصبح من الممكن، إلى حدٍّ ما، أن يُنتَخب مِثْليّ لمركزٍ حكومي مرموق. في استطلاعٍ للرّأي أُجري عام 1999 عن مدى استعداد الناخب الأميركي لانتخاب شخص ذات مواصفات جيدة لمنصب إداري، كانت النتائج كالتالي: 95% سينتخبون ذلك الشخص فيما لو كان امرأة و 94% فيما لو كان الشخص كاثوليكياً و 92% لو كان يهودياً و 79% فيما لو كان الشخص ينتمي للطائفة المورمونية[3] و 79% لو كان مثلياً و49% لو كان مُلحِداً.

---

1. كاتبة وممثلة ومقدِّمة عروض أمريكية. (المترجم)
2. حركة الفخر بالمثلية (GAY PRIDE) هي حركة تدعو المثليين للفخر بميولهم الجنسية لأنها شيء طبيعي وإلى عدم الخجل منها. (المترجم)
3. طائفة مسيحية أمريكية لا تعترف بالفاتيكان. (المترجم)

من الواضح أنّ الطريق أمامنا لازال طويلاً، لكن المُلحدين أكثر عدداً مما يتصوّر الكثيرون وخصوصاً بين النخبة المُثقَّفة. الحال كان كذلك حتى في القرن التاسع عشر عندما كان بمقدور جون ستيوارت أن يقول: "سيَصْدَمُ العالم لو عرف كم هي كبيرة نسبة المشكّكين في الدين بين الحاصلين على أعلى أوسمة شرف والأكثر تميّزاً في مُختلف المجالات، حتى في مجال الحكمة والفضيلة".

من المؤكد أن مقولتهُ أصبحت أدق في أيامنا هذه، وأنا بالفعل، أقدِّم دليلاً على ذلك في الفصل الثالث من الكتاب. إنَّ السبب الرئيسي لعدم ملاحظة الكثير من الناس للملحدين هو أننا نتردد في الظهور علناً، وأملي أن يساعد كتابي هذا الناس على الظهور. تماماً كما كان الحال مع حركة المثليين؛ فكلما ظهر عددٌ أكبر منهم، يصبح أسهل على الآخرين الإنضمام إليهم. ربما يوجد هُناكَ كتلة حرجة علينا تخطيها لبدء ظهور سلسلة من ردود الأفعال في نفس الإطار.

إستطلاعات الرأي الأمريكية تُظْهِر بأن عدد المُلحدين واللاأدريين في أمريكا أكثر بكثير من عدد اليهود المُتدينين، وحتى أكثر من العديد من المجموعات الدينية الأخرى. لكن على العكس من اليهود الأشهر في مجال الضغوط السياسية في أمريكا، وعلى العكس من المسيحيين الإنجيليين الذين تفوق قواعدهم السياسية تلك التي لدى اليهود، لا يوجد تنظيم للمُلحِدين واللاأدريين. وبالتالي، ليس لهم أي تأثير. في الواقع، إنَّ محاولة تنظيم مجموعة للملحدين يشبه محاولة رَعْيِ مجموعة من القطط، وهذا شيء مستحيل لأنهم معتادون على التفكير باستقلالية وعدم الإنصياع لأي نوع من السلطات. لكن بناء كتلة كافية من الّذين يرغبون بالإعلان عن إلحادهم هي خطوة أولى جيدة لتشجيع الآخرين على القيام بالمثل. بالرغم من أنَّ القطط لا يمكن قيادتها إلّا أنَّ أعداداً وافية منها يمكن أن تُحدِث ضجة كافية بحيث لا يمكن تجاهلها.

كلمة "وهم" في العنوان آرّقت بعض عُلماء الطب النفسي الَّذين يعتبرونها كلمة تقنية بحتة لا يجب استخدامها كيفما اقتضى. ثلاثة منهم اقترحوا في رسائلهم لي استعمال كلمة جديدة تماماً كـ "ديهم"[1]، وهي كلمة مشتقة من كلمتي دين ووهم للتعبير عن حالة الوهم الديني.[2] ربما أن كلمة كهذه سيكْتَب لها النجاح مستقبلاً، لكنني سأبقي على كلمة وهم في الوقت الحاضر، وأنا أحتاج لتبرير استعمالي لها.

يُعرِف قاموس "بنجوين" اللغوي كلمة وهم على أنها "إيمان أو انطباع خاطئ". وللمفاجأة، فإن الشرح المُصاحب للكلمة هو اقتباس من نصّ لفيليب جونسون "الداروينية هي قصة تحرير البشرية من الوهم القائل بأنَّ قوة أعلى منها تتحكَّم بمصيرها". هل من الممكن أن يكون هذا هو نفسهُ "فيليب جونسون" الذي قاد حملة المؤمنين بقصة الخلق الإلهي لمُقاضاة الداروينية في أمريكا؟ إنَّه بالفعل كذلك، والاقتباس، كما يمكن أن نتوقَّع، مجتزأ من سياق النصّ. آمَلُ أنْ يُلاحَظ تصريحي بهذه الحقيقة كما هي وعدم استخدامي لمقولته للإيحاء بغير ما يعتقد، إذ أنني لم أحصل على المعاملة نفسها من العديد من المؤمنين بقصة الخلق الإلهي في اقتباساتهم لأعمالي؛ لقد اجتزؤوا، بتَعَمَّدٍ، بعض الجمل من سياقها واستعملوها

1. اقتراحات كل من د. زو هوكنز و د. بيتا آدمز و د. باول سانت جون سميث في رسائل خاصة للمؤلف.

لتضليل الآخرين. بغضِّ النظر عن المعنى الذي قصدهُ جونسون، سأكون سعيداً بتبني العبارة كما هي حرفياً. يُعَرِف القاموس المرفق ببرنامج مايكروسوفت للكتابة كلمة الوهم بـ (إعتقاد خاطئ ومستمر بفكرة ما بعناد في وجه أدلة قوية معاكسة لها تنفيها، وبالأخصّ كعلامة لمرض نفسي). القسم الأول من التعريف ينطبق بدقة على حالة الإيمان الديني، أما بالنسبة لكونه علامة لمرض نفسي، فأنا أميل لعبارة روبرت بيرسيغ كاتب "الزِنّ وفن صيانة الدراجة النارية"[1] في قوله: "عندما يعاني شخص واحد من وَهْمٍ، يُسَمّى ذلك جنوناً. عندما يعاني العديد من الأشخاص من وَهْمٍ، يُدْعى ذلك ديناً".

إذا كان فِعْلُ هذا الكتاب كما أتصوره أنا، فإنَّ القارئ المُتديِّن الذي يفتحهُ سيختمهُ وقد أصبح مُلحداً. يال هذا التفاؤل المُتعجرف! من المؤكد أنّ المؤمنين غير العقلانيين عندهُم مناعة للبراهين. مقاومتهم بُنِيَت عبر سنين طويلة من التلقين المُستمر منذ الطفولة باستعمال طرق صُقلت عبر مئات السنين (سواء بالتطور أو بالتصميم الذكي). ومن أشد أجهزة المناعة نجاحاً هي التحذير الصارم لتجنُّب حتى فتح مثل هذا الكتاب لأنهُ بالتأكيد من عمل الشيطان. لكنني مؤمن بأن هُنالكَ العديد من العقول النيرة، عقول لم يتم إقفالها بالتلقين في عمر الطفولة، أو لأسباب أخرى لم تُصَبّ بالـ "عدوى"، أو أن ذكاءهم قويّ لدرجة جعلتهم يتغلبون على هذه العدوى. عقول نيرة كتلك يكفيها القليل من التشجيع كي تتحرر من كُلِّ رجال الدين وتعاليمهم. على أقل تقدير، آمل ألاّ يقول أحدهم بعد قراءة هذا الكتاب "ما عرفت أنني كنت أستطيع فعل ذلك".

ساعَدَني في التحضير لهذا الكتاب العديد من الأصدقاء، وأنا ممتنٌّ لهم. ليس بالمستطاع ذكرهم جميعاً، ولكن من ضمنهم وكيل أعمالي جون بروكمان، ومحرري مقالاتي سالي غامينارا (دار ترانسورلد للنشر) وآيمون دولان (دار هوغوتان ميفلين للنشر)، كلاهما قرأ الكتاب بتمعُّن وحساسية وألْمَعية شديدة، وأعطياني مزيجاً مُفيداً جداً من النقد والنصائح. إيمانهم العميق والمتحمس بهذا الكتاب أعطاني الكثير من الشجاعة. جيليان سومرسكايل كانت مثالاً للمدقِّق والمصحِح اللغوي؛ كانت بنّاءة باقتراحاتها، بقدر ما كانت دقيقة بتصحيحاتها. أنا مُمتنٌّ أيضاً لآخرين ممن ساهموا في تدقيق ونقد المُسَوّدات المختلفة. أشكر بعمق كُلّاً من جيري كوين جي، وأندرسون تومسون آر، وإليزابيت كورنويلل، وأورسوا غودنو، ولاثا مينون. وأخصّ الناقدة المثالية كارين آونز التي تعرفت بمرور الوقت على كل الأجزاء والمُسَوّدات المُختلفة، تماماً كمعرفتي بتلك التفاصيل.

يقوم هذا الكتاب جزئياً على البرنامج الوثائقي التلفزيوني "أساس كلّ الشرّ" (والعكس بالعكس)، والذي قدمته على قناة بي بي سي القناة الرابعة في كانون الثاني من عام 2006. أدين بالامتنان لكل من شارك في هذا البرنامج، ديبرا كيد، وراسل بارنز، وتيم كراغ، وآدم بريسكود، وآلان كليمنت، وهاميش مايكورا على سماحهم لي باستعمال جمل استخدمت في البرنامج. أشكر كذلك أي دبليو سي والقناة الرابعة. البرنامج حصل على تقدير مُمتاز في بريطانيا، وطلبته هيئة البث الأسترالية أيضاً. بقي أن نرى إن كانت أي قناة في

1. الزِنّ هي طائفة بوذية يابانية تفرّعت عن فرقة" تشان "البوذية الصينية. (المترجم)

التلفزيون الأمريكي ستجرؤ على بثّه. البرنامج موجود الآن على أقراص للبيع على العنوان www.richarddawkins.net/store.

فكرة هذا الكتاب وُلدت في رأسي ونمت لبضعة سنوات. خلال ذلك الوقت، بعض الأفكار الواردة فيه طرحتها في محاضرات -كما في محاضرتي في هارفارد- وبعضها طرحته في مقالات صحفية. الذي يقرأ مقالاتي في مجلة فري إنكويري[1] خاصة، قد يجد بأن بعض الجمل مألوفة. أنا ممتنّ لتوم فلينن محرر هذه الصحيفة الجديرة بالإعجاب، للتحفيز الذي قدمه لي بعرضه أنْ أكون كاتباً مستمراً لعمود في الجريدة. وآمل أن أعاود الكتابة بعد انقطاعي لفترة كنت أنهي فيها هذا الكتاب. سأستعمل عمودي، وبدون شك، لمجابهة ردود الأفعال الناتجة عن الكتاب والردّ عليها.

لأسباب مختلفة، أدين بالامتنان لكل من دان دينيت، ومارك هاوسر، وميشيل ستيرات، وسام هاريس، وهيلين فيشير، ومارغريت داوني، وابن ورّاق، وهيرميون لي، وجوليا سويني، ودان باركر، وجوزفين ولش، وإيان بيرد، وخصوصا جورج سكالز. في أيامنا هذه، لا يكتمل كتاب كهذا إلاّ إذا أصبح النواة لموقع حي على الإنترنت، ومنتدى مناظَرة ومناقشة لمَواد مُكملَة، ولردود أفعال ونقاشات، لأسئلة وأجوبة – من يدري ماذا يحمل المستقبل؟ آمل أن يقوم موقع ريتشارد دوكينز للعلم والمنطق بملء هذا الدور. وأنا ممتنّ بشدة لجوش تمونين، لعمله الفني والمحترف، وللجهد الذي يبذله لتحقيق ذلك. وإليكم العنوان.

http://www.RichardDawkins.net

قبل كُل شيء أتقدم بالشكر لزوجتي "لالة وارْد" التي كانت عامل إقناعي الأكبر خلال كلِّ حالات تردُّدي وشكوكي، ليس فقط بالدعم المعنوي والاقتراحات المفيدة، بل أيضاً بقراءة الكتاب بصوت عالٍ على مسمعي في مرحلتين مختلفتين من تأليفه، والذي ساعدني لأفهم وقعه على القرّاء الآخرين. أنصح كلَّ الكُتّاب بهذه التقنية، ولكن عليّ أن أحذِّر أنه للحصول على أفضل النتائج، يجب على الذي يقوم بالقراءة بصوتٍ عالٍ أن يكون مُمثّلاً محترفاً وصاحب أذُن موسيقية مجهَّزة لاستيعاب موسيقى اللغة.

---

1. (free inquiry) ، مجلة دورية HTTP://WWW.SECULARHUMANISM.ORG (المترجم)

الفصل الأول

متدينٌ بعمق غير مؤمن

أنا لا أحاول تخيّل إله شخصي؛ يكفي الوقوف بدهشة أمام بنية الكون والإنبهار به على قدر ما تسمح به حواسنا القاصرة.

آلبرت آينشتاين

احترِامٌ مُسْتَحَقّ

الطفل الصغير مُنْبَطِحٌ على العشبِ وذقنه بين راحتي يديه. فجأة يجد نفسهُ مُمتلئاً بالدَّهشة لإحساسه العميق بالجذور المَتشابكة. غابة من الأحياء الدقيقة، عالم آخر مكّون من النمل والخنافس - وبالرغم من عدم معرفته بالتفاصيل وقتها - فهناك مليارات من البكتريا المجهرية في التربة تعمل بصمت مع بعضها البعض لبناء ذاك العالَم المجهري. فجأة يتضخّم العالَم المجهري للأعشاب ويتوحّد مع الكون كلّه، فيسرح الطفل بأفكارهِ بعيداً في ذلك الكون. لقد فَسرَ الطفلُ هذه التجربة بمصطلحات دينية قادتهُ آخر المطاف ليكون رجل دين. لقد تمّ تنصيبهِ قسيساً في الكنسية الإنجيلية، وأصبح قَسَيسَ مدرستنا. أعجبتُ به كثيراً. فبفضل رجال دين كرماء ومتحررين كهذا الرجل لا أحد يسطتيع الإدِّعاء أبداً أنني أُرْغِمتُ على أن أكون مُتديِّناً[1].

كان من الممكن، في زمان ومكان آخر، أن أكون أنا ذلك الطفل الذي ينظر للنجوم ويُعجب ببرج الجوزاء وسلسلة ذات الكرسي النجمية أو الدب الكبير، وتدمع عيناه من الموسيقى الكونية غير المسموعة لمجرة درب التبانة، مدفوعاً بالرائحة العطرة لأزهار الحدائق الأفريقية. لماذا تدفعني نفس المشاعر باتِّجاه آخر غير الاتِّجاه الذي دفعت به قسيس مدرستي؟ ليس سهلاً الإجابة عن مثل هذا السؤال. شائعة جداً ردود الأفعال النفسية الغامضة نحو الكون بين العُلماء والمفكّرين. ليس لها أيّ علاقة بالإيمان الغيبي. لم يعرف القسيس في صباه (ولا أنا ايضاً) تلك الأسطر الأخيرة والشاعرية جداً في كتاب "أصل الأنواع"، المقطع الشهير والمُلقَّب بـ (البنك المتشابك)، وفيه يقول داروين: "مع الطيور تشدو في الغابات ومع رفرفة أجنحة الحشرات فوقها والدود الذي يسرح زاحفاً تحتها في أرضه الرطبة... الخ". لو عرفَ بهذه الأسطر وقتها، لشعر بأنها تتطابق تماماً مع ما كان يفكر به. وبدلاً من أن يتوجه لخدمة الكنيسة، لربما اهتدى لوجهة نظر داروين حول أنَّ كُل شيء هو "خلاصة للقوانين التي تعمل من حولنا". يكمل داروين:

> "هكذا، من قلب صراعات الطبيعة والمجاعات والموت تظهر لنا أكثر الأشياء غرابة ورفعة ممكن أن نتخيلها، ألا وهي الحيوانات الرّاقية. هنالك الكثير من العظمة في هذه الرّؤيا للحياة، فهي بقدراتها المختلفة تمظهرت ببعض الأشكال، أو بشكلٍ واحد. وبينما هذا الكوكب مستمرٌ بالدوران في مساره وفق قوانين الجاذبية الثابتة، تطوَّرت، من بداياتٍ بسيطة، أعداد لا منتهية من الأشكال الرائعة التي ما زالت تتطوّر".

1. في دروس الدين تمتعنا باستدراجه خارج الموضوع كي يحكي لنا قصص مثيرة عن حكايا الطائرات الحربية والطيارين في الحرب العالمية الثانية. كان قد أنهى خدمته حديثاً في سلاح الجو الملكي وكان يتحدث والابتسامة تعلو وجهه. وربما لهذا السبب أشعر ببعض المودة للكنيسة الإنجيلية مقارنة بمنافساتها.

كتب كارل ساغان في كتابه "النقطة الزرقاء الباهتة":

"كيف لم يحصل قط أنْ نَظَرَ دينٌ ما الى العلْم واستنتج: "ذلك أفضل مما كنا نعتقد! الكون أكبرَ وأعظمُ وأدقّ وأشد أناقة بكثير مما أخبرنا عنه أنبياؤنا"؟ بدلاً عن ذلك يقولون: "لا، لا، لا! إلهي هو إله صغير وأريدُ له أن يبقى كذلك". لو أنَّ ديناً ما، قديماً أو حديثاً، قد أكَّد بشدة على عظمة الكون كما كشفهُ لنا العلم الحديث، لكان قادراً على حصد قدر كبير من الاحترام والإعجاب يصعب أن يحصل عليه الإيمان التقليدي".

كل كُتب كارل ساغان تلامس الأعماق ومثيرةً لذلك الإحساسِ بالهيام بروعة الكون الذي كان حِكراً على الدين في القرون الماضية. كتبي كذلك تطمح للشيء نفسه. بناءً على ذلك، يتم غالباً وصفي بالمتديِّن. كتبتْ لي إحدى الطالبات الأمريكيات تسأل أستاذاً لها في الجامعة عن رأيه بي، فأجابها: "من المؤكد أنّ علمهُ لا يتطابق مع الدين، لكنه مشمّع بنشوة عارمة عن الطبيعة والكون. وهذا تديّن بالنسبة لي". لكن هل الدين هو الكلمة المناسبة؟ لا أعتقد ذلك. هذه النقطة تكلم عنها حامل جائزة نوبل للفيزياء (المُلحد) ستيفن واينبرغ في كتابه "الحلم بالنظرية النهائية"، يقول واينبرغ:

"يحمل البعض رؤى عريضة ومرنة جداً عن الإله، بحيث أنهم سيجدون الإله أينما بحثوا. نسمع أقوالاً مثل "الإله هو المطلق"، أو "الإله هو طبيعتنا المثلى"، أو "الإله هو الكون". يمكننا، بدون أدنى شك، أن نعطي كلمة الإله أي معنى نريده، تماماً مثل أي كلمة أخرى. إذا أردتَ أن تقول أنَّ "الإله هو طاقة"، إذاً يمكنك أن تجد الإله في قطعة فحم".

واينبرغ بالتأكيد على حق، فكي لا تكون كلمة "الله" عديمة المعنى وبدون فائدة، علينا أن نضع لها تعريفاً عاماً يفهمهُ الجميع: "الله" كلمة تدلّ على خالق فوق الطبيعة وغيبي وجدير بأن نتوجه له بالعبادة.

الكثير من اللّغط والحيرة سببها الفشل في التمييز بين ما نسميه الدين الآينشتايني والدين فوق الطبيعي، الغيبي. استعمال آينشتاين لكلمة الله (وهو ليس المُلحد الوحيد الذي فعل ذلك) كان، ولايزال، سبباً لسوء الفهم من قبل العديد من الغيبيين المُتدينين والمتلهفين لسوء الفهم وللادعاء بانتماء ذلك العالم اللأمع لهم. كذلك النهاية الدرامية (ربما كانت مؤذية أيضاً؟) لكتاب ستيفن هوكينغ "تأريخ موجز للزمانَ" والتي يقول فيها: "حينها سنعرف كيف يفكر الله" عبارة يُساء فهمها بشكل مقصود. وسبب ذلك، الاعتقاد (الخاطئ طبعاً) عند البعض بأن هوكينغ رجل مُتدين. عالمة علم الاحياء الخلوية أُرسولا غودنوف، في كتابها "المقدسات في أعماق الطبيعة"، تبدو أكثر تديّناً من هوكينغ أو آينشتاين. إنها تحِب الكنائس والمساجد والمعابد، وبعض العبارات في كتبها تبدو وكأنها تتوسّل كي تُجْتَزأ من المحتوى العام لها وتُسْتَخْدَم كذخيرة لصالح الأديان الغيبية. إنها تذهب أبعد من ذلك حيث تدعو نفسها "مُتديّنة بالطبيعية". غير أنّ قراءة دقيقة لكتبها تكشف بأنها في الحقيقة مُلحِدة بشدة، مثلي تماماً.

تحمل كلمة "طبيعي" الكثير من الغموض. وبالنسبة لي فإنها تستدعي بطل طفولتي، دكتور دوليتل للكاتب هوغو لوفتينغ (والذي بالمناسبة كان لديه كثير من فلسفة عالم الطبيعة الذي كان على متن باخرة HMS Beagle, داروين). كان مصطلح " طبيعي" في القرن الثامن و التاسع عشر يحمل نفس المعنى الذى يستعمله أغلبنا اليوم: اي دارس للطبيعة. منذ عهد جلبرت وايت، كان معظم الطبيعيين رجالَ دينٍ في هذا السياق. كان من المقدَّر على داروين نفسه أن يلتحق بخدمة الكنيسة في سن شبابه أملاً منه في أن تمكنه الحياة المريحة لرجل الدين في الريف من متابعة شغفه بالخنافس. لكن الفلاسفة يستعملون كلمة طبيعي بطريقة مُختلفة تماماً ومضادة لكلمة "ما فوق الطبيعة". جوليان باغيني في كتابه "الإلحاد: تعريف قصير جداً"، يشرح المعنى وراء التزام المُلحد بالطبيعية: "ما يؤمن به غالبية المُلحدين هو أنه على الرغم من أنّ الكون مادي بحت فإن العقل والجمال والعواطف والقيم الأخلاقية وباختصار كُل ما في سلسلة الظواهر التي تعطي الحياة الإنسانية قيمتها، قد انبثقت منه".

إن عواطف وأفكار الإنسان تظهر من خلال عمليات متشابكة شديدة التعقيد في المخ. والمُلحد في هذه الحالة، بنظر الفيلسوف الطبيعي، هو شخص لا يؤمن بأنّ هُناكَ شيء ما وراء العالم الطبيعي الفيزيائي، وليس هُناكَ من خالق ذكِي فوق الطبيعة يتلصّص خلف الكون المرئي. ليس هُناكَ روح تبقى بعد بلاء الجسد، وليس هناك من معجزات إلا بمعنى وجود بعض الظواهر الطبيعية التي لم نتمكن من تفسيرها بعد. أمّا إنْ كانت هناك اشياء تتجاوز ماهو طبيعي وقد تعذر علينا فهمها في الوقت الحالي, فنتمنى ان نتوصل إلى ذلك في يوم ما باستخدام القوانين الطبيعية. إنّ معرفتنا بأسباب تَشَكُّل قوس قزح لا يقلل من روعته وجماله، هذا هو العلم.

حين نتفحّص بعمق إيمان العُلماء الكبار الذين يبدون مُتدينين في أيامنا هذه، نرى بأنهم ليسوا كذلك. وهذا بالتأكيد صحيح في حالة آينشتاين وهوكينغ. عالم الفضاء المعاصر والرئيس الحالي للجمعية الملكية للعلوم، مارتن ريس، قال لي بأنه يذهب للكنيسة "كإنجيلي كافر... فقط بسبب الولاء القبلي". هو لا يؤمن بمعتقدات إلهية لكن يستفزّه الإحساس الشاعري تجاه الكون ككل العلماء الطبيعيين الذين ذكرتُهم. تحدَّيتُ في معرض المناقشات التلفزيونية صديقي روبرت ونستون، طبيب توليد وأحد أركان الجالية اليهودية في إنكلترا، بأنَّ يهوديته هي جزء من شخصيته وبأنهُ لا يؤمن بأي شيء ما وراء الطبيعة. كان قاب قوسين أو أدنى من الاعتراف بذلك ولكن تغلَّب عليه خجله في النهاية (الحقُ يقال، كان من المفترض أن يجري هو المقابلة معي وليس العكس)[3]. عندما ضغطت عليه، قال بأنه وجد أن الالتزام باليهودية ساعدهُ على تنظيمِ حياته وجعَلَها جيدة بشكل أو بآخر. ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن بالطبع ليس لهذا أي صلة بمصداقية الغيبيات. هُناكَ العديد من المُلحدين اللامعين والذين يلَقِّبون أنفسهم باليهود ويؤدون الطقوس اليهودية، ربما بسبب الولاء لتقاليد قديمة أو لأقارب قُتلوا. ولكن أيضاً بسبب الحيرة والسعي المبهم لدمغ صفة "دين" على الشعور بوحدة الوجود (الكونية). وهذا الشعور الكوني يتشارك الكثير منَّا فيه مع أحد أبرز أعلامه، ألبرت آينشتاين. ربما هم لا يؤمنون، ولكن - هنا أقتبس عبارة دان دينيت - "يؤمنون بالإيمان"[4].

إحدى أشهر العبارات التي نُقلت عن آينشتاين "علم بدون دين هو علم أعرج، ودين بدون علم هو دين أعمى". لكنه قال أيضاً:

"ما قرأتموه عن موضوع تديّني هو كذب بالطبع، كذبة تكررت بشكل مدروس. أنا لا أؤمن بالإله الشخصي، ولم أنكر ذلك أبداً، بل على العكس، فقد عبّرت عن الموضوع بشكل واضح. إن كان في داخلي شيء يمكن تسميته بالدين فهو الإعجاب غير المحدود ببِنْية هذا الكون على قدر ما يمكن للعلم كشفه".

هل يناقض آينشتاين نفسه بأن يعطينا كلمات نستطيع فيها دعم الطرفين النقيضين؟ بالطبع لا. آينشتاين يعني بكلمة "الدين" شيئاً مختلفاً تماماً عن المعنى المتعارَف عليه. وسأسهِب في توضيح الفرق بين الدين الغيبي والدين الآينشتايني، آخذاً في الاعتبار دائما أنَّ الآلهة الوحيدة التي سأدعوها بالوهمية هي الآلهة فوق الطبيعية، الغيبية. إليك بعض العبارات المنقولة عن آينشتاين لإعطاء فكرة عن نوعية الدين الآينشتايني. يقول آينشتاين:

"أنا متديِّنٌ بعمق غير مؤمن. وهذا، بشكل ما، نوعٌ جديد من الدين".

"لم أنسب مُطلقاً للطبيعة هدفاً أو دوراً، أو أي شيء يمكن فهمهُ بشكل سرمدي. ما أراه في الطبيعة هو بناء مُدهش، ونحن نفهمه بشكل ناقص على أحسن الأحوال. هذا ما يملأ المُفكر بالتواضع. هذا بشكل عام شعور تديُّن بدون أن يكون له علاقة بالروحانيات".

"فكرة الإله الشخصي فكرة غريبة عني تماماً، بل وأعتبرها ساذجة أيضاً".

منذ وفاته والمُتدينون يحاولون، وبأعداد متزايدة، الادِّعاء بأنه واحد منهم. لكن المُتدينين المعاصرين لهُ كانت لهم وجهة نظر مختلفة بشكلٍ كبير. عام 1940 كتب آينشتاين مقالاً ليوضح قولهُ "أنا لا أؤمن باله شخصي"، تلك المقالة، وغيرها، أثارت سيلاً عاصفاً من ردود الأفعال بين المُتدينين، والكثير منهم لمَّح لأصله اليهودي. المقاطع التالية مأخوذة من كتاب ماكس جامر، "آينشتاين والدين" (والذي هو مرجعي الأساسي لمقولات آينشتاين نفسه في موضوع الدين). قال مطران الروم الكاثوليك في مدينة كنساس: "من المحزن أن نرى رجلاً، يعود أصله لقوم العهد القديم، ينفي التعاليم العظيمة لذويه". قسيس آخر يعبر عن موافقته مقاطعاً: "ليس هُناكَ إله آخر إلاّ الإله الشخصي! ... آينشتاين لا يعي ما يقول، وهو مخطئ تماماً. البعض يعتقد بأنه يحق لهم إبداء الرأي في كُلِّ شيء فقط لأنهم قد وصلوا لدرجة عالية في أحد الفروع العلمية". فكرة أنَّ الدين هو أحد الفروع المناسبة التي يحق للبعض أن يدَّعي الخبرة بها يجب ألا تمر هنا بدون مساءلة. القسيس أعلاه لا يدعم كلامه هنا بخبرته بـ "عالم الجن" بالشكل الدقيق لأجنحة الجن وألوانها. القسيس، والمطران، كلاهما يعتقد بأنَّ آينشتاين، كونه غير متمرس باللاهوت، قد أساء فهْم طبيعة الإله. والحقيقة عكس ذلك، آينشتاين فهم تماماً ماذا كان ينفي.

أحد المحامين الكاثوليك والذي يعمل لصالح منظمة تحالُف الكنائس، كتب لآينشتاين:

"نأسف جداً لتصريحاتك... والتي تسخر فيها من فكرة الإله الشخصي. خلال السنين العشر الأخيرة، لم يكن هُناكَ ما أعطى لهتلر سبباً لطرد اليهود من ألمانيا مثل تصريحك هذا. أعترف بحقك في حرية التعبير، لكن بالرغم من ذلك، أعتبر تصريحك هو أعظم مصدر للنِّزاع في أمريكا".

حاخام نيويورك صرّح بما يلي: "آينشتاين عالمٌ ذكيّ بلا شك ولكن وجهة نظره الدينية تناقض تماماً الدّين اليهودي". و"لكن"؟ و "لكن"؟ لماذا ليس "و"[1].

كتب عميد جمعية التاريخيين في نيوجرسي رسالة لآينشتاين تكشف بشكلٍ فاضح ضعف العقل الديني، وهي تستحق القراءة مرتين:

"نحترم علمك د. آينشتاين، ولكن يبدو أنّ هُناكَ شيئاً ما قد فاتك أن تتعلّمه: ذلك بأن الله روح ولا يُمكنك رؤيتهُ بالمرصاد الفلكي أو المجهر. تماماً مثلما لن تجد أفكاراً ومشاعرَ إنسانية عند تحليل الدماغ. وكما يعرف الجميع، فإنّ الدين مبني على الإيمان الغيبي وليس على المعرفة. كُل مُفكر قد مرّ بفترة هاجمته فيها شكوك في الدين. وأنا بالذات قد اهتزّ إيماني في العديد من المرات، لكنني لم أجهر لأحد بشكوكي لسببين:

1. خوفي من أنّ مجرد التشكيك يمكنه أن يدمّر حياة أو أمل إنسانٍ ما.
2. لأنني أتَّفق تماماً مع الكاتب الذي قال: "هناك خيط من الخبث في كل إنسان، من المُمكن أن يُدمر إيمان إنسانٍ آخر" ... وآمل يا د. آينشتاين أن يكون قد أُسيءَ فهمك، وأنكَ سوفَ تقول شيئاً سائغاً أكثر للشعب الأمريكي الذي يسرّهُ فعلاً تقديركَ وتشريفك".

ما أسوأ ما تكشفهُ هذهِ الرسالة! كُل جملة فيها تقطر بالجبن الفكري والأخلاقي.

كانت الخبث أقل ولكن الصدمة أكبر، في رسالة مؤسس جمعية معبد الجمجمة في أوكلاهوما:

"بروفيسور آينشتاين، أنا أؤمن بأن كُل مسيحي في الولايات المتحدة سيجبيك، "لن نترك إيماننا بإلهنا وابنه المسيح عيسى، وندعوك جميعاً إلى أن تعود من حيث أتيت إذا لم تؤمن بإله هذهِ الأمة". لقد عملتُ كلِ ما في وسعي لأُباركِ إسرائيل، والآن تأتي أنتَ وبجُملة واحدة من لسانَك الكافر لتُسبب أذىً كبيراً لشعبكَ. أذىً أكبر ممّا تستطيع أن تفعله كل جهود المسيحيين المحبين لإسرائيل لإخماد المعاداة للسامية في أرضنا. بروفيسور آينشتاين: كُل مسيحي في أمريكا سيجيبك مباشرة، "خذ نظريتك المجنونة والخاطئة عن التطور وارحل

1. لتصبح الجملة. عالم حاذق، ووجهة نظره الدينية الخ.... (المترجم)

بها عائداً إلى ألمانيا من حيث أتيت، أو توقف عن محاولة هزّ إيمان الشعب الذي رحّب بك عندما أُجبِرت على الهرب من موطنك".

الشيء الوحيد الذي أصاب به المؤمنون المنتَقدون له هو أنَّ آينشتاين لم يكن واحداً منهم. كان ساخطاً دائماً على الأقاويل التي تحاول وسْمَهُ بالإيمانَ. فهل كان ألوهياً؟ كما كان فولتير وديدروت؟ أم كان كونياً، كما كان سبينوزا والذي كان معجباً بفلسفته أشد الاعجاب حيث يقول آينشتاين: "أنا أؤمن بإله سبينوزا الذي يكشف عن نفسه بالنظام الهائل لكُل الموجودات وليس بالإله الذي يشغل نفسه بمصير البشر وتصرّفاتهم".

دعونا نراجع التعريفات مجدداً: الألوهي هو الذي يُؤمن بأن هُناكَ خالقٌ خارق الذكاء للكون الذي، بالإضافة لخلقه للكون، لا زال يشرف على ما يحصل فيه ويتدخل في أحداث ما خلقه بالأساس. في العديد من الأنظمة الألوهية، الإله يتفاعل بشكلٍ حميمي مع شؤون البشر. فهو يستجيب للصلوات ويغفر أو يعاقب على الذنوب وهو يتدخل في العالم بصنع المعجزات ويحكم على سوء وحسن الأفعال ويعلم متى نفعلها (ومتى نفكر بفعلها أيضاً). الربوبي أيضاً يؤمن بخالق خارق الذكاء أو فوق الطبيعة ولكن نشاطاته كانت محصورة بصناعة وضبط قوانين الكون وصياغتها. إله الربوبي لا يتدخل بعد ذلك في شيء وبالتأكيد ليس لديه أي اهتمام بشؤون البشر. الكونيون (الطبيعيون) لا يؤمنون بإله خارق للطبيعة بأي شكل ويستعملون كلمة الإله للدلالة على الطبيعة أو الكون أو كامل القوانين التي تحكم عمل الكون. الربوبيون يختلفون عن الألوهيين بأن إلههم لا يستجيب للصلوات وليس له اهتمام بذنوبهم أو اعترافاتهم، وهو لا يقرأ أفكارنا ولا يتدخل من خلال معجزاته النزوية. الربوبيون يختلفون عن الكونيين بأنّ إله الربوبي هو نوع من ذكاء كوني، بعكس الكوني الذي يطلق التسمية كبديل لقوانين الكون. الكونية هي نسخة مزيّنة أو جذابة من الإلحاد، والربوبية نوع مخفف من الألوهية.

لدينا الكثير من العبارات المشهورة لآينشتاين والتي تدل على أنه كان كونياً وليس ألوهياً، مثل عبارة "الإله خفي ولكنه ليس خبيثاً"، أو "الله لا يلعب النرد"[1]، أو "هل كان للإله خيار في خَلقِ الكون؟" وهو بالتأكيد لم يكن مؤمناً. يمكن إعادة صياغة "الإله لا يلعب النرد" بـ "العشوائية ليست من صميم الأشياء". و "هل كان للإله خيارٌ في خَلقَ الكون" يمكن صياغتها بـ "هل هُناكَ إمكانية لتكون بداية الكون مختلفة عن التي كانت عليه؟". آينشتاين استعمل كلمة إله بشكل مجازي ورمزي، وهكذا فعلَ ستيفن هوكينغ وكثيرون من الفيزيائيين الذين عبّروا عن أفكارهم بلغة الدين المجازية. بول ديفيس في كتابه، "عقل الإله"، يحوم في مكانٍ ما بين كونية آينشتاين وألوهية غامضة. كتابهُ هذا أكسبهُ جائزة تمبلتون (مبلغ كبير من المال يُدفع سنوياً من منظمة تمبلتون، يُدفَع عادة لعالِم مُستعد أن يقول أشياء حسنة عن الدين).

دعني ألخِّص دين آينشتاين ببعض ما قاله هو بنفسه: "للإحساس بأنَّ خلف ما نعرفهُ ونحسّ بهِ يوجد شيء ما لا يمكننا إدراكه، وهذا الشيء يمسّنا بجمالهِ وسموهِ بطريقة غير مباشرة وبشكل يكاد يكون غير

1. ردّ آينشتاين الشهير على النظرية الكمية التي لم يقدر التصديق بها. (المترجم).

محسوس، هذا تديّن. وأنا بهذا المعنى مُتدين". حسناً ... بهذا المعنى، أنا أيضاً مُتدين، مع التحفُّظ على عبارة "لا يمكننا إدراكه"، والتي لا يجب أن تعني "لن يمكننا إدراكهُ أبداً". لكنني لا أفضل نعت نفسي بالمُتدين بأي شكل لأن ذلك سيؤدي لسوء الفهم حيث أن الدين يعني للغالبية العظمى "الدين الغيبي، فوق الطبيعي". كارل ساغان صاغها بطريقة جيدة: "لو عنينا بكلمة الله مجموعة القوانين التي تحكم الكون، فهذا الإله موجود بالتأكيد، لكن مثل هذا الإله لن يُشْبِعَ رغباتنا العاطفية... لأنه من غير المنطقي أن تصلّي وتطلب غفران الخطايا من قانون الجاذبية".

المدهش هنا، أن النقطة الأخيرة التي ذكرها ساغان، كانت بمثابة تنبّؤ أشار اليه البروفيسور د. فالتون شين الإكليركي والبروفيسور في الكلية الكاثوليكية في أمريكا كجزء من هجومه الشرس في الرد على مقولة الإله الشخصي لآينشتاين عام 1940. شين سأل بسخرية فيما إذا كان هُناكَ من يريد وهْب حياته لمجرّة درب التبانة. ظن أنهُ في ذلك يناقض مقولة آينشتاين ولكن هذا في الحقيقة دعمٌ لها حيث أنهُ يستطرد قائلا: "هُناكَ خطأ واحد في دينه الكوني: حرف واحدٌ زائد لو أزلناه لأصبح الدين الكوميدي"[1]. في الحقيقة لا شيء كوميدياً في معتقدات آينشتاين. لكن على كل حال، أتمنى أن يتوقف الفيزيائيون عن استعمال كلمة الإله بمعناها المجازي. الإله المجازي للطبيعيين بعيد بسنوات ضوئية عن الإله التقليدي للمؤمنين الذي يقوم بالمعجزات، ويتدخّل في حياة الإنسان، ويعاقب على الذنوب، أو يستجيب للدعوات. إله الإنجيل والكهنة، إله الملالي والحاخامات وكل ما يُعْنى به في اللغة المُتَداولة. إنَّ خلط الاثنين معاً عن تعمّد هو في رأيي خيانة فكرية من أعلى المستويات.

1. لعب بالالفاظ الانكليزية (COSMIC وCOMIC). (المترجم.)

إحترامٌ غيرُ مُسْتَحَقّ

العنوان الذي اخترته لهذا الكتاب، "وهم الإله"، لا يرمز لإله آينشتاين أو أيٍ من العُلماء في الفصل السابق. ولِهذا كان ظرورياً توضيح مسألة الدين الآينشتايني ووضعها جانباً منذ البداية لأنهُ من المؤكد أن نقطة كهذه لها القدرة على بعث الحيرة في النفوس. في باقي الكتاب سأتكلم فقط عن الآلهة الغيبية والماورائية وأشهرها يهوه[1]، إله التوراة، وسأعود إليه لاحقاً. لكن قبل أن أترك هذا الفصل التمهيدي أرغب بأن أُناقش نقطة كي لا تكون سبباً بإرباك القارئ لاحقاً. وهذه النقطة هي اللياقة. من المحتمل أن يشعر القراء المُتدينون بالإهانة لما سوف أقول لاحقاً وربما سيجدون بأنهُ ليس هُناكَ القدر الكافي من الاحترام لمعتقداتهم (أو معتقدات من يحترمونهم). وسيكون ذلك مخجِلاً إن سبّب هذا منعهم من الاستمرار في القراءة لذلك أُريد أن أوضح الأمرَ منذ البداية.

من المُسلَّمات التي يقبل بها الجميع تقريباً في مجتمعنا الإنساني -وحتى بين غير المُتدينين- أنّ الإيمان الديني هو فكرة هشة وضعيفة أمام النقد ويجب إحاطتها بجدار سميك من الاحترام. وهذا النوع من الاحترام يختلف كلياً عن ذلك الذي من المُفترض أن نُعامل به بعضُنا البعض. لقد عبّر دوغلاس آدامز عن ذلك بدقة جلية في خطاب ارتجالي في كامبردج قبل وفاته بفترة قصيرة،[5] بحيث أني لا أتعب أبداً من اقتباس كلماته:

"نواة الدين... هي بعض الأفكار التي نسميها بالمقدسة أو ما شابه. وذلك يعني: "لا يحق لأحد أن ينتقد هذه الفكرة أو المصطلح، وهذا كل شيء". "لمَ لا يحق لأحد نقدها؟ لأنه لا يحق لأحد نقدها". عندما يصوت أحدهم لحزب لا تتفق أنتَ مع أفكاره، فبإمكانك مناقشة ذلك قدر ما تشاء، كُلٌّ لديه فكرة يطرحها بدون أن يسبب ذلك الحزنَ لأحد. عندما يُفكر أحد ما أن الضرائب يجب أن يتم خفضها أو رفعها، فأنت حرٌ في مناقشته في ذلك. لكن من جهة أخرى، عندما يقول أحدهم "أنا لن أشعل مصباح الكهرباء يوم السبت"، فيجب عليك ان تقول "وأنا أحترم ذلك".
لماذا من المقبول جداً أن ندعم حزب العمال أو حزب المحافظين، الجمهوريين أو الديموقراطيين، هذا المخطط الاقتصادي أو ذاك، ماكنتوش أو ويندوز – لكن عندما نصل للتساؤل عن أصلِ الكون، عن الذي خلقهُ ... لا... هذا مقدس؟ لقد اعتدنا عدم مناقشة الأفكار الدينية، ولكن من المدهش أن نرى كمية الغضب التي يسببها ريتشارد[2] عندما يناقش الموضوع! الكل أصبح مسعوراً تجاههُ لأنك لا تستطيع قول هذه الأشياء. لكن لو

1. يهوه هو الاسم الذي عُرِفَ به الله في كتاب التوراة. (المترجم)
2. يقصد الكاتب ريتشارد دوكنز. (المترجم)

نظرنا للموضوع بتعقل، فلن نرى أي سبب يمنع أفكاراً كهذه من أن تكون موضوعاً للنقاش العام أقل أو أكثر من غيرها، باستثناء اتِّفاقنا بشكل ما على أنَّ شيئاً كهذا لا يجب فعله".

إليكم هذا المثال عن احترام مجتمعنا المبالغ فيه للدين، مثالٌ مهم فعلاً. التدين هو الطريق الأسهل للحصول على الإعفاء من الخدمة العسكرية في زمن الحرب ويتم تصنيفه كعفوٍ احتراماً للمشاعر الدينية. بإمكانك أن تكون فيلسوفاً لامعاً بأطروحة دكتوراه نالت العديد من الجوائز وتشرح فيها شرور الحروب. على الرغم من ذلك، ستواجه وقتاً عصيباً أمام لجنة الخدمة الإلزامية عند تقييم طلبك للإعفاء من الخدمة. لكن لو قلت بأن أحدَ -أو كلا- والديك ينتميان لجمعية الاصدقاء الدينية[1] المناهضة للعنف، لَأُعْفيت على الفور، ولن يكون هنالك أي اعتبار لعدم كفاءتك أو معرفتك بحجج الدفاع السلبي، ولا حتى طبعاً بالنظرية التي تقوم عليها جمعية الاصدقاء الدينية نفسها.

على النقيض من ذلك، هُناكَ تردد جبان من وسم فصائل متقاتلة بأسماء دينية. في إيرلندا الشمالية يسمون الكاثوليكيين والبروتستانتيين بـ "القوميين" و "المُوالين". بشكل ما نُقِّحَت كلمة "دين" لتعني "عِرق"، كما هو الحال في كُل الحروب الداخلية. العراق، وكنتيجة للغزو الأمريكي-البريطاني عام 2003، تفسّخ الى مجموعات طائفية دخلت في حرب مذهبية بين السنة والشيعة. وهذا أوضح الأمثلة على النزاع الديني. بالرغم من ذلك، فإن جريدة الإندبندنت في عددها الصادر في 20 آيار 2006، وبالخط العريض في الصفحة الأولى، وصفت ما يحصل بـ "التطهير العرقي". أرادوا تلطيف الموضوع بإحلال كلمة عرقي، بينما ما نراه في العراق هو تطهير ديني واضح. التلطيف لهذه الكلمة بدأ أصلاً في "التطهير العرقي" الذي وُصمت به الحرب في يوغوسلافيا لتعني التطهير الديني الذي كان أطرافه الصرب الارثوذوكس، والكروات الكاثوليك، والبوسنيين المسلمين[6].

لقد أشرتُ مسبقاً لنقطة الامتيازات الذي يتمتع بها الدين في النقاشات العامة عن الأخلاق في الأوساط الإعلامية والحكومية[7]. في حال ظهور أي خلاف على موضوع له علاقة بأخلاقيات الجنس أو الإنجاب، فإنه من المؤكد أن قادة الفصائل الدينية من مُختلف الاتجاهات سيكونون أحد الاطراف في لجنة النظر في هذا الخلاف، أو في أي برنامج يناقش هذا الموضوع في الراديو أو التلفزيون. أنا لا اقترح هنا أن نكمِم أفواه هؤلاء أو نستبعد وجهة نظرهم من المجتمع، ولكن سؤآلي: لماذا يطرق مجتمعُنا بابَ هؤلاء معتبراً أنَّ لديهم الخبرة في مواضيع كهذه، بل ويضع آراءهم جنباً الى جنب مع آراء الفلاسفة والمحامين والأطباء؟

إليكم مثالاً عجيباً آخر على الامتيازات التي تتمتع بها الأديان. في 21 شباط 2006، وفي المحكمة العليا في الولايات المتحدة، صدر الحكم باستثناء أعضاء الكنيسة في نيو مكسيكو من قانون يسري على الآخرين جميعاً يمنع تناول عقارٍ للهلوسة[8]. أعضاء مركز "روح النبات الغنية" يعتقدون بأنهم يتواصلون مع الرب فقط عندما يتناولون نوعا من شاي الهواسكا والذي يحتوي على عقار الهلوسة غير القانوني، والممنوع استخدامه، والمسمّى ثنائي ميثيل تريبتامين. لنلاحظ أنَّه من الكافي أن "يعتقدوا" أنَّ المخدر يؤدي لتحسين

1. جمعية الاصدقاء الدينية أو الصاحبيون أو الكويكرز هي جمعية مسيحية مناهضة للعنف أسست في القرن السابع عشر في انكلترا. (المترجم)

تواصلهم وليس عليهم أن يقدموا أي أدلة على ذلك. على النقيض من ذلك، هنالك العديد والعديد من الإثباتات على أن نبات القنب الهندي[1] يخفف من الآلام ومعاناة المصابين بالسرطان الخاضعين للمُعالجة الكيميائية. ولكن المحكمة العليا حكمت عام 2005 بأن كُل الذين يستعملون نبات القنب لأغراض صحية معرضون للاتهام والملاحقة القانونية (حتى في الولايات القليلة التي تسمح قوانينها المحلية بهذه الممارسة). الدين كالعادة هو صاحب الورقة الرابحة. تخيّل أعضاء مجموعة من المشتغلين بالفن يقدمون التماساً في المحكمة للسماح لهم باستعمال عقار مهلوس"يعتقدون" أنه يحسِن فهمهم للوحات الانطباعيين أو السرياليين. ومع ذلك، عندما تطلب الكنيسة مثل ذلك، فإنها تتلقى الدعم من أعلى هيئة قانونية في الدولة. هذا مثال على القوة السحرية للدين.

منذ ثمانية عشر عاماً، كنتُ أحد أعضاء لجنة مكوّنة من 36 كاتباً وفناناً مكلَّفين من مجلة "نيو ستايتسمان New Statesman" بكتابة مقال لدعم الكاتب سلمان رُشدي[9] الذي كان مهدور الدم لكتابته رواية آيات شيطانية. إستبدَّ بي الغَضب وقتها من "التعاطف" ضد "إيذاء" مشاعر المُسلمين، والتهجّم الذي أبداه بعض رجال الدين المسيحيين، وحتى بعض العلمانيين، واستنتجت الخلاصة التالية:

> "لو أنّ دعاة الفصل العنصري استعملوا ذكاءهم وادَّعوا، بصدق نية كالعادة، بأن خلط البشر الملوّنين يتعارض مع دينهم، لانسحب قسم كبير من معارضيهم على رؤوس أصابعهم. والإدِّعاء بأن هذه المقارنة غير دقيقة لن يفيد هنا، فالعنصرية لا تملك أي تفسيراً مَنطقياً لها. كُل موضوع الإيمان الديني وقوته وانتصاراته تكمن في أنه هو الآخر لا يمتلك بدوره أي تفسير منطقي. من المتوقع منا "نحن الآخرون" أن نُبرِر أي تحامُل يصدر منّا. لكن لو سأل أحدُنا أحدَ المُتدينين أن يبرر إيمانهُ لتم إتهامنا بأننا ننتهك قانون "حرية الأديان".

لم أتوقع وقتها بأن شيئاً مُماثلاً سيحصل في القرن الواحد والعشرين. لوس أنجلوس تايم، في 10 نيسان آبريل 2006، كتبت تقريراً عن عدد من المجموعات المسيحية في بعض المُدن الجامعية في الولايات المتحدة أقاموا دعوات قضائية ضد جامعاتهم لأن الجامعات فرضت قوانين منع التمييز فيها بما يتضمن عدم مضايقة المثليين جنيساً أو التحامل عليهم. وإليكم مثال آخر عام 2004، جيمس نيكسون، صبي في الثانية عشر من العمر في مدينة أوهايو الأمريكية، ربح قضائياً الحق بارتداء قميص تي شيرت يحمل الكلمات التالية "المثلية خطيئة، الإسلام كذبة، الإجهاض جريمة، بعض الأشياء أسود أو أبيض فقط"[10]. المدرسة طلبت منه ألاَّ يلبس هذا القميص، فرفع أهلهُ دعوة قضائية ضد المدرسة. ربما سيكون للأهل الحق لو بنوا قضيتهم على التعديل الأول في الدستور الأمريكي الذي يعطي الفرد الحق بحرية التعبير. لكنهم لم يفعلوا. بدلاً من ذلك، أستخدم مُحامي العائلة قانون حُرية الأديان. والنصر في هذه القضية كان مدعوماً من "صندوق اتحاد المدافعين" في أريزونا، وهي جمعية هدفها الضغط لربح المعارك القانونية لصالح حرية الأديان.

---

1. القنب الهندي أو البانجو CANNABIS :نبات ذو تأثيرات مخدرة ينتشر في البلدان العربية بعدة أسماء. (المترجم)

رجل الدين ريك سكاربوروغ، وبدعمه لموجة القضايا المسيحية القضائية، وصل لحد المطالبة باعتبار الدين سبباً كافياً لممارسة التمييز العنصري ضد المثليين والمجموعات الأخرى، وسمّى هذا بحركة (التحرير للقرن الحادي والعشرين). "المسيحيون سيجبرون على أخذ موقف للدفاع عن حقهم ليعيشوا كمسيحيين"[11]. ومرة أخرى، لو أن هؤلاء اعتمدوا في موقفهم على مبدأ حرية التعبير، فلربما حصلوا على "تعاطفنا" بشكلٍ أو نوعٍ ما. ولكن ليس هذا لبّ الموضوع، فالقضية المرفوعة لصالح التمييز ضد المثليين رُفعت على أساس أنها دعوى مضادَّة تزعم المطالبة برفع التمييز ضد المُتدينين! ويبدو أن القانون احترم ذلك. لا يفلت أحد من القانون فيما لو ادَّعى "إذا حاولت منعي من التمييز ضدَّ إنسانٍ مِثْلِيَ جنسياً، فأنت تحرمني حقي بامتلاك أفكار مُتحاملة عن الآخرين". ولكنك تفلت حتماً لو قلت "أَنَّ هذا المنع يمثِّل تعدِّياً على حريتي الدينية". لنفكر، ما هو الفرق هنا؟ هل ترى؟ مرة أخرى، الدين هو البوق الأعلى صوتاً.

سأنهي هذا الفصل بدراسة تلقي المزيد من الضوء على المُغالاة في احترام الدين وجعله يسبق حتى احترامنا للإنسان. قضية أحدثت ضجة في شباط 2006، قضية سخيفة تأرجحت بين الكوميديا والتراجيديا. في شهر أيلول من عام 2005، أصدرت صحيفة جيلياند بوست اثني عشر رسماً كاريكاتورياً يُصوّر بها النبي مُحَمّد. خلال الثلاثة أشهر التالية وبطريقة مدروسة بدقة تمّ دسّ النقمة والغضب في العالم الإسلامي من قبل مجموعة صغيرة من المُسلمين الذين يعيشون في الدنمارك، وبقيادة إمامين إثنين كانا قد مُنحا مسبقاً حق اللجوء فيها[12]. نهاية عام 2005، سافر هذان اللاجئان الحقودان من الدانمارك الى مصر ومعهما ملف طُبِع ووُزِّع من هُناكَ لكل العالم الإسلامي، ومن ضمنه إندونيسيا لأهميتها. الملف تضمن معلومات باطلة عن المعاملة السيئة التي يتلقاها المسلمون في الدنمارك والكذبة المغرضة التي تقول بأنَّ صحيفة جيلياند بوست هي صحيفة حكومية. الملف يتضمن أيضاً الرسوم الكاريكاتورية الاثني عشر، والتي أرفقها الأئمة بثلاث صور أخرى غير معروفة الأصل، ولكن بدون أدنى شك ليست لها أي صلة بالدنمارك. هذه الرسوم الثلاث كانت بحق أكثر هجومية من الرسوم الأخرى – أو بالأحرى ستكون أكثر هجومية لو كان المقصود فيها مُحَمّد كما ادعى هؤلاء الأئمة المتحمسون. إحدى هذه الصور، والأكثرها هجومية، لم تكن رسم كارتوني على الإطلاق، بل كانت صفحة مرسلة بالفاكس فيها صورة رجل ملتحي يلبس أنف خنزير بلاستيكي مربوط بمطاطة. وبالنتيجة، وبعد التحريات، كانت هذه الصورة مأخوذة من الأسوشيتد برس، وهي عبارة عن صورة رجل فرنسي يشترك في مسابقة محلية لتقليد صوت الخنازير في أحد معارض القرى في فرنسا[13]. ليس لتلك الصورة أي علاقة بالنبي مُحَمّد، أو حتى بالإسلام على الإطلاق، وبالتأكيد لا علاقة لها كذلك بالدنمارك. لكن هؤلاء الناشطين المسلمين في رحلتهم المضللة للقاهرة أوْحوا بوجود علاقة لتلك الصورة بالإسلام ... مع دراية مُسبقة بالنتيجة.

هذا الزرع المتقن للشعور بالـ "الأذى" و"الإهانة" أدى الى انفجار بعد حوالي خمسة أشهر من نشر تلك الصور الاثني عشر في جيلاند بوست. المتظاهرون في باكستان وأندونيسيا أحرقوا أعلاماً دنماركية (من أين أتوا بها؟). وبصيحات هستيرية طالبوا الحكومة الدنماركية بالاعتذار. (لماذا تعتذر الحكومة الدنماركية؟ فليست هي التي رسمت الرسوم أو نشرتها. الشعب الدنماركي شعب يعيش في ظل حرية كاملة للصحافة، وهذا بحد ذاته شيء يصعب استيعابهُ جداً للكثيرين ممن يعيشون في البلدان الإسلامية). وتضامناً مع

الصحيفة الدنماركية، أعادت صحف سويدية ونرويجية وفرنسية وحتى أمريكية، نشر الصور (لكن ولا صحيفة بريطانية) مما أدى لصب الزيت على النار. فخُرِبت سفارات وقنصليات وقوطعت البضائع الدنماركية وتعرض الدنماركيون خصوصاً والغربيون عموماً للتهديدات وأحرِقت كنائس مسيحية في باكستان ليس لها أي علاقة بالدنمارك أو حتى بأوروبا. تسعة أشخاص قتلوا في الهجوم الذي قام به متظاهرون ليبيون على القنصلية الإيطالية في بنغازي. تماماً كما كتب جرمان غرير أن ما يحبه هؤلاء ويجيدون فعله حقاً هو إثارة الهرج والمرج فقط[14].

أحد الأئمة في باكستان-الذي لم يكن يعرف، على ما يبدو، أن هنالك اثني عشر رساماً لهذه الصور، وبدون شك، لم يعرف كذلك بأن الصور الثلاثة الأكثر إثارة للغضب ليس لها أي علاقة بالدنمارك -وضع مكافأة بقيمة مليون دولاراً ثمناً لرأس الرسام الدنماركي (بالمناسبة، من أين سيأتي هذا الإمام بالمليون دولاراً؟). في نيجيريا، أحرق المتظاهرون المسلمون عدة كنائس مسيحية واستعملوا السواطير للهجوم وقتل مسيحيين (نيجيريين سود البشرة مثلهم) في الشوارع. أحد المسيحيين الضحايا تم وضعه في دولاب مطاطي وإغراقه بالبنزين ثم أضرمت النيران فيه. أخذت صور عديدة لمتظاهرين في إنكلترا وهم يحملون لافتات كتب عليها "اذبحوا الذين أهانوا الإسلام"، و"أوروبا: ستدفعين الثمن وستُهدمين قريباً"، و "اقطعوا رأس من يهين الإسلام". لحسن الحظ أنَّ قادتنا السياسيين كانوا بمتناول اليد ليذكِّرونا بأنَّ الإسلام دين الرحمة والسلام.

على إثر ذلك، أجرى الصحفي، أندرو مولر، مقابلة مع أشهر المسلمين "المُعتدلين" في إنكلترا، السيد إقبال ساكراني[15]. ربما هو معتدل في مقاييس المسلمين هذه الفترة، ولكن بالنسبة لمولر، فإن ما قالهُ يوم صدور فتوى هدر دم سلمان رشدي بسبب روايته لايزال مأخذاً عليه حيث قال إنّ "الموت قليلٌ بحقه". تصريح مخزي جداً ويضعه على نقيض سَلَفه الشجاع الدكتور زكي بدوي الذي كان أكثرَ مَنْ أثَّرَ بمُسْلمي إنكلترا وقتها، والذي عرض على سلمان رشدي ملجأ لهُ في بيته. ساكراني صرح لمولر كم هو قلق من موضوع الصور الدنماركية. ومولر كان بدوره قلقاً ولكن لأسبابٍ مُختلفة كما يبدو: "أنا قلق منْ أنَّ ردَّ الفعل السّخيف وغير المتكافئ أبداً مع موضوع نشر الصور في صحيفة دنماركية غير معروفة سوف يُثْبِتُ... بأنَّ الإسلام والغرب لا يمكن الجمع بينهما". من جهة أخرى، كان ساكراني يمتدح الصحف الإنكليزية لأنها لم تُعدْ نشر الصور. وجواب مولر على ذلك عكس ظَنَّ معظم البريطانيين بأنَّ "امتناع الصحف البريطانية عن نشر الصور ليس نتيجة التعاطف والحساسية تجاه مشاعر المسلمين بقدر ما هو الخوف من أن تُكْسَر نوافذهم".

ساكراني استطرد بأن "التقدير العميق لشخص النبي عليه السلام من الأساسيات في العالم الإسلامي، والحُبّ والمودة لهُ لا يمكن التعبير عنهما بالكلمات. إنها تذهب لأبعد من حُبّ الأهل والأحباب وحتى الأولاد. ذلك جزء من الإيمان. وهناك تعليمات في الدين الإسلامي أنْ لا يُصَوّر النبي برسوم". واستنتاج مولر كان كالتالي:

"يَفترض المسلم بأنَّ قيم الدين الإسلامي تعلو على أي شيء آخر. تماماً كما يفترض المؤمن بأي دين آخر أنَّ دينه هو الطريق الوحيد وهو الحقيقة والنور. لو اختار البعض أن يحبوا مُصلحاً من القرن السابع أكثر من محبتهم لعائلاتهم، فهذا شأنهم، ولكن لا أحد آخر مُجْبَرٌ علىَ أن يأخذ هذه الفكرة بجدية..."

ولكن، إنْ لم تأخذ الموضوع بجدية وتصرّفتَ حياله باحترام، فستكون مهدَّداً بالعنف لدرجة لم يعرفها أيّ دينٍ منذ العصور الوسطى. الواحد منا لا يستطيع فهم ضرورة هذا العنف لأنه كما قال مولر: "أيها المهرِجون، لو صَحّ أنكم مقتنعون بأي شيء مما تدّعون، فإن هؤلاء الرسامين سيذهبون لجهنم على أي حال -أليس هذا كافياً لكم؟ لو أردتم إشعال غيرتكم وحماسكم على الإسلام وعلى الإهانات التي يتعرض لها المسلمون، فلتقرؤوا تقارير منظمة العفو الدولية عمّا يحدث في السعودية وسوريا".

الكثيرون لاحظوا التبايُن بين ادعاء المسلمين الهستيري بجرح مشاعرهم وجاهزية أجهزة الإعلام العربية لنشر صور معادية لليهودية. في إحدى المُظاهرات في باكستان ضد الرسوم الدنماركية، حملت امرأة ترتدي النِّقاب لافتة مكتوب عليها "اللهم بارك هتلر".

كردة فعل على هذه الضوضاء المسعورة قامت بعض الصّحف المحترمة باستنكار العُنف، وأقامت بعض الضجة الرمزية مطاَلبةً بحرية الرأي. لكن في الوقت نفسه، أبدت "الاحترام" و"التعاطف" "لمعاناة" المسلمين من "الإهانة" و"الأذى". لنتذكر بأنَّ "الأذى" و "المعاناة" المقصودين هنا ليس ممارسة العنف الجسدي وإلحاق الأذى بشخص ما: ليس هنالك أكثر من حبر على ورق جرائد لم يَرِها، ولن يراها، أحدٌ خارج الدنمارك لولا الحملة المتعمّدة لإثارة الفوضى التي دبّرَها هؤلاء.

أنا لست مع أذى أو إهانة أي إنسان، لكنني مفتون بسرّ الامتيازات غير المتناسبة المُعطاة للدين فيما نسميها مجتمعاتنا العلمانية. على كُل السياسيين أن يعتادوا رؤية رسوم ساخرة لوجوههم ولا أحد يهتزّ للدفاع عنهم. ما هو الَشيء المميّز للدين والذي يجعلنا نعطيه نوعاً فريداً من الاحترام؟ وكما قال الصحافي هـ.ل. مَنْكن: "علينا احترام دين الآخر، ولكن ليس أكثر من احترامنا لاعتقاده بأنَّ زوجته جميلة، وبأنّ أولاده أذكَياء".

في ضوء هذا التسليم الفريد باحترام الدين[1]، أودُّ أن أُوضحَ الآتي في هذا الكتاب: لن أتقصَّدَ جرح أو إهانةَ أحد، لكنني أيضاً لن أُعطي امتيازات خاصة للدين لا أَعطيها لأي موضوع آخر. ولن أتعامل مع الدين بطرَيقة مختلفة عن تعامُلي مع أيّ شَيء آخر.

1. مثال صادم لهذا "الاحترام" كان خبر صدر في جريدة نيويورك تايمز في كانون الثاني 2007، أنَّ امرأة ألمانية مسلمة قدَّمت طلبَ طلاق مستعجل للمحكمة على خلفية تعرّضها للضرب المبرّح والمتكرر على يد زوجها منذ بداية زواجها. القاضية كريستيا داتس وينتر لم تنكر تلك الحقائق، ولكنها رفضت الطلب بناء على تعاليم القرآن. "في حكم مُلْفت يُظهر بوضوح التعارض بين العادات الإسلامية والقوانين الأوروبية، قالت القاضية بأن الزوجين قادمين من بيئة مغربية حيث أن ضرب الأزواج لزوجاتهم شاَئع. القرآن نفسه-كتبت-يجيزالعنف الجسدي تجاه المرأة" نيويورك تايمز،23آذار2007. هذه القصة المذهلة لم تكن لترى الضوء لو لم يقم محامي تلك المرأة المسكينة بنشر الفضيحة القضائية هذه حيث تم عزل القاضية داتس ونتر من القضية. مع ذلك، ينهي الصحفي الخبر بأن هذه القضية سوف

تؤثر بشكل سلبي جداً على كل النساء اللواتي يتعرّضْن للعنف الأسري في منازلهن. " الكثير منهن يعشن في خوف كبير من مقاضاة رجالهن أمام القضاء، هناك حالات من جرائم الشرف حيث يقوم بعض الرجال المسلمين الأتراك بقتل النساء أو البنات. إنَّ حكم داتس ونتر يتم الإشارة له بأنه كان من أجل "احترام الاختلافات الثقافية"، ولكن هناك اسم آخر وهو " إستعلاء وقح"."بالطبع نحن الأوروبيون لا يمكن أن نتصرّف هكذا، ولكن ضرب الزوجات جزء من "ثقافتهم"، ومُجاز في " دينهم"، ويجب علينا "إحترامه".

الفصل الثاني

فرضيات الإله

دينُ عصرٍ ما هو أساطيرُ العصر الذي يليه

رالف والدو أمَرسون

يمكن وصف إله العهد القديم[1] بأنهُ أكثر الشخصيات الكريهة في الخيال الأدبي: فهو غيور وفخور بذلك؛ تافه وظالم ومتسلط وغير متسامح؛ منتقم ومتعطشٌ للدماء ويمارس التطهير العرقي؛ وهو كاره للنساء والمثليين وعنصري وقاتل للأطفال ومبيد للشعوب وللأبناء ومُسبب للأمراض ومصاب بجنون العظمة وسادي ومازوخي ونزوي حاقد ومُتَنَمِر. العديد منا الذين لُقنوا تعاليمه المرعبة منذ الطفولة، يمكن أصبحوا مُعتادين عليها. بينما سيكون أي شخص ساذج فيه شيء من البراءة ولم يُلقن تلك التعاليم - أكثر فهماً وأوضح تصورا لذلك. استطاع ابن ونستون تشرشل"رودولف"، بشكلٍ ما، تدبّر أمره ليبقى جاهلاً بالنصوص المُقدسة حتى اليوم الذي راهنهُ فيه "ايفلين ووه" وضابط آخر بمحاولة لا مجدية لإبقائه هادئاً أثناء قيامهما بعملهما خلال الحرب. راهناه بأنهُ لن يستطيع قراءة الكتاب المقدس كُله خلال أسبوعين، وعن ذلك يقول الضابط: "لخيبة الأمل لم نَحصل على النتيجة التي أملناها. إنه لم يقرأ أياً من الكتب الدينية مُسبقاً، والآن يواظب على القراءة بحماس ويعلِّق بصوت عالٍ "أراهن بأنك ما كنت تعرِف بأن هذا مذكور في الكتاب المقدس"، أو يضرب على ساقه براحة يده ويرنِّم "يا إلهي ... أليس الله حقيراً!""[16]. توماس جفرسون -قارئ أفضل - كان رأيه مشابهاً في هذا الموضوع حيث يصف إله موسى: "شخصية مرعبة، قاسي ومُنتقم ونزوي وظالم".

ليس من العدل أن نُهاجم هدفاً سهلاً كهذا. ونظرية الإله لا يجب أن تسقط أو تثبت من خلال تمثيلها بشخصية "يهوه"[2]، أكثر التشخصيات غير المحببة للإله، ولا من خلال الوجه المسيحي المُخفَّف والمعاكس لهُ، "يسوع اللطيف الوديع والمعتدل". (كي نكون عادلين، علينا أن ننوه بأن الشخصية الضعيفة التي يوصف بها المسيح تعود لأتباعه الفيكتوريين أكثر مما تعود لهُ شخصياً، هل يمكن لأي شيء أن يكون مثيراً للغثيان كتصريح السيدة أس. أف. ألكسندر: "الأطفال المسيحيون يجب أن يكونوا لطيفين ومطيعين وجيدين كما كان هو"؟ أنا لا أُهاجم أياً من المواصفات المُحددة ليهوه أو المسيح أو الله أو أي إله آخر مثل زيوس أو بعل[3] أو أودين[4]. بل على العكس من ذلك، سأعطي تعريفاً مُحدداً لفرضية الإله بها شيء من الدفاع عنها: الإله هو وجود ذكي خارق للقدرات والذي تعمّدَ خَلق الكون وكل ما يحويه بما فيه نحن. غير أن هذا الكتاب سيدافع عن وجهة نظر أخرى، ألا وهي: إن أي قدرة على الخلق بتعقيد كاف لتصميم أي شيء لا تأتي إلا كنتيجة تراكم تدريجي طويل الأمد لعملية تطورية. إن الذكاء الإبداعي الذي أتى في مراحل لاحقة من التطور لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن تصميم الكون. وبهذا المعنى، فإن الإله سيكون وهماً، وفي فصل آخر سأبين بأنه وهمٌ خبيثٌ أيضاً.

1. يتكون العهد القديم من 46 كتاباً يطلق عليها أسم الأسفار، ويحتوي على جميع كتب اليهود بما فيها التوراة (الكتب الخمسة الأولى). يطلق المسيحيون عليه وصف العهد القديم للتمييز بينهُ وبين الانجيل والذي يدعى بالعهد الجديد (المترجم)
2. أحد أسماء الالهة المشتقّة من السّاميّة القديمة [2]
3. أحد الالهة السورية القديمة. (المترجم)
4. كبير الآلهة في الميثولوجيا الاسكندنافية. (المترجم)

بما أن الأمرَ كلهُ مبني على تقاليد شعبية محلية ورؤى شخصية بدلاً عن أدلة ثابتة، فإنه ليسَ من المُفاجئ أن تأتي فرضية الإله بعدة نُسَخ. ودارسي التاريخ الديني يدركون تطوّره من الروحانيات القبلية البدائية مروراً بتعدد الآلهة، كالإغريق والرومان وغيرهم، حتى الوصول للتوحيد في اليهودية ومشتقاتها، كالمسيحية والإسلام.

الإيمان بآلهة متعدِّدة

ليس من الواضح لماذا يُفتَرَض أنَّ الانتقال من نظام تعدد الآلهة إلى التوحيد هو تطور بديهي نحو الافضل. هذا الإفتراض المقبول بدون جدال استفز ابن وراق[1] (كاتب كتاب لماذا أنا لستُ مُسلماً) فجعله يرى بنباهة أن التوحيد بدوره سيصاب بنفس نكبة تناقص الآلهة حتى ينتهي إلى الإلحاد. الموسوعة الكاثوليكية تنفي كُلاً من التعدُدية والإلحاد في عبارة واحدة وبدون أي مبالاة: "الاعتقاد الإلحادي يدحض نفسهُ بنفسه ولعدم واقعيته لم يحصل على مصداقية إلا من فئة قليلة العدد. كذلك الأمر فلن تستطيع التعدُدية رغم شيوعها بين العوام أن ترضي عقل الفيلسوف"[17].

كان التعصبُ للتوحيد ظاهراً حتى فترة قريبة في قوانين التبرُعات في إنكلترا واسكتلندا. كان هناك تمييزٌ ضدَ الأديان التعدُدية في الإعفاء الضريبي مقابل التساهُل مع المؤسسات الخيرية التي تبشِّر بالاديان التوحيدية، حيث أُعْفيَت تلك المؤسَّسات من التدقيق الصارم والمطلوب كما هو الحال مع المؤسسات العلمانية. أطمح بعضَ الأحيان بأن أقنعَ أحد أعضاء الجالية الهندوسية المحترمة لرفع دعوى قضائية ضد هذه الغطرسة المعادية للتعددية.

الحلُّ الأفضل بالطبع هو ألاَّ تُعطى مؤسسات الدعوة الدينية امتيازات المؤسسات الخيرية. فوائد ذلك ستكون كبيرة على المجتمع وخصوصاً في الولايات المتحدة حيث الأموال الممتصة من قِبَل الكنائس التي لا تخضع للضرائب، والأموال التي تُصْرَف لتلميع أحذية الدعاة الإنجيليين في محطات التبشير التلفزيونية تصل لحدود من الممكن وصفها بإنصاف بالفاحشة. الداعية أورال روبرتس قال لمشاهديه في البث المباشر بأن الربّ سوف يقتله إن لم يعطوه ثمانية ملايين دولاراً. وصدق أو لا تصدق، فقد حصل عليها، وبدون ضرائب أيضاً! روبرتس هذا يزداد قوة يوماً بعد يوم تماماً مثل جامعة "اورال روبرتس" في تولسا بأوكلاهوما والتي تقدَّر قيمة أبنيتها بـ 250 مليون دولاراً، بُنيت بتكليف من الربِّ نفسه كما في الخطاب التالي: "حُثَّ تلاميذك كي يَسمعوا صوتي ويذهبوا إلى حيث نوري خافت، وحيث يُسْمَع صوتي كالهمس وحيث قدرتي على الشفاء غير معروفة، حتى إلى أقاصي الأرض. عملهم سيتجاوز عملك وعندها سأكون راضياً".

---

1. مؤلف علماني من أصل باكستاني ومؤسس المعهد العلماني للمجتمع المسلم. كتب عدة كتب، بعض منها تحدث عن مواضيع مثل أصل القرآن وحياة النبي محمد والدعوة لنشر العلمانية، إسم كتابه بالانكليزية (Why I Am Not a Muslim) (المترجم)

ولهذا، فمن الأفضل أن يلعب المُدَّعي الهندوسي المُتَخَيّل لعبة "إذا لم يكن بإمكانك أن تهزمهم، فالأفضل أن تنضمّ إليهم". التعدُدية ليست في الحقيقة تعدَّدية، إنما هي توحيد متنكِّر في شكل تعددية. هُناكَ إله واحد فقط. الرب براهما الخالق، الرب فيشنو الحافظ، والرب شيفا المدمر، والربات ساراسفاتي ولاكسمي وبارافاتي (زوجات براهما وفيشنو وشيفا)، والرب غانيش الإله الفيل والمئات الآخرون، كلهم ليسوا سوى تجسيدات أو تقمّصات متعددة لهذا الإله الواحد.

على المسيحيين أن يتعاطفوا مع مثل هذه السفسطة. فقد أُريقَت أنهار من الحبر، إن لم نقل الدماء أيضاً، في العصور الوسطى على "سر" الثالوث الأقدس، وأي انحراف فيها جوبه بالقمع كما حصل مع آريوس الاسكندري في القرن الرابع ميلادي حيث أنهُ أنكر أن يكون المسيح من جوهرِ الله. ربما أنت تسأل الآن هل هُناكَ معنى حقيقي لجملة كهذه؟ جوهر؟ أي جوهر؟ ماذا نقصد بذلك؟ الإجابة الأكثر إقناعاً هي: لا شيء تقريباً. ومع ذلك، فإن الخلاف على المعنى شطَر العالم المسيحي لمُدة قرن كامل، وأمر الإمبِراطور قسطنطين بحرق كُل كُتب آريوس. هذهِ طريقة اللاهوت منذ الأزل... التفرقة.

هل هُناكَ إله بثلاثة أجزاء، أم ثلاثة آلهة في واحد؟ الموسوعة الكاثوليكية توضح لنا الأمر في مقطع يُعَدُّ تحفة المنطق اللاهوتي:

> "في وحدانية الرب يوجد ثلاثة أشخاص، الآب والإبن والروح القُدس، كُلٌ مُميز عنِ الآخر. ولهذا، في عقيدة أغناطيوس: الآب إله، والإبن إله، والروح القُدس إله كذلك. وبالرغم من ذلك فليس هُناكَ ثلاثة آلهة، بل هُناكَ إله واحد فقط".

كما لو أنَّ ما سبق لم يكن واضحاً بشكل كافٍ، فالموسوعة تُضيف مقولة القديس غريغوري أبو المعجزات من القرن الثالث:

> "ولهذا لا يوجد أي شيء مخلوق، ولا شيء يخضع لشيء آخر في الثالوث المقدَّس. ولا شيء أُضيفَ لاحقاً كما لو أنهُ لم يكُن موجوداً سابقاً. ولهذا فإن الآب لم يكن أبداً بدون الإبن، ولم يكن الإبن بدون الروح القدس أبداً، وهذا الثالوث غير قابل للتغيير والتبديل إلى الأبد".

مهما كان نوع المعجزات التي اكتَسبَ بِها القديس غريغوري إسمهُ الحركي أبو المعجزات، فمن المؤكد أنها ليست معجزات في البلاغة أو الأمانة الفكرية. فكلماتهُ تحمل نكهة الإبهام اللاهوتي، والتي هي -على عكس العلم والفروع الأخرى للثقافة الإنسانية - لم تتغير خلال ثمانية عشر قرناً. توماس جفرسون أصاب، كمعظم الأحيان، عندما قال:"السخرية هي السلاح الوحيد الواجِب استخدامه ضدَ المقترحات غير الواضحة. يجب أن تكون الأفكار واضحة قبل الإقبال على أي تصرف منطقي بناء عليها، ولا أحد على الاطلاق عندهُ فكرة واضحة عن الثالوث المقدس. الثالوث المقدس هو الـ "كلمة السحرية" للنصّابين ممن يسمون أنفسهم كهنة المسيح".

شيء آخر لا يُمكن عدم الإشارة إليه، ألا وهو الثقة العمياء التي يُصرح بها المتديّنون عن تفاصيل دقيقة لأمورٍ شتى لم ولن يستطيعوا تقديم أي دليل واضح لبُرهانها. ربما أن عدم وجود أدلة هو السبب في تبنيهم العداوة المتشددة تجاه كُل من له آراء أخرى مُختلفة عن آرائهم، وهذا ما يحدث بالأخص في موضوع الأقانيم الثلاثة. جفرسون يسخر بشدة من العقيدة التي تقول أنَّ "هناك ثلاثة آلهة" وذلك في معرض نقده لنظرية كالڤن[1] الدينية. ولكن الفرع المسيحي المُمثَّل بالكنيسة الكاثوليكية، ومغازلتها المُستمرة لتعدد الآلهة، هو ما يدفع هذا التعدد في إتجاه التضخُم. الثالوث المُقدس (سواء كان واحداً أو ثلاثة) موصول بمريم، "ملكة السماء"، إلهة بكل معنى الكلمة باستثناء الإسم وثاني شخصية ألهية بعد الله نفسه يُتَوَجّه إليها في الدُعاء والصلوات. مجموعة هؤلاء المُهِمّين تتضخم وتنتفخ بِجيش من القديسين الذين إنْ لم تجعلهم قدرتهم على الشفاعة أنصاف آلهة، فهي على الأقلِّ تجعلهم مستحقّين لأن يُتَوَجّه إليهم في مجالاتهم التخصّصية.

توجد قائمة عند مجمع المنتدى الكاثوليكي بـ 5120 قديساً[18] مع اختصاصاتهم المُختلفة والتي تضم أوجاع البطن وضحايا العُنف وفقدان الشهية وتُجّار الأسلحة والحدَّادين والعظام المكسورة وخبراء المتفجرات وإضطرابات الأمعاء، حتى لا نذهب أبعد من ذلك. علينا ألاَّ ننسى هنا جوقات الملائكة المضيفين الأربعة مصفوفين في تسع مراتب: السيرافميون والكروبيون وحَمَلة العرش والقوات والسلاطين والسيادات والرياسات ورؤساء الملائكة (رؤساء كل القوات)، وعدد من الملائكة العاديين القدماء، ومن ضمنهم أقرب أصدقائنا، الملائكة التي تحرسنا وتراقبنا دوماً وأبداً. إنَّ قلّة الذوق الادبي في هذه الأساطير تثيرني بشكل ما، ولكن ما يثيرني أكثر هو تلك الثقة وراحة البال التي يعمل بها هؤلاء الأشخاص وهم يخترعون كُل هذه التفاصيل. إنه فقط اختلاقٌ مشين.

لقد اختلق البابا يوحنا بولس الثاني[2] حزمة من القديسين أكثر من كل من سبقهُ من البابوات مجتمعين لقرون خلت، وكان لديه صلة خاصة مع مريم العذراء. ميوله التعدُّدية ظهرت بشكل درامي عام 1981 عندما تعرض لمحاولة إغتيال في روما. ونسب الفضل في نجاته لتدخُل سيدتنا الأم مريم الفاطمية[3]: "إن يداً أمومية وجّهت الرصاصة". هل نستطيع ان نمنع أنفسنا من التساؤل هنا لماذا لم توجه تلك اليد الرصاصة كي لا تصيبهُ على الإطلاق. قد يعتقد آخرون بأن فريق الجرّاحين الذين عملوا لستِّ ساعات لإنقاذه يستحقون بعض التقدير، ولكن ربما أن أيديهم أيضاً كانت موجّهة بواسطة يدي الأم نفسها. النقطة هنا أنه، في رأي البابا، لم تكن فقط أي سيدة من سيداتنا المريميات هي التي وجهت الرصاصة كي لا تصيب مقتلاً منهُ، ولكنها سيدتنا الأم الفاطمية بالتحديد. وبناء عليه، فربما سيدتنا لورد وسيدتُنا غوادالوبي وسيدتنا مادجوغورجي وسيدتُنا آكيتا وسيدتنا زيتون وسيدتُنا غارابانادال وسيدتُنا نوك كنَّ جميعهنّ مشغولات وقتها بمهام أخرى.

---

1. جون كالڤن مُصلح ديني فرنسي قام بإعادة بناء الكنيسة الغربية بناء على نظرية عُرِفَت فيما بعد باسمه (المذهب الكالڤيني). (المترجم)
2. هو بابا الكنيسة الكاثوليكية الـ 264 في السنوات ما بين 1978 و2005 . (المترجم)
3. فاطمة هو اسم مدينة تقع في محافظة سانتارين في وسط البرتغال. (المترجم)

كيف تمكَّن الإغريق واليونانيون والفايكينغ[1] من التغلُّب على مشاكل وألغاز تعدُّد الآلهة؟ هل كان فينوس هو فقط اسم آخر لأفروديت، أم كانتا إلهتين مختلفتين للحُبّ؟ هل كان ثور[2] بمطرقته وجهاً آخر لثوتان؟ أم كان إلهاً منفصلاً؟ من يهتم بهذا؟ الحياة أقصر من أن ننفقها بين معرفة الفرق بين أبناء الخيال هؤلاء. لقد أشرت إلى التعدُدية هنا فقط حتى لا أُتَّهَم بإغفالها، ولن أستطرد أكثر من ذلك. وللاختصار، سأسمي كُل الآلهة سواء كانت متعددة أو موحّدة بـ "الإله". وأنا واعٍ أيضاً بأن الإله الإبراهيمي (أقل ما يُقال) هو ذكوري بشراسة، لهذا سأستعمل ضمير المُذكَّر المناسب لهُ. بعض عُلماء الدين التقدميين يدَّعون بعدم وجود جنس محدد لله. وبعض اللاهوتيات النسويات يُلبسنَ الإله لباس الأُنثى لتصحيح بعض حقوقهنَّ المهضومة عبر التاريخ. ولكن بالنتيجة، ماهو الفرق بين ذكر غير موجود وأنثى غير موجودة؟ وأظن أنَّ في سخافة التقاطع الزائف للطُرق بين علم اللاهوت والنّسويّة، يبدو وجود الإله موضوعاً ثانوياً وأقل أهمية من تحديد جنسه.

أدرك بأنهُ من الممكن لبعض نُقاد الدين أن يتعرضوا للهجوم لفشلهم في تقديرالتنوع الخصب للتقاليد ووجهات النظر العالمية المسمّاة تدين. هُناكَ العديد من الأعمال العلمية المتعلقة بدراسة المجتمعات البشرية، من "الغصن الذهبي" لجيمس فرازير، إلى "شرح الدين" لباسكال بوير، و"نثق بالإله" لسكوت آتران، كلها توثِّق بشكل ساحر الظواهر الغريبة عن خرافات وطقوس. إقرأ كُتباً كهذه، وستُدْهَش بغِنى سذاجة البشر.

لن أتَّبع هذه الطريقة في هذا الكتاب. أنا أشجب الخوارق بكُل أشكالها وأكثر الطرق فعالية للمتابعة ستكون بالتركيز على الأشكال الأكثر ألفة لقُرّائي؛ الشكل الأكثر تهديداً لمُجتمعاتنا. معظم قرائي سيكونون ممن تربوا على إحدى الديانات التوحيدية الأكثر انتشاراً (أربعة لو تضمنت المورمونيين[3]). وكلها تعود بالأصل لأسطورة المؤسس إبراهيم. وسيكون من المُفيد ألا تغيب التقاليد الإبراهيمية عن ذهنِ القارئ خلال قراءة بقية هذا الكتاب.

أرى الوقت مناسباً الآن لإحباط محاولة حتمية للرد على هذا الكتاب والتي ستأتي بلا شك في شكل تقييم له: "هذا الإله الذي لا يؤمن به دوكنز هو إله لا أؤمن به أيضاً. أنا لا أؤمن بِعجوز ذي لحية بيضاء طويلة يسكن في السماء". ذلك العجوز ليس أكثر من تشتيت لعقل المُستمع ولحيته مضجرة بقدر ما هي طويلة. بالتأكيد إن هذا التشتيت هو أسوأ من أن يكون لا علاقة لهُ بالموضوع فقط. بل إن هذا التعليق برسم تلك الصورة السخيفة تهدف للإيحاء بأن القائل يؤمن بإله أقلّ سخافة بقليل من ذلك الإله. أنا أعلم أنك لا تؤمن بعجوز ملتحي يجلس فوق غيمة، فلا داعي لإضاعة المزيد من الوقت على ذلك. أنا لا أهاجم نوعاً معيناً من الآلهة. أنا أهاجم الإله، كل الآلهة، أي شيء وكل شيء خارق وماورائي، أينما وحيثما اخْتُلِقَ أو سيُخْتَلَق.

---

1. مصطلح يطلق بالغالب على ملاحي السفن والتجار والمحاربين الذين نشؤوا في المناطق الإسكندنافية. (المترجم)
2. ثور أحد كبير آلهة الشمال والذي كان يسبب الصواعق. (المترجم)
3. عقيدة مسيحية دينية سائدة منبثقة من حركة قديسي الأيام الأخيرة.

الإيمان بإله واحد

"أكبر شر يُمنع ذكره في قلب حضارتنا هو الديانات التوحيدية. من كتاب من العصر البرونزي البربري يعرف بالعهد القديم، انبثقت ثلاث ديانات ضد البشرية؛ اليهودية والمسيحية والإسلام. هذهِ هي ديانات إله السماء وهي ديانات ذكوريه حرفياً ــ الإله هو الأب القادر على كل شيءــ من هنا البغض الشديد للنساء لألفي سنة في تلك البلدان المصابة بإله السماء ووكلائه على الارض من الذكور". ــ غور فيدال

أقدم الديانات الإبراهيمية الثلاثة، والجد الواضح للديانتين اللاحقتين هي اليهودية: من البداية كانت على شكل عبادة قبلية لإله وحيد، بغيض وعنيف، مهووس بالقيود الجنسية بشكل سقيم وبرائحة اللحم المحترق وبتفوقه على جميع الآلهة المنافسة وتفضيلهُ لقبيلته الصحراوية المُخْتارة. في عهد الاحتلال الروماني لفلسطين نشأ الدين المسيحي على يد بولس الطرسوسي كدين توحيدي متفرع عن اليهودية، ولكن أقلَ تشدَّداً في التوحيد وأقل انعزالية منه، وانفكت المسيحية من الخصوصية اليهودية[1] إلى الدعوة العامة في باقي أنحاء العالم. بعد مئات السنين لاحقاً، عاد محمد وأتباعه للجذور اليهودية التوحيدية الصارمة بِدون أن يأخذوا خصوصيتها العرقية، ونشأ الإسلام على كتاب مُقدس جديد إسمهُ القرآن مضيفاً توجه فكري جديد ألا وهو عقيدة نشر الدين بالقوة العسكرية. المسيحية كذلك انتَشرت بالسيف، مارسها الرومان بعد أن حوّلها الإمبراطور قسطنطين من طائفة صغيرة لامركزية وملاحَقة إلى الدين الرسمي للدولة، وانتشرت بالحملات الصليبية، وبعدها بحملات أوروبية استعمارية مرافَقة بحملات تبشيرية. وفيما يخص هدفي هنا، فإن الديانات الإبراهيمية الثلاثة يمكن التعامل معها دون تمييز. ما لم أذكر شيئاً آخر، فإن الدين المسيحي بالأغلب هو المقصود، ليس لشيء إلا لكونه مألوفاً لديّ أكثر من غيرِه، والفروقات بين الديانات الثلاثة لا تهمّ بقدر التشابهات. ولنْ ألقي بالاً على الإطلاق للديانات الأخرى كالبوذية أو الكونفوشيسية. إن ما يقال بالفعل هو أن هذهِ المذاهب يجب أن تُعامَل كأنظمة أخلاقية أو فلسفات حياتية وليس كأديان.

التعريف البسيط لفرضية وجود الله التي بدأت بها يجب أن تُعَدَّل بشكل جوهري إذا كانت ستلائم الإله الإبراهيمي. فهو لم يخلق الكون فقط، بل هو إله شخصي موجود ضمنه أو خارجه (مهما عنى ذلك)، ويمتلك تلك الصفات الإنسانية البغيضة التي أشرت إليها.

الإله الذي دعا له فولتير وتوماس باين لا يمتلك صفات شخصية على الإطلاق، سواء كانت بغيضة أو محببة. مقارنة مع المريض النفسي المذكور في العهد القديم، إله الربوبين في القِرن الثامن عشر والمسمى بعصر

---

1. الخصوصية اليهودية تكمن في كون اليهود حسب المعتقد اليهودي هم فقط النسل المباشر لأب أسرائيل أبراهيم ولا يمكن لغير اليهود ان يصبحوا يهوداً كونهم ليسوا من نسل أبراهيم . (المترجم)

النهضة، هو أعظم ما يمكن أن يكون: جديرٌ بخلقه للكون، مُتعالٍ عن الأمور الإنسانية، مُترفع عن أفكارِنا وآمالنا، لا يهتم بذنوبنا الفوضوية أو توبتنا المتمتمة. إله الربوبيين فيزيائي لأقصى حدود الفيزياء، هو الألف والياء للرياضيين والمثل الأعلى للمصممين والمهندس الأعظم الذي وضع قوانين وثوابت الكون وضبطها بدقة لامتناهية ومعرفة مسبقة بدقائق الأمور، وبعد أن أشعل فتيل ما نُسميه اليوم بالانفجار العظيم، تقاعَد ولم يُسْمَع منهُ شيء بعد ذلك.

في تلك الأزمنة التي كان فيها الإيمان قوياً، انتُقِدَتْ الربوبية كشكل غير مميز عن الإلحاد. سوزان جاكوبي في كتابها "المفكرون الأحرار: تأريخ العلمانية الأمريكية"، ذكرت قائمة من الشتائم التي أطلقت على المسكين توماس باين: "يهوذا، حيوان زاحف، خنزير، كلب مسعور، قملة، وحش كبير، عنيف، كذاب، وكافر أيضاً بالطبع". باين مات فقيراً ومُهملاً من كُل أصدقائه السياسيين (باستثناء جفرسون) الذين أُحرِجوا بشدة من آرائه المعادية للمسيحية. أما اليوم، فقد تغيرت المقاييس بشكل كبير بحيث أصبح الربوبيون معاكسين للإلحاد ويُجمَعون مع الألوهيين. إنهم -في النهاية- يؤمنون بوجود ذكاء خارق هو الذي خلق الكون.

العلمانية والآباء المؤسسون والدين في أمريكا

الافتراض المتعارف عليه هو أن "الآباء المؤسسين" للجمهورية الأمريكية كانوا ربوبيين؛ ما من شك أن الكثير منهم كانوا كذلك. ولكن هُناكَ إدِّعاء بأن أعظمهم قد يكونون مُلحدين. كتاباتهم عن الدينِ في زمنهم لا تترك مجالاً للشك في أنهم سيكونون من المُلحدين في زمننا. وبغضَ النظر عن وجهات نظرهم الدينية في زمانهم، فإنَ ما يجمعهم هو أنهم كانوا جميعاً علمانيين، وهذا ما أريد أن أتحدث عنهُ هنا وسأبدأ -ربما يبدو ذلك مفاجئاً- بمقولة للسناتور باري غولدواتر من عام 1981 والتي تثبت تشبّث ذلك المرشّح للرئاسة وأحد أبطال المحافظين الأمريكيين بتقاليد العلمانية الثابتة في أساس الجمهورِية.

> " ليسَ هُناكَ من وضع يكون فيه البشر جامدين جداً كما في معتقداتهم الدينية. وليسَ هُناكَ من حليف يمكن لأحدنا استخدامه في أي نقاش أقوى من المسيح أو الإله أو الله أو ما شابه مما يدعى بالخوارق. ولكن كأي سلاح قوي، فإن استعمال اسم الله يجب أن يكون بشكل مقنَّن. والجماعات الدينية التي تنمو في أرجاء وطننا لا تستعمل نفوذها الديني بحكمة. إنهم يُحاولون الضغط على قادة الحكومة لاتباع مذهبهم بشكل تام. وإن إختلفتَ مع مبادئهم الدينية في أي مسألة أخلاقية، فإنهم يشكونك ويهددونك بخسارات مالية أو انتخابية أو بكليهما معاً. وبصراحة، فأنا سئمت وتعبت من هؤلاء الوعاظ المُنتشرين في كُل مكان ومن أقوالهم لي كمواطن بأني لو أردت أن أكون أخلاقياً فعليّ أن أؤمن بكذا وكذا وكذا. مَنْ يظنونَ أنفسهم؟ ومَنْ يعطيهم الحق لإملاء معتقداتهم علي؟ وما يُثير غَضَبي أكثر كمُشَرِع هو تحمّل تهديد أي طائفة دينية ممّنْ يَظنّون بأن لديهم حقاً إلهياً كي يقرروا

كيف سأصوِّت في مجلس الشيوخ. أنا أحذِّرهم اليوم: سأحاربهم في كُل خطوة يحاولون فيها إملاء معتقداتهم الأخلاقية على المجتمع الأمريكي باسم المحافظين"[19].

إظهار الآباء المؤسسين بمظهر ديني يصبّ في مصلحة المروِّجين لليمين الأمريكي اليوم والمتلهِّف لنشر نُسختِه من التأريخ الأمريكي. على العكس مما يدَّعي هؤلاء، فإن حقيقة أنَّ أمريكا لم تؤسّس كدولة دينية مسيحية منصوصٌ عليه في مرحلة مبكرة في معاهدة طرابلس عام 1796 من قِبل جورج واشنطن، وموقَّع عليه من جون آدامز 1797:

"بما أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية لم تتأسّس على أي أُسس مَسيحية، وبما أنها بنفسها لا تحمل أيّ عداء لقوانين، ودين، واستقرار المسلمين، وكما أن الولايات لم تدخل في أي حرب أو عمل عدائي ضدَّ أي أمة مُحمدية، فإن الطرفان يعلنان بأنهُ لا يوجد أيّ ذرائع دينية يمكن أن تؤدي لإفساد التوافق بين البلدين".

إن كلمات الافتتاح في هذه المقولة كافية لخلق ضجيج مُزعِج في واشنطن هذه الأيام. ولكن إد بوكنر برهن بشكلٍ مقنِع أن ذلك لم يتَسبب بأي معارَضة وقتها من أيٍ من السياسيين أو الشعب[20].

هُناكَ تناقض ملحُوظ وقد أُشير إليه في العديد من المرات، وهو أن الولايات المتحدة التي نشأت كدولة علمانية هي الآن الدولة الأكثر تديّناً في العالم المسيحي، بينما إنكلترا، مع كنيستها المؤسسة والمرؤوسة من الملكة حسب الدستور، هي بين الدول الأقل تديُناً. السؤال الذي أواجِههُ باستمرار، ولا أملك إجابة له، هو كيف أصبح الحالُ هكذا. أفترض أنه من الممكن أن إنكلترا أُنهِكَت من الدين بعد التأريخ المُروِّع للعُنف بين الطوائف الدينية، فقد تأرجحت الغلبة بين الكاثوليك والبروتستانت بحيث اضطَّهَدَتْ الواحدة منهما الأخرى. رأي آخر ينشأ من ملاحظة أن أمريكا هي دولة مهاجرين. أحد الزملاء أشار لي بأن المُهاجرين يستعملون الكنيسة كبديل في أرض الغربة للعائلة الكبيرة التي انسلخوا عنها في أوروبا. تلك الفكرة تستحق التمحيص. ليس هُنالكَ شك على أي حال بأن العديد من الأمريكيين يرون في الكنيسة جزءاً من هويتهم، وهذا بالفعل له بعض الدلالة على أن الموضوع مُتعلق بالعائلة الكبيرة.

الفكرة الاخرى لشرح التناقض هذا تأتي من أن الدستور ألأمرَيكي نشأ على أسس علمانية. وبالتحديد، لأنَّ أميركا علمانية قانونياً، أصبح الدين مشروع حُر. الكنائس تتنافس على الرعية، ناهيك عن دسامة الأعشار[1] التي يجمعونها، والمنافسة حامية في الدعاية وتقنيات التسويق. فما يسري على مساحيق الغسيل يسري على الله أيضاً، والنتيجة تقترب من الهوس الديني بين الفئات الأقل ثقافة في المجتمع حالياً. وبالعكس من هذا في إنكلترا، الدين تحت حماية الكنيسة الملكية الرسمية أصبحَ أقرب للتسلية الاجتماعية المُحبّبة وبالكاد يُعْتَبَر تديُناً على الإطلاقِ. وقد عبّر غيل فرايزر، كاهن إنجيلي ومعيد مشرف في أكسفورد للفلسفة،

1. ضريبة العُشْر وهو نظام التبرع للكنيسة مشابه لنظام الزكاة في الاسلام (المترجم).

عن هذا التقليد الانكليزي بشكل لطيف في صحيفة الغارديان. العنوان الثانوي للمقال "المؤسسة الكنسية في إنكلترا أخرجت الله من الدين، ولكن هناك مخاطر في نهج أشد قوة للإيمان":

"في الماضي كان الكاهن في الريف الانكليزي شخصية درامية متذوقاً للشاي، لطيفاً، غريبَ الأطوار بحذاء لامع وطباع سمحة. تمثيل الدين بهذه الشخصية لم يكن مزعجاً لغير المُتدينين. لم يتدخل في موضوع العرقية أو يضغط على أحد ليدلّه على الخلاص ولم يكن يدعو إلى حملات صليبية مِنْ على المنبر أو إلى زرع قنابل على الرصيف باسم أي قوة عليا"[21].

يستطرد فرايزر قائلاً "كاهنُ البلدة اللطيف قد أُعطي في الحقيقة لُقاحاً من شعور الإنكليز المُعادي للمسيحية". وينهي مقالته بالرثاء للاتجاه الذي تسير فيه الكنيسة الإنكليزية طالباً من القائمين عليها أخذ الدين بجدية، وعبارته الأخيرة: "القلق يأتي من الاحتمال القائم بأننا ربما نُطلق مارد التعصّب الديني الإنكليزي من القنينة التي مازال نائماً فيها منذ قرون".

مارد التعصّب الديني مُنتشر في أمريكا اليوم، وكان هذا ليرعبَ الآباء المؤسسين. سواء ألقينا اللوم لهذا التناقض على القانون العلماني المُبتكر أم لا، فإن الآباء المؤسسين لأمريكا كانوا من العلمانيين الذين يؤمنون بفصل الدين عن السياسة بشكل تام. وذلك كاف تماماً لوضعهم بصفّ من يعترض بشدة على الذين يتفاخرون بوضع الوصايا العشر في أبنية الدوائر الحكومية. يدغدغني شعورٌ بأن البعض من الآباء المؤسسين قد ذهبوا لأبعد من أن يكونوا ربوبيين، أعني لاأدريّن، أو حتى مُلحِدين؟ التصريح التالي من جفرسون يجعله في مصافِ مع من نسميهم اليوم باللاأدريين:

"الكلام عن اللاماديات هو كلام عن لا شيء. القول بأن الروح الإنسانية والملائكة والإله، غير ماديين هو القول بأنهم لا شيء، بمعنى أنه ليس هُناكَ روح ولا ملائكة أو إله. لا أستطيع التفكير بغير ذلك... بدون الغوص في متاهات لا يُسبَرَ غَورُها من الأحلام والتوهُّم. أنا راضٍ ومشغول بشكلٍ كاف بالأشياء الموجودة على ما هي عليه، بدون أن أُقلق نفسي أو أشغلها بالأشياء التي ربما تكون موجودة بالفعل ولكن ليس لدي الدليل على وجودها".

كريستوفر هيتشنز. في كتابه، "توماس جفرسون: مؤلِف أمريكا"، يعتقد بأن جفرسون كان مُلحِداً حتى ذلك الوقت حيث كان الإلحاد أكثر صعوبة:

"ينبغي أن نكون حريصين في حكمنا عمّا إذا كان جفرسون مُلحدا أم لا، وذلك بسبب الحكمة والنظر بعواقب الأمور التي كان مُجبَراً على مراعاتها أثناءَ حياته السياسية. ولكنه كتب لابن أخته بيتر كار عام 1787 بأنه على الإنسان عدم الخوف من التساؤل عن أي شيء مهما كانت العواقب. وأضاف:"إذا انتهيتَ للإيمان بأنه ليسَ هُناكَ إله، فستجد حوافز

للفضيلة في الراحة والمتعة التي تشعر بها في هذه المحاولة، وفي محبة الآخرين التي سوف تُحَصّلها"".

برأيي إن النصيحة التالية لجفرسون، مرة أخرى في رسالته لبيتر كار، مؤثّرة:

"أنفض عَنكَ كُل المخاوف من الإجحاف المتذلل الذي تزحف تحتهُ العقول الضعيفة باستسلام. ضع العقل في مكانه واطلب حُكمه في كُل حقيقة وفي كل رأي. وشُكّ بجسارة حتى في وجود الله لأنه إنْ كان موجوداً، فإنه سيستحسن إجلال العقل وتقديره أكثر من الخوف الأعمى".

بعض مُلاحظات جفرسون، مثل "المسيحية هي أكثر الأنظمة التي عرفها الإنسان إنحرافاً"، تتوافق مع الربوبية ولكن مع الإلحاد أيضاً. والشيء ذاته ينطبق على ملاحظات جيمس ماديسون المناهضة للكهنوت: "تجربة المؤسسة المسيحية الرسمية إمتدت حتى الآن لخمسة عشر قرناً. ماذا حصدنا منها؟ على كافة المستويات وبنسب متفاوتة، كبرياء و خمول رجال الدين، جهل وذل العلمانيين؛ وفي كلتا الحالتين، غيبيات وتعصّب وإضطهاد". الشيء نفسه ينطبق على بنجامين فرانكلين: "المنارات أكثر فائدة من الكنائس". آدامز له تقريع مُطَوّل رائع في المسيحية خصوصاً: "الدين المسيحي كما أفهمه هو وحي. لكن، كيف حصل أنَّ الملايين من الخُرافات والقصص والأساطير قد مُزجت بالوحي اليهودي والمسيحي لتجعلهما أكثر الأديان التي وُجدت دموية على الإطلاق؟". وفي رسالة أخرى، وهذه المرة إلى جفرسون: "أكاد أقشَعِر لفكرة التلميح للمثال الأكثر إماتة لسوء استعمال الحزن والذي حفظه التاريخ البشري-الصليب. فكِّر فقط بالكوارث التي سببتها آلة الحزن تلك".

سواء كان جفرسون وزُملاؤه مؤمنين، ربوبيين، لاأدريين، أو مُلحدين، فهم بالتأكيد علمانيون لحدٍّ كبير، ومؤمنون بأن تديّنَ رئيس الجمهورية أو عدمه أمرٌ يخصّه وَحده. كُل الأباء المؤسسين، على اختلاف معتقداتهم مهما كانت، سيصقعون لقراءة الإجابة التي أدلى بها الرئيس بوش الأب لروبرت شرمان على سؤاله عما إذا كان يعتبر أن المُواطنين المُلحدين الأمريكان على نفس المستوى من الوطنية والمواطنة: "لا، لا أعتقد بأن المُلحدين يجب أن يُعْتَبَروا مواطنين أو حتى وطنيين. هذه أمة واحدة تحت راية الله"[22]. على فرض أن شيرمان كان دقيقاً (مع الأسف لم يستعمل آلة تسجيل، ولم تنشر المقابلة في أي صحيفة أخرى وقتها). لنجرب استبدال كلمة "مُلحد" بـ "يهودي"، أو "مسلم"، أو "أسود". هذا سيعطينا صورة لحجم التحامل والتمييز الذي على المُلحدَين في أمريكا تحمّله اليوم. ناتالي آنغير في "إعترافات مُلحد وحيد"، تصف بِحزِن يُحرِكُ العواطف في "نيويورك تايمز" مشاعر العزلة كمُلحدة في أمريكا هذه الأيَام[23]. ولكن العزلة هذه هي وهم زرعه باجتهاد التحيّز والتحامُل. المُلحدون في أمريكا أكثر عدداً مما قد يتصوره الناس. كما ذكرتُ في مقدمة الكتاب، المُلحدون يفوقون المُتدينين اليهود عدداً، ولكن اللوبي اليهودي يعدُّ

أحد أكثر اللوبيات نفوذاً وتأثيراً في واشنطن. ماذا يمكن أن يحصل عليه المُلحدون الأمريكيون لو نظَّموا أنفسهم بشكلٍ صحيح؟*[1]

يروي دايفيد ملْز في كتابه الرائع، "الكون الملحد"، قصة، كنتَ لن توليها الاهتمام كرسم ساخر غير واقعي لتعصّب الشرطة إذا كانت خيالية. أحد دعاة المسيحية المتعصبين للشفاء بالإيمان بدأ حملة "أعاجيب صليبية"، وهذه الحملة تزور مدينة ملْز مرة كُل عام. ومن الأمور التي تدعو لها هذه الحملة أن يُشَجّع مرضى السكري على ترك حُقن الأنسولين، وأن يُشجّع مرضى السرطان على ترك العلاج الكيميائي واستبداله بالدعاء لحدوث معجزة. وبكلِّ رَوِيّة، أراد ملز أن ينظم مظاهرة سلمية لتحذير الناس. ولكنهُ أخطأ بذهابه للشرطة واخبارهم بنيّته وطلب الحماية مما قد يتعرضون له من أتباع ومؤيدي ذاك الداعية للشفاء بالإيمان. الشرطي الأول الذي تكلم معه سألهُ: "هل مظاهرتكَ ستكون مؤيدة أو مضادة؟" (المقصود مع أم ضد الداعية للشفاء بالإيمان)، أجاب ملز: "مضادة"، أجابهُ الشرطي بأنهُ هو شخصياً من أحد المؤيدين للشفاء بالإيمان وينوي البصق في وجه ملز لو مرّ بجانب مظاهرته.

ملز قرّرَ أن يُجرب حظَّهُ مع شُرطي آخر. وذاك أجابهُ بأنه لو أن أحد أتباع الداعية مارس العُنف ضد ملز، فإنه سيقوم بتوقيف ملز لأنهُ "يتدخل في إرادة الله". ذهب ملز لبيته واتصل بمركز الشرطة على أمل أن يجِد تعاطُفاً على مستوى الرتَبِ العُليا. وبالنتيجة تمكَّن من الكلام مع عقيد والذي قال له: "فلتذهب للجحيم يا هذا. لا يوجد شرطي يريد حماية مُلحد ملعون. آمَلُ حقاً بأن يدميك أحدهم". بدا واضحاً الافتقار إلى اللُّطف الإنساني والإحساس بالواجب في مركز الشرطة ذاك. ملز تكلم مع سبع أو ثمان رجال شرطة يومها. لم يحصل على أي عون، بل أغلبهم هدَّده بالعُنف.

كثيرة هي الأحداث من هذا النوع ضدَ المُلحدين. ولدى مارغريت داوني، مؤسسة جمعية "شبكة دعم ضحايا العنصرية" في فيلادلفيا، كتاب بالتعاون مع جمعية المجتمع الحر توثّق فيه سجِلات مصنفة لأحداث كهذه[24]. وقاعدة البيانات لديها مصنَّفة تحت أسماء مثل "المُجتمع، المدارس، أماكن العمل، الإعلام، العائلة والحكومة"، وتحوي أمثلة عن مضايقات مختلفة، كفُقدان الوظائف وتجنُب من أفراد العائلة وتصل في بعض الأحيان إلى حد القتل[25]. إن مدونات داوني عن الكراهية وسوء الفهم التي يواجهها المُلحدون في أمريكا تجعلنا نؤمن بشكل واضح بأنه لا أمل لمُلحِد صريح بِالفوز في أي انتخابات لأي منصب رسمي في الولايات المتحدة.

هنالك 435 عُضواً في مجلس النواب، و100 في مجلس الشيوخ. وبفرض أن الغالبية منهم من الفئة المثقفة من الشعب، فإنه من المُحتَّم إحصائياً أن نسبة كبيرة منهم مُلحدون. من الواضح إنهم كذبوا، أو على الأقل أخفوا مشاعرهُم حتى يتمّ إنتَخابهم. ومَنْ يلومهم على ذلك، إذَا أخذنا بعين الاعتبار الناخبين الذين يجب إقناعهم؟ ومن المعروف للجميع بأن أي محاولة للترشح للرئاسة هي إنتَحار سياسي للمُرشح المُلحد.

أشار توم فلن وهو مصحح لمجلة التساؤل الحر إلى هذه النقطة بوضوح عندما كتب في مقال "لحظة اختراق العلمانية" في العدد 26، ص 16 – 17 سنه 2006 " إذا كان الملحدون وحيدون ومضطهدون، فلن نلوم إلا أنفسنا. عدديا، نحن أقوياء. دعنا نبدأ في ضرب وزننا" [1]

إن تلك الوقائع عن الجو السياسي في الولايات المتحدة، وما تتضمنه من معاني كانت بالتأكيد سترعب جفرسون وواشنطن وماديسون وآدامز وكُل زملائهم. سواء كانوا مُلحدين أو لاأدريين أو ربوبيين أو مسيحيين فإنهم سيتراجعون مرعوبين من السلطة الدينية لواشنطن القَرن الواحد والعشرين. ولَجَعَلَهُم ذلك ينسحبون لرأيِ الآباء المؤسسين العلمانيين في الهِند بعد الاستعمار، وخصوصاً المُتدين غاندي الذي قال "أنا هندوسي، وأنا مسلم، وأنا يهودي، وأنا مسيحيِ، وأنا بوذي"، والمُلحد نهرو الذي قال:

"النظر لِما يسمى بالدين، وأعني أي ظاهرة تدين منظمة، ليس فقط في الهند، بل في كُل مكان، تَملؤني بالرعب، وأنا أعترض عليها كثيراً وأتمنى أن تختفي من الوجود. غالباً ما تكون عبارةً عن إيمان أعمى وردود أَفعال وعقيدة وتعصب وغيبيات واستغلال وتحقيق مصالح شخصية".

إن تعريف نهرو للهِند العلمانية كما حَلم بِها غاندي (لو تحقق ذلك عوضاً عن تقسيم البلد بأنهار من دماء باسم الدين) هو تقريباً ما ردَّدَه جفرسون بذاته:

"نتكلم عن هند علمانية. البعض يظنُ بأن ذلكَ مُعارض للدين. وهذا خطأ واضح. ما تعنيه حقيقة تلك العلمانية هي أن الدولة تُقَدِّر كل العقائد الدينية بالتساوي وتمنحهم فرصاً متساوية. ولدى الهند تاريخ عريق من التعايش الديني... في بلد كالهند حيث يوجد العديد من العقائد والأديان، لا يُمكن أن تبنى الوطنية على أي أساس غير العلمانية"[26].

إن الإله الربوبيين، والذي غالباً ما يتم ربطهُ بِالآباء المؤسسين، هو بلا شك أفضل من وحش الإنجيل. ولكنه للأسف نادر ما كان موجوداً، أو وُجِدَ يوماً ما. وعلى أيِّ حال فإن نظرية الإله بأيِ شكل من أشكالها ليست ضرورية[1]. فرضية الإله هي أيضاً قريبة جداً لأن تكون مستحيلة حسب قوانين الاحتمالية. سآتي على ذكر ذلك في الفصل الرابع بعد أن أتعامل مع الأدلة المزعومة على وجود إله في الفصل الثالث. دعونا الآن نلتفت للاأدرية والفكرة الخاطئة عن أن وجود أو عدم وجود الله هو سؤال عبثي سيكون دائماً خارج نطاق العلم.

فقر اللّاأدرية

كان رجل الدين المسيحي المفتول العضلات ينتقدنا من منبر المُصَلَّى في مدرستنا القديمة عندما اعترفَ بأنه يشعر بالتقدير لِلمُلحِدين. إنهم على الأقل يتحلون بالشجاعة رغم قناعتهم الخاطئة. ما لم يستطع هذا

1. عندما سأل نابليون الرياضي لابلاس كيف استطاع أن يكتب كتاباً كاملاً دون أن يذكر فيه اسم الله، أجابه لابلاس "هذه النظريات لا تحتاج إلى آلهة".

الواعظ تحمّلَهُ كان اللاأدريون الذين وصفهم: بالسخفاء والتافهين والضعفاء، هم كالأعشاب الضارّة، شاحبين جالسين على السياج، إنهم كالشايِ الخفيف بدون لونٍ أو طعم. كان مُحقاً بشكل جزئي ولكن لسبب خاطئ تماماً. وكما زعم كوِنتين دو لا بدُيار، الكاتب والمحرر للصحيفة الكاثوليكية "كاثوليك هرالد"، فإن المؤرخ الكاثوليكي هوغ روس ويليامسون كان "يكنَّ كل الاحترام للمتدينين الملتزمين والمُلحدين الملتزمين أيضاً. ويحتفظ باحتقاره فقط للواهنين الضعفاء المعتدلين الذين يتقلَّبون في الوسط"[27].

ليس هُناكَ من خطأ في اللاأدرية في حالة عدم توفر أدلة تدعم أحد الطرفين. بل إنها الموقف الحكيم في وضع مماثل. كارل ساغان كانَ فخوراً بموقفه اللاأدري عند سؤاله عن وجود حياة في مكان آخر من الكون. وعندما رفض إعطاء رأيه، ضَغَطَ عليه المتَحدث ليسأله عن "شَعوره الداخلي"، فكانت إجابته الخالدة: "لكنني أحاول ألا أفكر من خلال شعوري الداخلي، والواقع أنه من المَناسب أن نؤجل الحكم حتى تتوفر الأدلة"[28]. السؤال عن الحياة خارج الكرة الأرضية سؤالٌ مفتوح. وهناك آراء جيدة في صالح الجهتين، ولكن الأدلة الثابتة غير متوفرة لتؤكد أحد الاحتمالين دون الآخر. اللاأدرية هي الموقف الصحيح في الكثير من الأمور العلمية كما في أسباب انقراض عدد كبير من الأنواع الحية في نهاية عصر البرمي[1]، ذاك الانقراض الأكبر للحَياة في تأريخ الحفريات الأرضية. من المُحتمل أنهُ كان بسبب نيزك مثل الذي تسبّب بانقراض الديناصورات والذي لدينا عليه أدلة كثيرة حالياً، ولكن من الممكن أن يكون لأي سبب آخر، أو لمجموعة من الأسباب مجتمعة. اللاأدرية معقولة في حالَتي الانقراض هاتين. ولكن ماذا عن موضوع الله؟ هل بالمستطاع أن نكون لاأدريين هنا؟ الكثيرون قالوا نعم بدون شك وأحياناً بلهجة حازمة توحي بأنهم على شفير الاعتراض الشديد. هل هم مُحِقّون؟

سأبدأ بالتمييز بين نوعين من اللاأدرية. لاأدرية عملية مؤقتة، وهي الجلوس المشروع على السياج حيث هناك حقاً إجابة محدَّدة بشكل أو بأخر، ولكننا لا نزال نفتقر إلى الدليل للإمساك بها (أو لم نفهم الدليل بعد. أو لم نقرأه بعد. الخ). اللاأدرية العملية المؤقتة تكون موقفاً معقولاً من مسائل كإنقراض الأحياء نهاية العصر البرمي. حيث هُناكَ حقيقة ونأمل بمعرفتها يوماً من الأيام بالرغم من أننا لا نعرفها الآن بالتحديد.

هُناكَ أيضاً نوع آخر لا مفرّ منه من الجلوس على السياج، وهو ما أسميه لاأدرية مبدئية دائمة. أسلوب اللاأدرية المبدئية الدائمة مُناسب لأسئلة ليس لها إجابات محددة أبداً مهما جمعنا من أدلة لأن فكرة الدليل في هذه الحالة لا يمكن تطبيقها. السؤال موجود في حقل مختلف، على بعد آخر، أو في مستوى آخر، وخارج المنطقة التي ممكن أن تصل لها الأدلة. قد يكون مثال على ذلك تلك المسألة الفلسفية التي تدعى بالكستنائية، السؤال فيما لو كنتَ ترى اللون الأحمر أحمراً كما أراه. ربما أن ما تسميه أحمر هو ما أسميه أنا أخضر، أو شيء آخر مُختلف تماماً عن أي لون أستطيع تخيّله. الفلاسفة يستشهَدون بهذا السؤال كأحد الأسئلة المستحيلة الإجابة مهما توفرت أدلة جديدة يوماً ما. وبعض العُلماء والمثقفين يعتقدون، بشكل مبالغ فيه برأيي، بأن مسألة وجود الله مِن عدمه هي من فئة اللاأدرية المبدئية الدائمة،

---

1. العصر البرمي: الفترة قبل 280-230 مليون سنة حيث انقرضت فيه معظم الأحياء التي كانت تعيش من قبله. (المترجم)

وبناء على ذلك كما سوف نرى يحصلون على النتيجة غير المنطقية بأن نظرية وجود الله أو عدم وجوده، حسب رأيهم، لها نفس احتمالية الصحة. الفكرة التي سأدافع عنها هنا مختلفة تماماً: اللاأدرية في حالة الوجود الالهي هي من نوع اللاأدريةَ العملية المؤقتة. الله إما موجود أو غير موجود. السؤال علمي بحت؛ ويوماً ما قد نعرف الإجابة وحتى ذلك الوقت نستطيع الكلام وبشكل ثابت عن الاحتمالات.

في تاريخ الأفكار، لدينا الكثير من الأسئلة التي أُجيب عليها والتي حُكِم عليها في البدء بأنها خارج نطاق العلم. عام 1835، كَتَبَ الفيلسوف الفرنسي المشهور اوغوست كومت عن النجوم:"لن نستطيع أبداً، وباستعمال أي طريقة، أن ندرس المواد الكيميائية التي تؤلف النجوم، أو تركيبها المعدني"، ولكن، وحتى قبل أن ينشر كومت كلامه، كان فراونْهوفر قد بدأ بتحليل بناء الشمس الكيميائي باستعمال المنظار الطيفي. مهما كان نوع لاأدرية كومت، فإن مُستعملي المناظير الطيفية الآن فنَّدوها بدراستهم الدقيقة للمُركَّبات الكيميائية حتى للنجوم البعيدة[29]. ما حصل للاأدرية كومت الفلكية هنا يفتحَ أعيننا، على الأقل، على أنه يجب علينا التروي قبل التصريح المُبكر باللاأدرية الأبدية. رُغمَ ذلك، لا يتوانى العديد من الفلاسفة والعُلماء عن التصريح عن لاأدريتهم عندما يتعلق الموضوع بالله. وعلى رأسهم مخترع المصطلح بذاته ت. هـ. هاكسلي[30].

هاكسلي شرح اختراعه لذلك المصطلح خلال ردِّه على هجوم شخصي عليه عندما صب مدير الكلية الملكية في لندن، الدكتور الموقر وايس، ازدراءه على لاأدرية هاكسلي "الجبانة":

> "ربما هو يُفضل تسمية نفسه باللاأدريِ، ولكن الإسم الحقيقي أقدم من ذلك، إنه كافر؛ أي غير مؤمن. ربِما كلمة كافر تحمل معنى غير سار. وربما يصحّ أن تكون كذلك. إنه لشيء غير سار، ولا يجب أن يكون، لأي شخص أن يقول على الملأ بأنه لا يؤمن بالمسيح".

هاكسلي ليس ممن يترك استفزازاً كهذا يمضي بدون أي رد فعل، وإجابتهُ عام 1889 كانت لاذعة كما يجب أن نتوقَّع (على الرغم من أنه لم يبتعد عن حسن السلوك: كمدافع شرس عن داروين، مسلَّح بالسخرية اللَّبِقة التي اشتهر بها العصر الفيكتوري). وبالنهاية، وبعد أن سدَّد لدكتور وايس ما يستحق من قصاص، عاد هاكسلي لشرح كلمة "اللاأدرية" وكيف خطرت له حيث قال:

> "هناك آخرون كانوا أكيدين من أنهم حازوا بعضاً من "أدرية" حلّوا بها مشكلة الوجود: بينما أنا كنت متأكداً بأنني لم أستطع ذلك، بل كنت مقتنعاً تماماً بأنها مشكلة غير قابلة للحل. وبوجود الفلاسفة هيوم وكانط بصفي، لم يكن لدي الصّلَف للإحتفاظ بذلك الرأي... ولذلك فكرت وابتكرت ما اعتقدته العنوان المناسب لهذا الموقف،"اللاأدرية"".

وفي قسم آخر من خطابهِ، إستطرد هاكسلي ليبين بأن اللاأدرية ليست مذهباً بأي معنى، ولا حتى بالمعنى السلبي.

"اللاأدرية بالواقع، ليست مذهباً، ولكنها طريقة نواتها الإلتزام الدقيق بمبدأ بسيط... المبدأ يمكن أن يُعَبّر عنه بالإيجاب: عندما يتعلق الأمر بالفكر والمنطق، إتَّبع عقلك لأقصى ما يمكن أن يأخذك وبدون الإهتمام بأي اعتبارات أخرى. ويمكن أن يُعبّر عنه بالنفي: عندما يتعلق الأمر بالفكر والمنطق، لا تتظاهر بأن النتائج غير المُبَرْهَنة أو القابلة للبرهان، هي أكيدة. هكذا أفهم اللاأدرية التي إذا استطاع المرء أن يبقيها على كليّتها وصفائها، فإنه يستطيع أن ينظر للكون وجهاً لوجه، دون خجل، وبغض النظر عما يخبئه المستقبل له".

هذه كلمات نبيلة بالنسبة لأي عالم، ولا أحد ينتقد هاكسلي ببساطة. ولكن هاكسلي، بتركيزه على فكرة استحالة برهان وجود أوعدم وجود الله، يبدو أنه قد أهمل الفوارق الاحتمالية. إن استحالة البرهان على وجود أو عدم وجود شيء ما لا يجعل وجوده وعدمه على نفس درجة الاحتمالية. ولا أعتقد أن هاكسلي لا يوافق على هذا، وأظن بأن ما يبدو كذلك من تصريحاته ما هو إلا جهد استثنائيّ من قبَله للتسليم بنقطة معينة لمصلحة تثبيت وتأمين نقطة أخرى أكثر أهمية. كلنا فعلنا ذلك بوقت أو بأخر.

وبعكس هاكسلي، سأقترح بأن وجود الله هو فرضية علمية كغيرها. بالرغم من أنه من الصعب تجربتها عملياً، لكنها تدخل ضمن اللاأدرية المؤقته كما هو الحال في الخلافات حول أسباب انقراض الأحياء نهاية العصر البرمي والطباشيري[1]. وجود الله أو وعدم وجوده هو حقيقة علمية عن الكون، وقابلة للاكتشاف من حيث المبدأ إن لم يكن عملياً. إذا كان موجوداً واختار أن يكشفَ عن وجوده، لَكان الله نفسه حسم الجدال بصَخَبٍ وبشكلٍ لا لَبْسَ فيه لصالحه. لكن حتى لو كان من غير المُمكن البرهان على وجوده أو عدمه بشكل قاطع، بطريقة أو بأخرى، فإن الأدلة المتوفرة والعقلانية قد تعطينا تقديراً لاحتمالية بعيدة عن الـ 50 بالمائة.

لذلك دعنا الآن نأخذ طيف الاحتمالات بشكل جدي ونضع آراء البشر حول وجود الله على طول الطيف بين حقيقتين متناقضتين. الطيف متواصل دون انقطاع، ولكن يمكن أن يمثَّل بسبع نقاط مركزية فيه.

1. ألوهي بشدة. 100 بالمائة واثق من احتمالية وجود الله. كما في كلمات س. ج. يونغ الذي قال. "أنا لا أؤمن... بل أعرف".
2. احتمال عالي جداً ولكن أقل من 100 بالمائة، ألوهي واقعياً. "لا أستطيع المعرفة بشكل لا يقبل الشك، ولكن أؤمن بقوة بالإله وأعيش حياتي على افتراض أنه موجود".
3. أكثر من 50 بالمائة ولكن ليس أعلى بكثير. لاأدريّ عملياً، ولكن يميل للألوهية "لست متأكداً بأي شكل، ولكنني أميل للإيمان بالله".
4. 50 بالمائة على التمام. لاأدريّ بشكل تام وحيادي. "وجود الله أو عدمه له نفس الاحتمالية".
5. أقل من 50 بالمائة بقليل. لاأدري عملياً، لكن يميل للإلحاد. "لا أعرف إن كان الله موجوداً، ولكني أميل للشك في وجوده".

1. الفترة الممتدة بين 135 إلى 23 مليون سنة مضت. وفيه انقرضت الديناصورات بعد أن عاشت فوق الأرض 100 مليون سنة. (المترجم).

6. احتمال ضعيف جداً. ولكن أكثر من الصفر. مُلحد واقعياً. "لا أستطيع أن أعرف بشكل مؤكد، ولكن أعتقد أن وجود الله احتمال ضَعيف جداً وأنا أعيش حياتي على فرض أنه غير موجود".
7. مُلحِد بشدة. "أعلم بأنه ليس هُناكَ إله، بنفس نسبة "معرفة" يونغ أن هناك إله".

سأكون متفاجئاً لو التقيتُ كثيراً من الناس في المرتبة السابعة، ولكني أدخلت هذه المرتبة للتناسُق فقط؛ لتحقيق قدر من التوازن مع المرتبة الأولى والتي هي منتشرة جداً. قدرة شخص مثل يونغ على أن يملك إيماناً دون سبب كاف لفعل ذلك هي من طبيعة الإيمان (يونغ يؤمن أيضاً بأن بعض الكتب في مكتبته انفجرت فجأة وأصدرت دوياً عالياً). المُلحدون ليس لديهم إيمان، كما أنَّ السبب وحده لا يمكن أن يدفع المرء إلى الاقتناع التام بأن أي شيء يمكن ان يكون غير موجود بالتأكيد. ولهذا، فالنقطة السابعة عملياً أكثر فراغاً من نقيضتها النقطة الأولى التي لها الكثير من الأتباع المخلصين. شخصياً أعتبر نفسي في الخانة السادسة، وأميل للسابعة. وبالتالي، لاأدريتي بالنسبة لله هي تماماً بمستوى لاأدريتي بالنسبة للجنيات التي تسكن في الحديقة.

يتماشى طيف الاحتمالات المذكور بشكل جيد مع اللاأدرية العملية المؤقتة. وهناك إغراء سطحي لوضع اللاأدرية المبدئية الدائمة في وسط طيف الاحتمالات مع احتمال 50 بالمائة لوجود الله، ولكن ذلك لا يصح. اللاأدرية المبدئية الدائمة تجزم بعدم استطاعتنا قول أي شيء لدعم أي طرف من طرفي السؤال حول وجود الله. السؤال حول وجود الله أو عدمه بالنسبة لأتباع اللاأدرية المبدئية الدائمة هو غير ممكن الإجابة بالمبدأ، وعليهم أن يرفضوا بصرامة وضْع أنفسهم في أي مكان على طيف الاحتمالات. كوني لا أعرف أن اللون الأحمر عندك هو اللون الأخضر عندي، لا يجعل الاحتمال هو 50 بالمائة. فالاقتراح المقدَّم هنا ليس له أي معنى ليبجّل باحتمال. بالرغم من ذلك، فإن هذا خطأ شائع وسنرى أمثالهُ لاحقاً، ألا وهو القفز من المُسلَّمة القائلة بأن السؤال حول وجود الله أو عدمه سؤآل عبثي لا يمكن الإجابة عليه، إلى الإستنتاج أن وجود الله من عدم وجوده احتمالان متساويان.

طريقة أخرى للتعبير عن هذا الخطأ بالرجوع إلى عبء الإثبات، وقد شرحها بيرتراند راسل بشكل لطيف في مثاله عن إبريق الشاي السماوي[31].

"كثير من المتدينين الأرثوذوكسيين يتكلمون وكأن على المُشككين أن ينفوا العقائد الشائعة بدلاً من أن يُبرهنها العقائديون. وهذا بالطبع خطأ. لو أني زعمت بأن هُناكَ إبريق شاي صيني بين الأرض والمريخ يدور حول الشمس بمدار بيضاوي، فلن يستطيع أحد أن يبرهن أنني مخطئ في ما زعمته، شريطة أن أكون حذرا فأضيف أن إبريق الشاي هذا هو من الصغر بحيث لا يُمكن رؤيته حتى باستعمال أقوى التلسكوبات. ولكن إذا كنت سأستمر في قول ذلك، وبما أنَ زعمي لا يُمكن دحضه فإنه من غير المقبول أن يشكّك أحد في صدقه، من المفترض أن يعتبر هذا الكلام هراءً. و لكن إذا كان، بأي حال، وجود هذا الإبريق موثَّقاً في الكتب القديمة، ويدرّس كحقيقة مقدَّسة كُل يوم أحد، ومغروس في رؤوس الأطفال في

المدارس، فإن التردد في قبول وجوده من شخص ما سيضعه مع فئة غريبي الأطوار وفي حاجه إلى اهتمام طبيب نفسي في العصر الحديث، أو القاضي في أزمنةٍ خلت".

لن نضيع الوقت بترهات كهذه لأنهُ، على حد علمي، لا أحد يعبد أباريق الشاي[1]. ولكن لو تمّ الضغط علينا، فلن نتردد في إعلان إيماننا الشديد بعدم وجود إبريق يدور. وبهذا سيكون علينا أن نكون جميعاً لاأدريين إبريقيين: لأننا لا نستطيع برهان عدم وجود إبريق شاي سماوي بشكل أكيد. وعملياً فإننا تحولنا من لاأدريين إبريقيين إلى لاإبريقيين.

أحد الأصدقاء الذين تربوا على اليهودية ولا يزال يمارس طقوسها بسبب الولاء للتراث اليهودي يصف نفسه "لاأدري تجاه جنيات الاسنان". إنه يعتبر احتمال وجود إله كاحتمال وجود جنيّات الاسنان. لا يُمكن أن تنفي قطعياً وجود أيٍ من الفرضيتين، وكلتاهما متساويتان في ضآلة احتمالهما. هو ملحد بقدر ما هو لا جنّياتيّ. وهو لاأدري بالنسبه للاثنين بنفس النسبة الصغيرة.

إبريق الشاي الخاص براسل ينطبق على عدد لامنتهي من الأشياء الممكن تخيل وجودها والتي لا يمكن نفي وجودها. يقول المُحامي الأمريكي الشهير كليرانس دارو: "لا أؤمن بالله كما لا أؤمن بالإوزة الأم"[2]. الصحفي آندرو موللر يرى بأن الإلتحاق بأي دين ليس أقل غرابة من أن تعتقد بأن الأرض معيّنية الشكل، محمولة عبر الكون بكماشات إثنين من جراد البحر الأخضر الهائل يُدْعَوان أزميرالدا وكيث[32]. التشبيه المفضل عند الفلاسفة هو وحيد القرن الخفي والصامت وغير الملموس والذي يحاول الأطفال كُل سنة في مخيم كامب كويست نفي وجوده[3]. إلهٌ آخر بدأ ينتشر الآن على الإنترنت، وغير قابل للإنكار تماماً كيهوه والآخرين، ألا وهو وحش السباغاتي الطائر، العديد يشهدون بأنه لمسهم بأطرافه المعكرونية[33]. ويسرني أن أنجيل وحش السباغاتي الطائر قد نُشِرَ مؤخراً على شكل كتاب[34]، وأقدر لهُم ذلك. لم أقرأهُ بنفسي بعد، ولكن من الذي يحتاج لقراءة كتاب مقدس عندما "تعرف" مسبقا أنه صحيح؟ وعلى فكرة، و مما كان لابد أن يحدث، هو الانشقاق الكبير الذي ستنتُج عنه الكنيسة الإصلاحية المُعدَّلة[4] لوحش السباغاتي الطائر[35].

الغرض من المُبالغة بهذه الأمثلة هو التأكيد على أنه لا يُمكن نقضها، ورُغمَ ذلك فلا أحد يفكر بأن احتمال وجودها مساوٍ لاحتمال عدم وجودها. الفكرة التي أراد راسل توضيحها هي أن مسؤولية البرهان تقع على

1. يبدو أنني استعجلت في كتابتي بان لا أحد يعبد أباريق الشاي، في الخامس من حزيران 2005 قرأت في صحيفة الإندبندنت التالي. :(الدوائر الماليزية أعلنت عن أن طائفة دينية قامت ببناء إبريق شاي كبير مقدس وفيه خالفت مواصفات البناء المفترضة للمدينة)، راجع الخبر أيضاً على بي.بي.سي نيوز. HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/2/HI/ASIA-PACIFIC/4692039.STM.

2. شخصية كارتونية (المترجم)

3. مخيم كامب كويست هو مخيم صيفي للاطفال فريد من نوعه في الولايات المتحدة الامريكية مقارنة بباقي المخيمات التي تديرها مجموعات دينية مختلفة، فإن كامب كويست الذي أسسه أيدوين وهيلين كاجين في مدينة كينتوكي يقوم بإدارته مجموعة ذات توجهات إنسانية تدفع الاطفال للتفكير بصورة مستقلة ونقدية، بالاضافة الى كل النشاطات الاخرى التي يقومون بتنظيمها. شاهد (WWW.CAMP-QUEST.ORG).

4. الكاتب هنا يحاول أن يقارن بصورة ذكية بين الكنيسة المسيحية والانشقاقات التي حدثت فيها وبين كنيسة وحش السباغيتي الطائر. (المترجم)

المؤمن وليس على غير المؤمن. وفكرتي أنا متعلقة بذلك، وهي أن احتمال وجود إبريق الشاي، أو (وحش السباغاتي وازميرالدا وكيث، ووحيد القرن الخرافي و... الخ) ليس مساوٍ لاحتمال عدم وجودهم.

إن عدم إمكانية نفي وجود إبريق الشاي المداري والجنّيات لن يسبب لأي شخص عاقل أي شعور بأن الموضوع يستحق الاهتمام أساساً. ولا أحد منا يحسّ بالحاجة لإثبات عدم وجود الملايين من الأشياء التي يأتي بها الخيال الخصب، أو يحلم بها أي عقل. لقد وجدتُ إستراتيجية مُدهشة للإجابة على التساؤل عن إلحادي بأن أنوه بأن الذي يسألني هو مُلحد أيضاً فيما يتعلق بزيوس وأبولو وآمون وراع وميثراس وبعل وثور وأودن والعجل الذهبي ووحش السَباغاتي الطائر. وكُل ما أفعلهُ أنا هو إضافة إله واحد آخر للمجموعة.

الكل يشعر بأن لديه الحق للتعبير عن الشك الشديد لحد التصريح بالتكذيب أحياناً، باستثناء أننا لانحتاج للقلق لفعل ذلك (هذه الايام) في حالة وحيد القرن والجنيات وآلهة الإغريق واليونان والمصريين القدماء والرومان والفايكينغ. أما في حالة الإله الإبراهيمي، فعلينا أن نزعج أنفسنا بشأنه لأن هُناكَ العديدين ممَن نتقاسم معهم الحياة على سطح هذا الكوكب يؤمنون بقوة بوجوده. ومثال راسل عن إبريق الشاي يبيَن لنا أن انتشار الإيمان بوجود إله في كل مكان، مقارنة بالإيمان بالإبريق السماوي، لا يغير عبء البرهان منطقياً، بالرغم من أن الأمر يبدو كذلك في لعبة سياسية عملية. إن عدم القدرة على برهان عدم وجود الإله مقبول وبديهي، ولكن هل من الممكن إثبات عدم وجود أي شيء. والمهم هنا هو ليس إذا كان من الممكن نفي وجود الله (ذلك غير ممكن)، ولكن إن كان وجودهُ محتملاً. وهذا موضوع آخر. بعض الأشياء التي لا يُمكن لأحد البرهان على عدم وجودها نحكم بأن وجودها أقل احتمالاً من أشياء أخرى لا يُمكن إثبات أو نفي وجودها. ليس هُناكَ أي سبب يستثنى الله من وضعه ضمن طيف الاحتمالات. وبالتأكيد ليس هُناكَ أي سبب للإفتراض، فقط لأننا لا نستطيع البرهان على وجود الله أو عدمه، أن احتمال وجوده هو 50 بالمائة. إنه على العكس كما سنرى لاحقاً.

الاختصاصات الغير متداخلة - ا.غ.م

كما تكلَّف هاكسلي العناء ليؤيد اللاأدريين النزيهين كلامياً، فالشيء نفسه يفعله الألوهيون في منتصف سلم الاحتمالات السبعة ولكن من الجهة المعاكسة ولسببٍ مكافئ. عالم الدين آليستير ماكغراس ركز على ذلك في كتابه "إله دوكنز: جينات، ميميات[1] وأصل الحياة". بالفعل، بعد ملخص عادل ومثير للإعجاب عن أعمالي العلمية، يبدو وكأنما بقي لديه نقطة واحدة في رده عليّ: هذه النقطة التي لا يمكن نكرانها بالرغم من ضعفها وهي أنك لا تستطيع أن تثبت عدم وجود الله. وصفحة بعد أخرى، وأنا أقرأ في كتابه هذا،

1 .الميمة (MEME) مصطلح تم سكه عام **1976** من قبل المؤلف نفسه، ويشير هذا المصطلح إلى "وحدة المعلومات الثقافية" التي يمكن نقلها من عقل لآخر بطريقة مشابهة لانتقال الجينات الوراثية من فرد لآخر. (المترجم)

أجد نفسي أخربش على الهوامش "إبريق شاي". مستحضراً هاكسلي مرة أخرى، يقول ماكغراس "ضقت ذرعاً بالمؤمنين والمُلحدين معاً وهم يقيمون الحجج العقائدية القائمة على أدلة تجريبية ناقصة، هاكسلي صرّح بأنه لا يُمكن الإجابة عن السؤال المتعلق بالله بإستعمال الطرق العلمية".

ويستطرد ماكغراس بالاقتباس من ستيفن جاي غولد في محاولة مشابهة: "أقولها لكل الزملاء وللمرة المليون (من جليسي الكليات، وحتى مقدِّمي الأطروحات العلمية): العلم ببساطة لا يستطيع (بإستعمال الطرق الشرعية) الفصل في قضية ما إذا كان الله قائماً ومراقباً للطبيعة. لا نؤكد ولا ننفي ذلك؛ ببساطة لا نستطيع التعليق على هذا الموضوع كعلماء". وبالرغم من كُل هذه الثقة الرهيبة والنبرة الحادّة فيما يزعم، ما الذي يبرر ذلك؟ لماذا لا يحق لنا كعلماء التعليق على موضوع الله؟ ولماذا لا يكون إبريق الشاي ووحش السباغاتي الطائر منيعين من الشك العلمي بنفس الدرجة؟ وكما سأناقش الآن، فإن كوناً مع خالق مُشرف عليه سيكون حتماً نوعاً مغايراً للكون بدون خالق. لماذا الحكم بأن هذا ليس سؤالاً علمياً؟

غولد يبذل جهداً اشتثنائياً في كتابه -الأقل إثارة للإعجاب بين كتبه - "صخور الأزمنة". وفيه طرح مصطلح جديد يعرف بـ "الاختصاصات غير المتداخلة"[1]، واختصارها ا.غ.م:

> "الشبكة العلمية، أو الاختصاص الخاص بالعلم، تغطي العالم التجريبي: مما يتكون الكون (حقيقة) وكيف يعمل بهذا الشكل (نظرية). اختصاص الدين يمتد ليعنى بما يتعلق بالمعاني المطلقة والقيم الأخلاقية. هذان الاختصاصان لا يتداخلان، ولا يشملان كل مجالات البحث (كمثال، مجال الفن ومعنى الجمال). ولنستشهد بالمقولة القديمة. العلم يحدد أزمنة الصخور، والدين يعرفنا على صخرة الأزمنة، العلم يدرس السماء، والدين يرينا كيفية الصعود إليها".

يبدو ذلك رائعاً؛ إلى أن تفكر بهذا الكلام لبرهة. ما هي تلك الأسئلة الأبدية التي يُعتبر الدين فيها ضيف الشرف الذي يستطيع الإجابة عليها، بينما على العلم، بكل احترام، أن ينسلّ خلْسةً بعيداً؟

مارتن ريس، الفلكي المميز من كامبردج والذي ذكرته مُسبقاً، يبدأ كتابه "بيئتنا الكونية" بطرح سؤالين، وأعطى (بناء على" الاختصاصات غير المتداخلة") إجابة محابية للاختصاصات غير المتداخلة: "السؤال البارز والغامض هو لماذا أي شيء موجود أصلاً. ما الذي ينفث الحياة في المعادلات ويجعلها حقيقة كونية؟ أسئلة كهذه هي خارج نطاق العلم، بل هي في مجال الفلاسفة وعُلماء الدين". ولكن أنا أفضل القول بأنه، لو كانت خارج نطاق العلم بالفعل، فهي بالتأكيد خارج نطاق الدين أيضاً (وأشكُ بأن الفلاسفة سيشكرون ريس على وضعهم صفاً لصف مع رجال الدين). شيء ما يدفعني لأن أتساءل عن السبب الحقيقي الذي يعطي الحقَ لرجال الدين بأن يكون لديهم نطاق أساساً؟ ولا أزال أذكُر بفكاهة تعليق عميد كلية أوكسفورد السابق. أحد شباب طلاب العلوم الدينية كان قد قدَّم طلباً بمنحه عملاً كباحث وكانت أطروحته

---

1. NOMA, Non-overlapping magisteria (المترجم)

للدكتوراه عن اللاهوت المسيحي، مما دفع العميد للقول "عندي شكوك جدية عن إمكانية اعتبار ما تقوم به موضوعاً للبحث أساساً".

ما هي نوع الخبرة التي يقدمها عُلماء الدين في الأسئلة الكونية العميقة والتي لا يستطيعُ العُلماء الإجابة عنها؟ رَوَيتُ في كتاب آخر كلمات لفلكي من أوكسفورد عندما سألتُه أحد تلك الأسئلة العميقة حيث قال: "آه، لقد خرجنا الآن من نطاق العلم. هنا عليّ أن أحيل السؤال على صديقي رجل الدين". لم تكن لديّ سرعة البديهة اللازمة حينها للإجابة بما كتبته لاحقاً: "ولكن لماذا رجل الدين؟ وليس الجنائني أو الطباخ؟" لماذا يحترم العلماء بشكلٍ عظيم طموح رجالات الدين عندما يتعلق الموضوع بأسئلة ليسوا مهيّئين بالتأكيد للإجابة عنها أكثر من العُلماء أنفسهم؟

الكليشه المتكرَر بملل (وعلى عكس الكليشيهات الأخرى، ليست حتى صحيحة) الذي يقول بأن العلم يبحث في أسئلة من نوع كيف، بينما الدين هو المجال الوحيد المهيّأ للإجابة عن لماذا. وما هو تعريف (السؤال لماذا) بحق السماء؟ لا يمكن اعتبار كُل عبارة تبدأ بكلمة "لماذا" سؤالاً شرعياً. لماذا وحيد القرن الخرافي أجوف؟ بعض الأسئلة ببساطة لا تستحق إجابات. ما هو لون التجريدية؟ ما هي رائحة الأمل؟ أن تكون الجملة صحيحة قواعدياً فإنَّ ذلك لا يجعلها ذات معنى، أو أنه يجب أخذها بجدية. وحتى إذا كان السؤال صحيحاً، فإنَّ حقيقة أنَّ العلم لا يستطيع الإجابة عليه لا يعني أنَّ الدين يستطيع ذلك.

رُبما هُناكَ أسئلة عميقة وصادقة وذات معنى تقع خارج نطاق العلم إلى الأبد. ربما بعض أوجه نظرية الكم تقترب من ذلك. ولكن ما الذي يجعل أيّ منا يفكر بأنه لو عجز العلم عن إعطاء إجابة لسؤال ما فإن الدين سيجيب عليه؟ أشكُّ بأنَّ فلكيّا كامبردج وأكسفورد يعتقدان حقاً أن علماء اللاهوت لديهم الخبرة التي تؤهلهم للإجابة على أسئلة علمية عميقة. وأعتقد أنهُ كلاهما، مرة أخرى، يتكلّفان ليكونا مهذَّبَيْن: علماء اللاهوت ليس لديهم أي شيء ذي قيمة ليقولوه في أيّة مواضيع أخرى، لذلك دَعنا نشغلهم ببعض فُتات الأسئلة، التي لم يستطع، وربما لن يستطيع، أحد الإجابة عنها. على عكس أصدقائي الفلكيين، لا أعتقد أنَّ علينا إشغالهم حتى بالفُتات. لا أرى حتى الآن أي سبب جيد لافتراض أن علم اللاهوت هو موضوع للإختصاص على الإطلاق (لا يتضمن ذلك تاريخ الدين وآدابه اللغوية... الخ).

وبالمثل، يمكن أن نتفق جميعاً على أنَّ أهلية العلم لنصحنا فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية فيه إشكالية ايضاً، كي لا نبالغ. ولكن هل يريد غولد حقاً أن يعطي الحق للدين ليخبرنا ما هو الجيد وما هو السيء؟ إنَّ حقيقة أنَّ الدين لا يملك شيئاً آخر ليقدمه للإنسانية ليس سبباً لإعطائه الحق بأن يملي علينا كيف نتصرف. وأي دين على أي حال؟ الدين الذي صادَف أن تربّينا عليه؟ وأي كتاب من الأناجيل علينا اتباعه، حيث أنهم مليئون بالتناقضات، وبعض الآراء مقرفة بكل المقاييس. كم من الذين يؤمنون بالمعنى الحرفي للإنجيل قرؤوا ما يكفي منه ليعرفوا بأنَّ عقوبة ممارسة الجنس وجمع الحطب يوم السبت ومخاطبة الأهل بوقاحة، هي الموت؟ لو استثنينا سفْر التثنية، وسفْر اللاَّويين (كما يفعل المحدثين) فعلى أي أساس نقرر القيم الدينية التي نتقبلها، أم لعلَ علينا اختيار القيم التي تناسبنا من بين ديانات العالم؟ وعندها علينا

أن نسأل ثانية، ما هي المعايير التي نستعملها؟ ولو كان لدينا معيارٌ مُستقلٌ للاختيار بين أخلاقيات الديانات، لماذا لا نستبعد ذلك الوسيط ونختار قيمنا بمعزل عن الدين؟ وسأعود لهذا السؤال في الفصل السابع.

ببساطة لا أستطيع تصديق أن غولد قد عنى الكثير مما كتبه في "صخور الأزمنة". وكما قلتُ سابقاً، نحن جميعاً تكلَّفْنا العناء لنكون لطفاء مع خصم لا يستحق، ولكنه ذو نفوذ. وأنا أعتقد أن هذا ما فعله غولد. من المعقول أنه عنى صراحة وبقوة بأن العلم ليس لديه أي شيء يقوله فيما يتعلق بوجود الله: "لا نستطيع تأكيده أو نفيه، ببساطة لا نستطيع أن نعلِّق على ذلك كعُلماء". هذا يبدو نوعاً من اللاأدرية الدائمة وغير القابلة للنقض. هذا يعني أن العلم ليس قادراً حتى أن يطلق أحكاماً عن إحتمالية هذا السؤال. وهذه مغالطة شائعة بشكلِ كبير - الكثيرون يرددونها كشعار، ولكن أظن أنَّ قليلاً منهم فكَّر بها - وهي تحمل في طياتها ما أرمز إليه "بفقر اللاأدرية". بالمناسبة، لم يكن غولد لاأدرياً متجرداً، بل كان يميل بقوة لفئة مُلحِد واقعي أو فعلي. إذا لم يكن هُناكَ ما يقال عن وجود الله، فعلى أي أساس اتَّخذ هذا القرار إذاً؟

نظرية الإله تتضمن أن الواقع الذي نعيش فيه لهُ فاعلٌ خارِق هو الذي صمّم الكون، وهو -على الأقل في العديد من فروع هذه النظرية- يقوم بصيانته على الدوام، وأحيانا يتدخل فيه بِمُعجزات، والمعجزات هي خرق للقوانين غير القابلة للتغيير. ريتشارد سوينبورن، أحد قادة عُلماء اللاهوت الإنكليز، يُفاجِئُنا بوضوحه في هذا الشأن في كتابه "هل هُناكَ إله؟":

> "ما يزعمهُ الألوهي عن الإله هو أن لديه القدرة على الخلق، وعلى حفظ أو إبادة أي شيء كبير أو صغير، وأنه يستطيع جعل الأشياء تتحرك أو تفعل أي شيء آخر... يستطيع أن يجعل الكواكب تتحرك بالطريقة التي اكتشفها كبلر، وأن يجعل البارود ينفجر عندما يقترب عود ثقاب منه، ويستطيع جعل الكواكب تتحرك بأي طريقة أخرى، وجعلَ المواد المتفجرة عادة لا تتفجر تحت نفس الظروف. الإله ليس محدوداً بقوانين الطبيعة، فهو الذي وضعها ويستطيع أن يغيرَها متى شاء".

ما أسهل هذا، أليس كذلك! أياً كان ذلك، فإنه بعيد كل البعد عن "الأختصاصات غير المتداخلة". ومهما كان بإمكانهم أن يقولوا، فإن على هؤلاء العُلماء المنتسبين لمدارس فكرية تتعلق بـ "الأختصاصات المنفصلة"، أن يعترفوا أن كوناً مع خالق خارق سيكون مُختلفاً عن كون بدون خالق. والفرق بين الكونين المفترضيّن نادراً ما يكون أساسياً بالمبدأ، بالرغم من أنه ليس من السهل تجربة ذلك عملياً. ذلك يقوض القول المأثور والمغري بأن على العلم السكوت تماماً عندما يتعلق الأمر بمسائل دينية بحتة. وجود أوغياب الخالق الخارق هو سؤال علمي بلا شك، حتى وإن لم تتم عملياً -حتى الآن- الإجابة عليه. وكذلك الأمر بالنسبة لصحة أو كذب كُل واحدة من قصص الإعجاز التي يَعتمد عليها الدين ليؤثِّر في نفوس العديد من المؤمنين.

هل كان للمسيح عيسى أبٌ إنساني، وهل كانت أمهُ عذراء يوم ولدته؟ سواء كان أو لم يكن لدينا دليل نقرر على أساسه، فلا يزال هُناكَ سؤال علمي صارم وإجابة مبدئية محددة: نعم أو لا. هل أقام المَسيحُ أليعازر من الموت؟ وهل قام هو نفسه ثانية بعد ثلاثة أيام من صلبه؟ هُناكَ إجابة لكل سؤال من هذا النوع سواء كان أو لم يكن لدينا دليل عملي، وهو جواب علمي محض. كما أن الطرق الواجب استعمالها لحل المسألة في حال العثور على أدلة مُساعدة عملية، يجب أن تكون طرقاً علمية صِرفة. ولجعل المسألة أكثر درامية، لنفترض بأننا، ولسببٍ ما، عثرنا على دليل يقول بأن الحمض النووي للمَسيح لا يوجد فيه أثر لأب بشري، فهل ننتظر من رجالِ الدينِ أن يهزوا أكتافهم بمقولات على وزن... "وما يهم ذلك؟ الأدلة العلمية ليس فيها ما يخص علومَ الدين. هذا اختصاص آخر! ما يهمّنا هو السؤال الأبدي عن المسائل الأخلاقية. لا حمض نووي أو أي اكتشاف علمي آخر سيكون له أي تأثير على اختصاصنا بأي شكل من الأشكال". ؟؟

الفكرة بحد ذاتها سخيفة، بل ونستطيع أن نكون موقنين كلياً بأنه لو ظهرت أية أدلة علمية، فيما لو ظهَرت، لتشبّثَ بها هؤلاء ولَوَصَلَت الضجة للسماوات. إن شيوع مبدأ "الاختصاصات الغير مُتداخلة" يعود لعدم وجود أدلة تدعم وجود الله. وفي اللحظة التي يظهر فيها أي اقتراح لدليل ما في صالح الإيمان الديني، فلن يتوانى المدافعون عن الدين عن رمي مبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة" من النافذة. لو تركنا رجال الدين المُتمرِسين جانباً (حتى هؤلاء يقومون بسرد المعجزات على البسطاء لجمع الأتباع)، فإن تلك المعجزات المزعومة هي السبب الرئيسي الذي يجعل من يصدقها مؤمناً، والمعجزات بالتعريف هي شيء يناقض المبادئ العلمية.

كنيسة الروم الكاثوليك تبدو أحياناً أنها تتوق لمبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة"، ولكن من جهة أخرى تناشد بتصديق المُعجزات كمُعتقد أساسي في مجال القدسية. ملك بلجيكا الراحل مرشح ليكون قديساً لأنهُ عارض مسألة الإجهاض. وتحقيقات جدية تجري الآن للكشف عن أي معجزة شفائية يمكن نسبتها للدعاء والصلوات التي ترفع إليه منذ موته. أنا لا أمزح، فهذه وقائع، وهي نموذجية بالنسبة لقصص القديسين. وأنا أتخيل بأن ذلك الأمر برمته يُسبب الإحراج للحلقات الأكثر تقدميةً ضمن الكنيسة. لماذا تبقى أي حلقة كنسية تستحق لقب"الحداثة" تابعة للكنيسة هو بذاته من الأسرار العميقة التي يُسَرّ بها عُلماء اللاهوت.

لو واجهنا غولد بقصص المعجزات، لكان من المتوقع أن يجيب على الشكل التالي. الفكرة وراء مبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة" هو أنها صفقة في الإتجاهين. وفي اللحظة التي يطأ فيها الدين على ساحة العلم، ويبدأ بالتدخل في العالم الحقيقي بالمعجزات، فإنه سيتوقف عن أن يكون ديناً بالمعنى الذي يدافع عنه غولد وتسقط اتفاقية الصداقة الموقعة بين الدين والعلم. لنلاحظ، على أي حال، بأن الدين الخالي من المعجزات الذي يدافع عنه غولد ليس مقبولاً عند معظم المؤمنين على المقاعد الكنسية الطويلة، أو على سجادات الصلاة، لأن ذلك سيسبب لهم خيبة أمل عظيمة. أقتبس هنا تعليق "آليس" على كتاب أختها

قبل أن تسقط في أرض العجائب[1]، "ما فائدة إلإله الذي لا يجترح المعجزات ولا يستجيبَ للصلوات؟". لنتذكر التعريف الذكي للفعل "صلَّى"(دعا)، والذي قدَّمه امبروس بيرس: "هو المطالبة بإبطال القوانين الكونية لأجل مُلتمِسٍ واحد غير مستحق لذلك، بإعترافه هو شخصياً". هُناكَ متسابقون يؤمنون بأن الله ساعدهم على الفوزَ على الخصم، الخصم الذي لا يبدو بالمقابل أقل استحقاقا للتفضيل من قِبل الله. هُناكَ سائقون يؤمنون بأن الله قد حجز لهم أماكن لركن سياراتهم وبالمقابل حرم أحداً آخر منها. هذا الأسلوب في التديّن منتشر بشكل يدعو للإحراج، ولا يبدو من الممكن أن يتأثر بشيء عقلاني (ظاهرياً) كمبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة".

ومع ذلك، فلنتبع غولد ونقلِّل سلطة ديننا إلى الحد الأدنى من التدخُّل: لا معجزات ولا تواصُل شخصي بيننا وبين الله في كلا الإتِّجاهين ولا عبث بقوانين الفيزياء ولا تعدِّي على مجالات العلم. بمعنى آخر، نجعل الدين ليس أكثر من مساهمة ربوبية صغيرة بحالة الكون الأساسية بحيث مع مرور وقت كاف تطوّرت نجوم وكواكب، وعناصر كيميائية، وتطوّرت حياة. ولكن هل هذا الفصل كافٍ؟ هل يستمر مبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة" بالوجود مع هكذا دين بسيط ومتواضع؟

ربما تظن أن ذلك ممكناً، لكني أرى أنَّه حتى وإن كان إله ا.غ.م لا يتدَّخل، أي يحترم فصل الاختصاصات، وكان أقلّ عنفاً وحماقة من الإله الإبراهيمي، فإنه يبقى في الواقع فرضية علمية. وأعود إلى النقطة التي ذكرتها مسبقاً، وهي أنَّ كوناً قائماً على تطوّر بطيء للكائنات مختلف تماماً عن كون قائم على موجه ومصمِّم أصلي وتصميمه الذكي هو المسؤول عن كل الوجود. التفريق بين هذين الكونين ليس بالمسألة السهلة، أقبل ذلك. لكن فرضية كون قائم على أساس نظام محكم بالمطلق لها خصوصية متميزة عن خصوصية فرضية كونٍ تنظيمه قائم فقط على ما هو معروف لدينا من قوانين، أي كون قائم على التطوّر التدريجي. هاتان الفرضيتان مختلفتان ولا يمكن التوفيق بينهما. نظرية التطوّر تقدم حقاً تفسيراً لوجود كينونات مستقلة،احتمال نشوئها بدون التطوّر ضئيل جداً وشبه مستحيل عملياً. ونتيجة المحاججة بين هاتين الفرضيتين ستكون، كما سأبيِن في الفصل الرابع، بمثابة ضربة قاضية لفرضية الإله بالكامل.

تجربة الصلاة الكبرى

إحدى التجارب المسلية، إن لم نقل مثيرة للشفقة، عن المعجزات كانت تجربة الصلاة الكبرى: هل تساعد الصلاة المرضى على شفائهم؟ الصلوات هي ظاهرة شائعة للمرضى، بنوعيها الشخصي والعام في أماكن العبادة. إبن عم داروين، فرانسيس غالتون، كان أول من حلَّل الموضوع بشكل علمي. لاحظ بأن كُل زوّار الكنائس في إنكلترا يدعون فى صلواتهم بالصحة للعائلة المالكه كُل يوم أحد. أليس من المنطقي أن تكون العائلة المالكة بصحة جيدة بشكل ملحوظ بالمقارنة معنا، نحن الذين لا يدعو لنا إلا أقربَ أقاربنا وأعزاؤنا؟ غالتون نظر للموضوع ووجد أنْ لا فروقات إحصائية تدعم النظرية. رُبما فعل ذلك من باب السخرية،

1. آليس شخصية قصصية في قصة للأطفال تحت عنوان "آليس في بلاد العجائب" كتبها الكاتب وعالم الرياضيات الانجليزى تشارلز لوتويدج دودسن. (المترجم)

حيث إنه صلَّى ايضا أحد المرات على قطع صغيرة متفرقة من الأرض ليرى إن كانت مغروساتها ستكبر أكثر من القطع الأخرى (لم ينجح في ذلك بالطبع).

وفي وقت قريب، قام الفيزيائي راسل ستانارد (واحد من ثلاثة عُلماء مُتدينين معروفين في إنكلترا كما سنرى) باستخدام مركزه العلمي لدعم مبادرة مموّلة من مؤسسة تمبلتون للتأكد بالتجربة من الدعوى القائلة بأنَّ الصلاة للمرضى تؤدي لتحسين صحتهم[36].

كي تكون تجربة كهذه دقيقة يجب أن تتحلَّى بمبدأ "العمى المزدوج". وقد تحقق ذلك الشرط بصرامة. اختير المرضى بطريقة عشوائية لإحدى مجموعتين: المجموعة التجريبية (التي تلقَّت الصلوات)، والمجموعة المقارَن بها (لم تتلقَ الصلوات). لم يُسْمَح للمرضى، ولا لأطبائهم، أو ممرضيهم، ولا حتى للقائمين على التجربة، بمعرفة من هم المرضى الذين تمّ الدعاء لهم فى الصلاة ومن هم الذين لم يتمّ الدعاء لهم. كان على الداعين معرفة أسماء الذين يصلون لهم؛ وإلا فكيف يمكنهم التأكد من أنهم لا يصلون لأناس آخرين بالخطأ؟ ولذلك، تمّ إعطاؤهم الإسم الأول للمريض مع أول حرف من إسم العائِلة. ويبدو أنَّ ذلك كان كافياً ليدل الله على السرير الصحيح في المستشفى.

إنَّ فكرة إقامة تجربة كهذه بحد ذاتها تفتح الباب أمام الكثير من الإستهزاء. وقد نالت التجربة ما تستحقه من ذلك. لم يسخر منها، على حدٍّ علمي، بوب نيوهارت، أحد مشاهير الكوميديا الإرتجالية، لكني أستطيع أن أتخيله يقول:

> "ماذا تقصد يارب؟ لا تستطيعُ شفائي لأنني ضمن المجموعة المُقارَن بها التي لم تتلقَ الصلوات؟ حسناً. يبدو أن صلوات عمتي ليست كافية. ولكن يارب، شفيتَ السيد ايفانز في الغرفة المجاورة... ماذا تقول... تلقى صلوات من ألف شخص في اليوم؟ ولكن السيد ايفانز لا يعرف ألف شخص... آه... نادوه بجون.إ. ولكَن يارب، كيف علمت أنهم لا يقصدون جون ايلسورثي؟ آها... إستعملت عِلمكَ اللامحدود لِتعرف أي جون.إ. يقصدون... ولكن يارب..."

بكل جرأة، وبدون أي التفات لأي سخرية، صِرف فريق البحث 2,4 مليون جنيه استرليني من أموال مؤسسة تمبلتون تحت رئاسة الدكتور هربرت بِنسون، طبيب القلب في مركز العقل/الجسم الطبي بالقرب من مدينة بوسطن. وقد نُقلَ عن د. بَنْسون في أحد النشرات الصحفية سابقاً قوله إن "البراهين على فعالية الدعاء في الأماكن الطبية تَتراكم". أؤكد ثانية أن التجربة كانت في أيادٍ أمينة ولم يلحق بها أي تلاعُب. والدكتور بَنسون وفريقهُ راقبوا 1802 مريضاً في ست مستشفيات مختلفة، وجميعهم خضعوا لنفس العملية الجراحية للشريان التاجي. والمرضى قُسموا لثلاثة مجموعات. المجموعة الأولى تلقت الصلوات ولم يعرف أعضاؤها بذلك. المجموعة الثانية (المقارَنة) لم تتلقَ صلوات ولم يعرف أعضاؤها بذلك. والمجموعة

الثالثة تلقت صلوات وعرفوا بذلك. المقارنة كانت بين المجموعة الأولى والثانية لمعرفة فعالية الدعاء. أما المجموعة الثالثة فكانت لمعرفة التأثير النفسي الناتج عن معرفة المريض بأن أحداً ما يصلي له.

رُفعت الأدعية في تجمعات في ثلاث كنائس، واحدة في مينيسوتا، وواحدة في ماساشوستس، والثالثة في ميَسوري، كلها بعيدة عن المستشفيات الثلاثة. وأُعطي المصلون، كما ذكرنا، الإسم الأول وأول حرف من اسم العائلة. من الجيد أن تكون للتجربة معايير دقيقة ومحددة قدر الإمكان. وهذا ما حدث أيضاً في هذه التجربة حيث كان على جميع المصلين أن يذكروا في دعائهم الجملة التالية "لأجل عملية جراحية ناجحة وشفاء سريع وبدون مضاعفات".

النتيجة كما نُشرت في المجلة الأمريكية للقلب في نيسان 2006 كانت قاطعة. لم يكن هُناكَ فرق بين من تلقوا الدعوات وبين من لم يتلقوها. يا للمفاجأة. والفرق كان "واضحاً" بين الذين عرِفوا بأنهم يتلقون الدعاء والذين لم يعرِفوا، ولكن بالاتجاه المعاكس. الذين عرفوا بأن الناس تدعو لهم حصلت لهم مضاعفات أكثر بكثير من الذين لم يعرفوا. هل عاقب الله أولئك الذين دُعيَ لهم بالشفاء ليرينا عدم موافقته على كل تلك التجربة المعتوهة؟ الأكثر احتمالاً هو أن هؤلاء الذين عرفوا بأن هنالك من يدعو لهم قد عانوا من إجهاد نفسي مضاعَف كنتيجة لـ: "رهبة الأداء" كما وصفها المجربون. الدكتور تشارلز بيثيا، أحد الباحثين قال "ربما معرفتهم بأنَّ هنالك من يدعو لهم جعلتهم غير متأكِّدين ويتساءلون: هل أنا مريض لهذه الدرجة حتى تطلَّب الأمر استدعاء فريقاً للدعاء لي؟" وفي مجتمع مغرم بدعاوى القضاء، كما في أيامنا، هل نبالغ لو أملنا بأن أولئك المرضى الذين عانوا من مضاعفات قلبية نتيجة معرفتهم بأنهم يتلقون دعوات ممكن أن يرفعوا دعوى قضائية ضد مؤسسة تمبلتون؟

ليس من المفاجئ أن هذه الدراسات تلقت معارضة عُلماء الدين، ربما لأن تلك النتائج تستطيع أن تسبب بعض التسخيف للدين. عالم الدين، ريتشار سوينبورن، من أكسفورد كتب بعد فشل الدراسة معترضاً عليها على أساس أن الله يستجيب للدعوات فقط إذا كانت موجّهة لأسباب صالحة[37]. الدعاء لشخص بدلاً عن آخر، فقط لأن القرعة وقعت عليه في دراسة (عمياء مزدوجة)، لا يشكل سبباً كافياً. والله سيرى من خلاله. ذلك بالفعل ما قصدته من سخرية بوب نيوهارت، وسوينبورن مُحقٌّ في سخريته أيضاً. ولكن في مقطع آخر من المقاله يصبح سوينبورن أكثر من ساخر. وليست هي المرة الأولى التي يسعى فيها لتبرير المعاناة في كونٍ يديره الله:

> "معاناتي تعطيني الفرصة لأظهر شجاعة وصبراً. وتعطيك الفرصة لتظهر تعاطفاً وتقدم مساعدة لتخفيف معاناتي. وتعطي المجتمع فرصة للاختيار فيما إذا كانوا يريدون استثمار الكثير من المال لايجاد شفاء لهذا النوع أو ذاك من المعاناة... وعلى الرغم من أن الله الطيب يأسف لمعاناتنا، ولكن همه الأول هو أن يُظهِر كُلٌّ منا صبراً وتعاطفاً وكرماً وبذلك تتجسد شخصيته المقدسة. بعض الناس هم بحاجة ماسّة لأن يمرضوا بشدة من أجل أنفسهم والبعض الآخر بحاجة أن يمرض لتأمين الفرصة للآخرين ليتخذوا قراراً مهماً. وهذه

هي الطريقة الوحيدة التي تشجع الناس ليتخذوا قرارات جدية حول أي نوع من الأشخاص الذين يريدون أن يكونوا. وللبعض الآخر، لا يشكِّل المرض قيمة كبيرة".

هذا الفكر المشوّه كمثال حي للعقلية المُتدينة يذكّرني بإحدى حلقات التلفزيون التي كنتُ فيها مع سوينبورن، وكان هُناكَ أيضاً بروفيسورنا الاوكسفوردِي بيتر اتكينز. سوينبورن حاول في لحظة ما أن يبرر الهولوكوست على أساس انها أعطت فرصة رائعة ليظهر اليهود شجاعتهم ونبلهم. فدمدم بيتر اتكينز بشكل رائع: "فلتتعفن في الجحيم"[1].

وفي مكان آخر، نرى مرة أخرى قطعة من الفكر الديني من مقال سوينبورن. حيث يقترح بأنهُ لو أراد الله أن يرينا وجوده، لوجدَ طريقاً أفضل من التحيز في احصائيات تجربة شفائية لمرضى القلب. لو أنهُ أراد حقاً أن يُقنعنا بوجوده "لملأ الدنيا بالمعجزات الخارقة". بعد ذلك يتحفنا سوينبورن بجوهرته الفكرية قائلاً: "هناك العديد من الأدلة على وجود الله، وربما وجود أدلة أكثر من اللازم ليس جيداً من أجلنا"! إقرأ هذا ثانية وجود أدلة أكثر من اللازم ليس جيداً من أجلنا. ريتشارد سوينبورن متقاعد حديثاً وحاصل على أحد أرفع مناصب أستاذ لعلم اللاهوت في إنكلترا، وعضو في الأكاديمية البريطانية. لو كان عالم لاهوت (أو رجل دين) هو ما تطلب، فلن تحصل على أرقى من ذلك. ولكن ربما هذا ليس طلبك.

سوينبورن لم يكن عالم اللاهوت الوحيد الذي شكك في الدراسة بعد فشلها. وقد أُعطي للموقر ريموند ج. لورنس مساحة جيدة في "نيويورك تايمز" لشرح لماذا على رجال الدين المُلتزمين أن يتنفسوا الصعداء بارتياح طالما لم يتم إيجاد قرائن على أن الدعاء له أي تأثير يذكر[38]. هل كان سيعزف نغماً آخر لو أن دراسة بنسون نجحت في استعراض فعالية الدعاء؟ ربما لا، ولكن تأكد بان آخرين كُثر من رجالات الدين سيفعلون. إن مقالة لورنس قابلة للتذكر بشكل كبير لقوله التالي: "منذ فترة قريبة أخبرني أحد الزملاء بأن إمرأة مؤمنة ومثقفة اتهمت الطبيب الذي يعالج زوجها بأخطاء مهنية في المعالجة. أثناء إحتِضار زوجها، اتهمت الطبيب أنه فشل في الدعاء له".

لاهوتيون آخرون من أتباع مبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة" أكدوا بأن دراسة تأثير الدعاء بهذا الشكل هو تبذير للمال لأن تأثير ما هو فوق الطبيعة يقع في نطاق لا يصله العلم. ولكن تمويل منظمة تمبلتون للتجربة يجعلها معترفة صراحة بأن تأثير وساطة الدعاء المزعوم، على الأقل بالمبدأ، هو في نطاق العلم. تجربة (عمياء مزدوجة) بالإمكان تحقيقها وقد أُجريت فعلاً. وكان من الممكن أن تكون نتائجها إيجابية. ولو حصل ذلك، هل بإمكانك تخيل رجل دين واحد يتجاهل نتائجها على أساس أن العلِم ليس له أي تأثير على الأمور الدينية؟ بالتأكيد لا.

---

1 . تم حذف هذا المشهد في الحلقة التي تم عرضها.

لا نحتاج للقول هنا بأن النتائج السلبية لن تزعزع المؤمنين. يقول بوب بارث، المدير الروحي لجمعية الصلوات في ميسوري، والتي زوّدت جزءاً من الدعوات في التجربة: "رُبما يقول الإنسان المؤمن بأن دراسة كهذه مهمة، ولكننا صلَّينا لمدة طويلة ورأينا تأثير الدعاء ونعرف أنه فعَّال، والدراسات عن الدعاء والصلوات لا تزال في بداية الطريق". طبعاً: نعرف من "إيماننا" بأن الصلوات لها تأثير، وإذا فشلت الاثباتات، فسوف نبقى على موقفنا حتى نحصل على النتائج التي نريدها.

مدرسة نيفيل تشامبرلين* للتطوّريين

سببٌ مُحتمل وراء رأي بعض العُلماء الأمريكيين الذين يؤكدون على أن العلم لا يملك الكلمة الفصل فيما يخص فرضية الإله قد يكمن المناخ السياسي الواقع تحت رحمة أتباع نظَرية الخلق الشائعة. في بعض أجزاء الولايات المتحدة، يحارَب العلم من قبل مُعارضة مُنظمة جداً، ولديها علاقات سياسية رفيعة وأهم منْ ذلك الكثير من المال. تعليم نظَرية التطَور لداروين تقع في الخندق الأول للمَعركة. العُلماء لديهُم كُل الحق بأن يشعروا بالتهديد لأن الأبحاث تموّل بشكل رئيسي من الحكومة، وعلَى المُرشحين أن يتجاوبوا مع الفئة الجاهلة والمتعصبة كما مع الفئة المتنورة من ناخبيهم.

وكَردٍّ فعل على هذا التهديد، ظهر لوبي مُدافع عن نظرية التطور، ويمثله بشكل خاص المركز الوطني للتربية العلمية[1] برئاسة يوجيني سكوت، شخصية لا تهدأ عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن العلم، وقد أصدرت حديثاً كتابها بعنوان "التطور مقابل الخلق". أحد أهم أهداف المركز السياسية هو حشد آراء "المُعتدلين" دينياً: عامة التيار الكنسي من رجال ونساء من الذين لا يرون مشكلة مع نظرية التطور، ورُبما يعتبرونها غير ذات تأثير على إيمانهم، (بل وحتى، بشكل غريب، داعمة له). لهذا التيار من رجال الدين واللاهوتيين والمؤمنين غير المتعصبين المُحرجين من نظرية الخلق التي قد تعطي انطباعاً سيئاً عن دينهم، هؤلاء هم من يناشدهم اللوبي المدافع عن التطور. وأحد الطرق هي أن يتكلفوا العناء بأن يتبنوا مبدأ غولد "الاختصاصات الغير متداخلة" ويقبلوا بأن العلم لا يشكل تهديداً بأي شكل من الأشكال لأنه منفصل تماماً عن المعتقدات الدينية.

نجم آخر لامع نستطيع ان نسميه نموذج السياسي التطويري هو الفيلسوف مايكل روس الذي حارب بفعالية نظرية التخليق على الورق وفي المحاكم[39]. يزعم بأنه مُلحِد، ولكن مقالته في البلاي بوي تتخذ وجهة النظر التالية:

---

* آرثر نيفيل تشامبرلين كان من حزب المحافظين البريطاني الذي شغل منصب رئيس وزراء المملكة المتحدة من 1937 حتى عام 1940.

1 . National Center for Science Education (NCSE)

> "نحن، المُحبون للعلم، علينا أن ندرك بأن عدو عدونا صديقنا. التطوريون يصرفون الكثير من الوقت بإهانة من يُمكن أن يكونوا حلفاءنا. وهذا أكثر وضوحاً في حالة التطوريين العلمانيين. المُلحدون يصرفون وقتاً أكبر بإهانة المسيحيين المتعاطفين بدلاً من مواجهة أصحاب نظرية الخلق. عندما كتب يوحنا بولس الثاني رسالة يدعم فيها الداروينية، كان جواب ريتشارد دوكينز ببساطة بأن البابا منافق إذ أنه لا يُمكن أن يكون متماشياً أصلاً مع العِلم، وأن دوكينز نفسه يفضل أصولياً صادقاً عليه".

من وجهة نظر تكتيكية خالصة، أستطيع رؤية الجاذبية السطحية للمقارنة التي أتى بها روس عن مناهضة هتلر: "وينستون تشرشل وفرانكلين روزفلت لم يعجبا بستالين ولا بالشيوعية. ولكنهما بحربهما لهتلر أدركا أنهُ من الأفضل العمل مع الإتحاد السوفياتي. والتطوريون، ولنفس السبب، عليهم أن يعملوا جميعاً ضد الخلقيين". ولكنني في النهاية أخذتُ برأي زميلي عالم الجينات جيري كوين من شيكاغو، عندما كتب بأن روس...

> "فشل في استيعاب طبيعة الخلاف الحقيقية. إنها ليست تطوريين ضد خلقيين. وبالنسبة لعُلَماء مثل دوكينز وويلسون (عالم علم الاحياء الشهير من هارفارد) فإن الحرب الحقيقية هي بين العقلانية والغيبية. العلم ما هو إلا شكل من العقلانية، بينما الدين هو أكثر أشكال الغيبيات شيوعاً. والخلقية ليسَت إلا أحد أعراض ما يرون فيه العدو الأكبر: الدين. في حين أن الدين يمكن أن يستمر بدون نظرية الخلق، لا يمكن لنظرية الخلق أن تعيش بدون الدين"[40].

أشترك بشيء واحد مع الخلقيين، إنهم مثلي، على عكس "التطوريين السياسيين"، لا يعترفون بـ مبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة" وفصل الحاكميات. بدون أي احترام للحدود، يحلو للخلقيين دق المسامير القمعية الوسخة في مروج العلم. ويقاتلون بعدم نزاهة أيضاً. محاموا الخلقيين في القضايا المرفوعة في القرى النائية في أمريكا يبحثون عن تطوريين مُلحدين علناً. وأعلم بأن اسمي استُخْدِم بهذه الطريقة. ذلك تكتيك فعَّال لأن هيئات المُحلفين المُنتقاة بشكل عشوائي ستتضمن على الأرجح بعض الأعضاء الذين تربوا على فكرة أن المُلحدين شياطين متجسِّدين، تماماً مثل الشاذين جنسياً ضد الأطفال، أو "الإرهابيين" (ما يوازي ساحرات مدينة سالم وشيوعيي ماكارثي في التأريخ الأمريكي). ولو وضعني محامٍ لخلقيين على منصة الشهادة سيكسبُ هيئة المحلفين فوراً لصالحه بمجرد سؤالي: "هل كانت معلوماتكَ عن التطور أحد الأسباب التي دفعتك للإلحاد؟". إجابتي ستكون نعم بالتأكيد، وهكذا وبكلمة واحدة أكون قد جعلت هيئة المُحلفين ضدي. وبالعكس، فالإجابة الصحيحة قضائياً من الطرف العلماني ستكون: "إن اعتقادي الديني أو عدمه هو شأنٌ شخصي ولا يهمّ المحكمة بأية حال ولا علاقة لهُ بالعلم الذي أمارسه". أنا شخصياً لا أستطيع قول ذلك بصدق والأسباب ستأتي في الفصل الرابع.

كتبت صحفية "الغارديان"، مادلين بونتينغ، مقالاً بعنوان "لماذا يشكر اللوبي المنادي بتعليم التصميم الذكي الله على ريتشارد دوكينز"[41]. لا إشارة في المقال على أنها استشارت أحداً بإستثناء ميشيل روس، ومن المُمكِن أن يكون هو كاتب المقال بالوكالة. دان دينيت أجاب باقتباس مُلائِم من العم ريموس:

"أجد من المُذهل أن إنكليزيّين -مادلين بونتينغ ومايكل روس- قد وقعا ضحية للنسخة ذاتها لأشهر خدعة نصب أمريكيِة. عندما يقع الأرنب فريسة للثعلب فإنه يتذرع بالتالي: "أرجوك... أرجوك، إفعل ما تشاءَ بي أيها الثعلب ولكن لا ترميني في منطقة الورد الجبلي تلك!" وعندما يفعل الثعلب ذلك، يصبح الأرنب في أمان. عندما يكتب الداعية الأمريكي وليام ديمسكي لريتشارد دوكينز طالباً منه أن يُكمل العمل الجيد فيما يتعلق بالتصميم الذكي، فإن روس وبونتينغ يقعان فريسة لذلك "آه ... أيها الثعلب... إن زعمك الصريح أن علم الأحياء التطوري ينفي وجود إله خالق يعرِض تدريس علم الأحياء في درس العلوم للخطر لأنهُ ينتَهك مبدأ فصل الدين عن الدولة!". بالطبع وعليك أيضاً أن تكون حذراً بخصوص علم وظائف الأعضاء لأنها تؤكد بأن الولادة العذرية شيء مستحيل..."[42].

هذا كلهُ ناقشهُ بالتفصيل عالم الأحياء ب. ز. مايرز، وبالمُستطاع الاعتماد بشكل موثق على حدة بصيرته في مفكرته على الانترنت[43].

أنا لا أدعي بأن زملائي من الذين يحابون المتدينين المعتدلين للدفاع في اللوبي التطوري هم بالضرورة غير نزيهين. ربما إنهم يؤمنون بصدق بمبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة"، ولا أستطيع التوقف عن التساؤل هنا كم من الوقت صرفوا بالتفكير بالموضوع وكيف يتصالحون مع النزاع الداخلي في عقولهم. لا داعي للتعمق في هذا الشأن الآن، ولكن علينا ألا ننسى المناخ السياسي عند محاولة فهم آراء العلماء الطبيعيين في أمور الدين: إنها حرب ثقافات سريالية تمزق أمريكا الآن. إسترضاء على نمط "الاختصاصات الغير متداخلة" سنراه مرة أخرى في فصل لاحق. والآن سأعود لِلاأدرية وإمكانية التقليل من جهلنا، وكذلك التقليل من عدم تأكدنا من وجود أو عدم وجود الله.

الأقزام الخُضر

لنفترض بأن حكاية برتراند راسل الرمزية لم تهم إبريق الشاي في الفضاء الخارجي وإنما تعلقت بالحياة في الفضاء الخارجي، وهو موضوع المقولة الشهير لساغان عن رفضه التفكير بإحساسه الداخلي. ومرة أخرى هنا لا نستطيع أن ننفي وجود حياة في الفضاء أو عدمه والموقف العقلاني الوحيد هنا هو اللاأدرية. ولكن الفرضية لم تعُد عبثية. لا نستشعر اللاإحتمالية مباشرة. بل بالامكان أن نجادل بناء على أدلة غير مكتملة ويمكننا أن نكتب لائحة بالأدلة المطلوبة للتقليل من شكوكنا. لا شك بأننا سنثور لو علِمنا أن الحكومة استثمرت الكثير من المال في تلسكوب للبحث عن إبريق شاي فقط. ولكننا سنقدر صرفَ المال في محاولة

إخبارنا عن حياة خارج الأرض باستعمال تلسكوبات راديوية لمسح السماء بأمل التقاط إشارة من كائنات فضائية ذكية.

أقدِّر عالياً رفض ساغان التفكير بشعوره الداخلي عن حياة أخرى في الفضاء. ولكننا نستطيع (وساغان قد فعل ذلك أيضاً) أن نُعطي تقييماً عقلانياً عما يلزم معرفته لنصبح قادرين على تقدير الاحتمال. ربما تكون البدايةَ ليست أكثر من وضع قائمة بالنقاط المجهولة لدينا كما في معادلة دريك الشهيرة[1] والتي قال عنها بول ديفيس إنها عبارة عن حصيلة من الاحتمالات، والتي تقول بأن الرقم التقديري لعدد الحضارات في الكون هو عبارة عن حاصل ضرب سبعة عوامل ببعضها. العوامل السبعة تتضمن عدد النجوم، عدد الكواكب المشابهة للأرض لكل نجم واحتمالات ذلك، إضافة لعوامل أخرى لست بصدد الحديث عنها الآن، لكن ما أُريد توضيحه هنا هو أن كُل هذهِ العوامل هي مجهولة أو مقدَّرة مع هامش خطأ هائل. وعند ضرب العوامل المجهولة ببعضها البعض نحَصل على عدد معين هو عدد الحضارات المُحتمل وجودها مع هامش خطأ أعظم بكثير من أن يتجاهله الإنسان، وبالتالي ربما تكون اللاأدرية هي الموقف العقلاني الوحيد هنا.

بعض عوامل دريك أصبحت أقلّ مجهولية الآن مما كانت عليه عام 1961 عندما كتب المعادلة. وقتها كان نظامنا الشمسي لكواكب تدور حولَ نجم مركزي هو الوحيد المعروف ومشابهتهُ مع نظام أقمار المشتري والمريِخ. وتخمين عدد أنظمة الكواكب في الكون كان مبنياً على نماذج نظرية مدعومة بـ "مبدأ المتوسطات"، والمقصود هنا هو الاحساس (أتت الكلمة من تجارب تأريخية فردية عن كوبرنيكوس وهابل وآخرين) بأنه ليس هُناكَ أي شيء خاص أو غير عادي يميز الكوكب الذي صادف أن نكون عليه. ولكن هذا المبدأ مع الأسف باطل بوجود المبدأ "الانثروبي[2]" (أنظر الفصل الرابع) والقائل بأنه: لو كان نظامنا الشمسي هو الوحيد في الكون، فإنه بدورهِ المكان الوحيد الذي استطعنا التواجد فيه ككائنات مفكرة تطرح هذا السؤال. والواقع أن وجودنا نفسه يعود لينفي امكانية أننا نعيش في مكان "متوسِطي".

التقديرات الحديثة لوجود أنظمة شمسية لم يعد مبنياً على مبدأ المتوسطات، بل على أدلة مباشرة. المرصاد الطيفي، الذي قضى على إيجابية كونت، يلعب دوره مرة أخرى. مراصدنا ليست بالقوة اللازمة لترى الكواكب التي تدور حول النجوم بشكل مباشر. ولكن موقع النجم يتقلقل بجاذبية الكواكب المحيطة به وهي تلف حوله، والتلسكوب الطيفي يلتقط تأثير دوبلر[3] في طيف النجم، هذا إذا كان الكوكب المحيطي كبير. بإستعمال هذه الطريقة وصل عدد الكواكب لـ 170 في وقت كتابة هذا الكتاب وهي وتدور حول 147 نجماً[44]، ولكنَ الرقم سيزيد حتماً وقت قراءتك للكتاب[4]. وهي حتى الآن كواكب عملاقة بحجم

---

1 د. فرانك دريك عالم فضاء وفيزيائي أمريكي قام بحساب النسبة المحتملة لعدد الحضارات المتطورة الموجودة في مجرة درب التبانة من خلال معادلة شهيرة عرفت بأسمه. راجع HTTP://EN.WIKIPEDIA.ORG/WIKI/DRAKE_EQUATION . (المترجم)

2 . يُعرف أيضاً بالمبدأ الإنساني والذي يفترض أن الكون جاء كما هو عليه كي يسمح بتطور كائنات حية مثلنا تستطيع دراسته كما هو عليه. (المترجم)

3 . هو تغير ظاهري للتردد أو الطول الموجي للأمواج عندما ترصد من قبل مراقب متحرك بالنسبة للمصدر الموجي. (المترجم)

4 . وصل العدد إلى 3262 كوكب مكتشف حتى وقت ترجمة الكتاب للعربية. راجع HTTP://EXOPLANETS.ORG (المترجم)

المشتري لأن المشتري هو أقل حجم يمكننا معه اكتشاف الانحراف المداري للنجم في التلسكوبات الطيفية الحالية.

هذا أدى لتطور نوعي على الأقل في حساباتنا عما قدمه دريك في معادلته. وهذه خطوة للأمام بشأن لاأدريتنا حول القيمة النهائية التي تقدمها المعادلة. سنبقى لاأدريين حيال موضوع وجود حياة في الفضاء، ولكن أقل لاأدرية مما كنا سابقاً فقط لأننا أقل جهلاً. العلم يقتطع أجزاء من اللاأدرية بشكل إضطر معه هاكسلي أن يعاني عندما تكلم عن حالة اللاأدرية في وجود الله. أنا أريد أن أجادل، رغم لباقة امتناع هاكسلي وغولد وآخرون، بأن السؤال عن وجود الله ليس بالمبدأ وإلى الأبد خارجاً عن نطاق العلم. كما هو الحال في الطبيعة والنجوم، بعكس رأي كونت، وكما هو الحال في احتمال الحياة في كواكب تدور حولها، يستطيع العلم على الأقل أن يقذف بعض الاحتمالات في مساحة اللاأدرية تلك.

تعريفي لفرضية الإله تتضمن كلمة "ما فوق الطبيعي" وكلمة "خارق". لتوضيح الفرق، تخيل بأن مرصاداً يبحث عن الحياة خارج الأرض إلتقط اشارة من الفضاء والتي ترينا بدون أدنى شك بأننا لسنا وحيدين. وبالمناسبة، ليس من البديهي أبداً ما هو نوع الإشارة التي ستقنعنا بأنها أتت من مصدر ذكي. والأفضل هو أن نقلب السؤال كما يلي. ماذا يجب علينا فعله لنتمكن من الإعلان عن وجودنا لسامعي إشارتنا من سكان الكواكب الأخرى؟ النبضات الإيقاعية ليست مفيدة. الفلكية، جاكلين بيل بورنيل، التي اكتشفت النجوم النابضة[1] عام 1967 تعجبت من دقة التردد 1.33 ثانية، وظنّت بأننا وجدنا رجالاً أسمتهم مازحة بالأقزام الخضر الصغار. ولكنها اكتشفت إشارة نبضية أخرى في منطقة أخرى من السماء وبتردد مختلف مما أدى لترك فرضية الأقزام الخضر. الإشارات الترددية المنتظمة يمكن توليدها من عدة ظواهر لا علاقة لها بالذكاء، من تفرع الأغصان إلى تنقيط الماء، من الفواصل الزمنية لدوائر التغذية العكسية المتحكمة ذاتياً إلى الأجسام الكونية الدائرة. أكثر من ألف إشارة نبضية تم رصدها في مجرتنا، والتفسير المقبول هو أنها لنجوم نيترونية تشع طاقة تدور وتمسح الفضاء تماماً كضوء المنارة. من المدهش أن نُفكر بنجم سرعة دورانه حول نفسه بالثواني (تخيل أن يومنا طوله 1.33 ثانية بدلاً من 24 ساعة)، ولكن كل ما نعرفه حتى الآن عن النجوم النيترونية يدعو للدهشة. والنقطة هنا هي أن النبضات الإيقاعية تُفهم على أنها نتاج حادث فيزيائي ولا تدل على ذكاء.

إذن، لا شيء إيقاعيَ بإمكانه أن يُعلن عن وجودنا الذكي للكون الذي ينتظر اكتشافنا. الأعداد الأولية يتم طرحها غالباً كخيار للإعلان عن ذلك الوجود بسبب صعوبة وجود عملية فيزيائية صرفة قادرة على أن تولدها. وسواء بالتقاط الأرقام الأولية أو بأي طريقة أخرى، تخيل بأننا وجدنا دليلاً على ذكاء خارج الأرض وربما يتبع ذلك تبادل ضخم للخبرات والمعرفة، وبنفس مستوى قصة فريد هويل الخيالية "ألف كما في أندروميدا"، أو قصة كارل ساغان "إتصال". كيف يجب علينا أن نتصرف حينها؟ رد الفعل القريب من العبادة لهُ العُذرَ هُنا لأن أي حضارة قادرة على إرسال إشارات على هذه المسافات الشاسعة ستكون أفضل بكثير من حضارتنا. حتى لو كانت تلك الحضارة ليست متطورة كحضارتنا في وقت الإرسال، فكبر المسافة

1 . النجم النابض هو نجم نيوتروني يدور حول نفسه بسرعة عالية تصل إلى دورة كلّ 0.3 إلى 3 ثواني مصدراً موجات راديوية وإشعاعات. (المترجم).

بيننا يدعونا للتفكير بأنهم أمامنا بآلاف السنين عند وصول إشارتهم إلينا (إلا في حال أنهم تسببوا في دمار حضارتهم، وهذا ليس بالاحتمال البعيد).

سواء عثرنا عليهم أم لا، فالاحتمال كبير جداً لوجود حضارة متطورة وخارقة بالنسبة للإنسان لدرجة أنهم يبدون كآلهة بطريقة تفوق كُل ما يستطيع عُلماء الدين تصوره. وإنجازاتهم التقنية ستبدو خارقة للطبيعة بالنسبة لنا، كما تبدو انجازاتنا الحالية خارقة بالنسبة لمزارع من العصور الوسطى أتينا به بطريقة ما للقرن الواحد والعشرين. تخيل ردة فعله تجاه الحاسوب المحمول، الهاتف النقال، القنبلة الهيدروجينية، أو الطائرات النفّاثة الضخمة. وكما عبّر عنها آرثر كلارك في قانونه الثالث: "ليس بالإمكان التفريق بين التقنية المتطورة بشكل كاف والسحر". المعجزات المعمولة بتكنولوجيتنا لن تكون بالنسبة للإنسان القديم أقل قيمة من شَقّ موسى للبحر أو مشي المسيح على الماء. الغرباء القادمون من الفضاء سيعطوننا إشارات تجعلنا نراهم كآلهة، تماماً كما ظهر المبشرون بمظهر الآلهة وعوملوا على أساسه (واستغلوا الشرف غير المستحق على قدر ما استطاعوا) عندما ظهروا في مناطق لا تزال في ثقافة العصر الحجري حاملين مسدسات وتلسكوبات وثقاب وأجهزة تتنبأ بالخسوف بدقة تصل للثانية.

بأي معنى إذن نحدد مدى التقدم الحضاري لنقرر بأن الكائنات الفضائية ليست آلهة؟ إلى أي مدى يُمكن أن يكونوا من فئة "متفوقين على البشر" وليس من فئة "ما فوق الطبيعة"؟ من المُهم جداً أن نعرف ماذا يعني ذلك، وهذا يتعلق بصميم هذا الكتاب. الفرق الحاسم بين الله والمخلوق الفائق غير الأرضي لا يكمن في مواصفاتهُما وإنما في مصدرهما. الكيانات المُعقدة بشكل كاف لتكون ذكية هي نتيجة عملية تطور. ولا يهم درجة التعقيد والتكامل التي يملكونها عندما نجدهم ولكنهم لم يكونوا كذلك منذ البدء. لقد اقترح كتّاب الخيال العلمي، أمثال دانييل غالوي، في "العالم المزيف" (ولا أملك طريقة لنفي ذلك)، بأننا نعيش في نظام محاكاة كومبيوترية مصممة من قبل حضارة خارقة عُليا. ولكن خالقي المحاكاة تلك عليهم أيضاً أن يأتوا من مكان ما. وقوانين الاحتمال تمنع فكرة كونهم أتوا فجأة بدون أشكال بدائية أبسط منهم. وربما يدينون بوجودهم لنوع (ربما غير مألوف) من التطور الداروويني: نوع من التراكم من الأسفل إلى الأعلى بواسطة "رافعة" وليس "خطاف سماوي"، وهذه تعابير استعرتها من دانيال دينيت[45]. الخطافات السماوية – وكل الآلهة ضمنياً – هي قوى سحرية. لا يشرحون شيئاً ويتطلبون شرحاً أكثر بكثير مما يزودوننا به. الرافعات هي آلات قابلة للفهم وتوفر لنا الشرح. والانتخاب الطبيعي هو بطل الرافعات في كُل الأزمان. وقد رفع الحياة من بدائية بسيطة إلى درجة عالية التعقيد وفائقة الجمال وفيها ما يشبه التصميم الذي يبهرنا اليوم. سيكون ذلك الموضوع الأساسي للفصل الرابع "لماذا نحن متأكدون تقريباً أنه لا يوجد إله". ولكن قبل الانتقال للسبب الرئيسي لإنكار وجود الإله بجدية يجب عليّ أولاً أن أضع جانباً الحُجج الإيجابية للإيمان والتي تراكمت عبر التأريخ.

الفصل الثالث

الحجج على وجود الله

لا يجب أن يكون لأستاذ في علم اللاهوت محل في دستورنا.

توماس جفرسون

الحجج على وجود الله صُنِّفَت تاريخياً من قبل علُماء الدين (اللاهوت) واستُكْمِلَت من قِبَل آخرين، منْ ضمنهم مسوِّقين لتصوّر خاطئ "للفطرة السلِيمة".

"براهين" توماس الأكويني [1]

"البراهين" الخمس التي عرضها توماس الأكويني في القرن الثالث عشر لا تدل حقيقة على أي شيء، ومن السهل فضحها على فراغها مع ترددي بقول ذلك لمعرفتي بمكانته. أول ثلاث براهين هي ثلاث طرق مختلفة لقول الشيء نفسه، لهذا بالإمكان مناقشتها معاً. كلها تدخل ضمن دائرة ارتداد لا نهائي: الجواب على سؤال ما يستدعي السؤال الذي سبقه، وهكذا إلى ما لا نهاية.

أولاً: **المُحرك غير المحرّك**: لا شيء يتحرك إلا بوجود من يحركهُ. وهذا يوصلنا إلى تراجع لا نهائي، والمخرج الوحيد هنا هو الله لأنهُ بالضرورة المنطقية أن أحداً ما قد قام بالحركة الأولى، وهذا الأحد ندعوه الله.
ثانياً: **المُسبَب غيرِ المسَبّب:** لا شيء يسبب نفسه بنفسه. ولكُلِ أثر سبب يسبقه ومرة أخرى نُضْطر للإرتداد إلى المسبب الأول. هذا الفاعل الأول نسميه الله.
ثالثا: **العلّة الكونية**: منْ المُحتم وجود زمن لم توجد فيه المادة. ولكن بما أن الأشياء الفيزيائية موجودة الآن إذن لا بُدَ من وجود شيء غير فيزيائي أتى بها للوجود من العدم، وهذا الشيء غير الفيزيائي ندعوه الله.

كل الحجج الثلاث تعتمد على مبدأ الارتداد أو التراجع اللانهائي وتفترض الله لإنهاء الدوامة. والافتراض الذي لا مبرر له هنا هو أن الله منيع عن التراجع. حتى لو أننا أعطينا لأنفسنا رخصة مريبة لنختلق فاصلاً ما بشكل اعتباطي لهذا الارتداد اللانهائي ونعطيه اسماً لأننا ببساطة نحتاج واحداً، فليس هُناكَ أي سبب إطلاقاً لمنح هذا الذي أنهينا به الارتداد أيّاً من المواصفات التي يوصف بها عادةً هذا الإله: القدرة الكلية والعلمَ الكُلي والرحمة والخَلْق الذكي، ناهيك عن الصفات الإنسانية كاستجابة الدعاء وغفران الذنوب وقراءة الأفكار. وبالمناسبة، فإنَّ بعض علُماء المنطق لاحظوا عدم امكانية اجتماع موضوع العلم الكلي والقدرة الكلية حيث لو كان الله كلي المعرفة فهو يعرف بالتأكيد ومسبقاً كيف سيتدخَّل بقدرته الكلية ليغيِّرَ مَجرى التاريخ. وهذا يعني بأنه لا يستطيع تغيير رأيه بهذا الموضوع، فهو بالتالي ليس كلي القدرة لأنَّ هُناكَ شيئاً لا يستطيع عمله. كارين أونز صوّرت ذلك التناقض الفطن في مقطع شعري لا يقلُّ عنه فطنة:

هل يقدر الله.. العليم

---

1. توماس الأكويني هو قسيس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، يعتبره العديد من المسيحيين فيلسوف الكنيسة الأعظم. (المترجم)

بما تخفيه الدهور
وقادر على كل شيء
أن يغير مافي رأسه يدور؟

لنعد للارتداد اللانهائي واللاجدوى من استحضار الله لإنهائه، حيث أنٌ استحضار شيء ما، لنقل نظرية "الانفجار العظيم الأحادية" مثلاً، أو أي مبدأ فيزيائي غير مُكتشف بعد سيكون أكثر بساطه. إن تسمية بالله هو في أفضل الأحوال غير مفيد، وفي أسوئها مضلّل بشكلٍ خبيث. إن إعتماد اللارتداد اللانهائي لإثبات وجوده تشبه وصفة إدوارد لير لكرات الكريبوبليوس, وهي ليست إلا نوعا من الهراء، إذ يدعونا إلى شراء بعض شرائح اللحم البقري وتقطيعها إلى أصغر قطع ممكنة ثم مواصلة تقطيعها إلى اصغر من ذلك بثمانيه او ربما تسع مرات. أغلب أشكال الارتداد الزمني تصل لمرحلة من النهاية الطبيعية. سابقاً كان العُلماء يتساءلون ماذا ممكن أن يحدث لو قطّعنا قطعة من الذهب مثلاً إلى أصغر قطع ممكنة؟ ولماذا من غير الممكن تقطيع تلك القطعة الأخيرة والاستمرار بالتقطيع لأجزاء ذهبية أصغر؟ والارتداد في هذه الحالة محسوم النهاية عندما نصل للذرة. وتلك هي أصغر القطع الذهبية وتتكون بالضبطِ من 79 بروتوناً وأكثر من ذلك بقليل من النيوترونات ومجموعة من الالكترونات بعدد 79. وعندما "نجزِّىء" الذهب إلى حدٍّ أبعد من الذرة، فإنَّ ما تحصل عليه لا يكون ذهباً. والذرة هنا تعطينا النهاية الطبيعية لهكذا ارتداد. ليس من الواضح هنا أبداً أن الله يشكِّل نهاية طبيعية للارتدادات الأكوينية. وكما سنرى لاحقاً، فإنَّ هذه الطريقة هي وسيلة بسيطة لشرح الموضوع. والآن دعونا نمضي في نقاش لائحة الأكويني.

رابعاً: **حجة التدرَّج**: يُمكن ملاحظة اختلاف الأشياء في العالم. هناك درجات مثلاً للطيبة أو للكمال، ولكننا نقدِّر درجاتها فقط بمقارنتها بالحد الأعلى الممكن. الإنسان ممكن أن يكون جيداً وسيئاً، فإذن الحدَّ الأقصى من الصلاح لا يُمكن أن يكمُن فينا. ولذلك يجب أن يكون هُناكَ حدٌ أعظم نقارن بهِ درجات الكمال، وهذا الحد الأعظم نسميه الله.

أتلك حجة؟ من المُمكن أن نقول إن الناس يختلفون في درجات نتانة روائحهم، ولكن يمكننا المقارنة فقط إذا كان لدينا مرجعية للحد الأقصى المُمكن للروائح النتنة. ولذلك يجب أن يوجد شيء ما رائحتهُ لا تضاهى بالنتانة وندعوه الله. وباستطاعتك استبدال مواصفات المقارنة بما تشاء واستنتاج نتائج سخيفة مشابهة.

خامساً: **الحجة الغائية أو حجة التصميم**: الأشياء في العالم، وبخاصة الأشياء الحية، تبدو وكأنها مُصَمّمة. لا شيء نعرفه يبدو مُصمّماً إلا إذا كان مُصمّماً. ولذلك يجب أن يكون هُناكَ مُصمِّم، وهو ما ندعوه الله. الأكويني نفسه استعمل سهماً يتحرك بإتجاه الهدف كمثال تشبيهي، ولكن الصاروخ الحديث المضادّ للطائرات والموجه بالحرارة يخدم فكرتهُ هذه أكثر.
حُجة التصميم هي الوحيدة التي لا تزال تُستخدم في أيامنا هذه. ولا تزال تبدو للعديدين كالضربة القاضية في حلقات النقاش. داروين الشاب تأثَّر بها كثيراً عندما كان طالباً في جامعة كامبردج عندما قرأ كتاب ويليام بايلي، "علم الطبيعة الديني". ولسوء حظ بايلي، فإن داروين الناضج استبعدها بشكل

كامل. وربما لم تحدث في التأريخ أي عملية تدمير لطريقة تفكير شائعة ببراهين ذكية كالتي فعلها داروين بحجة التصميم. ذلك التغيير كان أبعد من كُل التوقعات. وبفضل داروين، لم يعد صَحيحاً قول إن لا شيء نعرفه يبدو مصمّماً إلا إذا كان كذلك. التطور بالانتخاب الطبيعي يُنتِج ما يمكن أن يبدو كأروع تصميم بأعلى درجات التعقيد والأناقة. ومن تلك التصاميم المزيفة الأجهزة العصبية التي - من ضمن إنجازاتها الأكثر تواضعاً – تُظْهِر سلوكاً هادفاً يشبه، حتى في أصغر حشرة، نظام الصواريخ المتطوِر والموجّه بالحرارة أكثر مما يشبة السهم أو الهدف. وسأعود لذلك في الفصل الرابع.

الحجة الوجودية وحجج أخرى سالفة لها

الحجج على وجود الله تنقسم لمجموعتين، بديهية واستدلالية. وحجج توماس الأكويني الخمس هي من النوع الاستدلالي وتعتمد على معاينة وفحص العالم. أشهر الحجج البديهية، والتي تعتمد فقط على استنتاجات منْ شخص لا يريد إجهاد نفسه، هي الحجة الوجودية، وقد طرحها سانت آنْسيلم أسقف كانَتربري عام 1078، ومن ثم تمّ طرحها بأشكال مُختلفة من قِبل العديد من الفلاسفة. السِمة الغريبة فيها هي أنها ليست موجهة للإنسان وإنما لله شخصياً وعلى شكل دُعاء (لعلك تعتقد بأن أي كينونة لديها قابلية الإستماع إلى الدعاء لا تحتاج ما يقنعها بوجودها).

مِن المُمكن تصوّر كائن ما، على حد قول آنسيلم، من العظمة بحيث أنه لا يُمكن تصوّر أي شيء أعظم منه. حتى المُلحد بإمكانه تخيل هكذا كائن سامٍ ورفيع رغم أنه سينكر وجوده في العالم الحقيقي. ولكن، الكائن الذي لا وجود لهُ في العالم الحقيقي هو وفقا لهذه الحقيقة بالذات كائن أقل من كامل. وهكذا فإننا في تناقض منطقي واضح ولذلك، شبيك لبيك، الله موجود!

اسمحوا لي أن أترجم هذه الحجة الطفولية إلى اللغة المناسبة لها:

"أراهنك بأني أستطيع إثبات وجود الله"
"لا أظنك تستطيع"
"حسناً... تخيّل أكمل أكمل "أكمل" شيء مُمكِن"
"حسناً لقد فعلت، ثم ماذا؟"
"هل هذا الشيء الكامل الكمال "الأكمل" حقيقي؟ هل هو موجود؟"
"لا، في خيالي فقط"
"ولكن لو كان هذا حقيقياً لكان أكثر كمالاً، لأن الشيء الكامل الحقيقي جداً هو أفضل من مجرد خيال سخيف لشيء ما. وبهذا أكون قد برهنت أن الله موجود. هيه ... هيه ...هيه، كُل المُلحدين حمقى"

لقد تركت غروري الطفولي يختار كلمة "حمقى" بتبصّر. آنسيلم بذاته كتب عن الآية الأولى من "مزامير داوود"، الآية 14: "الأحمق قال في قلبه، ليس هُناكَ إله"، وكانت عنده الوقاحة لاستعمال كلمة "أحمق" لمُلحدهِ الفرضي. ومعه نتابع:

> "وبذلك، يقتنع حتى الأحمق بوجود شيء ما، في عالم الخيال على أقل تقدير، ومن غير الممكن وجود شيء أعظمَ منه لأنه عندما يعلم به - بوجود هذا الشيء الأعظمَ مما هو في عالم الخيال - فإنه يفهم ماذا يعني. ما هو متخيل فهو موجود في الخيال. وبالتأكيد، فإن الشيء الذي لا يمكن لشيء أعظم منه أن يوجد، لا يمكن أن يوجد في الخيال وحده لأنه، إذا ما وجد في الخيال فقط، فقد صار من الممكن أن يوجد في الحقيقة، وهذا شيء أعظم".

مجرد الفكرة بأن استنتاجاً كبيراً كهذا يأتي من خدعة رخيصة كهذه يسبب إهانة لجمالية الفكر الإنساني، ولهذا عَليّ أن أكون حريصاً وأمتنع عن تبادل كلمات مثل "أحمق". أذكر هنا المقولة المهمة لبيرتراند راسل (الَذي لم يكن أحمقاً أبداً): "من الأسهل أن نشعُر بأن الحجة المقدَّمة خاطئة عن أن نعرف بدقة مَكْمَنَ الخطأ فيها". راسل بذاته، في شبابه، كان مقتنعاً بالفكرة لفترة قصيرة كما روى:

> "أذكرَ بالضبط اللحظة عام 1894، كنت أسير في شارع الترينيتي عندما رأيت (او تخيلت أني رأيت) صحة الحجة الوجودية. كنت في طريقي لشراء عُلبة تبغ، وفي طريق عودتي وجدتُ نفسي أقذفها فجأة في الهواء وصحتُ عندما التقطتها: "هذاعظيم، إن الحجة الوجودية صحيحة"".

أتساءل، لماذا لم يقل مثلاً: "عظيم، الحُجة الوجودية تبدو معقولة ولكن ليست جيدة بشكل كاف. ألا تحتاج حقيقة كبرى عن الكون أن تكون أكثر من مجرد نتيجة للّعب بالكلمات؟ من الأفضل أن أبدأ العمل لمحاولة فكّ هذا التناقض الشبيه بتناقض "زينون الإغريقي". لقد عجز الإغريق القدماء عن إدراك حقيقة برهان زينون بأن آخيل لن يكون أبداً قابلاً للّحاق بالسلحفاة[1]. ولكن كان لديهم ما يكفي من المنطق كي ينفوا عدم أمكانية أخيل اللحاق بالسلحفاة. ولذلك أسموها بالمفارقة، وانتظروا الأجيال اللاحقة من الرياضيين لشرحها (وبالطبع حصل ذلك لاحقاً باستعمال نظرية السلاسل اللانهائية). وراسل نفسه بالطبع مؤهَّل كأي شخص آخر لفهم عدم وجوب قذف علبة الدخان في الهواء احتفالاً بفشل آخيل في اللحاق بالسلحفاة. لماذا لم يتبع راسل منهج الحذر في مناقشة آنسيلم؟ أشكُّ بأنهُ كان مبالغاً في أعتداله بالاعتقاد الإلحادي ومتحمس أكثر من اللزوم لتخيل أي منطق يبدو مقبولاً للبرهان. أو ربما تكون الإجابة الكامنة فيما كتبه راسل نفسه عام 1946 بعد فترة طويلة من توغّله في الحجة الوجودية.

1 . مفارقة زينون يمكن تلخيصها بالتالي، آخيل يستطيع الركض عشرة مرات أسرع من السلحفاة. لهذا يعطي آخيل السلحفاة مسافة مائة متر قبلهُ قبل بدء المسابقة، آخيل يركض المائة متر الأولى ولكن السلحفاة تتمكن من قطع العشرة أمتار الأولى قبله، آخيل يركض العشرة أمتار الأخرى ولكن السلحفاة تتمكن الآن من ركض متر واحد قبلهُ. آخيل يركض هذا المتر ولكن السلحفاة تتمكن الآن من سبقه بعُشْرِ هذا المتر، وهكذا إلى ما لا نهاية بحيث أن آخيل لا يتمكن أبداً من اللحاق بالسلحفاة.

"السؤال الحقيقي هو: هل هُناكَ أي شيء نستطيع التفكير فيه والذي مجرد التفكير فيه يرينا أنهُ موجود بالحقيقة خارج أفكارنا؟ كُل الفلاسفة يرغبون بالإجابة بنعم لأن عمل الفيلسوف كله يعتمد على معرفة الأشياء عن العالم بمجرد التفكير عوضاً عن المُلاحظة. إن كانت "نعم" هي الإجابة الصحيحة، فهذا يعني بأنه يمكن أن يوجد صلة وصل بين الأفكار الخالصة والأشياء، وإذا كانت الإجابة "لا"، فهذا يعني أنهُ لا توجد مثل هذه الصلة".

شعوري أنا على العكس، سيكون، وبشكل عفوي، عبارة شك عميق في أي برهان يصل لنتيجة عظيمة بتلك الأهمية كهذه دون استخدام أي معلومة من العالم الحقيقي. وربما موقفي هذا يبرره أنني عالم طبيعي ولستُ فيلسوفاً. الفلاسفة عبر القُرون أخذوا الحجة الوجودية بالفعل بشكل جدي ومن الجهتين: معها وضدها. الفيلسوف المُلحد ج. ل. ماكي، له حوار خاص وواضح بهذا الخصوص في كتاب "معجزة الإيمان". وأعنيها مجاملة عندما أقول إنه يمكنك تعريف الفيلسوف بأنه الشخص الذي لا يأخذ الفهم العام البديهي كجواب.

يُعْزى التفنيد الجازم للحجة الوجودية للفيلسوف دايفيد هيوم 1711-1776، وإيمانويل كانط 1724-1804. كانط عثر على الخدعة الفلسفية التي أخفاها آنسيلم في حجته المراوِغة عن أن الوجود هو أكثر "كمالاً" من اللاوجود. ووصف الفيلسوف الأمريكي نورمان مالكوم الموضوع بالشكل التالي: "المذهب القائل بأن الوجود يعني الكمال غريب على نحوٍ بارز. من الحق القول بأن منزلي المستقبلي سيكون أفضل إذا كان معزولاً حرارياً من أن يكون غير معزول، ولكن ما معنى أن نقول بأن وجود البيت سيكون أفضل من عدم وجوده؟[46] الفيلسوف الأُستُرالي، دوغلاس غاسكينغ، إستخدم محاكاة تهكمية ساخرة لبرهان آنسليم والتي لم يسجلها، ولكن ويليام غراي من جامعة كوينزلاند أعاد تأليفها على الشكل التالي:

1. إن خَلقَ الكون هو أعظم إنجاز مُمكن تخيلهُ.
2. قيمة أي إنجاز هي حاصل أ. قيمته الجوهرية و ب. قدرات صانعه.
3. كلما كان عجز (أو عوق) الصانع أكبر، كلما كان إنجازه مثيراً للعجب أكثر.
4. أعظم الإعاقات وأكبرها بالنسبة لخالقٍ ما هي اللاوجود.
5. لذلك لو افترضنا أن الكون هو نتاج لخالق موجود، فبإمكاننا أن نتخيل وجوداً أعظم والذي يستطيع خَلقَ كُل شيء بدون أن يكون موجوداً حتى.
6. فالإله الموجود إذن لن يكون أعظم ما يمكن تخيلهُ لأن الإله غير الموجود أعظم وأكثر إثارة للدهشة.

النتيجة:

7. الله غير موجود.

لسنا بحاجة للقول هنا بأن غاسكينغ لم يُبرهن فعلياً على عدم وجود الله. وعلى نفس المنوال، لم يُبرهن آنسيلم على وجوده. والفرق الوحيد هو أن غاسكينغ كان هزلياً في طرحهِ عن قصد لأنه كما لاحظ، فإن

وجود الله أو عدمه هو سؤال كبيرٌ جداً على أن يُجاب عليه بـ "لعبة لغوية". ولا أظنُ شخصياً بأن الاستعمال المراوغ لمَصطلح الكمال هو الأسوأ في مشاكل هذه النظرية. في إحدى المرات (وقد نسيت تفاصيل الحدث) أزعجتُ تجمعاً من رجال الدين والفلاسفة باستخدامِ الحجة الوجودية لبرهان أن الخنازير تستطيع الطيران. وجدوا أنفسهم مجبرين على اللُّجوء للمنطق لبِرهان أنني على خطأ. الحجة الوجودية، ككل الحِجج البديهية المقدمة لبرهان وجود الله، تذكّرني بالعجوز في قصة ألدوس هاكسلي "نقطة بعكس نقطة"، والذي اكتشف بُرهاناً رياضياً لوجود الله:

"هل سمعت بالمعادلة س على صفر تساوي لا نهاية حيث س هي أي عدد موجب؟ حسناً، لنبسِط المعادلة بضرب الطرفين بالصفر، وفي هذه الحالة تكون س مساوية لعدد لا نهائي مضروباً بصفر. وهذا يعني أن العدد الموجب هو عبارة عن حاصل الصفر والعدد اللانهائي. ألا يفسر ذلك خَلق الكون من لا شيء بواسطة قدرة لا نهائية؟ ألا يفسره؟".

وهنالك أيضاً النقاش العقيم من القرن الثامن عشر حول وجود الله الذي قامت بترتيبه كاترين العظمى بين الرياضي السويسري الشهير اويلر والموسوعي العظيم لعصر التنوير الفرنسي ديدروت. أويلر المُتدين غلب منافسهُ المُلحد ديدروت وبكل ثقةِ برمي التحدي التالي: "سيدي، إن (أ + $ب^{ن}$)\ ن= س، ولذلك فالله موجود. فما هو جوابك!" ديدروت أجبِرَ على الإنسحاب مُذعِناً، وإحدى الروايات تقول بأنه رجع لِفرنسا على أثرها.

النقطة المركزية في هذه الجدلية هي أن ديدروت لم يكن رياضياً، ولهذا كان عليه التراجع بدون أن يقدر على أن يعطي جواباً. ولكن ب. هـ براون أشار في مجلة "الرياضيات الأمريكية" عام 1942 بأن ديدروت كان رياضياً جيداً وكان من المستبعد عليه السقوط في فخ ما يمكن تسميته حجة التعمية في العلم (في حالتنا هذه الرياضيات). دافيد مايلز في "عالم المُلحدين" كتب عن مقابلة إذاعية له من قِبَل أحد المُتكلمين باسم الدين والذي استعمل قانون حفظ الطاقة كمُحاولة تعمية علمية: "بما أننا جميعاً من طاقة ومادة ألا يؤدي بنا ذلك المبدأ العلمي إلى الإيمان بأن هُناكَ حياة أبدية؟" إجابة مايلز كانت لبقة وصبورة أكثر مما لو كنتُ أنا المجيب. تعليق المحرر الإذاعي مترجماً إلى الإنكليزية، كان كالتالي: "عندما نموت لن تضيع أي ذرة من أجسامنا (ولا حتى الطاقة) وبالتالي فنحن خالدون".

حتى أنا، مع خبرتي الطويلة، لم أصادف تفكيراً حالماً بهذه السخافة. ولكن وجدت العديد من "الأدلة" مجموعة على موقع:

http://www.godlessgeeks.com/LINKS/GodProof.htm

وهي لائحة ساخرة من أكثر من ثلاثمئة برهان عن وجود الله. وهنا أقدم لكم نصف دزينة مميزة ولنبدأ برقم 36.

36. برهان مبني على الدمار الغير شامل: تحطمت طائرة وقُتل 143 من ركابها وطاقمها. ولكن طفلٌ واحد نجا بحروق من الدرجة الثالثة. ولذلك الله موجود.
37. برهان العوالم المُحتملة: إذا كانت الأمور مختلفة عما هي عليه، فسوف تكون مختلفة عما هي عليه. وسيكون هذا سيئاً. ولذلك الله موجود.
38. برهان مبني على الرغبة فقط: أنا أؤمن بالله! أنا أؤمن بالله! أؤمن. أؤمن. أؤمن بالله! ولذلك فالله موجود.
39. برهان مبني على اللاإيمان: معظم سكان الكرة الأرضية هم غير مؤمنين بالمسيحية. وهذا تماماً ما يريدهُ الشيطان. ولذلك فإن الله موجود.
40. برهان مبني على تجارب ما بعد الموت: فلان شخص مات مُلحِداً، والآن أدرك خطأه. ولذلك الله موجود.
41. برهان مبني على الابتزاز العاطفي: الله يحُبّك. كيف يمكن أن تكون جاحداً لهذه الدرجة ولا تؤمن بهِ؟ ولذلك الله موجود.

الحجة القائمة على الجمال

شخصية أخرى في قصة ألدوس هاكسلي برهنت على وجود الله فقط بعزف رباعية بيتهوفن رقم 15 ("أغنية الشكر المقدس") من أسطوانة على جهاز الغرامافون. مهما تبدو الحجة غير مُقنعة، فإنها تمثل نوعاً شائعاً من الحجج. لقد توقفتُ عن عدِّ المرات التي تلقيتُ فيها، أو بالأحرى واجهتُ فيها، تحديات كهذا السؤال: "كيف يمكنك تفسير وجود شكسبير إذن؟" (أو شوبرت أو مايكل أنجلو...الخ). الحجة مألوفة، ولا أُريد أن أوثقها أكثر من ذلك. ولكن المنطق المختبئ وراءها لم يتوضَّح بعد، وكُلما فكرتُ فيها أكثر، كلما شعرت بفراغها. لا شكَّ بأن رباعيات بيتهوفن الأخيرة رفيعة المستوى. وكذلك أعمال شكسبير. إنها روائع، سواء كان الله موجوداً أو لم يكن. هذا لا يُبرهن على وجود الله بل يبرهن على وجود بيتهوفن وشكسبير. يُعزى لأحد قادة الأوركسترا الكبار القول: "إذا كنت تستطيع سماع موزارت، لماذا تحتاج الله؟"

مرة من المرات كُنت ضيفَ الأسبوع في بث إذاعيَ بريطاني باسم "أسطوانات الجزيرة المهجورة". وفيه عليك اختيار ثماني أسطوانات لتأخذها معك في حال انقطاعك عن العالم في جزيرة مهجورة. من ضمن ما اخترتُ كانت أغنية "أدخل إلى قلبي" من "آلام القديس متّى" لباخ[1]. لم يفهم المذيع كيف اخترتُ موسيقى دينية بدون أن أكون مُتديِّناً. ربما بالإمكان القول أيضاً، كيف يمكنك أن تستمتع بقراءة رواية "مُرتفعات عاصفة" وأنت على تمام المعرفة بأن كاثي وهيثكليف شخصيات لم توجد أبداً؟

1 . إسم الأسطوانة ST. MATTHEW PASSION واسم القطعة التي اختارها الكاتب هي: MACHE DICH, MEIN HERZE, REIN (المترجم)

ولكني أردت توضيح نقطة أخرى، ويجب أن تؤخذ بعين الإعتبار في كُل مرة يُعْزى فيها الفضل للدين كسبب لوجود أشياء رائعة، مثل كاتدرائية سيستين[1]، أو لوحة إعلان حمل المسيح لرافائيل. حتى الفنانين العظام يحتاجون لِكسب رزقهم وسيأخذون عمولة مقابل خدماتهم. ليس عندي أي سببٍ للشكّ بأن رافائيل ومايكل أنجلو كانا مسيحيين، ذلك كان الخيار الوحيد في زمانهم، ولكن ذلك واقع عرضي. وغنى الكنيسة الفاحش وقتها جعلها الراعي المهيمن على الفن. ولو كان الزمن غير الزمن وكُلِّف مايكل أنجلو بالرسم على سقف متحف علمي ضخم، ألن يكون إنتَاجه رائعاً بنفس درجة الكاتدرائية؟ كم هو محزن بأننا لن نسمع أبداً سيمفونية "عصر الديناصورات" لبيتهوفن، أو أوبرا "الكون المتوسّع" لموزارت، وكم هو محزن حرماننا من "اوراتوريو التطور" لهايدن، ولكن ذلك لا يمنعنا من الاستمتاع بمقطوعته الموسيقية "الخلق". ولنتناول الحجة من طرف آخر، ماذا كان سيحصل لو أن شكسبير كان مجبراً على العمل لصالح الكنيسة كما اقترحت زوجتي؟ لَكُنّا بالتأكيد فقدنا هاملت والملك لير وماكبث. وماذا كان العالَم سيربح بالمقابل؟ أعمال كهذه من نسج الأحلام؟ إستمر بالحلم إذن.

لو كانت هناك حجة منطقية تربط الفن العظيم بالوجود الالهي، فإن أنصارها لا يوضحون تلك الصلة. إنهم ببساطة يفترضونها بديهية، والأمر بالتأكيد ليس كذلك. ربما أنها لا تزال تُرى كشكل آخر من أشكال "برهان التصميم": مخ شوبرت الموسيقي هو أعجوبةٌ احتمالُ وجودها ضعيف بشكل كبير، ربما أضعف من احتمال العين للفقاريات. أو ربما هو الغيرة من هذه العبقرية. كيف يجرؤ مخلوق كائن بشري آخر غيري على عمل رائع كذلك (الموسيقى/ الشعر/الفن)، بينما أنا لا أستطيع؟ لابد أن الله هو الذي فعل ذلك.

الحجة القائمة على التجربة الشخصية

أحد أذكى وأنضج أقراني في الجامعة، والذي كان مُتديِّناً بعمق، ذهب للتخييم في إحدى الجزر الأسكتلندية. في منتصف الليل استيقظ مع صديقته داخل الخيمة على صوت شيطاني، إنه إبليس بذاته دون أدنى شك؛ ولا ريب في أن الصوت كان شيطانياً بكُل ما للكلمة من معنى. لم ينسَ صديقي تلك التجربة المُرعبة، وقد كانت أحد الأسباب التي دفعته لاحقاً ليَصبِح قسيساً. وقد تركتْ قصته إنطباعاً قوياً عندي في فترة شبابي، ورويت القصة على مجموعة من عُلماء الحيوان في منتجع "روز آند كراون" في أوكسفورد. وكان من بينهم اختصاصيان بعلم الطيور وقد انفجرا بالضحك قائلَين بوقت واحد: "نَوْرَس مانكس". أحدهما أضافَ بأن الصوت الشيطاني في صيحات وزعيق ذلك الطائر أكْسَبَتْهُ اسمَ "طائر الشيطان" في أماكن مختلفة من العالم وباللغات المحلية لأهل تلك المناطق[2].

---

1 . Sistine Chapel

2 . https://en.wikipedia.org/wiki/Manx_shearwater (المترجم)

الكثيرون يؤمنون بالله لأنهم يؤمنون بأنهم رؤوا رؤيا عنهُ - أو عن أحد الملائكة أو عن العذراء بردائها الأزرق - بأُمٍّ أعينهم. أو أن الرب تكلم معهم داخل رؤوسهم. وتلك الحجة على وجود الله بحصول تجرَبة شخصية هي الأكثر إقناعاً للذين يزعمون بأن ذلك قد حصل لهم. ولكنها الأقلّ إقناعاً لكُل الآخرين، وخصوصاً من لديه بعض المعرفة عن علم النفس.

أنتَ تقول بأن لكَ تجرَبة مع الله بشكل مباشر؟ حسناً، البعض اعتقد أنه رأى فيلاً وردياً، ولكن ذلك ربّما لا يترك لديك إنطباعاً عميقاً. بيتر سوتكليف، القاتل من يوركشاير، سمعَ المسيح يقولُ لهُ بأن يقتل النساء وأدى به ذلك للسجن مدى الحياة. جورج بوش قال بأن الرب قال لهَ بأن يحتلَّ العراق (ذلك الإله المُثير للشفقة لم يوحي له بأنه ليس هُناكَ أسلحة دمار شامل). والعديدون في المصحّات العقلية يعتقدون بأنهم نابليون أو شارلي شابلن أو أنَّ العالم كله يتآمر ضدهم، أو بأنهم يستطيعون بثَّ أفكارهم في رؤوس الآخرين. نتكلم عنهم كطرائف ولا نأخذ ايحاءاتهم الداخلية بشكل جدّي. والسبب الأكبر هو أنَّ ذلك ينطبق على فئة قليلة فقط من الناس. أما الإيحاءات الدينية فإن زبائنها أكثر. لم يكن سام هاريس مبالغاً في سخريته عندما كتب في كتابه، "نهاية الإيمان":

> "لدينا أسماء عديدة للذين يؤمنون بأمور ليس لها أي مبرَر عقلي. عندما يكون إيماناً كهذا شائعاً فإننا ندعوهم "مُتدينين"، وإلا فندعوهم "مجانين"، أو "ذُهانيين"، أو "ضحايا الوهم" ...واضح وجود أعداد من الأصحاء عقلياً. يُعْتَبَر الإيمان بأن خالق الكون يستطيع سماع أفكارك طبيعياً في مجتمعنا، في حين لو اعتقد شخص أن الله يخاطبه بشفرة موريس من خلال طرق قطرات المطر على زجاج النافذة، فإنَّ ذلك يُعْتَبَر برهان على مرض عقلي. هذا لايعني بأن المتدينين مجانين، إلا أنَّ جوهر معتقداتهم هو كذلك".

سأعود لموضوع الهلوسة في الفصل العاشر.

إنَّ عقل الإنسان يمتلك "برنامج مُحاكاه"[1] من الطراز الأول. وأعيَننا لا تعطي الدماغ صورة صحيحة عمّا يوجد في الخارج، أو فيلم دقيق عما يحصل بمرور الوقت في محيطنا. الدماغ يقوم باستمرار ببناء نموذج مُحَدَّث: يقوم بذلك التحديث بواسطة نبضات كهربائية مشفَّرة تمرّ في العصب البصري، ولكنها مع ذلك مركبة. الخداع البصري هو تذكير واضح على ذلك[47]. وقد نشأ صنف من الوهم البصري، من أمثلته مكعب نيكر[2] الذي يسبب الإحساس بأن المعلومات الحسية التي يستقبلها الدماغ تتطابق مع نموذجين متباينين من الحقيقة. وبما أنَّ العقل الإنساني ليس لديه أرضية للاختيار بينهما، فإنه يبدل النموذج بين فترة وأخرى، وهكذا يتشكل لدينا إحساس بالتأرجح بين نموذجين. الصور التي ننظر إليها تبدو، حرفياً تقريباً، وكأنها تنقلب لتصبح صورة أخرى.

---

1 . قام الكاتب هنا باستعارة مصطلح من عالم الكومبيوتر والذي يقصد به برامج المحاكاة التي تحاول محاكاة الواقع (المترجم)

2 . وهو شكل هندسي لمكعب مُمكن رؤيته من وجهات نظر مختلفة. راجع HTTP://EN.WIKIPEDIA.ORG/WIKI/NECKER_CUBE (المترجم)

برنامج المحاكاة في أدمغتنا ماهر بشكل خاص في إعادة بناء الوجوه والأصوات. عندي على طرف النافذة قناعاً بلاستيكياً لآينشتاين. عندما ينظر إليه من الأمام فإنه يبدو كوجه ممتلئ وليس هذا مفاجئاً، المفاجئ هو أنه عند النظر إليه من الخلف، الطرف المجوف، فإنه يبدو أيضاً كوجه ممتلئ، وهذا يبدو غريباً جداً. وعندما يتحرك الناظر حولهُ، يبدو الوجه وكأنه يتبعهُ، وليس بالمعنى الضعيف غير المُقنع والذي يقال عن أن عيون الموناليزا تبدو وكأنها تتبعك، فإن القناع المجوف يبدو حقيقياً جداً بأنه يتبعك. الذين يرونه لأول مرة يشهقون من الدهشة. والأكثر غرابة هو أنَّ القناع، عندما يوضع على طاولة تدور ببطء، يبدو بأنه يدور في الاتجاه الصحيح عندما تنظر للطرف الممتلئ، ولكن بالاتجاه المعاكس عندما تنظر للطرف المجوّف. والنتيجة هي أنه عندما تشاهد الانتقال من طرف إلى آخر فإن الطرف القادم يبدو وكأنه "يأكل" الطرف الذاهب. إنه وهم مبهر ورؤيته تستحق بعض العناء. وبعض الأحيان تستطيع الاقتراب بشكل مفاجئ للطرف المجوّف بدون أن ترى أنه "حقيقةً" مجوّف. وعندما ترى ذلك مرة أخرى يحصل التأرجح في الصورة.[1]

ما سبب حصول هذا؟ ليس هنالك أيّ خدعة في بناء القناع. وأيّ قناع مجوّف سيؤدي نفس الغرض. الخدعة تكمن في عقل المُشاهد. برنامج المحاكاة الداخلي يستقبل معلومات تنبئ عن وجود الوجه، لا شيء أكثر من عينان وأنف وفم في أمكانها المحددة تقريباً. وبتمام الاستقبال لتلك الرموز السطحية، يقوم الدماغ بالباقي. يبدأ برنامج المحاكاة بالعمل ويبني النموذج الممتلئ للوجه بالرغم من أن ما تقدمه الحقيقة للعينين هو قناع مجوف. وتخيل الدوران في الجهة الخطأ يحصل بسبب (هناك بعض الصعوبة هنا، ولكن لو فكرت بعمق ستستطيع التأكد من الفكرة) أن الدوران بالجهة المعاكسة هو الوحيد الذي يجعل هُناكَ معنى للمعلومات البصرية عندما يدورالقناع المجوّف وهو يظهر على أنه ممتلىء[48]. ذلك شبيه بالوهم الذي ينتج عن دوران صحن الرادرا الذي نراه في المطارات. خلال الوقت اللازم ليستطيع الدماغ قلب الصورة للوضع الصحيح لصحن الرادار، سيكون هُناكَ نموذج خاطئ يدور بالاتجاه المعاكس بشكل معوّج.

أقول ذلك فقط لأبين القوة الهائلة للمحاكاة العقلية. إنها مجهزة بشكل جيد لبناء "مَشاهد" و "رؤى" تبدو واقعية لأعلى درجة. وإعادة بناء شبح أو ملاك أو مريم العذراء في العقل، هي بمثابة لعبة أطفال بالنسبة لبرنامج بهذا الرقي. الشيء نفسه يحدث سمعياً. فعند سماع صوت ما فإنه لا ينتقل بشكل كامل مثل سماعات الآيبود عن طريق الأعصاب السمعية للدماغ. تماماً كما في النظر، يبني الدماغ نموذجاً للصوت عن طريق المعلومات السمعية المستمرة بالتدفق للأعصاب السمعية. ولذلك نسمع نغمة البوق كنوتة موسيقية واحدة وليس كتركيب من ترددات لأنغام متناسقة تعطيها طابع الزمجرة النحاسي. بينما ناياً يبدو "خشبياً" يعزف نفس النوتة، ونسمع أنغام المزمار وكأنها "قصبية" بسبب التوازن المُختلف للتناسق بين النغمات. ولو جربنا التلاعب بالأنغام وأدخلنا نغمات مختلفة واحدة بعد الأخرى، فسيسمع الدماغ الترددات المُختلفة لفترة قصيرة بشكل منفصل حتى يبدأ برنامج المحاكاة بالعمل، وعندها ستسمع النغمة

1 شاهد القناع الذي يقصدهُ الكاتب هنا: HTTPS://YOUTU.BE/ORoTCBrCKIQ (المترجم)

الواحدة لبوق أو ناي أو ما شابه. والأحرف الصوتية واللاصوتية تُبنى في الدماغ بالطريقة نفسها، وهكذا، وعلى مُستوى آخر، تبنى الأنغام والكلمات بترتيب من أصوات أعلى.

عندما كنتُ صغيراً، سمعتُ مرةً ما شبحاً: صوتٌ ذكوري يُغمغم وكأنه يتلو صلوات. وكدتُ تقريباً أتبين الكلمات التي بدت أنَّ لها نسقاً صوتياً مهيباً جاداً. وكنتُ وقتها قد سمعتُ الكثير من القصص عن الفَجوات التي كان يختبىء فيها الرهبان في البيوت القديمة (خلال حقبة اضطهاد الكاثوليك في بريطانيا)، وأصابني الذُعر. ولكني نهضتُ من السرير وزحفت نحو مصدر الصوت. وكُلما اقتربتُ كلما ارتفع الصوت، وفجأة فهمتُ الصوت الذي يرنُّ في رأسي. كُنتُ قريباً بشكل كاف لأعرف حقيقته. كانت الريح تعصف من خلال ثُقب المُفتاح لتخلقَ صوتاً استخدمهُ برنامج المحاكاة في عقلي ليبني نموذجاً لصوت رجل يتلو الصلوات بجدية. ولو كنت طفلاً قابلاً للتأثر بشكل أكبر مما كنت عليه آنذاك، لكان من الممكن لي أن "أسمع"، ليسَ فقط خطاباً غير مفهوم، بل كلمات معينة وربما جُملاً أيضاً. وأتساءل الآن، ماهي الكلمات التي كنت سأسمعها لو كنت قابلاً للتأثر وقد نشأت في بيئة دينية؟

في مُناسبة أخرى، كنت في نفس العمر تقريباً، رأيت وجهاً عملاقاً وشريراً بشكلٍ لا يوصف يحدِّق من نافذة بيت عادي في قرية على البحر. إقتربتُ بهلع لأتبيّن حقيقة الأمر: شيء مُبهم كشكل وجه ناتج عن نقشة على قماش الستارة. الوجه بحد ذاته وتعابيرهُ الشريرة تمّ إعادة تركيبها طبعاً في رأسي الطفولي الخائف. وفي أحداث الحادي عشر من أيلول إعتقد بعض الأتقياء أنهم رؤوا وجه الشيطان في الدخان المُنبعث من البرجين: خرافة دُعِمت بصورة نُشِرَت على الإنترنت وتداولها الناس بشكل كبير.

عقلُ الإنسان رائعٌ جداً في إعادة بناء النماذج. وعندما ننام ندعو ذلك أحلاماً، وفي اليقظة ندعوها بالتخيّلات أو في حالة كونها شديدة الواقعية ندعوها هَلْوَسات. وكما سنرى في الفصل العاشر، الأطفال الذين لديهم "أصدقاء وهميين[1]" يرون أصدقاءهم بوضوح في بعض الأحيان كما لو أنهم حقيقيون تماماً. ولو كنا على درجة من السذاجة، فلن نُميز أحلام اليقظة أو الهلوسة على حقيقتها، وسندّعي بأننا رأينا أو سمعنا شبحاً، أو ملاكا، أو إلها، أو ــ وبشكل خاص في حالة الشابات الكاثوليكيات ــ مريم العذراء. رؤيا كهذه ليست سبباً كافيا للتصديق بأن الأشباح أو الملائكة أو الآلِهة أو العذراء موجودون حقيقة.

من ناحية أخرى، في حالة الرؤيا الجماعية كما حصل في أيام الحج لمدينة فاطمة في البرتغال عام 1917 حيث شهد سبعون ألفاً من الحجاج الشمس "تترك السماء وتهوي باتجاه الحجاج"[49]، فإنه من الصعب تجاهل ظاهرة كتلك. وليس من السهل تفسير تقاسم 70000 شخص لنفس الهلوسة. ولكن من الأصعب القبول بحقيقة حدوثها بدون أن يراها أحد خارج منطقة فاطمة، وليس فقط الرؤية، بل أيضاً الشعور بالدمار الهائل للمجموعة الشمسية ومن ضمنها قوة تسارع كافية لقذف الجميع للفضاء. لا نستطيع هنا مقاومة التفكير بأختبار دايفيد هيوم البليغ للمعجزة: "ليس هُناكَ من شهادة تكفي للتصديق بمعجزة إلا إذا كان تكذيب تلك الشهادة سيكون معجزة أكبر من المعجزة نفسها".

1 . الأصدقاء الوهميون هي حالة نفسيه يمر بها بعض الأطفال في مراحل مبكرة من الطفولة بسبب مشاعر الوحدة (المترجم).

ربما يبدو من غير المحتمل أن يكون سبعون ألف شخص ضحية لنفس الوهم في نفس الوقت، أو أنهم تآمروا على نفس الكذبة الجماعية، أو أن التأريخ أخطأ في تسجيل أن سبعين ألفاً زعموا رؤية الشمس ترقص، أو أنهم رؤوا سراباً (كان قد تم إقناعهم بالتحديقِ في الشمس، شيء من غير المعقول أنهُ كان مفيداً للنظر). ولكن أياً من هذه الاحتمالات التي تبدو مُستَبّعَدة يبقى وقوعها أكثرا حتمالاً بكثير من الخيار الآخر: أن تكون الأرض سُحبَت فجأة من مسارها جانباً والنظام الشمسي قد إنهارَ دون أن يشعر أحد خارج منطقة فاطمة بالموضَوع، أعني البرتغال ليست معزولة عن بقية العالم الى هذه الدرجة.

هذا كُل ما يمكن أن يقال حول موضوع التجارب الشخصية للإله أو لظواهر دينية أخرى. ولو تعرضتَ لتجربة من هذا النوع، فلربما تجد نفسك مؤمناً بواقعيتها بشكل قوي. ولكن لا تتوقع أنهُ على الآخرين منا أن يصدقوا ذلك. وخصوصاً إذا كان لدينا بعض المعرفة عن الدماغ وقدرته الجبارة على العمل.

الحُجج من الكتب المقدسة

لا يزال البعض مؤمناً بالله نتيجة لاقتناعه بالأدلة الواردة في الكتب المقدسة. إحدى الحجج الشائعة، والمنسوبة للعديدين ومنهم س. اس. لويس (والذي كنت أتوقع منه أفضل من هذا)، تقول إنه بما أنَّ المسيح زعم بأنه ابن الله فإنه إما على حق أو مجنون أو كاذب: "مجنون، سيء أو إله" أو بشكل آخر، "مهووس، كذاب أو إله". الأدلة التأريخية التي تنبئ بأن المسيح زعم شيئاً كهذا قليلة جداً. ولكن حتى لو كانت الأدلة جيدة، فإن ذلك العرض منقوص بشكلٍ سخيف. إحتمال رابع، والذي يبدو أوضح من أن نحتاج الإشارة إليه، هو أن المسيح كان مخطئاً بصدق. العديدون كذلك. على كُل حال، وكما قلت، ليست هُناكَ أدلة تأريخية جيدة بأن المسيح زعم بأنه سماوي بالمرة.

أن يكون شيء ما مكتوباً في كتاب مقدس هو أمر مُقنع لأناس تعودوا على عدم طرح الأسئلة التالية: "من الذي كتبهُ ومتى؟"، "كيف عرف عن الموضوع الذي كتبه؟"، "هل اعتقدوا في وقتهم، بأننا في وقتنا سنفهم ما قالوه ولماذا؟"، "هل كانوا مراقبين غير متحييزين، أم كان لهم هدف أثَّر في كتاباتهم؟". من القرن التاسع عشر بدأ يشكِّك دارسو الديانات في أن الأناجيل يمكن الاعتماد عليها لمعرفة ما حصل تأريخياً في العالم بشكل حقيقي. كلها كُتبت بعد وقت طويل من وفاة المسيح، وحتى بعد رسائل القديس بولس والتي لم تُشر تقريباً لأي من الوقائع عن حياة المسيح. منذ ذلك الحين نُسخَت ونُسخَت النَّسَخ عبر "أجيال من لعبَة الهمس الصينية[1]" (أنظر الفصل الخامس) على يد كُتَّاب غيرَ معصومين عن الخطأ ولديهم جدول أعمالهم الديني الخاص بهم.

---

1 . لعبة الهمس لعبة تتألف على الغالب من خمسة أشخاص أو أكثر يقوم الاول بأيجاد جملة ويمررها للثاني همساً والثاني يمررها للثالث وهكذا حتى تعود الى الاول، وحينها يضحك الجميع على مدى التحوير الذي طرأ على هذه الجملة. (المترجم).

أحد أمثلة تلوين القصص لأغراض دينية هو القصة الدافئة الأسطورية عن ولادة المسيح في بيت لحم ملحقةً بمذبحة هيرودوس للأبرياء. عندما كُتب الإنجيل بعد وفاة المسيح لم يكن أحد يعرف أين ولد. ولكن نبوءة من العهد القديم (ميخا 5:2) جعلت اليهود يتوقعون أن المُخلص المنتظر سيولد في بيت لحم. وفي ضوء تلك النبوءة، فإن إنجيل يوحنا يدون بشكل لا ريب فيه بأن أتباعه فوجئوا بأنه لم يولد في بيت لحم: "آخرون قالوا، إنه المسيح. والبعض قال، هل يأتي المسيح من الجليل؟ ألم يذكر الكتاب المقدس بأن المسيح من نسل داوود سيكون من بيت لحم، مكان داوود؟".

متَّى ولوقا حلّا المشكلة بشكل آخر، وذلك بالقرار بأن المسيح يجب أن يكون قد ولد في بيت لحم بكل الأحوال. ولكنهم أتوا بهِ الى هناك بطرق مختلفة. متَّى جعلَ مريم ويوسف يذهبان لبيت لحم من الناصرة بعد وقت طويل من ميلاد المسيح وفي طريق عودتهم من مصر حيث هربا من الملك هيرودوس والمذبحة. لوقا، على العكس، يعترف بأن مريم ويوسف عاشا في الناصرة قبل ميلاد المسيح. كيف سينْقَلون لبيت لحم في اللحظة الحرجة لتحقيق النبوءة؟ لوقا قال بأنه عندما كان سيرينيوس حاكماً لسوريا، أمر القيصر اوغسطس بإحصاء عدد السكان لأمور تتعلق بالضرائب، وكان على الجميع أن يذهبوا الى "مدنهم الأصلية". ويوسف كان من بيت ونسل داوود، ولهذا كان عليه أن يذهب لـ "مدينة داوود والتي تدعى بيت لحم". وبدا أن ذلك حلاً لا بأس به للمشكلة. ما عدا أن ذلك تاريخياً ليس صحيحاً على الإطلاق كما نوّه أ. ن. ويلسون في كتابه "يسوع"، وفي كتاب روبن لين فوكس في "النسخة غير المرخصة" (والعديد غيرهم أيضاً). داوود، إن كان شخصية تاريخية حقيقية، فالمأثور عنه أنه عاش قبل حوالي ألف عام من زمن مريم ويوسف. وما سبب طلب الرومان بأن يذهب يوسف لبلد عاش فيها أحد أجداده منذ ألف عام؟ هذا أشبه بأن يُطلَب مني بأن أضع أشبي-دو-لا-زوخ (بلدة في إنكلترا) في خانة المدينة على الإحصاء السكاني الخاص بي، هذا إن استطعتُ أن أقتفي أثر أسلافي رجوعاً إلى عهد السنيور داگين، والذي أتى مع ويليام الفاتح واستقرّ هناك.

والأكثر من ذلك، فقد ضيّع لوقا تواريخه بالتنويه لأحداث تاريخية مما يستطيع عُلماء التأريخ التدقيق فيها. بالتأكيد كان هُناكَ إحصاء تحت إمرة الحاكم سيرينيوس - إحصاء محلي وليس بأمر القيصر أوغسطس لكل الإمبراطورية - ولكن ذلك حصل مُتأخراً في العام السادس الميلادي وبعد موت هيرودوس بكثير. إستنتج لين فوكس بأن قصة "لوقا مستحيلة تأريخياً وغير مترابطة معنوياً"، ولكنه تعاطف مع لوقا في محنته ورغبته في تحقيق نبوءه ميخا.

في عدد كانون الأول 2004 من Free Enquiry (فري إنكويري)، جمع توم فْلين، محرر تلك الصحيفة الرائعة، مجموعة من المقالات التي دونت التناقض والفراغات في قصة الميلاد المحبوبة. فْلين نفسه وضع لائحة بتناقضات عديدة بين متَّى ولوقا وهما الإنجيليان الوحيدان اللَّذان تطرقا لقصة ميلاد المسيح على الإطلاق[50]. روبرت غيلولي بيّن لنا كيف أن كُل المواصفات المذكورة في أسطورة المسيح متضمنة نجمة الشرق وولادة العذراء وتبجيل الطفل من الملوك والمعجزات والإعدام والقيامة والصعود كلها مُستعارة –على الاطلاق - من أديان كانت موجودة في منطقة البحر المتوسط والشرق الأدنى سابقاً. فْلين اقترح بأن رغبة

متّى بتحقيق نبوءة المخلص (من نسل داوود، مولود في بيت لحم) كانت للجمهور اليهودي وبذلك تتضارب مع نسخة لوقا ورغبته بنشر المسيحية عند الوثنيين، ولذلك كان التركيز على النقطة الحساسة في اللغة للدين الهيليني الوثني (ولادة العذراء، وتبجيل من الملوك والخ). التضاربات الناتجة صارخة، ولكنها متجاهَلة بشكل مستمر من المؤمنين.

المسيحيون المُحْدَثون لا يحتاجون أحداً لإقناعهم بأن "الأشياء المذكورة في الإنجيل ليست كذلك بالضرورة". ولكن هُناكَ العديد من المسيحيين غير المُحْدَثين الذين يعتقدون بأن ذلك حصل فعلاً تماماً كما هو مكتوب، ويأخذون الإنجيل بجدية وحرفية كسجلٍ تأريخي دقيق ودليل يدعم صحة معتقداتهم الدينية. ألا يقرأ هؤلاء الكتب التي يعتقدون بأنها الحقيقة الحرفية؟ لماذا لا يلاحظون هذه التناقضات الساطعة؟ ألا يحق للمدقق الحرفي بأن يقلق لواقع أن متَّى اقتفى أسلاف يوسف من الملكَ داوود إلى 28 جيلاً، بينما لوقا احتاج لـ 41 جيلاً؟ والأسوأ هو عدم وجود أسماء مشتركة تقريباً في اللائحتين! وعلى أي حال، لو كان المسيح مولوداً لعذراء حقاً، فلا علاقة لأسلاف يوسف هنا ولا يُمكن استعمالهم لتحقيق النبوءة من العهد القديم بأنَّ المخَلِّص يجب أن يكون من نسل داوود.

في كتاب تحت عنوانٍ ثانوي، "القصة وراء من حرّف العهد الجديد ولماذا"[1]، لدارس الإنجيل الأمريكي بارت ايهرمان، يكشف فيه التخبط الشديد في نصوص العهد الجديد[2]. في مقدمة الكتاب يشرح البروفيسور ايهرمان، بشكل مؤثّر، مخطَّط رحلته التعليمية من مؤمن متعصب بالإنجيل لمُفكر مُشكِّك، رحلة مدفوعة ببداية إدراكه لوجود الأخطاء الكبيرة في الكتب المقدسة. بشكلٍ ملحوظ، وعبر تنقله التدريجي في الجامعات الأَمريكية، من الحضيض في "كلية مودي الإنجيلية" حتى كلية ويتون (أعلى مرتبة قليلاً ولكنها لا تزال المدرسة التي تخرّج منها بيلي غراهام) وصولاً إلى كلية اللاهوت في جامعة برينستون، كان يتلقى التحذيرات في كل مرحلة أنه قد يجد صعوبة في الحفاظ على تعصبه المسيحي في وجه التقدَّمية الخطرة. وقد بُرهِنَتْ صحةُ ذلك، ونحن قُرّاؤهُ هم الذين استفادوا. وإليكم روائع أخرى في نقد الإنجيل. كتاب روبن لِيْن فوكس "النسخة غير المرخصة"، وقد ذكرته مسبقاً، وجاكس بَرلِنَرْبلو في "الإنجيل العلماني: لماذا على غير المؤمنين أن يأخذوا الدين بجدية".

الأناجيل الأربعة التي دخلت في الإنجيل الرسمي أختيرت بشكل أو بأخر عشوائياً من بين ما لا يقل عن اثنتي عشرة أخرى، منها إنجيل توما وبطرس ونيكوديموس وفيليب وبرثولماس ومريم المجدلية[51]. بعض هذه الأناجيل، المعروفة بالأبوكريفا[3] في ذلك الزمن، هي الأناجيل الإضافية التي عناها توماس جفرسون في رسالته لابن أخته:

. العنوان الرئيسي للكتاب هو (كلمات مَنْ هذه؟)1

. العهد الجديد هو الاسم الذي يطلقهُ المسيحيون على الأنجيل المسيحي يقابله العهد القديم للتوراة وكتب اليهود. (المترجم).2

3 أُبُوكْرِيفَا كلمة يونانية قديمة تعني "أشياء تم إخفاءها"، وتترجم إلى الكتب المنحولة أيضا، وفي السياق الديني مصطلح أبوكريفا Apocrypha يستعمل اليوم حصرا للإشارة إلى نصوص دينية تعتبر غير موثقة. (المترجم)

"عند الكلام عن العهد الجديد، نسيت ملاحظة أنَّ عليك أن تقرأ كُل القصص عن المسيح، سواء من يسميهم مجلس القساوسة بالإنجيليين أو من اعتبرهم ذلك المجلس إنجيليين مزيّفين. والسبب هو أن هؤلاء الإنجيليين المزيّفين إدَّعوا بأنهم مُلْهَمون تماماً مثل الباقين، فعليك أن تحكم بنفسك على ادِّعاءاتهم بواسطة منطقك وعقلك لا بمنطق أولئك القساوسة".

الأناجيل التي لم تنتشر حُذفت من قبل هؤلاء القساوسة، ربما لأنها تحتوي قصصاً أكثر إحراجاً من مثيلاتها في الأربعة الذين صاروا رسميين. إنجيل توما على سبيل المثال، توجد فيه بعض الطرائف عن يسوع الطفل الذي يسيء استعمال قواه السحرية بنفس طريقة الجنية الشريرة في الخرافات، وبشكل عفريتي يحوِّل أصدقاءه لعنزات، أو يحوِّل الطين لعصافير، أو يساعد أباه في نجارته بإطالة قطعة خشب بشكل سحري[1]. وسيقال بأنَّ لا أحد يصدق قصصَ معجزات بدائية كالتي في إنجيل توما على أية حال. ولكن ليس هُناكَ أي سبب لتصديق الأناجيل الشرعية الأربعة الأخرى. كلها لها صفة الأساطير وهي في الواقع مريبة مثل قصص الملك آرثر وفُرسان المائدة المستديرة.

معظم ما هو مشترك في الأناجيل الأربعة قادم من مصدر واحد. قد يكون من إنجيل مرقس، أو من عملٍ أقدم ضائع، ومرقس هو أقدم ما نعرفه عن ناسخيه. لا أحد يعرف من هم الإنجيليين الأربعة. ولكنهُ من المؤكد تقريباً أنهم لم يقابلوا المسيح شخصياً. ومُعظم ما كتبوه لا يُمكن أن يوصف بأي شكل بأنه تأريخ أمين، إنما هو ببساطة إعادة قولبة للعهد القديم لأن كُتابَ الإنجيل كانوا مقتنعين بإخلاص أن حياة المسيح يجب أن تحقق نبوءات العهد القديم. ومن الممكن أن نفكر، ولو أن ذلك ليس شائعاً بعد، بجدية الطرح التأريخي بأنه لم يكُن هُناكَ مسيح على الإطلاق، كما فعل العديدون ومن بينهم البروفيسور ج. آي. والاس من جامعة لندن في كتبه والتي من بينها "هل وُجِدَ المسيح؟".

ورغم احتمال وجود المسيح، فإن دارسي الإنجيل المُحترمين لا يعتبرون العهد الجديد (وبالطبع القديم أيضاً) مصدراً موثوقاً به للقراءات التأريخية. وأنا يجب ألاَّ أعتبر بعد الآن الإنجيل كدليل على أي نوع من الآلهة. كما أشار جفرسون في تنبّه لخَلَفه جون آدامز، "سيأتي يوم يُعتبر فيه الجيل المتصوِّف المؤمن بالمسيح وبأبيه السماوي الخارق وبرحم العَذراء، كالجيل الذي آمن بمينَرَفا التي وُلِدَت في دماغ جوبيتر".

قد أحدث دان براون، بكتابه "شيفرة دافنشي" وبالفيلم الذي عُرِض، الكثيرَ من اللَّغَط في أواسط الكنيسة. شُجِّعَ المسيحيون على مقاطعة الفيلم ودور السينما التي تعرضه. إنه بالتأكيد مفبرك من البداية للنهاية:

---

1 . يتساءل الكاتب ا. ن. ويلسون فيما إذا كان يوسف يمتهن النجارة أساساً؟ الكلمة الاغريقية "TEKTON" تعني صراحة النجار ولكن عند ترجمتها من الآرامية "نجار" فقد تعني كالمهني من المهنة أو رجل حكيم. هذا الخطأ في الترجمة أحد العديد من الاخطاء التي تثير الكثير من التخبط في الانجيل. من أحد أهم هذه المفارقات هي ترجمة كلمة "ألماه" من العبرية في سفر أشعياء، والتي تعني إمرأة صغيرة، وعند ترجمتها للاغريقية تصبح عذراء "PARTHENOS" خطأ نقل كهذا سهل الحدوث ولكن مضاعفاته قد تكون كارثية عندما نعرف ان هذا الخطأ أصبح أحد اسس الفكر المسيحي والذي يدعي بأن المسيح ولد من عذراء. إبن وراق يدعي أيضاً بأن كلمة حور العين "العذراوات" هي أيضاً خطأ في الترجمة وقع ضحيته العديد من الانتحاريين الذين تم تلقينهم بأنهم سيقابلون اثنين وسبعين عذراء في الجنة. السؤال هنا هو لو كانت هذه الأخطاء معروفة فما هو عدد الضحايا الذين كنا سننقذهم من خطر الانتحاريين هؤلاء؟

بدعة وخيال مُختلق. وبهذه النقطة فإنه ليس مُختلفاً عن الإنجيل. والفرق الوحيد هو أن الأناجيل خيال قديم، وشيفرة دافنشي خيال من العصر الحديث.

الحجة من عُلماء محتَرَمين مُتدينين

"الغالبية الساحقة من المفكّرين البارزين لا يؤمنون بالدين المسيحي ولكنهم يخفون ذلك عن العامة لأنهم خائفون على مصدر رزقهم".

-بيرتراند راسل

"نيوتن كان مُتديناً فكيف تضع نفسك في مستواه، كذلك غاليلو وكيبلر وآخرون...؟ إذا كان هؤلاء قد اقتنعوا بوجود الله فمن تتصور نفسك؟". في محاججة سيئة كهذه قد لا يُحدث فرقاً ذكْر داروين من قِبل المُتدينين وما أشيع عنه وانتشر كالرائحة الكريهة وثبت خطأه من أقاويل عَن تحوّلهَ للإيمان عندما كان على فراش الموت[1]، وقد بدأ ذلك من قِبل إحدى "سيدات الأمل"، التي نسجت رواية عن داروين مُستلقٍ على وسادة ويقلب صفحات العهد الجديد في ضوء المساء ويعترف بأن نظرية التطور كلها خاطئة. في هذا الجزء، سأركز على العُلماء بشكل خاص لأن - السبب واضح - الذين يستعملون أسماء أناس يثيرون الإعجاب كأمثلة دينية يختارون العُلماء في معظم الحالات.

نيوتن بالتأكيد إدَّعى التدين. وهذا ما فعله الجميع تقريباً، بشكل ملحوظ، حتى حلول القرن التاسع عشر حيث قلَّ الضغط الاجتماعي والقضائي عن القرون السابقة فيما يتعلق بالإعتراف بالدين وزادت الأدلة العلمية التي تدعو لتجاهل الدين. ولا شك بأنه كان هناك العديد من الاستثناءات في كلا الاتجاهين. حتى قبل داروين، لم يكن الجميع من المؤمنين. كما في كتاب جيمس هاوت "2000 عام من عدم الإيمان": مشاهير كانت لهم الشجاعة للشك. العديد من العُلماء استمروا بالإيمان حتى بعد داروين. ليس لدينا أي سبب لنُشكّك في ولاء مايكل فاراداي للمسيحية حتى بعد معرفته الحتمية بداروين وأعماله. وكان من جماعة ساندرمان الدينية والتي آمنت (أستعملُ الفعل الماضي لأن تلك الجماعة انقرضت عملَياً) بحرفية الإنجيل. ومن الطقوس كان غسل أقدام الداخلين الجُدد والاستخارة لمعرفة إرادة الله. وأصبح فاراداي من أعيانهم في 1860، عاماً واحداً بعد نشر أصل الأنواع، ومات كـ "ساندرماني" عام 1867. نظير العالم التجريبي فاراداي هو عالم النظريات كلارك ماكسويل، كان مسيحياً مُخلصاً كذلك. وكذلك كان عميد آخر للفيزياء البريطانية في القرن التاسع عشر وليام تومسون، اللورد كيلفين، الذي جرب إثبات أن نظرية التطور باطلة بسبب عدم كفاية الوقت لحصول عملية التطور. خطأ العالم الثرموديناميكي كان في افتراض أنَّ الشمس

1. تصلني الكثير من التنبؤات بالهداية على فراش الموت، ربما من الافضل أن أقوم بتركيب جهاز تسجيل صوتي حماية لسمعتي بعد موتي. ثم "لماذا كل هذا الكلام عن فراش الموت" تضيف زوجتي لالة وارد، إذا كنت تريد خذلاننا فمن الأفضل ان تقوم بهذا بالوقت المناسب وتربح جائزة تيمبلتون، حينها تستطيع أن تدعي الخرف ببساطة.

كانت نوعاً من النار تحرق نوعاً من الوقود الذي ينفذ خلال عشرات الملايين من السنين، وليس آلاف الملايين. لم يكن متوَقَّعاً من كالفين أن يعرف عن وجود الطاقة النووية. لحسن الحظ، عام 1903 وفي اجتماع الجمعية البريطانية، برّأ جورج داروين، الابن الثاني لتشارلز، أباه بعد اكتشاف كوري للراديوم، وفنَّدَ بذلك تقديرات اللورد كالفين الذي كان لا يزال على قيد الحياة.

خلال القرن العشرين أصبح البحث عن عُلماء يصرَحون بالتدين عملية أصعب، ولكنهم ليسوا نادري الوجود بأي حال. وتقديري أن معظم العُلماء المُتدينين الحاليين هم بالمعنى الآينشتايني والذي، كما ناقشتُهُ في الفصل الأول، هو استعمال للكلمة بشكل خاطئ. ولكن يوجد أيضاً العديد من العُلماء المُتدينين بالمعنى التقليدي. من ضمن العُلماء البريطانيين المحدثين، ثلاثة أسماء مألوفة تشترك بما يشبه مؤسسة محاماة لديكنز: بيكوك، وستانارد، وبولكنغتون. الثلاثة حصلوا على جائزة تمبلتون، أو كانوا في مجلس الإدارة لجمعيتها. وبعد مناقشات لطيفة علنية وخاصة معهم جميعاً، فإن ما ظلَّ يحيّرني، ليس إيمانهم بوجود نوع من رجل القانون الكوني، بل إيمانهم أيضاً بتفاصيل المسيحية: القيامة، وغفران الذنوب والخ...

هنالك أمثلة لهؤلاء في أميركا، ومثال على ذلك فرانسيس كولينز، المدير الإداري للفرع الأميركي لمشروع الخارطة الجينية للإنسان الرسمي[1]. ولكن كما في بريطانيا، ما يميزهم هو ندرتهم وكونهم موضوع محير لأقرانهم في الوسط الأكاديمي. في عام 1996 وفي حديقة كلية كلار القديمة في كامبردج، أجريتُ مقابلة مع صديقي جيم واتسون، المؤسس العبقري لمشروع الخارطة الجينية الإنسانية، وذلك لبرنامج وثائقي أعددتهُ لمحطة بي بي سي عن غريغور ماندل العبقري الذي أسّس علم الوراثة بذاته. ماندل بالتأكيد كان مُتديناً، كان راهباً أوغوسطينياً، ولكن ذلك كان في القرن التاسع عشر عندما كانت الرهبنة هي أسهل الطرق لمتابعة الشغف بالعلم بالنسبة لماندل. وبالنسبة له كان ذلك موازياً في أيامنا للحصول على منحة للبحث العلمي. سألت واتسون عما إذا كان يعرف أي عالم مُتدين في أيامنا فأجاب: "عملياً، لا أحد. أصادف بعضهم بالمناسبات وأشعر بالحرج (يضحك) لأنني، كما تعلم، لا أستطيع التصديق بأن أي أحد يقبل الحقيقة من خلال الوحي".

فرانسيس كريك، شريك واتسون في تأسيس المشروع الثوري عن الجزيئات الجينية المورّثة، إستقال من كلية تشرشل في كامبردج لأن الكلية قرّرت بناء مصلّى (أوصى به أحد المُتبرعين). في مقابلتي مع واتسون، قصدت أن أقول له بأن البعض، على عكسه هو وكريك، لا يرون تناقضاً بين العلم والدين لأنهم يزعمون بأن العلم يبحث في كيفية عمل الأشياء والدين يبحث في الغاية من ذلك. وعندها قال واتسون:"لا أعتقد اننا موجودون لغاية ما. نحن حصيلة طبيعية للتطور. قد تقول "آه، لابد أن حياتك تعيسة جداً لعدم اعتقادك بوجود معنى"، ولكنني أتوقَّع وجبة غداء جيدة على أي حال". وغداؤنا كان جيداً فعلاً.

الجهود التي يبذلها المدافعون عن الدين في البحث عن عُلماء معاصرين مميزين وصادقين في إيمانهم تحمل نفحةً من اليأس، كمن يمسح قاع البرميل بحثاً عن آخر نقطة فيه. موقع الانترنت الوحيد الذي

1 . لن نخلط هنا بين المشروع غير الرسمي لوضع الخارطة الجينية للانسان والتي يرأسها الرائع (غير المؤمن) العلمي كاريغ فينتر.

تمكَّنْتُ من إيجاده نشر لائحة مؤلفة من ستة أسماء "العُلماء مسيحيين حاصلين على جائزة نوبل" وذلك من أصل المئات من العُلماء الحاصلين على الجائزة. ومن هؤلاء الستة كان هُناكَ أربعة ليسوا من الحاصلين على الجائزة على الإطلاق. واحداً منهُم على الأقل ليس مؤمناً، وإنما يذهب للكنيسة لسبب اجتماعي صرف. وفي دراسة مُنظمة من قبل بنيامين بيث هالاهمي "وجد بأن نسبة عدم التدين بيَن الحاصلين على جائزة نوبل للعلوم والآداب، او المرشحين لها، كبيرة بشكل ملحوظ جداً مقارنة بالمجتمعات التي أتوا منها".[52]

دراسة أخرى في الصحيفة العلمية الرائدة نيتشر (Nature) قام بها لارسون و وِيتهام في 1998، تُظهر بأن من بين العُلماء الأمريكيين المتفوقين بنظر أقرانهم لدرجة أن يُنتَخَبوا ليكونوا أعضاء في الأكاديمية الوطنية للعلوم (ما يوازي العضوية في الهيئة الملكية في بريطانيا)، يوجد فقط حوالي 7 بالمائة يؤمنون بالإله الشخصي[53]. تلك الغالبية الساحقة من المُلحدين هي تقريباً عكس نسبتها في الشعب الأمريكي بشكل عام حيث أنَّ أكثر من 90 بالمائة يؤمنون بنوع ما من قوة كونية خارقة. والنسبة بين العُلماء الأقل بروزاً والذين لم يُنتَخبوا للأكاديمية هي في الوسط بين النسبتيَن السابقَتين. المؤمنون يشكلون أقلية لكنها ليست درامية، بنسبة حوالي 40 بالمائة. وهذا تماماً ما أتوقعه من أن نسبة التدين بين العُلماء أقل منها بالنسبة للعامة، والعُلماء الأكثر تميّزاً هم الأقلّ تديّناً على الإطلاق. من الملاحظ التعارض الصارخ بين تدين عامة الشعب الأمريكي وإلحاد النخبة المثقفة[54]. من المدهش لدرجة ما أنّ موقع الانترنت الرائد لمؤيدي نظرية الخلق "إجابات من سفْر التكوين"، نشر دراسة لارسون وِيتهام، ولكن ليس كدليل على احتمال وجود خطأ في موضوع التدين، إنما كسلاح لمعركتهم الداخلية ضد المُتدينين المنافسين المبرِرين الذين يزعمون بأن نظرية التطور تتماشى مع الدين. تحت عنوان "الأكاديمية الوطنية للعلوم لاإلهية للعظم"[55]، نشر موقع "إجابات من سِفر التكوين" مقتبس من الفقرة الإستنتاجية لدراسة لارسن و وِيتهام في رسالة لمحرر مجلة "نيتشر":

> " بعد التمحيص، نشرت الأكاديمية الوطنية للعلوم كُتيباً تشجع فيه على تدريس التطور في المدارس العامة، مصدر الخلاف المستمر بين المجتمع العلمي وبعض المحافظين المسيحيين في أمريكا. الكُتَيب يؤكد للقارئين أنه "سواء كان الله موجوداً أم لا، فهو سؤال يقف العلم منه على الحياد". عميد الأكاديمية بروس ألبرت قال: "هُناكَ العديد من أعضاء هذه الأكاديمية المتميزِين هم من المُتدينين جداً ويؤمنون بنظرية التطور، والعديد منهم عُلماء علم الاحياء". إحصائياتنا لها نتائج مخالفة لذلك".

يشعر المرء بأن ألبرت قد اعتنق مبدأ "الاختصاصات الغير متداخلة"، وبأن العلم يجب أن يقف على الحياد في مسألة وجود الله لأسباب كنت قد ناقشتها في "مدرسة تطوّريي نيفيل تشامبرلين" (الفصل الثاني). ولكن "إجابات من سِفر التكوين" يبدو أن له أهدافاً أخرى.

ما يوازي الأكاديمية الأمريكية الوطنية للعلوم في بريطانيا (وأستراليا وكندا ونيوزيلندا والهند وباكستان الخ) هو الجمعية الملكية. وفي الوقت الذي يجهز فيه هذا الكتاب للطبع، فإن زملائي، ر. أليزابيت كورنويل ومايكل ستيرات، يكتبون بحثهم المقارن، ولكن أكثر عمقاً، عن الآراء الدينية لأعضاء الجمعية الملكية. وستُنشَر النتائج بالتفصيل لاحقاً، لكنهم تكرّموا بالسماح لي بأن أعلق على النتائج المبدئية هنا. لقد استعملوا معياراً تقنياً لتدرّج الآراء من نوع سُلَّم السبع نقاط المشابه لسلم ليكَرت. جميع الأعضاء الـ 1074 للجمعية الذين لديهم بريد إلكتروني دُعوا للمشاركة فيه، وحوالي 23 بالمائة استجابوا للطلب (نسبة لا بأس بها لهذا النوع من الدراسات). وتم عرض أسئلة مختلفة عليهم مثل:"أنا أؤمن بالإله الشخصي الذي يهتم بما يفعله الفرد ويسمع ويستجيب للدعاء، ويهتم بموضوع الخطيئة والتجاوزات ويحكم على أساس ذلك". وهناك سبعة خيارات، من معارض بشدة لموافق بشدة. من الصعب مقارنة هذه الدراسة مع دراسة ويتهام ولارسن لأنهما قدّما فقط ثلاثة خيارات على سلم دراستهما وليس سبع. إلا أنَّ الاتجاه بشكل عام هو نفسه في الحالتين. الأكثرية الساحقة في الجمعية الملكية، كما في حال الأكاديمية في أمريكا، كانت من المُلحدين. 3.3 بالمائة فقط وافقوا بشدة على وجود الإله الشخصي (الدرجة 7 من السلم) بينما 78.8 بالمائة عارضوا بشدة (الدرجة 1 من السلم). لو اعتبرنا أن المؤمنين هم من اختار 6 أو 7، والمُلحدين هم من اختار 1 أو 2، فإن لدينا 213 مُلحداً مقابل 12 مؤمناً. كما في حال لارسون و ويتهام، وكما أيضاً لاحظ بيت هالامهي وأرجيل، فإنَّ ستيرات وكورنويل أكتشفوا أنَّ الميل عند علماء علم الاحياء لأن يكونوا ملحدين أقوى منه عند علماء المادة، هو ميل صغير لكنه مُعَبِر. وللتفاصيل الرجاء مراجعة النتائج عندما تُنشَر[56].

وبعيداً عن النخبة من العُلماء في الأكاديمية الوطنية والجمعية الملكية، هل هُناكَ أي دلائل بأن المُلحدين ينتمون الى الفئة الأفضل ثقافةً والأرقى تعليماً في المجتمعات بشكلٍ عام؟ لقد نُشرَت عدة دراسات إحصائية عن العلاقات بين التدين والمستوى الثقافي، أوالتدين ودرجة الذكاء. مايكل شيرمر في "كيف نؤمن: البحث عن الله في عصر العلم"، يصف إحصائية من عينة عشوائية في أمريكا أجراها مع زميله فرانك سولواي. ومنْ ضمنِ النتائج الكثيرة والمثيرة في المسح الإحصائي، كان التناسب العكسي الواضح بين التدين ومستوى التعليم (الأفراد الأعلى في مستوى التعليم هم الأقل تديناً). كما أن التدين يتناسب عكسياً مع الإهتمام بالعلم و(بشكل قوي) التحرر السياسي. لا شيء غير متوقع هنا تماماً، ولا حتى العلاقة الطردية بين تدين الأبناء وتدين الآباء. إختصاصيوا علم الاجتماع في إنكلترا وجدوا بأن واحداً من أصل اثني عشر فقط ينفصل دينياً عن معتقدات والديه.

وكما قد تتوقع، فإن الباحثين يستعملون طرقاً مُختلفة لقياس الظواهر. وبالتالي فإنه من الصعب المقارنة بين دراسات مُختلفة. والتحليل الجمعي لنتائج الدراسات هي التقنية التي يستعملها المحقق في هذه الحالة، وذلك بفحص كُل نتائج الأبحاث في موضوع ما ووضع الأبحاث التي استنتجت شيئاً ما مقابل الأبحاث التي استنتجت شيئاً آخر. وفي حالة التدين ومستوى الذكاء، فإن الدراسة الوحيدة التي قامت بتحليل جمعي لعدة دراسات، والتي لي علم بها، نُشرت في مجلة "منسا" في 2002 وأجراها بول بيل، (منسا هي جمعية الأفراد ذوي مستوى الذكاء العالي، وليس من المفاجئ أن تحوي مجلتهم مواضيعاً عن الشيء الوحيد الذي يجمعهم معاً)[57]. بيل استنتج التالي: "من 43 دراسة أجريت منذ عام 1927 عن العلاقة بين

الاعتقاد الديني ومستوى الذكاء و / أو المستوى التعليمي، جميعها -ما عدا أربع منها-وجدت التناسب عكسياً. بمعنى أنه كلَّما علت درجة الذكاء أو المستوى التعليمي للفرد، كلما قلَّ احتمال أن يكون هذا الشخص مُتديناً أو يحمل "مُعتقدات" من أي نوع".

إن محاولة جمع بيانات عدة دراسات لتحليلها مجتمعةً يعطي إستنتاجات أكثر عمومية وأقل دقة من أي دراسة على حدة شاركت بهذه النتائج. من الجيد عمل هكذا دراسات جمعية، وأيضا دراسات أخرى عن النخب في جمعيات مشابهة للأكاديمية الوطنية والحائزين على جوائز إعلامية وميداليات، مثل نوبل وكرافورد وكيوتو ... الخ. آمل أن أكون قادراً على ضمّ بعض النتائج في إصدار لهذا الكتاب في المستقبل. ربما تساهم النتائج العقلانية لأبحاث كهذه في جعل المدافعين عن الدين يترددون قبل الإشارة لشخصيات محترمة كأمثِلة في التدين، على الأقل فيما يختص بالعُلماء.

رهان باسكال

بحسب عالم الرياضيات الفرنسي الكبير بليز باسكال فإنه مهما كانت احتمالات وجود الله قليلة، فإن هناك عدم تناسب أكبر بالعقوبة التي تنتظر الاختيار الخاطئ. أحكم الطرق هي الإيمان بالله لأنك لو كُنتَ مُصيباً، فستربح النعمة الكبرى، ولو كُنتَ مُخطئاً، فلن يكون هُناكَ فرق على كل حال. بينما إن لم تؤمن بالله وكُنتَ مُخطئاً، فأنت محكومٌ للعنة أبديةَ، في حين إنْ كنتَ مُصيباً، فلن يكون هُناكَ أي فرق. وعلى ذلك فالقرار لا يحتاج لِذكاء. عليك الإيمان بالله.

هناك شيء ما مُحيرَ بشكلٍ خاص في هذه الحجة. الإيمان ليسَ شيئاً تُقررهُ كخطة للحياة. على الأقل هو ليس أمراً أستطيع أن أقرر فعلهُ بإرادتي. أستطيع أن أقرر الذهاب للكنيسة وأستطيع أن أنطق شهادة الإيمان وأستطيع أن أقسم على مجموعة الأناجيل بأني أصدِّق كُل كلمة فيها. ولكن، لا شيء من ذلك يجعلني فعلياً مُؤمناً بها إن لم أكن كذلك. ورِهان باسكال ليس أكثر من حجة للتظاهر بالإيمان بالله. والأفضل للإله المزعَوم ألا يكون عالماً بما في الصدور وإلاَّ لاستطاع كشف هذه الحيلة. سخافة الفكرة ذاتها بأن الإيمانَ هو شيء تستطيع أن تُقرره كانت موضع سخرية رفيعة المستوى من قبل دوغلاس آدامز في "وكالة ديرِك جنْتلي للتحريات الشاملة"، حيث يصف فيها الراهب الآلي الإلكتروني، آلة تشتريها لتوفير الوقت المصروف في العبادة حيث أنها تقوم "بالإيمان بدلاً عنك". والنموذج الفاخر يوصف بأنه "يستطيع الإيمان بأشياء لا يستطيع أهل صولْت لِيك سيتي الإيمان بها"[1].

1 . صولْت ليك سيتي هي مدينة في ولاية يوتا في الولايات المتحدة الأمريكية والتي ينتشر فيها المذهب المورموني والذي يؤمن أتباعهُ بأن المسيح عيسى جاء الى أمريكا كذلك وأنهم يملكون إنجيلهم الخاص بهم والذي يدعى كتاب مرمون ونبيهم اسمهُ جوزيف سميث 1805-1844. (المترجم)

لكن، في أي حال، لماذا نحن مستعدون جداً لقبول فكرة أنَّ الشيء الوحيد الذي يجب عليك فعله لترضي الله هو الإيمان به؟ ما هي هذه الخصوصية للإيمان؟ ألا يجب أن يكافئ الله الطيبة أو الكرم أو التواضع أو الصدق؟ ماذا لو كان الله عالماً يعتبر الصدق في التحري عن الحقيقة حسنة عُليا؟ ألا يجدر في الحقيقة بأن يكون منْ صَمّمَ هذا الكونَ عالِماً؟ عندما سئل بيرتراند راسل عن موقفه بعد الموت عند الوقوف بين يدي الله الذي سيسأله عن سبب عدم إيمانه به، كانت إجابة راسل "عدم كفاية الأدلة يا رب، عدم كفاية الأدلة"، (كنت على وشك أن أصف إجابته بالخالدة). ألن يحترم الله راسل على شكِّه الشجاع هذا (ناهيك عن شجاعة موقفه في الدعوة للسلام التي أدَّت به إلى السجن خلال الحرب العالمية الاولى) أكثر من احترامه لباسكال ورهانه الجبان؟ وبما أننا لا نستطيع معرفة موقف الله هنا، فإننا لا نحتاج إلى أن "نعرف" من أجل أن ندحض رهان باسكال. لنتذكر أننا نتكلم عن رهان، وباسكال نفسه لم يدَّعي أن رهانه لا يحوي أكثر من احتمالات طويلة. فهل تراهن على أن الله يفضِّل إيمانا مُزوّراً وغير نزيه (أو حتى إيماناً صادقاً) على شكٍّ صادق؟ ومرة أخرى، لنفترض أنَّ الله الذي تقابله بعد الموت كان بعل[1]، ولنفترض أن بعل غيور تماماً كمنافسه يهوه. أليس من الأفضل لباسكال أن يراهن على عدم وجود إله بالاساس من المراهنة على الإله الخطأ؟ وبالفعل، أليس العدد اللامنتهي للآلهة والآلهات الذي يمكن الرهان عليه يُفسد منطق باسكال بأكمله؟ ربما كان باسكال يمزح عندما طرح موضوع الرهان، تماماً كما أمزح أنا الآن في نقضه. ولكنني قابلتُ العديدين أثناء محاضراتي من الذين قدَّموا رهان باسكال كحجة على أهمية الإيمان بالله، وهذا ما جعلني أعرضها هنا بإختصار.

وفي النهاية، هل من المُمكن أن نحاجج بمُضادات رهان باسكال؟ لنفترض بأننا آمنَّا بأن هُناكَ احتمالاً صغيراً لوجود الله. وعلى الرغم من ذلك، يمكننا القول بأنك يمكن أنَ تحيا حياة أفضل لو راهنت على عدم وجوده مما لو راهنت على وجوده الذي يعني ضياع وقت ثمين في عبادته، وتقديم الأضاحي له والقتال في سبيله والموت لأجله... الخ. لن اتابع تعقُّب السؤال هنا، ولكن على القرّاء وضع هذا في أذهانهم عندما نناقش العواقب الأليمة التي تترتب على الإيمان ومراعاة التعاليم الدينية.

حجج بايزية [2]

أعتقد بأن أكثر الأدلة غرابة في محاولات البرهان على وجود الله هو برهان بايز الذي وضعهُ ستيفان أونوين في كتابه "إحتمالات الله". صراحة تردَّدتُ قبل أن أضعهُ مع بقية الحجج كونهُ أضعف الحجج وأقلّها لمعاناً مما سبق ذكره. كتاب أونوين، على أية حال، تلقَّى الكثير من الصدى الصحفي عُندما نشرَ في 2003، ولدينا الآن الفرصة لنقدم بعض الشرح فيما يخص ذلك هنا. عندي بعض التعاطف مع أهدافه

1 . بعل هو كبير الآلهة الكنعانية والفينيقية. (المترجم).
2 . نسبة إلى عالم الإحصاء الإنكليزي بايز (المحرر). مبرهنة بايز هي إحدى نتائج نظرية الإحتمالات الهامة التي تعطي التوزيع الاحتمالي الشرطي للمتغير العشوائي س مع العلم بالمتغير العشوائي ص، وذلك بدلالة التوزيع الاحتمالي الشرطي للمتغير العشوائي ص مع العلم بـ س والتوزع الاحتمالي للمتغيرين س و ص. (المترجم).

لأنني كما نوّهت في الفصل الثاني، أعتقد أنَّ فرضية الإله فرضية علمية يمكن أختبارها، على الأقل بشكل مبدأي. إن محاولة أونوين الخيالية لوضع أرقام للاحتِمالات هو مستساغ بل فكاهي أيضاً.

العنوان الثانوي للكتاب، "رياضيات بسيطة تبرهن الحقيقة الخالدة"، وكما يبدو، قد تمَّت إضافته في اللحظة الأخيرة من قِبل الناشر لأن نص أونوين لا يحتوي على تلك الثقة المغرورة. ومن الأفضل النظر للكتاب على أنه دليلَ "استخدام". شيء من قبيل "شرح نظرية بايز للأغبياء" وذلك باستعمال وجود الله بطريقة طريفة نوعاً ما للدراسة. كان باستطاعة أونوين أن يستعمل جريمة قتل كفرضية لشرحِ نظرية بايز بنفس الفعالية. المحقق يجمع الأدلة. البصمات على المسدس تشير الى السيدة بيكوك. يُقَيِّم ذلك الاشتباه بوضع رقم الاحتمال عليها. ولكن البروفيسور بلام لديه الدافع لتوريطها وجعلها تبدو مجرمة، هذا يخفِّف الشبهة عنها بنسبة معينة. الأدلة المخبرية تعطي احتمالاً 70 بالمائة بأن المسدس قد أطلق بدقة من مسافة بعيدة. مما يدل على أن المذنب متدرب عسكرياً، مما يزيد اشتباهنا بالكولونيل ماستارد. والموقر غرين عنده الدافع الأكثر معقولية للجريمة. وهذا يزيد رقم احتمال شُبهتهُ. ولكن الشعر الأشقر الطويل على سترة الضحية لا يُمكن أن تكون لأحد غير السيدة سكارلت. وهكذا، بشكل ما تتضارب الأحكام الذاتية للإمكانيات في عقل المحقق وتسحبه في كُل اتجاه. نظرية بايز كان من المفترض أن تساعده في الحصول على استنتاج. وهي عبارة عن عملية رياضية تجمع العديد من التخمينات وتستخلص منها حكماً نهائياً والذي بدوره يحمل تخمين امكانيته. ولكن بالتأكيد إن جودة التخمين النهائي تعتمد على الأرقام المقدمة بالأصل في البداية. وهذه في العادة أحكام ذاتية مع كل الشكوك الناتجة عنها. المبدأ (قمامة داخلة، قمامة خارجة)[1] قابل للتطبيق هنا – وفي حالة مثال أونوين عن الله، فإن كلمة "قابل للتطبيق" أعتبرها معتدلة بشكل كبير.

آونوين يبدو هنا كمُستشار في إدارة المخاطر يحمل مشعلاً للإستدلال بإستخدام مبرهنة بايز على الرغم من كل طرق الإحصاء الأخرى المنافسة له. يشرح لنا نظرية بايز ليس بتناوله حالة جريمة قتل، وإنما بتناوله لأكبر فكرة على الإطلاق، وهي وجود الله. حيث يبدأ بفرضية أن وجود الله أو عدمه أمر غير أكيد بالمرة ولهذا يعطى احتمالية 50 بالمائة لكلتا الحالتين. وبعد ذلك يضع لائحة من ست حقائق متعقلة بالموضوع، ويِعطي ثقلاً رقمياً لكل حقيقة، ويُدْخِل الأعداد الستة في محرك نظرية بايز ويرى ما هي الأرقام الناتجة. والمشكلة هي أن الثقل الرقمي للحقائق الستة ليست مقياس كمي معروف، بل هي حكم ستيفن أونوين وتقديره الشخصي وقد حولها لأرقام من أجل المعادلة فقط. الحقائق الست هي:

1. لدينا شعور بماهية الخير.
2. البشر يفعلون أشياء شريرة (هتلر، ستالين، صدام حسين).
3. الطبيعة تفعل أشياء شريرة (زلازل، تسونامي، عواصف).
4. من المحتمل أن يكون هناك معجزات صغيرة (أضعت مفاتيحي ثم وجدتها).
5. من المحتمل أن يكون هناك معجزات كبيرة (ربما قام المسيح من بين الأموات).

1 . مبدأ شائع الاستخدام في مجال برمجة الحاسبات ويدل على ان النتائج ليست بحال أفضل من المعطيات. GARBAGE IN, GARBAGE OUT (المترجم)

6. البعض لديهم تجارب دينية شخصية.

ماذا تستحق هذه القيم الافتراضية (التي لا تساوي شيئاً بنظري)، في نهاية السباق البايزي الذي يجري فيه الله ويسبق توقعات المراهنين جميعاً، ثم يصبح آخر المتسابقين، ثم يتسلق بقيمته للـ 50 بالمائة، والتي أبتدأ بها، وينتهي مسروراً بنسبة 67 بالمائة في صالح الوجود (أي وجود الله)، وهي النسبة التي حصل اونوين عليها. وبعد ذلك يقرر اونوين بأن 67 بالمائة ليست كافية، وبخطوة غريبة يرفع الاحتمال إلى 95 بالمائة وذلك بحقنة إسعافية من "الإيمان". ربما يبدو ذلك كمزحة، ولكن في حقيقةً هكذا أكمل أونوين الحسابات لبرهانه. وأتمنى لو أستطيع شرح كيف برّر ذلك، ولكن ليس هناك حقاً ما يمكن أن يقال هنا. وقد واجهت هذا النوع من السخافة في مناسبة أخرى، عندما تحدَّيت متدينين وبنفس الوقت علماء لامعين أن يبرروا إيمانهم بعد أن اعترفوا بعدم وجود أدلة: "أعترف انه لا توجد أدلة. هُناكَ "سبب" لتسمية ذلك بالإيمان" (العبارة الأخيرة قيلت تقريباً بقناعة مشاكسة ولم يكن فيها أي تلميح لاعتذار أو دفاع عن الرأي).

من المفاجئ أن لائحة أونوين للمقولات الست لا تحتوي على حجة التصميم، أو أي حجة من "براهين" الأكويني الخمسة، ولا أيٍ من حجج الوجودية. لا أثر لأيٍ من ذلك: ولا تُساهم أيّ منها بدعم تخميناته الرقمية لإمكانية وجود الله. بل إنهُ يُناقشُها، وكأي إحصائيٍ جيد يهملها باعتبارها فارغة. وأنا أعتقد أن ذلك نقطة في صالحه بالرغم من أنهُ أهمَلَ حُجة التصميم لسببٍ مُختلف عني. ولكن الحجج التي يتقدم بها عبر مدخله لنظرية بايز تبدو لي ضعيفة بنفس المستوى. وأعني بذلك أن الوزن الذي أعطيه للإمكانيات مُختلفاً تماماً عن الوزن الذي أعطاهُ هو، ولكن منْ يهتم للأحكام الشخصية على أية حال؟ هو يعتقد أنَّ حقيقة امتلاكنا الإحساس بالصح والخطأ تُحْسَب بقوة لصالح مسألة وجود الله، بينما أنا أعتقد بأنها لا تزيد أو تقلِّل من احتمال وجود الله. الفصل السادس والسابع سيشرحان لنا بأنه لا يُمكن الزعم بأن امتلاكنا للحدس بالخطأ والصواب له أي علاقة بقدرتنا على تحديد وجود إله خارق للطبيعة. وكما في حالة قدرتنا على تقدير رباعيات بيتهوفن، فإن حدسنا بالصواب والخطأ (لا يعني ذلك بالضرورة حافزاً لاتِّباعها) سيكون بالطريقة نفسها بإله أو بدونه.

من ناحية أخرى، يعتقد أونوين بأن وجود الشر، خصوصاً الكوارث الطبيعية كالزلازل والتسونامي هي أمور تدحض بشدة احتمال وجود الله. وهنا يعاكس اونوين رأيي، ولكنه يتماشى مع الكثيرين من عُلماء الدين غير المرتاحين. الثيوديسيا[1] (تبرئة العناية الإلهية في وجه وجود الشر) هو ما يقلق عُلماء الدين. "جمعية أوكسفورد للفلسفة" الموثوقة تقدِّم مشكلة الشر كـ "المعارضة الأقوى للإيمان التقليدي بالله". ولكنها فقط حجة ضد وجود إله طيب. الطيبة ليست جزءاً من التعريف لفرضية الله، بل هي مجرد إضافة مرغوبة.

1. الثيوديسيا أو عِلْمُ تَبْرِير العَدالَة الإلهِيّة فرع محدد من الثيولوجيا والفلسفة يهتم بحل مشكلة الشر ولماذا يسمح الله بحدوث الشر. أول من صاغ هذا المصطلح هو عالم الرياضياتَ والفيلسوف الألماني غوتفريد لايبنيز مصطلح في عام 1710 و (المترجم)

في الحقيقة، الناس الذين لديهم نزعة دينية لديهم أيضاً عدم تمييز مُزمن بين الحقيقة وما يرغبونه بأن يكون الحقيقة. ولكن بالنسبة للمُحدثين المؤمنين بنوعٍ ما من الذكاء فوق الطبيعي، فمن السهل عليهم التغلب على مشكلة الشرّ. بكل بساطة إفترض إلهاً شريراً كالذي يملأ كُل صفحات العهد القديم. أو إنْ لم يعجبك ذلك، إخترع إلهاً شريراً مُغايراً سَمِّه الشيطان، واعتبر أنَّ الشرّ كله نتيجة معركته مع الإله الخيِّر في العالم. أو -حلٌّ أكثر تطوراً- إفترض إلهاً لديه أمور أهم من أن يقلق ويهتاج لمحنة وكرب الإنسان، أو إلهاً ليس لامبالياً بمعاناة الإنسان ولكنه يعتبرها ثمناً للخيار الحر يجب أن ندفعهُ في كون خاضع للقوانين. ويوجد الكثيرون من عُلماء الدين ممن يسترشدون بأفكار كهذه.

لهذه الأسباب، لو أعدتُ عمل تمرين أونوين، فلن تحرفني مشكلة الشر أو الأخلاق في أي اتجاه عن خط الصفر (50 بالمائة في حالة اونوين). ولكنني لن أحاجج هذه النقطة هنا لأنني على كُل حال لا أستطيع أن أتأثّر بآراء شخصية، سواء كانت آرائي أو آراء أونوين.

هناك حجة أقوى بكثير والتي لا تعتمد على الأحكام الشخصية، وهي حُجة اللاإحتمالية. والتي تنقلنا بشكل درامي بعيداً عن نقطة ال 50 بالمائة اللاأدرية نحو الإيمان الكامل بالله بنظر الكثير من المؤمنين، وبعيداً باتجاه الإلحاد الكامل في نظري. وقد لمَّحتُ لذلك عدة مرات. كُل الحجة تدور حول السؤال التالي "من خلق الله؟". حيث لا يُمكن استعمال نظرية الإله المُصَمِّم لتفسير الخلق المُعقد هذا لأن أي إله قادر على تصميم أي شيء يجب أن يكون على مستوى أعلى من التعقيد ويتطلب بدوره تفسيراً. فكرة الإله تتطلب ارتداداً لا نهائياً لا مفرّ منه. وهذه الحجة، كما سأشرح في الفصل المقبل، ترينا بأن وجود الله وإن كان غير قابل للنقض تقنياً , يظل غير محتمل للغاية.

الفصل الرابع

لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود الله

رجال الدين من مُختلف الطوائف... يرتعبون من تقدُّم العلم كما يرتعب السحرة من موعد شروق الشمس، ويعبسون في وجه ذلك النذير القاتل القادم معلناً بأن تلك الأوهام التي يعتاشون عليها في طريقها للزوال.

توماس جفرسون

طائرة البوينغ 747 الكبرى

اللاإحتمالية هي الحجة الكبرى والتقليدية للمؤمنين بفرضية التصميم، وهي أشهر حُجة تُقدَّم هذه الأيام عن وجود الله وتُعتبر، للدهشة العظيمة، من قبل العديدين جداً من المؤمنين بالله بأنها كاملة ومُقنعة تماماً. إنها بالتأكيد حجة قوية، وأتصور أنها، غير قابلة للنقض، ولكن بعكس الاتجاه الذي يراه المؤمنون تماماً. فحجة اللاأحتمالية في الواقع لو استُعْمِلَتْ بشكلٍ صحيح، فإنها تقترب من برهنة أنَّ الله غير موجود. والإسم الذي اخترته للإثبات إحصائياً بأن اللَه غير موجود هو حجة طائرة البوينغ 747 الكبرى.

الإسم جاء من المقارنة اللطيفة التي أتى بها فريد هويل عن طائرة البوينع 747 وكومة الخردة. لستُ متأكداً إذا ما كان هويل نفسه قد كتب عن ذلك، ولكن زميلته، تشاندرا ويكراماسنغ، هي التي نسبتها إليه والمفروض أن التوثيق مُحَقَّق[58]. هويل قال بأن احتمال نشوء الحياة على كوكب الأرض ليس أكثر من احتمال مرور إعصار يعصف في كومة خردة، ولحسن حظهُ يقوم بتركيب طائرة بوينغ 747. آخرون استعاروا هذا التشبيه ليشيروا إلى التطور المتأخر للأجسام الحية المعقدة، حيث لها معقولية زائفة. الاحتمالات ضدَّ تشكيل حصان كامل بكل قواه، أو حتى بعوضة، أو نعامة من جراء خلط الأجزاء المختلفة، ترقى لنفس فرصة احتمالات الـ 747. تلك الحجة باختصار هي المفضلة عند الخلقيين، حجة تُطرح فقط من شخص لا يفهم أبسط الأشياء عن الانتخاب الطبيعي: شخص يظن بأن الانتخاب الطبيعي هو نظرية الصدف، بينما هي، بهذا المعنى للصدفة، تعني العكس تماماً.

اختلاس الخلقيين لحجة اللاإحتماليه له نفس الشكل دائماً، وخيار الخلقيين بإظهارها بلباقة في زي "التصميم الذكي"[1] لا يشكِّل أي فرق. مُلاحظات لبعض الظواهر، غالباً عن كائنات حية أو أحد أعضائها المعقدة، وبالإمكان أن تكون أي شيء بدءً من جزيئ وانتهاءً بالكون نفسه، تؤدي للتسليم بأنها إحصائياً غير مُحتملة. وفي بعض الأحيان تستخدم لغة المعلوماتية: نتحدى الداروينيين لتفسير مصدر المعلومات في كل الأشياء الحية، وذلك بالمعنى التقني لمحتوى المعلومات كقياس لضآلة الاحتمال أو "القيمة المفاجئة". أو تُستخدَم شعارات الإقتصاديين المُبتذلة مثل "ليس هُناكَ ما يسمى غداء مجانياً"، ويتم اتهام الداروينية بمحاولة الحصول على شيء من لا شيء. وفي الواقع، كما سأبين في هذا الفصل، فإن الانتخاب الطبيعي الدارويني هو الحل الوحيد المعروف للأحجية المستحيلة الحل بأي طريقة أخرى عن موضوع من أين أتت المعلومات. والحل يوضح بأنَّ دعاة فرضية الإله هم الذين يحاولون الحصول على شيء من لا شيء. والإله يحاول الحصول على غداء مجاني وبأن يكون هو نفسه ذلك الغداء. ومهما كان الموضوع الذي تحاول تفسير حدوثه بالتوسل بمُصمم قليل الاحتمال إحصائياً، فإنَّ المصمم نفسه يجب أن يكون قليل الاحتمال بنفس النسبة على الأقل. الله هو البوينغ 747 الكبرى.

1 . التصميم الذكي يتم وصفه بأسلوب لا يخلو من الخبث كثياب الخلقيين الرخيصة.

حجة اللاإحتماليه تنص بأن الأشياء المعقدة لا تأتي بالصدفة. والغالبية يفسرون عبارة "تأتي بالصدفة" بمعنى "تأتي بدون غاية مُتعمّدة لتصميمها". ولذلك فليس من المفاجئ أن يتصوّروا بأن اللاإحتماليه هي الدليل على التصميم. الانتخاب الطبيعي الداروِيني يظهر لنا خطأ ذلك عند اعتبار اللاإحتماليات فيما يتعلق بعلم الاحياء. وعلى الرغم من أن الداروينية لا تتعلق بشكل مباشر بعالم الأشياء الجامدة، كعلم الكون مثلاً، فإنها ترفع مستوى وعينا خارج نطاق مجال علم الاحياء.

الفهم العميق للداروينية يعلِّمنا الحذر من سهولة افتراض أنَّ التصميم هو البديل الوحيد للصدفة، ويعلمنا أن نبحث عن منحدر متدرِّج لتزايد التعقيد بشكل بطيء. قبل داروين، كان الفلاسفة مثل هيوم يفهمون أن اللاإحتمالية للحياة لا يعني بالضرورة أن تكون مُصمّمة، ولكنهم لم يستطيعوا تخيّل البديل. وبعد داروين، علينا جميعاً أن نشعر، من كل أعماقنا، بالشك في نظرية التصميم ذاتها. وَهْمُ التصميم هو الفخ الذي وقعنا فيه من قبل، ويُفتَرَض أن داروين أعطانا المناعة ضده برفع مستوى وعينا. هل نجح في ذلك مع الجميع.

الانتخاب الطبيعي كرافعة للوعي

في إحدى مركبات الفضاء في الخيال العلمي، عانى رواد الفضاء من الغربة: "تخيل أن الربيع قد بدأ هُناكَ على الأرض!". قد لا ترى على الفور ما هو الخطأ في هذا الأمر ، إنها شوفينية نصف الكرة الشمالي المغروسة بعمق في عقولنا نحن الذين نعيش هنا، وحتى بعض الذين لا يعيشون هنا. "اللاوعي" هو الكلمة الأدق. وهنا بالذات تأتي أهمية عملية رفع الوعي. في أستراليا ونيوزيلندا، تستطيع أن تشتري خرائط للعالم والقطب الجنوبي فيها مرسوم للأعلى، إن هذه الخرائط ليست للمزاح فقط. إنها من هذا النوع الرافع للوعي فيما لو ثبتناها على جدران الصفوف في نصف الكرة الشمالي. سيتذكر الطلاب يوماً بعد يوم بأن "الشمال" هو قطبية افتراضية لا علاقة لها بـ "الأعلى". الخريطة ستثيرهم وترفع من وعيهم وسيذهبون للمنزل ويخبرون أهاليهم. وبالمناسبة، إنَّ إعطاء الطلاب شيئاً يستطيعون معه أن يفاجئوا أهاليهم هو أحد أعظم المنح التي يقدمها مدرس.

الحركة النسوية هي من لفتت انتبَاهي لقوة رفع الوعي. كلمة "هيايات" طبعاً كلمة بدون معنى لأن جزء الكلمة "هو" في كلمة "هوايات" لا ترمز بشكل من الأشكال الى الضمير الذكوري. والإشتقاق سخيف، تماماً كما في عام 1999 عندما استعمل ضابط في واشنطن كلمة "Niggardly (نيغردلي) بمعنى بخيل" واتُّهِم باستعمال ألفاظ عنصرية[1]. ولكن حتى الإشتقاقات البسيطة مثل "هيايات"، أو "Niggardly" تنجح في رفع مستوى وعينا. في إحدى الأمسيات توقفنا عن المزاح وصقلنا سكاكين الفلسفة، وعندها بدأنا نرى كلمة هيايات بصورة تختلف عن كلمة هوايات. الضمائر المتعلقة بالجنس تقع في الخط الأول في حالات

[1]. جزء الكلمة NIGGA تأتي بمعنى عبد أسود. (المترجم).

رفع الوعي تلك. يجب عليه أو عليها أن يسأل نفسه أو نفسها عما إذا كان حدسه أو حدسها عن القالب اللغوي يتطلب منه أو منها الكتابة بهذا الشكل. ولو غضضنا النظر عن كل هذه المشاكل اللغوية لعرفنا إحساس نصف الجنس البشري. الإنسان، لغوياً، كلمة مذكَّرة نعني بها جميع البشر. جمل مثل "حقوق الإنسان"، و "الإنسان خُلق حراً"، و "رجل واحد صوت واحد"، تُظهِر اللغة وكأنها تستبعد المرأة. في شبابي لم يخطر لي بأنه من الممكن أن تشعر النساء بالإهانة من عبارات مثل "مُستقبل الإنسان". وخلال العقود الأخيرة تمّ رفع وعينا. وحتى هؤلاء الذين لا يزالون يستعملون كلمة "إنسان" بدلاً من "إنسان وإنسانة" يفعلون ذلك بشيء من الوعي الذاتي التبريري، أو لرغبة في المشاكسة، ويقفون موقفاً مسانداً للغة التقليدية ليثيروا حفيظة المؤمنين بالمساواة. كُل من ينتمي لروح العصر قد تم رفع وعيه، حتى هؤلاء الذين اختاروا الثبات على موقفهم السلبي وزيادة حدة الخلاف.

الحركة النسوية أثبتت لنا أهمية رفع الوعي، وأنا هنا سأستعير تقنيتها لأستعملها في الانتخاب الطبيعي. الانتخاب الطبيعي لا يفسِّر الحياة بشكل كامل فقط، بل أيضاً يرفع درجة وعينا لتلك القدرة التي يتمتع بها العلم في شرح إمكانية ظهور أنظمة معقدة من أشكال بدائية دون هدف مقصود. والفهم الكامل للانتخاب الطبيعي يشجعنا لأن نتقدّم بجرأة في فروع أخرى. إنها توقظ رَيْبَتنا في تلك الفروع الأخرى لنوع البدائل الخاطئة التي كانت في يوم ما قبل الداروينية تغشُّ علم الأحياء. مَنْ قبل داروين كان باستطاعته أن يحزر بأن شيئاً ما يبدو مصمماً لغاية معينة كجناح حشرة اليعسوب أو عين النسر، كان فعلاً خلاصة سلسة طويلة من التغيرات اللاعشوائية، بل لأسباب طبيعية بحتة؟

قصة دوغلاس آدمز الطريفة والمؤثِّرة عن تحوّله للإلحاد الجذري، أصرّ على كلمة "جذري" لئلا يخطىء أحد ويعتبره لاأدرياً، قصته تلك هي شهادة لقدرة الداروينية على رفع مستوى الوعي. آمل العفو من القارئ عما سيبدو وكأنَّه مديح للنفس فيما سيأتي. إنَّ تحوّل دوغلاس بسبب كتبي السابقة -والتي لم تُكتب بهدف تحويل أحد- هو الذي ألهمني لإهداء هذا الكتاب لذكراه؛ والذي يهدف للتحويل! سئل دوغلاس في مقابلة نشرت مؤخراً في سالمون أوف داوْبت "The Salmon of Doubt,"، من قِبل صحفي عن كيفية تحوّله للإلحاد. وبدأ الإجابة بشرح كيفية تحوله للاّأدرية، ثم استطرد قائلاً:

> "لقد فكرت، وفكرت، وفكرت. ولكنني لم أمتلك ما يكفي للاستمرار، وبالتالي لم أصل لأي قرار. كنت متشككاً في فكرة الله إلى حد كبير، ولكني لم أكن أعرف كفايةً عن أي شيء يشكِّل نموذجاً جيداً وصالحاً، أو أي شرح آخر لماهية الحياة والكون لأضعه محل الله. ولكنني لم أيأس وتابعت القراءة والتفكير. في بداية الثلاثينات من عمري إطَّلَعْتُ على طبيعة التطور، وبالتحديد من خلال كتب ريتشارد دوكنيز "الجين الأناني"، ومن ثمّ "صانع الساعات الأعمى". وفجأة، (أعتقد خلال قراءتي الثانية لكتاب الجين الأناني)، كُل شيء جلس في مكانه. المبدأ كان مدهشاً وعظيماً في بساطته، ولكنه أدَّى طبيعياً إلى حدوث كل هذا التعقيد الحياتي المدهش. الرهبة التي اعترتني جعلت النشوة التي يتحدث الناس عنها

بخصوص التجارب الدينية تبدو بصراحة سخيفة مقارنة بها، وأنا أفضِّل الرهبة الناتجة عن العلم على الرهبة الناتجة عن الجهل في أي وقت"[59].

مبدأ البساطة الذي تحدَّثَ عنه، بالطبع، ليس لي علاقة به. إنها نظرية داروين في التطور والانتخاب الطبيعي، الرافع العلمي الأكبر للوعي. دوغلاس، إني أفتقدك. أنتَ الأذكى والأطرف والأكثر انفتاحاً والأسرع بديهة والأطول وربما المرتد الوحيد بسبب كتبي. آمل أن يكون هذا الكتاب قد جعلك تضحك، وإنْ ليس بالقدر الذي كنتَ أنتَ تجعلني فيه أضحك.

دانيال دينيت، ذلك الفيلسوف المتمرِس بالعلم، يشير إلى أن التطور يُعارض أحد أقدم الأفكار التي نملكها: "فكرة الحاجة لشيء كبير معقَّد ذكي لعمل أشياء أقل تعقيداً، أدعو هذا بنظرية الخلق الفيضي. لن ترى أبداً رُمحا يَصنَعُ صانعَ الرماح. لن ترى أبداً نعل فرس يَصنعُ حداداً. ولا وعاء فُخارياً يصنع صانعهُ"[60]. اكتشاف داروين لعملية فعَّالة تقوم بعمل شيء مناقض للحدس هو ما يجعل مساهمته في الفكر البشري ثورية بشكل كبير ومشحونة بطاقة هائلة لرفع مستوى الوعي.

من المفاجئ أكتشاف ضرورة رفع مستوى الوعي هذا حتى في عقول عُلماء لامعين في حقول أخرى غير علم الأحياء. فريد هويل كان فيزيائياً وفلكياً لامعاً، ولكن خطأه في فهم فكرة البوينغ 747 وأخطاؤه الأخرى في مجال علم الأحياء -كمحاولته إهمال أحد أنواع المتحجرات "آركيوبتركس"[1] واعتبارها خدعة- تنبئنا عن حاجته لرفع وعيه من والاطِّلاع على عالَم الانتخاب الطبيعي. أعتقد أنه، على المستوى الفكري، قد فهم الانتخاب الطبيعي. ولكن ربما عليك أن تُنْقَع في الانتخاب الطبيعي وتُغطس وتسبح فيها قبل أن تستطيع أن تقدِّر فعلاً قوّتها الحقيقية.

علوم أخرى ترفع من وعينا بطرق مُختلفة. علْمُ فريد هويل في الفلك يضعنا في أماكننا، مجازياً وحرفياً، ويصغِّر كبرياءنا ليلائم المنصة الضيقة التي نلعب عليها أدوار حياتنا، على تلك الشظية الصغيرة من الحطام الناتج عن الإنفجار الكوني. علم طبقات الأرض يُذكِّرنا بوجودنا القصير سواء كأفراد أو كجنس. لقد رفع من وعي جون راسكين وأثاره لدرجة البكاء المؤلم عام 1851: "لو فقط يتركني علماء طبقات الارض وشأني لكُنت بخير تماماً، ولكن تلك المطارق المخيفة! أسمع نقراتها في نهاية إيقاع كُل آية من الكتاب المقدس". نظرية التطور تفعل الشيء نفسه من ناحية إحساسنا بالوقت، ليس ذلك مفاجئاً إذ أنها تعمل على مقياس الزمن الجيولوجي. ولكن التطور الدارويني، وبالأخص الانتخاب الطبيعي، يفعل شيئاً أكثر أيضاً. إنه يمزق الوهم عن التصميم في فرع الأحياء ويعلِّمنا أن نصبح مشكّكين في أي نوع من فرضيات التصميم في علم الفيزياء والفلك أيضاً. أعتقد أن الفيزيائي ليونارد سوسكيند فكّر في ذلك عندما كتب، "أنا لست مؤرِخاً، ولكنني سأغامر بإعطاء رأيي: لقد بدأ علم الفلك الحديث في الحقيقة مع داروين و والس. وبخلاف كُل

---

1 . أحد أنواع الطيور الأولى المنقرضة قبل حوالي 150 مليون سنة، وهو من أول المتحجرات المكتشفة التي تحمل صفات الزواحف والطيور، لهذا يعتبر حلقة وصل بينهما. (المترجم)

من سبقهم، فإنهم قدَّموا شرحاً لوجودنا نقض كل أشكال الغيبيات الأخرى... لقد وضع داروين ووالس معايير ليس فقط لعلم الأحياء ولكن لعلم الفلك أيضا"[61]. فيزيائيون آخرون ممن هم أبعد ما يكون عن حاجتهم لرفع مستوى وعيهم بأي شكل من الأشكال، منهم فيكتور ستينغر، الذي أنصح بكتابه "هل وَجَدَ العلمُ الإله؟" (الجواب لا)، وبيتر آتكينز، الذي كِتابه "إعادة النظر في نظرية الخلق" هو أحد الكتب المَفضلة عندي لأسلوبه العلمي الشاعري المحترف.

أستغرب باستمرار من المتدينين الذين، بعيداً عن رفع وعيهم بالطريقة التي أقترحُها، يبتهجون لفكرة الانتخاب الطبيعِي كـ "طريقة الله في إنجاز عملية الخلق". لقد لاحظوا بأن التطور بالانتخاب الطَبيعي سيكون سهلاً للحصول على عالم مليء بالحياة. والله في هذه الحالة لن يحتاج أن يعمل أي شيء! بيتر آتكينز، في كتابه الذي ذكرته آنفاً، يأخذ هذا الخط الفكري ليصل إلى استنتاج معقول بعدم وجود الله، وذلك عندما يقدِّم فرضية إله كسول يحاول أن يفلت بأقل ما يمكن من الجهد ليصنع كوناً فيه حياة. إله آتكينز أكسل حتى من إله الربوبيين في القرن الثامن عشر: الإله المُرفَّه والغير مشغول والعاطل عن العمل والغير ضروري وعديم الفائدة. وخطوة بخطوة ينجح آتكينز في التقليل من كمية العمل الذي يجب أن يقوم به هذا الإله الكسول حتى ينتهي أخيراً بعمل لا شيء على الإطلاق: كذلك يمكنه ألاّ يزعج نفسهُ بوجوده من الأساس. لا يزال حياً في ذاكرتي صوت أنين وودي آلن المتبَصِّر:" لو كان هُناكَ إله، فلا أعتقد أنه شرير. وأسوأ ما يمكن أن تقول عنه إنَّه غير منتج بالأساس".

تعقيد غير قابل للاختزال

من المستحيل المبالغة في حجم المشكلة التي حلَّها داروين و والس. أستطيع أن أذكر مثلاً علم التشريح ووظائف الخلية وتركيبها والكيمياء الحيوية وسلوك أي كائن حي بكل ما للكلمة من معنى. ولكن أكثر الأعمال الفذّة لما يبدو أنه تصميماً هي تلك المُنْتَقاة، ولأسباب واضحة، من قبَل المؤلّفين الخلقيين، ومن السخرية اللطيفة أني أخذت برهاني من كتاب لأحد الخلقيين، "الحياة، كيفَ وصلت الى هنا؟"، لا إسم للمؤلف وهو منشور بستة عشرة لغة واحدى عشر مليون نسخة من قبَل منظمة مجتمع الكراسة وأنجيل برج المراقبة "Watchtower Bible and Tract Society"[1] وهي منظمَة غير ربحية. يبدو أنه أحد الكتب المُفضلة لدى الشركة لأنَّ ما لا يقلُّ عن ست نسخ من الأحد عشر مليون نسخة أرسِلت لي كهدايا، بدون طلبٍ مني، من فاعلي الخير حول العالم.

لنأخذ صفحة من هذا العمل المجهول والموزَّع بإسراف، فنجد نوعاً من الإسفنجيات المعروف بـ "سلة فينوس للأزهار"، مصحوبة باقتباس للسيد دايفيد أتنْبورو، بهذا الشكل: "عندما تنظر لهيكل الإسفنج المُعقَّد كذلك المصنوع من إبَرٍ سيليكونية والمعروفَ بسلة فينوس للزهور، فإنَّ المخيلة ترتبك. كيف

1. Watchtower أو ما يعرف ببرج المراقبة هو الإسم للصحيفة الرسمية التي تصدر عن طائفة شهود يهوه المسيحية (المترجم).

تستطيع خلايا مجهرية شبه مُستقلة أن تتعاون مع بعضها البعض لإنتاج ملايين من الشظايا شبه الزجاجية لتُشكِّل هذا النسيج المعقد والجميل؟ لا نعرف". مؤلفي برج المراقبة يسرعون هنا ويضيفون تعليقهم ذا المغزى:"ولكننا نعرف شيئاً واحداً: لا يمكن أن تكون الصدفة هي التي فعلت ذلك". بالتأكيد لا، ليست الصدفة وراء هذا. هذا شيء نتفق عليه جميعنا. واللاإحتمالية الإحصائية لظاهرة كهيكل سلة فينوس تقع في قلب المُعضلة التي يتوجّب على أي نظرية للحياة حلّها. وكُلما كبرت اللاإحتمالية إحصائياً، كُلما قلَّ احتمال أن تكون الصُدفة حلاً. وهذا ما تعنيه كلمة اللاإحتمالية. ولكن الحلَّيْن المُرشَّحَيْن لمعضلة اللاإحتمالية ليسا، كما يُلَمّح زوراً، التصميم والصدفة، بل هما التصميم والانتخاب الطبيعي. الصُدفة ليست حلاً نظراً لكبر قيمة اللاإحتماليه التي نراها في الكائنات الحية، ولا يوجد عالم أحياء بكامل قواه العقلية قد اقترحها. التصميم ليس حلاً حقيقياً أيضاً كما سنرى لاحقاً، ولكن الآن أريد أن أكمل استعراض المشكلة التي يجب على أي نظرية للحياة حلها: المشكلة في كيفية تفادي الصدفة.

نقلب الصفحة في كتاب برج المراقبة، فنجد النبتة الرائعة المُسَمّاة غليون الهولندي والتي تبدو وكأن كُل أجزائها مُصممة بدقة لصيد الحشرات، تغطيهم بغبار الطَّلْع وترسلهم لنبتة غليون هولندي أخرى. الأناقة المعقدة للزهرة تدفع بكاتب برج المراقبة للتساؤل: "هل حدث هذا كله بالصدفة؟ أم أنها بسبب تصميم ذكي؟" ومرة أخرى، لا بالطبع لم تحدث صدفة. ومرة أخرى، التصميم الذكي ليس البديل الصحيح للصدفة. الانتخاب الطبيعي ليس حلاً إقتصادياً معقولاً وأنيقاً فقط، بل إنه الحلُّ الفعَّالُ الوحيد الذي تمّ طرحه حتى الآن كبديل للصّدفة. التصميم الذكي يعاني من نفس مشاكل فرضية الصدفة. ببساطة هو ليس حلاً معقولاً لمشكلة اللاإحتماليه العالية إحصائياً. فكُلما علا مُستوى اللاإحتمالية، كلما أصبحت نظرية التصميم أقل إحتمالية، بل إنها ستقوم بمضاعفة المشكلة التي نواجهها بالأساس. ومرة أخرى، المشكلة التي يثيرها المُصمم نفسه (أو نفسها) هي أكبر، وهي كيف وجِدَ أساساً. أي شيء قابل لتصميم شيء غير مُحتمل كغليون الهولندي (أو الكون)، سيكون أكثر لاإحتمالية من الغليون الهولندي. وبعيداً عن هذا التراجع الزمني للوراء، فإنَّ الله نفسه يزيد الطين بلَّة في هذه الحالة.

اقلب صفحة أخرى في كتاب برج المراقبة لترى وصفاً لشجرة الخشب الأحمر العملاقة[1] سيكويادادندرون، شجرة لها تأثير خاص عليّ لأن واحدة منها موجودة في حديقتي؛ مجرد شجرة طفلة بعمر قرن تقريباً، لكنها لا تزال أطول شجرة في الحي. "رجل ضئيل يقف بجانب جذع شجرة السيكويا لا يقدر إلا أنْ ينظر إلى الأعلى بصمت ودهشة لعظمتها الهائلة. هل هُناكَ أي معنى للإيمان بأنَّ شكل هذا العملاق الجليل ونشوءه من البذرة الصغيرة ليس مُصَمماً؟" ومرة أخرى، لو كُنتَ تظنُ بأن الصُدفة هي البديل الوحيد للتصميم، فالإجابة لا، ليس هُناكَ معنى. ومرة أخرى فكاتبي الكتاب حذفوا أي إشارة للبديل الحقيقي الذي هو الانتخاب الطبيعي، ربما لأنهم لم يفهموه أو لأنهم لا يريدون أن يفهموه.

1 شجر الخشب الأحمر أوِ شجر كاليفورنيا الأحمر, من عائلة الصنوبريات هي أكبر الاشجار في العالم من حيث الحجم الاجمالي, تعتبر أضخم الكائنات الحية في العالم وأطول الأشجار عمراَ الذي قد يصل لآلاف السنين. (المترجم).

إنَّ العملية التي تأخذ بها النباتات الطاقة لتنمو، مهما كانت صغيرة كحشيشة العلق أو عملاقة كشجرة الخشب الأحمر، تسمى بالتمثيل الضوئي[1]. أما ما جاء في برج المراقبة فكان:"هُناكَ حوالي سبعين تفاعل كيميائي منفصل في عملية التمثيل الضوئي، أحد علماء الأحياء قال (تلك أعجوبة حقيقية). النباتات الخضراء تسمى بـ (معمل الطبيعة)، جميلة وهادئة ولا تلوث وتنتج الأوكسجين وتنقّي المياه وتغذي الكائنات الأخرى. هل حدث ذلك بالصدفة؟ هل هذا معقول؟" لا، ذلك ليس معقولاً، ولكن تكرار المثال بعد الآخر لن يفيدنا بشيء. "منطق" الخلقيين لا يتغير. بعض الظواهر في الطبيعة عديمة الاحتمال بشكلٍ كبير، معقدة جداً وجميلة جداً ومُدهشة جداً ليكون وجودها محض صدفة. والبديل الوحيد للصدفة الذي يتخيّله الكاتب هو التصميم. ولهَذا يستوجِب وجود مُصمِّم قام بتصميم كل شيء. إجابة العلم على هذا المنطق الخاطئ هي نفسها دائماً: التصميم ليس البديل الوحيد للصدفة. الانتخاب الطبيعيَ هو البديل الأفضل. بالتأكيد، التصميم ليس بديلاً بالأساس لأنه يؤدي لإثارة مشكلة أكبر من المشكلة التي يحاول حلَّها: منْ صمّم المصمِّم؟ الصدفة والتصميم حلاّن فاشلان لمشكلة اللاإحتماليه الإحصائية لأن أحدهما هو المشكلة والآخر مجرد ارتداد لها. الانتخاب الطبيعي هوَ الحلّ الحقيقي، الحل الوحيد الفعال الذي نعرفهُ حتى اليوم. ليس حلاً واقعياً فقط، بل إنه حل مُذهِل في أناقتهِ وقدرتهِ.

ما هو السبب الذي يجعل الانتخاب الطبيعي ينجح كحل لمُشكلة اللاإحتماليه حينما تفشل فرضيتا الخلق والصدفة كلتاهما عند خط البداية؟ الجواب هو أن الانتخَاب الطبيعي عملية تراكمية مما يجزِّىء مسألة اللاإحتمالية لأجزاء صغيرة. وكل واحد من الأجزاء الصغيرة لا محتمل بشكل بسيط، ولكن ليس بشكل مستحيل الحدوث. وعند تراكم العديد من هذه الأحداث القليلة الاحتمال على شكل سلسلة، فإن الناتج النهائي للتراكم سيكون لاإحتمالياً بشكلٍ كبير جداً جداً بالطبع، لاإحتمالي كفاية ليكون حدوثه بعيداً عن الصدفة. هذا هو الناتج النهائي الذي يُشكل المواضيع التي يحاجج بها الخلقيون بشكل مُرهق وبشكل دوري. الخُلقي يخطئ الهدف لأنه (لا يجب هنا أن تنزعج السيدات من استبعادهن في الضمير المذكر المُستعمل اعلاه) يصرّ على أنهُ يُعامل نشوء اللاإحتمالية الإحصائية كخطوة واحدة، حدث واحد. ولا يفهم قدرة التراكم.

في كتابي "الصعود إلى جبل اللاإحتمال"[2]، وضَّحْتُ هذه النقطة بهذا التشبيه. تخيل جبلاً أحد طرفيه مُنحدر بشكل حاد من المُستحيل تسلقهُ، والطرف الآخر مُنحدر بشكل مُتدرج لطيف حتى القمة. في القمة يجلس نظام مُعقد كالعين مثلاً أو محرك سياط البكتريا. الفكَرة السخيفة بأن تعقيداً كهذا يتجمع بشكل آني يرمز بالانتقال من وادي الجبل لقمته بقفزة واحدة. التَطور، على العكس من ذلك، يذهب حول الجبل من الناحية الأخرى ويصعد المُنحدر البطيء زحفاً: بسيط! مبدأ الصعود البطيء للمنحدر المتدرِّج مقارنة بالقفزة الواحدة للجرْف الحادّ مبدأ بسيط جداً لدرجة تدفعنا للتعجب عن السبب وراء كل هذا الوقت حتى أتى أحدٌ ما كداروين على المسرح واكتشفهُ. عندما فعل ذلك كان قد مضى حوالي قرنين على سنة

---

1 . التمثيل الضوئي :عملية كيميائية معقدة تحدث في كل من الطحالب والنباتات العليا; حيث يتم فيها تحويل الطاقة الضوئية الشمسية من طاقة كهرومغناطيسية على شكل فوتونات أشعة الشمس إلى طاقة كيميائية تخزن في روابط سكر الجلوكوز (المترجم).

2 . CLIMBING MOUNT IMPROBABLE, ROCHARD DAWKINS 1996.

نيوتن المدهِشة (المدهشة باكتشافاته سنة 1666)، رغم أن إنجازهُ بدا وقتها أصعب من ذاك الذي لداروين.

إستعارة أخرى مفضَّلة عن اللاإحتمالية الكبيرة هي قفل بالرموز لخزانة بنك. نظرياً، يُمكن لسارق أن يكون محظوظاً ويعثُر بالمصادَفة على تسلسل الأرقام الثمانية للقفل. عملياً، تسلسل الأرقام لقفل البنك يُصمّم بلاإحتمالية عالية لدرجة تجعل ذلك أشبه بالمُستحيل، تقريباً بنفس درجة الاستحالة في فكرة فريد هويل عن البوينغ 747. ولكن تخيّل قفلاً مُصمّماً بشكلٍ سيء، حيث يعطي إشارات استطرادية تعلو كُلما قرب الرقم من الرقم الصحيح. إفترض أن اقتراب كل دورة للقرص من الرقم الصحيح تفتح باب الخزانة قليلاً وتسقط منها حفنة من النقود. فاللص في هذهِ الحالة سيحصل على الجائزة الكبرى في وقت قصير جداً.

الخلقيون الذين يُحاولون استعمال حجة اللاإحتمالية لصالحهم دائماً يفترضون أنَّ التكيّف الاحيائي هو سؤال جوابهُ أما الجائزة الكبرى أو لا شيء. والإسم الآخَر المُستعمل لمغالطة "الجائزة الكبرى أو لا شيء" هو"التعقيد الغير قابل للاختزال". العين ترى أو لا ترى. الجناح يطير أو لا يطير. هناك افتراضٌ من لا فائدة المراحل الوسيطة. ولكن هذا ببساطة خطأ. المراحل الوسيطة كثيرة جداً عملياً، وهذا بالضبط ما نتوقعه نظرياً. ومجموعة أرقام قفل الحياة هي من قبيل الإشارات الاستطرادية التي تعلو وتنخفض بالقرب أو البعد عن الرقم الصحيح. الحياة الحقيقية تبحث عن المنحدر اللطيف خلف الجبل اللاإحتمال، في حين أن الخلقيين عميان عن كُل ذلك ما عدا المنحدر الحادّ الشاقّ أمامهم.

خصّص داروين فصلاً خاصاً في كتاب أصل الأنواع تحت عنوان "الصعوبات الخاصة بنظرية النشوء بالارتقاء"، ومن العدل أن نقول بأن هذا الفصل المُختصر توقَّع ورتَّب كُل المزاعم الصعبة التي أقتُرحت منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا. الصعوبات الهائلة بالنسبة لداروين كانت في "الأعضاء البالغة الكمال والتعقيد" والتي توصَف أحياناً سهواً بـ "التعقيد الغير قابل للاختزال". إختار داروين العين كونها خاصة جداً في هذا التحدي: "الافتراض بأن العين بكل مواصفاتها التي لا تقبل التقليد، كالتركيز على مسافات مختلفة أو السماح لكميات مختلفة من الضوء بالمرور عبر الحدقة وتصحيح الشكل الكروي والانحراف اللوني، قد تشكلت بالانتخاب الطبيعي، يبدو ذلك، وأنا أعترف بهذا، أعلى درجات السخف". الخلقيون يقتبسون هذه الجملة ببهجة كبيرة مرة تلو الأخرى. ولسنا بحاجة للقول بأنهم لا يذكرون ما يأتي بعد ذلك. إعتراف داروين المقيت ليس إلا أداة بلاغية. يشد بها خصمه لناحيته حتى تكون الضربة أقسى حين يحين وقتها. والضربة بالتأكيد هي شرح داروين السهل عن كيفيَة تطور العين بشكل تدريجي. ربما أن داروين لم يستعمل عبارة "التعقيد الغير قابل للإختزال"، أو "التدرّج السّلِس نحو قمة جبل اللاإحتمالية"، ولكنه بالتأكيد فَهِمَ المبدأ في الحالتين.

"ما هي فائدة نصف عين؟" أو "ما فائدة نصف جناح؟" حُجتان جاهزتان من نوع "التعقيد الغير قابل للاختزال". الجهاز الوظيفي يكون مُتعذّر الاختزال في حالة توقُّفه تماماً عن العمل بمُجرد انتزاع أي جزء منه. هذا كان من المسلّمات في حالتَي العين والجناح. ولكن عندما نُفكر لبرهة في هذهِ الفرضيات، نرى

الخطأ مباشرة. إنَّ مريضة ماء العين البيضاء التي انتُزِعَتْ عدسة عينها جراحياً لا تستطيع رؤية صورة واضحة بِدون نظارات، ولكنها ترى ما يكفي لِتفادي الاصطدام بشجرة أو الوقوع عن حافة جبل. ونصف جناح ليسَ فعالاً كجناح كامل، ولكنه أفضلَ من لا جناح على الاِطلاق. يستطيع نصف الجناح أن يُنقذ حياتك بتخفيف الصدمة الناتجة عن الوقوع من على شجرةٍ بعلوٍ ما. و 51 بالمائة من الجناح يساعدك في حالة السقوط عن شجرة أعلى بقليل. ومهما كانت نسبة الجناح الذي تملكه، سيكون هُناكَ علو مرافق يستطيع جزء الجناح إنقاذ حياتك فيما لا يستطيع جناح أصغر منه فعل ذلك. والتجربة الفكرية عن الأشجار المُختلفة الارتفاع والسقوط من أعلاها هي فقط إحدى الطرق لنرى، نظرياً، بأنه من المتوجب وجود تدرج سلس للمنافع على طول الخط بدءاً من 1 بالمائة من الجناح وانتهاءَ بجناح كامل. الغابات مليئةٍ بأمثلة عن حيوانات تنزلق بالهواء أو تهبط "مظلياً" توضِّح، عملياً، كُل خطوة في صعود ذلك المنحدر المتدرِّج علَى جبل اللاإحتمالية.

بالقياس مع الأشجار المختلفة الارتفاع، من السهل تخيّل ظروف تستطيع فيها نصف عين أن تنقذ حيواناً في حين أنَّ 49 بالمائة من العين لن تكون قادرة على ذلك. تدرّج سَلس بناءَ على تغيّر في شروط الإضاءة المتوفرة والمسافات التي تستطيع بها لمح الفريسة، أو المفترس. وكما الجناح وسطوح الطيران، فمتوسطات معقولة كهذه ليست فقط سهلة التخيل، بل إنها منتشرة بوفرة في مملكة الحيوانات. الدودة المسطَّحة لديها عين وتُعتبر أقل من نصف العين البشرية بكل المقاييس. الأخطبوط المعروف باسم النوتيلوس أو قارب اللآلئ (وربما أبناء عمومته المنقرضون الذين كانوا مسيطرين على البحار في العصور السحيقة) لهُ عين متوسطة بين عين الدودة وعين الإنسان. وبخلاف عين الدودة المُسطحة التي تميز فقط الضوء والظل ولكنها لا تستطيع أن ترى أي صورة، فإنَّ عين النوتيلوس المشابهة لـ "آلة تصوير ذات ثقب" تستطيع عمل صورة حقيقية، ولكنها مشوّشة ومُعْتمة مُقارَنةً لصور أعيننا. ستكون دقَّة زائفة وضع أرقام على التحسّن، ولكن لا يوجد عاقل يستطيع أن ينفي بأنَّ تلكَ الأعين اللافقارية، وغيرها كثير، هي كلها أفضل من عدم وجود عين أساساً، وبأن كُل الأعين مصفوفة على منحدرٍ مسطح سلس على جبل اللاإحتمالية، وأعيننا قريبة من القمة، ليست القمة الأعلى، ولكن قمة عالية. خصّصْتُ فصلاً خاصاً للعين والجناح في كتاب "تسلُّق جبل اللاإحتمالية"، وبيّنت كم كان من السهل أن يتطوروا ببطء (وربما ليس بذلك البطء) تدريجياً. وسأترك هذا الموضوع هنا.

وبذلك رأينا أنَّ العين والجناح بالتأكيد ليسا من نوع التعقيد الغير قابل للاختزال، ولكن الأكثر إثارة من هذا هو الدرس الذي نستنتجه بشكل عام. ألا وهو حقيقة بأن الخطأ الصارخ الذي وقع فيه الكثيرون بخصوص هذه الأمور البديهية يجب أن ينبهنا نحن لأمثلة مشابهة أقل بديهية، مثل الحالات المتعلقة بالخلويات والكيمياء الحيوية والتي يسوق لها الآن الخلقيون الذين يلوذون تحت التعبير اللطيف الملائم سياسياً لـ "منظِّري التصميم الذكي".

لدينا هنا درس تحذيري يقول لنا: لا تعلن بأن الأشياء معقدة بشكل غير قابل للاختزال لأن هُناكَ احتمالاً كبيراً ألاّ تكون قد نظرت بعناية كافية في التفاصيل ، أو فكرت بشكل كاف بها. ومن جهة أخرى، لا يجب

علينا نحن الذين نقف في جانب العلم، أن نكون واثقين بآرائنا بتزمّت. ربما هُنالكَ شيء ما في الطبيعة لا يُمكنه حقاً، بسبب تعقيده الغير قابل للاختزال، التدرج السلس على جبل اللاإحتمالية. الخلقيون مُحقون في أنه لو ظهر التعقيد الغير قابل للاختزال بصدق وبشكل صريح، فإن ذلك يمكنه أن يهدم نظرية داروين. داروين بنفسه قال الشيء نفسه: "لو كان بالإمكان الإثبات بوضوح وجود أي نظام مُعقد ليست له الامكانية أن يكون مشكَّلاً عن طريق تراكم العديد من التغييرات البسيطة، فإن نظريتي تنهار بدون شك. ولكنني لم أجد حالة كهذه". داروين لم يجد حالة كهذه، ولا أحد من بعده حتى الآن استطاع برغم كُل الجهود النشيطة والمستميتة. لقد تم اقتراح العديد من الحالات لهذه الكأس المقدسة لفرضية الخلق ولكن، لم تصمد واحدةً منها أمام التحليل.

على أي حال، وبالرغم من أن التعقيد الغير قابل للاختزال من الممكن أن يُسبب انهيار نظرية داروين لو وُجِدَ، من يقول بأنه لن يؤدي لانهيار نظرية الخلق أيضاً؟ لقد حَطَّمَت نظرية التصميم الذكي بالفعل، ومرة أخرى أكرِر السبب، ألا وهو أنه مهما كانت معرفتنا قليلة عن ماهية الله، فإن الشيء الوحيد الذي يمكننا التأكد منه هو أنه سيتعين عليه أن يكون على درجة عالية جداً جداً من التعقيد ويفترض أن يكون تعقيده غير قابل للاختزال.

عبادة الفجوات

البحث عن أمثلة للتعقيد الغير قابل للاختزال ليس بالأساس طريقة علمية للمتابعة: مجرد حالة خاصة للمحاججة تعتَمد على الجهل. إنها مشابهة لنفس المنطق الزائف الذي يستخدم خطة "إله الفجوات" المنبوذة من قِبل الألوهي ديتريش بونهوفر. الخلقيون يبحثون بشغف عن فجوات في معارف أو مفاهيم العصر الحالي. وبمجرد ظهور ما يبدو وكأنهُ فجوة، فإنهم يَفْتَرَضون بأنَّ الله، وبشكل تلقائي، يجب أن يملأها. ما يُقلق الألوهيين المفكرين مثل بونهوفر هو أن هذه الفجوات بدأت تصغر مع تقدم العلم، والله في هذه الحالة مهدد بعدم وجود أي شيء يفعلهُ أو أي مكَان يختبئ فيه. ما يُقلق العُلماء هو شيء آخر وهو أنه مَن الضروري في أي مؤسسة علمية أن تعترف بالجهل بل وتسعد به كتحدي لفتوحات مُستقبلية. كما كتب صديقي مات ريدلي، "معظم العُلماء ضجروا من الأشياء التي اكتشفوها. إن ما يجهلونه هو ما يدفعهم للاستمرار". المتصوفون يفرحون بالألغاز ويرغبون ببقائها ألغازاً، أما العُلماء فإنهم يفرحون بالألغاز لسبب مُختلف تماماً: إنها تعطيهم الفرصة للعمل عليها. بشكل عام، وكما سأكرر في الفصل الثامن، إنَّ أحد الآثار السيئة للدين حقاً هو تعليمنا بأن القناعة بعدم الفهم هي صفة حميدة.

الاعتراف بالجهل والحيرة المؤقتة أمر حيوي جداً للعلم الجيد. ولذلك فإنه من المؤسف القول، على الأقل، بأن استراتيجية الخلقيين الدعائيين الأساسية سلبية وهي تتمثل بالبحث عن الفجوات في المعرفة العلمية والزعم بملئها "بالتصميم الذكي". ما سأذكره الآن لا يعدو كونهُ افتراضاً ولكنه معبِّر تماماً. الخلقي يقول:

"إن مرفق ضفدع ابن عُرس معقَّد بشكل لا يقبل الاختزال. وأي جزء من المرفق سيكون عديم الفائدة بدون أن تتجمع الأجزاء الباقية معه. أراهن أنك لن تستطيع التفكير بطريقة يستطيع بها مرفق ضفدع ابن عرس أن يتطور تدريجياً ببطء؟" وعندما يفشل العالم بإعطاء جواب فوري وشامل، فإن الخلقي يخرج بالاستنتاج الافتراضي التالي: "حسناً، وبهذا تفوز النظرية البديلة، التصميم الذكي". لاحظ التحيّز في المنطق: فشل النظرية (أ) جزئياً، يجعل نظرية (ب) صحيحة بالضرورة. لا نحتاج القول هنا بأن المنطق نفسه لا يُطبّق في الحالة المعاكسة. ويتم القفز للنظرية البديلة بدون حتى النظر لمعرفة فيما إذا كانت ستفشل في بعض أجزائها كالنظرية التي تزعم أخذ مكانها. التصميم الذكي يبدو وكأنه يحمل مناعة سحرية ضد المتطلبات الصارمة التي تتطلبها نظرية التطور.

ولكن النقطة التي أريد توضيحها هنا هي أن أسلوب الخلقي المخادع يشوِّه الابتهاج الطبيعي للعالم - والضروري بالتأكيد- بعدم التأكُّد (المؤقَّت). اليوم ولأسباب سياسية بحتة، يتردد العالم قبل ان يقول: "همم، نقطة مثيرة فعلاً. أعجب كيف تمكَّن أسلاف ضفدع ابن عرس من تطوير مفاصل مرافقهم. أنا لست اختصاصياً بضفادع ابن عرس، عليّ أن أذهب لمكتبة الجامعة وألقي نظرة. من الممكن أن يكون هذا موضوعاً مثيراً لمشروع تخرّج لأحد الطلاب". في اللحظة التي يقول أحد العُلماء شيئاً كهذا، وقبل أن يبدأ الطالب مشروعهُ للتخرج بكثير، سنرى الاستنتاج الخاطىء عنواناً عريضاً على كُتَيِّبات الخلقيين: "ضفدع ابن عرس لا يُمكن إلا أن يكون مصمّماً من قِبَل الله".

هنالك بالتالي، وللأسف، الْتقاء بين حاجة المنهجية العلمية للبحث في المجالات المجهولة بهدف توجيه الأبحاث نحوها، وحاجة دعاة التصميم الذكي للبحث في المجالات المجهولة بهدف ادِّعاء الانتصار بسبب تغيب الخصم (المعارض) أو تقصيره. ولهذا السبب بالذات لا تملك نظرية التصميم الذكي أية أدلة لنفسها، ولكنها تزدهر فقط كالعشب الضارّ في الفجوات التي لم تملأها بعد المعرفة العلمية، وهذا لا يتلاءم مع حاجة العالم ليتعرّف ويبرز تلك الفجوات نفسها كخطوة أولى للبحث فيها. بهذا المنحى يجد العلم نفسه متفقاً مع ألوهيين متطورين مثل بونهوفر، متّحداً معه ضد العدو المشترك من السذَّج، والألوهيين الشعبويين، وألوهية الفجوات للتصميم الذكي.

عشق الخلقيين لـ "الفجوات" في عالم المتحجرات هو مثال جيد لكُل مذهب "الفجوات الديني". في أحد الفصول بدأتُ فيما يسمى بالإنفجار الكامبري بالجملة التالية، "يبدو الأمر وكأن المتحجرات قد وضعت هُناكَ بدون مرورها بأي تاريخ تطوري". مرة أخرى، تلك البلاغة في مقدمة المقال قصدتُ بها شحذ شهية القارئ للتفسير الكامل الذي يتلوها. المُحزن في الأمر كان إدراكي المُتأخر، وكم كان يجب أن يكون متوقَّعاً، أن التفسير المتأني الذي قدمته سيقتطع بأكمله وسيتم اقتباس المُقدمة ببهجة لتستعمل خارج نطاق الموضوع. الخلقيون مُغرمون بالفجوات في سجل المُتحجرات، كما هم مغرمون بالفجوات بشكل عام.

الكثير من مراحل التطور الانتقالية مدوّن بأناقة اعتماداً على سلسلة مستمرة التغيير من الشواهد المتحجرة للمراحل المتوسطة. وتلك السلسلة غير مستمرة عند بعض المتحجرات، وهذه هي "الفجوات" المشهورة.

كما أشار لذلك مايكل شيرمر في قوله بأنه لو تم اكتشاف متحجرة تملأ تلك الحلقة المفقودة في منتصفها، فإن الخلقيين سيعلنون بأن عدد الحلقات المفقودة قد تضاعف! وعندما لا يوجد سجل أو متحجرة توثق التطور التدريجي الانتقالي، فإن الافتراض المبدئي هو عدم وجود تطور انتقالي أساساً، وهذا يعني أن هناك تدخَّلَ الهي لا محالة.

من غير المنطقي نهائياً المطالبة بتوثيق كامل لكل خطوة في أي حدث متغير، سواء في التطور أو في أي علم آخر لأنه في هذه الحالة يمكنك المُطالبة أيضاً، وقبل إدانة شخص ما بجريمة قتل، بتسجيلٍ فيلمي كاملٍ لكُل خطوة أدَّت إلى حصول الجريمة وبدون أي انقطاع. نسبة ضئيلة جداً من الجثث تتحجّر، ونحن محظَوظون لوجود هذا العدد من المتحجرات بين أيدينا. بالإمكان بسهولة ألاَّ يكون لدينا أي متحجرات من الأصل، ورغم ذلك فإن لدينا العديد من الأدلة عن التطور من مصادر أخرى شديدة القوة بشكل كبير كالمورثات الجزيئية والتوزُّع الجغرافي. من ناحية أخرى، فإن نظرية التطور تتنبأ بأنه لو ظهرت مُتحجرة وحيدة في العصر الجيولوجي الخاطئ، فإن النظرية ستنهار برَمّتها. عندما تحدَّاه أحد اتباع نظرية كارل بوبر عما يلزم لتقويض نظرية التطور، كانت إجابة ج. ب. س. هالدان: "متحجرةٌ لأرنب تعود لعصر يسبق عصر الكامبري". لم توجد حتى الآن متحجرة كتلك مما يُعترف به على الرغم من كُل أساطير الخلقيين غير الموثوق بها عن جماجم بشرية في طبقات الفحم الحجري، وآثار أقدام بشرية تتخلّلها آثار أقدام ديناصورات.

الفجوات المفتَرَضة في عقل الخلقيين تُملأ مباشرة بواسطة الله. الشيء نفسه ينطبق على جميع المنحدرات الظاهرة على جبل اللاإحتمالية الضخم حيث لا يكون المنحدر المتدرج واضحاً، أو بحالة أخرى غير ظاهر للعيان. المجالات التي فيها نقص بالمعلومات أو بالفهم تُعْزى فوراً لله. اللجوء الدرامي السريع للزعم بـ "التعقيد الغير قابل للاختزال" ينُمّ عن فشل في المخيلة. بعض الأعضاء الحيوية، إن لم تكن عين فمحرك سوط البكتريا، أو أي سلسلة تفاعلات كيميائية تحدث في الكائن الحي، تُصَنَّف دون أي مراجعة كتعقيد غير قابل للاختزال بدون حتى محاولة إظهار ماهو هذا التعقيد الغير قابل للاختزال فيها. وبالرغم من الدروس المُستقاة من موضوع العين والجناح والكثير من الأشياء الأخرى، فإن كُل مرشح جديد لهذا الوسام المريب يُفتَرَض أن يكون، بشفافية، معقد بذاته لا يقبل الاختزال وحالة تعقيده مؤكَّدة كادعاء. ولكن فكِّر قليلاً بالموضوع. بما أن التعقيد غير القابل للاختزال أُستُعْمل كحجة للتصميم فلا فيجب أن يكون الادعاء فيه أكثر من التصميم ذاته. ممكن في تلك الحالة أن تفترض ببساطة أن ضفدع ابن عرس (خنفساء الرماثة، الخ) يبرهن على التصميم بدون أي دليل أو تبرير، وهذا أبعد ما يكون عن العلم.

المنطق في هذه الحالة لا يبدو أكثر إقناعاً مما يلي: "أنا [ضع اسمك هنا] شخصياً غير قادر على التفكير بأي طريقة عن كيفية بناء [ضع ظاهرة بيولوجية ما هنا] خطوة فخطوة. ولذلك فإنها تعقيد متعذر الاختزال. وهذا يعني أنها مصممة". تخيل ما سبق وسترى مباشرة كم سيكون عُرْضةً للنقد أن يأتي بعض العلماء ويجدوا مرحلة متوسطة، أو على الأقل يتخيل إمكانية وجود حالة متوسطة. وحتى لو لم يأت أي عالم بأي تفسير، فإنه ببساطة منطق سيء افتراض أن "التصميم" سيقوم بذلك أفضل بأي شكل. السبب

الذي يكمن خلف فرضية "التصميم الذكي" ليس إلا كسلاً وانهزامية؛ أسلوب "إله الفجوات" التقليدي. وقد أطلقتُ عليه سابقاً اسم حجة عدم التصديق الشخصي.

تخيل أنك ترى خدعة سحرية عظيمة. الساحران العظيمان بن و تيللر لديهما خدعة يبدُوان فيها وكأنهما يطلقان النار على بعضهما البعض بالمسدسات وكل منهما يبدو وكأنه التقط الرصاصة بأسنانه. كإجراءات وقائية مُتقنة تُتَّخَذ بأَن تُعَلَّم الرصاصات بعلامات قبل أن توضع في المُسدسات، وكل العملية مَشهودة من قبل المشاهدين من الذين لديهم خبرة بالأسلحة النارية على المسرح، ويبدو أن كُل الإمكانيات لوجود خدعة قد تم إقصاؤها. رصاصة تيللر المؤشَّرة يَنتهي بها الأمر في فم بن، ورصاصة بن المؤشَّرة في فم تيللر. أنا [ريتشار دوكنز] غير قادر بشكل تام للتفكير بأي خدعة يمكن استعمالها في هذا المشهد. وحجة عدم التصديق الشخصي تصرخ من مركز دماغي ما قبل العلمي وترغمني تقريباً على القول، "لا بد أنها معجزة. ليس هُناكَ أي تفسير علمي. لا بد أن يكون الموضوع خارق للطبيعة". ولكن هُناكَ صوت خافت ناتج عن الثقافة العلمية ينادي برسالة مُختلفة. بن و تيللر ساحران على مستوى عالمي. هنالك تفسير كامل وجيد. ولكنني بسيط أو غير دقيق الملاحظة، أو لا أملك الخيال لإدراكه. هذا هو الجواب المناسب فيما يتعلق بالحركات السحرية، وهذا جواب ملائم فيما يتعلق بالظواهر الحياتية التي تبدو كتعقيد غير قابل للاختزال أيضاً. هؤلاء الذين يقفزون مباشرة من ظاهرة طبيعية محيرة للدعوة السريعة لما هو خارق للطبيعة ليسوا بأفضل من الحمقى الذين يرون مَشعوذاً يلوي مِلعقة ويقفزون مباشرة للاستنتاج بأن ذلك "خارق للطبيعة".

في كتابه "سبعة تلميحات لأصل الحياة"[1]، يطرح الكيميائي الاسكوتلندي كايرن سميث نقطة إضافية باستعمَال التشبيه بالقوس[2]. قوس مبني من حجارة مأخوذة من مقلع حجري، ولا يُمكن أن يكون القوس بناء هندسياً مستقراً لو كان بناء تدريجياً، ولذا فهو ذو تعقيد متعذر الاختزال: ينهار برفع أي حجر منه. كيف بني إذن؟ إحدى الطرق تكون بصفِّ كومة من الحجارة تحت القبة ومن ثم رفعها واحداً بعد الآخر. وبشكل عام، هُناكَ العديد من التركيبات البنائية المتعذرة الاختزال، بمعنى أنها لا يُمكن أن تبقى بعد إنقاص أي جزء منها، بُنيت بمساعدة السقالة التي رُفعت لاحقاً ولم تعد مرئية. وعندما يكتمل البناء، يمكن رفع السقالة بأمان ويبقى البناء ثابتاً. وكذلك الأمر في التطور، ربما يكون العضو الذي تنظر إليه الآن قد كان مُرفَقا بسقالة من نوع ما عند أجداده والتي رُفِعَت ولم تعد مرئية.

"التعقيد الغير قابل للاختزال" ليست بالفكرة الجديدة، ولكن التعبير بحد ذاته إخترعهُ الخلقي مايكل بيهي عام 1996[62]. شرف الكلمة يُعزى له (إذا ما كان شرفاً)، وكذلك نقل الخلقيةَ لحقبة جديدة، الكيمياء الحية وعلم الخلية، والتي وجدها على ما يبدو مكاناً أفضل للبحث عن فجوات أكثر من العين والجناح. أفضل مقاربة له لمثالٍ جيد (لازال سيئاً) كان عن البكتريا ذات المحرك السوطي.

1 . Seven Clues to the Origin of Life. by A. G. Cairns-Smith

2 . القوس بناء هندسي نصف دائري كما في القبب والقناطر.

المحرك السوطي في هذه البكتريا هو أعجوبة طبيعية. وهو المثال الوحيد، خارج نطاق التقنيات البشرية، للمحور الدوار الحر. ولو وجدت عجلات في حيوانات كبيرة ستكون مثالاً رائعاً عن التعقيد الغير قابل للاختزال، وربما أن هذا هو سبب عدم وجودها. كيف يمكن للأعصاب والأوعية الدموية أن تعبر محور الدوران؟[1] سوط البكتيريا هو عبارة عن خيط دوّار وبواسطته تشق البكتيريا طريقها في الماء. وأقول تشق طريقها بدل تسبح لأنه على مستوى حجم البكتيريا، فإن ما يبدو سائلاً كالماء بالنسبة لنا يبدو بالنسبة لها كالدبس أو الهلام، أو حتى كالرمل، وتبدو البكتيريا وكأنها تشق طريقها أكثر مما تبدو وكأنها تسبح. وعلى عكس ما يسمى بالسوط في كائنات أكبر كأحادية الخلية المعروفة باسم الأوالي فإن سوط البكتيريا لا يتمايل كسوط أو يتحرك كالمجداف. ولكنه محور حقيقي يدور بشكل متواصل عبر وصلة ومدفوعاً بمحرك جزيئي صغير مثير للدهشة. على المستوى الجزيئي المحرك بالأساس له نفس مبدأ العضلة، ولكن بدورانٍ حرٍ عوضاً عن الانكماش المتقطّع. قد وُصِفَ بسرور كمحرك خارجي (مع أنه يُعتبر غير فعّال بشكل ملفت للنظر بمقاييس الهندسة، وغير عادي في التركيبة الاحيائية).

وبدون أي تبرير أو شرح، يزعم بيهي ببساطة بأن محرك سوط البكتريا ذو تعقيد غير قابل للاختزال. وبما أنه لم يقدم أي حجة في صالح ادّعائه، فبإمكاننا أن نبدأ بالاشتباه في فشل مخيلته. ويزعم بعد ذلك بأن المراجع العلمية المختصة قد تجاهلت هذه المسألة. نفاق فاشل تم الكشف عنه بوضوح محرج (بالنسبة لبيهي) في المحكمة برئاسة القاضي جون أي جونز في بنسلفانيا 2005 عندما كان بيهي يشهد كخبير لمصلحة مجموعة من الخلقيين الذين حاولوا فرض "التصميم الذكي" ليكون ضمن البرنامج الدراسي في مدرسة عامة، حركة في "منتهى الوقاحة"، الاقتباس هنا من القاضي جونز (المقولة والرجل بالتأكيد مقدّر لهما الشهرة الراسخة). ذلك لم يكن الاحراج الوحيد الذي عاناه بيهي في الجلسة كما سنرى.

المفتاح لتوضيح التعقيد الغير قابل للاختزال هو تبيان عدم فائدة أي قسم من هذا النظام بمفرده، وبأن كُل الأقسام يجب أن تكون في مكانها قبل أن يُصبح أي قسم منه مُفيداً (تشبيه بيهي المفضل هو مصيدة الفئران). في الواقع أن علم الخلية الجزيئي لم يجد أي صعوبة في برهان أن الاجزاء تعمل خارج النظام الكلي، وذلك بالنسبة لمحرك سوط البكتيريا كما للأمثلة الأخرى التي قدمها بيهي زاعماً أنها ذات تعقيد غير قابل للاختزال. النقطة وضّحها كينيث ميللر من جامعة براون بشكل جيد، والذي هو في رأيي أكبر عدو مقنع للتصميم الذكي، وليس لسبب آخر غير كونه مسيحياً مؤمناً. وأنا أوصي مراراً بكتاب ميللر،"اكتشاف إله داروين"، للمتدينين الذين يراسلونني مخدوعين من قبل بيهي.

في حالة محرك البكتيريا المروحي، يلفت ميللر إنتباهنا لآلية من الصنف الثالث للنظام الإفرازي[63]. النظام لا يستعمل في حركة الدوران، ولكنه أحد الأنظمة العديدة المستخدمة من قبل البكتريا الطفيلية لضخ المواد السامة من خلال جدران خلاياها لتسميم الجسم المُضيف. وبمقياسنا البشري، ربما نتخيّل الموضوع وكأنه صَبّ أو تدفّق لسائل من خلال ثقب، ولكن مرة أخرى، يبدو ذلك مختلفاً بمقاييس البكتيريا. هذه

1 . في مثال أدبي يصف كاتب كتب الاطفال فيليب بولمان في كتابه "His Darks Materials" جنس حي يعيش على أحد الاشجار التي تنتج بذوراً دائرية ذات ثقب في المركز. هذا الحيوان يستخدم هذه البذور للتنقل عليها وكأنها عجلات. ولان البذور ليست جزءاً من جسمه فأنها لا تحتوي على شرايين أو أعصاب.

المادة المفرزة هي عبارة عن جزيئات بروتينية ثلاثية الأبعاد محددة البناء على شكل معروف بالنظام الإفرازي من الصنف الثالث، لها شكل أشبه بتمثال متحجر من سائل متدفق. وكل جزيئ مدفوع من خلال آلية مشكَّلة بإتقان وكأنه آلة تلقائية توزِّع ألعاباً أو زجاجات بدلاً من فتحة بسيطة يندفع السائل عبرها. والموزِّع نفسه هو عبارة عن عدد صغير من جزيئات البروتين، وكل واحد منها بحجم وتعقيد متوافق للجزيئ المدفوع للخارج. والمثير أن هذه الآليات البكتيرية ذات الثقب متشابهة في عدد من البكتيريا التي لا تمُتّ لبعضها بصلة قرابة وثيقة. ويبدو أن المورِّث الذي جعلهم يملكون هذه الآلية ربما كان "منسوخاً وملصوقاً" من بكتيريا أخرى: وهذه عملية تبرع فيها البكتيريا بشكل ملحوظ، وهذا موضوع ساحر آخر بحد ذاته ولكن عليّ ألاَّ أستطرد به هنا.

الجزيئات التي تشكل النظام الإفرازي من الصنف الثالث مشابهة جداً لتلك التي تشكل محرك سوط البكتيريا. بالنسبة للتطوري، فإنه من الواضح أن تلك المكونات استولت عليها وظيفة جديدة عندما تطور محرك سوط البكتيريا، وهي ليست منفصلة تماماً عن عملها الأول. بالنظر إلى أن النظام الثلاثي يجر جزيئات من خلاله، فإنه ليس من المفاجئ أن تُستعمل نُسخة أولية من المبدأ نفسه من قِبَل محرك سوط البكتيريا، والذي يجرّ جزيئات المحور بحركة دائرية. من الواضح أن المكوِّنات الحاسمة للمحرك المروحي كانت موجودة وتعمل قبل أن يتطور المُحرك المروحي. الاستيلاء على آلية موجودة هو طريقة بديهية يمكن من خلالها لما يبدو بناءً معقَّداً غير قابل للاختزال أن يصعد جبل اللاإحتمالية.

الكثير من العمل يحتاج أن يتمّ، بالطبع، وأنا مُتأكد من أن ذلك سيحصل. عملٌ كهذا لن يتم لو كان العُلماء مُكتفين وسعداء بالكسل والتبرير الذي تشجع عليه نظرية "التصميم الذكي". هنا رسالة أتخيل أن شخصية وهمية لـ "أحد مُنظِّري التصميم الذكي" يمكن أن يرسلها إلى عالم: في حالة عدم فهمك لكيفية عمل شيء ما، لا تهتمّ، إستسلم فقط وقل بأن الله فعلها. لا تعرف ماهية عمل النبضات العصبية؟ جيد! لا تفهم كيفية عمل الذاكرة في المخ؟ ممتاز! هل التمثيل الضوئي عملية مُثيرة للحيرة بتعقيدها؟ رائع! أرجوك لا تتعب نفسك بالعمل على أي من هذه الأسئلة، فقط تقبّل الأمر الواقع وانسبها لله. عزيزي العالِم، لا "تعمل" على كشف أي من هذه الأسرار. بل اجلبهم لنا لنستخدمهم. لا لا تبدد الجهل الثمين بالبحث عن العلم بهذه الطريقة. نحن بحاجة لتلك الفجوات كملجأ أخير لله". لقد قالها سانت أوغسطين بصراحة: "هُناكَ شكل آخر من الإغراء مشحون بالخطر، ألا وهو داء الفضول. ذاك الذي يدفعنا لتجربة واكتشاف أسرار الطبيعة، تلك الأسرار التي هي خارج حدود فهمنا والتي لا تفيدنا بشيء ولا يجب على الإنسان أن يتمنى تعلُّمها" (اقتباس من فريمان 2002).

الزعم المفضَّل الآخر لدى بيهي عن التعقيد الغير قابل للاختزال هو نظام المناعة. ولِنرى ما يروي القاضي جونز عنه:

> "في الحقيقة، خلال المحاكمة تم سؤال البروفيسور بيهي عن موضوع زعمه عام 1996 بأن العِلم لن يستطيع أبداً إيجاد تفسير تطوّري لجهاز المناعة. وقد عُرِضَ أمامه ثمان وخمسون

بحثاً مدروساً ومنقّحاً ومنشوراً من قِبَل أقرانه، وتسع كُتب، والعديد من الفصول من كُتب في تطوّر الجهاز المناعي؛ ورغم ذلكَ أصر ببساطة بأن تلك ليست أدلة كافية على التطور، وأنها ليست جيدة بشكل كاف".

بنتيجة التحقيق من قِبَل رئيس المستشارين أريك روتشيلد، اعترف بيهي بأنه لم يقرأ معظم المنشورات الثمانية والخمسين. ليس ذلك مفاجئاً إذ أنَّ المناعيات عمل شاق. ولكن الأقل قابلية للتسامح هو رفضه للدراسات باعتبارها "غير ذات جدوى". إنها بالتأكيد غير ذات جدوى في حال أن الهدف هو الدعاية بين البسطاء من الناس والسياسيين بدلاً من اكتشاف حقائق مهمة عن حقيقة العالم. بعد الاستماع لبيهي لخَّص روتشيلد بشكلٍ بليغ إحساس كُل شخص نزيه في قاعة المحكمة تلك:

> "ما يستحق الامتنان أن هُناكَ عُلماء يبحثون عن أجوبة لأصل الجهاز المناعي... إنه دفاعنا ضد الضعف والأوبئة المُميتة. مَنْ كَتَبَ تلك الكتب والمقالات هم عُلماء يكدحون في مختبراتهم بدون حملات دعائية أو خطابات مدفوعة الثمن. جهودهم تُساعدنا في محاربة وشفاء حالات طبية خطيرة. على العكس من ذلك فإن البروفيسور بيهي وكل حركة التصميم الذكي لا يفعلون أي شيء لدفع العلم أو المعرفة الطبية إلى الأمام، ويقولون للأجيال المستقبلية من العُلماء: لا تزعجوا أنفسكم"[64].

وكما قال عالم الجينات الأمريكي جيري كوين في مراجعته لكتاب بيهي: "لو أراد تأريخ العلم أن يقول لنا شيئاً واحداً، فسيقول بأننا لم نكن لنكتشف أي شيء لو وضعنا لافتة "الله" على المواضيع التي نجهلها". أو كما كتب أحدهم في مذكراته على الإنترنت كتعليق على مقال عن التصميم الذكي كتبتُه بالمشاركة مع كُويْن في صحيفة الغارديان:

> "لماذا يُعْتَبَرَ الله تفسيراً لشيء ما؟ هو ليس تفسيراً، بل هو بالأحرى العجزٌ عن التفسير ولا مبالاة. هو عبارة عن "لا أعرف" متنكِّرة بالروحانيات والطقوس. إذا عزا أحدهم شيئاً ما للإله، فهذا يعني عادة بأنهم لا يملكون أي دراية بهذا الشيء على الإطلاق ولذلك فإنهم يُعْزون سببه لكائن أسطوري سماوي لا يُمكن أن نعرفه أو نصل إليه يوماً ما. وإذا ما طالبت بشرح من أين أتى ذلك الكائن، فالاحتمال الاكبر أنك ستحصل على إجابة ضبابية بزيفٌ فلسفي عن أن وجودهُ أزلي، أو أنه كائنٌ خارج الطبيعة. وبالطبع هذه الإجابة لا تفسِّر شيئاً على الإطلاق"[65].

الداروينية ترفع درجة وعينا بطرق أخرى. الأعضاء التي تطوّرت بالأناقة والفعالية التي هي عليها الآن غالباً تكشف لنا بوضوح الأخطاء الموجودة فيها، تماماً كما نتوقع لو كانت نتيجة تطور تأريخي، وتماماً بعكس ما تتوقع لو كانت مُصمّمة. وقد ناقشتُ أمثلة في كتب أخرى: أحدها العصب الحُنْجري الراجع الذي يكشف تاريخه التطوري بالطريق المتعرج والطويل واللاضروري الذي يسلكه للوصول إلى المكان

المقصود. الكثير من الأمراَض التي تُصيب الإنسان مثل آلام أسفل الظهر والفتوق وهبوط الأرحام والتهاب الجيوب الأنفية، هي نتيجة مباشرة لحقيقة أننا نسير الآن على قدمين بشكلِ مستقيم بجسمٍ قد تشكَّل عبر مئات الملايين من السنين ليسير على أربع. كما يزداد وعينا أيضاً عن طريق الإحساس بوحشية الانتخاب الطبيعي وعدم إكتراثه. الحيوانات المفترسة تبدو وكأنها "مُصممة" بشكل رائع لصيد الفريسة، كما تبدو الفرائس "مُصممة" بشكل يظاهر الروعة لتفادي الوقوع كفريسة. في صالح من يقف هذا الاله؟[66]

المبدأ الإنساني: النسخة الكوكبية

ربما أدرك عُلماء "الفجوات" عجزهم عن تقديم أدلة كالعين والجناح أو محرك سوط البكتيريا أو جهاز المناعة، وهم الآن يُعلِّقون آمالهم الأخير على أصل الحياة. جذور التطور في نطاق الكيمياء غير الحيوية تبدو وكأنها تؤمِّن فجوة أكبر من أيِ تحوّل آخر أثناء التطور لاحقاً. إنه فعلاً فراغ أكبر بمعنى ما. هذا المعنى خاص جداً ولا يعطي راحة للمُدافعين عن الدين. أصل الحياة يجب أن يكون قد حدث مرة واحدة فقط ولذلك نسمح لأنفسنا بأن نعتبره حدثاً على قدر كبير من اللاإحتمالية، بدرجة أكبر كثيراً مما يُدركهُ العديدون، كما سأستعرض لاحقاً. الخطوات التطورية اللاحقة هي مجرد نسخات طبق الأصل، بشكل أو بآخر، عبر ملايين من الأنواع الحية وبشكل مستقل ومستمر ومُكرر عبر العصور الجيولوجية. لذلك، ولشرح تطور الحياة المعقدة، لا نستطيع اللجوء لنفس النوع من الإحصائيات العقلانية التي نستطيع اللجوء لها في تفسير أصل الحياة. الأحداث التي تشكل التطور العادي، خلافاً لتلك التي تشكل أصل الحياة (وربما القليل من الحالات الخاصة)، لا يُمكن أن تكون غير محتملة بدرجة عالية.

التمييز هنا رِبما يبدو مُحيَراً، وعليّ أن أشرحهُ أكثر باستعمال ما يسمى المبدأ الإنساني. هذا المبدأ سُمِّيَ كذلك من قِبَل عالم الرياضيات البريطاني براندون كارتر في 1974، ووسّع مفهومه الفيزيائيان جون بارو وفرانك تيبلَر في كتابهما حول الموضوع[67]. الحجة الإنسانية عادة تطبّق على الكون، وسآتي لذلك لاحقاً. ولكني سأقدم الفكرة على مقياس كوكبي مُصغَّر. نحن موجودون هنا على كوكب الأرض. ولذلك فالأرض يجب أن تكون كوكباً مُؤهَّلاً لإنتاجنا واحتوائنا مهما كان نوع ذلك الكوكب غير عادي، بل وفَريد. وكمثال، فإن نوع الحياة التي نحياها ليست مُمكنة بدون ماء سائل. بالتأكيد، علماء علم الاحياء المختصون بالبحث عن حياة خارج الكرة الأرضية يُجرون، عملياً، مسحاً للسماوات بحثاً عن إشارات تدلُّ على وجود الماء. حول نجم عادي كشمسنا، هُناكَ ما يعرف بنطاق الحياة –منطقة ليست حارةً كثيراً ولا باردة كثيراً، إنما مناسبة فقط- لكوكب مع ماء سائل. وهناك نطاق رفيع لمدارات تقع بين ما هو بعيد جداً عن النجم حيث يتجمد الماء، وقريب جداً منه حيث يغلي الماء.

من المفترض أيضاً أنَّ مَداراً ملائماً للحياة يجب أن يكون دائرياً تقريباً. لأن المدار الإهليجي الحادّ كالذي أكتُشف حديثاً للكوكب العاشر المعروف بشكل غير رسمي باسم زينة [1]، سيسمح للكوكب بالمرور الخاطف والقصير عبر نطاق الحياة كُل بضعة عقود أو قرون (أرضية). زينة نفسه لا يدخل المنطقة الملائمة للحياة بالمرة، حتى في أقرب نقاط مَداره للشمس والتي يصلها مرة كُل 560 عاماً أرضياً. الحرارة على مذنب هالي تتراوح بين 47 درجة مئوية في أقرب نقطة وناقص 270 درجة مئوية في أبعد نقطة. مدار الأرض عملياً إهليجي ككل الكواكب الأخرى (يكون أقرب للشمس في كانون الثاني والأبعد عنها في تموز)؛ ولكن الدائرة هي حالة خاصة من الإهليج، ومدار الأرض قريب جداً من أن يكون دائرياً بحيث أنها لا تخرج عن نطاق المنطقة الملائمة للحياة. موقع الأرض في النظام الشمسي ملائم بطرق أخرى مما يجعلها مُنفردة لتطوّر الحياة. إنَّ جاذبية المشتري الكبيرة تجعله أشبه بمكنسة كهربائية لشفط الأجرام التي قد تهدِّد الأرض باصطدامات مميتة. والقمر الأرضي الكبير نسبياً يؤمن استقراراً للأرض في محور دورانها[68] ويساعد في رعاية الحياة بطرق أخرى. شمسنا غير عادية بكونها غير مزدوجة، أي ليست محبوسة في مدار مشترك مع نجم آخر. من المُمكن للنجوم المزدوجة أن يكون لها كواكب، ولكن مدارات الكواكب ستكون من الفوضى بحيث أنها ستشكل عائقاً لتطور الحياة عليها.

تمّ تقديم تفسيرين أساسيّين حول خصوصية كوكبنا لاحتضان الحياة. نظرية التصميم تقول بأن الله خَلَقَ العالَم ووضع الأرض في النطاق الملائم للحياة، ووضع كُل التفاصيل لصالحنا عمّداً. المبدأ الإنساني مُختلف تماماً ويعطي إحساساً يكاد يشبه الداروينية. غالبية الكواكب في الكون لا تقع في نطاقات المنطقة الملائمة للحياة حول نجومها، وليست مؤهَّلة للحياة، ولا يوجد حياة على أيٍ منها. ولكن على أية حال هنالك أقلية صغيرة من الكواكب بشروط مناسبة للحياة، ونحن بالضرورة على واحد من تلك الأقلية من الكواكب إذ ها نحن هنا نفكر بها.

من الغريب أن المدافعين عن الدين يميلون صدفةً للمبدأ الإنساني. هم يفكرون بأن ذلك يخدم قضيتهم لسببٍ ما لامعنى له على الإطلاق. والعكس تماماً هو الصحيح. فالمبدأ الإنساني هو بديل لفرضية التصميم تماماً كالإنتخاب الطبيعي. إنه يقدم شرحاً عقلانياً بعيداً عن نظرية التصميم لحقيقة أننا وجدنا أنفسنا في موقع مُلائم لوجودنا. أظن أن الحيرة تظهر في العقل الديني لأن المبدأ الانساني هو الوحيد الذي يُذْكَر في محتوى السؤال الذي يجيب عليه، وهو حقيقة أننا نعيش في مكان يحتضن الحياة. ما يفشل العقل الديني في فهمه هو أن هُناكَ مرشحان لحل المسألة. أحدهما الله، والآخر هو المبدأ الإنساني. إنهما خياران لا يجتمعان.

الماء السائل شرط ضروري للحياة كما نعرفها، ولكن ليس كافياً لوحده بالمرة. الحياة عليها أن تتأصّل في الماء، وأصل الحياة رُبما كان قليل الاحتمال بشكل كبير. التطور الداروِيني يُكمل الموضوع بسرور بمجرد نشوء الحياة. ولكن، كيف بدأت الحياة؟ أصل الحياة كان حدثاً كيميائياً، أو سلسلة من الأحداث حيث حدثت الشروط الحيوية لبداية التطور. العنصر الأهم كان الحمض النووي DNA، أو (الأكثر احتمالاً)

---

1 في 13 أيلول 2006 تم الاتفاق في الاتحاد الفلكي على أسم الكوكب، أي 19 يوماً قبل صدور هذا الكتاب واصبح اسمهُ الرسمي إيريس. (المترجم)

شيء شبيه به من حيث موضوع النسخ ولكن أقل دقَّةً، رُبما جزيئات RNA القريبة له. بمجرد أن يصبح هذا المُكَوِّن الحيوي -نوع من الجزيئات القابلة للتوارث- موجوداً في مكانه، يبدأ الإنتخاب الطبيعي الدارويني وتظهر الحياة المُعقدة كنتيجة نهائية. ولكن الظهور التلقائي للجزيئ القابل للتوارث بالصدفة يبدو للعديدين غير محتمل. وربما إنه كذلك، قليل الاحتمال بشكل كبير جداً، وسأركِّز على هذه النقطة لكونها نقطة مركزية في هذا القسم من الكتاب.

إن أصل الحياة موضوع مزدهر للبحث وإن كان موضوعاً فكرياً. الخبرات التي يتطلَّبها كيميائية وهي ليست من إختصاصي. أنا أقف جانباً كالمتفرج الفضولي، ولا يجب أن أتفاجأ إذا نجح الكيميائيون في توليد أصل للحياة في المختبر خلال بضعة سنين قادمة. على الرغم من أن ذلكَ لم يحصل حتى الآن، ولا يزال من الممكن المُحافظة على الرأي القائل بأن احتمال حصولها كان ولا يزال ضئيلاً بشكل هائل مع أنها حصلت في وقت ما ولمرة واحدة!

وكما فعلنا مع النطاق الملائم للحياة، نستطيع أن نقول بأنه مهما كان احتماليَة أصل الحياة ضعيفةً، فإننا نعلم أنها حصلت مرة على كوكب الأرض لأننا هنا. وكما في درجات الحرارة، هنالك فرضيتان لشرح ما حصل: فرضية التصميم والفرضية العلمية "الإنسانية". التصميم يقول بوجود إله تعمّد عمل تلك المعجزة، ضَرَبَ الحساء عديم الحياة بنار مقدسة وأطلق الحمض النووي DNA، أو ما شابهه، في بداية مستقبله المِهني. ومرة أخرى، كما في النطاق الملائم للحياة، فإن البديل الإنساني للتصميم هو فرضية إحصائية. والعُلماء يتوسلون سحر الأرقام الكبيرة. عدد الكواكب في مجرتنا بين مليار وثلاثين مليار كوكب، ويوجد حوالي 100 مليار مجرة في الكون. لنرفع عدداً من الأصفار جنباً لمُجرد التعقل العادي، فنحصل على مليار مليار كرقم مُتحفظ لعدد الكواكب في كوننا. والآن، لنفرض أن ظهور الحياة التلقائي أو ما يشابه الحمض النووي هو ظاهرة بلاإحتمالية مدهشة لدرجة أنها تظهر مرة في كُل مليار كوكب. سيضحك بعض أصحاب المنح للأبحاث الكيميائية لو قال لهم الكيميائي طالب المنحة بأن احتمال نجاح البحث واحد بالمائة. ولكننا هنا نتكلم عن احتمال واحد بالمليار. ومع ذلك ... ورغم ضآلة الاحتمالات، فإن الحياة ستنبعث على مليار كوكب، ومنهم بالطبع كوكب الأرض[69].

هذه النتيجة مفاجئة جداً وسأكررها هنا. لو كان احتمال ظهور الحياة التلقائي على كوكب ما واحد في المليار، وعلى الرغم من اللاإحتمالية الكبيرة، فسيكون هُناكَ حياة على كوكب واحد من مليار كوكب. فرصة إيجاد أي كوكب من تلك الكواكب المليار التي تحمل حياة يُماثل البحث عن إبرة في كومة قش. ولكن ليس علينا أن نجهد أنفسنا في البحث عنها حيث أن (عودة للمبدأ الإنساني) أي كائن يستطيع البحث هو موجود بالضرورة على إحدى تلك الأبر العديدة حتى قبل أن يبدأ بالبحث.

أي مقولة بالاحتمالية تمَّت بسياق درجة ما من الجهل. إن لم نعرف أي شيء عن كوكب ما، فربَما نُسلِّم بأن احتمالات نشوء الحياة عليه، لنقل، واحد في المليار. ولكن لو استطعنا ايراد بعض الفرضيات على تقديراتنا، فالأشياء تتغير. كوكب معيّن يمكن أن يكون لهُ خصائص خاصة، ربما ملامح خاصة لعنصر كيميائي

مهمل في صخوره والتي ترفع الاحتمالات لصالح نشوء الحياة عليه. بعبارة أخرى، بعض الكواكب أكثر "شبهاً بالأرض" من غيرها. والأرض نفسها هي طبعاً شبه أرضية بشكل خاص! وهذا يشجع أصدقاءنا الكيمائيين الذين يحاولون خَلقَ الظاهرة مرة أخرى في المختبر لأنهُ من المُمكن أن تزيد احتمالات النجاح. ولكن كما أظهرت حساباتي السابقة بأنه حتى لو كان النموذج الكيميائي باحتمال نجاح واحد في المليار، فإنه لا يزال يتنبأ بوجود الحياة على كوكب واحد من مليار كوكب في الكون. وجمال المبدأ الإنساني بأنه يقول لنا، بعكس الحدس، بأن النموذج الكيميائي يحتاج فقط للتنبؤ بأن الحياة ستنشأ على كوكب واحد من مليار مليار كوكب ليعطينا تفسيراً جيداً ومقبولاً بشكل كامل لوجود الحياة هنا. أنا لا أعتقد أن أصل الحياة بهذه الدرجة من اللاإحتمالية في الواقع. وأعتقد بأن الأمر يستحق أن ينفق عليه المال في تجارب لتكرار هذه الظاهرة في المختبر، ونفس الشيء بالنسبة لمشروع البحث عن حياة ذكية خارج كوكب الأرض (SETI)، لأنني أظن بأن هُناكَ حياة ذكية في مكان آخر في الكون.

حتى في حالة قبول أكثر التقديرات تشاؤماً عن نشوء الحياة بشكل ما، فإنها كحُجة إحصائية ستُحطم أي اقتراح بأنه علينا ان نستخدم نظرية التصميم لملئ الفجوة هنا. ومن بين كُل الفجوات في قصة التطور، فإن فجوة أصل الحياة تبدو عصيّة على أدمغة ضُبِطَتْ لتقدير احتمالات ومجازفات على موازين يومية: كالموازين التي بواسطتها تقرر هيئة المِنَح إعطاء المنحة المالية للبحث المقدَّم من الكيميائي. ولكن حتى فجوة كهذه فإنها تُمْلأ بسهولة من قِبَل عالم إحصاء قدير، في حين أنَّ نفس العلم الإحصائي يُخْرِج الخالق المقدس على مبدأ البوينغ 747 الكبرى الذي ذكرناه سابقاً.

ولكن الآن لنعود للنقطة المُثيرة التي انطلق منها هذا الموضوع. لنفرض بأن أحداً ما حاول تفسير الظاهرة العامة للتأقلم الحياتي باستخدام نفس المبدأ الذي استخدمناه في تفسير أصل الحياة: من خلال الإشارة للأعداد الهائلة من الكواكب المتوفرة. الواقع بأن كُل نوع من الأحياء، وكل عضو درسناه في أي جسم حي، هو جيد فيما يفعل. أجنحة الطيور والنحل والخفافيش رائعة للطيران. العيون جيدة للرؤيا. أوراق النبات جيدة في التمثيل الضوئي. نعيش على كوكبنا محاطين ربما بعشرة ملايين جنس من الأجناس الحية، وكلٌّ منها على حدة يُظْهِر وهماً قوياً بوجود تصميم وراءه. كُل نوع حي مناسب جداً لنوع حياته الخاص. هل بإمكاننا أن نتملَّص باستعمال حجة "العدد الهائل للكواكب" لشرح كُل أوهامِ التصميم تلك؟ لا. لا نستطيع. وأكرر مرة أخرى: لا. لا تفكر بذلك. هذا مهم جداً، لأن ذلك يكمن في لُبِ أشد أشكال سوء فهم الداروينية.

ليس من المهم كم عدد الكواكب التي لدينا لنلعب بها، الحظ السعيد لا يُمكن أن يكون كافياً لشرح التنوع المتشعب للأنظمة الحياتية المعقدة على سطح الأرض بنفس الطريقة التي استعملناها لشرح وجود الحياة هنا أساساً. تطور الحياة مُختلف تماماً عن حالة نشوئها لأنهُ، وسأكرر هُنا، أصل الحياة كان (ومن الممكن أن يكون) ظاهرة فريدة من نوعها حدثت مرة واحدة فقط. أما تكيّف الأحياء للبيئات المختلفة التي تعيش فيها، من الناحية الأخرى، هو ذو تشعّبات مليونية، وما زال مستمراً.

من الواضح بأننا هُنا على الأرض نتعامل مع خط سير عام لتكييف الأنواع الحية، عملية تحدث في كُل أنحاء الكوكب، كُل القارات والجُزر، وفي كُل وقت. ونستطيع التوقع بإطمئنان بأنهُ لو انتَظرنا عشرة ملايين سنة أخرى فإن مجموعة جديدة تماماً من الأحياء ستكون متأقلمة تماماً مع ظروفها في الحياة كما هو الحال مع أحياء العصر. وهذه ظاهرة متكررة ومتوقعة وليست ضربة حظٍّ إحصائية معروفة النتائج. والفضل يرجع لداروين أننا نعرف الآن كيف حصلت: بالانتخاب الطبيعي.

المبدأ الإنساني عاجز عن تفسير تنوع تفاصيل الكائنات الحية. نحن بحاجة حقيقية لتفسير داروين القوي لتفسير تنوع الحياة على الأرض، وبصورة خاصة الوهم المغري لنظرية التصميم. وبعكس ذلك، فإن أصل الحياة يقع خارج حدود هذا التفسير لأن الانتخاب الطبيعي لا يُمكن أن يبدأ بدونه. وهنا يأتي المبدأ الإنساني من تلقاء نفسه. بإمكاننا مُعالجة فكرة أصل الحياة بافتراض عدد هائل من الفرص الكوكبية. وبمجرد أن نحصل على ضربة الحظ، والمبدأ الإنساني يضمن لنا حصولها بشكل أكيد، يبدأ الانتخاب الطبيعي في العمل: والانتخاب الطبيعي بالتأكيد ليس موضوع حظ أبداً.

وعلى الرغم من ذلك، ربما أصل الحياة ليس هو الفجوة الوحيدة في قصة التطور التي نملؤها بمُجرد الحظ المبرّر إنسانياً. فعلى سبيلِ المثال، زميلي مارك ريدلي، في كتابه "شيطان ماندل" (والذي تغير عنوانه بشكل مُحيِر وبدون سبب من قبَل ناشريه الأمريكيين إلى "الجين المتَعاون")، يقترح بأن أصل الخلية حقيقية النواة (من نوع خلايانا، مع نَواة وأشياء أخرى معقدة مثل المُتَقَدرات[1] والتي لا وجود لها في البكتيريا) شديد الأهمية وصعب ولاإحتمالي إحصائياً بشكل أكبر من أصل الحياة نفسها. يُمكن أن يكون أصل الوعي فجوة كبيرة أخرى ملؤها كان من نفس درجة اللإحتمالية. يُمكن تفسير الظواهر التي حصلت لمرة واحدة بالمبدأ الإنساني كما يلي: هنالك المليارات من الكواكب التي تطورت فيها الحياة على مستوى بكتيري، ولكن جزء بسيط فقط من أشكال هذه الحياة استطاع العُبور لمرحلة الخلية حقيقية النواة. وجزء أصغر من هؤلاء بدورهم عبروا تلك المرحلة للحياة الواعية. لو أن كلَتا الحالتين تعتبران ظواهر تحصل لمرة واحدة، فإننا لسنا بصدد عملية منتشرة وسائدة في كُل شيء كما هو الحال في عملية التأقلم الاحيائي العادي الدائم والمُستمر. ينص المبدأ الإنساني على أن كوكبنا يجب أن يكون من الكواكب النادرة حتى يستطيع اجتياز كُل تلك الفجوات الثلاثة، لأننا أحياء وخلايانا حقيقية النوى ونمتلك الوعي.

الانتخاب الطبيعي يعمل لأنه تراكمي ذو اتجاه واحد للحصول على نوعية أفضل. وهو بحاجة لبعض الحظ ليبدأ بالعمل، المبدأ الإنساني لـ "مليارات الكواكب" يضمن لنا ذلك الحظ. رُبما أن هُناكَ بعض الفجوات الأخرى في قصة التطور مما يحتاج للحظ مع تبريرات أنثروبية. وعلى كُل حال، مهما أردنا قوله فإن نظرية التصميم لا يُمكنها تفسير الحياة لأن التصميم في النهاية ليس عملية تراكمية، وبالتالي يطرح أسئلة أكبر من تلك التي يحاول الإجابة عليه، إنها ترجعنا مباشرة إلى الارتداد اللانهائي للبوينغ 747.

---

[1] المتقدرات أو الميتوكوندريا هي عضيات دقيقة توجد داخل سيتوبلازم الخلايا الحيوانية والنباتية وهي مسؤولة عن توليد الطاقة داخل الخلية. (المترجم)

نعيش على كوكب ملائم لنوع الحياة التي نحياها. وقد رأينا سببين لذلك. أحدهما هو أن الحياة تطورت وازدهرت بفضل الشروط التي وفَّرها لنا كوكبنا وذلك بالانتخاب الطبيعي. والسبب الثاني هو المبدأ الإنساني. هُناكَ المليارات من الكواكب في الكون، ومهما كانت نسبة الكواكب المؤهلة للتطور صغيرة، فإن كوكبنا يجب أن يكون أحدها. لقد حان الوقت الآن كي نُعيد المبدأ الإنساني لِمرحلةِ مبكرة، من علم الأحياء الى علم الفلك.

المبدأ الإنساني: النسخة الفلكية

نحن نعيش ليس فقط على كوكب ملائم للحياة إنما في كون ملائم أيضاً. إنَّ حقيقة وجودنا تستتبع أن القوانين الفيزيائية يجب أن تكون ملائمة بشكل كافٍ لتسمح للحياة بالنشوء. ليست مصادفة أننا نرى النُجوم في سماء الليل، إذ أن النجوم من الشروط الضَرورية لنشوء العناصر الكيميائية، وبدون كيمياء لا وجود للحياة. وحسب الفيزيائيين، فإنه لو اختلفت الثوابت الفيزيائية عما هي عليه ولو بشكل ضئيل جداً، لكان الكون تشكَّل على نحو آخر تُصبح معهُ الحياة مستحيلة. التعابير تختلف باختلاف الفيزيائيين، ولكن النتيجة دائما واحدة. مارتن ريس في كتابه "ستة أرقامٍ فقط"، يعرض لائحة بست ثوابت أساسية والتي يُعْتَقَدُ بثبات قيمتها في كُل الكون. كلٌّ من هذه الثوابت له قيمة دقيقة بمعيار معين، بمعنى لو تغير بشكل ضئيل، فإن الكون سيكون على غير ما نعرفه الآن بشكل شامل، ومن المفترض أنهُ لن يكونَ ملائماً للحياة[1].

أحد أمثلة أرقام ريس الستة هو قيمة العامل المسمى "القوة" الشديدة. تلك القوة التي تربط محتويات نواة الذرة: القوة الواجب التغلب عليها عندما نريد "فلق" الذرة. وقيمتها تسمى ط، وهي نسبة الكتلة من نواة الهيدروجين التي تتحوّل لطاقة عندما تنصهر نواتَيْ هيدروجين لتصبح نواة هيليوم. والقيمة في كوننا هي عبارة عن 0.007، وعلى ما يبدو فإن القيمة يجب أن تكون قريبة جداً من ذلك في حال أردنا أن نحصل على أي تفاعلات كيميائية (والتي هي أحد شروط الحياة). الكيمياء كما نعرفها اليوم هي عبارة عن تركيب وإعادة تركيب لذرات العناصر الطبيعية البالغ عددها حوالي تسعين والتي نجدها في الجدول الدَّوْري. الهيدروجين هو الأَبسط والأكثر انتشاراً من هذه العناصر. كُل العناصر الأخرى في الكون مصدرها من الهيدروجين بواسطة الانصهار النووي. الانصهار النووي عبارة عن عملية معقدة تحصل في وضع حراري عالي جداً داخل النجوم (وفي القنبلة الهيدروجينية). وبالنسبة للنجوم الصغيرة الحجم، كما هو الحال في شمسنا، فإن ذلك يولِّد عناصرِ خفيفة كالهيليوم، وهو العنصر التَالي في الجدول الدوري من ناحية الخِفَّة بعد الهَيدروجين. لهذا نحتاج لِنُجوم أكبر وأكثر حرارة لنستطيع توليد مُعظم العناصر الثقيلة، وفي

1 . أقول هنا من المحتمل لأننا من جهة أخرى لا نعرف إلى أي مدى تختلف الأنواع المختلفة للحياة، ومن جهة أخرى فإن احتمال الخطأ كبير إذا قمنا بالتركيز على المضاعفات الناتجة عن تغير ثابت فيزيائي واحد. هل من المحتمل وجود تركيبة أخرى من هذه الثوابت الستة والتي قد تكون ملائمة للحياة بشكل مختلف عن هذه التراكيب التي نستخرجها من خلال النظر الى متغير واحد فقط كل مرة؟ مع ذلك فلنستمر رغم أننا حتى اليوم نعاني من مشكلة كبيرة وهي معرفة المقصود بالمعيار المعين لكل قيمة ثابتة.

سلسلة الانصهار النووي الذي درسه وشرحه فريد هويل وإثنان من زملائه (إنجاز أكثر من رائع لكن ولسبب غامض، لم يحصل هويل على جائزة نوبل التي حصل عليها شركاؤه الآخرون). هذه النجوم الكبيرة ربما تنفجر فيما يسمى بالمُسْتَعِرُ الأعظم (سوبر نوفا)، قاذفةً بمحتوياتها المُتضمنة عناصرِ الجدول الدوري على شكل غيوم غبارية. وهذهَ بدورها تتكثَّف وتُنشئ كواكب ونجوم جديدة، منها شمسَنا وأرضنا. وهذا هو السبب في غِنى الأرض بالعناصر الأثقل من الهيدروجين المُنتشر في كُل مكان، تلك العناصر التي بدونها تستحيل الكيمياء والحياة.

فيما يتعلق بموضوعنا هنا هو أن قيمة "القوة" القوية تحدد بشكل دقيق وحرج كم إمكانية تَشَكُّل المواد على الجدول الدوري. إذا كانت القوة القوية صغيرة، مثلاً 0.006 بدلاً من 0.007، فإن الكون لن يتكون من أي شيء آخر غير الهيدروجين، ولن ينتج أي عنصر كيميائي مهم. ولو كانت أكبر، 0.008 مثلاً، فإن كُل الهيدروجين سينصهر مع بعضه لتشكيل عناصر ثقيلة. والكيمياء بدون هيدروجين لا تستطيع تشكيل حياة بالطريقة التي نعرفها. مثلاً لن يكون هُناكَ ماء (الماء مكوّن من ذرة أوكسجين وذرّتي هيدروجين). والقيمة الملائمة 0.007 هي القيمة الوحيدة التي تؤدي لِوجود العناصر بتنوعها للحصول على كيمياء مثيرة وملائمة للحياة.

لن أتطرّق لكل أرقام ريس الستة. النتيجة لكل منها تبقى نفسها. كل رقم له قيمة تقع ضمن (المنطقة الملائمة) والحياة لن تكون ممكنة خارجهُ. كيف يمكننا الردّ على ذلك؟ مرة أخرى لدينا ردّ المؤمنين من جهة والمبدأ الإنساني من جهة أخرى. المؤمن يقول بأن الله عندما صمّم الكون وضع هذه القيم لهذه الثوابت الأساسية بحيث أن كلاً منها يقع داخل النطاق الملائم لإنتاج الحياة. وكأن الله عنده ستة أزرار يديرها لضبط المقدار الخاص بكل ثابت ليقع في نطاقه الملائم. وكالعادة، فإن جواب المؤمن ليس مقنعاً لأنه يترك موضوع وجود الله بدون شرح. لاإحتمالية الإله القادر على حساب قيمة الأرقام الستة لتكون ملائمة للحياة على الأقل بنفس لاإحتمالية سلسلة تلك الأرقام الستة نفسها، وهذا فعلاً احتمال ضئيل جداً. هذا بالتحديد هو الأساس في نقاشنا. وبذلك فإن جواب المؤمنين يفشل تماماً في دفعنا بإتجاه حلِّ المسألة. ولا أجد أي بديل من إهماله، وفي الوقت نفسه يملؤني التعجّب وأنا أنظر لأعداد الناس الذين لا يرون حجم تلك المعضلة ويبدون مُكتفين بفكرة الإله ذي الأزرار الستة.

ربما أن أحد الأسباب الفيزيولوجية لذلك العمى المدهش هو أن أغلب الأشخاص لم يرفعوا وعيهم، كما فعل علماء الأحياء، بنظرية الانتخاب الطبيعي وقدرتها لترويض اللاإحتمالية. ج. آندرسون تومسون، ومن وجهة نظره كطبيب نفسي تطوّري، لفت نظري لسبب آخر، وهو الانحياز النفسي الذي نملكه والذي يؤدي بنا لشخصنَة الأشياء الجامدة وكأنها أشياء واعية. وكما يقول تومسون، نميل عادة للاعتقاد بأن الظل في الليل قد يكون لصاً أكثر من اعتقادنا بأن اللص هو عبارة عن ظلّ. فالواقع المتوهَّم هو مضيعة للوقت فقط. بينما توهُّم الواقع يمكن أن يكون قاتلاً. في رسالته لي، شرح تومسون، بأن أهم التحديات التي كانت تواجه أسلافنا في الماضي كانت من الآخرين من بني جنسهم. "نتيجة لهذا فإن الحدس يختار أولاً الحذر من دافع بشري قد يكون وراء ذلك. إننا نعاني من صعوبة بالغة في رؤية أي شيء دون أن يكون الإنسان

هو السبب أو المسبَب". من الطبيعي أننا عمّمنا ذلك على دافع سماوي. وسأعود لموضوع الميول لـ "الشخصنة" في الفصل الخامس.

علماء الأحياء ذوي الوعي العالي لقدرة نظرية الانتخاب الطبيعي في تفسير ارتقاء الأشياء اللامحتَمَلة لن يرضوا بأي نظرية تتفادى مشكلة اللاإحتمالية برمّتها. وجواب الألوهيين للأحجية اللاإحتمالية هو تفاد لها بشكل هائل. إنه أكثر من إعادة لطرح المُشكلة، بل هو تضخيم لها بشكل كبير. لنلتفت الآن للحل وفق المبدأ الإنساني البديل. الجواب وفق المبدأ الإنساني بشكل عام هو أنه باستطاعتنا فقط النقاش حول نوع الكون القادر على إنتَاجنا. إن وجودنا يفترض أن الثوابت الأساسية للفيزياء يجب أن تكون ضمن حدود قيمها الملائمة. هناك مجموعة مختلفة من الفيزيائيين يتبنّون أشكالاً مختلفة من هذا الجواب وفق المبدأ الإنساني حول معضلة الوجود.

بعض الفيزيائيين المتزمّتين يقولون بأن الأزرار الستة لم تكن لها الحرية في أي من الأوقات لتتغير. وعندما نصل للنظرية الجامعة التي طالما أملْنا بمعرفتها، سنجد أن الثوابت الستة تتوقف كلياً على بعضها البعض، أو على شيء آخر ليس معروفاً بعد، وبطرق لا نستطيع بعد تخيلها في أيامنا هذه. ربما تكون الثوابت الستة عديمة الحرية في التغير تماماً كما في محيط الدائرة بالنسبة لمساحتها. وسنعرف حينها بأن هُناكَ طريقة واحدة لوجود الكون. كون لا يحتاج الهاً يضبط أزراره الستة، ليس هُناكَ أزرار بالاساس لضبطها.

فيزيائيون آخرون (مارتن ريس كمثال) يجدون ذلك غير كاف، وأعتقد أنني أوافقهم. من المعقول بالطبع أن يكون هُناكَ طريقة واحدة لوجود الكون. ولكن لماذا هذه الطريقة بالذات التي تتناسب بشكل مذهل لتطورنا النهائي؟ لماذا بالذات على الكون أن يكون بالشكل الذي يبدو فيه وكأنه، كما يقول الفيزيائي النظري فريمان دايسون "من المؤكد قد تنبأ بقدومنا؟". الفيلسوف جون ليسلي يستعمل التشبيه عن رجل محكوم بالاعدام رمياً بالرصاص. من المُمكن أن يخطئ جميع أعضاء فريق الإعدام العشرة الهدف. يمكن للناجي الذي يجد نفسه في وضع يسمح له بالتأمل في حظه أن يقول بمرح : "حسناً، من الواضح أنهم جميعهم أخطؤوني، وإلا فلن أكون واقفاً هنا وأفكر في هذا". ولكن من الممكن أن يتساءل فعلاً لماذا أخطؤوا جميعهم، وتدور في رأسه الشكوك عن ما إذا كانوا مرتشون أو سكارى.

نجيب على هذا الاعتراض بمقترح يدعمنا فيه مارتن ريس نفسه بأن هُناكَ العديد من الأكوان متواجدة، تماماً كفقاعات الرغوة، في "العالم المتعدد الأكوان" (أو "الكون الأعظم"، كما يحب ليونارد سوسكيند تسميته)[1]. القوانين والثوابت في أحد الأكوان كالذي في نطاق ملاحظتنا، هي قوانين محلية. والعالم المتعدد الأكوان لديه الكثير من القوانين المحلية المتبادلة. والمبدأ الإنساني يأتي هنا ليشرح بأنه من الواجب أن نكون في أحد تلك الأكوان (على الغالب هي أقلية) ذات القوانين المحلية المؤاتية لتطورنا النهائي وبالتالي لتأملنا في المسألة ذاتها.

---

1 . سوسكيند 2006 يقوم بطرح دفاع رائع عن المبدأ الإنساني في الكون الأعظم، حيث يقول بأن أغلب الفيزيائيين يكرهون الفكرة، لا أفهم لماذا. أنا أعتقد بأن الفكرة مثيرة فعلاً، ربما لان الداروينية قد قامت برفع درجة وعيي.

نسخة مثيرة لنظرية تعدد الأكوان تأتي من تأملنا بالمصير النهائي لكوننا. بالاعتماد على ثوابت مارتن ريس الستة، ربما سيتمدد كوننا للانهاية، أو يستقر في مرحلة توازن معينة، أو سيتحول التمدد الى تقلص وينتهي بما يسمى "الانكماش العظيم". بعض نماذج الانكماش العظيم تُرجع الكون لحالة التمدد، وهكذا بدون نهاية وبتردد قدره، لنقل، 20 مليارعاماً. النموذج الأساس لكونِنا يقول بأن الزمن بدأ مع الانفجار العظيم، كذلك المكان، منذ حوالي 13 مليار سنة. وسلسلة الانكماش العظيم تفرض ما يلي: زماننا ومكاننا بدءاً مع الانفجار العظيم، ولكن ذلك الانفجار هو الأخير من عدة انفجارات، ونشأ كُل منها من انكماش عظيم قد أهلك الكون الذي سبقهُ في السلسلة. ليس بمقدور أحد أن يفهم ماذا يحدث في نقطة بداية الكون عند الانفجار العظيم، وبالتالي فإنه من المعقول بأن القوانين والثوابت يمكن أن تكون لها قيم مختلفة في كُل دورة. إذا كانت هناك دورات إنفجار وتمدَّد وتقلُّص وانكماش تحصل بصورة لا نهائية كآلة أكورديون كونية، ففي هذه الحالة يكون لدينا سلسلة أكوان متتابعة وليس أكواناً متوازية. ومرة أخرى، فإن المبدأ الإنساني يؤدي واجبهُ في شرح الأسباب. من كُل هذه الأكوان، هُناكَ عدد ضئيل بثوابت مضبوطة للشروط الملائمة للحياة. وبالطبع، الكون الحالي هو أحد تلك الأكوان لأننا فيه. هذا النوع من الأكوان المتعاقبة يبدو الآن أقل احتمالية حيث أدلة جديدة بدأت بالظهور تأخذنا بعيداً عن نموذج الانكماش الكبير. ويبدو بأن كوننا مقدَّر له التمدد إلى الأبد.

فيزيائي نظري آخر، لي سمولين، جهد في تطوير نظرية ذات طابع دارويني عن العالم المتعدد الأكوان، تضمن النوعين كليهما: المتعاقب والمتوازي. فكرته التي شرحها في كتابه "حياة الكون" تدور حول أكوان أبناء ولدوا من أكوان آباء، ونشوؤهم ليس كنتيجة لانكماش عظيم ولكن بواسطة ثقوب سوداء محلية. الأكوان الابناء لديهم ثوابت مختلفة قليلاً عن آبائهم. والتوارث هو العنصر الأساسي في الانتخاب الطبيعي، وبقية نظرية سمولين تتتابع طبيعياً. الأكوان التي لديها ما يلزم "للبقاء" و "التكاثر" تُصبح لها الهيمنة في العالم المُتعدد الأكوان. و"ما يلزم هنا" يتضمن الديمومة لزمن كاف لـ "التكاثر". لأن فعل التكاثر يحصل في الثقوب السوداء، والأكوان الناجحة يجب أن يكون لديها ما يلزم لتشكيل ثقوب سوداء. هذه القابلية تتضمّن عدة خصائص أخرى. مثلاً ميل العناصر للتكيّف على شكل غيوم كونية ومن ثم نجوم هو شرط لعمل الثقوب السوداء. النجوم أيضاً، كما رأينا، هي بوادر لتطور الكيمياء المفيدة ومن ثمَ الحياة. ولذلك يقترح سمولين بأن هُناكَ انتخاب طبيعي دارويني للأكوان ضمن العالم المُتعدد الأكوان، وبشكل مباشر يُفضِّل الأكوان التي تطور ثقوب سوداء خصبة وبشكل غير مباشر يفضل إنتاج الحياة. ليس كُل الفيزيائيين متحمسين لفكرة سمولين. على الرغم من أن الفيزيائي الحاصل على نوبل ماري جيلمان قال: "سمولين؟ ذاك الشاب ذو الأفكار المجنونة؟ ربما لا يكون مخطئاً"[70]. ربما سيتساءل عالم أحياء جريء في وقت ما فيما إذا كان فيزيائيون آخرون بحاجة لعملية رفع وعي دارويني.

من المغري أن نفكر (والعديدون وقعوا في هذا) بأن افتراض عدد كبير من الأكوان هو نوع من الترف الفكري المُسرف الذي لا يجب السماح به. ولو سمحنا بتعدد الأكوان المُسرف، تقول الحجة، فدعونا نسمح بالوجود الإلهي أيضاً. أليست الفرضيتان على نفس الدرجة من التبذير والرداءة؟ الذين يفكرون بهذا

الشكل لم يمروا بمرحلة رفع الوعي بالانتخاب الطبيعي. الفرق الأساسي بين فرضية الأكوان المُتعددة المفرطة وفرضية الإله المفرطة هي اللاإحتمالية إحصائياً. وبرغم التبذير في نظرية تعدد الأكوان إلا أنها بسيطة، أما الله، أو أي وجود واعي يأخذ قراراً بحسابات، عليه أن يكون من الضخامة في اللاإحتمال على الأقل بنفس الدرجة للكيان الذي يحاول شرحهُ. قد تبدو نظرية الأكوان المتعددة مسرفة جداً من حيث عدد الأكوان. ولكن إذا كان كُل واحد من تلك الأكوان بسيطاً في قوانينه الأساسية فنحن هنا لا نفترض أشياء بدرجة عالية من اللاإحتمال، ويجب أن يقال العكس تماماً في أي نوع من أنواع الوجود الذكي.

بعض الفيزيائيين معروفين بالتدين (راسل ستانارد والقس جون بولكنغتون مثالان من بريطانيا ذكرتهما مسبقاً). وكما هو متوقع فإنهم يتعلقون بلاإحتمالية الثوابت ووقوعها في مجالها الواسع أو الضيق لنطاقها الملائم، ويقترحون بأنه يجب أن يكون هُناكَ ذكاء كوني هو الذي قصد تحديد تلك الثوابت. وأنا قد نفيتُ كل هذه الاقتراحات باعتبارها تثير مشاكل أكبر مما تحل. وما هي محاولات المُتدينين للرد على ذلك؟ كيف يمكن لهم المحاججة بأن أي إله قادر على تصميم كون، بشكل دقيق وببصيرة كاملة بشكل يؤدي لتطورنا فيه، عليه أن يكون على درجة من التعقيد واللاإحتمالية مما يجعل وجوده يحتاج لِشرح أكبر من الذي يُفترض أنهُ يقدمه؟

عالم الدين ريتشارد سوينبورن، كما تعلمنا أن نتوقع، يظن بأن لديه إجابة للمسألة ويشرح ذلك في كتابه "هل هُناكَ إله؟". يبدأ بطريقة صحيحة عندما يرينا بطريقة مقنعة لماذا علينا دائماً أن نفضِّل أبسطَ الفرضيات التي توافق الوقائع. العلم يشرح الأشياء المعقدة بلغة التفاعلات لأشياء أبسط منها، وبالنهاية نصل للتفاعلات بين الجزيئات الأساسية. أنا أفكر (وأعتقد أنت أيضاً) بأن الفكرة جميلة في بساطتها وبأن كُل الأشياء مصنوعة من الأجسام الجزيئية والتي، بالرغم من تعددها، آتية من عدد محدود صغير من أنواع الجسيمات. ولو شككنا بذلك فإننا نفعل لأننا نعتقد أن الفكرة تبدو بسيطة بشكل كبير. ولكن بالنسبة لسوينبورن فذلك ليس بسيطاً البتة، بل على العكس.

بما أن عدد أي نوع من الجسيمات، ولنقل الإلكترون مثلاً، كبير جداً، فإن سوينبورن يفكر بأنه ليس من الصدفة أن ذلك العدد الهائل يملك نفس المواصفات. بإمكانه هضم فكرة إلكترون منفرد لوحده، ولكن مليارات المليارات من الالكترونات. كلها بنفس المواصفات، ذلك هو ما يثير شكوكه. وبالنسبة لهُ، فأنه سيكون من الأبسط والطبيعي وأقل تطلُّباً للتفسير لو كانت الالكترونات مختلفة عن بعضها. أسوأ من ذلك هو أن الالكترون لا يحافظ على مواصفاته سوى لبرهة ضئيلة من الوقت، كُل منها يجب أن يتغير دائماً وبشكل عشوائي من لحظة لأخرى. ذلك هو رأي سوينبورن عن الأمور البسيطة الطبيعية. كُل ما هو أكثر تشابهاً (أو ما نُسميه أنتَ وأنا أكثر بساطة) يقتضي تفسيراً خاصاً. " فقط لأن الألكترونات وجزيئات النحاس وكل مادة تملك نفس المواصفات في القرن العشرين كالتي كانت لها في القرن التاسع عشر، فإن الأشياء هي كما عليه حالياً".

وهُنا يأتي دور الله، يأتي الله للإنقاذ وذلك بالمُحافظة بشكل مقصود على مواصفات المليارات من الالكترونات وجزيئات النحاس وإبطال ميولها العشوائية للتمايز. ولذلك فإنك عندما ترى إلكتروناً فإنك كما لو رأيتهم جميعاً: ولذلك فإن جزيئات النحاس تتصرف كجِزيئات النحاس، ولهذا يبقى كُل إلكترون وكل جزيء نحاس كما هو من ميكروثانية لأخرى ومن قرن إلى آخر. إن ذلك يحدث لأن الله باستمرار يضع أصبعهُ على كُل إلكترون منها، يكبح جماحهُ ويضعهُ في الطابور مع زملائهِ ليكونوا جميعاً متماثلين.

ولكن كيف يُمكن لسوينبورن أن يقول بأن فرضية الله يضع بنفس الوقت عدداً كبيراً جداً من أصابعه على عدد كبيرٍ جداً من الإلكترونات الهاربة هي فرضية بسيطة؟ إنها بالطبع عكس البساطة تماماً. ولكن سوينبورن يمرر خُدعتهُ بتواضع بكل وقاحة فكرية. إنه يُصرِح، وبدون أي تبرير، بأن الله يتكون من مادة واحدة فقط. يال الاقتصادية في شرح الأسباب، مقارنة بكل الطليونات من الالكترونات المختلفة التي بشكلٍ ما أصبحت متشابهة!

> " التوحيد يقول بوجود كل العناصر وسبب وجودها واستمرارها في البقاء هو عنصر واحد فقط، الله. ويقول بأن كُل صفة لأي عنصر هي بسبب أو بإرادة الله. تلك علامة لبساطة الشرح لمسلَّمة تعدد الأسباب. وبذلك فلا يُمكن أن يوجد شرح أبسط من الذي يُسلم بالسبب الأوحد. الإيمان بإله واحد أبسط من الإيمان بعدة آلهة. والتوحيد يشرح كل الأسباب من خلال سببه الوحيد، شخص وحيد مع قدرة لانهائية (الله يستطيع فعل أي شيء منطقي)، وعِلمٌ لانَهائي (الله يعرف كُل مايمكن أن يُعرف منطقياً)، وحرية لانهائية".

يتكرم سوينبورن بالاعتراف بأن الله لا يستطيع القيام بالأشياء المستحيلة منطقياً، وهنا يشعر الإنسان بالامتنان لهذا الامتناع. بعد قولنا هذا، فإنه ليست هُناكَ أي حدود لاستعمالات تفسيرية تستجلب قدرة الله اللانهائية. هل يواجه العلم صعوبة في تفسير (س)؟ لا مشكلة. لا تهتم بـ (س). قوة الله اللامتناهية مجهَّزة لتفسير (س) بسهولةَ (كما هو الحال في أي مسألة أخرى)، والجواب في كل الأحوال "بسيط" لأنه، وبعد كُل شيء، هُناكَ إلهٌ واحد. ما الذي يمكن أن يكون أبسط من ذلك؟

في الواقع، كُل شيء هو أبسط من ذلك. الإله القادر على المُراقبة والتحكم في كُل جزيئ من الكون باستمرار لا يُمكن أن يكون بسيطاً. وجوده يحتاج لشرح ضخم ليوفيه حقه. ومن وجهة نظر بسيطة فإن الأسوأ من ذلك هو أن الزوايا الأخرى من وعي الإله مشغولة بأعمال وعواطف وصلوات ودعوات كُل إنسان، وربما المخلوقات الفضائية الذكية أيضاً إنْ وُجدت على كواكب أخرى في مجرتنا، أو في المئة مليار مجرة الأخرى. أيضاً، بناءَ على رأي سوينبورن، عليه أن يُقرر بشكل مستمر بأن لا يتدخل بالمعجزات لإنقاذنا عند تعرضنا للسرطان. لن يفعل ذلك أبداً، لأنه، "لو استجاب الله لمعظم دعوات الأقارب ليشفى مريضهم من السرطان، فإن السرطان لن يبقى مشكلة للإنسانية يتوجب حلّها" وعندها فما الذي يجب أن نصرف وقتنا به؟

لا يذهب مُعظم اللاهوتيين بعيداً كسوينبورن. والعجيب بأن فرضية بساطة الإله توجد في العديد من الكتابات الدينية الحديثة. كيث وارد، الذي كان بروفيسوراً للعلوم الدينية في أوكسفورد، كان صريحاً فيما يتعلق بذلك في كتابه عام 1996 "الله، الصدفة والضرورة":

> "المؤمن في الواقع سيدَّعي بأن الله حل أنيق واقتصادي ومُفيد لتفسير وجود الكون. إقتصادي لأنه يعزي الوجود برمته وكُل ما في الكون لشيء واحد هو السبب الأساسي الذي أعطى سبباً لوجود كُل شيء آخر، وحتى ذاته. وأنيق لأنهُ حلٌّ يأتي من فكرة واحدة أساسية، الفكرة عن الكمال التام لشيء ما، وبه يُمكن توضيح كُل طبيعة الإله ووجود الكون. فكرة عن الكائن الأكثر كمالاً في الوجود".

كما كان الحال مع سوينبورن، فإن كيث وارْد أخطأ في معنى شرح الأشياء، ولا يبدو أنه يفهم معنى أن يكون الشيء بسيطاً. ليس من الواضح فيما إذا كان كيث يفكر بحق بأن الله بسيط، أو أن الفقرة السابقة هي مجرد تمرين بسيط مؤقت "لمجرد الجدل". يقتبس جون بو لكنغتهورن، في كتابه "العلم والإيمان المسيحي" عن كيث وارد نقداً لأفكار توماس الأكويني: "إنه لخطأ أساسي أن نفترض أن الله بسيط منطقياً، ليس البسيط بمعنى أنه لا يقبل التقسيم فقط، ولكن بمعنى أكبر بكثير، والذي يعني بأن ما ينطبق على أي جزء من الله ينطبق على كله. وهذا يعني لا محالة بأنهُ غير قابل للتقسيم، وأنه بحد ذاته مُعقد". وفي ذلك فإن كيث وارد محق. بالتأكيد، فإن عالم الأحياء جوليان هكسلي، عام 1912، عرّف التعقيد بلغة "عدم تجانس الأجزاء" وقصد بذلك شكلاً مُحدداً من عدم القابلية للتجزيء وظيفياً[71].

وفي مكان آخر، يعطينا "وارد" أدلة على الصعوبات التي يواجهها العقل الديني في فهم مصدر تعقيد الحياة. يقتبس من عالم مُتدين آخر، الخبير بالكيمياء الحياتية آرثر بيكوك (العضو الثالث من ثلاثي العُلماء الانكليز المُتدينين)، والذي يشرح بأن الوجود في المادة الحية يعود "للنزعة للتعقيد المتزايد". وارد يوصِّف ذلك على أنه "سمة متأصلة للتغيّر التطوري والتي تفضِّل التعقيد". ويمضي ليقترح بأن تحيزاً كهذا "ربما كان سمة متأصلة لعملية التغيّر الوراثي لضمان نشوء المزيد من الطفرات الوراثية المعقدة". كيث وارد يشكك في هذا التفسير، وله كل الحق في ذلك. التطور نحو التعقيد لا يأتي كنتيجة لسمة مُتأصلة نحو التعقيد المتزايد وليس بسبب التحيز في الطفرات الوراثية. بل إنها تأتي من الانتخاب الطبيعي، تلك العملية حسب علمنا حتى الآن ، هي العملية الوحيدة القادرة في النهاية على تفسير نشوء الأنظمة المعقدة من ما هو أبسط منها. نظرية الانتخاب الطبيعي بسيطة وصريحة. وكذلك الأصل الذي بدأت منه. ومن ناحية أخرى، فإن التفسير الذي تقدمهُ لنا عن التعقيد اللامتناهي: أكثر من أي شيء نطمح في تخيله، وبدون إله يحتاج لتصميمها.

استراحة في كامبردج

في مؤتمر عُقدَ في كامبردج عن العلم والدين، طرحتُ وقتها الحجة التي سميتها هنا بالبوينغ 747 الكبرى، وآجهتُ، علَى أقل ما يُمكن أن أصفهُ، بالفشل التام في التقاء العقول بخصوص مسألة بساطة الإله، والتجربة كشفت لي أموراً أحُبّ أن أشارككُم إياها.

في البدء أُريد الإعتراف (أتوقع أنها الكلمة الصحيحة في هذا النطاق) بأن ذلك المؤتمر كان مموّلاً من مؤسسة تمبلتون. والجمهور كان قلّة مُختارة من الصحفيين العلميين في بريطانيا وأمريكا. وكُنت أنا المُتكلم المُلحد بالطبع من بين المتكلمين الثمانية عشر. أحد الصحفيين، جون هورغان، صرّح بأن كُل واحد منهُم حصل على مبلغ مُحترم وقدرهُ 5000 دولاراً لحضور المؤتمر، إضافة لكُل النفقات الأخرى. كان ذلك مفَاجئاً لي. خبرتي الطويلة في المؤتمرات العلمية الأكاديمية لم تتضمن أمثلة من هذا القبيل حيث دُفعَت للجمهور (على عكس المتحدثين) أموال من أجل الحضور. لو عرفتُ بهذا وقتها لثارت لدي الشكوك. هل رشت مؤسسة تمبلتون الصحفيين العلميين وأفسدت أمانتهم العلمية؟ جون هورغان تساءل عن الشيء نفسه وكتبَ مقالاً عن تجربته[72]. فيه كشف، لأسفي الشديد، بأنَّ إدراج اسمي ضمن المتكلمين كان أحد الاسباب الذي ساعدهُ والآخرين على قبول الدعوة:

"عالم الأحياء البريطاني ريتشارد دوكينز، والذي ساعدت مُشاركتهُ في المؤتمر بإقناعنا بشرعيته، كان المُتكلم الوحيد الذي هاجم الاعتقاد الديني واعتبره مُتعارضاً مع العلم ولا عقلاني ومؤذي. المُحاضرون الآخرون، ثلاثة منهم لاأدريون، ويهودي، وألوهي، و أثني عشر مسيحي (فيلسوف مُسلم ألغى اشتراكه في اللحظة الأخيرة) أعطوا وجهات نظر متحيزة للدين والمسيحية".

مقال هورغان متردد بحد ذاته. بالرغم من عيوب المؤتمر، فقد كانت هُناكَ جوانب من التجربة قد قدَّرها بوضوح (وكذلك فعلتُ أنا كما سنرى لاحقاً)، وكتب هورغان:

"حواراتي مع المؤمنين أوضحت لي لماذا بعض الأذكياء والمُثقفين يعتنقون الديانات. أحد الصحفيين ناقش ظاهرة التكلم بالألسنة[1]، وآخر تحدث عن علاقته الحميمة مع المسيح. قناعاتي لم تتغير، ولكن قناعات الآخرين تغيرت. أحد الزملاء أعلنَ على الأقل بأن إيمانه تزعزع بعد تشريح دوكينز للدين. وعندما تتوصل مؤسسة مثل تمبلتون لمسعى يبدو كأنه خطوة صغيرة بإتجاه ما أراه عالم بدون دين، فهل من الممكن أن يكون الوضع أسوأ مما هو عليه؟".

1 . التكلم بالألسنة هي ظاهرة مذكورة في الكتاب المقدس حيث يعتقد أنها هبة إلهية للاشخاص الذين يحل عليهم الروح القدس حيث يبدأون بإصدار أصوات غير مفهومة ولا معنى او رابط لها بأي شيء يذكر وهذه الاصوات يعتقد أنها لغات أجنبية أعطاها الروح القدس لهم كهبة ربانية. (المترجم)

نُشر مقال هورغان ثانية من قبل وكيل الآداب جون بروكمان[1] في موقعه على الانترنت (الموصوف غالباً كصالون علمي على الشبكة) وانتزع ذلك ردود فعل متباينة، أحدها من الفيزيائي النظري فريمان دايسون. وقد أجبتُ على دايسون مُقتبساً من خطاب تقبّله لجائزة تمبلتون. وسواء أعجب دايسون ذلك أو لم يُعجبه، فإن تقبله للجائزة يمكن أن يؤخَذ على أنه دَعم للدين من قِبَل أحد أبرز فيزيائيي العالم. مقالته التي اقتبستها كانت:

"أنا سعيد بأن أكون أحد المسيحيين العديدين الذين لا يهتمون للتلقين عن الثالوث المُقدس أو الأناجيل كحقائق تأريخية".

ولكن، أليس ذلك بالضبط ما سيقوله أي عالم مُلحد لو أراد أن يبدو مسيحياً؟ وقد عرضتُ اقتباسات عديدة من خطاب تقبّلِه للجائزة، وبعثرتُ خلالِها بسَخرية أسئلة تخيلية في رسالة أرسلتها لمسؤولي تمبلتون:

"آه، تريد شيئاً أعمق قليلا؟ مارأيك بـ....

لا أضع فروقاً تميز الإله عن العقل. الإله هو ما يصبحه العقل عندما يجتاز مقاييس فهمنا".

هل قلت ما فيه الكفاية بعد، وهل أستطيع العودة لعمل الفيزياء؟ لا؟ ليس كافياً؟ حسنا ما رأيك بـ...

حتى في التأريخ الدموي للقرن العشرين، فإني أرى بعض الأدلة على نجاح الدين. الشخصان اللذان جسّدا الشر في القرن الحالي، هتلر وستالين، كلاهما كان قد أقرّ بالالحاد"[2].

هل أستطيع الذهاب الآن؟"

بإمكان دايسون بسهولة أن يدحض هذه السطور من خطابه عند قبوله للجائزة وذلك بشرحه، وبوضوح، للأدلة التي وجدها للإيمان بالله وليس بالمعنى الآينشتايني الذي شرحتهُ في الفصل الأول والذي يستطيع جميعُنا تقبله. لو فهمتُ ما يعنيه الصحفي هورغان، فإنه يقصد بأن أموال تمبلتون تفسد العلم. أنا واثق بأن دايسون أرفعُ من أن يُفسد، ولكن خطاب قبوله للجائزة للأسف يبدو وكأنه مثال للآخرين حيث أن جائزة تمبلتون هي أضعاف ما تمَ دفعه للصحفيين في كامبردج، وبشكل مُتعمّد جُعلت كي تكون أكبر من جائزة نوبل حتى أن صديقي الفيلسوف دانييل دينيت مزح معي ذات مرة وقال "ريتشارد، إذا ضاقت بك الظروف..."

---

1. JOHAN BROCKMAN تجده على HTTP//:WWW.EDGE.ORG. (المترجم).

2. هذا الاتهام سأتناوله في الفصل السابع.

على كل حال، حضرتُ يومين من المؤتمر في كامبردج. أعطيتُ محاضرةِ وشاركت في النقاشات لمُحاضرات أخرى. تحدَّيْتُ رجال الدين لإعطائي جواباً عن الإله الذي يمكنه أن يُصمم الكون، أو أي شيَء آخر غير معقَّد والذي يترتب عليه أن يكون أكثر لاإحتمالية بكثير من تصميماته. والجواب الأقوى الذي سمعتهُ هو أنني أحاول إقحام نظرية معرفية بقوة في مجال لاهوتي بعيد عنها[1]. رجَال الدين عرّفوا الله دائماً بالبساطة. فمن أنا كعالمِ طبيعي لأفرض على رجال الدين بأن إلههم عليه أن يكون معقداً؟ إن الحجج العلمية التي أعتدتُ أن أطبَقها على المجال الذي أعمل فيه ليست ملائمة هنا بإعتبار أن رجال الدين يصرون على الدوام بأن الإله يقف خارج نطاق العلم.

لم أحصل على انطباع بأن رجال الدين الذين أتوا بمثل هذا الدفاع المراوِغ كانوا مخادعين مع سبق الإصرار. أنا أعتقد أنهم كانوا صادقين. وعلى الرغم من ذلك، لم أستطع مُقاومة تذكر تعليق بيتر ميداور على كتاب الأب تيلهارد دو شاردان "ظاهرة الإنسان"، التي ربما كانت أكبر نقد سلبي لكتاب في التأريخ: "من المُمكن فهم عدم أمانة الكاتب فقط لأنهُ قد بذل جهداً عظيماً في تضليل نفسه قبَل أن يُضلل الآخرينَ"[73]. رجال الدين الذين قابلتهم في كامبردج وضعوا أنفسهم على مسافة معرفية آمَنة حيث أن جميع الحجج العقلية لا يمكنها الوصول إليهم لأن ما يؤمنون به حسب زعمهم يبقى بعيد المنال. ومَنْ أنا لأقول بأن الدليل العقلاني هو النوع الوحيد الممكن قبوله من الأدلة؟ هُناكَ طرق أخرى للمعرفة إلى جانب الطرق العلمية، وإحدى هذهِ الطُرق هي التي يجب استعمالها لمعرفة الله.

إتَّضَح أنَّ الطريقة الأهم من تلك الطرق الأخرى هي تجربة شخصية مع الله. العديد من المُناقشين في كامبردج زعموا بأن الله تكلمَ معهُم داخل رؤوسهم بشكل واضح تماماً كما لو كان شخصاً آخر. لقد شرحت مواضيع الوهم والهلوسة في الفصل الثالث (الدليل المبني على التجارب الشخصية)، ولكني أضفت نقطتين في كامبردج. الأولى، لو أن الله فعلاً تكلم مع أشخاص، فإن هذا بحد ذاته يؤكد بأن الموضوع لا يقع خارج نطاق العلم. الله يأتي زاعقاً من عالم يقع في مجال آخر حيث يسكُن عادة، ويقتحم عالمنا حيث يكون بالمستطاع فهم رسالته من خلال الدماغ البشري، أتلكَ ظاهرة ليس لها علاقة بالعلم؟ الثاني، الإله القادر على إرسال الملايين من الاشارات المُنفردة في نفس الوقت واستقبال رسائل منهُم في نفس الوقت أيضاً لا يُمكن أن يكون بأي شكل من الأشكال بسيطاً مهما كان. ما هذه السعة على تقبّل الأفكار! ربما أنه لا يملك دماغاً من الخلايا العصبية أو معالِج حاسوب من السليكون، ولكن القوة التي تُعْزى إليه تجعله مُمتلكاً لأشياء مفصّلة ودقيقة، مبهرة وليست عشوائية أبداً، وأعظم كثيراً من أكبر دماغ أو أكبر حاسوب نعرفه.

يعود أصدقائي رجال الدين مرة أخرى للنقطة القائلة بأن هُناكَ سبب لوجود شيء ما بدلاً من العدم. يجب أن يكون هُناكَ سبب أوّلي لكل شيء وهذا السبب يمكننا أن نُسميه الله. جوابي كان، حسناً، ولكن عليه أن يكون بسيطاً، وبالتالي فإن الله ليس إسما مُناسباً (إلا إذا جرّدنا الكلمة من كُل ما يحملهُ إسم "الله" في عقول المؤمنين). والسبب الأول الذي نبحث عنه يجب أن يكون القاعدة البسيطة لتلك الرافعة الذاتية التي أدَّت لرفع العالم تدريجياً لوضعه المعقد الحالي. أما الزعم بأن المحرك الأول لهُ الذكاء الكافي

1 . يذكرنا هذا الاتهام بفرضية غولد عن (الاختصاصات الغير متداخلة) الذي ناقشناه في الفصل الثاني.

لحَبك هذا التصميم الذكي، بغض النظر عن قراءة عقول الملايين معاً وفي نفس الوقت، لهو مساوٍ لأن تعطي نفسكَ الأوراق الصحيحة كاملة عند توزيع ورق اللعب. أنظر حولك في عالم الحياة، غابات الأمازون الغنية بتداخل غاباتها المتسلقة والأوراق العريضة والجذور والفراشات الطائرة وحيوانات التابير وجيوش النمل والنمور وضفدع الأشجار والببغاوات. ما تنظر إليه مساوٍ ليد كاملة في لعبة الورق (فكر بكل الطرق الأخرى لاستبدال أماكن الأعضاء، ليس من أي طريقة أخرى ناجحة) باستثناء أننا نعرف كيف حصل ذلك: باستعمال رافعة الانتخاب الطبيعي بالتدريج. ليس فقط العُلماء هم منْ يثور على التقبل الأخرس للإحتمالية النشوء التلقائي، بل الحس العام أيضاً. واقتراح أن المُسبب الأول المجهول العظيم المسؤول عن الوجود كان قادراً على تصميم الكون والتكلم مع ملايين الأشخاص معاً هو تهرّب صريح من المسؤولية في التقصي والبحث عن شرحٍ مناسب. استخفاف مخيف بالعقل هو هذا الخطّاف السماوي.

أنا لا اقترح هنا نوع من التضييق على التفكير العلمي. ولكن على الأقل بعض الأمانة في السعي للحقيقة والتي يجب وضعها كقاعدة في شرحنا للأمور العظيمة قليلة الاحتمال كغابات الأمازون، وشقوق المُرجان، أو الكون، والقاعدة هي العمل كرافعة من الأسفل إلى الأعلى، وليس بالعكس كخطاف سماوي. الرافعة ليست الانتخاب الطبيعي بالضرورة مع الاعتراف بأن لا أحد جاء بطريقة أفضل، ولكن من الممكن أن تكون هُناكَ نظريات أخرى تنتظر الاكتشاف. ربما أن "التضخم" الذي ينادي به الفيزيائيون والذي حصل في الجزء الصغير جداً من الثانية من بداية الكون ستصبح، حين فهمها بشكل أفضل، الرافعة التي ستقف جنباً إلى جنب مع رافعة داروين في علم الأحياء. أو ربما الرافعة الغامضة التي يبحث عنها الفلكيون ستكون نوعاً شبيهاً للفكرة الداروينية نفسها: نموذج سمولين أو ما شابه، أو ربما سيكون تعدد الأكوان مُقترناً بالمبدأ الإنساني كما في حالة مارتن ريس وآخرين. ربما يكون هُناكَ مصصم خارق، ولكن في هذه الحالة لن يكون بالتأكيد مصمماً أتى فجأة من العدمِ أو مصمِم أزلي. لو كان كوننا مُصمّماً (وهذا ما لا أصدق به ولو للحظة)، فمن باب أولى إذا كان المصمِم يقرأ أفكارنا ويعرف الغيب ويسامح ويصحِح، فإن المصمم نفسه يجب أن يكون نتيجةً لِتراكم العديد من أعمال الروافع والمصاعد، ربما نسخة داروينية في كون آخر.

خندق الدفاع الأخير لدى النقاد في كامبردج كان الهجوم. وتمّ اتهام نظرتي للعالَم بأنها من "القرن التاسع عشر". وتلك حجة سيئة جداً حتى أنني كدتُ لا أذكُرها هُنا. ولكن للأسف فإنني أواجه إجابات كهذه مراراً. لا نحتاج للقول هنا بأن نقد فكرة بوصفها "من القرن التاسع عشر" لا يُعَدَّ شرحاً لما هو الخطأ فيها. بعض أفكار القرن التاسع عشر كانت جيدة جداً، ناهيك عن فكرة داروين الخطرة. وعلى كُل حال، فإن الاتهام بدا خطيراً إذ أنه أتى من شخصٍ ما (عالِم جيولوجيا مميز من كامبردج، سلك طريق فاوست[1] بشكل يضمن له جائزة تمبلتون) والذي برر إيمانهُ المسيحي باستخدام ما أسماه تاريخية العهد الجديد. اللاهوتيون، وخاصة في ألمانيا في القرن التاسع عشر تحديداً، شكّكوا بشكل عميق بتاريخية الإنجيل

1 فاوست أو فاوستوس هو الشخصية الرئيسية في الحكاية الألمانية الشعبية عن الخيميائي الألماني الدكتور يوهان جورج فاوست الذي يُبرم عقداً مع الشيطان يسلم إليه روحه في مقابل الحصول على المعرفة المطلقة وكافة الملذات الدنوية. (المترجم)

المزعومة مستخدمين الطرق المبنية على الأدلة التي يستخدمها علم التاريخ. وقد نوّه رجال الدين لذلك بدون شك في مؤتمر كامبردج.

على كُل حال، إني أعرف هذا التهكّم القديم "من القرن التاسع عشر". إنها أشبه بقصة الاستهزاء "بالمُلحد البسيط". وتماماً أشبه بقصة "على عكس ما يبدو أنك تعتقده هه هه هه نحن لا نؤمن بشيخ كبير ذو لحية بيضاء يسكن السماء هه هه هه". النكت الثلاث عبارة عن رموز لأمور أخرى، تماماً كمصطلح "القانون والنظام" الذي كان الرمز الذي يستخدمه السياسيون لتحاملهم ضد السود عندما كنتُ أعيش في أمريكا في أواخر الستينات. فما هي الرموز وراء مقولة "أفكارَك تنتمي للقرن التاسع عشر" عندما تأتي في سياق الحديث عن الدين؟ إنها تعني "بأنك قاسي وغير لبق، كيف يُمكن لك أن تسألني بدون أي مراعاة لمشاعري وبشكل مباشر سؤالاً مثل:(هل تؤمن بالمعجزات؟) أو (هل تؤمن بأن المسيح وُلِدَ من عذراء؟) ألا تعلم بأننا في مجتمع مؤدب لا نطرح أسئلة كهذه؟ أسئلة كهذه ظهرت في القرن التاسع عشر". ولكن فكر لماذا من غير اللبق أن تطرح سؤالاً مباشراً على المؤمنين اليوم. لأن ذلك مُحرج! لكن في الواقع الإجابة هي المحرجة عندما تكون بـ (نعم).

الصلة بـ "القرن التاسع عشر" أصبحت الآن واضحة. القرن التاسع عشر هو آخر وقت كان يستطيع فيه الشخص المتعلم أن يعترف بإيمانه بالمُعجزات، مثل الحَمْل العذري، بدون إحراجٍ. وعندما يُحْرَجون فإن الكثيرين من المُثقفين المسيحيين مخلصون لدرجة أنهم لا يستطيعون نفي الحمْل العذري أو القيامة. ولكن ذلك يُحرِجهم لأن المنطق العقلي يعرف بأن ذلك غير معقول، ولذلك فإنهم يُفضلون بأن لا يُسألوا. وبهذا، فعندما يُصر شخص مثلي على السؤال، يتم اتهامي بأنني أنتمي لـ "القرن التاسع عشر". وذلك مضحك حقاً عندما تفكر به لبرهة.

تركتُ المؤتمر مُتحفزاً ونشيطاً، وقد ازدادت قناعتي بأن الحجة من لاإحتمالية (البوينغ 747 الكبرى) هي حجة قوية جداً ضد الوجود الإلهي، ولا زلت أنتظر سماع رد مقنع من رجال الدين بالرغم من الدعوات والفُرص العديدة التي كانت تسمح لهم بفعل ذلك. دان دينيت وصف ذلك محقاً بـ "تفنيد غير ممكن ومُدمِر في أيامنا هذه كما كان الوضع قبل قرنين من الزمن عندما كان فيلو يهزم كلينتس في "حوارات" هيوم منذ قرنين. خطّاف سماوي نجح في أن يؤجل حلّ المسألة، وهيوم لم يستطِع التفكير بأي رافعة، ولذلك استسلم"[74]. بالطبع داروين هو الذي اكتشف هذه الرافعة، هيوم كان سيحِبها جداً.

هذا الفصل يحتوي على المبادئ الأساسية في الكتاب، وبهذا، وعذراً للتكرار، سألخّصها في ست نقاط.

1. أعظم التحديات للذكاء الإنساني، وعبر القرون، كان شرح التعقيد الكبير واللاإحتمالية العظيمة التي تظهر في الكون.

2. الإغراء الطبيعي هو أن نعزي كُل ما يبدو مُصمّماً إلى أن يكون مُصمماً بالفعل. وفي حالة المصنوعات الإنسانية الدقيقة كالساعة مثلاً، فإن المُصمِم كان بدون شك مُهندساً ذكياً. ومن المغري تطبيق نفس المنطق على العين والجناح والعنكبوت والإنسان.

3. الإغراء خاطئ، ففرضية المُصمم تُثير فوراً السؤال الأكبر عن مصدر المُصمِّم نفسه. كُل المسألة بدأت من محاولة شرح لاإحتمالية إحصائية. وهذا بوضوح ليس حلاً لأنه يطرح شيئاً لاإحتماليتهُ أكبر. ونحن هنا بحاجة "لرافعة" وليس "لخطاف سماوي" لأن الرافعة وحدها تستطيع العمل بتدرج معقول التصديق من بداية بسيطة لنهاية معقدة ضئيلة الاحتمال.

4. الرافعة الأبدع والأقوى حتى الآن هي التطور الدارويني بالانتخاب الطبيعي. داروين ومن خَلَفَهُ شرحوا لنا كيف أن الأحياء بالرغم من لاإحتماليتهم الكبيرة والانطباع الذي يُعطونه عن التصميم إلا أنهم تطوروا ببطء وبشكل تدريجي من بدايات بسيطة. وبإمكاننا القول الآن باطمئنان أنَّ وهم التصميم في الكائنات الحية لا يعدو أكثر من ذلك - مجرد وهم.

5. حتى الآن ليس لدينا رافعة مُماثلة للفيزياء. وشيء ما كنظرية الأكوان المُتعددة يُمكنها من حيث المبدأ أن تعمل في الفيزياء ما عَملته الداروينية في علم الأحياء. شرحٌ من هذا النوع هو سطحياً أقل إرضاءً من قرينه الدارويني الطبيعي لأنه يتطلب كمية أكبر من الحظ. ولكن المبدأ الإنساني يخول لنا أن نفترض حظًا أكبر بكثير مما يخوله الحدس البشري المحدود الذي نتمتع به.

6. لا يجب أن نفقد الأمل في إيجاد رافعة أفضل للفيزياء، شيء ما بقوة الداروينية في علم الأحياء. ولكن حتى في غياب رافعة قوية مرضية لتطابق الرافعة البيولوجية فإنه من الواضح أنَّ وجود الروافع الضعيفة الحالية، بدعمها من المبدأ الإنساني، أفضل بكثير من نظرية الخطّاف السماوي الذي يناقض نفسه حول موضوع التصميم الذكي.

إن قُبِلَت الحجج المطروحة في هذا الفصل، فإن المسلَّمة الواقعية للدين وفرضية الإله لن تصمد. الاحتمال الأكبر هو أن الله غير موجود. هذه هي النتيجة النهائية لهذا الكتاب حتى الآن. ما سيأتي سيكون بضعاً من الأسئلة والإجابات. حتى لو قبلنا بعدم وجود الله ألا يجب علينا الاعتراف بأن للدين فوائد أخرى؟ ألا يعطي مواساةً في المصاعب؟ ألا يدفع الناس لفعل الخير؟ وكيف سَنعرف ما هو الخير بدون الدين؟ لماذا المُعاداة للدين على أية حال؟ ولماذا هو خاطِئ؟ أليس الدين موجوداً في كُل الحضارات في كل العالم؟ صح أو خطأ، فإن الدين موجود في كُل مكان، من أين أتى إذن؟ وهذا السؤال الأخير هو موضوعنا التالي.

الفصل الخامس

جذور الدين

بالنسبة لعالم نفس تطوّري، فإن تلك المبالغة في الطقوس الدينية وكل ما تعنيه من مضيعة للوقت والمصادر والألم والحرمان، تبدو واضحة تماماً كمؤخرة القرد بأن الاديان قابلة للتكيّف.

مارك كوهن

الضرورة الداروينية

كلٌ منا عندهُ نظريتهُ الخاصة عن مصدر الدين وسبب وجوده في كُل حضارة إنسانية. إنهُ يوفر العزاء والراحَة. إنه يُغذي روح الجماعة. يرضي حنيننا لمعرفة سبب وجودنا. سآتي لشرح ذلك لاحقاً، ولكنني أُريد أن أبدأ بسؤال، سؤال يسبق الأسئلة الأخرى لأسباب سنراها لاحقاً: سؤال دارويني عن الانتخاب الطبيعي.

نظراً لمعرفتنا بأننا نتاج للتطوّر الدارويني، يجب علينا أن نسأل عن الضغوطات التي مارسها الانتخاب الطبيعي من البداية والتي خدمت النزعة الدينية. سؤال يكتسب أهميته الفائقة نظراً للمعيار الاساسي في الداروينية وهو الاقتصاد بالمصادر. الدين مُبذِّر جداً وشديد الإسراف، والانتخاب الدارويني بطبيعته يستهدف ويلغي التبذير. الطبيعة كالمُحاسب البخيل الممسك بقوة بقروشه، يراقب الساعة ويُعاقب أدنى تبذير. بدون رحمة وبدون توقُّف "يقوم الانتخاب الطبيعي، كما يشرح داروين، كل ساعة يومياً، وفي كل مكان في العالم، بتفحّص كل التغيّرات حتى أدقَّها؛ يرفض كل ما هو سيء، يحفظ ويزيد كل ما هو جيد، يعمل بصمت وبدون اكتراث وكُلما سنحت الفرصة لتحسين كُل كائن عضوي حي". إذا مارس حيوان ما بشكل اعتيادي نشاطاً معيناً بدون فائدة، فإن الانتخاب الطبيعي سيخدم منافسيه الذين يكرسون وقتهم وجهدهم لأجل البقاء والتكاثر. الطبيعة لا تملك مساحة لـ "بهجة روح" طائشة. النفعية العديمة الرحمة تنتصر حتى ولو بدا لنا ذلك مختلفاً في بعض الأحيان.

من النظرة الأولى لذيل الطاووس نرى بأنه بهجة روح مُسرفة بامتياز. من المؤكَّد أنه لا يخدم أي منفعة بقائية لصاحبه، ولكنهُ يفيد المورِّثات التي تجعلهُ مُميّزاً عن منافسيه الأقل جمالية. الذيل أشبه بحملة دعائية تضمن لصاحبها مكانهُ في سوق الطبيعة من خلال جذب الإناث. والشيء ذاته ينطبق على العمل والوقت الذي يكرسه ذكر طائر الباور[1] لبناء كوخه: نوع من الذيل الخارجي مبني من الأعشاب والأغصان، وأنواعٍ من التوت الملونة والزهور، وفي بعض الأحيان يضيف الخرز وقطع الزجاج وأشياء أخرى إن توفَّرت. إن أردنا أن نختار مثالاً آخر لا يحتوي على الدعاية فهناك "التنميل"، عادة غريبة عند الطيور كطائر الزاغة وذلك بالاستحمام في عش النمل، وبمعنى آخر إدخال النمل في ريشهم. لا أحد يعرف بالضبط الغاية من التنميل، ربما للنظافة وللتخلص من الطفيليات في الريش، هُناكَ العديد من الفرضيات ولكن بدون أدلة قوية تدعم أياً منها. ولكن الحيرة فيما يتعلق بالتفاصيل لن تقف داروينياً، وليس من المفروض أن تفعل، لن توقفه عن الافتراض وبثقة عالية بأن التنميل يجب أن يكون لهدف ما. في هذه الحالة ربما يوافق هذا

1 . أحد أنواع الطيور الموجودة حصرياً في أستراليا وغينيا الجديدة، أسمهُ العلمي (Chlamydera maculatas). (المترجم).

التفكير المنطق العام، ولكن الداروينية لها سبب خاص للتفكير بأن الطير إن لم يفعل ذلك، فإن الاحتمالات الاحصائية لفرص نجاحه الجيني ستنخفض، حتى وإن كُنا لا نعرف بعد سبب هذا الانخفاض وطريقته. النتيجة مستخلصة من البناء المزدوج للانتخاب الطبيعي الذي يعاقب الإسراف في الوقت والطاقة وملاحظة أن الطيور تكرس دائماً الوقت والطاقة للتنميل. ولو أن هُناكَ عبارة واحدة تبين بشكل عام "مبدأ التكيف" هذا، فإنه قد عُبِرَ عنه بشكل متطرف ومبالغ به من قِبَل عالم المورثات في هارفارد، ريتشارد لونْتِن: "النقطة التي يوافِق عليها كُل التطوّريون في رأيي هي أنه من المستحيل أن نؤدي عملاً أفضل من الذي يفعله كائن حي ما في بيئته الخاصة"[75]. إن لم يكن التنميل مفيداً بشكل إيجابي للبقاء والتكاثر، فإن الانتخاب الطبيعي كان سيفضل الأفراد الذين توقفوا عن فعل ذلك من زمن طويل. ربما يغري ذلك داروينياً لأن يقول الشيء ذاته فيما يتعلق بالدين؛ من هنا كانت الحاجة لهذا النقاش.

بالنسبة لأي تطوري، تبدو الطقوس الدينية كذيل الطاووس في ساحة مشمسة (التعبير مأخوذ من دانيال دينيت). السلوك الديني بشكل عام هو النظير الإنساني للتنميل أو بناء الكوخ للطيور. مستهلكٌ للوقت والطاقة، وغالباً لزخرفة مفرطة كما في حالة ريش طيور الجنة. بإمكان الدين أن يُشكل خطراً على حياة الفرد المتدين كما على حياة الآخرين. الآلاف عُذِّبوا بسبب ولائهم لدين ما وأُضطُهِدوا من قِبَل مُتعَصبين ممن ينتمون لاعتقاد مغاير بشكل طفيف. الدين يلتهم المصادر الإنسانية وأحياناً على درجة هائلة. كاتدرائية من العصور الوسطى، ربما استهلكت مئة رجل خلال قرن من الزمن لبنائها، لم تُستخدم كمسكن أبداً، أو لأي سبب آخر مفيد يمكننا معرفته. هل هذه عمارة من قَبيل ذيل الطاووس؟ إن كانت الإجابة نعم، فمن هو المقصود بالدعاية هنا؟ موسيقى مقدسة ورسوم دينية احتكرت مواهب العصور الوسطى وعصر النهضة. المُتعبدون قُتلوا في سبيل آلهتهم، وقَتَلوا آخرين من أجلهم، وأدْموا ظهورهم بالسياط، وأقسموا أن يعيشوا البتولية أو في عزلة أو صمت،وكُل ذلك من أجل الدين. لِمَ كُل ذلك؟ ما فائدة الدين؟

"الفائدة" هنا تعني داروينياً زيادة قدرة جينات الفرد على البقاء. ما هو مفقود في هذه النقطة الهامة هو أن الفائدة الداروينية ليست محصورة بجينات كائن فردي. هُناكَ ثلاثة أهداف بديلة ممكنة للفائدة. الأول يأتي من نظرية الانتخاب الجمعي، وسآتي لذلك لاحقاً. الثاني يأتي من نظرية كنت قد دافعتُ عنها في كتابي "النمط الظاهري الموسع": الفرد الذي تشاهده ربما يكون خاضعاً في تصرفاته لتأثير جينات متلاعبة موجودة في كائن آخر، ربما كائن طفيلي. دان دينيت يذكِّرنا بأن الرَشْحَ هو ظاهرة عالمية كما هو التدين تماماً، ولا نستطيع الادعاء أبداً بأن الرشح مُفيد لنا. هُناكَ العديد من الأمثلة عن حيوانات تتلاعب بتصرفاتها بتلك الطريقة ليستفيد كائن آخر طفيلي بداخلها وينتقل لمُضيف جديد. لقد شرحت هذه الظاهرة في نظريتي عن "النظرية المركزية للنمط الظاهري الممتد": "تَصَرّف الحيوان يهدف لزيادة فرص البقاء للجينات المتحكمة بهذا التصرف إلى الحد الأقصى، سواء كانت تلك الجينات تعود لجسد الحيوان الذي ينفذ التصرف أم لا".

ثالثاً، يمكن لـ "النظرية المركزية" أن تستبدل "الجينات" بالتعبير الأكثر عمومية "الناسخات". واقع وجود الدين في كُل مكان رُبما يعني بأنه ذات فائدة في شيء ما، ولكن ربما لا نكون نحن المستفيدين أو جيناتنا.

رُبما كانت الفائدة فقط للأفكار الدينية ذاتها إلى الحد الذي تتصرف فيه تلك الأفكار كناسخات بشكل شبيه لعمل الجينات. وسآتي لذلك لاحقاً تحت عنوان "تقدَّم بهدوء لأنك تدوس على ميماتي". في هذه الأثناء، سأتابع أكثر التفسيرات تقليدية للداروينية التي فيها كلمة "فائدة" يُفْتَرَض أن تعني فائدة لبقاء الفرد وتكاثره.

الصيادون القاطفون كما الحال في القبائل الأوسترالية الأصلية، يعيشون بطريقة أقرب ما تكون لطريقة أسلافنا الأقدمين. الفيلسوف الأوسترالي النيوزيلاندي كيم ستيرينلي يشير لتناقض درامي حادّ في حياتهم. من جهة فإن السكان الأصليين لديهم مهارات فائقة للبقاء تحت تلك الشروط التي تتحدى مهاراتهم لأقصى الحدود. ولكن، من جهة أخرى، يكمل ستيرينلي، بالرغم من أننا مخلوقات ذكية إلا أننا نستخدم ذكاءنا بشكل خاطئ. نفس المجموعات البشرية البارعة في الطبيعة وكيفية العيش والبقاء في البيئة حولها تملأ عقولها بمعتقدات خاطئة تماماً بدون أدنى شك، وكلمة "عديمة الفائدة" وصفٌ خفيف لها. السكان الأصليون لبابوا في غينيا الجديدة مألوفون بالنسبة لستيرينلي. تعايشوا وبقوا تحت ظروف قاهرة حيث الطعام صعب المنال وذلك بواسطة "تفهُّم أسطوري دقيق للبيئة البيولوجية المحيطة بهم. ولكنهم دمجوا ذلك التفهم بهاجس عميق ومدمر عن دنس حيض النساء، وعن السحر. الكثير من الحضارات المحلية يعذبها الخوف من السحر والعنف الذي يصاحب تلك المخاوف". ستيرينلي يتحدانا لتفسير " كيف يمكن أن نكون أذكياء جداً، وفي الوقت نفسه أغبياء جداً"[76].

مع أن التفاصيل تختلف عبر العالم، ولكن ليس هُناكَ حضارة معروفة ليس فيها نسخة من الطقوس المُستهلكة للوقت والصحة، ومُثيرة للعداوة والتهيؤات المُخالفة للواقع. ربما بعض الأفراد المُثقفين أهملوا الدين، ولكن الجميع تربى في حضارة دينية وكان عليهم في وقت ما أن يتخذوا قراراً واعياً لتركه. والنكته الإيرلندية الشمالية، "نعم، ولكن هل أنتَ مُلحد كاثوليكي أم مُلحد بروتستاني؟" تصرخ بمرارة الحقيقة. التصرف الديني يمكن أن يطلق عليه لقب "عالَمي" بنفس الشكلَ الذي نستطيع أن نُسمي به التصرف الجنسي المتباين. كلاهما تعميم يسمح بإستثناءات فردية، ولكن كل تلك الاستنثناءات تفهم جيداً القواعد التي تركتها. الملامح العالمية لصنفٍ ما تتطلب تفسيراً داروينيا.

من الواضح أنه ليس هُناكَ أي صعوبة في تفسير الفائدة الداروينية للتصرف الجنسي. الهدف هو إنجاب الذرية، وحتى في حال المِثْلية أو استعمال مانعات الحمل التي يبدو أنها تناقض ذلك. ولكن ماذا عن التصرف الديني؟ لماذا يصوم الإنسان ويسجد ويركع ويضرب نفسه بالسوط ويومئ برأسه بشكل جنوني أمام حائط ويتطوّع في الحروب الدينية أو في حالات أخرى ينغمس في تصرفات مكلفة قد تستهلك موارده المهمة لحياته وفي أسوأ الحالات تنهيها؟

فوائد مباشرة للدين

هناك القليل من الأدلة بأن الإيمان الديني يؤمّن بعض الحماية من الأمراض الناتجة عن الضغط النفسي. الأدلة ليست قوية، ولكن لن يكون أمراً مفاجئاً إن كانت صحيحة، وذلك لنفس السبب أن التداوي من خلال التبرّك[1] ربما كان مفيداً في بعض الحالات. أتمنى لو لم يكن من الضروري إضافة أن حدوث فوائد كهذه لا يعني بأنها تدعم أن مزاعم الدين حقيقية. وبكلمات برناردشو "الواقع بأن المُتدين هو أسعد من المتشَكّك لا يعني أكثر منْ واقع أنَّ السكران أسعد من الصاحي".

إن جزءاً مما يقدمه الطبيب للمريض هو العزاء والاطمئنان. لا يُمكن أن نُهمل ذلك أبداً. الطبيب الذي أزوره أنا لا يمارس التداوي بالتبرّك بشكل حرفي بوضع يده عليّ. ولكنني في كثير من الأحيان أشعر وكأني "شُفيت" مباشرة من بعض الأمور البسيطة بمجرد الشعور بالاطمئنان لصوت يخرج من وجه ذكي عليه سماعة طبية. تأثير العلاج الوهمي موثّق ومدروس بشكلٍ جيد وهو ليس حتى باللغز. الحبوب الزائفة هي حبوب بدون أي محتويات صيدلانية فعّالة، لها رد فعل إيجابي على الصحة في بعض الأحيان. ولذلك فإن تجارب الأدوية يجب أن تكون عمياء وتستعمل أدوية وهمية للمقارَنة. كذلك فإن العلاجات المثلية[2] تبدو وكأنها فعّالة، على الرغم من أن العناصر فيها مخفّفة جداً بشكل كبير بحيث أن المواد الفعالة توَجد بكميات مساوية للأدوية الوهمية. وقد سبّب ذلك للأسف مشكلة جانبية عند تدخل المحامين باختصاص الأطباء حيث أن الطبيب أصبح خائفاً من أن يكتب أدوية وهمية بشكل أو بآخر، أو أن البيروقراطية قد تفرض عليهم أن يدونوا الدواء ذا الطابع الوهمي في عبارة يستطيع المريض قراءتها إذا أراد، وبهذا طبعاً يفقد العلاج مفعوله. المعالجون بالمثْلية ربما يحققون بعض النجاح لأنهم، بعكس الطب التقليدي، لا زال مسموحاً لهم استعمال الدواء الوهمي تحت أسماء أخرى. وأيضاً العاملون في هذا المجال لديهم قدر أكبر من الوقت يخصصونه للكلام مع المريض وملاطفته. في الأيام الأولى من تاريخها الطويل، تحسّنت سمعة المعالجة المثلية (الهوميوباتي) بشكل غير مقصود لأن علاجاتها لم تؤدِّ لأي مفعول على الإطلاق، على العكس من الطب التقليدي في ذلك الزمن كالفَصْد (أو إراقة الدم)، والذي يسبب أذى فعلي.

هل الدين هو تلك الحبة الوهمية التي تطيل الحياة بواسطة تخفيف التوتر النفسي؟ ربّما كان كذلك، لكن هذه الفرضية عليها أن تصمد بوجه العديد من المُشككين الذين يشيرون إلى العديد من الحالات حيث يظهر الدين هو السبب للتوتر النفسي بدل أن يكون المُخفف له. إنهُ لمن الصعب التصديق بأن صحة المريض تتحسن عند الشعور بالذنب بشكل شبه متواصل، وهذا ما يعانيه شخص ذو ضعف إنساني عادي وبمستوى ذكاء تحت المتوسط ينتمي لطائفة الروم الكاثوليك. ربّما أنه ليس من العدل أن نختار الكاثوليكية فقط. الكوميدية الأمريكية كاثي لاندمان لاحظت أن "كل الأديان مُتماثلة، فهي بالمبدأ شعور

---

1. التداوي بالتبرك هو الايمان البدائي بأن شخصاً ما غالباً رجل دين أو مكان ما يملك قدرات سحرية في علاج المرضى من خلال اللمس باليد او ترديد بعض الادعية أو الآيات الدينية. من الامثلة المعروفة في الشرق الاوسط هي الطب النبوي الإسلامي او الطب المسيحي في بعض الكنائس بزيت الميرون. (المترجم)

2. العلاجات المثْلية (HOMEOPATHIC REMEDIES) هي معالجة الداء بإعطاء المُصاب جرعاتِ جرعات صغيرة جداً من مواد طبيعية لو أُعْطِيَت لشخص سليم بجرعات عادية لأحدثت عنده مثل أعراض المرض المُعالَج. (المحرر)

بالذنب مع أيام عُطلٍ مختلفة". على كُل حال، أجد أن نظرية العلاج الوهمي ليست كافية لتفسير الانتشار الواسع للأديان عبر العالم. ولا أظن أن سبب وجود الدين اليوم هو أن الدين قد خفَّف التوتر العصبي عن أسلافنا. تلك النظرية ليست صالحة للتفسير على الرغم أن ذلك ربما يكون قد لعب دوراً ثانوياً. الدين ظاهرة واسعة ويلزمها نظرية واسعة لتفسيرها.

النظريات الأخرى تفشل في فهم وجهة النظر الداروينية بشكل كامل. وأتكلم هنا عن اقتراحات مثل "الدين يُشبع فضولنا عن الكون ومكاننا فيه" أو "الدين يعطينا العزاء". ربِما هُنالكَ بعض الحقائق النفسية، كما سنرى في الفصل العاشر، ولكنها لا تحتوي في مضمونها شرحاً داروينياً. كما قال ستيفن بينكر عن نظرية المواساة في كتابه "كيف يعمل العقل": "إنها تثير فقط السؤال لماذا يتطور العقل ليجد راحة في تفسير يرى خطأهُ بوضوح. الشخص المُتجمد من البرد لا يجد راحة في التفكير بأنه دافئ والشخص الذي يواجه أسداً وجهاً لوجه لن يطمئنه الاقتناع بأنه يقف أمام أرنب". وعلى الأقل تحتاج نظرية المواساة لترجمة باللغة الداروينية، وذلك أصعب مما يتصور البعض. التفسيرات النفسية بمعنى أنَّ بعض الناس يجدون ديناً ما مريحاً لهم أو غير مريح هي تفسيرات مباشرة وليست نهائية.

الداروينية تضع تمييزاً أكثر بين المباشر والنهائي. التفسير المباشر للانفجار في محركات الاحتراق الداخلي مثلاً يرجع السبب لشرارة الاحتراق. التفسير النهائي يهتم بالغرض الذي صُمِم الانفجار لأجله: لدفع المكبس من الأسطوانة، وبالتالي تدوير ساعد المحور الرئيسي. السبب المباشر للدين ربما كان نتيجة نشاط مفرط في قسم ما من الدماغ. ولن أتطرق للفكرة التي تقول بوجود "مركز الإله" في الدماغ لأنني لست معنياً بالأسئلة المباشرة، وذلك ليس للتقليل من شأنها. أوصي بكتاب مايكل شيرمر، "كيف نؤمن: البحث عن الإله في عصر العلم"، للحصول على نقاش موجز، والذي يحتوي على مقترحات من مايكل بيرسنغر وآخرون بأن حالات الرؤى الدينية تتعلق بما يسمى صرع الفص الصّدغي.

ولكن شغلي الشاغل في هذا الفصل هو التفسير الدارويني النهائي لهذه الظاهرة. لو وجد عُلماء الأعصاب "مركز الإله" في المخ، فإن عُلماء الداروينية مثلي يريدون أن يفهموا سبب تفضيل الانتخاب الطبيعي لذلك. لماذا نجح أسلافنا الذين كانت لديهم جينات تسعى لتطوير مركز الإله في الدماغ في البقاء وامتلاك أحفاد أكثر من الذين لم يكن لديهم هذا المركز؟ السؤال الدارويني النهائي ليس سؤالاً أفضل، وليس أساسياً أكثر، وليس علمياً أكثر من السؤال المباشر المُختص بالأعصاب. لكنه فقط السؤال الذي أتكلم عنه هنا.

ولا تكتفي الداروينية بالتفسيرات السياسية، مثل "الدين وسيلة استخدمتها الطبقة الحاكمة لإخضاع الطبقات الدنيا". من المؤكد أن العبيد السود في أمريكا قد تواسوا بالحياة الآخرة والتي قلَّلت من عدم رضاهم بهذه الحياة، وبالتالي أفادت مالكيهم. السؤال عما إذا كان الدين قد صُمِمَ من قبل رجال دين أو حكام مُتهكِّمين لهو سؤال مهم، ويجب أن يجيب عنه عُلماء التأريخ. ولكنه ليس سؤالاً داروينياً بذاته. الدارويني يريد أن يعرف ما سبب ضعف الإنسان أمام الجاذبية الدينية مما يجعلهُ مُعرضاً للاستغلال من قِبَل الحكام ورجال الدين والملوك.

ربما يستغل متلاعب ساخر الرغبة الجنسية لأجل النفوذ السياسي، ولكننا نظل بحاجة للتفسير الداروينى عن سبب عملها. في حالة الرغبة الجنسية، الجواب سهل: تم إعداد أدمغتنا للاستمتاع بالجنس لأن الجنس، في الحالة الطبيعية، يؤدي للأطفال. أو ربما يستخدم سياسي إستغلالي التعذيب لتحقيق أهدافه. ومرة أخرى، التفسير الدارويني يزودنا بالشرح عن فعالية التعذيب، ولماذا نحن مستعدون لفعل أي شيء لتفادي الألم المبرح. ومرة أخرى يبدو ذلك واضحاً لدرجة السخافة، ولكن الداروينية تحتاج لتهجئة الإجابة: لقد وضع الانتخاب الطبيعي فهماً للألم باعتباره علامة ضرر جسدي قد تهدد الحياة، وبرمجنا لتفادي ذلك. الحالات النادرة من الأفراد الذين لا يستطيعون أن يشعروا بالالم، أو لايهتمون به، عادة يموتون في سن مبكر نتيجة إصابات من النوع الذي نحاول نحن تفاديه. ما الذي يفسر بشكل نهائي الرغبة الشديدة في الآلهة؟ سواء استغلت لأهداف معينة أو ظهرت بشكل عفوي.

الإنتخاب الجماعي

بعض التفاسير المزعوم أنها نهائية إتضح، أو قيل عنها، إنها نظريات "الانتخاب الجماعي". الانتخاب الجماعي هي فكرة جدلية تقول بأن الانتخاب الدارويني يختار فيما بين الأنواع أو بين مجموعات أخرى من الأفراد. عالم الآثار كولن رينفرو من كامبردج يقترح بأن المسيحية استمرت على قيد الحياة من خلال شكل من الانتخاب لمجموعة لأنها غذت فكرة الولاء والمحبة الأخوية داخل المجموعة، وذلك ساعد المجموعات المتدينة على البقاء على حساب المجموعات الأقل تديناً. داعية الانتخاب الجماعي الأمريكي دي اس ويلسون طور اقتراحاً مماثلاً بشكل مستقل وبشرح مطول أكثر في كتابه "كاتدرائية داروين".

وإليكم مثالاً مبتدعاً لشرح ماهية عمل نظرية الانتخاب الجماعي. قبيلة تؤمن بإله مولع بالقتال بشكل مثير "إله الحرب" تربح ضد قبيلة إلهها يحض على السلام والانسجام، أو ضد قبيلة ليس لديها إله على الإطلاق. المحاربون المؤمنون بأن الشهادة سترسلهم للجنة يحاربون بشجاعة ويضحون بحياتهم. وبذلك فإن قبيلة تمتلك هذا النوع من التدين مرجحة للبقاء في الحروب الداخلية بين القبائل حيث يسرقون مواشي القبيلة المغلوبة ويأسرون نساءها كجواري. قبيلة ناجحة بهذا الشكل المنتج سوف تلد قبائل مماثلة، وهذه القبائل بدورها ستلد قبائل مماثلة لها، والجميع يعبدون نفس إله الحرب. بالمناسبة، فكرة أن مجموعة رئيسية تلد مجموعات أخرى أشبه بخلية نحل تنشأ منشقة عن الخلية الأم هي ليست فكرة غير قابلة للتصديق. العالم الإنساني نابليون شانيون وثق تماماً إنشطارات كهذه لقرى في دارسته الشهيرة "أناس عنيفون" عن قبائل اليانومامو في أدغال أمريكا الجنوبية[77].

شانيون ليس من مؤيدي نظرية الانتخاب الجماعي، ولا أنا. هُناكَ اعتراضات هائلة تواجهها. وكأحد المشاركين في الجدل، يجب أن أتوخَّى الحذر في الخوض في مناقشة هذه النظرية بعيداً عن المسار الأساسي لهذا الكتاب. بعض علماء الأحياء لديهم التباس بين الانتخاب الجماعي الحقيقي، كما هو الحال في مثالي الافتراضي عن إله الحرب، وشيء آخر يدعونه الانتخاب الجماعي الذي اتَّضح بعد التحري عن قُرب أنه شكل من انتخاب الأقارب أو الإيثار المتبادَل (أنظر الفصل السادس).

الذين يقلِّلون من شأن الانتخاب الجماعي منّا يُقرّون أنه بالمبدأ مُمكن الحصول. والسؤال هو إذا ما كان يرقى لأن يكون قوة ذات أهمية في التطوّر. عندما يتمّ وضع الانتخاب الجماعي مقابل الانتخاب على مستوى الأفراد - كما هو الحال عندما نحاول أن نستخدم الانتخاب الجماعي لتفسير ظاهرة التضحية بالنفس عند الفرد - فإن الانتخاب على مستوى الأفراد سيكون أقوى على الأرجح. وفي قبيلتنا المُفترضة، تخيّل مُقاتلاً أنانياً في جيش يغلب فيه وجود الفدائيين المُتحمسين للموت من أجل القبيلة والمُكافأة السماوية. فرصته ستكون أفضل قليلاً لأن ينتهي في طرف الفائزين كنتيجة لكونه تعمّد التأخر عن المعركة للنجاة بجلده. واستشهاد رفاقه سيفيده أكثر مما يفيد أي واحد منهم على حدا، لأنهم سيكونون موتى. وستكون لديه الفرصة أفضل منهم للإنجاب، وجيناته الرافضة للاستشهاد ستنتشر على الأرجح للجيل اللاحق. وبذلك ستنخفض الميول الاستشهادية في الأجيال اللاحقة.

هذا كان نموذجاً مُصغَّراً، لكنه يلقي الضوء على مُشكلة أزلية في موضوع الانتخاب الجماعي. الانتخاب الجماعي كنظرية تفسر التضحية بالنفس لدى الفرد هي عرضة دائماً لفتنة داخلية. موت الأفراد والإنجاب يحصلان بزمن أسرع من الانقراض الجماعي والانشطارات. وبالإمكان وضع نموذج رياضي للحصول على الشروط الخاصة والتي تحت تأثيرها يمكن أن يكون الانتخاب الجماعي قوياً من الناحية التطورية. هذه الشروط الخاصة بشكل عام غير واقعية بطبيعتها، ولكن من المُمكن المُحاججة بأن الأديان في الجماعات الإنسانية القبلية تُنتج تماماً ظروفاً خاصة غير واقعية كهذه. تلك نظرية مُثيرة، ولكنني لن أتابعها فيما عدا الاعتراف بأن داروين نفسه، برغم أنه عادة مُحامي مخلص للانتخاب على مستوى الكائن الحي الفردي، قد اقترب، كما لم يقترب من قبل، من الانتخاب الجماعي في مناقشته عن القبائل الإنسانية:

> "عندما تحصل منافسة بين قبيلتين بدائيتين تعيشان على نفس الارض، فإذا احتوت إحداهما على عدد أكبر من الأفراد الشجعان والمتآلفين والمخلصين الذين هم على استعداد لتحذير بعضهم من الخطر ومساعدة بعضهم والدفاع عن بعضهم البعض (مع تساوي باقي الشروط بين القبيلتين) فإن هذه القبيلة ستحقق نجاحاً أفضل دون شك وتستولي على القبيلة الأخرى... الأشخاص الأنانيون والكثيروا الخصام لا يُمكن أن يتماسكوا، وبدون تماسك لا شيء يتحقق. القبيلة التي تملك المواصفات المذكورة بدرجة كبيرة ستنتشر وتنتصر على القبائل الأخرى، ولكن طبعاً مع الوقت، وبالحكم من كُل التجارب في التاريخ الماضي، فهي أيضاً سيأتي دورها لتقع ضحية لقبيلة أخرى تمتلك تلك المواصفات بدرجة أعلى"[78].

ولإرضاء أي اختصاصي في العلوم الطبيعية ربما يقرأ ما تقدَّم، عليّ أن أضيف إن فكرة داروين ليست عن الانتخاب الجماعي بشكل صارم، بالمعنى الحقيقي لمجموعات ناجحة تلد جماعات يُمكن اعتبار تواترها بمثابة مجموعات سكانية. بل إن داروين تصوّر كيف أن القبائل التي تتعاون بالإيثار تنتشر ويزيد عدد أفرادها. نموذج داروين يشبه أكثر انتشار السنجاب الرمادي في بريطانيا على حساب السنجاب الأحمر: إستبدال طبيعي وليس انتخاباً جماعياً حقيقياً.

الدين كناتج عَرَضي لشيء آخر

على أية حال، لنضع الآن جانباً الانتخاب الجماعي ولنبحث في وجهة نظري الخاصة عن قيمة البقاء الداروينية للدين. أنا أحد علماء الأحياء المتزايد عددهم من الذين يرون الدين كناتج عَرَضي لشيء آخر. بشكل عام أعتقد بأنهُ نحن الذين نتفكَّر في قيمة البقاء الدارويني نحتاج للتفكير بـ "الناتج العَرَضي". عندما نسأل عن قيمة البقاء لظاهرة ما فربما نحن نطرح السؤال بصورة خاطئة. نحتاج لإعادة كتابة السؤال بطريقة أكثر وضوحاً. رُبما تكون المادة التي تهمّنا (الدين في هذه الحالة) ليس لهُ قيمة مباشرة للبقاء، ولكنهُ ناتج عرضي لشيء آخر له قيمة. ولتوضيح المسألة بصورة أدقّ سأضرب مثلاً من حقل اختصاصي في سلوك الحيوان.

حشرة العثّ[1] تطير باتجاه لهب الشمعة ولا يبدو ذلك من قبيل الصدفة. بل يبدو وكأن تلك الحشرات تُجاهد كي تكون ضحية تلك المحرقة. بإمكاننا أن نُسمي ذلك "سلوكاً انتحارياً"، وتحت هذا الاسم المثير نتساءل عن كيفية تفضيل الانتخاب الطبيعي لسلوك كهذا. النقطة التي أو التنويه لها هي أنه علينا أن نعيد كتابة السؤال حتى قبل محاولة التفكير بإجابة ذكية. هذا ليس انتحاراً. ما يبدو انتحاراً هو في الواقع نتيجة أعراض جانبية غفلنا عنها، أو نتائج عرضية لشيء آخر. ولكن .... ما هو هذا الشيء؟ حسناً إليكم أحد الاحتمالات التي يمكنها أن توضِّح تلك النقطة.

الضوء الاصطناعي ظاهرة حديثة نوعاً ما على المشهد الليلي. وحتى وقت قريب، فإن الأضواء الوحيدة في الليل كانت للقمر والنجوم. تقع تلك الأجسام نظرياً على مدى لامتناهي البعد، وبالتالي فإن الأشعة الضوئية التي تأتي منها متوازية. وهذا ما يجعلها قابلة للاستخدام كبوصلة. ومن المعروف عن الحشرات استعمالها للأجسام السماوية كالشمس والقمر للتوجّه بشكل صحيح في خط مستقيم، وبإمكانها استعمال البوصلة ذاتها، وبالاتجاه المعاكس، للعودة إلى بيتها بعد غزوة ما. الجهاز العصبي للحشرة تأقلم لوضع قاعدة من حكم التجربة كالتالي: "توجّه بحيث أنَّ إشعاع الضوء يصل لعينك بزاوية 30 درجة".

1 . العث نوع من أنواع الحشرات الشائعة الانتشار وهي قريبة الشكل من الفراشات. (المترجم)

وبما أن الحشرات لها أعين مُركبة (مع أنابيب ضوئية مستقيمة تشع من مركز العين للخارج كأشواك القنفذ)، فإن ذلك يعني ببساطة أن عليها الحفاظ على الضوء في أنبوب معين أو عيينة[1].

ولكن البوصلة الضوئية تعتمد بشكل كبير على الأجسام السماوية المُتناهية البعد. وإذا لم يكنِ الوضع كذلك، فإن الأشعة لن تكون متوازية وإنما متباعدة مثل قضبان الدولاب. أي جهازٍ عصبي يطبَق بحكم التجربة قاعدة الـ 30 درجة (أو أي زاوية حادة) بجانب شمعة، وكأنها القمر على بُعد لا متناهي، سوف يقود العث عبر مسارٍ لولبي نحو اللهب. ارسمها بنفسك مُستعملاً زاوية حادة مثل 30 درجة، وستنتِج شكلاً لوغاريتمياً لولبياً أنيقاً باتجاه الشمعة.

بالرغم من أن الظروف قاتلة في هذا الوضع الخاص إلا أنَّ قاعدة العث تبقى جيدة بشكل عام، ذلك لأن رؤية شمعة، بالنسبة لحشرة العث هو من النوادر مقارنةً برؤية القمر. نحن لا نلاحظ المئات من العث الذين بهدوء وفعالية يتوجهون بواسطة القمر أو النجوم، أو حتى الضوء المشع من بلدة بعيدة. نحنُ نرى فقط عثاً يدور بشكل لولبي حول الشمعة، ونسأل أنفسنا السؤال الخاطئ: لماذا ينتحر العث؟ عوضاً عن ذلك، علينا أن نسأل، لماذا يمتلك جهازاً عصبياً يوجِّهه بواسطة زاوية مثبّتة على الأشعة الضوئية، أسلوب لا نلاحظهُ إلا عندما يخطئ. وعندما تُعاد صياغة السؤال يتبخَّر الغُموض. لم يكن من الصحيح تسميتها بالانتحار. إنه فقط تهديف عَرَضي خاطئ لبوصلة مُفيدة في الظروف العادية.

والآن سنطبق درس الناتج العَرَضي على السلوك الديني في الإنسان. هُناكَ عدد هائل من الناس، يصل لمائة بالمائة في بعض المناطق، من المؤمنين بأمور تناقض العلم بكل وضوح كما تناقض اعتقادات دينية منافسة يؤمن بها الآخرين. لا يحفظ الناس هذا الإيمان بشغف وحسب، بل يُخصِّصون له وقتاً ومصاريف غالية. يموتون في سبيله أو يَقتلون غيرهم من أجله. نحن نعجب لذلك كما عجبنا من "السلوك الانتحاري" لحشرة العث. ونسأل بحيرة لماذا. ولكن النقطة التي أُريد لفت النظر إليها هنا هي أننا ربما نسأل السؤال الخاطئ. ربما كان السلوك الديني مُجرد حادث، مجرد ناتج عرضي لنزعة نفسية خفية والتي في أحوال أخرى قد تكون أو كانت مفيدة. وبهذه النظرة، فإن النزعة التي أُنْتُخِبَت طبيعياً في أسلافنا لم تكن ديناً بحد ذاته، بل كان لها منافع أخرى وبلورت نفسها كدين مصادَفَةً. سنفهم السلوك الديني فقط بعد أنْ نُعيد تسميتهُ.

فإذا كان الدين إذن ناتجاً عرضياً لشيء آخر فما هو هذا الشيء؟ ما هو نظير عادة العث للملاحة بالبوصلة السماوية؟ ما هي الميزة البدائية المُفيدة التي تخطئ الهدف أحياناً وتولِّد الدين؟ سأسوق اقتراحاً موضِّحاً، وأودُّ الإشارة الى أن هذا المثال هو فقط من النوع الذي أعنيه وسآتي لاقتراحات موازية نادى بها آخرون. أنا مُتمسِّكٌ بالمبدأ العام بأنَّ علينا أن نصيغ السؤال بشكل صحيح ونعيد كتابته بالكامل عند الضرورة، أكثر من تمسّكي بإجابة معيّنة.

1. تتكون عين الحشرات من عدد كبير جدا من العيينات ولا تتكون من عين واحدة كما في الإنسان والفقريات. (المترجم)

فرضيتي الخاصة هي عن الأطفال. نحن، أكثر من كُل الكائنات الأخرى نحافظ على بقائنا بواسطة تراكم الخبرات من الأجيال السابقة، وهذه الخبرات يجب نقلها للأطفال لحمايتهم وتحسين ظروفهم. نظرياً، ربِما يتعلم الأطفال من تجاربهم الشخصية أن لا يقتربوا من حافة الجُرف أو يأكلوا توتاً برياً أحمر غير مُجرب أو يسبحوا في ماء يعجّ بالتماسيح. ولكن هناك على الأقل بعض المزايا الانتخابية لمخ الطفل الذي يمتلك قواعد من حكم التجربة: صدِّقْ بدون أسئلة كُل ما يقوله الكبارُ لك. طعْ أهلك و طعْ كبار القبيلة، وخصوصاً عندما يتكلمون بصوت ينمّ عن التهديد أو الجدية. ثِقْ بهؤلاء الكَبار بدون سؤال. هذه قاعدة ثمينة بشكل عام بالنسبة للأطفال. ولكن، كما في حال حشرة العث، قد تترتَّب عليها نتائج مزرية.

لم ولن أنسى الموعظة المرعبة التي تلقيتها في مدرستي عندما كنتُ صغيراً. مرعبة جداً كذكرى فقط، ذلك لأنني كُنتُ طفلاً وقتها وعقلي الطفولي تقبل الموعظة بالروحانية التي أرادها الواعظ. أخبرنا عن فرقة عسكرية تمشي بالقرب من سكة قطار. وفي اللحظة الحرجة تشتت انتباه الرقيب وفشل في إعطاء الأمر بالتوقف. الجنود كانوا مُدربين على طاعة الأوامر بدون أي سؤال واستمروا بالمسير نحو قطار قادم، والآن بالطبع لا أصدق القصة، وآمل أن الواعظ لم يكن يصدقها أيضاً. ولكنني صدقتُها عندما كنت في التاسعة لأنني سمعتها من بالغ لديه سلطة عليّ. وسواء صدقها هو أم لا، فإنهُ كان يأمل أننا نحن الأطفال سنعجب بهِ ونشكل شخصياتنا على نموذج الجندي المُستعبَد والمُطيع للأمر بدون سؤال، وبرغم اللامعقولية، وأتكلم عَن نفسي هنا، فإننا قد أعجبنا بذلك. وكبالغ راشد أجد أنهُ من المستحيل تقريباً أن أكون قد تساءلت في طفولتي عما إذا كانت لدي الشجاعة لأداء الواجب بالمسير أمام القطار. ولكن ذلك فعلاً هو ما أذكره عن مشاعري وقتها. الموعظة كما يبدو تركت لدي إنطِباعاً عميقاً، حتى أنني لا أزال أذكرهُ وكتبته لكم الآن.

للأمانة هُنا، فأنا لا أعتقد أن الواعظ فكر بأنه يؤدي رسالة دينية. بل كانت تلك الموعظة عسكرية أكثر منها دينية، في روحانية تينيسون في "هجوم كتيبة المشاة"، والتي ربما ذكرها واعظنا وقتها:

إلى الأمام يا لواء النور
أبينكم من يشعر بالفزع؟
لا.. لكنهم يعلمون
يفهمون ولا يجرأون
يُسْألُونَ ولا يَسألون
لبوا النداء بصمت
ستمائة جندي ركبوا
كالفرسان... الى وادي الموت[1]

(أحد أول وأقدم التسجيلات المخربشة لصوت إنسان كانت للورد تينيسون يقرأ تلك القصيدة، والإنطباع عن الخطاب الأجوف الآتي من أعماق نفق مظلم طويل في الزمن، كان مخيفاً بشكل مناسب هنا) سيكون

[1] . ترجمة بتصرف. (المترجم)

الأمر جنونياً من وجهة نظر القيادة العسكرية العُليا لو سُمحَ لكل جندي أن يختار بين أن يطيع أو يرفض الأوامر. الأمم التي يتصرّف فيها الجنود المُشاة بما يرونه مناسباً عوضاً عن طاعة الأوامر سوف تخسر حروبها. فمن وجهة نظر الأمّة، الطاعة لا تزال قاعدة جيدة بحكم التجربة حتى وإن كانت في بعض الأحيان تؤدي لكوارث فردية. الجنود يُدرّبون ليكونوا آليين أو حواسيب بقدر الإمكان.

الحواسيب تفعل ما تؤمر به. تطيع كالعبيد أي أوامر تُعطى لها بلغتها الخاصة. وهكذا تؤدي أغراضاً مفيدة كالحسابات ومعالجة النصوص. ولكن كناتج عَرَضي لا مفرّ منه، فإنها مُبرمجة أيضاً بشكل آلي لطاعة الأوامر السيئة. ليس لديها طريقة تتعرف بها إن كان تنفيذ أمرٍ ما سيكون له تأثير جيد أو سيء. الحواسيب ببساطة تطيع كما على الجنود أن يكونوا. الطاعة دون سؤال التي تجعل الحواسيب مفيدة، تجعلها أيضاً مُعرِضة للإصابة بالفيروسات لا محالة. والفيروسات الألكترونية هي برامج مُصمّمة بقصد الأذى، تعطي أوامر للحاسوب مثل "إنسخني وأرسلني لكل عنوان تجدهُ في هذا القرص الصّلب"، وهذا الأمر سيَطاع ببساطة وبعد ذلك سيَطاع أيضاً من الحواسيب الأخرى التي أُرْسِلَ لها في انتشار مُتسارع. من الصعب، وربما من المُستحيل، أن تُصمِّم حاسوباً يفيدك بطاعته ويكون منيعاً عن العدوى.

إنْ كُنتُ قد نجحت في شرحي التمهيدي، فإنك ربما تعرف الآن العلاقة بين مخ الطفل والدين. الانتخاب الطبيعي بنى مُخ الطفل مع ميلٍ لتصديق ما يقوله لهم الأهل والكبار في السن من أهل العشيرة. تلك الطاعة العمياء مهمة للبقاء: بطريقة مُشابهة للتوجه بالقمر بالنسبة لحشرة العث. ولكن الوجه الآخر للطاعة العمياء هو السذاجة الخانعة. كناتج عَرَضي لا مناص منه يُسبب الضعف تجاه عدوى الفايروسات الفكرية. ولسبب مُمتاز مرتبط بالبقاء الدارويني، يحتاج دماغ الطفل للثقة بالأبوين والآخرين الأكبر سناً والذين قيل له من قبَل الأبوين أن يثق بهم. النتائج التلقائية هي أن الطفل ليس لديه أي طريقة يميز بها النصيحة الجيدة من السيئة. ليس بإمكان الطفل معرفة أن "لا تسبح في النهر الذي تنتشر فيه التماسيح" هي نصيحة جيدة، بينما "يجب أن تضحي بعنزة عندما يكتمل القمر وإلا فلن ينزل المطر"، هي في أفضل حالاتها مضيعة للوقت وللماعز. التحذيران متساويان، كلاهما أتى من مصدر مُحترم وبلهجة جدية تستوجب الاحترام والطاعة. والشيء نفسه ينطبق على المُقترحات الاخرى عن الكون والعالم، الأخلاق والطبيعة الإنسانية. عندما يكبر الطفل ويُصبح لديه، أو لديها، أطفالهما الخاصين، غالباً ما يتم تمرير هذه الخبرات كلها للأطفال الجدد، المهم منها وغير المهم أيضاً، وذلك باستعمال نفس أسلوب الوقار المعدي.

وبهذا النموذج المذكور، علينا أن نتوقع أنه في مناطق جغرافية مُختلفة توجد أنواع مُختلفة واعتباطية من المُعتقدات التي ليس لأيٍ منها أي أساس واقعي، ستُتوارَث ليؤمَن بها بنفس الإيمان بالمعتقدات المفيدة من التراث الحكيم كالاعتقاد بأن السماد مُفيد للمحصول. وعلينا أن نتوقع أيضاً أن الغيبيات والأمور الأخرى غير الواقعية ستتطور محلياً، وتتغير عبر الأجيال بشكل عشوائي أو بشكلٍ يتبع نوعاً من الانتخاب الدارويني حتى نرى ظهور أشكال جديدة من المعتقدات المُستحدثة التي تختلف كثيراً عن أصولها. اللّغات تبتعد عن أصلها المُشترك لو أُعْطِيَت وقتاً كافيا في مناطق جغرافية متباعدة (وسأعود لهذه النقطة بعد

برهة). ويبدو أن الشيء نفسه صحيح فيما يتعلق بأنواع الإيمان الاعتباطية والمحقونة عبر الأجيال، معتقدات ساعدها بالاستمرار أدمغة الأطفال القابلة للبرمجة.

الزعماء الدينيون يعرفون جيداً نقاط الضعف في مخ الطفل وأهمية أن يُلَقَّن باكراً. تَباهي اليسوعيين، "أعطني الطفل أول سبعة أعوام من عمره وسأعطيك رجلاً"، ليس أقل دقة (أو رعباً) لكونه أصبح مبتَذَلاً. وفي أيامنا المعاصرة فإن جيمس دوبسون، مؤسس الحركة سيئة الصيت "ركز على العائلة"، لَيس بأقل علماً بتلك القاعدة، حيث إنه يقول: "هؤلاء الذين يتحكَّمون بما يدرسهُ الشباب وما يختبرونه - ما يرون ويسمعون ويُفكرون ويؤمنون - هم الذين سيحدِّدون مُستقبل الأمة"[79].

ولكن تذكر، إقتراحي عن فائدة السذاجة في عقل الطفل هو فقط مثال عن نوعية الأشياء التي يمكن أن تشابه سلوك حشرة العث في التوجه بالقمر أو النجوم. عالم السلوك روبرت هيند في كتابه "لماذا تستمر الآلهة" وعالم الإنسانيات باسكال بوير في كتابه "تفسير الدين" وسكوت آتران في "بالله نؤمَن" روّجوا كلٌّ على حدة الفكرة العامة للدين كناتج عَرَضي لعَوامل نفسية طبيعية أكثرها نتاجات عَرَضية، وعليّ أن أقول، بالنسبة لعُلَماء الإنسان خاصة، إنهم يهتمون على تأكيد تنوع أديان العالم وتناقضاتها كما هو الحال بما هو مشترك بينها. وما يكتشفه علماء الإنسان يبدو محيِّراً لنا، ولكن ذلك فقط لأنه ليس مألوفاً لنا. كُل أنواع الإيمان الديني تبدو غريبة لإنسان لم يتربى داخلها. بوير أجرى أبحاثاً عن أهل الفانغ في الكاميرون، والذين يؤمنون بـ...

> "... أن هُناكَ ساحرات بأعضاء داخلية إضافية تشبه أعضاء الحيوانات، وهي تطير بعيداً في الليل لتخريب محصول أناس آخرين أو تسميم دمائهم. وقيل أيضاً أن تلك الساحرات يجتمعن على مائدة ضخمة وعليها يأكلن الضحايا ويُخطِّطْنَ للهجوم القادم. الكثيرون من أهل المنطقة سيقولون لك بأن أحد أصدقاء أصدقائهم رأى بالفعل إحدى هذه الساحرات تطير فوق القرية في الليل. تجلس على ورقة شجرة موز وترمي بالنبال السحرية على الضحايا الغافلين".

يكمل بوير هنا بطرفة حصلت معهُ شخصياً:

> "كنت أذكر هذه الأشياء وأشياء أخرى مثيرة في حفلة عشاء في كامبردج عندما التفت إليّ أحد ضيوفنا، وهو من عُلماء الدين المشهورين في كامبردج، وقال: "هذا ما يجعل علم الإنسان مُثيراً وصعباً أيضاً. عليك أن تشرح كيف يمكن للناس أن يؤمنوا بأشياء بلا معنى كتلك". صُعقتُ لهذا التصريح. لقد مضى الحديث إلى موضوع الغلايات والأباريق قبل أن أتمكن من إيجاد إجابة ملائمة".

لنفترض أن عالم الدين هذا من كامبردج يؤمن بالمسيحية بإتجاهها العام، إذن هو يؤمن ببعض ما يلي:

- في زمن أسلافنا وُلد شخصٌ ما لأمٍ عذراء وبدون أي تدخل لأب إنساني في الموضوع.
- نفس الشخص الذي بدون أب نادى صديقاً إسمه أليعازر والذي كان ميتاً لمدة تكفي لأن ينتِن، وأليعازر عاد فوراً للحياة.
- الشخص نفسه هذا الذي لا يملك أباً عاد للحياة بعد أن مات ودفن بثلاثة أيام.
- بعدَ أربعين يوماً ذهب الرجل الذي بدون أب إلى قمة تلة، ثم ارتفع الى السماء بجسمه واختفى.
- عندما تهمهم بأفكار في رأسك بينك وبين نفسك، فإن هذا الرجل الذي بدون أب وأبوه (والذي هو نفسه) سوف يسمعان أفكارك وربما يفعلان شيئاً بناء عليها. إنه قادر على سماع أفكار كُل الناس فوق كل الأرض بنفس الوقت.
- لو فعلت شيئاً سيئاً أو شيئاً جيداً، فإن نفس الرجلِ الذي ليس له أب سيرى كُل شيء حتى لو لم يرَ ذلك أي أحد آخر، وربما ستكافَئ أو تعاقَب بناءَ عليه، وهذا ينطبق على ما بعد الممات أيضاً.
- والدة الرجل الذي بدون أب عذراء، لم تمت أبداً، بل "صعدت" بجسمها الى السماء.
- الخبز والنبيذ لو باركهما القسيس (الذي يجب أن يكون له خصيتان) "يصبحان" جسدَ ودمَ ذلك الرجل الذي بدون أب.

ماذا سيكون موقف عالم إنسانيات محايد عندما يصادف نوعاً من ذلك الإيمان أثناء عمله في كامبردج، وماذا سيفعل بمعتقداتٍ كهذه؟

الإعداد النفسي للدين

فكرة المنتوجات النفسية العَرَضية ظهرت بشكل طبيعي في حقول علم النفس التطوري المهمة والمتوسعة كل يوم[80]. التطوريون النفسيون اقترحوا التالي، كما أنَّ العين تطورت كعضو من أجل الرؤية والجناح تطور كعضو للطيران، كذلك تطوّر الدماغ الذي هو مجموعة من الأعضاء (أو الوحدات) التي عليها تقع مسؤولية التعامل مع مجموعة المعلومات المختصّة بالحاجات. هناك وحدة للتعامل مع الأقارب وأخرى للتعامل مع التبادلات المتبادَلة وأخرى للتعامل مع التعاطف، وهكذا. يمكن النظر للدين على أنه ناتج عرضي لإخفاق العديد من هذه الوحدات، وكمثال الوحدة التي تكون مسؤولة عن تشكيل نظريات عن العقول الأخرى لتشكيل التحالفات ولممارسة العنصرية لصالح من هو في الحلف وضدَ الغُرباء. أي وحدة من هذه الوحدات قد تخدم الإنسان بشكلٍ مماثل لتلك الوحدة التي يستخدمها العث للتوجه بمساعدة الأجرام السماوية، وحدةٌ عُرضة لنفس الإخفاق الذي ذكرتهُ عن السذاجة الطفولية. عالم النفس بول بلوم مدافع

آخر عن رؤية "الدين هو ناتج عَرَضي"، يشير الى أن الأطفال لديهم ميل طبيعي للفكر المثنوي[1] في عقولهم. والدين بالنسبة له هو نتيجة هذهِ المثنوية الغريزية. نحن البشر، وخصوصاً الأطفال، مولودون مثنويون بالطبيعة حسب قولهِ.

المثنوي يعترف بوجود فرق أساسي بين المادة والعقل. الوحدوي[2]، على العكس من ذلك، يؤمن بأن العقل هو مظهر من مظاهر المادة - مادة في الدماغ أو ربما حاسوب - ولا وجود له خارج المادة. المثنوي يؤمن بأن العقل هو نوع من روحٍ بلا جسد تسكن الجسد، ولذلك بإمكانها ترك الجسد والتواجد في مكان آخر. المثنوي جاهز ليفسر الأمراضَ العقلية أنها "تلبّس من الشياطين". تلك الشياطين هي عبارة عن أرواح أخرى تقطن في الجسد بشكل مؤقت، لهذا يجب "طردها". المثنويون يُشَخْصِنون الأجسام الفيزيائية الجامدة في أقرب فرصة، ويرون الأرواح الخَيِّرة والأرواح الشريرة حتى في الشلالاَت والغيوم.

المثنوي لا يرى شيءٍ غريب في رواية ف. آنستي عام 1882 "العكس بالعكس"، ولكنها تبدو مبهَمة بشكل تام لوحدَويٍّ متأصل مثلي. السيد بالتيتود وابنهُ يجدان أنهما تبادلا أجسادهما بطريقة غامضة. الأب، ولغبطة الإبن، عليه أن يذهب الى المدرسة في جسم الإبن، بينما الإبن في جسد الأب يكاد يقضي على مشاريع والده بقراراته غير الناضجة. واستعمل بي. جي. وُدْهاوس الفكرة نفسها تقريباً في "غاز الضحك". عندما وقع ايرل هافرشوت وطفل من نجوم السينما تحت المُخدّر في كرسيين متجاورين في عيادة طبيب الأسنان وبعدها إستيقظا في أجساد بعضهُما. ومرة أخرى، فإن كل هذا يبدو أمراً مُحتملاً فقط بالنسبة للمثنوي. حيث يسأل المثنوي نفسهُ، لاَ بد أن هُناكَ شيئاً ما تابع لايرل هافرشوت وهو ليس جزءاً من جسمهِ، وإلا فكيف يمكنه أن يستيقظ في جسد الطفل المُمثل؟

وكمُعظم العُلماء، أنا لستُ مثنوياً، ولكن لا يمنعني ذلك من الاستمتاع بـ "العكس بالعكس"، و"غاز الضحك". بول بلوم سيعلِّل ذلك بقوله أنَّ الوحدوية التي أنا فيها هي صفة فكرية مُكتَسَبة تعلَّمتُها، ولكنني رغم ذلك أنا كإنسان تطوَرت لأملك الغريزة المثنوية. فكرة وجود "أنا" تسكن في مكان ما خلف عينيي ومُستعدة للانتقال من رأس شخص لآخر، ولو بالخيال، هي فكرة مغروسة بعمق داخلي وداخل كل الناس الآخرين بشكل عام، مهما كانت مزاعم ذكائنا باتِّجاه الوحدوية. بْلوم يدعم زعمه بأدلة تجريبية عن أن الاطفال أكثر قابلية للمثنوية من البالغين، وبالخصوص الأطفال الصغار جداً. وهذا يدل على أن المثنوية صفة طبيعية موجودة من صلب الدماغ، وحسب بْلوم، فإنها تؤمِّن استعداداً طبيعياً لاعتناق الأفكار الدينية.

يقترح بْلوم أيضاً بأننا مستعدّون داخلياً كي نكون خلقيين. الانتخاب الطبيعي "ليس له معنىَ حدسي". الأطفال بالأخص أكثر ميلاً لافَتراض أنَّ لكل شيء غاية، كما تخبرنا الطبيبة النفسية ديبورا كيلمان في مقالها

1 . المثنوية DUALISM هي النظرة الفلسفية التي ترى أن هناك أصلين للوجود كل منهما له وجود مستقل في ذاته، وبدون هذين الأصلين لا يمكن فهم طبيعة الكون، هذين الأصلين على الغالب متناقضين كالخير والشر أو الجسد والروح أو النور والظلام الخ. (المترجم).

2 . الوحدوية Monism الأحادية والواحدية والوحدانية على عكس المثنوية هي نظرية فلسفية تقول أن الأشياء المتنوعة الموجودة في الكون تتكون من مادة واحدة وبهذا تكون خاصية الكون الأساسية هي الوحدة. (المترجم).

"هل الأطفال ألوهيون بالحدس؟"[81]. على سبيل المثال فإن الغيوم هي (لأجل المطر)، الصخور المدبّبة موجودة (كي تستطيع الحيوانات حكّ جلدها بها). تعيين غاية لكل شيء يُسمّى علم الغائية[1]. الأطفال غائيون بالفطرة، والعديد لا يتخلى عن هذه الفكرة مع تقدم العمر.

المثنوية الفطرية والغائية الفطرية تؤهلنا، بوجود الظروف المناسبة، للدين، تماماً كما تؤهّل ردة فعل البوصلة الضوئية العثَّ للانتحار غير المقصود. مثنويتنا الفطرية تؤهلنا للإيمان "بروح" تقطن الجسد عوضاً عن كونها جزء من الجسد. روح بدون جسد كتلك يمكن تخيلها بسهولة تتحرك لمكان آخر بعد موت الجسد. ويُمكننا تخيل الإله على أنه روح صافية وليس كمادة مركبة لها مجموعة مواصفات مُعقدة، بل وجود مُستقل عن المادة. أو حتى بوضوح أكثر، الغائية الطفولية تُهيَئُنا للدين. إذا كان كُل شيء له هدف، فلِمن ترجع هذه الأهداف؟ الله، طبعاً.

ولكن ماهو الطرف الآخر المُفيد المُشابه للبوصلة الضوئية للعث؟ لماذا فضَّلَ الانتخاب الطبيعي المثنوية والغائية في عقول أسلافنا وأطفالهم؟ حتى الآن حساباتي عن المثنوية الفطرية افترضت أن الإنسان يولد مثنوياً غائياً بطبيعته. ولكن ما هي المصلحة الداروينية في ذلك؟ إن توقُّع تصرفات الأحياء حولنا في عالمنا تُساعدنا على البقاء، وسنتوقع أن الانتخاب الطبيعي قد شكَّل عقولنا لفعل ذلك بشكل فعَّال وسريع. فهل يمكن أن تخدمنا المثنوية والغائية في هذه القدرة؟ ربما نفهم تلك الفرضية بشكل أفضل في ضوء ما أسماه الفيلسوف دانييل دينيت بـ "المبدأ الغائي".

دينيت عرض طريقة مفيدة لتصنيف ثلاثي لـ "المبادئ" التي نتبنَّاها في محاولتنا للفهم، وبالتالي توقُّع تصرفات الكيانات الأخرى كالحيوانات والآلات أو بعضنا البعض[82]. هُناكَ المبدأ الفيزيائي والمبدأ التصميمي والمبدأ الغائي. المبدأ الفيزيائي يعمل دائماً لأنهُ مبدئياً كُل شيء يخضع لقوانين الفيزياء في نهاية الأمر. ولكن حلّ المسائل بناءً على المبدأ الفيزيائي يُمكن أن يكون بطيئاً جداً. الوقت الذي نستغرقه ريثما نفهم كُل ردود الأفعال الحركية لأشياء مُعقدة تتحرك سوية، ربما يجعل توقعاتنا تأتي مُتأخرة. أما بالنسبة لشيء مُصمّم حقاً كالغسالة، فإن المبدأ التصميمي هو طريق اقتصادي مُختصر للفهم. بإَمكاننا أن نعرف كيف سيتصرف هذا الشيء بغض النظر عن فهمنا لقوانين الفيزياء باستخدام التصميم مباشرة. وكما يقول دينيت:

> "يمكن لأي أحد تقريباً أن يتوقع متى سيرن جرس المُنبه بمُجرد تحري بسيط من خارجه. ولا أحد يدري أو يهتم إن كان الجرس مُربوط بنابض ورقاص، أو أنهُ يعمل بالبطارية، أو الطاقة الشمسية، أو مصنوع من مُسنّنات نحاسية أو رقائق سيليكونية، إننا نفترض أنهُ مصنوع ليرن في الوقت الذي نضبطه عليه للرنين".

1 . الغائية :(Teleology) قسم من الميتافيزيقا، يقوم على مبدأ ارتباط العالم بعضه ببعض ارتباط العلّة بالغاية. (المترجم)

الأشياء الحية ليست مُصمّمة، ولكن الانتخاب الطبيعي الدارويني أعطاها صفات المبدأ التصميمي. نحن نختصر الطريق لفهم آلية عمل القلب إذا افترضنا أنهُ "مُصمّم" لضخ الدم. لقد قاد كارل فون فيش تحريات عن رؤية النحل للألوان (في مقابل الرأي التقليدي بأنهم عميان اللون) لأنه افترض أن الألوان الناصعة للزهور "مُصمّمة" لجذبها. علامتا الاقتباس هنا لإبعاد الخلقيين الكاذبين الذين سوف يزعمون بأن عالم الحيوانات النمساوي العظيم كان واحداً منهم. ولا نحتاج للقول بأنه كان قادراً بشكل تام على ترجمة الموقف التصميمي بتعابير داروينية مناسبة.

المبدأ الغائي هو طريقٌ مُختصر آخر وأفضل بدرجة من المبدأ التصميمي. حيث يفترض أن الكيان ليس مُصمّماً فقط من أجل هدف معين ولكنهُ، أو يحتوي على نية أو غاية تقود أفعاله. فمثلاً عندما ترى نمراً فمن الأفضل لك ألاَّ تتأخر في توقع تصرفاته المُحتمَلة. يجب عليك ألا تهتم بفيزيائية الجزيئات التي يتكون منها، ولا بتصميم أطرافه وأظافره أو أسنانه. ذلك النمر ينوي أكلك وسيستعمل أطرافه وأظافره وأسنانه بطريقة مَرِنة ومُبدعة لإتمام غايته. أفضل طريقة لتخمين تصرفه القادم هو بنسيان الفيزياء وتراكيبها والتوجه إلى الغاية الهادفة التي تسيرهُ الآن. ولننتبه هنا، فكما يصلح المبدأ التصميمي لأشياء ليست مُصمّمة ولأشياء مصمّمة، فإن المبدأ الغائي يصلح للأشياء التي ليس لها غايات واعية مقصودة، كما يصلح في حالة الأشياء التي لها غاية واعية مقصودة.

ويبدو مَنطقياً بشكل تام بالنسبة لي بأن المبدأ الغائي له قيمة للمساعدة على البقاء، حيث يجعل العقل يأخذ القرارات الهامة والسريعة في الظروف الخطرة، وفي أوضاع اجتماعية دقيقة. من غير الواضح أن كانت المثنوية مصدرها المبدأ الغائي بشكل مباشر. ولن أتعمق هنا في الموضوع و لكني أعتقد أنه من المُمكن وضع نظرية عن الافكار واضحة المثنوية على أنها ناتجة عن المبدأ الغائي، خصوصاً في أوضاع أجتماعية معقدة بل و أكثر من ذلك عندما الغاية لها الدور الاكبر في الموضوع.

دينيت يتكلم عن الغاية الثلاثية الدرجات (الرجل يعتقد بأن المرأة تعرف أنهُ يريدها)، والرباعية (المرأة انتَبهت الى أن الرجل يعتقد بأنها تعرف أنهُ يريدها). وحتى الخماسية (فلانٌ عرفَ بأن المرأة انتَبهت الى أن الرجل يعتقد بأن المرأة تعرف أنهُ يريدها). الدرجات العليا من الغايات تكون محصورة على الغالب في الكتب الأدبية كما في رواية ميشيل فراين المرحة "رجال من صفيح": "بملاحظته لنانوبولوس عرف ريك بشكل شبه مؤكد بأن آنا أحسّتْ بإحتقار شديد نحو فشل فيدلينغشايلد لفهم مشاعرها تجاهه، وعرفت هي أيضاً بأن نينا عرفت بما تعرفهُ عن معرفة نانوبولس بالأمر..."، ولكن واقع أننا قادرون على الضحك من تصوّر العقول للعقول الأخرى في الخيال الأدبي، ربما يخبرنا شيئاً مُهماً عن الطريقة التي عمل بها الانتخاب الطبيعي لجعل عقولنا تعمل بهذه الطريقة في العالم الحقيقي.

على الأقل في درجاته الدنيا فإن المبدأ الغائي كما في المبدأ التصميمي، يوفر لنا الوقت الذي يمكن أن يكون ثميناً جداً للبقاء. وبالنتيجة فإن الانتخاب الطبيعي شكَّل العقل ليستعمل المبدأ الغائي كطريق مُختصر. نحنُ مُبرمَجون حيوياً لنَسْبِ الغايات للكائنات التي يهُمنا تصرفها. ومرة أخرى، بول بلوم اقتبس دليل

تجريبي بأن الأطفال بشكل خاص يميلون لتبني المبدأ الغائي. عندما يرى الأطفال شيئاً يتبع شيئاً آخر (على شاشة كومبيوتر مثلاً) فإنهم يعتبرون أنهم يرون مطاردة بين عناصر لها غاية فيما تفعل، ويبدو ذلك واضحاً من خلال دهشتهم عندما يفشل أحد العناصر المُتخيلة أن يتابع المطاردة.

المبدأ التصميمي والمبدأ الغائي آليات عقلية مفيدة ومهمة لتسريع عملية توقع تصرفات الكيانات الأخرى فيما هو ضروري للبقاء، كما هو الحال في الحيوانات المفترِسة، أو شريك الحياة المُحتَمَل. ولكن كما هي آليات الدماغ الأخرى، بإمكان هذه المبادئ أن تخطئ أهدافها. الأطفال مثلاً والناس البسطاء ينسبون غاية معينة للظواهر الجوية وللأمواج والتيارات والصخور المُتساقطة. كُلنا مُعرضون للأمر نفسه فيما يتعلق بالآلات وخصوصاً عندما تُخيِب ظننا. العديدون منا يتذكر بعاطفة اليوم الذي تعطلت فيه سيارة باسيل فاولتي خلال مُهمته الهامة لإنقاذ الأمسية من مُصيبة كُبرى. باسيل أعطى سيارتهُ تحذيراً وعدّ حتى الثلاثة، وبعد ذلك خرج من السيارة وأخذ غصن شجرة وحطمها وهي في آخر أيامها. كلنا مررنا في مواقف كتلك على الأقل للحظات، مع كومبيوتر إنْ لم يكن مع سيارة. وقد أعطى جوستين باريت لهذه الظاهرة الاختصار (HADD)[1]. حيث تفتعل عقولنا أشياء واعية لا وجود لها أساساً. وهذا ما يجعلنا نفترض وجود شر أو خير في الحوادث الطبيعية، بينما الطبيعة غير مبالية على الإطلاق. أجدُ نفسي في بعض الأحيان أكظم غيظي تجاه شيء جامد لا يُفترض أن يُلام مثل جنزير دراجتي الهوائية. وهناك تقرير مُحزن عن رجل تعثر برباط حذائه المفكوف في متحف فيتزويليامز في كامبردج، وقع على الدرج وكسر ثلاثة أواني للزينة لا تُقَدَّر بثمنٍ تعود لسلالة كوينغ الملكية: "وقع بين الأواني الثمينة التي تكسّرتْ لملايين الشظايا. كان لا يزال يجلس مصعوقاً عندما قَدِمَ الموظفون إليه. وقفوا جميعاً في سكون كَمَنْ في صدمة، والرجل يشير بإصبعه لرباط حذائه قائلاً: هذا هو، هذا هو المذنب"[83].

تفاسير أخرى عن الدين كناتج عرضي تم طرحها من هايند وشيرمر وبوير وآتران وبلوم ودينيت وكليمان وغيرهم. هُناكَ عَرَضٌ فاتن من دينيت يقول بأن اللاعقلانية الدينية هي ناتج عَرَضي عن آلية غير عقلانية موجودة في الدماغ: وهي ميلنا، الذي يُفتَرَضُ أنَّ له فوائد جينية، للوقوع في الحُبّ.

عبّرَتْ المتخصصة في علم الإنسان هيلين فيشر في كتابها "لماذا نحُبّ"، وبشكل جميل، عن جنون الحُبّ الرومانسي وكيف يبدو ذا أولوية عُلْيا مقارَنةً مع ما نعتقدهُ ضروري جداً. أنظر للموضوع بالشكل التالي. من وجهة نظر الرجل فإنه من غير المحتَمَل أن تكون أي امرأة من معارفه محبوبة أكثر بمائة مرة من المرأة المنافسة الأقرب لها، ومع ذلك فإنَّ هذا ما يصفها به في الغالب عندما يكون "واقعاً في الحُبّ". وعوضاً عن الإخلاص لشريك الحياة الأوحد الذي أغلبنا متأثر به، فإن نوعاً من "التعددية في الحب" يبدو أكثر عقلانية هنا. (التعددية في الحب هي الاعتقاد أن الإنسانَ يمكن أن يحُبّ أكثر من شخص واحد من الجنس الآخر في وقت واحد، تماماً كما هو الحال في الإعجاب بأنواع متعددة من النبيذ والمؤلفين الموسيقيين أو الكتب أو الرياضة). نحن نقبل بسرور قدرتنا على محبة أكثر من طفل وولي أمر وأخوة وأساتذة وأصدقاء أو حيوانات أليفة. عندما تفكر بها بهذا الشكل، ألا يبدو الحُبّ الحصري الذي نتوقعه من

1 . Hyperaktivt agent detection device.

الشريك غريباً بشكل إيجابي؟ مع ذلك فإنَّ هذا ما نتوقعه، وهذا ما نحن عليه ونسعى لتحقيقه. لا بد من سبب لذلك.

هيلين فيشر وآخرون شرحوا بأن الوقوع في الحُبّ يترافق مع أوضاع فريدة للدماغ، يتضمن ذلك تواجد عناصر كيميائية عصبية (في الواقع مخدرات طبيعية) وتلك العناصر خاصة جداً ومميزة لتلك الحالات. عُلماء النفس التطوريون يوافقون معها على أن تلك الجرعة اللاعقلانية يمكن أن تكون آلية لضمان الإخلاص لشريك الحياة، ولمدة تكفي لرعاية طفل لفترة معينة معاً. من وجهة نظر داروينية من المُهم بدون شك اختيار شريك جيد لعدة أسباب. ولكن عندما يقع الاختيار، حتى الخيار الخاطئ، ويحصل الحمل، فإنه من الأهم الالتزام بذلك الاختيار على الحلوة والمرة، على الأقل حتى يتم فطام الطفل.

هل يمكن أن يكون الدين اللامنطقي ناتج عرضي للآليات اللاعقلانية للوقوع في الحُبّ التي بُنيت في الدماغ بالانتخاب الطبيعي؟ إنَّ الإيمان الديني بالتأكيد يشبه في بعض ملامحه الوقوع في الحُبّ (والاثنان لديهما نفس الأعراض الناتجة عن تأثير مُخدرات مسببة للإدمان). عالم النفس العصبي جون سميثيس ينبهنا من أنه هُناكَ فروق واضحة في مواقع الدماغ التي تتفاعل في كلتا حالتي الهوس، على الرغم من ذلك فقد لاحظ بعض التشابهات:

> "أحد مظاهر الدين هو الحُبّ العنيف المُركَّز على شخصية واحدة ماورائية مثل الله، بالإضافة إلى احترام الأيقونات لتلك الشخصية. حياة الإنسان محكومة بشكل كبير بجيناتنا الأنانية وبعملية الدعم. وكثير من الدعم الايجابي يأتي من الدين: المشاعر المُطَمْئنة والدافئة عن كونك محبوباً ومحمياً من المخاطر في العالم وإلغاء الخوف من الموت والمساعدة السماوية كجواب على الصلوات في الأوقات الصعبة...الخ. وبنفس الطريقة فإن الحُبّ تجاه شخص ما (من الجنس الآخر عادة) يؤدي لنفس التركيز العنيف على الآخر وما يلحقه من دعم إيجابي. هذه المشاعر يمكن أن تقدح من أيقونات الآخر مثل الرسائل والصور بل وحتى، كما في العصر الفكتوري، من خصل من الشعر. حالة الوقوع في الحُبّ ترافقها تغيرات في الجسد عديدة مثل التنهد العميق"[84].

أجريتُ مقارنةً بين الوقوع في الحُبّ والدين عام 1993 عندما أشرت الى أن الفرد المُصاب بالتدين تشبه أعراضهُ بشكل مذهل تلك الأعراض المرافقة للحب الجنسي عادةً. هذه قوة فعالة جداً في الدماغ، وليس من المُفاجئ أن بعض الفيروسات قد تطورت لتستغلها (الفيروسات هنا مجازية وتعني الأديان: لأن عنوان مقالي وقتها كان "فيروسات العقل"). نشوة القَديسة تيريزا الأفيلية أشهر من أن نحتاج لذكرها هنا[1]. الأكثر

---

1. الكاتب هنا ينوه لقصة معروفة في الادبيات المسيحية وربما غير مألوفة لنا في الشرق الاوسط لذلك سأذكرها بشكل مختصر. تقول القصة أن الراهبة رأت ذات ليلة ملاكًا جميلًا يقف إلى جوارها وفي يده سهم ذهبي في طرفه لهب مشتعل، ولم يلبث الملاك الصغير إلى أن غرس السهم في قلب الراهبة وعندما انتزعه من صدرها خُيل لها أنه انتزع أحشاءها معه، كان الألم رهيبًا بحسب الراهبة، لكنه كان مصحوباً بلذه عظيمة تمنت لو أنها لا تغادرها أبدًا. (المترجم)

جدية من ذلك، وعلى مستوى أقل من الفجاجة الحسية، فإن الفيلسوف آنثوني كيني يعرض لنا اعترافاً يهز العواطف عن السرور الصافي الذي ينتظر الذين استطاعوا الإيمان بسرّ التحول الجوهري[1]. بعد أن وصف ترسيمهُ ككاهن رومي كاثوليكي أُعْطِيَ السلطة بقيام مجموعة من القساوسة بوضع أيديهم عليه بطقس خاص، يستعرض لنا ما يذكرهُ ولا يزَال حياً في مخيلته:

"الحماسة كانت خلال الأشهر الأولى حيث كنت أملك السلطة لقيادة القداس. عادة كنت كسولا في النهوض من الفراش، لكن وقتها بدأتُ أستيقظ مملوءاً بالحيوية والإثارة لمُجرد التفكير بقوة الدور الذي مُنحْتُ الامتياز للقيام به...

لَمْس جسد اَلمسيح وقرب القسيس من المسيح هما اللذان سحراني أكثر من أي شيء آخر. أستطيع أن أمعن النظر في خبز القربان بعد كلمات التقديس، كعيون عاشق ينظر في عيني حبيبته... تلك الأيام الأولى لي كقسيس تبقى في ذاكرتي كأيام تحقيِق المُبْتَغى العامرة بالسعادة، إنه شيء ثمين، ومع ذلك أهَشٌّ مِن أن يدوم، مثل حالة حبّ رومانسي توقَّفَ فجأة بسبب زواج غير متوافق".

ما يشابه البوصلة الضوئية لحشرة العث هو ما يبدو لاعقلانياً، ولكن مُفيداً في حالة الوقوع في الحُبّ مع شخص واحد فقطِ من الجنس الآخر. الخطأ العرضي الناتج والمساوي لطيران العث باتجاه لهب الشمعة، هو الوقوع في الحُب مع يهوه (أو العذراء أو الرب أو الله) والقيام بتصرفات لاعقلانية مدفوعة بذلك الحُبّ.

في كتابه "المستحيلات الستة قبل الإفطار"[2]، يقترح عالم الطبيعة لويس ولبرت ما يمكن رؤيته كتعميم لفكرة اللاعقلانية البناءة. والنقطة التي ينوه لها هي أن القناعة اللاعقلانية القوية هي حماية من تقلُّب العقل: "لو لم يكن الشعور بالمعتقدات التي تسببت في إنقاذ حياة العديدين قوياً، لكانت ظرفاً مُعوَقاً للإنسان في مراحل التطور الأولى. حيث سيكون من المُضر كثيراً على سبيل المثال أن يغير الشخص رأيه عند الصيد أو صناعة الأدوات". الخلاصة التي يصل اليها ولبرت في حُجته هي أنه على الأقل تحت ظروف معينة، سيكون من الأفضل التمسك بإيمان لاعقلاني عوضاً عن التأرجح، حتى لو ظهرت أدلة جديدة أو استنتاجات تدعو للتغيير. من السهل أن نرى موضوع "الوقوع في الحُبّ" كحالة خاصة، ومن السهل رؤية "الإصرار اللاعقلاني" لوُلْبرت أيضاً كميل نفسي آخر مفيد قد يشرح لنا بعض النواحي المهمة للسلوك الديني اللاعقلاني: كناتج عَرَضي آخر.

في كتابه، "التطور الإجتماعي"[3]، يتوسع روبرت تريفرس في شرح نظريته التطورية لخداع الذات عام 1976. خداع الذات هو:

---

1 . سر التحول الجوهري هو معتقد مسيحي كاثوليكي يقول بتحول النبيذ وخبز القربان المقدس الى جسد ودم المسيح بالجوهر مع أحتفاظها بصفاتها الأساسية التي كانت تحملها من البداية. (المترجم).

2 . Six Impossible Things Before Breakfast, Lewis Wolpert.

3 . Social Evolution, Robert Trivers.

"إخفاء الحقيقة عن العقل الواعي هي الطريقة الأفضل لإخفائها عن الآخرين. في جنسنا نلاحظ أنَّ العينين الحائرتين والكفين المتعرقين والصوت المتهدِّج هي علامات قد تدلُّ على الإجهاد الذي يُرافق معرفة واعية لمحاولة الخداع. المُخادع يمكنه أن يُخفي تلك الإشارات عن الشخص الذي يُراقبه عندما لا يكون واعياً بخداعه، وبالتالي يصبح قادراً على الكذب بدون العصبية التي ترافق الخداع".

العالم الإنساني ليونيل تيغر يقول شيئاً مُشابهاً في كتابه "التفاؤل: طبيعة الأمل"[1]. ونرى ما ناقشناه لتوَنا عن الصلة باللاعقلانية البنَّاءة في مقطع عن "الدفاع الإدراكي":

"هناك ميل في البشر بشكلٍ واعٍ لرؤية ما يتمنون رؤيته. ولديهم صعوبة بكل ما تعنيه الكلمة في رؤية الأمور ذات المفهوم السلبي، وسهولة متزايدة في رؤية الأمور الإيجابية. فمثلاً الكلمات التي تُحدث شعوراً بالقلق، سواء بسبب تاريخ الفرد الشخصي، أو بسبب إجراء تجربة، هذه الكلمات تتطلَّب الإضاءة عليها بشدة أكبر قبل أن تُفْهَم".

ولا نحتاج للإشارة إلى العلاقة القائمة بين هذا وأفكار التمني التي يقدمها الدين.

النظرية العامة عن الدين كناتج عرضي بالصدفة، كشيء مُفيد أخطأ الهدف، هو الذي أريد أن أؤكد عليه. التفاصيل مُتغيرة ومعقدة وقابلة للنقاش. للتوضيح سأستمر باستعمال نظريتي عن "الطفل البسيط" كممثل لما نطلق عليه نظرية "الناتج العرضي" على العموم. تلك النظرية التي تقول بأن دماغ الطفل "لأسباب مفيدة" يُمكن أن يكون ضحية عدوى "لفيروس" عقلي، سوف تبدو لبعض القراء بأنها ليست كاملة. ربما يكون العقل مؤهَّلاً ليكون ضحية ... حسناً. ولكن لماذا العدوى بهذا الفيروس وليس بآخر؟ هل بعض الفيروسات لديها قدرة أكبر على غزو العقل الساذج؟ لماذا "العدوى" تظهر على شكل دين عوضاً عن ...... عن ماذا؟ ما أريد قوله هنا هو أن نوع اللامنطقية التي يصاب بها عقل الطفل ليس مهماً. وعندما يصاب سيكبر ويعدي الجيل القادم بنفس الكلام الفارغ، مهما كان نوعه.

أستطلاع في علم الإنسان أتحفنا بها فرايزر والمسماة "الغصن الذهبي" تحتوي على الكثير من انواع الإيمان اللاعقلاني. وعندما تتجذَّر في ثقافة ما، فإنها تستمر وتتطور وتتحول بطريقة تذكِّرنا بالتطور الاحيائي. ولكن فرايزر يتبيّن بعض المبادئ العامة، كمثال "العلاج بالطب المثلي السحري"، حيث التعاويذ والعزائم تستعير جانباً رمزياً لشيء في العالم الحقيقي والتي يُراد التأثير عليها. ومن أمثلة ذلك الاعتقاد ذو النتائج المأساوية بأنَّ البودرة المعمولة من قرن حيوان وحيد القرن لديها مفعول المقوي الجنسي. بالرغم من بلاهتها، فإن هذه الأسطورة تنطلق من أن القرن يُشبه القضيب الذكري المُنتصب. والحقيقة أن انتشار "العلاجات

1 . Optimism: The Biologi of Hope, Lioner Tiger.

السحرية" يفرض الاقتراح بأن اللاعقلانية التي تصيب العقول الساذجة ليست عشوائية تماماً ولامنطقية واعتباطية.

يبدو من المُغري مواصلة البحث بالموضوع لحد التساؤل فيما إذا كان هُناكَ ما يُشبه التطور بالانتخاب الطبيعي. هل بعض الأفكار أكثر قابلية للانتشار من الأخرى لجوهرها، أم لجدارتها، أو لتماشيها مع الميول النفسية الرائجة حينها، وهل يشرح هذا طبيعة الأديان وصفاتها كما نراها الآن بطريقة مشابهة لتلك التي تشرح الحياة العضوية بواسطة الانتخاب الطبيعي؟ من المُهم أن نُميز بأن "الجدارة" هنا تعني القدرة على البقاء والانتشار. إنها لا تعني الحُكم باستحقاقها لقيم إيجابية، كشيء يجعلنا كبشر فخورين به.

حتى في نموذج تطوّري، ليس من الضروري أن يكون هُناكَ انتخاب طبيعي. يُدرك عُلماء الطبيعة بأن مورث ما يمكن أن ينتشر في جنس ما فقط لمجرد كونه محظوظاً وليس لأنهُ مورث جيد. ونُسمي هذا بالانجراف الوراثي. وأهميته مُقارنة بالانتخاب الطبيعي لاتزال موضع جدال. ولكنها الآن مقبولة على نطاق واسع في علم المورثات الجزيئية المدعوة بالنظرية الحيادية. لو قام مورث بالتحوّل الى نُسخة مختلفة عن نفسه والتي لها تأثير مُطابق تماماً، فإن الإختلاف يكون محايداً لا قيمة لهُ، والانتخاب الطبيعي لن يفضِّل أحدهما على الآخر. على الرغم من ذلك، وبالأخذ بعين الإعتبار ما يسمى من قبل الإحصائيين بالأخطاء في أخذ العينات عبر الأجيال، فإن المورث بصورته المُعدَّلة يمكن أن يحلَّ محلّ المورث الأصلي في تجميعة المورثات. وهذا تغيير تطوري حقيقي على المستوى الجزيئي (حتى لو لم يكن هُناكَ تغير ملحوظ في عالم الكائنات الحية الكلي). ذلك تغيّر تطوري محايد لا يدين بشيء للنفعية الانتخابية.

المُقابل الثقافي للإنجراف الوراثي خيار مُقنع لا نستطيع إهمالهُ عند الحديث عن تطور الدين. اللغة تتطور بشكل شبيه للتطور الطبيعي، والاتجاهات التي تتطور بها تبدو اتجاهات غير مُحددة تماماً كما هو الحال في حالة الإنجراف الوراثي. حيث يتم نقلها بصورة حضارات مشابهة للمورثات، وتتغير ببطء عبر القرون حتى تصل الى مرحلة لا تستطيع بها الفروع المُختلفة التفاهم فيما بينها. من الممكن أن يكون بعض التطور للُغات محكوم بشكل من أشكال الانتخاب الطبيعي، ولكن الحجة لا تبدو مُقنعة تماماً. وسأشرح لاحقاً بأن أفكاراً كهذه طُرحت في مواضيع الاتجاهات الرئيسية في اختلاف اللغات، كما هو الحال في التغير الكبير في الصوتيات الذي حصل في اللغة الانكليزية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. ولكن فرضية وظيفية كهذه ليست ضرورية لشرح معظم ما نلاحظه. ويبدو مُحتملاً أن اللغات تطورت بما يشبه الإنجراف الوراثي العشوائي. في أقسام مختلفة في أوروبا تطورت اللاتينية لتصبح لغة أسبانية وبرتغالية وإيطالية وفرنسية ورومانية، إضافة للعديد من اللهجات لتلك اللغات. ولا يبدو أبداً أن هُناكَ أي فوائد واضحة لتلك التغيرات التطورية، أو أي نوع من "الضغط الانتخابي".

وأنا أنطلق من أن الدين كاللغة تطور بشكل عشوائي من بدايات غير مُحددة، وذلك خَلقَ الغنى المُحيَر، والخطير أحياناً، للتعددية التي نلاحظها. في نفس الوقت، من المُمكن أن شكلاً من أشكال الانتخاب الطبيعي متوافقاً مع القواعد الأساسية لعلم النفس البشري، يؤمن لنا أدياناً تحتوي على قواسم مُشتركة.

الكثير من الأديان، على سبيل المثال، تعطينا تعاليم غير قابلة للتصديق موضوعياً، ولكنها بشكل شخصي جذابة مثل الاستمرار بالحياة بعد موتنا الجسدي. فكرة الخلود هنا سوف تحيا وتنتشر لأنها تُغذي أفكار الإنسان التي يتمناها. وتلك الأحلام لها اعتبارها لأن النفسية البشرية لديها، وعلى درجة عالية وعالمياً، ميول لتصديق أحلامها.

يبدو أنهُ ليسَ هُناكَ من شك بأن العديد من مواصفات الدين مؤهلة بشكل جيد للحفاظ على بقاء الدين نفسه، وبالتالي البقاء لتلك المواصفات في خليط الثقافات الإنسانية. السؤال الذي يطرح نفسهُ الآن هو فيما إذا كان هذا التأهيل قد تم الحصول عليه بـ "تصميم ذكي"، أو أنه نتيجة الانتخاب الطبيعي. ربما يكون الجواب مزيجاً من الاثنين. من جهة التصميم، القيادات الدينية قادرة بشكل تام على صياغة تلك الخدع التي ساعدت الدين على البقاء. مارتن لوثر عرف بشكل جيد بأن العقلانية كانت عدو الدين الأعظم، وقد حذرَ من خطورة ذلك مراراً: "العقلانية هي العدو الأكبر للإيمان، ولا يمكن أن تساعد في الأمور الروحانية، ولكن تنافي في معظم الأحيان الكلام المقدس وتحتقر كُل ما ينبثق من الإله"[85]. وفي قول آخر: "منْ يُريد أن يكون مسيحياً عليه أن يقلع عيون عقله". وآخر: "العقلانية يجب تدميرها لدى كُل المسيحيين". لم يكن لدى لوثر أي صعوبة في خلق لمسات لاعقلانية تساعد الدين على البقاء. ولكن هذا لا يعني أنه، أو أي أحد آخر، قد صمّم ذلك. من المُمكن أن ذلك تطور بشكل (غير وراثي) بالانتخاب الطبيعي، حيث لوثر نفسهُ لم يكن المُصمِم، ولكن مجرد مُلاحظ ذكي لفعاليتها.

بالرغم من أن الانتخاب الداروين التقليدي للمورّثات ربما يفضل المورثات التي تُعطي ميلاً نفسياً للدين كناتج عرضي، فإنه من غير المُحتمل بشكل كبير أن تكون قد شكلت التفاصيل. لقد نوهت بأنه لو كنا سنطبق شكلاً ما من أشكال نظرية الانتخاب على هذه التفاصيل، فإن علينا ألا ننظر للمورثات، وإنما إلى ما يقابلها في الحياة الثقافية. فهل الدين منتوج له نفس خواص الميمات[1].

---

1 . الميمة MEME، مُصطلح تم سكُّه عام 1976 من قبل المؤلف في كتابه الجين الاناني، يشير هذا المصطلح إلى "وحدة المعلومات الثقافية" التي يمكن نقلها من عقل لآخر بطريقة مشابهة لانتقال الجينات من فرد لآخر خلال عملية التكاثر حيث تعتبر الجينات وحدة المعلومات الوراثية، سرعان ما ظهر لاحقا علم خاص يدعى علم الميميات يعنى بدراسة هذه الفكرة وتطبيقاتها. (المترجم).

تقدَّم بهدوء، فأنتَ تدوس على ميماتي

الحقيقة، بالنسبة للدين، هي ببساطة الرأي الذي استطاع البقاء.

أوسكار وايلد

بدأ هذا الفصل بالإشارة الى أن وجود أي شيء مُنتشر بكثرة لدى جنس ما، مثل الدين، يجب أن يكون لهُ فائدة وإلا فلن يُكْتَب لهُ البقاء لأن الانتخاب الطبيعي الدارويني يكره التبذير. ولكنني نوهت أن الفائدة ليس عليها أن تساهم في نجاح بقاء أو تكاثر الفرد. وكما رأينا، فإن مصلحة جينات فيروس الرشح تكفي لشرح الوجود البائس لمرض الرشح هذا في نوعنا البشري. ولا يجب أن تكون المورثة حتى مُستفيدة. بل أي مورث ناسخ آخر سيؤدي الغرض. والجينات هي فقط المثال الأكثر وضوحاً للناسخات. مُرشحون آخرون هم فيروسات الكمبيوتر مثلاً والميمات، وهي وحدات المعلومات الثقافية المتوارثة والتي هي موضوع هذا الجزء. إذا أردنا فهم الميمات فعلينا أن ننظر أولاً بدقة أكبر لكيفية عمل الانتخاب الطبيعي.

بشكل عام يجب على الانتخاب الطبيعي أن يختار من بين الناسخات البديلة المُختلفة. الناسخ هو قطعة من المعلومات المُشفَّرة التي تَصنع نُسخاً مُطابقة لذاتها وقليلاً من النُسخ غير المضبوطة تماماً، أو ما يسمى "الطفرات". والنُقطة التي نتكلم عنها هنا هي داروينية. أصناف الناسخات التي شاءت الصدف أن تكون جيدة لتضاعفَ نفسها يزداد عددها على حساب الناسخات الأخرى التي جودتها أقل في التضاعف. ذلك هو الشرح الأولي للانتخاب الطبيعي. الناسخ الرمزي هنا هو المُورث، شريط للحمض النووي DNA يتضاعف، وبدقة تكاد تكون بالغة دوماً، عبر أجيال لا عدد لها. السؤال المركزي في نظرية الميمات هي عما إذا كانت هُناكَ وحدات ثقافية تقليدية تسلك سُلوك الناسخات، مثل المُورثات. لا أقول هنا أن الميمات هي بالضرورة نظير قريب للمورثات، أقول فقط بأنهُ كُلما كانت الميمات أكثر شبهاً بالمورثات، فإن النظرية تعمل بشكل أفضل. والسؤال هنا هو فيما إذا كان بإمكان نظرية الميمات أن تعمل في الحالة الخاصة للدين.

في عالم المُورثات تعمل الأخطاء في النسخ (الطفرات) على إيجاد مورثات بديلة (أليل) في بنك المورثات كبدائل لكل مورث، حينها نراها في حالة تنافس مع بعض. تنافس بعضها على ماذا؟ على المكان الخاص للمُورث في الصبغة الوراثية والذي ينتمي لهذا الصنف من الأليل. كيف تتنافس؟ ليس بمعركة بين الجزيء والجزيء الآخر، بل بواسطة وكلاء. الوكلاء هم "الصفات الظاهرة"، أشياء مثل طول الرجلين، أو لون الفروة: مظاهر المورثات تبرز للخارج على شكل تشريحي، وظيفي وكيمياء حيوية أو سلوكي. ومصير المورث مرتبط بالأجسام التي يسكنها على التوالي. إلى درجة أنه يؤثر بتلك الأجسام، يؤثر في فرصها في البقاء في بنك

المورثات. مع مرور الأجيال تكثر المورثات أو تقل بشكل متواتر في بنك المورثات بحسب فضائل وكلائها الظاهرين.

هل ينطبق نفس الشيء على الميمات؟ من جهة هي ليست أبداً كالمورِّثات لأنها لا تملك ما يقابل الصبغات الوراثية، ولا مواقع لتلك الصبغات، أو أليلات، أو إعادة تركيب جنسي. بنك الميمات أقل تنظيماً وترتيباً من مجموعة المورثات. بالرغم من ذلك، فليس من السخف التحدث عن البنك الميمي بحيث يكون لميمات معينة "تواتر" مُعين يُمكن أن يتغير نتيجة لتفاعل بين ميمات بديلة.

البعض يتحفظ على التفسيرات الميمية، ولأسباب مُختلفة تُبنى غالباً على أن الميمات ليست تماماً كالمورثات. التركيب الفيزيائي للمورثات معروف (سلسلة الحمض النووي) تركيب الميمات ليس معروفاً، ميمات مُختلفة تحيِر بعضها بالانتقال من وسط فيزيائي لآخر. هل توجد الميمات في الدماغ فقط؟ أو أن كُل نسخة ورقية أو إلكترونية لقصيدة فكاهية مثلاً يحق لنا تسميتها بالـ "ميمة"؟ ومرة أخرى تتضاعف الجينات بدقَّة عالية جداً، بينما لو تضاعفت الميمات أصلاً، ألن تفعل ذلك بدقَّةٍ منخفضة؟

تلك المشاكل المزعومة عن الميمات مبالَغ فيها إلى حدٍّ ما. وأهم اعتراض عليها هو الزعم بأن الميمات لا تُنسخ بدقة عالية بالنسبة لوظيفتها كناسخ دارويني. الاشتباه كالتالي، لو أن "نسبة الطفرات" في كل جيل كانت عالية، فإن الميمات ستتغيّر بشكل يقضي عليها قبل أن يستطيع الانتخاب الدارويني أن يؤثِّر على تواترها في بنك الميمات. ولكن تلك المشكلة وهمية. فكِّر بمُعلِّم النِّجارة أو حَجّار من قبل التأريخ، وهو يستعرض المهارات لشاب مُتمرن سيخلفهُ في الحرفة. لو أن الخليفة قلَّد بأمانة كُل حركة يدوية للمعلم، سنتوقع بكل تأكيد أن الميمات ستتغير بشكل لا يُمكن التمييز بينها بعد عدد قليل من "الأجيال" بين المعلم والمتمرن. ولكن الشاب المتمرن على الحرفة بالطبع لن يحاول تأدية نفس الحركات اليدوية. ذلك سيبدو سخيفاً. عوضا عن ذلك، سيلاحظ الهدف الذي يُحاول المُعلِّم أن يُحققه ويقلِّد ذلك. إنه يدقُّ المسمار حتى يصبح الرأس على مستوى مساوٍ للوح الخشب مُستخدماً عدداً كافياً من ضربات المطرقة التي ربما لا تكون بنفس عدد ضربات المُعلم. تلك هي القواعد التي يمكن أن تمرّ عبر الأجيال بدون تغييرات، ولا يهم كون تفاصيل تنفيذها تختلف من فرد لآخر ومنْ حالة لأخرى. عدد الغرزات في التطريز، وعدد العُقد في شبكة الصيد، وطريقة طي الألعاب الورقية، والخُدع المُفيدة في النجارة أو صناعة الفُخار: كُل ذلك يُمكن اختزاله لعدَّة عناصر ستكون لها فرصة للمرور عبر الأجيال المُتلاحقة عبر التقليد بدون تغيير. ربما تختلف التفاصيل، ولكن الخلاصة ستمرّر بدون تغيير، وهذا كُل ما نحتاجه في عملنا على المقارنة بين الميمات والمورِّثات.

في مقدَّمتي لكتاب سوزان بلاكمور، "ماكينة الميمات"[1]، طوّرتُ مثالاً عن طريقة طيِ الورق في عمل نموذج من الجنك الصيني[2]. الوصفة كانت مُعقَّدة. ولها إثنان وثلاثون خطوة لعملية طيِ الورقة (أو ما

1 . The Meme Machine, Susan Blackmores.

2 . الجنك (جمع جنوك) أو الينك هو تصميم صيني قديم للسفن الشراعية لا يزال مستخدماً حتى اليوم. (المترجم)

شابه). النتيجة النهائية كانت نموذجاً ظريفاً، وكذلك كانت ظريفة على الأقل المراحل المتوسطة الثلاث في الفترة "الجنينية" المُسمّاة "الرمث"، و"الصندوق مع غطاء مضاعف"، و "برواز اللوحة". العملية تذكرني بالتأكيد بالطيّات التي تحصل في الأغشية الجنينية خلال مراحل تطوّرها من شكل لآخر. تعلَّمتُ عمل الجِنْك الصيني في طفولتي من أبي الذي تعلَّمها بدوره عندما كان في نفس العمر من أقرانه في المدرسة. لعبة الجنك الصيني بدأتْها إحدى المشرفات في مدرسة والدي حينها. ثم انتشر الهوس في المدرسة بالجنك الصيني كما تنتشر عدوى الحصبة، ثم مات الهوس كما تنتهي عدوى الحصبة أيضاً. وبعد ستة وعشرين عاماً، وبعد أن ماتت المُشرِفة تلك بزمن طويل، ذهبتُ أنا إلى المدرسة ذاتها. ونشرت الهوس مرة أخرى، وانتشر مرة أخرى أيضاً كمرض معد، ومات بعد ذلك مرة أخرى. إن الواقع بأن مهارات قابلة للتعليم كتلك تنتشر بهذا الشكل يقول لنا شيئاً عن أمانة النسخ في الميمات. وبإمكاننا أن نكون متأكدين بأن الجنك الذي صنعه أقران والدي في العشرينات في تلك المدرسة ليس مُختلفاً عن الذي صنعناه نحن بشكل عام في الخمسينات.

نستطيع تفحّص الظاهرة بصورة أكثر منهجية من خلال التجربة التالية: لعبة شبيهة بلعبة الهمس الصينية (في أمريكا يسميها الاطفال الهاتف). خذ مئتي شخص من الذين لا يملكون أي خبرة عن الجنك الصيني وقَسِّمهم إلى عشرين فريقاً بعشرة أشخاص في كل فريق. اجمع رئيس كل فريق حولك وأرهم كيف يصنعون لعبة الجنك الصيني الورقية. أرسل هؤلاء الآن إلى الشخص الثاني في الفريق ليعلِّمه بمفرده طريقة عمل الجنك الصيني من خلال استعراض طريقة العمل. هؤلاء الأشخاص "الجيل الثاني"، بدورهم يعلِّمون الشخص الثالث كلٌّ في مجموعته، وهكذا إلى أن يتعلم الشخص العاشر في كل مجموعة طريقة عمل الجنك الصيني. قُمْ بجمع الجِنْكَات التي تمّ عملها في كل فريق، وقم بتمييزها بواسطة مُلْصَق عليه اسم الفريق ورقم "الجيل" الذي تمّ صنعه فيها كي تستطيع مراقبتها لاحقاً.

حتى الآن لم أطبِّق التجربة على أرض الواقع (شخصياً أرغب بتجربتها)، لكنني بالرغم من هذا فلديّ توقعات واضحة ماذا ستكون النتيجة. توقُّعاتي تقول بأنهُ لن ينجح الجميع في نقل الخبرة متكاملة حتى العضو العاشر في كل مجموعة. لكن عدداً معيناً منهم سيقوم بذلك. في بعض الفرق ستظهر بعض الأخطاء. حلقة ضعيفة في السلسلة ربما تنسى خطوة مهمة، وكل الأفراد بعدهُ سيفشلون بالمهمّة بسببه طبعاً. الفريق رقم 4 ربما سينجح بالوصول الى المرحلة "الجنينية"، لكنهُ يفشل فيما بعد. العضو الثامن في الفريق رقم 13 قد يحصل على "طفرة" حين يحين دوره. ثم يقوم العضو التاسع والعاشر باستنساخ هذه الطفرة إلى أعمالهم.

الآن سأجري توقُّعات جديدة بخصوص الفرق التي نجحت في نقل الخبرة بنجاح حتى العضو العاشر فيها. إذا قمتَ بترتيب الجنكات حسب التسلسل الجيلي، فإنك لن ترى أي تدهور منهجي على المستوى النوعي مع رقم الجيل. من ناحية أخرى، إذا قمتَ بإجراء تجربة مماثلة تماماً من كل النواحي ما عدا أنَّ المهارة المطلوب نقلها هنا هي ليست طي الورق، إنما نسخ رسمة لهذا الجنك الصيني، حينها سيكون هناك، بشكل مؤكد تدهوِر منتظِم في دقة انتقال نمط الجيل الأول وبقائه إلى الجيل العاشر.

في تجربة الرسم، جميع رسومات الجيل العاشر ستحمل شبهاً خفيفاً لرسومات الجيل الأول. وفي كُل فريق فإن الجودة تهبط بصورة أكثر أو أقل بشكل منتظم خلال تقدُّمك نزولاً في الأجيال. في تجربة الطيِ يحدث عكس ذلك، فإن الموقف مرتبط بخيارين: إما أخطاء كليّة، أو لا خطأ على الإطلاق: الأخطاء تصبح "طفرات رقمية". فريقٌ ما إمّا أنه لا يرتكب أيّ خطأ، وبالتالي فإنَّ الجنك الصيني في الجيل العاشر لا يكون أسوأ ولا أفضل من الجنك المنتَج في الجيل الخامس أو الجيل الأول، أو أن تكون هناك "طفرة" في جيل معين، وكل الجهود بعده ستكون فشلاً تامّاً، غالباً يتمّ استنساخ الطفرة بكل أمانة.

ماهو الفرق الجوهري بين تلكَ المهارتين؟ هل مهارة الطي تحتوي على سلسلة من الأفعال المنفصلة بحيث أنَّ أياً منها ليس صعب التنفيذ بحدٍّ ذاته. في الغالب العمليات تكون مثل: "أطوي طرفي الورقة نحو الوسط". ربما يِنجز عضو معين في الفريق هذه الخطوة بطريقة خرقاء، ولكن سيكون واضحاً للعضو التالي بعده ما يحاول فعله. إنَّ خطوات فن طي الورق فيها شيء من "التطبيعِ الذاتي"، وذلك ما يجعل تلك الخطوات "رقمية". تماماً كما هو الحال مع النجّار الذي هدفه واضح لصبيه المتمرن وهو جعل المسمار على مستوى الخشب بغض النظر عن التفاصيل في عدد ضربات المطرقة. إما أن يفهم الشخص الخطوة المُعْطاة في وصفة طي الورق بشكل صحيح، أو لا. مهارة الرسم على العكس من ذلك، فهي مهارة تناظرية وليست رقمية. الكُلُّ يستطيع تقليد الرسم، ولكن البعض ينسخ الرسم بدقة أكبر من الآخرين، ولا أحد ينسخ الرسم بامتياز. الدقَّة في النَّسْخ تعتمد أيضاً على الوقت والاهتمام المكرّس لها، وهذه كميات متغيِّرة باستمرار. علاوة على ذلك، بعض أعضاء الفريق سيجَمِّلون و"يُحسِّنون" النموذج السابق بدلاً من مجرد نسخه.

إن الكلمات - على الأقل عندما تكون مفهومة - هي ذاتية التطبيع بنفس طريقة مراحل لعبة طي الورق. وفي لعبة الهمس، تُروى قصة أو عبارة للطفل الأول ويُطلب منه أن يمررها للطفل التالي، وهكذا. إذا كانت العبارة أقل من سبع كلمات في اللغة الأمّ لكُل الأطفال، فهُناك فرصة جيدة أن تبقى الرسالة بدون تحوير لعشرة أجيال. أما إذا كانت بلغة أجنبية غير معروفة بحيث يكون على الأطفال التقليد الصوتي بدلاً من تبادل الكلمات، فإن الرسالة الأولى لن تبقى. نمط التدهور عبر الأجيال سيكون مُشابهاً للرسم، والرسالة ستصبح مشوّهة. عندما تكون العبارة لها معنى باللغة الأمّ للأطفال ولا تحتوي على كلمات مُعقَّدة مثل "أنماط ظاهرية" أو "الأليل"، فإنها تبقى. وعوضاً عن محاولة تقليد الصوت النمطي، فإن كُل طفل يتعرّف على كُل كلمة كمفردة في مجموعة المفردات المحدودة ويختار الكلمة نفسها عندما يريد تمريرها للطفل التالي، ربما ملفوظة على الغالب بطريقة مُختلفة. اللغة المكتوبة أيضاً لها نفس ميزة التطبيع الذاتي لأن التمايُلات على الورقة، مهما اختلفت في تفصيلها، كلها مكتوبة من أحرف أبجدية محدودة، لنقل 28 حرفاً على سبيل المثال.

أن تُظهِر الميمات، في بعض الأحيان، أمانة عالية في النقل بناء على قدرتها في التطبيع الذاتي، يكفي للإجابة عن بعض التساؤلات والردّ على أكثر الاعتراضات شيوعاً في موضوع التناظر بين المورثات والميمات. وعلى

أية حال، إن الغرض من نظرية الميمات في هذه المرحلة المُبكرة من تشكُّلها، هو ليس لإعطاء نظرية مفهومة للثقافة مُقابلة لنظرية المورثات لواتسون وكريك. غرضي الرئيسي هنا في الدفاع عن الميمات كان بالطبع لدحض الإنطباع بأن المورثات هي الظاهرة الداروينية الوحيدة التي لدينا، هكذا انطباع كان يمكن أن يتولَّد مِن كتاب "الجين الأناني". لقد أكد بيتر ريشرسون وروبرت بويد على هذه النقطة في عنوان كتابهم القيِم والمدروس "ليس بالجِينات وحدها"، بالرغم من أنهما تطرّقا لسبب عدم تبني كلمة "ميمة" بذاتها، ومُفضلين عليها كلمة "المتغيِرات الثقافية". كتاب ستيفان شينان، "جينات، ميمات، وتأريخ الإنسان"، تمّ استيحاؤه بشكل جزئي من كتاب ممتاز أقدم لبويد وريشرسون، "الثقافة وعملية التطور". كتب أخرى تتناول الميمات مثل كتاب روبرت أونغر "الميمة الكهربائية"، وكتاب كيت ديستين "الميمة الأنانية"، وكتاب "فيروسات العقل: علم الميمات الجديد" للكاتب ريتشارد برودي.

ولكن تجدر الإشارة إلى أنَّ سوزان بلاكمور في كتابها، "ماكينة الميمات"، هي التي دفعت نظرية الميمات أكثر من أي شخص آخر. أعطتنا مرة تلو الأخرى صورة خيالية لعالم مليء بالأدمغة (أو أي وسائط أو قنوات أخرى، كالحواسيب أو موجات الراديو) والميمات تتدافع لاحتلالها. كما مع المورثات في بنك المورثات، الميمات التي تفوز هي الميمات التي تكون جيدة في جعل نفسها تُنْتَسَخ. قد يكون السبب كون الميمات بحد ذاتها جذابة كما في حالة ميم الخلود لدى البعض. أو ربما لأنها تزدهر في وسط من الميمات الأخرى التي أصبح عددها كبيراً في بنك الميمات. وهنا تنشأ الأنظمة الميمية المركَّبة. وكالعادة في الميمات، فإننا نستطيع فهمها بالعودة إلى الأصل الوراثي المشابه لها.

لغرض تعليمي بحت تعاملتُ مع المورثات وكأنها وحدات منعزلة وتتصرف بشكل مُستقلّ. ولكن بالطبع هي ليست مُستقلة عن بعضها البعض، وهذا واضح من خلال نقطتين. الأولى، المورثات مصفوفة بشكل خطي على خيوط الصبغات الوراثية، وتميل للتحرك معاً عبر الأجيال بمُرافقة المورثات المجاورة لها على تلك الصبغات. ونحنُ الأطباء ندعو ذلك الترابط، بالترابط، ولا يُفتَرَض أن أقول أكثر من ذلك في هذا الموضوع لأن الميمات ليس لها صبغات، أو أليلات، أو إعادة دمج جنسي كالمورثات. والنقطة الثانية التي تكون فيها المورثات غير مُستقلة، هي مُختلفة كثيراً عن الترابط الوراثي، وهنا لدينا مثال ميمي جيد يتعلق بعلم الأجِنَّة الذي هو علْمٌ مُختلف تماماً عن علْمِ الوراثة (وهناك سوء فهم شائع عادة بالدَّمْج بينهما). الأجسام ليست مصفوفة كموزاييك لقطع ظاهرة، كل واحدة مساهمة بمورث مُختلف. ليس هُناكَ ما يربط كل مورِّثة بعضو أو سُلوك معين في التركيب الأحيائي. كل مورِثة "تتعاون" مع مئات أخرى من المورثات لبرمجة العملية التطويرية التي تبلغ أوْجَها في الجسد، بنفس الطريقة التي تشترك فيها كلمات وصفة في كتاب طبخ لتظهر بعد ذلك في الطَّبَق. كُل كلمة في الوصفة لا تقابل لقمة مُعينة في الطَّبَق.

إذن تتعاون المورثات بشكل اتحادات لبناء الأجسام، وهذا أحد أهم مبادئ علم الأجِنَّة. ومن المُغري القول بأن الانتخاب الطبيعي يُفضِّل أنواع من إتحادات من المورّثات بشكل إنتخاب جمعي بين الاتحادات بديلة. وهذا شيء يبدو محيراً. في الواقع ما يحصل هو أن المورثات الأخرى في بنك المورثات تؤلِّف جزءاً كبيراً من الوسط الذي تُختار فيه كل مورثة ضد ما يقابلها من أليلات. لأن كُل مورثة يتمّ اختيارها كي تكون ناجحة

بوجود المورثات الأخرى في مجموعتها، الذين أختيروا أيضاً بنفس الطريقة، وبذلك تظهر الاتحادات التعاونية للمورثات. ويبدو أن لدينا هنا شيء أشبه بالسوق الحرة عوضاً عن خطة اقتصادية. هُناكَ اللحّام والخبّاز، ولكن ربما هُناكَ فجوة وفراغ في سوق صناعة التَّحَف. تلك اليد الخفية للانتخاب الطبيعي تملأ الفراغ هنا. وهذا شيء مختلف عما لو كان هناك جهة تخطيط مركزية تُفضِّلُ الثلاثي لحام + خباز + صانع التُحف. إن فكرة الاتحادات التعاونية المجموعة بواسطة يدٍ خفية ستكون مركزية في فهمنا لميمات الدِّين وكيفية عملها.

أنواع مُختلفة من اتحادات المورثات تظهر في بنك المورثات. بنك مورثات الحيوانات المفترسة فيه مورثات تبرمج أعضاء حسية لاكتشاف الفريسة ومخالب للإمساك بها وأسنان قاطعة وأنزيمات لهضم اللحم ومورثات كثيرة أخرى، كلُّها مضبوطة بشكل دقيق كي تعمل معاً. في الوقت نفسه، توجد في بنك المورثات للحيوانات النباتية مجموعات مُختلفة من المورثات المنسجمة التي يتم تفضيلها لتعاونها مع بعضها. الفكرة التي نعرفها هي أن المورثات يتم تفضيلها بسبب تطابقها الظاهري مع البيئة الخارجية للكائنات الحية: مثل الصحراء أو الغابات أو غيره. والنقطة التي أودُّ التنويه لها هنا هي أن المورثة يتم تفضيلها أيضاً لتوافقها مع مورثات أخرى في بنك المورثات الخاص بها. والمورثة لحيوان مفترس لن تبقى وتستمر في بنك المورثات لحيوان نباتي، والعكس بالعكس. وعلى المدى الطويل يتكوّن بنك المورثات لكائنٍ ما، وهو مجموعة المورثات خُلِطَتْ مراراً وتكراراً عن طريق التكاثر الجنسي، الذي يتألف من بيئة وراثية حيث يتمّ اختيار كل مورثة على أساس قدرتها على التعاون. وبالرغم أن بنك الميمات أقلُّ تنظيماً وتخطيطاً من بنك المورثات، إلا أننا نظلُّ نستطيع التكلُّم عن بنك الميمات كجزء مهمّ من "بيئة" كل ميمة في النظام الميمي المركَّب.

النظام الميمي المركَّب هو عبارة عن مجموعة من الميمات التي لن تنجح على الأغلب بالبقاء بالاعتماد على قدراتها فقط، لكنها تُصبح قادرة على ذلك بوجود أعضاء آخرين في النظام المُركَّب هذا. في الفقرة السابقة كُنتُ قد شككت بأن تفاصيل لغة ما وتطورها سيتم تفضيلهُ من قِبل أي نوع من الانتخاب الطبيعي. واقترحت أن تطوّر اللغة محكوم بانجراف عشوائي. من البديهي أن بعض الأحرف الصوتية تصل لمسافات أبعد من غيرها في المناطق الجبلية، ولذلك فربما أصبحت خواصّ للُّغة المحكية المحلية لمناطق مثل سويسرا والتِّبت وغيرها. بينما أحرف أخرى تكون أفضل للهمس في الغابات الكثيفة، وبذلك تُصبح من خواص لغات الأمازون وما شابه. المثال الوحيد الذي استشهدت به عن أن اللغات تخضع للانتخاب الطبيعي - نظرية تطور الأحرف الصوتيةِ بسبب فعاليتها - ليس من هذا النوع. إنه ناتج عن الميمات التي تجد لنفسها موقعاً جيداً في نظامٍ ميمي مُركَّب. أحد الأحرف الصوتية يتغير أولاً ولسبب غير معلوم، ربما لتقليد أحد الاشخاص المُهمين أو المحبوبين، كما يقال عن اللُّغة الإسبانية. لا يهم كيف بدأ الانجراف اللغوي، فبالاعتماد على هذه النظرية، عندما تغيّر الحرف الأول تتبعه أحرف أخرى مثل عربات القطار للتقليل من عدم الوضوح، وهكذا على التوالي. وفي هذه المرحلة الثانية من العملية أختيرت الميمات من بنوك الميمات الموجودة مُسبقاً، وبُنيت منها مجموعة ميمات مركبة جديدة ومتآلفة فيما بينها.

والآن لدينا ما يكفي من المعلومات لتطبيق نظرية الميمات على الدّين. من المُمكن تصوّر أن بعض الأفكار الدينية، مثلها مثل بعض المورثات، تستمر لأنها تستحق ذلك. هذه المَيمات ستبقى في أي بنك ميمي، بغض النظر عن الميمات التي تحيط بها. (عليّ أن أكرر مرة ثانية أنّ "الاستحقاق" في هذا السياق لا يعني أبداً وجود قيمة ما للفكرة نفسها، وإنما فقط "لقدرتها على البقاء في البنك"). بعض الأفكار الدينية تبقى لأنها متوافقة مع ميمات أخرى موجودة مسبقاً بكثرة في البنك الميمي كجزء من مجموعة ميمات مركبة. فيما يلي قائمة مجتزءة لبعض الميمات الدينية التي يبدو أنّ لها قدرة على البقاء في البنك الميمي "لاستحقاقها"، أو بسبب تطابقها وتماشيها مع ميمات أخرى موجودة في مجاميع ميمية مركبة:

- ستحيا بعد موتك
- إذا مُتَّ شهيداً، فسيكون لك مكان خاص في الجنة الرائعة حيث تستمتع بإثنين وسبعين حورية عذراء (فكِّر قليلاً بالعذراوات المسكينات).
- الزنادقة والكفار والمُرْتَدُّون يجب قتلهم (أو معاقبتهم بشكل آخر، مثلاً تتبرّأ عائلاتهم منهم)
- الإيمان بالله هو أهم فضيلة. وعندما تجد بأن إيمانك يهتزّ، عليك العمل بجدٍّ لترميمه، واطلب من الله أن يساعدك في ذلك. (في مناقشتي لرهان باسكال نوّهتُ على أنه افتراض غريب أن يكون الشيء الوحيد الذي يريده الله منّا حقاً هو أن نؤمن به. وقتها تعاملت مع ذلك كشيء غريب، والآن أصبح لدينا تفسير لذلك)
- الإيمان (الاعتقاد بشيء بدون أدلة) فضيلة. كُلما كانت مُعتقداتك تنافي الأدلة أكثر، كلما كانت فضائلك أكبر. المؤمنون الفُضَلاء الذين يقدرون على الإيمان بأشياء غريبة لا أساس لها ولا يُمكن أن تصمد عند مواجهة الأدلة، هؤلاء لهم أجراً أكبر.
- الجميع، وحتى هؤلاء الذين لا يحملون معتقدات دينية، يجب عليهم، بشكل مباشر وبدون أي تساؤل، احترام هذه المعتقدات بشكل تلقائي وبدرجة أعلى من الاحترام الممنوح لأنواع أخرى من المعتقدات (ناقشنا ذلك في الفصل الاول).
- هناك بعض الأشياء الغريبة (مثل الثالوث المُقدس والقيامة والصعود للسماء) والتي لم نُخلَق لفهمها. لا تحاول فهمها أساساً لأن مُحاولة فهمها ربما تهدمها. تعلَّم كيفية قبولها فقط بوصفها بالأشياء الغامضة. تذكَّر إدانات لوثر الخبيثة للعقلانية التي تمّ اقتباسها في الفصل الخامس، وتخيلّ كيف ممكن أن تشكل حماية لبقاء الميمة.
- الموسيقى الجميلة والفن والكتب المقدسة، هي نفسها رموز لديها قدرة نسخ ذاتي للأفكار الدينية[1].

1 . الفنون بمدارسها وأنواعها المختلفة يمكن اعتبارها مجاميع ميمية مركبة، حيث الفنانون الجدد يقومون باستنساخ أعمال الرواد السابقين وأفكارهم. الافكار الجديدة تستطيع البقاء فقط إذا استطاعت التأقلم مع البقية. كل هذا البناء الأكاديمي المنظم من تأريخ الفن مع كل ما يملكه من رغبة جامحة في البحث عن الأيقونات والرموز من مختلف الأشكال، من الممكن دراسته كمثال حي للمجاميع الميمية المركبة. بعض التفاصيل ممكن ان تنتشر أو تنتهي بسبب علاقتها بأعضاء البنك الميمي الذي تنتمي له. غالباً ما يكون للميمات الدينية مكان هنا.

بعض الميمات من اللائحة السابقة لهُ على الأرجح قيمة مُطلقة للبقاء، وسيزدهر في أي تجمّع ميمي مُركَّب. ولكن، وكما هو الحال في المورثات، فإن بعض الميمات تبقى فقط على خلفية وجودها مع ميمات مناسبة أخرى، والنتيجة تؤدي الى بناء عدة مجاميع ميمية مُركبة بديلة. دينان مُختلفان مثلاً يُمكن أن يُنْظَر إليهما على أنهما مجمعان ميميّان بديلان لبعض. ربما يكون الإسلام نظيراً لمورثات اللواحم (أكلة اللحوم)، والبوذية نظير للنباتيات. أفكار أحد الدينين ليست بأفضل من الآخر بأي معنى مُطلق، تماماً كما هو الحال في أن مورثات آكلات اللحوم ليست "أفضل" من مورثات النباتيات. الميمات الدينية من هذا النوع لا تمتلك بالضرورة أي قابلية مُطلقة للبقاء؛ ومع ذلك، هي جيدة بمعنى أنها تزدهر بوجود ميمات أخرى من نفس دينها، وليس بوجود ميمات من الدين الآخر. وتبعاً لهذا النموذج، فالروم الكاثوليك والإسلام مثلاً لم يُصمّما بالضرورة من قبل أفراد، ولكن تطوّرا بشكل مُستقلّ كمجموعات ميمية بديلة تزدهر بحضور أعضاء آخرين من نفس المجمّع الميمي المركب.

الأديان المُنظَّمة يقوم بتنظيمها أشخاص: قساوسة ومطارنة وحاخامات وأئمة وآيات الله. ولكن، ولإعادة توضيح النقطة التي عالجتها بالنسبة لمارتن لوثر، ذلك لا يعني بأنها (الأديان) مصمّمة أو مبتدعة من الأفراد. حتى في الحالة التي أُستُغلَّ فيها الدين لمصلحة أفراد نافذين، فإن الإمكانية القوية تبقى بأن تفاصيل كُل دين قد شذِّبَت وشُكِّلَتْ بطريقة تطوّرية لاواعية. ليس بالانتخاب الطبيعي الوراثي والذي هو بطيء جداً ليكون سبباً في التطور السريع والمُتنوع للأديان. دور الانتخاب الطبيعي الوراثي في القصة هو تزويد الدماغ بميوله وانحيازاته؛ منصة أدوات ومنظومة بدائية من البرامج والذي يشكل الخلفية للانتخاب الميمي. وبهذه الخلفية، يبدو لي أن الانتخاب الطبيعي الميمي يقدِّم نوعاً ما تعليلاً معقولاً للتطور المفصّل لدين معيّن. في الأطوار البدائية من تطور الدين، وقبل أن يُصبح مُنظماً، تدين الميمات ببقائها لقيمتها المُستقلة وجاذبيتها من الناحية النفسية البشرية. وهُنا تلتقي نظرية الدين كميمات ونظرية الدين كناتج عَرَضي نفسي. المراحل اللاحقة، حيث يصبح الدين مُنظَّماً ومدروساً ومُميّزاً عن الأديان الأخرى، تُشَرَح بشكل جيد جداً بواسطة نظرية المجاميع الميمية المركبة؛ اتحادات الميمات المتوافقة فيما بينها. ذلك لا يُلغي الدور الإضافي للتلاعُب المتعمّد من قِبَل القساوسة والآخرين لتطويع الدين لمصالحهم. الأديان، كما يبدو ولو بجزء ما، مُصمّمة بذكاء، كما هو الحال في المدارس والموضة في الفن.

الدين الوحيد الذي صُمِّم بذكاء، بأكمله تقريباً، هو السَينْتولوجي[1]، ولكني أشكُّ بأنه حالة استثنائية. والمثال الآخر عن الدين المصمّم كلياً هو الدين المورموني. جوزيف سميث، العبقري الكاذب الذي اخترعهُ، ذهب إلى حدّ تأليف كتاب مُقدس جديد بشكل كامل (كتاب مورمون)، ألَّف تأريخاً مُزيّفا لأمريكا كتبه بلغة إنكليزية مُزيّفة تَعود للقرن السابع عشر. ولكن المورمونية على أية حال تطوّرت مُنذ زمن صناعتها في القرن التاسع عشر، وأصبحت أحد أديان أمريكا التي تُعتبر رئيسية، بالطَّبع تدَّعي أنها الديانة الأسرع انتشاراً، وهُناك بعض الشائعات عن مُرشَّح للرئاسة الأمريكية ممن ينتمون إليها[2].

---

1 . السايِنْتولوجيا (SCIENTOLOGY)، تشكل مجموعة من التعاليم الدينية والمعتقدات، تستند إلى فلسفة علمانية تأسست عام 1952 من قبل المؤلف رون هوبارد L. Ron HUBBARD ومن ثم أعاد نفس المؤلف صياغتها باعتبارها "فلسفة دينية تطبيقية". (المترجم)

2 . هذه الشائعات أصبحت حقيقة عندما رشَّح المرموني ويلآرد روماني نفسه عن الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية عام 2008. (المترجم)

معظم الأديان تتطور. ومهما كانت نظرية تطور الأديان التي نتبنّاها، فعليها أن تكون قادرة على تفسير السرعة الهائلة للعملية التي تطور فيها الدين، تستطيع الأديان الازدهار بوجود ظروف مؤاتية. وفيما يلي حالة مدروسة.

طوائف شحنات البضائع

في فيلم "حياة برايان"[1]، كانت إحدى النقاط التي برع فريق المونتي بايثون بإظهارها هي السرعة الهائلة التي يستطيع فيها دين جديد الانطلاق. يستطيع الظهور للوجود تقريباً بين ليلة وضُحاها، وبعدها يُصبح جزءاً من الثقافة ويلعب دوراً رئيسياً مُزعجاً. "طوائف شحنات البضائع" في ميلانزيا في المحيط الهادي وغينيا الجديدة، أكثر الأمثلة وضوحاً على أرض الواقع. تاريخ بعض هذه الطوائف من البداية حتى انتهاء مفعول الدين لازال يتواجد في الذاكرة الحية. على العكس من طائفة يسوع، والتي لا يُمكن إثبات منشأها بشكل أكيد، فإننا هنا نستطيع رؤية أحداث كُل مرحلة أمام أعيننا (وحتى هنا كما سنرى ضاعت بعض التفاصيل). من المثير جداً التفكير بأن الدين المسيحي قد بدأ بشكلٍ شبه مؤكَّد بالطريقة نفسها، وانتشر بدايةً بالسرعة ذاتها.

مصدري الرئيسي عن طائفة شحنات البضائع هو دايفيد آتينبورو في كتابه "السّعي في الجنة"[2]. والذي تلطَّف بإهدائه لي. النَّمط نفسه للجميع من أقدم طائفة في القرن التاسع عشر وصولاً إلى الطوائف الأكثر شهرة التي نمت فيما بعد أحداث الحرب العالمية الثانية. ويبدو أنه في جميع الحالات، قد انبهر أهل الجُزُر بروعة أملاك المهاجرين البيض الذين قدموا لجزرهم، من ضمنهم الموظفين والجنود والمُبشرين. ربما أنهم كانوا ضحية قانون كلارك الثالث الذي ذكرته في الفصل الثاني: "أي تقنية مُتقدِّمة بشكل كاف لا يُمكن تمييزها عن السحر".

أهل الجزيرة لاحظوا بأن البيض الذين يتمتعون بتلك العجائب لم يصنعوها بأنفسهم أبداً. وعندما يحتاج شيء ما للإصلاح فإنه يُرسَل لمكان آخر، ولاحظوا أن الأشياء الجديدة استمرّت بالقدوم في "شُحنات" البواخر، وبعدها بالطائرات. لم يُشاهَد رجل أبيض يصنع أو يُصلح شيئاً البتَّة، ولا حتى فعلوا أيّ شيء مما يُمكن اعتباره عملاً مفيداً من أيّ نوع (الجلوس خلف المكتب واللعب بأوراقٍ بدا واضحاً وكأنهُ نوع من أنواع الطُّقْس الديني). من الواضح إذن بأن "الشحنة" يجب أن تكون ذات أصل غير عادي. ولتعزيز تلك الفكرة، فإن البيض يقومون بأشياء لا يُمكن تفسيرها إلا بأنها طقوس احتفالية:

---

[1] حياة براين هو فلم كوميدي ساخر شهير عن المسيحية من أخراج تيري جونز. (المترجم)

2 . QUEST IN PARADISE, DAVID ATTENBOROUGH.

"يبنون سواري مع حبال مُعلقة بها ويجلسون يستمعون لصناديق صغيرة يتوهج منها ضوء، وتشيع ضجة مُثيرة للفضول وأصوات بشرية خافتة؛ أقنعوا السكان المحليين بارتداء زي موحد والمشي في صفٍّ مُنتظم ذهاباً وإياباً، من الصّعب التفكير بشيء أقلّ فائدة من ذلك. وبعدها لاحظ السُكّان المحليّون أنهم وصلوا للجواب على السؤال الغامض. تلك التصرّفات غير المفهومة هي الطقوس التي يستعملها البيض لإغراء الآلهة ليُرسلوا الشحنات. وإن أراد المحليون الحصول على شحنة بضائع، فإن عليهم فعل الشيء ذاته".

من المُلفت للنظر بأن طوائف شحنات البضائع المتشابهة ظهرت بشكل مُستقل وفي جُزر متباعدة جغرافياً وثقافياً. دايفيد آتينبورو يقصّ علينا بأن...

"عُلماء الإنسان تمكّنوا من ملاحظة تفشّي حالتين منفصلتين في كاليدونيا الجديدة، وأربعة في جزر السالمون، وأربعة في فيجي، وسبعة في هيبريد الجديدة، وأكثر من خمسين في غينيا الجديدة، الغالبية كانت مستقلة وليس هُناكَ علاقة بين إحداها والأخرى. غالبية تلك الأديان تدّعي بأن هُناكَ مُخلّصاً ما سيجلب الشُحنَة في يوم القيامة الموعود".

إن ازدهار العديد من الطوائف المتماثلة والمستقلة بالوقت نفسه، يقترح علينا بعض الأمور المشتركة عن النفسية الإنسانية بشكل عام.

أحدى الطوائف المشهورة في جزيرة تانا في هيبريد الجديدة (المعروفة باسم فانواتو منذ عام 1980) لاتزال موجودة. تدور حول مُبشر يُسمى جون فروم. هُناكَ ذكْرٌ لجون فروم في سجلاّت الدولة الانكليزية يعود لـ 1940، وبالرغم من صغر عمر الأسطورة عنه فلا أحدَ يعرف إن كان شخصاً حقيقياً. أحد الاساطير تصفه كرجل قصير بصوت حاد وشعر مُصفَّف يلبس مُعطفا بأزرار لامعة. أصدر العديد من النبوءات الغريبة، وتكبّد مشاقاً ليقلب الناس ضد المبشرين. وفي النهاية عاد إلى الأسلاف بعد أن وعد بعودة ظافرة مع شُحنة عظيمة. ورؤيته عن القيامة تتضمن "كارثة عظيمة وجبال تُسَطَّح ووديان تملأ وعجائز يستعيدون صباهم وأمراض تختفي والبيض يُطرَدون من الجزيرة بدون عودة وشحنة ستصل بكميات كبيرة بحيث أن كُل واحد سيحصل على كُل ما يريد".

أكثر ما يُقلق الحكومة هو أن جون فروم تنبأ بأنه عند عودته سيحضر معهُ عُملة جديدة، تحمل صورة جوزة الهند. وعليه فإن على السكان المحليين أن يتخلصوا من كُل العُملة الخاصة بالرجل الأبيض. في عام 1941 أدى ذلك لحصول موجة شراء فاقت كل التوقُّعات. الجميع توقَّف عن العمل وتضرّر اقتصاد الجزيرة بشكل جاد. وسجنت إدارة الاحتلال زعماء الحركة، ولكن لم ينفع شيء للقضاء على الطائفة، والإرساليات الكنسية والمدارس أصبحت مهجورة.

بعد ذلك بفترة قصيرة نشأت عقيدة جديدة بأن جون فروم هو ملك أمريكا. وبحكمته أرسل فرق جيش أمريكية الى جزر هيبريد الجديدة، وأعجب العجائب حصل، لقد كان بينهم رجال سود ولم يكونوا فقراء كأهل الجزيرة أنفسهم، ولكن:

> "يملكون من الشحنات الغنية تماماً كالجنود البيض. إثارة عارمة اجتاحت الجزيرة المسماة تانا. لقد اقترب يوم القيامة. وبدا بأن كُل شخص يُحضِّر نفسه لوصول جون فروم. أحد القادة قال بأن جون فروم سيأتي من أمريكا بطائرة، وبدأ المئات من الرجال بتنظيف الأحراش في مركز الجزيرة حتى يكون هُناكَ مهبط للطائرة".

والمهبط له برج مُراقبة مصنوع من قصب البامبو وفيه "مُراقب للحركة الجوية" يلبس سماعات رأس مِزيفة مصنوعة من الخشب. وكانت على "المدرَج" مجسّمات لطائرات وهمية لتعريف طائرة جون فروم بمكان هبوطها.

في عام 1950 أبحر دايفيد آتينبورو الشاب إلى تانا مع مُصوَر اسمهُ جيفري موليغان لتحري موضوع طائفة جون فروم. وجدوا العديد من الأدلة على الدين وتعرفوا في النهاية على الكاهن الأعلى، رجل اسمه نامباس. نامباس يدَّعي بأنه يتكلم مع جون بشكل منتظم بواسطة "الراديو". وهذا (الراديو الخاص بجون) عبارة عن امرأة عجوز مع سلك كهربائي يلفُّ خصرها، تُصاب بحالة هلوسة وتتكلم بصورة غير منتظمة، ونامباس يُفسر هذا بأنه كلمات جون فروم. نامباس يدعي بأنه عرف مُسبقا بقدوم آتينبورو لرؤيته لأن جون أخبره بذلك بـ "الراديو". آتينبورو طلب أن يرى "الراديو"، ولكن طلبه رُفض (وهذا مفهوم طبعاً). غيّر الموضوع وسأل نامباس عما إذا كان قد رأى جون فروم:

> "نامباس هز رأسه بالايجاب بشكل مؤكد. "أنا يرى جون كثير مرة"
> "كيف هو شكله؟"
> أشار نامباس باصبعه علي. "هو يشبه أنتَ. هو لهُ وجه أبيض، هو رجل طويل، هو يعيش في أمريكا جنوبية"

تلك التفاصيل تناقض الأسطورة عن جون فروم الذي كان قصير القامة. وهذه إحدى الطرق التي تتطور بها الأساطير.

من الأمور المُسلَّم بها أن عودة جون فروم ستكون في الخامس عشر من شباط فبراير، ولكن ليس من المعروف في أي عام. وفي 15 شباط من كُل عام يجتمع أتباعه لاحتفال ديني للترحيب بقدومه. وحتى الآن لم يَعُدْ، ولكنهم لم ييأسوا. دايفيد آتينبورو قال لأحد أفراد الطائفة، واسمه سام:

"ولكن يا سام، لقد مضى تسعة عشرَ عاماً منذ الوقت الذي قال فيه جون أن الشحنة ستصل. لقد وعد ووعد ولكن الشحنة لم تصل بعد. أليست تسعة عشر عاماً وقتاً طويلاً للانتظار؟
سام رفع عينيه عن الأرض ونظر إليّ قائلاً: إذا كنت أنت تستطيع الانتظار لألفي عام حتى يعود المسيح ولم يعد، فأنا إذن أستطيع انتظار جون أكثر من 19 عاماً".

روبيرت بوكمان في كتابه "هل بإستطاعتنا أن نكون صالحين بدون الله؟"[1]، يقتبس تماماً نفس الرد السريع والمُدهش لتلميذ جون فروم، ولكن هذه المرة لصحفي كندي بعد حوالي أربعين عاماً من لقاء آتينبورو.

الملكة أليزابيث والأمير فيليب زارا المنطقة عام 1974، وبالنتيجة تم رفع الأمير الى مرتبة الإله على نموذج جون فروم (مرة أخرى لاحظ السرعة التي تتطور بها تفاصيل الدين وتتغير)، الأمير رجل وسيم وبهندام عسكري أبيض أنيق وخوذة مُريشة، ليس مفاجئاً أنه هو، وليس الملكة، قد حصل على هذا السمو بتلك الطريقة، وذلك بعيداً عن تقاليد أهل الجزيرة والتي تستصعب وجود أنثى إلهية.

لا أريد أن أعطي طوائف الشحن الكثير من الأهمية. ولكنهم يُقدّمون لنا مثالاً ساحراً حديثاً عن الطريقة التي تنشأ بها الأديان من العدم تقريباً. والأهم أن ذلك يعطينا أربعة دروس عن أصل الأديان بشكل عام، وسأستعرضها بشكل مُقتضب هنا. الأول، هو السرعة الهائلة التي تنشأ بها طائفة ما. الثاني، هو السرعة التي تمحي بها الفكرة الأصلية آثارها. إن جون فروم، على فرض أنهُ وُجد حقاً، قد فعل ذلك في مرحلة الذاكرة الحيّة. لكن حتى في تلك الآونة الحديثة من التاريخ، فإنه من غير المؤكد أنه قد وُجد أساساً. الدرس الثالث، ناخذه من الظهور المُستقل لطوائف مُتماثلة في جزر متباعدة. والدراسة المنظمة للتشابهات تعطينا نظرة عن قدرة الإنسان النفسية واستعدادها للتديّن. الدرس الرابع، طوائف شحنات البضائع متشابهة، ليس فقط مع بعضها، ولكن مع الأديان القديمة. المسيحية، وأديان قديمة أخرى انتَشرت عالمياً، وربما بدأت بطائفة محلية مثل طائفة جون فروم. بالتأكيد، إن بعض الدارسين مثل غيزا فيرميس، بروفيسور في الدراسات اليهودية في أوكسفورد، يقترح بأن المسيح كان واحداً من العديد من الشخصيات المؤثرة التي ظهرت في فلسطين في وقتها، وكانت محاطة بالعديد من الأساطير المُشابهة. العديد من تلك الطوائف اندثرت، والتي بقيت في رأيه هي التي نراها حتى اليوم. وبمرور القرون شُحذت بتطوّرات (انتخاب ميمي لو أردت التعبير عنها بهذا الشكل؛ وغير ذلك إن لم تُرِد) لتشكّل نظاماً مُعقداً (أو أنظمة متولّدة تتباعد عن بعضها) والذي سيطر على مناطق واسعة من العالم اليوم. إن موت شخصية مؤثرة في العالم الحديث مثل هيلا سيلاسي، آلفس برسلي، والأميرة ديانا، يُعطينا فرصاً أخرى لدراسة النشوء السريع للطوائف وظواهر تطوّر ميماتها.

هذا كُل ما أردت أن أقوله عن أصل الأديان، عدا عن فاصل صغير في الفصل العاشر، هناك سأناقش ظاهرة طفولية تعرف باسم "الصديق الخيالي" تحت عنوان "الحاجات" النفسية التي يوفّرَها الدين.

---

1 . Can we be Good without God, Robert Buckman.

من المتعارف عليه أن الأخلاق تأتي من الدين، وفي الفصل التالي سأناقش وجهة النظر هذه. سأحاجج بأن أَصل الأخلاق هو موضوع سؤال دارويني. تماماً كما كان سؤالنا سابقاً: ما هي قيمة بقاء الدين الداروينية؟ نستطيع طرح السؤال نفسه عن الأخلاق. الأخلاق بدون شك سبقت الأديان. وكما أعدنا صياغة السؤال بالنسبة للدين، سنفعل الشيء نفسه مع الأخلاق، وسنجد أنه من الأفضل أن تُرى الأخلاق كناتج عَرَضي لشيء آخر.

الفصل السادس

جذور الاخلاق:

لماذا نحن صالحون

غريب هو وضعنا على كوكب الأرض. كُلٌّ منا يأتي في زيارة قصيرة، لا يعرف لماذا ولكن نشعر في بعض الأحيان بأن هناك غاية ربانية من وجودنا. لكن في الحياة اليومية هُناكَ شيء واحد مؤكد نعرفه: وهو أن الإنسان هنا من أجل أخيه الإنسان، وقبل كل شيء من أجل أولئك الذين سعادتنا تتوقف على سعادتهم وابتساماتهم.

آلبرت آينشتاين

كثير من المُتدينين يجدون صعوبة في تصوّر شخص يمكنه أن يكون صالحاً أو حتى يرغب في أن يكون صالحاً بدون الدين، سأناقش ذلك السؤال في هذا الفصل. ولكن الشكوك تمضي لأبعد من ذلك وتقود بعض المُتدينين لنوبات كراهية ضد من لا يشاركونهم إيمانهم. هذا مُهمّ لأن اعتبارات أخلاقية تختبئ وراء مواقف دينية إزاء مواضيع أخرى لا علاقة لها بالأخلاق. معظم الاعتراضات على تدريس التطور ليس لها علاقة بالنظرية نفسها أو بأي شيء علمي آخر، ولكنها تُحَفَّز بغضب أخلاقي. وذلك يمتدّ من القول الساذج "لو درّستَ الأطفال بأنهم تطوروا من القرود، فسيتصرفون كالقرود"، وينتهي بالأسلوب المتطوِّر الذي يقبع خلف كل استراتيجية "الإسفين" الخاص بـ "التصميم الذكي"، الذي تمّ تعريتهُ بدون رحمة من قِبَل باربرا فورست وبول كروس في كتاب "حصان طروادة للخلقيين: إسفين التصميم الذكي".

يصلني عدد كبير من الرسائل من كثير من قُرّاء كتبي[1] مُعظمها حماسي ومشجعة والبعض ناقدة بشكل بناء، وقلَّة من الرسائل القذرة بل وحتى الشريرة. والأكثر قذارة، وآسَفُ لقول ذلك، بشكل عام وتقريباً بلا استثناء، دوافعها دينية. أي أسلوب هذا والذي لايُمثل المسيحية بالتعامل مع الأشخاص الذين يتم اعتبارهم أعداء للمسيحية. على سبيل المثال، هذه رسالة نُشرت على الانترنت موجّهة لبريان فْلَمينغ، كاتب ومُخرج فيلم "الإله الذي لم يكن هُناكَ". فيلم صادق ومؤثِّر يدافع عن الإلحاد. عنوان الرسالة إلى فلَمينغ: "احترق بينما نحن نضحك"، وتأريخها 21 كانون الأول 2005، جاء فيها ما يلي:

> "من المؤكد أنكم تملكون الجرأة. أود أن أبقر بطونكم بسكين أيها الحمقى، وأصرخ من الفرح عندما تلفظون أحشاءكم أمامكم. أنتم تحاولون إشعال حرب مقدسة حيث ربما نستطيع أنا وآخرون مثلي في يوم ما أن نحصل على الشرف بفعل ما ذكرته أعلاه".

يبدو أن الكاتب عند هذه النقطة قد لاحظ متأخراً أن لغته لا تتناسق مع المسيحية كثيراً، لذلك فهو يتابع بشكل أكثر تسامحاً:

> "ولكن الربّ علَّمَنا ألاَّ نسعى[86] للإنتقام، بل أن نُصلّي لأمثالكم".

ولكن يبدو أن لغة التسامح تموت بسرعة:

> "سأجد الراحة في معرفة أن عقاب الله سيكون 1000 مرة أبشع من أي شيء أستطيع فعله أنا. وأفضل ما هنالك هو أنك ستتعذب للأبد لتلك الذنوب التي تجهلها تماماً. انتقام الربّ لا يرحم أحد. ولأجلك، أتمنى أن تتَّضح الحقيقة لك قبل أن تبدأ السكين بتقطيعك. أعياد ميلاد سعيدة!!!

---

1 . أكثر ما أتمنى أنني أستطيع الاجابة عليهم بمثل ما يستحقون، الشيءالذي يدعوني للإعتذار فعلاً.

ملاحظة: أنت وأصدقاؤك ليس لديكم أي معلومة عمّ ينتظرك... أشكر الله أنني لستُ منكم".

أجد أنه من المحيِّر بصدق أن مجرد اختلاف في رأي ديني يمكن أن يولِّد سُمّاً كهذا. وإليكم مثالاً آخر (الكلمات ذاتها) من جعبة الرسائل لمحرر مجلة "التفكير الحر اليوم"، نُشرت من قبل مؤسسة الحرية من الأديان والتي تشن حملات سلمية ضد الحركات المضادة لفصل الدين عن الدولة في الدستور:

"مرحباً يا آكلي الجبن التافهين. نحنُ المسيحيون الأغلبية الفائقة مُقارنة بكم أيها الخاسرون. لن يكون هُناكَ فصل للكنيسة عن الدولة، وستخسرون أيها الكفرة... "

وما دَخْلُ الجبن؟ بعض الأصدقاء الأمريكان اقترحوا أن لذلك علاقة بالولاية الليبرالية ويسكانسون، موطن مؤسسة الحرية من الأديان، وكذلك مركز صناعة الجبن الأمريكي، ولكن من المؤكَّد أن هُناكَ سبب آخر لذلك؟ وماذا عن الفرنسيين "آكلي الجبن والقردة المستسلمون"؟ ما هي الرمزية للجبن؟ لنكمل:

"يا أتفه عبدة الشيطان... رجاءَ مُتْ واذهب للجحيم... آمل أن يصيبك وباء مؤلم مثل سرطان المَخْرَج وتموت ببطء وألم حتى تلاقي إلهك الشيطان... أيها الغبي، إن تلك الحرية من الدين لهي شيء مُقرف... ولذلك أيها الشواذ والعاهرات إهدؤوا وانتبهوا لأنَّ الربّ سيأخذكم في اليوم الذي لن تتوقعونه... إذا كنتم لا تحِبون هذه البلاد والأسس التي بُنيت عليها، فاخرجوا بحقِّ الجحيم منها واذهبوا مباشرة إلى جهنم...
ملاحظة: تباً لك أيتها العاهرة الشيوعية... خذي مؤخرتك السوداء إلى خارج الولايات المتحدة... ليس لديك عذر. إن الخليقة هي أكثر من دليل كاف على القدرة المطلقة التي يملكها الرب عيسى المسيح".

لماذا ليست القوة المطلقة لله؟ أو الرب براهما؟ أو حتى يهوه؟

"نحن لن نهدأ. ولو تطلَّب الأمر في المستقبل استعمال القوة، تذكروا أنكم أنتَم من بدأتم. بندقيّتي مُلقَّمة".

لا أستطيع التوقف عن التساؤل، لماذا يحتاج الله لكل هذا الدفاع بتلك الطريقة الشَّرِسة؟ رُبما على المرء أن يفكر بأن الله يستطيع تدبّر أمره بنفسه. خذ بالاعتبار أن المُحرر الذي تعرَض للتهديد بهذا الشكل الشرس ليس إلا شابة مُهذبة ولطيفة جداً.

ربُما لأنني لا أعيش في أمريكا، فإن مُعظم بريد الكراهية الذي أتلقاه ليس بذلك المستوى، ولكنه أيضاً لا يستعرض كرم الأخلاق الذي يُفْتَرَض أن مؤسَس المسيحية تميّز به. وما يلي هو رسالة من طبيب بريطاني

مؤرّخة في آيار 2005، رغم أنها مملوءة بالكراهية، لكن ما فاجأني أنها مملوءة بالعذاب أكثر من القرف، وتكشف كيف أن كل قضية الأخلاق هي نبع عميق من العداوة للإلحاد. بعد بضع فقرات من المقدمات تُسلخ فيها نظرية التطور سلخاً (والسؤال بسخرية عما إذا كان "الأسود" لا يزال قيد التطور)، والهزء بداروين شخصياً، والاقتباس المزوّر من هاكسلي على أنهُ مُعادي للتطور، وتشجيعي على قراءة كتاب (قرأته) والذي يحاجج بأن العالم عمره 8000 سنة (هل يمكن أن يكون حقاً طبيباً؟) ومن ثم يستنتج إن:

"كتبك ومنصبك في أوكسفورد، وكُل ما تحُبّ في هذه الحياة، وكل ما حققته، لا يعدو كونه عبثٌ مطلَق... سؤال كامو المتحدي يبدو لا مهرب منه هنا: لماذا لا ننتحر جميعاً؟ فلسفتك الحياتية لها بالتأكيد تأثير على الطلاب وعلى الكثير من الآخرين... بأننا تطورنا بمحض صدفة عمياء من لاشيء وسنعود للاشيء. حتى لو كانت الأديان ليست صحيحة، فإنه من الأفضل كثيراً أن نؤمن بالأساطير مثل أفلاطون إذا كانت تؤدّي لراحة البال في الحياة. ولكن فلسفتك تؤدي للقلق واستعمال المُخدِّرات والعُنف والعَدَمية والسعي وراء الملذّات والى علوم مرعبة وجهنم حمراء على الأرض والحرب العالمية الثالثة... أتساءل عن مدى سعادتك في علاقاتك الشخصية؟ هل أنتَ مُطلّق؟ أرمل؟ شاذ؟ منْ هم مثلك ليسوا سعداء أبداً وإلا لَما حاولوا جاهدين ليبرهنوا أنهُ ليس هُناكَ سعادة أو معنى لأي شيء".

المشاعر في تلك الرسالة، إن لم تكن لهجتها، هي نموذجية للكثير من تلك الرسائل. يؤمن هذا الشخص بأن الداروينية بأصلها عدمية تُعَلِّم أننا تطورنا بصُدفة عمياء (وللمرة المليون أكرر بأن الانتخاب الطبيعي هو تماماً عكس الصدفة)، وأننا سنعود للعدم بعد موتنا. وكنتيجة مباشرة للمعنى السلبي المزعوم تتبع كُل أنواع الشرور. فرضاً أنه لم يَعْنِ بجدية بأن موضوع الداروينية يؤدي إلى الترمّل مباشرة، ولكن رسالتهُ وصلت عند هذه النقطة إلى ذلك المستوى المسعور من الحقد والذي ألاحظهُ بشكل متكرر في مراسلِي المسيحيين. لقد خصصت كتاباً كاملاً، "قوس قزح المفكَّك"[1]، لمعالجة المعنى المطلق ولشاعرية العلم وبشكل خاص ومطوّل لنقض تهمة العبثية السلبية، ولهذا سأمتنع هنا عن ذلك. هذا الفصل هو عن الشر ونقيضه الخير، وعن الأخلاق: من أين أتت، ولماذا علينا الإلتزام بها، وعمّا إذا كُنا نحتاج للدين لفعل ذلك.

هل لإحساسنا الأخلاقي أصل دارويني؟

العديد من الكتب، ومنها كتاب روبرت هيند "لماذا الخير خير"[2]، ومايكل شيرمر في "علم الخير والشر"[3]، وروبرت باكمان "هل نستطيع أن نكون جيدين بدون الله؟"[4] ومارك هاوزر "العقول الأخلاقية"[5]. كُلها

1 . Unweaving the Rainbow, Richard Dawkins.

2 . Why Good is Good, Robert Hinde.

3 . The Scince of Good and Evil, Michael Shermer.

4 . Can We Be Good Without God? Robert Buckman.

5 . Moral Minds, marc Hauser.

تناقش بأن معنى الصح والخطأ يمكن أن يأتي من الماضي الدارويني. وهذا القسم هو وجهة نظري الخاصة في هذا الموضوع.

بنظرة سطحية، تبدو الفكرة الداروينية بأن التطور يتم بالانتخاب الطبيعي غير ملائمة لشرح مقدار الخير الذي نمتلكه ومشاعرنا الأخلاقية واللياقة والتعاطف والشفقة. الانتخاب الطبيعي يستطيع بسهولة شرح الجوع والخوف والرغبة الجنسية وكل ما يمكن أن يُساهم مُباشرة في بقائنا أو الحفاظ على جيناتنا. ولكن ماذا عن الشفقة التي نشعر بها عند رؤيتنا ليتيم يبكي، أو أرملة عجوز قانطة تشكو الوحدة؟ أو حيوان يئنّ من الألم؟ ما الذي يدفعنا أن نرسل سراً هدية من النقود أو الملابس لضحايا التسونامي في الطرف الآخر من العالم، لم نَرَهم قط، ولا نتوقع منهم ردَّ الجميل؟ من أين يأتي هذا السامري[1] الصالح المتأصِّل فينا؟ أليس الخير مُتناقضاً مع نظرية "الجين الأناني"؟ لا... هذا فهم خاطئ للنظرية ومحزن (وأدركُ متأخِّراً أن ذلك كان متوقَّعاً)[2]. من الضروري أن نركز على الكلمات الصحيحة. وذلك بالتركيز على "الجين" الأناني، لأن ذلك المصطلح هو على النقيض مع مصطلح الكائن الأناني مثلاً، أو الجنس الأناني. دعوني أشرح.

المنطق الدارويني يفرض علينا استنتاج أن وحدات الحياة في تدرّجها الطبقي، والتي تبقى وتنتقل من خلال الانتخاب الطبيعي، تميل لأن تكون أنانية. والوحدات التي تستمر ستستمر على حساب الوحدات المنافسة لها في نفس مستواها في الطبقية. وهذا بالضبط ما تعنيه الأنانية بهذا الصدد. السؤال هو: ما هو مستوى فعل هذه المورثات؟ كُل فكرة الجين الأناني، ولنركز على الكلمة الأخيرة، هو أن وحدة الانتخاب الطبيعي (وحدة الاهتمام بالذات مثلاً) ليست الكائن الحي الأناني، وليست المجموعة الأنانية، أو الصّنف الأناني، بل هي المورثة (الجين) الأناني. إن الجين، بشكل معلومة، إما أن يبقى لأجيال كثيرة، أو لا يبقى. وعلى عكس الجينات (والميمات أيضاً) فإن الكائن الحي، أو المجموعة، أو الصّنف، ليست مناسبة لأن تكون وحدة في هذا المعنى لأنها لا تصنع نُسخاً متطابقة لنفسها، ولا تتنافس في ذلك. هذا بالضَّبط ما تفعله المورثات، وهذا هو الأصل المنطقي الذي يبرِر اختيار المورثة فقط لتكون الوحدة (الأنانية) بالمعنى الدارويني لكلمة الأنانية.

إن الطريقة البديهية للمورثات لضمان "أنانيتها" البقائية في علاقتها مع المورثات الاخرى هو أن تُبرمج الكائنات لتكون أنانية. وهناك بالطبع العديد من الظروف التي فيها بقاء الكائن الحي الفرد يكون لمصلحة بقاء المورثات التي يملكها. ولكن ظروف أخرى تصلح لخطط بقائية أخرى. وهناك بعض الظروف، ليست نادرة بأي شكل، حيث تضمن المورثة بقاءها بجعل الكائن يتصرف بطريقة إيثارية. وهذه الظروف أصبحت مفهومة بشكل جيد في أيامنا، وتُصَنَّف في فئتين رئيسيّتين. المورثة التي تبرمج الكائن لإيثار الأقارب

---

1 . السامري الصالح هو لقب جاء من المسيحية حول ذلك الرجل الصالح الذي ضُرب فيه المسيح عيسى مثلاً للطيبة والاخلاص. (لوقا 10) (المترجم).

2 . أصبتُ بالاحباط التام عندما قرأت في صحيفة الغارديان (غرائز الحيوان، 27 آيار 2006) بأن كتابي (الجين الاناني) هو كتاب جيف سكيلنك المفضل. إنه المدير العام لجمعية أنرون سيئة السمعة. وهو يقول بأنه استوحى إلهاماً من نكهة الداروينية الاجتماعية الموجودة في الكتاب. الصحفي الخاص بالصحيفة، ريتشارد كونيف، أعطى شرحاً جيداً لسوء الفهم هذا على.

HTTP://MONEY.GUARDIAN.CO.UK/WORKWEEKLY/STORY/0,,1783900,00.HTML

وأنا عملت كل ما أستطيع لسد مثل هذه الثغرات لسوء الفهم في مقدمتي الجديدة للاصدار الجديد لكتاب الجين الاناني في ذكراه الثلاثين. والذي صدر حديثاً من مطبعة جامعة أوكسفورد.

ستستفيد غالباً بأن تبقى نسختها. مورثة كهذه ستتزايد في بنك المورثات إلى درجة أن التصرف الايثاري سيصبح هو المعيار العادي لدى هذا الكائن. المثال الأوضح على ذلك هو رعاية الأطفال، ولكنه ليس بالمثال الوحيد. فالنحل والدبابير والنمل وسوس الخشب وبدرجة أقل بعض الفقاريات كالخلد والميركات ونقار الخشب، كُلها طورت مِجتمعات يقوم فيها الكبار برعاية صغارهم (والذين يتقاسمون المورثات الايثارية معهم غالِباً). بشكل عام، وكما استعرض زميلي المرحوم هاميلتون، فالحيوانات تميل لرعاية أقربائها والدفاع عنِها ومقاسمتها قوتها وتحذيرها من الخطر وإيثارها، لأنها على الأرجح إحصائياً تحمل نسخاً من المورثة نفسها.

النوع الرئيسي الآخر من الإيثار والذي له تفسير جيد بالمنطق الداروينى، هو الإيثار المُتبادل (حكَّ لي ظهري وسأحكُّ لك ظهرك). هذه النظرية قدَّمها لأول مرة في ميدان التطور الطبيعي العالم روبرت تريفيرس، وغالِباً ما يُعَبّر عنها باللغَة الرياضية لنظرية اللعبة، ولا تعتمد على تقاسم المورثات. إنها بالفعل تعمل بشكل ممتاز، وحتى بشكل أفضل بين أفراد لأنواع متباينة ومُختلفة بشكل كبير، وتسمى عندها بالتكافُل. المبدأ هو نفسهُ في التبادل والمقايضة الذي يعتمدهُ الإنسان. الصياد يحتاج رمحاً والحداد يريد لحماً. واللاتناظر بينهما يؤدي لعقد من نوع ما. النحل يحتاج للرحيق والزهور بحاجة للتلقيح. الزهور لا تستطيع الطيران، وبالتالي فإنها تدفع للنحل بعمولة الرحيق مقابل استعمال أجنحتها. الطير المُسمّى بمرشد العسل يستطيع إيجاد عُشّ النحل، ولكنه لا يستطيع اقتحامه. والغرير[1] يستطيع اقتحامه، ولكنه بدون أجنحة للبحث عنه. مِرشد النحل يقود الغرير (والإنسان في بعض الأحيان) إلى العسل بطريقة طيران مُغرية، ولا تُستعمل تلك الطريقة في الطيران لأي غرض آخر. الطرفان يستفيدان من الصفقة. رُبما تقع قطعة من الذهب تحت حجر لا يستطيع المُكتشف تحريكه بمفرده، فيطلب المساعدة من الآخرين رغم أنهم سيتقاسمونه معه لأنه بدون مُساعدتهم لن يحصل على أي شيء. مملكة الحياة غنية بأمثلة كهذه عن العلاقات المشتركة: الثيران الأمريكية والعصفور ناقر الثيران، الزهور الحمر والطائر الطنّان، البقر والبكتيريا المعويّة. الإيثار المُشترك يعمل بسبب اللّاتماثُل في الاحتياجات والقدرات لتلبيتها. ولذلك تعمل بنجاح أكبر خاصة بين كائنات من أنواع مختلفة حيث اللّاتناظر أكبر.

تُعتبر النقود والسندات المالية عند الإنسان أدوات تسمح بدفوعات مؤجلة. والأطراف في صفقة ما تتبادل بدون أن تُسلِّم أو تستَلِم البضائع بشكل متزامن، بل تحتفظ بما يشبه الدَّيْن للمُستقبل، أو حتى بيع الديون إلى الآخرين. وعلى حدٍّ علمي، ليس هُناكَ كائنات حيوانية غير إنسانية ممَن لديهم ما يوازي النقود. لكن ذاكرة الهوية الفردية تلعب دوراً موازياً بشكل غير رسمي. الخفافيش المَصّاصة للدماء تتعلم مَنْ منَ الأفراد الآخرين في مجموعتها الإجتماعية يُعْتَمَد عليهم لدفع دِيونهم (باجترار الدم) ومَنْ أولئك الذينَ يغشّون. الانتخاب الطبيعي يُفضِّل المورثات التي تجعل الأفراد مُهيئين، في علاقات عدم التماثل بين الاحتياجات والفرص، للعطاء عند المقدرة وطلب المساعدة عند عدم الاستطاعة. وتفضل أيضاً الميول لتذكُّر الواجبات وتحمّل الضغينة ومراقبة علاقات التبادل ومعاقبة الغشَّاشين الذين يأخذون ولكنهم لا يُعطون عندما يأتي دورهم.

---

1 . غُرَيْر العَسَل أو غريراء العسل (بالإنجليزية: Honey Badger) حيوان من جنس الغرير ينتمي إلى فصيلة ابن عرس. (المترجم)

وبما أنهُ سيكون هُناكَ غشٌّ بشكل دائم، فإن الحلول الثابتة لمشاكل نظرية لعبة الإيثار المتبادل تتضمّن دائماً عنصر عقاب للغشّاشين. والنظرية الرياضية تسمح بصنفين من الحلول المستقرة "لألعاب" من هذا النوع. "كن كريهاً كُل الوقت"، هذا مستقرّ، بمعنى أنه عندما يكون الجميع كريهون، فإن فرداً وحيداً لطيفاً لا يقدر أن يؤدي عملاً أفضل. ولكن هُناكَ استراتيجية أخرى (مُستقرة) أيضاً. (الاستقرار هنا يعني أنه عندما تتجاوز الاستراتيجية تواتراً حرجاً في السكان، فليس هُناكَ بديل يؤدي لنتيجة أفضل). الاستراتيجية هذه كالتالي: "ابْدَأ لطيفاً وأحسن الظنَّ بالآخرين. ثم قابل المعروف بالمعروف ولكن انتقم ممن يتصرف بشكل سيء". وبلغة نظرية الألعاب، فإن هذه الاستراتيجية (او ما شابهها) تأتي تحت أسماء مُختلفة، ومنها "هذه بتلك" و"المنتقم والمتبادل". إنها مُستقرة تطوّرياً تحت بعض الظروف، بمعنى أنه لو كانت هُناكَ مجموعة سكانية يطغى عليها المتبادلون، فلا الفرد اللئيم ولا الفرد اللطيف بلا حدود، سيكون بوضع أفضل. هُناكَ تنوعات أخرى أكثر تعقيداً من "هذه بتلك"، والتي يمكنها أن تعمل بشكل أفضل في ظروف مماثلة.

كنت قد ذكرتُ القرابة والتبادل كعمودين رئيسيين للإيثار في العالم الدارويني، ولكن هُناكَ بناء ثانوي يقع على قمة تلك الأعمدة. وبخاصة في المجتمع الإنساني، بوجود لغة ونميمة، تصبح السُمعة مهمة. ربما يملك أحد الأفراد سمعة اللطف والكَرَم. شخص آخر قد تكون له سمعة أنه لا يمكن الاعتماد عليه لغشّه وتنصّله من الوعود. وقد يملك آخر سمعة الكرم في حالة الثقة، ولكنه قاس بلا رحمة في معاقبته للغَشّ. النظرية غير المنقَّحة عن الايثار المُتَبادل تتوقع أن تبني الحيوانات من أي نوع سلوكها على تبادل غير واعي لنفس ذلك السلوك لدى أقرانها. في المجتمعات الإنسانية أضفنا قوة اللغة لنشر السُمعة، وعادة على شكل نميمة. لا تحتاج للمعاناة شخصياً من فشل زيد من الناس في شراء المشروب لأصدقائه في البار. بل تسمع "على باب الدار" بأن زيد "بخيل". ولإضافة بعض السخرية على الموضوع، قد تسمع بأن عَمْر مثلاً "نمَّامٌ رهيب". السمعة مهمة، وعلماء الطبيعة يستطيعون الاعتراف بأن قيمة البقاء الدارويني ليس فقط بأن يكون الفرد مبادلاً للجميل بشكل جيد، بل أيضاً بتعزيز "سمعة" كونه مبادل جيد للجميل. كتاب مات ريدلي "أصل الفضيلة"[1]، يوضح مسألة السمعة بشكل جيد، إضافةً إلى أنه يشكّل تعليلاً واضحاً وشفافاً لكل حقل الأخلاقية الداروينية.[2]

عالم الاقتصاد النرويجي-الأمريكي تورستين فبلن، وبطريقة مختلفة، عالم الحيوان الاسرائيلي آموتز زاهافي، أضافا فكرة جذابة أخرى. الايثار ربما يكون وسيلة لاستعراض السلطة أو التفوق. علماء السلوك قد رصدوا ما يُسمى بـ (فعل الكرماء) والذي سُمّي تيمّناً بتقليد يتبارز فيه الزعماء المتنافسون في قبائل الشمال الغربي من جزر المحيط الهادىء بإقامة مأدبة كريمة بشكل مدمر. وفي حالات التطرف، تتمادى النوبات

1 . THE ORIGINS OF VIRTUE, MATT RIDLEYS.

2 . السمعة ليست حكراً على الجنس البشري. لقد تم حديثاً التأكد من أنها موجودة حتى في أغلب الحالات التعايشية في مملكة الحيوان.على سبيل المثال العلاقة بين الأسماك الصغار المعروفة باسم المنظفات وزبائنهم من الاسماك الأكبر. في تجربة مبتكرة تم ملاحظة أن الأسماك الكبيرة التي لاحظت نشاط الأسماك المنظفة مقارنة بغيرها قد اختارت دائماً العودة لهذه المجموعة من الأسماك على حساب منافساتها الكسولات. راجع، ر. بشاري و أ. س. جروتير (IMAGE SCORING AND COOPERATION ON A CLEANER FISH MUTUALISM، NATURE 441) 22 حزيران 2006 والصفحات 975 إلى 978.

الانتقامية حتى يصبح أحد الطرفين شديد الفقر، تاركاً الطرف الآخر ليس بأفضل حال منه بكثير. مفهوم فبْلِن عن "الاستهلاك الصارخ" يضرب على الوتر الحساس عند الذي يشاهد المشهد المعاصر. مُساهمة زاهَافي التي أهملها العديد من الطبيعيين حتى وضع الرياضي اللامع آلان غرفين نموذجاً رياضياً لها، كانت في وضع نسخة تطورية لفعل الكرماء. زاهافي درس العصافير العربية الثرثارة، وهي عصافير بنية صغيرة تعيش في مجموعات اجتماعية وتتكاثر بشكل تعاوني. ومثل العديد من الطيور الصغيرة، فإن الثرثار يطلق صيحات تحذير، ويتبرّعون بالطعام لبعضهم. تحقيق دارويني عن ذلك الايثار سيبدو لأول وهلة وكأنه لردّ الجميل والقرابة بين العصافير. عندما يطعم الثرثار طيراً آخر هل يتوقع بذلك أنه سيحصل على الطعام منه في وقت لاحق؟ أم أن ذلك فقط يحصل بسبب القرابة الوراثية؟ وتفسير زاهافي غير متوقَّع جذرياً. الثرثار المتسلِّط يؤكِّد هيمنته بإطعام أتباعه. ولاستعمال نوع اللغة التشبيهية التي تُسرّ زاهافي، فإن الطائر المهيمن وكأنه يقول "انظروا كم أنا مُتفوِّق عليكم، أنا عندي المقدرة على إعطائكمَ طعاماً"، أو "انظروا كيف أتفوّق عليكم بأن أجعل نفسي عُرْضة للنسور بالجلوس على غصن عالٍ لأعطي إشارة إنذار للباقين الذين يأكلون على الأرض". ملاحظات زاهافي وزملائه ترينا بأن طيور الثرثار تتبارى بشكل دائم على الدور الخطر للحارس. عندما يحاول أحد الطيور الأتباع إعطاء الطعام لطائر مهيمن، فإن محاولته تقابَل برفض عنيف. ومُلخص فكرة زاهافي هو أن استعراض التفوق يستمدّ شرعيته من كلفته. فقط الفرد المتفوق بحقٍّ يستطيع استعراض تفوّقه بواسطة هدية ثمينة. بهذا الثمن يشترون النجاح بجذب الشركاء مثلاً عبر إظهار باهظ للتفوق يتضمن تفاخراً بالكرم والاستعداد للمُخاطرة من أجل الآخرين.

لدينا الآن أربعة أسباب جيدة من الناحية الداروينية ليتمتع الفرد بالايثار والكرم و "الأخلاق الحميدة" تجاه الآخرين. الأول هو وجود القرابة الوراثية كحالة خاصة. الثاني هو التبادل: تسديد خدمة مُؤدّاة بالقيام بمثلها، وتأديةِ الخدمات "بتوقع" الدفع لاحقاً. ذلك يقودنا للسبب الثالث، المنافع الداروينية الناتجة من وجود السُمعة الحسنة للكرم واللطف. والرابع إن كان زاهافي محقاً، وهو أن هناك منفعة إضافية للكرم الظاهر كطريقة لشراء دعاية أصيلة وغير قابلة للتزييف.

معظم الوقت فيما قبل التاريخ، عاش الإنسان في ظروف فضَّلت بقوة تطوّر مناحي الإيثار الأربعة. عشنا في قرى، أو قبلها في مجموعات متجولَة كما يفعل قرد البابون، معزولين عن الجيران أو القرى القريبة بشكل جزئي. معظم الذين يشاركونا الحياة هم من الأقارب، وقرابتهم لك أكثر بكثير من قرابة العشيرة الأخرى لك، وهناك الكثير من الفرص لتطور الإيثار. وبشكل عام كنا لنقابل الفرد الآخر من العشيرة مرة تلو الأخرى بغض النظر عن كونه قريباً أم لا. هذه ظروف مثالية لتطور الإيثار المتبادل. وهي أيضاً الشروط المثالية لبناء السمعة والاعلان عنها بالكرم الصارخ. بأحد، أو بجميع الطرق الأربعة التي ذكرناها، فإن الاتجاه الوراثي نحو الإيثار كان قد فُضِّل في الإنسان الأول. من السهل أن نرى لماذا كان أسلافنا جيدين بالنسبة لمجموعاتهم، وسيئين لدرجة رِهاب الأجانب من المجموعات الأخرى. ولكن ما سبب طيبتنا تجاه بعضنا بما أننا نعيش الآن في مدن كبيرة ولسنا مُحاطين بالأقارب بشكل عام، وفي كُل يوم نرى أشخاصاً لن نراهم بعد ذلك طوال حياتنا، لماذا نحن جيدون مع بعضنا البعض، وأحياناً مع آخرين لا ينتمون حتى إلى مجموعتنا؟

من المهم ألا نحرَف مدى تأثير الانتخاب الطبيعي. فالانتخاب لا يُفضِّل تطور الوعي المدرِك لما هو جيد لمورثاتك. ذلك الوعي كان عليه أن ينتظر حتى القرنِ العشرين ليصل إلى مستوى من الإدراك، بل حتى الآن، الفهم الكامل محصور في أقلية من العُلماء المُختصِين. القاعدة الاساسية لما يفضلهُ الانتخاب الطبيعي هو نشر المورثات التي قامت ببنائه. والقواعد بحكم التجربة تخطئ أهدافها أحياناً. في دماغ العصفور القاعدة التي تقول: "ابحث عن أحياء صغيرة تزقزق في عشِّكَ واسقط الطعام في الفراغ الأحمر في رؤوسها"، لها تأثير في الحفاظ على المورثات التي بنت تلك القاعدة، لأن الأشياء الصغيرة التي تزقزق ولها فتحات حمراء في عش العصفور هي بشكل طبيعي صغاره. ولكن القاعدة تخطئ عندما يصل ابن طائر آخر للعشِّ بشكل ما، وذلك شيء يبرع به طائر الواقواق. هل من الممكن أن يكون اندفاعنا الأخلاقي الجيد هو الذي يخطئ الهدف، كما أخطأت غريزة الطائر الأحمر وتسببت له بإجهاد نفسه من أجل طائر الواقواق؟ بل هُناكَ تشبيه أقرب وهو اندفاع الإنسان لتبنّي طفل. وهنا عليّ أن أسرع بتوضيح أن "أخطاء الهدف" مقصود به المعنى الدارويني البحت. ولا تحمل أي معنى انتقاصي بأي شكل من الأشكال.

فكرة "الخطأ" أو "الناتج العَرَضي" الذي أريد الدفاع عنه يعمل بالشكل التالي. الانتخاب الطبيعي في زمن الأسلاف، عندما كنا نعيش في مجموعات جوّالة كالبابون، برمج في عقولنا الميول الإيثارية الى جانب الجنسية والجوع والخوف من الأجنبي ...الخ. وعندما يقرأ زوجين من الأذكياء كتاب داروين، فإنهما يعرفان بأن السبب النهائي لاندفاعهما الجنسي هو التكاثر. وهما يعلمان بأن المرأةَ لن تحمل لأنها تأخذ حبوب منع الحمل، ومع ذلك يجدان أن رغبتهما الجنسية لم تخفت بأي شكل بناءً على تلك المعرفة. إن الرغبة الجنسية هي رغبة جنسية قوّتُها في نفسية الفرد، مستقلة تماماً عن هدفها الدارويني الذي ساقها. إنها دافع قوي موجود بشكل مستقل عن هدفه النهائي.

أنا أقترح هنا أن الدافع هو نفسه بالنسبة للُّطف والطيبة والإيثار والكرم والتعاطف والرأفة. في أيام الأسلاف كانت لدينا الفرصة لنقوم بإيثار الأقرباء فقط، ومن نعتقد أنهُ سيبادلنا المعروف. في أيامنا هذه لم تعد تلك القيود موجودة، لكن القاعدة بقيت. لما لا تبقى؟ إنها كالرغبة الجنسية. إننا لا نستطيع شيئاً إزاء شعورنا بالرأفة عند رؤية شخص يبكي لمصيبة ما (وهو ليس بالقريب، أو ممن نتوقع منه ردّ الجميل)، تماماً كما لا نستطيع شيئاً إزاء رغبتنا في شخص من الجنس الآخر (رغم أنه من الممكن أن يكون عقيماً، أو غير مهيّأ للإنجاب). الاثنان خطأ بالهدف، أخطاء داروينية: أخطاء مباركة وثمينة.

لا تفكر ولو للحظة بأن التحدُّث عن المشاعر بطريقة داروينية يُقلل من نبل الشعور بالحنان والشفقة والكرم. والأمر نفسه بالنسبة للرغبة الجنسية التي أدى استخدامها في اللغة والثقافة لظهور الكثير من الشعر الباهر والدراما العظيمة: كقصائد الحبّ لجون دون أو "روميو وجولييت". وبالطبع يحدث الشيء نفسهُ بالنسبة للخطأ في الهدف الموجّه أساساً تجاه الأقرباء ومن يبادلوننا المعروف. العفو عن المدين مثلاً، عندما نراه خارج السياق، هو لادارويني تماماً مثل تبنّي طفل شخص آخر:

الرحمة لا تعرف الإرهاق
إنها تنهمر كالمطر اللطيف من السماء
على المكان الذي تحتها

الرغبة الجنسية هي القوة الدافعة المسبَبة للكثير من طموح الإنسان ونضاله، وغالبها يشكِّل خطأ في الاستهداف. ليس هُناكَ أي سبب لئَلَّا ينطبق الشيء ذاته على الرغبة بالكرم أو التعاطف إذا كان هذا الخطأ في الهدف نتيجة الحياة القروية للأسلاف. الطريقة المثلى للانتخاب الطبيعي لبناء نَوْعَي الرغبة في وقت الأسلاف كان بتركيب قواعد حكم التجربة في العقل. تلك القواعد لاتزال تؤثِّر فينا اليوم حتى عندما تجعلها الظروف غير مناسبة لوظائفها الأساسية.

قواعد حكم التجربة كتلك تؤثِّر فينا حتى الآن، ليس بطريقة حتمية كالْقينية، ولكن بطريقة مُصَفَّاة عبر التأثيرات المَدَنية للآداب والعادات، القوانين والتقاليد، وبالطبع الدين. وكما تمر الرغبة الجنسية عبر مصفاة الحضارة لتظهر كقصة حبّ بين روميو وجولييت، فإن قواعد أخرى بدائية في الدماغ عن الثأر مثلاً تظهر بشكل المواجهات المستمرة في "كابوليت ومونتغيو"[1]: بينما قواعد بدائية أخرى في الدماغ عن الإيثار والتعاطف تؤدي بنتيجة أخطاء الهدف لأنْ نشعر بالفرح في مقاعدنا في المنصّة عندما يُمَثَّل المشهد الأخير في مسرحية شكسبير.

دراسة حالة عن جذور الأخلاق

لو أن ميولنا الأخلاقية مثلها مثل ميولنا الجنسية مُتجذِّرة فينا بسبب ماضينا الدارويني قبل دخول الأديان على الساحة، فعلينا أنَ نتوقع أن البحث في العقل الإنساني سوف يكشف لنا بأن بعض الأخلاق عالمية تتخطى الحدود الجغرافية أو الثقافية، وأيضاً الحدود الدينية بشكل حاسم. عالم الأحياء من هارفرد، مارك هاوسر، في كتابه "العقول الأخلاقية: كيف صممت الطبيعة إحساسنا العالمي بالخطأ والصواب"[2]، توسّع في سلسلة تجارب فكرية مُثمرة طرحها بالأصل فلاسفة الأخلاق. دراسة هاوسر تخدم الهدف الإضافي لعرض طريقة تفكير فلاسفة الأخلاق. حيث يتم طرح قضية أخلاقية كفرضية، والصعوبة التي نختبرها في الإجابة تخبرنا شيئاً عن إحساسنا بالخطأ والصواب. يذهب هاوسر لأبعد من الفلاسفة بأن يجري فعلياً إحصائيات وتجارب نفسية، وذلك باستعمال استفتاءات على الإنترنت مثلاً، ليتحرى عن الإحساس الأخلاقي للناس الحقيقيين. من وجهة النظر العصرية فإنه من المثير بأن معظم الناس يقررون نفس القرارات عندما تطرح عليهم نفس الأسئلة، واتفاقهم على الآراء نفسها هو أقوى من قدرتهم للتعبير عن الأسباب الكامنة

1 . كابوليت ومونتغيو هي معزوفة باليه موسيقية للموسيقار الروسي سيرجيه بروكوفيف. مقتبسة من رواية شكسبير الشهيرة روميو وجولييت، وتحمل اسم عوائلهم حيث روميو مونتغيو وجولييت كابوليت. (المترجم).

2 . Moral Minds: how Nature Designed our Universal Sense of Right and Wrong, Marc Hauser.

وراء ذلك. وهذا ما علينا أن نتوقَّعه إن كان لدينا إحساس أخلاقي مَبْني في عقولنا، كما هو الحال في غريزتنا الجنسية أو خوفنا من الأماكن العالية، أو كما يفضِّل هاوسر أن يقول، مثل قدرتنا اللغوية (التفاصيل تختلف من ثقافة لأخرى، ولكن البنية الأساسية العميقة لقواعد اللغة هي عالمية). كما سنرى، فإن الطريقة التي يجيب بها الناس على تلك الأسئلة الأخلاقية، وعدم قابليتهم في التعبير عن أسبابها، تبدو مستقلة بشكل كبير عن معتقداتهم الدينية أو غيابها. والعبرة من كتاب هاوسر، ولنذكرها كما عبّر هو عنها بكلماته:"إن ما يُسَيِّر أحكامنا الأخلاقية هو عبارة عن قواعد أخلاقية عالمية، مَلَكة عقلية قد تطوّرت عبر ملايين السنين لتحتوي على مجموعة من المبادئ لبناء مدى من الأنظمة الأخلاقية الممكنة. وكما في اللغة، تمر تلك المبادئ التي تقوم عليها قواعدنا الأخلاقية تحت رادار وعينا".

من الألغاز الأخلاقية التقليدية التي يطرحها هاوسر هي لغز القطار على السكة، أو الشاحنة المُسرعة التي تهدد بقتل عدد معين من البشر. القصة الأبسط تتخيل امرأة اسمها دينيس، تقف بجانب مفصل يدوي يمكنها خلاله أن توجه القطار لتحويلة فرعية، وبذلك تنقذ حياة الأفراد الخمسة العالقين على الخط الرئيسي. للأسف هُناكَ شخص عالق على التحويلة. ولكن بما أنهُ شخصٌ واحد فقط والآخرون هم أكثر، فإن غالبية الناس يوافقون على أنه أخلاقياً مسموح، بل وربما إجباري، أنْ تحوِل دينيس السكة لتُحافظ على حياة الأفراد الخمسة بقتل ذلك الواحد. نحن نتجاهل احتمالات افتراضية كأن يكون الشخص على التحويلة هو بيتهوفن مثلاً ... أو صديق حميم.

العمل على مثل هذه التجارب يطرح علينا مسائل يشتدُّ فيها مُستوى الإثارة للألغاز الأخلاقية. ماذا لو كان بالإمكان إيقاف القطار بإلقاء حمْلٍ ثقيل أمامه من على جسر فوق السكة؟ هذا سهل: من الواضح أنه علينا أن نرمي الثِّقل. ولكن ماذا لو كان الثِّقل الوحيد المتوفر هو رجلٌ سمين جداً يجلس على حافة الجسر ويتأمل في غروب الشمس؟ لقد اتَّفق الجميع تقريباً على أنه من غير الأخلاقي دفع الرجل السمين من على الجسر على الرغم من أن هذه المعضلة، من وجهة نظر معينة، مشابهة لحالة دينيس، حيث أنَّ دَفْعَ ذراع تحويل السكَّة سيقتل شخصاً واحداً لينقذ خمسة. ولكن غالبيتنا يملك إحساساً قوياً بأن هُناكَ اختلاف كبير بين الحالتين، ولكننا لا نعرف كيف نعبر عنه.

إنَّ دَفْعَ الرجل السّمين من على الجسر يذكِّرنا بمعضلة أخرى يطرحهُا هاوسر أيضاً في حساباته. خمسة مرضى في مستشفى وجميعهم يحتضرون، كُل منهم يشكو من عطل عضو مُختلف في جسمه. وبالامكان إنقاذهم جميعاً لو وجدنا مُتبرعاً لكل عضو في كُلٍّ منهم، ولكن ليس هناك من مُتبرِع. يلاحظ الجرّاح شخصاً في غرفة الانتظار لديه تلك الأعضاء الخمسة وتعمل بشكل جيد وملائمة للنقل والزراعة. في تلك الحالة لن يوافق أحد تقريباً على القول بأنه من الأخلاقي قتل ذلك الشخص لإنقاذ الخمسة.

كما في حالة الرجل السمين على الجسر، فإن الاحساس الداخلي لغالبيتنا هو بأن ذلك الجالس البريء لا يجب أن يُجرّ فجأة لموقف سيء لمصلحة آخرين بدون موافقته. وقد عبّر عن ذلك بشكل واضح إيمانويل كانط بأن الكائنات العاقلة لا يجب أن تُسْتَخْدَم بدون موافقة كوسائل لمنع أو إنهاء أوضاع ما، حتى لو

كانت تلك النهاية لمصلحة الآخرين. هذا يعطينا الفرق الحرج بين الرجل السمين، أو الرجل في المستشفى، والرجل العالق على السكة في حالة دينيس. الرجل السمين على الجسر سيستخدم كأداة لإيقاف القاطرة، وهذا يُخالف مبدأ كانط بوضوح. بينما الشخص الذي على السكة لن يستخدم لإنقاذ حياة الخمسة الآخرين. بل إنَّ محوِّل السكة هو الذي يُسْتَخْدَم، والرجل هو فقط سيء الحظ لكونه موجوداً عليها. ولكن عندما يتوضَّح الفرق بهذا الشكل، لماذا يرضينا ذلك؟ بالنسبة لكانط، فإن ذلك شيء أخلاقي محض. أما بالنسبة لهاوسر، فإن ذلك مبني فينا جميعاً بواسطة التطور.

المواقف الفرضية التي يطرحها هاوسر عن القاطرة تزداد إبداعاً، والمعضلة الأخلاقية تزداد تعقيداً والْتواءً. يضع هاوسر شخصيات افتراضية هي نيد وأوسكار، نيد يقف على السكة، وخلافاً لدينيس التي تستطيع تحويل السكة التي يسير عليها القطار، فإن نيد يستطيع أن يغيِّر مسير القطار لمسافة بسيطة فقط ليعود بعدها للسكة الرئيسية في طريقه للأشخاص الخمسة. وبالتالي فإن تغيير المسار لن ينفع، والقطار سيدهس الخمسة أشخاص على أي حال عندما يعود للسكة الرئيسية. ولكن هُناكَ شخص سمين جداً على التحويلة، وثقيل بشكلٍ يكفي لأن يوقف العربة. هل يجب على نيد تغيير المسار للقطار؟ ردُّ الفعل الأول لمعظم الناس أنه لا يجب أن يفعل ذلك. ولكن ما هو الفرق بين حيرة نيد وحيرة دينيس؟ نحن نفترض هنا أن الناس يطبِّقون مبدأ كانط بالحدس. دينيس تغيِّر مسار القطار لتتفادى صدم الأشخاص الخمسة، والضحية على المسار الآخر هو "ضرر جانبي"، باستعمالنا لتعبير رامسفيلد الجذاب هنا. دينيس لا تستخدمه لتنقذ الخمسة الآخرين. بينما نيد يستخدم الرجل السمين بالفعل هنا ليوقف القطار، ومعظم الناس (ربما بدون تفكير) ومنهم كانط (الذي فكر بكل تفاصيلها) يرون أن ذلك فرق مهم جداً.

الفرق يظهر مرة أخرى في معضلة أوسكار. موقف أوسكار مطابق لموقف نيد، باستثناء أن هُناكَ كتلة ثقيلة من الحديد على التحويلة، وواضح بأن أوسكار لن يفكر، وليس لديه مُشكلة في القرار بتغيير مسار القاطرة. باستثناء أن هُناكَ شخص يتمشّى قبل الكتلة الحديدية، وسيُقتل بالتأكيد لو غيّر أوسكار المسار كما هو الحال مع الرجل السمين. الفرق هو أن الشخص الذي يتمشى في حالة اوسكار لن يُستخدم لإيقاف القطار: بل هو ضرر جانبي كما في حالة دينيس، وكما هو حال أغلب مواضيع هاوسر التجريبية، أشعر بأنه مسموح لأوسكار إجراء التحويلة ولكن ليس نيد. لكنني أيضاً أجد صعوبة بالغة لتبرير حدسي. النقطة التي يريد هاوسر التركيز عليها هي أننا لا نفكر كثيراً بأخلاقياتنا الحدسية، ولكننا نشعر بها بقوة في كل الأحوال، وذلك بسبب التَّركة التطورية فينا.

في مغامرة مثيرة في صُلبِ علم السلوك، قام هاوسر وزملاؤه بتكييف مُعضلاته الأخلاقية لتناسب قبيلة كونا، وهي قبيلة صغيرة تعيش بمعزل شبه تام عن الغربيين، وليس لها دين رسمي. استبدل الباحثون "القاطرة على السكة" بما يقابلها مما يفهمه السُكان المحليون، كتمساح يسبح نحو قارب. باستثناء فروق بسيطة غير مهمة، عبّر أفراد قبيلة الكونا عن نفس الأحكام الأخلاقية التي توصّلنا إليها نحن.

هاوسر تساءلَ أيضاً عما إذا كان الأفراد المُتدينون يختلفون عن المُلحدين فيما يتعلق بالحدس الأخلاقي. لو كنا نأخذ أخلاقنا من الدين، فإنه من المفترض أن يكون هُناكَ اختلاف، ولكن يبدو أنه لا يوجد. وقد عمل هاوسر مع فيلسوف الأخلاق بيتر سينغر[87]، وركَّزا على ثلاثة معضلات افتراضية محيِرة، قارنا النتائج بين المُلحدين والمُتدينين. في كُل حالة كان يُطلب من المشترك أن يقرر إذا ما كان تصرّفٌ إفتراضيّ ما هو "واجب" أخلاقياً، أو "مسموح"، أو "ممنوع". المعضلات الثلاثة كانت:

1. حالة دينيس. تسعون بالمائة قالوا بأنه من المسموح لها أن تحوِّل مسار القطار، حيث تقتل شخصاً لإنقاذ خمسة.
2. ترى طفلاً يغرق وليس هُناكَ من منقذ. بإستطاعتك إنقاذه، ولكنك ستُتْلِف بنطالك. سبع وتسعون بالمائة وافقوا أن عليهم أن ينقذوا الطفل (من المدهش أن هُناكَ ثلاثة بالمائة ممن أرادوا الحفاظ على سراويلهم).
3. موضوع زراعة الأعضاء الذي شرحناه سابقاً. سبعة وتسعون بالمائة وافقوا بأنه من الممنوع قتل الشخص السليم لإنقاذ الخمسة الآخرين بزراعة أعضائه.

الإستنتاج الرئيسي الذي وصل إليه هاوسر وسينغر هو بأنه ليس هُناكَ، إحصائياً، أي فروق تُذْكَر بين المُلحدين والمُتدينين في اتخاذهم هذه القرارات الأخلاقية. وهذا يبدو مُتطابقاً مع وجهة النظر التي أتمسّك أنا والعديدون بها، وهي أننا لسنا بحاجة إلى الله لنكون صالحين أو طالحين.

لماذا أكون صالحاً إنْ لم يكن هناك إله؟

إنَّ طَرْحَ السؤال بتلك الطريقة يبدو خسيساً. وعندما يطرحه إنسان متدين بهذا الشكل (والعديد منهم يفعل ذلك)، تغمرني رغبة مُلحة بالتحدي التالي: "هل تعني أن تقول لي بأن السبب الوحيد الذي تحاول لأجله أن تكون صالحاً هو لتحصل على رضى الله ومُكافأته، أو لتفادي غضبه وعقوبته؟ هذا ليس أخلاقاً، بل هذا نفاق فقط وتلميع للمظاهر، أن ترمق بالنظر كاميرا المراقبة العظيمة في السماء، أو الميكروفون التجسّسي في رأسك، والذي يراقب كُل حركاتك، وحتى كل فكرة دنية ". وكما قال آينشتاين: "إذا كان الناس صالحين فقط لخوفهم من العقوبة وطمعهم بالمكافأة، فإننا صنف يؤسَف لنا بالتأكيد". يقول مايكل شيرمر في كتابه "علم الخير والشر"[1]، بأن مثل هذا التساؤل يضع حدّاً لكل أشكال النقاش. لو وافقت على أنك، في غياب الله سوف "تسرق وتغتصب وتقتل، فإنك شخص لا أخلاقي وعلينا فعلاً أن نحتاط منك". إذا وافقت بالمقابل أن تستمر في كونك صالحاً حتى بدون وجودك تحت مراقبة السماء، فإنك تقوِض زعمك بأن الله ضروري لنكون صالحين. أظن أن كثيراً من المُتدينين يُفكرون بالفعل أن الدين هو ما

1 . The Science of Good and EVIL, Michael Shermer.

يدفعهم ليكونوا صالحين، خصوصاً أتباع أحد فروع الإيمان الذي يستغل بشكل منظّم الشعور بالذنب وتأنيب الضمير.

يبدو لي بأن التفكير بذلك يستدعي وجود عدم ثقة بالنفس بحيث لو أن الإيمان بالله اختفى فجأة من العالم، فإننا جميعا سننقلب لقساة أنانيين نهتمّ بالمتعة فقط بدون لطف أو صدقة أو كرم أو أي شيء مما يستحقّ أن يوصف بالجودة على الإطلاق. يُعتَقَدُ، وبشكل واسع، أن ديستويفسكي كان له هذا الرأي، يُفْتَرَضُ ذلك بسبب بعض من الكلمات التي وضعها في فم ايفان كرامازوف:

"إيفان لاحظ بجدية بأنه ليس هُناكَ أي قانون في الطبيعة يمكن أن يجعل الإنسان يحُبّ الإنسانية، ولو أن الحُبّ وُجد ولايزال موجوداً في العالم إلى الآن، فإنه ليس ميزة من مزايا قانون الطبيعة، بل يعود بشكل تام لإيمان الإنسان بخلوده الشخصي. وزاد تعليقاً جانبيا بأن ذلك بالضبط هو ما يحدد القانون الطبيعي، وذلك يعني بأنه عندما يتحطم إيمان الإنسان بخلوده، فلن تتعطل قدرته على الحُبّ فحسب، ولكن ستتعطل كُل القوى الضرورية لبقاء الحياة على هذه الأرض. وأكثر من ذلك، لن يكون هُناكَ أي شيء لاأخلاقي، وسيكون كُل شيء مسموحاً حتى أكل لحوم البشر. وأخيراً، وكأن كُل ذلك لم يكن كافياً، صرح بأن كُل شخص، مثلي ومثلك مثلاً، والذي لا يؤمن بإله أو بخلوده الشخصي، فإنه من المحتّم أن يصبح القانون الطبيعي فوراً هو النقيض التام للقانون القائم على الدين الذي سبقه، وأنَّ الأنانية، وحتى ارتكاب الجريمة، سيعتبر ليس فقط مسموحاً بل وأساسياً أيضاً، وسيكون هو الأكثر عقلانية والأكثر نبلاً من أجل البقاء في تلك الظروف"[88].

ربما سذاجة مني أني ملْتُ لوجهة نظر أقلّ تهكُّماً عن الطبيعة الإنسانية من ايفان كرامازوف. هل نحتاج حقيقة لأن نكون تحت مراقبة بوليسية من الله، أو من بعضنا البعض، لكي نتوقف عن التصرف بشكل أناني وإجرامي؟ أُريد بشدة أن أصدق بأني لا أحتاج مراقبة كتلك، ولا أنت يا عزيزي القارئ. من ناحية أخرى، فقط لتقليل ثقتنا، لنستمع الى تجربة ستيفن بينكر التي سببت له الخيبة خلال إضراب للشرطة في مونتريال، والذي وصفه في كتابه "اللوح الفارغ":

"كيافع في كندا الفخورة باستقرارها وسلامها خلال الستينات الرومانسية، كنتُ مؤمناً تماماً باللاسلطوية التي دعا لها باكونين. وكنت أضحك من رأي أهلي القائل بأنهُ لو ألقت الحكومة سلاحها فإن أبواب الجحيم ستُفتح. وآراؤنا المتفاوتة وُضعت قيد الامتحان عندما أضربت قوات الأمن في مونتريال في الساعة الثامنة من يوم 17 تشرين الثاني 1969. في الساعة 11:20، تعرض أول بنك للسرقة. وعند الظهر، أغلقت معظم متاجر مركز المدينة أبوابها بسبب السرقات. وبعد بضع ساعات، أحرق سائقي سيارات الأجرة مرئباً لسيارات الليموزين كان ينافسهم على زبائن المطار. قنّاص من على أحد السطوح قتل شرطياً محلياً، واقتحامات حصلت في العديد من الفنادق والمطاعم، وطبيب قتل سارقاً في منزله في ضواحي المدينة.

حصيلة النهار كانت ستة بنوك، ومئة متجر، و12حريقاً، وحمولة 40 سيارة من زجاج لواجهات المحلات حُطِّمَتْ، وثلاثة ملايين دولارٍ أضراراً بالمُمتلكات. حتى اضطرَت المدينة أن تستعين بالجيش لإحلال النظام. ذلك الامتحان التجريبي الحاسم ترك آرائي السياسية مُمزَّقة ومدمّرة..."

ربما أنني أيضاً متفائل لتصديق أن الناس سيبقون صالحين في غياب الرقابة الإلهية. ولكن من ناحية أخرى، من المفروض أن غالبية أهل مونتريال هم من المؤمنين بالله. فلماذا لم يردعهم الخوف من الله عندما غاب رجال الشرطة الأرضيون مؤقَّتاً عن الساحة؟ أليس إضراب مونتريال تجربة طبيعية جيدة للنظرية القائلة بأن الإيمان بالله يجعلنا صالحين؟ أم أن الساخر ح.ل. مينْكَن أصاب بملاحظته اللاذعة: "الناس يقولون بأنهم بحاجة للدين، في حين أنهم في حاجة للشرطة".

بالطبع لم يتصرف الجميع في مونتريال بشكل سيِّء بمجرد غياب الشرطة عن الساحة. وسيكون من المثير معرفة فيما لو كان هُناكَ أية إحصائية، ولو بشكل ضئيل، للميول فيما إذا كانت ميول المؤمنين للسرقة والتحطيم أقل من غير المؤمنين. توقعي غير المبني على أية معلومات هو العكس. هُناكَ من يقول بتهكم أنه لا يوجد مُلحدين في حُفَرِ الثعالب. وأنا أميل للشك (مع بعض الأدلة بالرغم أنها بسيطة لدرجة أنه لا يُمكن الاعتماد عَليها لأي استنتاج) بأن هُناكَ أقلية من المُلحدين في السجون. أنا لا أزعم بالضرورة بأن الإلحاد يرفع مستوى الأخلاق على الرغم من أن الإنسانية - وهي النظام الأخلاقي الذي يتماشى مع الإلحاد - ربما تفعل ذلك. والامكانية الأخرى هي أن الإلحاد يرتبط أو يتلازَم مع عامل مشترك ثالث، كمستوى تعليم أعلى أو ذكاء أو تفكير تأمّلي عميق، وهذه صفات تتعارض بشكل عام مع الاندفاع الإجرامي. أبحاث من هذا القبيل لا تدعم بالتأكيد النظرة العامة بأن الدين يرتبط طردياً مع الأخلاق. والتناسب الطردي ليس حاسماً أو نهائياً أبداً، ولكن المعلومات التالية والتي أوردها سام هاريس في كتابه "رسالة الى أمة مسيحية"، لا بد أنها مثيرة:

"إن علاقة الدين بالأحزاب السياسية في أمريكا ليس علامة فارقة، ولكن ليس من السر أن الولايات الحمراء [الجمهوريين] قد سُميت كذلك نظراً للنفوذ القوي للمسيحية المُحافظة. ولو كان هُناكَ علاقة بين الصحة الاجتماعية والمسيحية المُحافظة، فيمكن أن نتوقع رؤية علامات تلك الصحة في الولايات الحمراء في أمريكا. لا يحصل ذلك. وضمن المحافظات الـ 25 والتي فيها أقل نسبة جرائم، فإن 62 بالمائة منها تقع في ولايات زرقاء [ديمقراطيين]، و38 بالمائة تقع في ولايات حمراء. من بين أخطر 25 مدينة، نجد 76 في المائة منها في ولايات حمراء، و24 في المائة في ولايات زرقاء. في الواقع إن ثلاثة من أخطر خمس مدن في الولايات المتحدة تقع في ولاية تكساس التقيّة. 24 من الولايات الـ 29 التي تتميز بأعلى نسب سرقات هي ولايات حمراء. ومن الولايات الـ 22 بأعلى نسبة جرائم قتل هُناكَ 17 ولاية حمراء"[1].

1 . تجدر الاشارة بأن ألوان التحالفات السياسية في أمريكا هي تماماً عكس ما هي عليه في أوربا وباقي العالم، حيث اللون الأزرق هو لون الأحزاب المحافظة، واللون الأحمر هو لون الأحزاب اليسارية التقليدية.

إن الأبحاث المنظَّمة تميل بشكل عام لدعم معلومات كهذه. في "مجلة الدين والمجتمع" 2005، قارن غريغوري س. بول سبعة عشر بلداً نامياً اقتصادياً واستخلص النتيجة المُحْبِطة التي تقول بأن "الإيمان المتزايد بالخالق يرتبط ارتباطاً طردياً مع نسبة أعلى من جرائم القتل والموت المبكر والعدوى بالأمراض الجنسية وحمل صغيرات السن والاجهاض، مقارنة بالديمقراطيات المزدهرة". دان دينيت في كتابه "كَسْرِ التَّعويذة"، علّق بسخرية مريرة على هكذا دراسات بشكل عام:

> "لسنا بحاجة للقول بأن نتائج كتلك تصدم الزعم القائل بالمُثُل الأخلاقية العليا وقيمها بين المُتدينين، لدرجة أنه أصبح هُناكَ اندفاع من قبل المؤسسات الدينية لدحض تلك الدراسات... يمكننا أن نكون متأكدين من شيء واحد وهو، لو كان هُناكَ أية علاقة إيجابية بين الأخلاقيات والتدين، أو الممارسات الدينية، أو الإيمان، فإنها ستُكْتَشَف قريباً، بما أن الكثير من المؤسسات الدينية تسعى بجهد لإثبات إيمانهم التقليدي عن ذلك علمياً. (معجبون تماماً بقدرة العلم على اكتشاف الحقيقة عندما توافق ما يؤمنون به). وكل شهر يمضي بدون اكتشاف كهذا، يضع خطاً أحمرَ تحت الشُّبْهة بأن تلك العلاقة ليست موجودة أساساً".

معظم الأشخاص عميقي التفكير سيوافقون بأن الأخلاقيات الموجودة في غياب الرقابة أكثر صدقاً بشكل ما من تلك التي تتبخر فور إعلان الشرطة للإضراب، أو عند إطفاء كاميرا التجسس، سواء كانت الكاميرا حقيقية ومراقَبة من قِبل مخفر الشرطة أو كانت خيالية في السماء. ربما لا يكون من العدل تفسير السؤال "لو لم يكن هُناكَ إله، فلماذا تزعج نفسك بأن تكون صالحاً؟" بتلك الطريقة التهكمية[1]. ويمكن لمفكر ديني أن يعطينا تفسيراً أخلاقيا صادقاً، قد يكون على النمط التالي. "بما أنك لا تؤمن بالله، فإنك لا تؤمن بأن هُناكَ أي قواعد أخلاقية مُطلقة. وربما تحاول أن تكون إنساناً صالحاً بكل الصدق الموجود في الأرض، ولكن كيف يُمكنك التمييز بين ما هو جيد وما هو سيء؟ الدين وحدهُ يستطيع تأمين القواعد النموذجية للصالح والطالح. وبدون الدين عليك أن تخترعها من خلال مُمارساتك. وتلك أخلاق بدون نظام: وهذا ينقض الأخلاق برمّتها. فلو كانت الأخلاق مسألة أختيارية، لاستطاع هتلر الزعم بأنه أخلاقي بالقياس لنظريته المُتعلقة بتحسين النسل، وكل ما يستطيع المُلحد أن يختار شخصياً قواعدَ مُختلفة ليعيش في ضوئها. بعكس اليهود والمسيحيين والمسلمين، الذين يستطيعون الزعم بأن الشر له معنى حقيقي وأزلي وواحد في كُل مكان، وبناء عليه فإن هتلر هو شرير بالتأكيد."

حتى ولو كان حقيقياً أننا بحاجة لإله لنكون أخلاقيين، فذلك لن يجعل وجود الله مُحْتَملاً أكثر بأي شكل من الأشكال، بل مجرد مرغوباً أكثر (الكثيرون لا يستطيعون ملاحظة الفرق). ولكن ليس هذا هو المهم. إن مُتديِّني التبريري المُتخيّل لا يحتاج للاعتراف بأن تملُّقهُ لله هو الدافع لعمل الخير في الدين. بل زعمه كالتالي: لا يهم من أين أتى الدافع لعمل الخير، ولكن بدون الدين لن يكون لدينا قواعد لتحديد الصالح

---

1 . بنفس تلك الطريقة التهكمية قام. هـ. ل مينكين بتعريف الضمير كصوت داخلي يتحدث لنا بأن أحداً ما ينظر إلينا الآن.

والتصرّف على أساسه. حيث كل واحد فينا بمفرده يعطي تعريفه الخاص به عن الأخلاق، ويتصرف على ضوئه. المبادئ الأخلاَقية المبنية فقط على الدين (على خلاف "القاعدة الذهبية" مثلاً والتي تعتبر غالباً متعلَقة بالدين، ولكن يمكننا استخلاصها من مكان آخر) نستطيع تسميتها بالمبادئ المطلقة. الخير خير والشر شر، وليس علينا أن نقرر بحسب الحالات، كمعاناة فرد ما على سبيل المثال. ومتديني المتخيّل يزعم بأن الدين وحده يستطيع أن يكون القاعدة لتحديد ما هو صالح.

بعض الفلاسفة، وكانط بالأخص، جرّبوا استخراج أخلاقيات مُطلقة ليست من أصول دينية. وكونه هو ذاته كان مُتديناً[1]، حيث لم يكن هُناكَ مفرّ تقريباً في أيامه، فقد حاول كانط أن يبني الأخلاقيات على الواجبات من أجل الواجبات فقط بدلاً عن الله. وتصنيفاته للواجبات المشهورة، توجّهنا لأن "نتصرف فقط بتلك الحكمة بإعتبارها تسري في نفس الوقت كقانون عالمي عام". هذا يصلح بشكل واضح في حالة الكذب مثلاً. تخيل أن هُناكَ عالماً بأكمله حيث الجميع يكذب باعتبار أن ذلك هو الأساس، والكذب يعتبر شيئاً أخلاقياً وجيداً. في عالم كهذا سيفقد الكذب معناه. الكذب يحتاج لفرضية بأن هُناكَ صدق وحقيقة بالتعريف. ولو أن نظاماً أخلاقياً هو شيء علينا اتّباعهُ، فإن الكذب لا يُمكن أن يكون نظاماً أخلاقيا لأن المبدأ بذاته يتلاشى معنوياً. الكذب كقاعدة للحياة، لا يُمكن أن تكون مُستقرة. وبشكل عام، الأنانية والتطفل باستغلال النوايا الطيبة للآخرين، ربما يكون مفيداً لي كفرد أناني وحيد ويعطيني رضى شخصي، ولكن لا أستطيع أن آمل أن يكون الجميع طفيليين وأنانيين بالمبدأ لأنني لن أجد من أتطفّل عليه حينها.

المبادئ الكانطية تبدو وكأنها فعاّلة في حالات الصدق وبعض الحالات الأخرى. لكن ليس من السهل تعميمها على الأخلاقيات العامة. وبالرغم من كانط، فإنه من المغري الموافقة مع فرضية المُتدين التخيلي بأن الأخلاقيات المُطلقة تنحدر بشكل عام من الدين. هل يعتبر تخليص مريض بمرض عضال من عذابه بطلبه هو خطأ دائماً؟ هل من الخطأ المُطلق ممارسة الجنس مع شخص من نفس الجنس؟ هل قتل بويضة مُخصّبة يعتبر خطأ دائماً؟ هُناكَ من يؤمن بذلك، والقواعد عندهم مُطلقة. لا يقبلون أي نقاش أو جدال. كُل من يُخالفهم الرأي يستحقّ القتل: نتكلم بالرموز بكل تأكيد هنا، وليس الكلام حرفياً، ماعدا حالة بعض الأطباء الأمريكيين في عيادات الإجهاض (انظر الفصل القادم). لحسن الحظ، وبشكل عام، فإن الأخلاق لا يجب أن تكون مُطلقة.

فلاسفة الأخلاق هم الأخصّائيون عندما يتعلق الأمر بالتفكير بالصح والخطأ. كما عبّر عن ذلك بالمختصر المفيد روبرت هيند عندما قال بأنهم اتفقوا على أن "الأسس الأخلاقية يفترض أن تكون قابلة للدفاع عنها بالمنطق، بالرغم من أنها ليست بالضرورة مبنية بالمنطق"[89]. فلاسفة الأخلاق يُصنِّفون أنفسهم بعدة طرق، ولكن التعاريف الحديثة تقسمهم بين "الأخلاقيون"(مثل كانط)، و"العواقبيون"[2] (يتضمّن هذا الصنف النفعيين مثل جيريمي بينثام 1832-1748). الأخلاقيون هو اسم مُفخَّم للإيمان بأن الأخلاقيات تُبنى على

---

1 . هذا تعريف شائع عن مفاهيم كانط. الفيلسوف المعروف. أ. س غرايلينغ أصرّ، وبشكل معقول، في صحيفة الإنساني الجديد (تموز، آب 2006) بأن كانط، مع أنه كان يتماشى علانيةً مع الدين الذي كان سائداً في عصره، فهو في الواقع كان ملحداً.

2 . العواقبيون وهم القائلون بأن الحكم على أخلاقية عمل ما يكون فقط من خلال عواقبه. (المترجم)

أساس طاعة القوانين. حرفياً هي علم الواجبات حيث أصل الكلمة من الإغريقية ومعناها "الشيء الملزِم". وهذا ليس تماماً ما يُسمى بالأخلاقيات المُطلقة، ولكن في أغلب الحالات لا نحتاج لمعرفة الفرق في كتاب كهذا عن الدين. المؤيِّدون للحكم المطلَق يؤمنون بأن هُناكَ صواب مُطلق وخطأ مُطلق، أحقية الضرورات هي المهمة دون أي اعتبار لنتائجها. العواقبيون أكثر عملية، ويعتقدون بأن أخلاقيات عمل ما يجب تقاس بناءَ على نتائجه. النفعية هي أحد أنواع العواقبية، وهي الفلسفة المرتبطة ببينثام وصديقه جيمس ميل (1936-1773) وابن ميل جون ستيوارت ميل (73-1806). النفعية غالباً تتلخَّص بعبارة بينثام المعروفة وغير الدقيقة للأسف: "السعادة الكبرى لأكبر عدد من الناس هي القاعدة الأساسية للأخلاقيات والقوانين".

ليست كُل القواعد المُطلقة نابعة من الدين. بالرغم من ذلك، من الصعب أن ندافع عن الأخلاقيات المُطلقة على أسس غير دينية. والمنافس الوحيد الذي أستطيع التفكير به هو الوطنية، وخصوصاً في أوقات الحرب. كما قال المخرج الاسباني المميز لويس بونيل "الله والوطن فريق لا يُهْزَم: يحطمون كُل الأرقام القياسية للقمع وإراقة الدماء". ضباط التجنيد يعتمدون بشكل كبير على إحساس ضحاياهم بالواجب الوطني. في الحرب العالمية الأولى أهدت النساء ريشاً أبيض للشباب الذين لا يلبسون الزي العسكري.

لا نريد فقدانك، ولكن نعتقد بأنه واجب عليك أن تذهب
لأن ملكَك ووطنكَ كِلَيْهما يحتاجان ذهابك

البشر يحتقرون الفارِّين الواعين، حتى أولئك الذين في بلد العدو، لأن الوطنية تُعتبر فضيلة مُطلقة. فمن الصعب أن نحصل على مُطلقٍ أكثر من عقيدة الجنود المحترفين، "إنه وطني سواء كان على حق أو على خطأ"، ذلك الشعار الذي يلزمك بقتل كُل من يقع عليه اختيار سياسيي المُستقبل لإعطائهم لقب عدو. رُبما يفلح منطق العواقبيين في التأثير على القرار السياسي بخوض الحرب، ولكن بمجرد إعلان الحرب فإن الوطنية المُطلقة تستلم زمام الأمور بقوة وطاقة لا توجد خارج نطاق الدين. والجندي الذي يسمح لأفكاره الأخلاقية العواقبية بإقناعه بعدم تخطي الحدود، سيجد نفسه غالِباً في محكمة عسكرية، وربما يواجه الإعدام.

إن الدافع لتلك المناقشة عن الفلسفة الأخلاقية كان فرضية الدين الزاعمة بأنه بدون إله فإن الأخلاق نسبية واعتباطية. كانط وآخرون من الفلاسفة الأخلاقيين المُختصِّين على حدة، ومع كُل الاعتراف المُعْطى للحماسة الوطنية، فإن المصدر المُفضل للأخلاقيات المطلقة يكون عادة كتاباً مُقدساً دينياً من نوعٍ ما، مفسّراً على أن لديه سلطة أكبر من أن يستطيع تأريخهُ تبريرها. وبكل تأكيد، فإن أتباع سلطة الكتب المقدسة يُظْهِرون بشكل مُحزن القليل من الفضول حول الأصول التأريخية (المريبة عادة) لكتبهم الدينية المقدسة. الفصل التالي سيبيِّن أن الأشخاص الذين يدَّعون أنهم يأخذون أخلاقياتهم من الكتب المقدسة لا يفعلون ذلك عملياً بأي حال. وهذا شيء جيد أيضاً، كما يجب عليهم أنفسهم الإقرار به بعد وقفة تفكُّر بالموضوع.

الفصل السابع

الكتاب "الصالح" وأخلاقيات روح العصر المُتغيِّرة

السياسة قتلت الآلاف، لكن الدين قتل عشرات الآلاف.

شون أوكايسي

توجد طريقتان يُمكن بهما أن يكون الكتاب المُقدس مصدراً للأخلاق أو قواعد للحياة. الأول بالأوامر المباشرة، مثلاً عبر الوصايا العشر التي هيَ موضوع خلاف مرير في الحروب الثقافية في بعض أماكن أمريكا النائية. والثاني هو بالاقتداء: الله، أو أحد الشخصيات الأخرى المذكورة في الإنجيل ليكون - لنستعمل التعبير المُعاصر - كمثلٍ أعلى. كلا الطريقتان، لو تمّ اتباعهما عقائدياً (والتعبيرِ هنا برمزيته يشير إلى أصله العقائدي) ستقودان لأخلاقياتَ معينة سيعتبرها أي شخص معاصر سواء كان مُتديناً أم لا - ولا أجد تعبيراً ألطف هنا - بغيضة.

للأمانة، أغلب الإنجيل ليس شريراً بشكل مُمنهَج، إنما ببساطة غريب، تماماً كما هو متوقع من وثيقة أدبية عشوائية لوثائق غير متعلقة ببعضها أُعدَّتْ وحُرِرَت ونُقِّحَت وتُرجِمَتْ وشُوِّهَت و"حُسِّنَت" من قِبل المئات من الكتّاب والمحررين والناسخينَ المجهولين بالنسبة لنا، وغالباً هم غير معروفين من قِبَل بعضهم البعض، وذلك على امتداد تسعة قرون[90]. هذا هو ما قد يفسِر بعضَ هذه الغرابة المُطلقة للإنجيل. ولكن للأسف فإن تلك الوثيقة الدينية هي نفسها التي يرفعها المُتطرِفون ليفروضها علينا لتكون المصدر الأساسي للأخلاق وقواعد الحياة. هؤلاء الذين يرغبون أن يبنوا أخلاقياتهم حرفياً على أساس الإنجيل، إما لم يقرؤوه أو لم يفهموه، كما لاحظ محقاً الأسقف جون شيلبي سبونغ في كتابه "آثام الكتاب المقدس". الأسقف سبونغ على فكرة هو مثال لطيف لرجل الدين المُتحرر وصاحب إيمانٍ لا يعترف به غالبية من يسمّون أنفسهم مسيحيين. يقابل جون شيلبي في بريطانيا ريتشار هالواي المتقاعد حديثاً من منصبه كأسقف أدنبرة، الأسقف هالواي يصف نفسه بأنه "مسيحي متعافي". لقيته في مناظرة علنية في أدنبره وكانت إحدى أهم وأكثر اللقاءات التي أجريتها إثارة[91].

العهد القديم

لنبدأ بسِفْر التكوين وبقصة نوح المحبوبة والمأخوذة من أسطورة بابلية لأوتانابشتيم، والمعروفة في أساطير أقدم عند كثير من الحضارات. إن أسطورة الحيوانات التي تذهب للسفينة أزواجاً أزواجاً جذابة، ولكن العبرة من قصة نوح مروِعة. نظر الله للبشرية نظرة قاتمة وقرر، بإستثناء عائلة واحدة، أن يغرق جميع من عليها دفعة واحدة بما في ذلك الأطفال، ولحسابات جيدة، وباقي الحيوانات أيضًا (التي يُفترض أنه لا لوم عليها).

طبعاً رجال الدين المُتضايقون سيعترضون بأننا لم نعد نأخذ أحداث سِفْر التكوين بحرفيته. ولكن تلك هي القضية بعينها! نحن نختار وننتقي أي مقاطع من الكتاب المقدس نَريد أن نؤمن بها، وأي مقاطع نعتبرها رمزية أو مجازية. إنتقاء واختيار كهذا هو موضوع قرار شخصي، تماماً كما هو قرار المُلحد أن يتبع هذه

القاعدة الأخلاقية أو تلك هو قرار شخصي وبدون أي أسس مُطلقة. إن كانت أيّ واحدة من هذه هي "أخلاقيات اختيارية"، فكذلك تكون الأخرى.

على كُل حال، وبالرغم من النوايا الحميدة لرجال الدين المرموقين، فإن غالبية مخيفة من الناس لا تزال تأخذ الكتاب المقدس، ومن ضمنه قصة نوح، بشكل حرفي. إعتماداً على إحصائيات غالوب، يشكِّل هؤلاء حوالي 50 بالمائة من الناخبين في الولايات المتحدة. كذلك وبدون شك، الكثير من أولئك القديسين الآسيويين الذين ألقوا تبعة التسونامي عام 2004 ليس على إنزياحات الطبقات التكتونية للأرض، إنما على ذنوب البشر[92] التي تتراوح بين الشرب والرقص في البارات، إلى كسر أحد القوانين التافهة للعمل في يوم السبت المقدس. منغمسون بقصة نوح وجاهلون بكُل شيء ماعدا تعلُّم الإنجيل، فمن يلومهم؟ كُل ثقافتهم تدفعهم للتفكير بأن الكوارث الطبيعية مُرتبطة بأعمال البشر، انتقامات للمخالفات البشرية بدلاً من ارتباطها بشيء غير واعي مثل حركة الطبقة التكتونية للقارات. وبالمناسبة، فإن ذلك الاعتقاد الزائد عن حده بالأهمية الشخصية لدرجة الإيمان بأنها تسبِب اهتزازات أرضية، حيث أن عمل الإله (أو الطبقات التكتونية) دائماً له ارتباطات بشرية. لماذا يجب على الخالق، والذي في عقله تكمن الأزلية وعملية الخلق، أن يكترث لتصرفات خاطئة تصدر عن إنسان تافه؟ نحن البشر نعطي أنفسنا هكذا أجواء، بل ونضخِّم "ذنوبنا" الصغيرة إلى لمُستويات كونية.

عندما أجريتُ مقابلة تلفزيونية مع الموقر مايكل براي، أحد الأمريكين الناشطين المُميزين ضد الإجهاض، سألته عن سبب هوس الإنجيليين المسيحيين بالميول الجنسية الخصوصية كالمثلية، والتي لا تؤثر على حياة أحد آخر. إحتوى جوابه على شئ كالدفاع عن النفس. المُواطنون الأبرياء يمكن أن يكونوا ضحايا غير مقصودين عندما يقرر الإله أن يضرب مدينة بكارثة طبيعية لأنها تحوي هؤلاء المذنبين. عام 2005 ضرب فيضان كارثي مدينة نيو اورلينز الجميلة كنتيجة لإعصار كاترينا. صدرت تقارير عن الموقَّر بات روبرتسون، أحد أشهر الإنجيلين التلفزيونيين في أمريكا وأحد المرشحين السابقين للرئاسة، بأنه ألقى باللائمة على إحدى الكوميديات المثليات التي تعيش في مدينة نيو أورلينز[1]. لا بد أنك تفكر بأن إلهاً كلي القدرة سيستخدم أسلوبا أكثر دقة في تحديد الهدف لو أراد عقاب مذنب ما: سكتة قلبية مثلاً عوضاً عن مدينة كاملة كانت لسوء حظ ساكنيها مكاناً سكنَ فيه زوجٍ من السّحاقيّات الكوميديات؟

في نوفمبر 2005، قام سكان دوفر في ولاية بنسلفانيا بإقالة كامل الهيئة التدريسية من المتطرفين الذين جلبوا السمعة السيئة للبلدة عدا عن السخرية بمحاولتهم أن يفرضوا تدريس ما يسمى "التصميم الذكي".

---

1 . الخبر المنشور في الموقع الالكتروني HTTP://DATELINEHOLLYWOOD.COM/ARCHIVES/2005/09/05/ROBERTSON-BLAMES-HURRICANE-ON-CHOICE-OF-ELLEN-DENERES-TO-HOSTEMMYS/ ليس مؤكداً، وبغض النظر عمّا إذا كان صحيحاً أو لا، فإن الكثير من الناس مؤمنون به لأنه تماماً يوافق الخط الذي تنتهجه مقولات القساوسة الانجيليين. من بينهم روبيرتسون في حديثه عن الكوارث مثل إعصار كاترينا. شاهد مثلاً، WWW.EMEDIAWIRE.COM/RELEASES/2005/9/EMW281940.HTM. والموقع الذي يتحدث بأن قصة إعصار كاترينا ليست حقيقية (WWW.SNOPES.COM/KATRINA/SATIRE/ROBERTSON.ASP)أقتبس هنا مقولات سابقة لروبيرتسون عن احتفال للمثليين سابق حصل في مدينة اورلاندو في فلوريدا. "أريد أن أحذر أورلاندو أنك تقعين في منتصف الطريق لأعاصير خطيرة، شخصياً لكنت حذراً وما لوحت بهذه الأعلام (أعلام المثليين) بوجه الرب فيما لو كنت مكانك".

عندما سمع بات روبرتسون بأنه تمّ إبعاد المتطرفين ديمقراطياً في الانتخابات، أعطى تحذيراً شديداً لسكان دوفر:

"أحَبّ أن أقول لسكان دوفر الجيدين بأنه لو حصلت كارثة في منطقتكم، لا تلجؤوا للرب. أنتم رفضتموه للتوِ من مدينتكم، ولا تتساءلوا لماذا لم يساعدكم عندما تبدأ المشاكل، هذا لو حصلت مشاكل، وأنا لا أقول بأنها ستحصل. لكن لو بدأت، تذكروا فقط بأنكم صوّتتم لإخراج الله من مدينتكم. وفي حالة كتلك، لا تسألوه العون لأنه ربما لا يكون هناك"[93].

بات روبرتسون كان ليبدو كشخصية كوميدية مضحكة عديمة الأذى لو لم يكن يملك كل هذه السلطة والتأثير في الولايات المتحدة.

في تحطيم سدوم وعمورة، كان الإنسان الموازي لنوح والذي قُدر لهُ النجاة مع عائلته لأنه كان الوحيد المستقيم، ابن أخ إبراهيم، واسمهُ لوط. ملاكان على هيئة رجالَ أُرسلا إلى سدوم ليحذِّرا لوطاً ويدفعاه لترك البلدة قبل أن تمطر كبريتاً. رحّب لوط بالملائكة الضيوف في بيَته، بينما اجتمع رجال سدوم حول بيته وسألوه بأن يسلِّم الملائكة لهم حتى يستطيعوا (ماذا غير؟) ممارسة اللَّواط معهم: "أين الرجال الذين أتو إليك هذه الليلة؟ أخرجهم لنا حتى نستطيع التعرف عليهم" (التكوين 19:5) نعم، "نتعرف" كانت الكلمة التي استخدمتها النسخة المُعتَمَدة كمعنى تلطيفي والذي يبدو مُضحكاً جداً في موقف كهذا. كياسة لوط في رفض طلبهم يلمّح لنا بأن الله ربما كان يُخطط لشيء ما عندما اختاره من بين الجميع كالرجل الوحيد الصالح في سدوم. ولكن الهالة على لوط تتبخَّر في عبارات رفضه: "أرجوكم يا إخوتي لا تفعلوا هذا الشرّ. انظروا، عندي ابنتان لم يلمسهما رجل من قبل: دعوني أحضرهما للخارج إليكم وافعلوا بهما ما يحلوا لكم: ولكن لا تفعلوا شيئاً لهؤلاء الرجال: لأنهم تحت سقفي (التكوين 19: 7 و8).

مهما كانت تعني هذه القصة الغريبة، فإنها بالتأكيد تخبرنا عنِ مدى احترام النساء في تلك الحضارة المُتدينِة بشدّة. وعندما تحصل القصة، فإن المساومة التي يضحِي فيها لوط بعذرية بناته كانت غير ضرورية، لأن الملائكة نجحوا في طرد اللصوص بأن جعلوهم عمياناً بمعجزة فجائية. بعدها حذَّروا لوطاً بأن عليه أن يرحل مع عائلته وحيواناته فوراً لأن المدينة ستُدمّر. كل العائلة هربت بإستثناء زوجته المنحوسة، والتي حولّها الرب لكومة ملح لأنها ارتكبت معصية التطلع إلى الوراء لرؤية الألعاب النارية التي تُعْرَض.

إبنتا لوط تظهران بشكلٍ مُختصر مرة أخرى في القصة. بعد أن تحولت أمهما لكومة ملح، عاشتا مع أبيهما في كهف في الجبل. مُتحرِقتان لمصاحبة رجل، قرّرتا أن تُسْكرا والدهما وتناما معهُ. لوط لم يكن في وضع يسمح له بملاحظة ابنته الكبرى عندما اقتربت من سريره، أو عندما تركتهُ، ولكنه لم يكن سكراناً بشكل كاف ليجعلها تحملُ منه. وفي الليلة التالية، اتفقت البنتان على أنَّ دور الصغرى قد حان. ومرة أخرى كان لوطَ سكراناً حتى الثُّمالة ليلاحظ، وقد جعلها حاملاً أيضاً (التكوين 19: 31-6). إن كانت تلك العائلة

المريبة هي أفضل الموجودين أخلاقياً في سدوم، ربما يبدأ البعض بالشعور بالتعاطف مع الله وقرارهِ باحراقها بالكبريت.

حكاية لوط والسدوميين لها إعادة مماثلة بشكل مخيف في الفصل التاسع عشر في سفر القضاة، حيث كان أحد رجال الدين اليهود (لاوي) يسافر مع محظيته في منطقة جيفا وقد أمضوا ليلتهم بضيافة رجل عجوز. بينما كانوا يتناولون العشاء، أتى رجال المدينة يقرعون الباب ويطلبون من صاحب المنزل أن يسلِّمهم الضَّيف الذَّكر حتى (يتعرفوا عليه). وبشكل مُطابق تقريباً لما قاله لوط، قال العجوز: "لاَ يَا إِخْوَتِي، أتوسّلكم لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا. بَعْدَمَا دَخَلَ هذَا الرَّجُلُ بَيْتِي لاَ تَفْعَلُوا هذه الْقَبَاحَةَ. انظروا هذه ابْنَتِي الْعَذْرَاءُ وَصاحبته. دَعُونِي أُخْرِجْهُمَا، فَأَذِلُّوهُمَا وَافْعَلُوا بِهِمَا مَا يَحْسُنُ فِي أَعْيُنِكُمْ. وَأَمَّا هذَا الرَّجُلُ فَلاَ تَعْمَلُوا بِهِ هذَا الأَمْرَ الْقَبِيحَ" (القضاة 19:4-23). ومرة أخرى، تحضر الأخلاقياتَ المُحقِّرة للمرأة بكل قوة ووضوح. إنني أجد العبارة: "افْعَلُوا بِهِمَا مَا يَحْسُنُ فِي أَعْيُنِكُمْ" تثير القشعريرة. تمتعوا باغتصاب ابنتي وعشيقة اللاوي، ولكن قدِّموا الاحترام لضيفي لأنه قبل كُل شَيء ذكر. وبالرغم من التماثل بين القصتين، فإن خاتمتها كانت أقل سعادة للعشيقة من مثيلتها لابنتي لوط.

اللاوي سلَّمها للعصابة التي اغتصبتها جماعياً طوال الليل: "فَعَرَفُوهَا وأساؤوا معاملتها اللَّيْلَ كُلَّهُ إِلَى الصَّبَاحِ. وَعِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَطْلَقُوهَا. فجاءت الْمَرْأَةُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصَّبَاحِ وَسَقَطَتْ عِنْدَ بَابِ بَيْتِ الرَّجُلِ حَيْثُ سَيِّدُهَا هُنَاكَ إِلَى أن طلع الضَّوْء" (القضاة 19: 25-26). وفي الصباح وجد اللاوي محظيته ساجدة على درج المنزل فقال، بطريقة نعتبرها اليوم فظة وقاسية "قُومي نَذْهَبْ" ولكنها لم تتحرك. كانت ميتة. فـ "أَخَذَ سكِّيناً وَأَمْسَكَ محظيته وَقَطَّعَهَا مَعَ عِظَامِهَا إِلَى اثْنَتَيْ عَشَرَةَ قِطْعَةً، وَأَرْسَلَهَا إِلَى جَمِيعِ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ". نعم ما تقرؤوهُ صحيحاً. إفتح سفر القَضاةَ 19:29. دعونا نُحسنَ الظنَّ ونضعها مع باقي الأمور الغريبة الموجودة في كُل مكان في الإنجيل. إن الموضوع في واقع الأمر ليس جنونياً إلى هذه الدرجة. لقد كان هناك دافع، إشعال روح الانتقام، لأن هذه الحركة أشعلت حرباً انتقامية تجاه عشيرة بنيامين حيث أكثر من 60000 رجلاً خسروا حياتهم، كما يصف سفر القضاة ذلك بتواضع في فصله العشرين. قصة عشيقة اللاوي مُماثلة بشكل ما لقصة لوط، ولا يُمكننا إلا أن نتساءل عما إذا كان جزء من المخطوطة قد أصبح، عن طريق الخطأ، في مكان خاطئ في بعض المخطوطات المنسية: مما يوضح المنشأ غير المتوقَّع للنصوص المقدسة.

إبراهيم عم لوط هو الأب المؤسس للديانات التوحيدية (العظيمة) الثلاث. منزلته الأبوية تجعله هو فقط بشكل ما، أقل بقليل من الله كنموذج يحتذى به. ولكن من هو الأخلاقي المعاصر الذي يريد أن يتبع خطواته؟ في باكورة حياته الطويلة، ذهب إبراهيم لمصر هرباً من المجاعة مع زوجته سارة. لاحظ عندها بأن إمرأة بجمالها ستكون مرغوبة من قبل المصريين، وبالتالي ستكون حياتها وحياة زوجها، في خطر. لذلك قرر أن يتظاهر بأنها أختهُ. بهذه الصفة أُخذَتْ وضُمّت لحريم الفرعون، وأصبح إبراهيم غنياً بفضل فرعون. الله لم يوافق على هذه الصفقة اللطيفة، فأرسل طاعوناً على فرعون ومنزله (لماذا ليس على إبراهيم؟) والفرعون المضطَّهَد طَلب من إبراهيم تفسيراً عن عدم إخباره أن سارة هي زوجته. عندئذٍ

أعادها إليه وطردهما من مصر (التكوين 12:18-19) ويا للغرابة، يبدو أن هذان الإثنان حاولا أن يفعلا الشيء نفسه مرة أخرى، وهذه المرة مع ابيميليخ ملك جيرار. هو أيضاً دُفع من قِبل إبراهيم ليتزوج سارة، ومرة أخرى على أنها أخت إبراهيم وليست زوجته (التكوين 20 :2-5). وهو أيضاً أبدى الامتعاض بطريقة مشابهة حرفياً لفرعون. الواحد منا لا يملك إلا أن يتعاطف مع الإثنين. أليس هذا التشابه مؤشراً على أن النص ليس مما يمكن الوثوق فيه؟

تلك الأحداث غير السارّة في قصة إبراهيم تبدو فقط كهفوات عند مقارنتها بالقصة البغيضة عن تضحيته بابنه إسحق (في الكتب المُقدسة الإسلامية تُحكى نفس القصة عن الابن الآخر إسماعيل). الربّ أمر إبراهيم بتقديم قُربان على النار من ابنه الذي طالما حلم بأن يكون لديه. بنى إبراهيم مذبحاً ووضع حطباً عليه وربطَ ابنهُ إسحق فوق الحطب. السكين الحادّة كانت في يده عندما تدخَّل ملاكٌ بشكلٍ درامي ومعهُ أخبار بأن الخطة تغيرت في اللحظة الأخيرة: الربّ كان يمزح فقط "ليَغري" إبراهيم وليختبر إيمانه. الإنسان الخلوق المعاصر لا يسعه سوى التساؤل عن مدى إمكانية تعافي الطفل بعد صدمة نفسية كهذه. بمقاييس الأخلاق المُعاصرة، فإن تلك القصة المشينة مثال للعنف ضد الأطفال، وبالوقت نفسه للتنمّر في علاقات قوة لا متماثلة، وأول استعمال موثّق لأسلوب الدفاع في محاكم نيورنبرغ النازية: "لقد نفَّذْتُ الأوامر فقط". على الرّغم من هذا، فإن تلك الأسطورة هي إحدى الأسس الرئيسية في الأديان التوحيدية الثلاثة.

ومرة أخرى، سيعترض عُلماء الدين المُحدثين بأن قصة تضحية إبراهيم بابنه يجب ألاَّ تؤخَذ حرفياً كحقيقة. مرة أخرى أيضاً، فإن الإجابة الصحيحة لها شقّان. الأول هو أن الغالبية العظمى من الناس، حتى يومنا هذا، لا يزالون يأخذون كتابهم المقدس بكليّته حرفياً كحقيقة، وهؤلاء لديهم قوة وسلطة سياسية علينا وعلى الآخرين، خاصة في الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. الشق الثاني هو: إنْ لم نأخذ القصة حرفياً، فكيف علينا أن نأخذها إذن؟ كحكاية رمزية؟ ولكن حكاية رمزية عن ماذا؟ لا شيء بالتأكيد يستحقّ التقدير فيها. أنأخذها كدرس في الأخلاق؟ ولكن ما نوع الأخلاق التي يمكن أن نستوحيها من تلك القصة المُروِّعة؟ لنتذكر بأن ما أحاول أن أؤسِّس له في هذه اللحظة هو أننا عملياً لا نستقي أخلاقنا من الكتاب المقدس. أو إذا فعلنا ذلك، فإننا نختار وننتقي من الكتاب ما هو لطيف ونرمي ما هو كريه. ولكن عند ذلك يجب أن يكون لدينا أساس أخلاقي مُستقلٌّ لنقرر ماهو التصرّف الأخلاقي: أساسٌ، مهما كان مصدرهُ، لا يُمكن أن يكون الكتاب المقدس نفسه، ويُفترَض أن يكون متوفراً لنا جميعاً، سواء كنا مُتدينين أم لا.

المدافعون عن الدين يسعون لإنقاذ بعض من ماء وجه الله في تلك القصة المرعبة. أليس جيداً أن ينقذ الله حياة إسحق في اللحظة الأخيرة؟ في حالة سقوط أحد القراء ضحية لتلك المقولة، سأسرد قصة أخرى من الأضاحي الإنسانية والتي انتَهت بنهاية أقل سعادة. في سفْر القضاة الفصل الحادي عشر، يجري القائد العسكري جِفْتَه مساوَمة، أو صفقة، مع الله بأنه إذا ضمنَ لهُ النَّصر ضد الأمّونيين، فإنه سيضحّي بدون أي استثناء بـ "أول من سيستقبله على أبواب منزله" عند عودته. ينتصر جِفْته بالفعل على الأمونيين ("بمذبحة عظيمة" كما هو الحال عموماً في كتاب القضاة). ويعود للبيت منتصراً. لا مُفاجأة هنا، ابنته الوحيدة خرجت لتستقبله (وهي ترقص وتغني) -للأسف - كانت هي الكائنَ الحيَ الأوّلَ الذي استقبله.

مفهوم جداً بأن جِفْثه مزّق ملابسه، ولكن ليس هُناكَ ما يستطيع فعله. يبدو أن الله كان ينتظر أضحيتهُ بفارغ الصبر. بناء على الظروف، فقد رضيت الفتاة أن تكون الأضحية، وطلبت فقط أن يُسْمَح لها بأن تخلو بنفسها في الجبل لشهرين لتندب عذريّتها. وفي النهاية عادت ذليلة حيث شواها جِفْثه. والربّ لم يجد أنه من المناسب أن يتدخل في هذهِ المناسبة.

إن غضب الله عظيم عندما يتغزَّل شعبهُ المُختار مع إله منافس آخر، ذلك لا يشبه أي شيء إلا الغيرة الجنسية في أسوأ حالتها، ومرة أخرى يصعق ذلك أي أخلاقي معاصر ببعده كُل البعد عما يمكن دعوته بالمثال الأعلى. إن الإغراء الجنسي المُسبب لعدم الإخلاص مفهوم حتى لهؤلاء الذين لا يستسلمون لهُ أبداً، وهو موضوع رئيسي في الروايات والأعمال الدرامية، ابتداء بشكسبير وحتى كوميديا غرف النوم[1]. ولكن يبدو أن الإغراء الذي لا يقاوم للعبث مع آلهة غريبة أصعب من أن نتفهمهُ نحن المعاصرون. في رأيي البسيط، أجد أنهُ من السهل جداً الالتزام بعبارة "لا يجب أن يكون لك إله إلا أنا": هذا سهل، ربما تفكر، مقارنة بـ "لا تشتهي امرأة جارك". أو حمارها (أو ثورها). وعلى الرغم من ذلك، ما كان على الرب إلا أن يدير ظهره لبرهة حتى يبدأ بنو إسرائيل بعبادة بعل، أو صورة محفورة أخرى[2]، أو في حَدَث كارثي، العجل الذهبي...

يمكن اعتبار موسى مثل أعلى بالنسبة أكثر من إبراهيم لأتباع الديانات التوحيدية الثلاث. ربما يكون إبراهيم الأب الأول لتلك الديانات، ولكن الذي يمكن دعوته بالمؤَسس والمُلقِّن الأول لليهودية والديانات المتفرعة عنها هو موسى. في حادثة العجل الذهبي، كان موسى في طريقه إلى أعلى جبل سيناء ليناجي ربهُ، ويأخذ منهُ الألواح الحجرية المنقوشة من قِبَلِه. والناس في الأسفل (كانوا ممنوعين من لمس الجبل وإلاَّ الإعدام) لم يُضيعوا الوقت:

> "وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ مُوسَى هذا الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا هنا خارجَ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ»" (خروج 32: 1).

هارون أمر الجميع بأن يُخْرِجوا كل ما لديهم من ذهب، ثم أذابهُ وصنع منه العجل الذهبي، وبنى مذبحاً لهذا الإله المُخترَع حتى يبدأ الناس بالتضحية له.

ربما كان عليهم أن يعرفوا عاقبة العبث مع الرب من وراء ظهره بهذا الشكل. ربما كان في أعلى الجبل، ولكن بكل الأحوال هو العليم، فلم يضيع أي وقت في إرسال منفِّذ أوامره موسى إليهم. سارع موسى بالنزول من الجبل حاملاً الألواح الحجرية التي نقش عليها الله الوصايا العشر. عند وصوله، رأى العجل الذهبي

1 . كوميديا غرفة النوم هو أحد أشكال الفكاهة الدرامية أو الكوميديا المعروفة والتي تتناول الجنس والمفارقات الجنسية كمادة دسمة (المترجم).
2 . جوناثان ميلر هو الذي أعطاني هذه الفكرة الفكاهية، من الغريب فعلاً أنه لم يتناولها في مقطع ما في (Beyond the Fringe)، أشكره ايضاً على الكتاب الثقافي الذي نصح به، والقائم على هالبيرتال ومارجاليت، (Idolatry, 1992).

فغضب لدرجة أنه أوقع الألواح من يده فتحطَّمت (أعطاه الله ألواحاً بديلة لاحقاً، وبذلك رجعت الأمور لنصابها). صادَرَ موسى العجل الذهبي وأحرقه وطحنه رماداً وخلطه بالماء وأرغم الناس على ابتلاعه. ثم قال للجميع في قبيلة ليفي الكهنوتية (المتديِّنة) أن يستلُّوا سيوفهم ويقتلوا أكبر عدد ممكن من الناس. وصل العدد إلى حوالي الثلاثة آلآف، ربما يأمل البعض بأن ذلك كان كافياً لتخفيف غيرة الله. لكن لا، لم ينته الله منهم بعد. ففي الآية الأخيرة من هذا الفصل الرهيب: كانت الضربة الأخيرة بإرسال طاعون على من بقي من الناس (لأنهم صنعوا العجل الذي صنعه هارون).

سِفْر العدد يخبرنا كيف حرّض الله موسى بأن يهاجم الْمِدْيَانِيِّينَ. جيشهُ قام بذبح كُل الرجال وبحرق كُل مدن الْمِدْيَانِيِّينَ، ولكنهم لم يقتلوا النساء والأطفال. تلك الَرحمَة التي مارسها الجنود أغضبت موسى فأعطى أوامرهُ بَقتل الصبيان جميعاً، وكذلك كُل الإناث غير العذراوات. " وأمَّا الإناثُ منَ الأطفال والنِّساء اللَّواتي لم يُضاجِعْنَ رَجُلا فاسْتَبقوهُنَّ لكُم." (العدد 31: 18) لا... لم يكن موسى مثالاً خلَقياً عظيماً يحتذى بَالنسبة للأنسان المعاصر.

إلى حدٍّ الآن، عندما يحاول المُدافعون عن الدين الكتابةِ عن الموضوع وزجّ معنىَ رمزياً أو مجازياً لمجزرة المديانيين، فإن تلك الرموز تأخذ اتجاهاً خاطئاً. الْمِدْيَانِيِّونَ المساكين، وبحسب ما نستطيع قوله من القصة الإنجيلية، كانوا ضحية مذبحة في عقر دارهم. وبالَرغمَ من ذلك، يعيش اسمهم في الفكر المسيحي حصرياً في تلك الترنيمة المسيحية (التي لازلتُ أستطيع ترنيمها من الذاكرة بلحنين مختلفين بعد خمسين عاماً) والتي تدعو المؤمنين للهجوم.

يا مسيحي... هل تراهم
على الأرض المُقدسة
كيف جيش الْمِدْيَانِيِّينَ
يطوف ويطوفَ في الَأنحاء خلسةً؟
يا مسيحي قُم واضربهم
خذ النصر بالحسبان لا الهزيمة
اضربهم بقوة
الصليب المقدَّس[1]

يا لَلْمِدْيَانِيِّينَ المساكين المُفترى عليهم والمذبوحين، يُذْكَرون فقط كرمز شعري عن الشرَ العالمي في أحد ترانيمَ العصر الفيكتوري.

يبدو الإله المنافس، بعل، وكأنهُ كان دائم الاغراء للعباد الباحثين عن مذبح جديد. في سفر العدد، الإِصحَاحُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ، أغرت نساء الموآبيين الكثيرين من بني إسرائيل أن يضحوا لبعل. الربّ ردَّ بغضبه

1 . ترجمة بتصرف (المترجم).

المميّز. أمر موسى: "خُذْ جَمِيعَ رُؤُوسِ الشَّعْبِ وَعَلِّقْهُمْ لِلرّبّ مُقَابِلَ الشَّمْسِ، فَيَرْتَدَّ حُمُوُّ غَضَبِ الرّبِّ عَنْ إِسْرَائِيلَ". لا يملك المرء إلا أن يتعجب من وجهة النظر المُتشددة نحو ذنب مغازلة أحد الآلهة المنافسين. بالنسبة لإحساسنا العصري بالقيم والعدالة، يبدو لنا ذلك ذنباً تافهاً مقارنةً بتقديم ابنتك لاغتصاب جماعي. مع ذلك، هو مثال آخر على الهوّة الموجودة بين الكتاب المقدس والأخلاق العصرية (من المغري هنا القول: الحضارية). بالتأكيد ذلك يُفهم بسهولة باستعمال نظرية الميمات والصفات النوعية التي تحتاجها الآلهة لتستمر في الوجود في بنك الميمات.

إن المهزلة المأساوية لهوس الغيرة الربانية من الآلهة الأخرى تتكرّر خلال العهد القديم. إنها الدافع لأول الوصايا العشر (التي كُتِبَتْ على الألواح التي كسرها موسى: الخروج 20، التثنية 5)، وتظهر بوضوح أكبر (وبشكل مُختلف) بالوصايا البديلة التي قدَّمها الله لتحلَّ محلّ الألواح المكسورة (الخروج 34). بعد وعده بطرد العمّوريين والكنعانيين والحثّيين والفرزيين والحوّيين واليبوسيين من أرضهم، يبدأ الله بما يهمّه حقاً: الآلهة المنافسة.

> "بَلْ تَهْدِمُونَ مَذَابِحَهُمْ، وَتُكَسِّرُونَ أَنْصَابَهُمْ، وَتَقْطَعُونَ سَوَارِيَهُمْ. فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لإِلهٍ آخَرَ، لأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيُورٌ. إِلهٌ غَيُورٌ هُوَ. احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تَقْطَعَ عَهْدًا مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ، فَيَزْنُونَ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ وَيَذْبَحُونَ لآلِهَتِهِمْ، فَتُدْعَى وَتَأْكُلُ مِنْ ذَبِيحَتِهِمْ، وَتَأْخُذُ مِنْ بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكَ، فَتَزْنِي بَنَاتُهُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِنَّ، وَيَجْعَلْنَ بَنِيكَ يَزْنُونَ وَرَاءَ آلِهَتِهِنَّ. لاَ تَصْنَعْ لِنَفْسِكَ آلِهَةً مَسْبُوكَةً". (خروج 34: 17-13).

بالطبع أعرف بأن الزمن قد تغيّر، وليس هُناكَ من رجال الدين اليوم (بإستثناء طالبان ومن يعادلهم من المسيحيين الأمريكان) من يفكر بنفس طريقة موسى. ولكن تلك هي النقطة التي أُريد أن أركز عليها. كُل ما أُريد أن أؤكدهُ هنا هو بأن الأخلاقيات الحديثة، مهما كان مصدرها، فهو ليس الكتب المقدسة. لا يُمكن للمُدافعين عن الدين أن يفلتوا هنا بالادعاء بأن الدين يمدَّهم بما يشبه مسار داخلي يجعلهم يتعرفون على ما هو صحيح وما هو سيء، كمصدر مُميز غير متوفِّر للمُلحدين. لا يستطيعون الإفلات بذلك الإدِّعاء حتى إنْ وظَّفوا خدعتهم المُفضَّلة عن تفسير الكتاب بشكل "رمزي" عوضاً عن المعنى الحرفي. ما هي المعايير التي تجعلك تقرر ما هي العبارة الرمزية وما هي الحرفية؟

إنَّ التَّصْفية العرقية التي بدأت في عهد موسى تصل إلى أقصى دمويتها في سفر يوشع، سِفْرٌ يتميّز بمذابحه المُتعطشة للدماء، وبالحقد على الآخر الذي يتوجّب ذبحهُ. كما تقول الأغنية البهيجة "يوشع ناسب معركة أريحا، اهتزّت الحيطان ووقعت... ليس هُناكَ أحد مثل يوشع الشيخ عند الإله، في معركة أريحا". يوشع الشيخ لم يأخذ استراحةً حتى "دمّروا بالكامل كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُل وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْل وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ" (يوشع 21: 6).

ومرة أخرى، سيعترض رجال الدين بأن هذا لم يحدث، حسناً، القصة تقول بأن الحيطان تهدمت من أصوات رجال يزعقون وينفخون النفير، بالطبع لم يحدث ذلك، ولكن ليس هذا ما هو مهم في الموضوع. النقطة هنا هي أنها سواء كانت صحيحة أم خطأ، فإن الكتاب المقدس يُفرَض علينا باعتباره مصدر للأخلاق. قصة يشوع، وتدميره لأريحا وأحتلال أرض الميعاد بشكل عام، لا يمكن تمييزها خلقياً عن غزو هتلر لبولندا، أو مذبحة صدام حسين بالأكراد وعرب الأهوار. ربما يكون الكتاب المقدس عملاً شاعرياً وخيالياً رائعاً، ولكنه ليس بذلك الكتاب الذي يجب أن تعطيه لأطفالك ليستقوا منه أخلاقياتهم. وهنا أريد الذِّكْرَ بأن قصة يشوع في أريحا كانت موضوع تجربة مُثيرة للإهتمام في أخلاقيات الطفل والتي سنناقشها لاحقاً في هذا الفصل.

وعلى فكرة، لا تظن بأن الشخصية الإلهية في تلك القصة كان لديها أي اعتراض على المجازر والإبادات الجماعية التي رافقت احتلال أرض الميعاد. بل على العكس، فأوامرهُ في سفر التثنية 20 على سبيل المثال كانت مثالاً لعدم الرحمة. لقد ميز بشكل واضح بين الأناس الذين يعيشون على الأرض الموعودة وأولئك الذين يعيشون بعيداً عنها، والذين يجب أن يستسلموا بسلمية. وفي حال رَفْضِهِم، فيجب قتل كُل الرجال وأخذ كُل النساء للإنجاب. وعلى عكس ذلك التعامل الإنساني نسبياً، لننظر إلى ما كان مخبّأً لأولئك المنحوسين كفاية ليكونوا سكان الأرض الموعودة: "أَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ إياها الرّبّ إِلهكَ ميراثاً، فَلاَ تَسْتَبْقِ منهَا شيئاً يتنفس، بَلْ تُدمّرها تدميراً كاملاً: الْحِثِّيِّينَ، وَالأَمُورِيِّينَ، وَالْكَنْعَانِيِّينَ، وَالْفِرِزِّيِّينَ، وَالْحِوِّيِّينَ، وَالْيَبُوسِيِّينَ، كَمَا أَمَرَكَ الربُّ إِلهُكَ ".

هل لدى هؤلاء الذين يرشّحون الكتاب المقدس كمصدر للأخلاق أي فكرة عمّا كُتبَ فيه حقاً؟ التُّهَمُ التالية عقوبتها الموت كما ورد في سِفْر اللاّويين: سبّ الأهل، والزنا، وممارسة الجنس مع زوجة الأب أو الكنَّة، والمثلية الجنسية، والزواج من امرأة وابنتها، وممارسة الجنس مع البهائم (وزيادة بالإيذاء، فإن البهيمة المسكينة يجب قتلها أيضاً). ويجب إعدامك أيضاً بالطبع كعقوبة للعمل في يوم السبت: هذه النقطة يتم ذكرها مراراً وتكراراً خلال العهد القديم. في سفر العدد 15، التقى بنو إسرائيل شخصاً يجمع الحطب في الغابة في اليوم المحرّم. أوقفوه وسألوا الله ماذا يفعلون به. وكما تبيّن، لم يكن الله في مزاج لتقبّل أنصاف الحلول ذلك اليوم. "فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَتْلاً يُقْتَلُ الرَّجُلُ. يَرْجُمُهُ بِحِجَارَةٍ كُلُّ الْجَمَاعَةِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ». فَأَخْرَجَهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَرَجَمُوهُ بِحِجَارَةٍ، فَمَاتَ". هَل كَان لدى جامع الحطب المُسالم زوجة وأطفال يندبونَه؟ هل أصدر أنيناً من الخوفَ عندما طارت أولى الحجرات، وهل صرخ من الألم عندما اصطدمت برأسه؟ ما يصدمني في يومنا هذا في قصص كهذه ليس أنها حدثت بالفعل، فربما لم تحدث. ما يجعلني فاغِر الفم هو أن بعض الناس يظنون أن عليهم أن يبنوا حياتهم ويتمثلون يهوه كنموذج أعلى يحتذى بهديه، والأسوأ من ذلك أن عليهم محاولة فرض ذلك الوحش الشرير (بغض النظر عن كونه واقعياً أم لا) علينا.

إن القوة السياسية للوصايا العشر في أمريكا هي مما يؤسف له بشكل خاص في تلك الجمهورية العظيمة التي وُضِع دستورها، قبل أي شيء آخر، من قِبل رجال من عصر التنوير بتعابير علمانية واضحة. لو أخذنا

الوصايا العشر بشكل جدي، لاعتبرنا عبادة آلهة أخرى، ونحت صور لها، هي الأول والثاني بين الخطايا. عوضاً عن استنكار عمل طالبان التخريبي الذي فجّر بالديناميت تمثال بوذا البامياني الذي يبلغ طوله 150 قدماً في جبال أفغانستان، يجب علينا إبداء آيات التقدير لتقواهم المُستقيمة. ما نفكر بهِ كعمل تخريبي كان بالتأكيد مدفوعاً من شعورٍ دينيٍ صادقِ الحماس. وما يؤكد لنا ذلك هو القصة الغرِيبة التي ظهرت في صحيفة "الانديبندنت" اللندنية في عددها الصادر في السادس من آب 2005. على صفحتها الأولى، وبالخط العريض كان العنوان: "تدمير مكة"، كتبت الانديبندنت:

"مكة التاريخية، مهد الإسلام، تُدفن بهجوم لم يسبق له مثيل من قبل المُتدينين المُتعصبين. كُل التاريخ الغني والمتعدد الأوجه لتلك المدينة المقدسة ذهب... والآن تواجه المدينة التي وُلد فيها النبي محمد الجرافات، وبالتغاضي التام من قبل السلطات الدينية السعودية التي يدفعها تفسيرها الحرفي للإسلام لمحو كُل إرثها التاريخي... الدافع خلف ذلك الدمار هو خوف الوهابيين المتطرفين من أن مكاناً بتلك المكانة التاريخية والدينية بإمكانه أن يكون سبباً لعبادة الأصنام أو تعدُّد الآلهة، وهي عبادة آلهة مُتعددة ومتساوية. ممارسة عبادة الأصنام في السعودية لاتزال، بالمبدأ، تُعاقَب بقطع الرّأس"[1].

لا أظن بأن هُناكَ مُلحداً في العالم يُمكن أن يُفكر بأن يهدم مكة بالجرافة، أو كاتدرائية شارترس في يورك، أو كاتدرائية نوتردام، أو معبد شوي داغون في كيوتو، وبالطبع أيضاً تمثال بوذا البامياني. وكما قال الفيزيائي الأمريكي الحائز على جائزة نوبل ستيفن واينبرغ: "الدين إهانة لكرامة الإنسان، به أو بدونه سيكون هناك دائماً أناس طيبون يفعلون الخير، وأناس سيئون يفعلون الشر. ولكنك تحتاج للدين كي تجعل أناساً طيبين يفعلون الشر". بليز باسكال (صاحب الرِهان) قال شيئاً مشابهاً: "لا يقترف الإنسان عملاً شريراً بسرور وبشكل كامل إلا إذا فعله بسبب قناعة دينية".

هدفي الأساسي هنا ليس تبيان أنه ليس علينا أن نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة (رغم أن ذلك هو رأيي الشخصي). إن هدفي هو توضيح الواقع بأننا (وهذا يتضمن أغلب المُتدينين) في الحقيقة لا نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة. لو فعلنا ذلك، كنا راعينا يوم السبت، وفكرنا بأنه من العدل والمناسب إعدام أي شخص اختار ألاَّ يفعل ذلك. كنا رجمنا أيّ عروس لم تستطع إثبات أنها كانت عذراء إذا أعلن زوجها أنه غير راضٍ معها. كنا أعدمنا الأطفال العاقّين وكنا ... ولكن انتَظر. ربما لم أكن عادلاً هنا. المسيحيون اللطيفون سيعترضون على هذا الفصل: الكل يعرف بأن العهد القديم ليس لطيفاً. العهد الجديد ليسوع أصلح الخطأ وجعل كُل شيء على ما يُرام. أليس كذلك؟

1 . "جميعنا يدفع ثمن هذا البحر من الجنون للتعصب السعودي"، مقولة لجوان هاري تفضح الوهابية السعودية وتغلغلها في بريطانيا اليوم. هذا النص تم نشرهُ أولاً في الثامن من شباط 2007، وتم إعادة نشره في مختلف الصفحات على الشبكة العنكبوتية. منها، RichardDawkins.net.

هل العهد الجديد بأفضل حال؟

حسناً، لا يُمكن أن ننفي أنه من وجهة نظر أخلاقية يُعتبر المسيح تطوراً عظيماً بالنسبة لغول العهد القديم القاسي. إن المسيح بالفعل، على فرض أنه وُجد (أو أياً كان من كتب العهد الجديد إن لم يوجد) كان بالطبع أحد أعظم المبتكرين الأخلاقيين على مدى العصور. خطبة الجبل سبقت عصرها بكثير. و"أعطي خدك الآخر" سبقت كُلّاً من غاندي ومارتن لوثر كينغ بألفي عام. وليس عبثاً أنني كتبتُ مقالاً بعنوان "مُلحدون لنصرة المسيح" (وكان من دواعي سروري أنْ أُعطى بعد ذلك قميصاً مطبوعاً عليه هذه الجمَلة)[94].

ولكن تفوّق المسيح الأخلاقي يؤكد بدقّة ما أقولهُ هنا. المسيح لم يكن راضياً بأخذ أخلاقياته من الكتب المقدسة التي تربّى عليها. بل ابتعد عنها كثيراً. كمثال عندما بدّدَ موضوع السبت. "السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ، لاَ الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ"، تلك المقولة أصبحت مثلاً متداوَلاً. عندما تكون رسالته الأساسَية هي أنهُ علينا ألا نأخذ أخلاقياتنا من الكتاب المقدس، أعتقد أنهُ علينا أن نكرمه كرمز فقط بسبب هذا الموقف.

أما بالنسبة لقيمه العائلية، يجب الإعتراف أنها ليست بالآراء التي يرغب أحدنا بتقليدها. لقد كان مقصِّراً لدرجة الفظاظة مع أمه، وشجّع تلاميذه على أن يتركوا عائلاتهم ويتبعوه. "إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِه، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا". الكوميدَية الأمريكية جوليا سويني عبّرت عن حيرتها من خلال عرضها المسرحي المنفرد "ترك الإلَه"[95]. أليس هذا ما يفعلهُ المتطرفون؟ يدفعون الشخص لمقاطعة عائلته ليسهل لهم غسيل دماغه؟[96]

وعلى الرغم من قيمه العائلية المثيرة للشكوك، فقد كانت تعاليم المسيح الأخلاقية، على الأقل بالمقارنة مع الأخلاقيات الكارثية للعهد القديم، مثيرة للإعجاب؛ ولكن هُناكَ تعليمات أخرى في العهد الجديد من النوع الذي لا يُفترض أن يتبعها إنسان جيد. وهنا أنوه بالأخص للفكرة المركزية للمسيحية "كفَّارة الخطيئة الأصلية". تلك التعليمات التي تشكل قلب العهد الجديد، وتقارب بأخلاقياتها البغيضة قصة إبراهيم وقراره بشوي ابنه إسحق والتي تشبهها، ليس عن طريق الصدفة، كما يوضح غيزا فيرميس في كتابه "الأوجه المتغيرة للمسيح". الخطيئة الأصلية بحدّ ذاتها أتت من العهد القديم، ومن أسطورة آدم وحواء. إرتكابهما الذنب بأكلهما من الفاكهة المُحرّمة يبدو بسيطاً لدرجة أن بعض التوبيخ كان كافياً. ولكن الطبيعة الرمزية للفاكهة (معرفة الخير والشر والتي انتهت بمعرفتهما بأنهما كانا عاريين) كانت كافية لتحويل تلك السرقة الطائشة لتُصبح أماً وأباً لكل ذنب. هم، وكلُّ نسلهم، حُرِموا للأبد من جنات عدن، ومُنعَت عنهم الحياة الأبدية، وأُدينوا لأجيال بالعمل الشاقّ في الحقول للرجال، وآلام الولادة للنساء.

كل ذلك الانتقام يستمرّ معنا، كما هو الحال في العهد القديم. العهد الجديد أضافَ ظلماً آخر مُطعَّماً بسادومازوخية عنيفة لا تقارَن حتى بالعهد القديم. إنه لمن المثير للتساؤل، عندما تمعن التفكير، أن ديناً ما يتبنّى أداةً للتعذيب والإعدام كرمز مُقدَّس وتُلْبَس غالباً حول العُنق. ليني بروس، لديه الحقّ في

الاستهزاء عندما قال: "لو أُعْدِمَ المسيح قبل عشرين عاماً، سيلبس أطفال المدارس الكاثوليكية كراسي إعدام كهربائية صغيرة حول أعناقهم عوضاً عن الصليب". ولكن نظرية العقاب والعقيدة التي بُنيت عليها كانت حتى أسوأ. خطيئة آدم وحواء يُعتَقَد أنها وُرِّثت عبر سلالة الذكور، إنتقلت عبر الحيوانات المنوية كما ورد عن القديس أوغوسطين. أي نوع من الفلسفة الأخلاقية هذه التي تُدين كُلَّ طفل، حتى قبل أن يولد، ليرث خطيئة سلف بعيد له؟ أوغوسطين، بالمناسبة، الذي اعتبر نفسهُ مرجعية في موضوع الخطيئة، هو الذي سك تعبير "الخطيئة الأصلية". كانت قبله معروفة بـ "خطيئة الأسلاف". تصريحات أوغوسطين والحوار الدائر بين رؤساء الكنيسة الأوائل يلخِّصان بالنسبة لي مدى الإنشغال غير الصحّي لرجال الدين المسيحي بمسألة الخطيئة. كان بوسعهم تكريس صفحاتهم وعظاتهم لتمجيد السماء المرصعة بالنجوم، أو الجبال بغاباتها الخضراء، والبحار وجوقات الفجر. تلك الأمور أشير إليها في المناسبات، ولكن المسيحية ركَّزت بشكل كبير على الخطيئة، الخطيئة، الخطيئة، الخطيئة، الخطيئة. ما أتفه ذلك ليكون شغل حياتك الشاغل. سام هاريس عبّرَ عن ذلك بشكل رائع في كتابه "رسالة إلى أمّة مسيحية": "شغلكم الشاغل هو القلق بسبب أنَّ خالق الكون يغضب لأشياء يؤدّيها الناس وهم عُراة. إحتشامكم المتطرف هذا هو مساهمتكم اليومية بالفائض من البؤس الإنساني".

ولكن الآن فلنتناول السادومازوخية. الإله يتجلّى بنفسه في هيئة إنسان، يسوع، لكي يُعَذَّب ويُعدَم كتكفيرٍ عن خطيئة آدم المتوارَثة. منذ أن نشر بولس هذه العقيدة المنفِّرة، بدأت عبادة يسوع كشفيعٍ لكل خطايانا. ليس فقط لخطيئة آدم في الماضي: الخطايا المستقبلية كذلك، سواء أشخاص المستقبل قرروا أن يفعلوا تلك الذنوب أم لا!

من جانب آخر، خطرت للبعض، ومنهم روبرت غرافيس في قصته الملحمية "الملك يسوع"، بأنَّ هذا المسكين يهوذا الاسخريوطي قد عومل بصورة غير عادلة تاريخياً نظراً لأن "خيانته" كانت ضرورية للمخطط الكوني. ويمكن قول الشيء نفسه عن قتلة يسوع المزعومين. إذا كان يسوع يرغب بأن تتمّ خيانته وقتله فداءً لنا جميعاً، أليس من غير العدل أن يصبّ أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مخلَّصين جامّ غضبهم على يهوذا واليهود عبر القرون؟ لقد أشرت مسبقاً إلى تلك اللائحة الطويلة من الأناجيل غير الرسمية. وأحدها يُزْعَم أنه الإنجيل الضائع الذي كتبهُ يهوذا وقد تُرجم حديثاً، وبالتالي أصبح مشهوراً[97]. إن ملابسات اكتشافه لا زالت قَيْدَ التَّمْحيص، ولكن يبدو أنهُ ظهر في مصر في الستينات أو السبعينات. وهو مخطوط باللغة القبطية على 62 صفحة من أوراق البردي، وتاريخة الكربوني يعود لـ 300 ميلادية، وربما كان أصلهُ من مخطوط أقدم باللغة اليونانية. كائنٌ من كان الكاتب، فإن المخطوط هو وجهة نظر يهوذا الاسخريوطي، ويدَّعي بأنه خان يسوع فقط لأن يسوع قد طلب منه أن يلعب هذا الدور. كُل شيء كان جزءاً من الخطة لصلب يسوع حتى يستطيع تخليص الإنسانية. مهما يكن هذا التلقين بغيضاً، فإنه يزيد الحقد الذي كان قائماً على يهوذا منذ ذلك الوقت[1].

1 . في كتابهم (Reading Judas, 2007) القائم على ترجمة أنجيل يهوذا للكاتبتان أيلاين باجيلس وكارين ل. كينغ، يتم اعطاء يهوذا الاسخريوطي صورة كريمة لهذا العدو الازلي، والذي يأتي بصيغة الشخص الثالث في نفس الانجيل.

لقد تحدَّثنا عن الفداء الذي هو من قلب التعليم المسيحي، هذا الشرّ السادومازوخي البغيض. علينا أيضاً نبذه كالجنون، لولا أن انتشاره وتعوّدَنا عليه قد أعاق موضوعيّتنا. إذا أراد الرب أن يغفر ذنوبنا، فلماذا لا يغفرها وحسب بدون أن يتعذب ويُعْدَم ثمناً لها؛ كنتيجة لتلك الحادثة أُدينت أجيال المُستقبل البعيد من اليهود ليقاسوا المجازر المنظَّمة والاضطهاد على أنهم "قتلة المسيح"؟ هل انتَقل ذلك الذنب أيضاً عبر الحيوانات المنوية؟

كما يوضح لنا العالم اليهودي غيزا فيرمس، فإن بولس كان غارقاً بالنظرية الدينية اليهودية القديمة حيثُ لا غفران بدون دماء[98]. قال ذلك في رسالته للعبرانيين(9:22). علماء الأخلاق المُحدثون في أيامنا هذه يجدون صعوبة في الدفاع عن أي نوع من أشكال الانتقام في نظرية العقاب، ناهيك عن نظرية الفداء، كإعدام بريء لغفران ذنوب المذنبين. على أي حال (لا يملك المرء إلا أن يتساءل)، من ذا الذي أراد الرب أن يبهره؟ ربما نفسه: القاضي، وهيئة المحلَّفين، وكذلك ضحية الإعدام. وكي يكتمل المشهد، فإن آدم، المفترض أنه الخاطىء الذي اقترف الخطيئة الأصلية، ليس لهُ وجود بالأساس، حقيقة مزعجة ربما لم تكن معروفة لبولس، ولكن من المُفترض أنها معروفة للإله الكُلّيّ المعرفة (وللمسيح، إذا كنتَ تعتقد أنه الإله؟)، وهذا ينسف كل هذه النظرية من أساسها. ولكن قصة آدم وحواء بالطبع كانت "رمزية" فقط، أليس كذلك؟ "رمزية"؟ حسناً. لأجل أن يثير المسيح إعجابه بنفسه، فقد ترك نفسهُ يُعذَّب ويُعدَم في عقوبة مروِّعة لأجل ذنبٍ "رمزي" ارتكبهُ شخصٌ لم يوجد أصلاً؟ كما قلت، إن ذلك جنون، كما أنه كريه بشدة.

قبل أن أترك الكتاب المقدس، أحتاج أن أنبِّه تحديداً لأحد الطرق غير المستساغة في تعليماته الأخلاقية. من النادر أن ينتبه المسيحيون أن معظم القيم الأخلاقية تجاه الآخرين التي يروِّج لها العهدان القديم والجديد هي بالأصل مُخصّصة لتجمّعات صغيرة ومُغلقة. "أحْبِبْ قريبك" لم تعني ما نظنُّ أنها تعنيه اليوم. بل كانت تعني "أحْبِبْ اليهودي الآخر". تلك النقطة أكَّد عليها بشكل دقيق الطبيب الأمريكي وعالم التطور الإنساني جون هارتونغ. لقد كتب مقالاً رائعاً عن التطور وتأريخ الكتاب المقدس وأخلاقيات التجمعات المُغلقة، موضحاً الوجه الآخر من الصورة حيث العداء تجاه الجماعات الأخرى.

أحِبّ جارك

إن كوميديا جون هارتونغ السوداء واضحة من مطلعها[99]، عندما يحكي عن مبادرة مسيحي معمداني من جنوب الولايات المتحدة ليحسب عدد سكان آلاباما الذين سيذهبون إلى جهنم. وكما أوردت صحيفة نيويورك تايمز ونيوزداي، كان العدد النهائي 1,86 ميلون نسمة، وذلك باستعمال معادلة سرية حيث يكون الميثوديون (من البروتستانت) أكبر حظاً بالخلاص من الروم الكاثوليك، في حين"عملياً أي شخص لا ينتمي لجمهور الكنيسة يُحتسب من بين الضَّالّين". تلك الأفكار غير الطبيعية والمتعجرفة نراها اليوم في عدد من صفحات الانترنت الداعية لموضوع "القيامة"، حيث يعتبر الكاتب نفسه من بين الذين سيحلِّقون للجنّة بشكل مؤكَّد عندما تأتي نهاية الأيام. إليكم مثالاً نموذجياً من كاتب "مُتهيء للقيامة"، أحد الأمثلة من

العيَنات الأكثر تظاهراً بالورع بشكل بغيض جداً: "إذا جاء يوم القيامة ونتج عنه غيابي، سيكون من الضروري أن يقوم قديسو المحنة بإدارة صفحة الإنترنت هذه"[1].

ترجمة هارتونغ للإنجيل لا تعطي أي أرضية يمكن أن تؤدي لمثل هذا التعجرف بين المسيحيين. يسوع حدَّد بدقة مجموعته الخاصة التي سينوبها الخلاص باليهود، وبذلك كان يتبع تقاليد العهد القديم الذي كان هو كُل ما يعرفه. يوضح هارتونغ بأن "لا تقتل" لم يُقصد بها أبداً ما نظن أنها تعنيه الآن. بل إنها عنت بشكل خاص ألاَّ تقتل اليهود. كل تلك الوصايا التي تشير إلى "الجار" خاصةٌ أيضاً. "الجار" تعني الرفاق اليهود. الطبيب والحاخام الموقَّر موسى إبن ميمون من القرن الثاني عشر، يشرح معنى "لا تقتل" كالتالي: "عندما يقتل أحد ما إسرائيلياً واحداً، فهو يخالف إحدى الوصايا الناهية، لأن الكتاب المقدس يقول لا تقتل. وإذا قتل أحد ما شخصاً بإرادته وبوجود شهود، فيجب إعدامه بالسيف. وبالطبع فإننا لا نحتاج للقول بأنه لا يُعْدَم من يقتل وثنياً". بالطبع لا حاجة لقول ذلك!

يقتبس هارتونغ السانهدرين (المحكمة اليهودية العليا المرؤوسة من قِبل الكاهن الأكبر) بمنحى مماثل حيث تتمّ تبرئة رجل قام نظرياً بقتل إسرائيلي بالخطأ، بينما كان يحاول قتل حيوان أو وثني. هذا اللغز الأخلاقي المُحيِر يثير نقطة مهمة. ماذا لو أنهُ قام برمي حجر على مجموعة من تسعة وثنيين واسرائيلي واحد، وكان سيِء الحظ بأن قتل الإسرائيلي؟ ... هممممم... صعبة هذه أليس كذلك! لكن الجواب جاهز. "عندئذ، لامسؤوليّتُهُ تجاه ذلك تُسْتَوّحى من أنَّ الغالبية كانت من الوثنيين".

يستعمل هارتونغ العديد من العبارات الإنجيلية كما فعلتُ أنا في هذا الفصل عن غزو الأرض الموعودة من قِبَل موسى ويشوع والقضاة. كنتُ حريصاً على إيضاح بأن المُتدينين لم يعودوا يفكرون بطريقة الكتاب المقدَس. بالنسبة لي فإن ذلك يبيَن بأن أخلاقنا، بغض النظرِ عن كوننا مُتدينين أم لا، تأتي من مصدر آخر وهذا المصدر الآخر، مهما كان، هو متوفِّر لنا جميعاً، متديِّنين كنا أو غير متدينين. لكن هارتونغ يحكي لنا عن دراسة مرعبة قام بها عالم النفس الإسرائيلي جورج تامارين. لقد أعطى تامارين لأكثر من ألف طالب أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشر من إسرائيل، نصاً عن معركة أريحا من كتاب يوشع.

> قال يوشع للشعب: " اهْتفُوا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَعْطَاكُمُ الْمَدينَةَ. فَتَكُونُ الْمَدينَةُ وَكُلُّ مَا فيهَا مُحَرّمًا للرّبِّ. وَكُلُّ الْفضَّةَ وَالذَّهَبِ وَآنيَة النُّحَاس وَالْحَديد تَكُونُ قُدْسًا للرّبِّ وَتَدْخُلُ فِي خزَانَة الرَّبِّ" ...ثم دمّروا حرفياً كل ما في المدينة، الرجال والنساء، الشباب والعجائز، الثيران والخراف والحمير، أتوا عليها كلها بحدِّ السيف...ثم حرقوا المدينة وكل ما تحويه بالنار؛ فقط الفضة والذهب، وآنية النحاس والحديد وضعوها في خزانة بيت الرب.

ثم سأل تامارين التلاميذ سؤالاً أخلاقياً بسيطاً: "هل تعتقد بأن تصرف يشوع والإسرائيليين صحيح أم خاطئ؟" والخيارات التي كانت لديهم: (أ) صحيح بشكل مطلق. (ب) إقرار جزئي. (ج) خاطئ بشكل

1 . ربما يتساءل القارئ الآن ما المقصود بقديسو المحنة، لا تشغل نفسك بهذا، فلديك أشياء أهم تشغل نفسك بها.

كامل. النتائج كانت واضحة: 66 بالمائة صحيح بشكل كامل. و26 خاطئ بشكل كامل. و8 بالمائة إقرار جزئي. إليكم ثلاثة أمثِلة من الذين يعتقدون بصحة الفعل أعلاه بشكل كامل:

"برأيي أن يشوع وأبناء إسرائيل تصرفوا بشكل صحيح، وإليكم السبب: الله وعدهم بالأرض وأعطاهم الإذن بإحتلالها. ولو لم يفعلوا ما فعلوه ولم يقتلوا أحداً، فلربما كان هُناكَ خطر من احتمال أن يضيع أبناء اسرائيل بين الغوييم"[1].

"برأيي أن يشوع كان على حقّ فيما فعل، السبب الأول هو أن الله أمره بالقضاء على الآخرين حتى لا تختلط قبائل بني إسرائيل بالآخرين، ويتعلموا منهم العادات السيئة".

"يوشع تصرّف بشكل صحيح لأن سكان تلك المنطقة كانوا على دينٍ مُختلف، وعندما قتلهم يشوع محى دينهم عن وجه الأرض".

في كُل حالة من تلك الحالات كان تبرير المذبحة دينياً. حتى في بعض الإجابات التي جاءت في خانة الرفض بشكل كامل (ج) تم تبريرها لأسباب دينية. إحدى الفتيات مثلاً رفضت غزو يشوع لأريحا بسبب أنَّ احتلالها يستدعي دخولها:

"أظن أن ذلك سيئاً لأن العرب نجاسة، وعندما يدخل أحد ما أرضاً نجسة، سيصبح نجساً أيضاً وملعوناً مثلهم؟"

إثنان آخران رفضوا بشكل كامل تصرّف يشوع، فعلوا ذلك بسبب أن يشوع دمّر كُل شيء، حتى الحيوانات والأملاك بدلاً من أن يضعها في خدمة الإسرائيليين:

"أظن أن يشوع لم يتصرف بشكل جيد لأنهم كانوا يستطيعون استخدام الحيوانات بأنفسهم".

"أظن أن يشوع لم يتصرف بشكل جيد لأنه كان يستطيع أن يترك أملاك أريحا؛ لو لم يدمِّر ممتلكاتها لأصبحت بحوزة الإسرائيليين".

ومرة أخرى، إبن ميمون، الذي غالباً ما يُستَشْهَد بحكمته العلمية، ليس لديه شك أين يقف في هذا الموضوع: "إنها وصية إيجابية تدمير الشعوب السبعة، لأنه قال: عليكم تدميرهم بالكامل. ولو ترك أياً منهم حياً رغم استطاعة قتله، لكان ذلك مخالفة للوصية، لأنها تقول: "لا تتركوا أي شيء يتنفس على قيد الحياة".

---

1 . غير اليهود. (المحرر).

على عكس إبن ميمون، فإن الأطفال في تجربة تاميران صغار وأبرياء. وربما كانت وجهة النظر الوحشية تلك من أهاليهم، أوالثقافة في الوسط المحيط الذي تربّوا فيه. وعلى ما أظنّ، فإنَّ الأطفال في فلسطين قد تربّوا بطريقة مماثلة في البلد نفسه الذي شتَّتَهُ الحروب، وسيعطون آراءَ مماثلة ولكن في الاتجاه المعاكس. تلك الاعتبارات تملؤني باليأس. يبدو أنها تُظْهِر القوة الهائلة للدين، وبالأخص التربية الدينية للأطفال التي تفرق بين الناس وتبني العداوات التاريخية والثأر المتوارث. لا أستطيع تجاهل أن إثنان من أصل ثلاثة تبريرات في تجربة تاميران ذكرت الشر المصاحب للمُخالطة، بينما الثالث ركَّز على أهمية قتل الناس لمحي دياناتهم.

تاميران أجرى تجربة مقارنة مثيرة. أعطى نفس النص من كتاب يشوع لـ 168 طفلاً إسرائيلياً، ولكن استبدل اسم يشوع بإسم "الجنرال لين"، و "إسرائيل" استُبْدِلَت بـ "المملكة الصينية قبل 3000 عام". وهنا ظهرت النتائج معاكسة. سبعة بالمائة فقط من الطلاب وافَقوا على تصرف الجنرال لين، وخمسة وسبعون بالمائة رفضوه. بعبارة أخرى، عندما سحبنا ولاءهم لليهودية من الحسبان، وافقت الغالبية على المبدأ الأخلاقي الذي يتّفق عليه معظم البشر في الوقت الحاضر. تصرّف يشوع كان مذبحة بربرية. ولكن كُل شيء يبدو مُختلفاً عند النظر إليه من وجهة نظر دينية. والفرق يبدأ في مراحل مبكرة من الحياة. الدين هو الذي جعل هناك اختلاف في شَجْبِ الأطفال للمذبحة أو تقبّلها.

في فصل آخر من بحث هارتونغ، ينتقل للعهد الجديد. ولإعطاء ملخَّص موجز عن بحثه، فإن يسوع كان مكرَساً نفسه لنفس فكرة الأخلاق ضمن المجموعة الداخلية، والعدوانية تجاه الجماعات الخارجية، فذلك كان من الأمور البديهية في العهد القديم. يسوع كان يهودياً مُخلصاً. إن بولس هو الذي اخترع فكرة أخذ إله اليهود للوثنيين. هارتونغ يقول بصراحة لا أجرؤ عليها: "كان المسيح سيتقلّب في قبره لو علم بأن بولس سيأخذ خطته ويعطيها للخنازير".

هارتونغ يمزح بشكل فكاهي عندما يصل لكتاب الرؤيا الذي هو بدون شك أحد أكثر الكتب غرابة في الإنجيل. من المفترض أنهُ مكتوب من قبل يوحنا الانجيلي. وكما يصفهُ "دليل كين للكتاب المقدس" بشكل ظريف، إن كانت رسائلهُ يمكن أن تُرى كيوحنا بعد الحشيشة، فإن كتاب الوحي يُعتبر يوحنا بعد تناوله حبوب[100] (LSD)[1]. هارتونغ يلفت انتباهنا لجملتين في كتاب الوحي حيث يكون عدد هؤلاء الذين "يُختَمون" (بعض الطوائف مثل شهود يهوه يفسرون تلك الكلمة بـ "مخلَّصون") محدوداً بـ 144000 شخص. هارتونغ يركز على أن كلهم يجب أن يكونوا يهوداً: 12000من كُل قبيلة من القبائل الاثني عشر. كين سميث يذهب لأبعد من ذلك، مُشيراً إلى أن الـ 144000 شخص "لم يدنِّسوا أنفسهم مع النساء"، مما يعني بأنه لا يمكن أن يكون أحداً منهم امرأة. حسناً، ذلك النوع من الأشياء التي أصبحنا نتوقعها.

هناك الكثير في دراسة هارتونغ المسلية. ومرة أخرى أوصي بقراءتها، وسألخِّص بعضها في العبارات التالية:

1 . أحد عقاقير الهلوسة الكيميائية، إكتشفه الكيميائي السويسري ألبرت هوفمان عام 1938. (المترجم)

"الكتاب المقدس مُخطط لأخلاقيات الأفراد داخل المجموعة، مع تعليمات لذبح واستعباد من هو خارجها والسيطرة على العالم. ولكن الكتاب المُقدس ليس شريراً بقيمه وأهدافه، أو حتى بتعظيمه للقتل والقسوة والاغتصاب. العديد من الأعمال القديمة فيها ما يشابه ذلك؛ الإلياذة، والقصص الايسلاندية، وحكايات السوريين القديمة، ومخطوطات المايا القديمة أمثلة على ذلك. ولكن، لا أحد يدعو لأن تكون الإلياذة كمصدر للأخلاق. هنا تكمن المُشكلة. الكتاب المقدس يُباع ويشترى على أنه الطريقة التي يجب على الناس أن يعيشوا بها حياتهم. وتجدر الإشارة إلى أنه أكثر الكتب مبيعاً عبر التأريخ".

خشية من التفكير بأن الخصوصية محصورة فقط في اليهودية التقليدية، إليكم هذا المقطع من نشيد كتبه آيزاك واتس (1674-1748):

ربي، أنها رحمتك
وليست الصّدفة مثلما يقول آخرون
ما جعلتني أولَد مسيحي العِرْق
ولستُ وثنياً أو يهودياً

ما يحيَرني في هذه الترنيمة ليس حصريّتها، ولكن منطقها. بما أن العديدين وُلدوا لأديان أخرى ليست مسيحية، فكيف قرّر الله من هم أناس المستقبل الذين يجب أن يتلقّوا تلك الولادة المُفضله؟ لماذا فضَّل أيزاك واتس وهؤلاء الذين توقع أنهم سينشدون تلك الترتيلة؟ على أية حال، وقبل أن يُخصّب واتس في رحم أمه، ماذا كان وضع الفئة المفضَّلة؟ تلك أمور محيَرة، لكن ربما ليست مُحيرة كثيراً للعقول التي تربّت على الدين. نشيد أيزاك واتس يذكّرنا بثلاث صلوات يومية من قبَل ذكور اليهود الأرثوذوكسيين والمحافظين (وليس المجددين) والتي تعلَّم اليهود تلاوتها بالشكل التالي: "مبارك أنتَ لأنك لم تخلقني وثنياً، مبارك أنتَ لأنك لم تخلقني إمرأة، مُبارك أنتَ لأنك لم تخلقني عبداً".

الدين قوة للتَّفرقة بدون شك، وذلك أحد المآخذ الرئيسية التي تؤخَذ عليه. لكن يقال كثيراً، وبحق، بأن الحروب والعداوات بين الجماعات الدينية أو الطوائف نادراً ما تكون في الواقع لاختلافات دينية. عندما يقتل بروتستانتي كاثوليكياً فهو لا يقول في نفسه: "خذ، أيها البائس الذي تفوح منك رائحة البخور النتنة عابد العذراء مريم، المحوِل الخمر والخبز إلى دم وجسد المسيح!"، بل هو على الأغلب ينتقم لموت بروتستانتي آخر قُتِلَ على يد كاثوليكي آخر، وربما كان هناك قصة ثأر قائمة عبر الأجيال. الدين هو علامة ووسْم للتمييز بينَ داخل الجماعة وخارجها، وهو ليس بالضرورة أسوأ من لافتات أخرى كلون الجلد واللغة، أو فريق الكرة المُفضَّل، ولكنه بشكل عام متوفِّر عندما لا تتوفر العلامات الأخرى.

نعم، نعم، بالتأكيد، إن مشاكل أيرلندا الشمالية سياسية. هناك بالتأكيد ضغوط اقتصادية وسياسية من قِبَل فئة تجاه الأخرى وذلك لقرون مضت. هُناكَ شكاوى ومظالم حقيقية، وهذه ليس لها علاقة تُذْكَر بَالدين. ما عدا أنه - وذلك هام جداً ولا يبدو أن أحداً منتبهاً له - لو لم يكن هُناكَ دين، لما كانت هُناكَ علامات بواسطتها يُحَدَّد لمن سيكون القمع ولمن حق الانتقام. المشكلة الحقيقية في شمال ايرلندا هي تلك العلامات التي يتم توارثها عبر الأجيال. الكاثوليك الذين ذهب آباؤهم وأجدادهم للمدارس الكاثوليكية يرسلون أبناءهم للمدارس الكاثوليكية. والبروتستانت يفعلون الشيء نفسه. الإثنان لهما نفس لون الجلد، ويتكلمون نفس اللغة، ولديهم نفس الاهتمامات، ولكن مع ذلك ممكن أن ينتميا إلى نوعين مختلفين من المخلوقات، عميق جداً هذا الإنقسام التأريخي. وبدون الدين والمدارس المعزولة على أساس ديني، لن يكون هُناكَ تفرقة. القبيلتان المُتحاربتان كانتا ستتزاوجان، ومع مرور الوقت تذوبان في بعضهما البعض. بَدْأً من كوسوفو إلى فلسطين، ومن العراق إلى السودان، ومن اولستر حتى القارة الهندية، لننظر بدقة إلى أي منطقة من العالم حيث توجد مشاكل وعداوات بين الجماعات المختلفة. لا أستطيع ضمان أن يكون الدّين هو العلامة التي تحدِّد من هو ضمن المجموعة ومن هو خارجها، ولكن الرِهان على ذلك هو رهان لا بأس به على الإطلاق.

في الهند، وفي وقت التقسيم، قُتِل أكثر من مليون شخص بأعمال شغب دينية بين الهندوس والمسلمين (وتشرد 15 مليون من منازلهِم). لم يكن هُناكَ أي فرق سوى الدين الذي حدد من الذي يجب قتله. وبالنتيجة، لم يكن هُناكَ ما يفرقهم سوى الدين. سلمان رشدي تأثر كثيراً بنوبة دينية قاتلة حديثة في الهند عندما كتب مقالاً بعنوان "الدين، كما هو الحال دائماً، هو السّمّ في الدَّمِ الهندي"[101]. وإليكم المقطع النهائي منها:

> "ما الذي علينا احترامه في أيّ من ذلك، أو في أيٍ من الجرائم الأخرى التي تحصل في العالم يومياً بإسم الدين المرعب؟ ما أبرع الدين بخلق أوثاناً، بنتائج قاتلة، وما أكبر استعدادنا في أن نقتل من أجلها! وعندما فعلنا ذلك بشكل كاف، فإن لذلك تأثير مُخدر يجعل من فعل ذلك مرة أخرى أمر أسهل.
> وهكذا أصبحت مشاكل الهند هي مشاكل العالم. ما حدث في الهند حدث بإسم الله. المُشكلة اسمها الله".

لا أنكر بأن ميول الإنسان القوية للولاء للجماعة والعداوة لمن هم خارج الجماعة موجود حتى في غياب الدين. إنَّ مُعجبي فريق كرة القدم مثال بسيط على تلك الظاهرة. وحتى معجبو الفرق المُختلفة يمكن أن يُقسّموا بناء على الدين كما هو الحال في غلاسكو رينجرز وغلاسكو سيلتيك. اللغة (كما هو حال البلجيكيين) والعرق والقبيلة (بالأخص في أفريقيا) يمكن أن تكون عوامل تقسيم. ولكن الدين يضاعف الأذى ويزيد من حدته بثلاث طرق على الأقل:

- وَسْم الأطفال. الأطفال يوصَفون بـ "طفل كاثوليكي"، أو "طفل بروتستانتي" الخ. وذلك في عُمر مُبكر جداً، وبالتأكيد مُبكر جداً ليكونوا على دراية بالتبعية لأي دين أو حتى التفكير فيه (سأعود لموضوع الإساءة إلى للطفولة في الفصل التاسع).
- فصل المدارس. يُدرّس الأطفال، مرة أخرى من عُمر مُبكر جداً، من قِبَل أعضاء من داخل المجموعة الدينية، وبشكل منفصل عن الأطفالِ الذين تنتمي عائلاتُهم لدينَ آخر. ليس من المبالغة القول بأن المشاكل في ايرلندا الشمالية ستختفي لو تمّ إلغاء التدريس المنفصل.
- تحريم "الزواج المختلط"، هذا يقوّي ويُديم شكيمة الثأر المتوارَث والخلافات بمنع الاختلاط بين الجهات المتعادية. ولو سُمِح بالزواج المختلط، لخفَّت العداوات بشكل طبيعي.

قرية غلينارم في أيرلندا الشمالية هي موطن إيرل[1] منطقة أنترِم. في إحدى المناسبات التي لا زالت في الذاكرة، فعل الايرل وقتها ما لم يخطر على بال أحد: لقد تزوج بكاثوليكية. وفوراً أُسدلَت الستائر في كُل منازل غلينام كعلامة حداد. إن رعب "الزواج المختلط" منتشر أيضاً بشكل كبير بيَن اليهود المُتدينين. الكثيرون من بني إسرائيل الذين اقتبستُ من إجاباتهم أعلاه ذكروا الأخطار المُريعة الناتجة عن "الاندماج" في دفاعهم عن معركة يشوع في أريحا. عندما يتزوج الناس من أديان مُختلفة، يُشار إليهم كنذير للشؤم من الطرفين كون زواجهم "مُختلطاً" وسيكون هُناكَ معارك على كيفية تربية الأطفال من ناحية العقيدة. عندما كُنت طفلاً لا يزال يحمل مشعل الكنيسة الانجيلية، أذكر أنني صُعقت عندما علمت بأنه عندما يتزوج كاثوليكي وإنجيلي، فإن الأطفال سيُرَبّونَ دائماً على الكاثوليكية. كانَ بإمكاني أن أفهم بسهولة لماذا يصِر كاهن من أي طرف على تلك الشروط. وما لم أستطع فهمه (حتى الآن) كان عدم التناظر. لماذا لم ينتقم الكهنة الإنجيليون بوضع نفس الشروط؟ إعتقدت ببساطة أن القسيس العجوز وأبونا ألْطَف وأقل عدوانية من الآخرين.

عُلماء الاجتماع عملوا إستفتاءًً عن التناغم الديني (الزواج من نفس الدين) والمختلط (الزواج من دين آخر). نورفال د. غلين، من جامعة تكساس في أوستن جمع عدداً من الدراسات حتى 1978 وأجرى تحليلاً عليها[102]. لقد استنتج أن هُناكَ ميلاًً كبيراً للزواج من نفس الدين عند المسيحيين (البروتستانت يتزوج بروتستانت والكاثوليك كاثوليك الخ، وذلك يذهب لأبعد من السبب العادي "كونه ابن الجيران")، ولكن الظاهرة ملاحظة أكثر عند اليهود. من أصل 6021 ممن أجابوا على الاستفتاء، كان هُناكَ 140 قالوا عن أنفسهم إنهم يهود، و85,7 بالمائة منهم متزوجين من يهود. وذلك أكبر بكثير من النسبة العشوائية التي نتوقعها في الزواج من نفس الدين. بالطبع ليس بالمفاجأة لأحد كيف يحاول اليهود بشدة منع "الزواج من الخارج"، وهذه الرغبة تظهر في نكتة يهودية عن الأمهات اللواتي تحذِّرنَ أبناءهنَّ من الشقراوات المسيحيات اللواتي يحاولن الإيقاع بهم. وإليكم ثلاثة تعليقات من الحاخامات الأمريكيين.

- "انا أرفض عقد قران بين زوجين من أديان مختلفة"

---

[1] (EARL) الايرل هي مرتبة لنُبَلاء بريطانيا فوق الكونت وتحت المركيز. (المحرِر)

- "أنا أعقد قرانهما عندما يعلن الزوجان عزمهما على تربية الأطفال كيهود"
- "أنا أعقد قرانهما إذا وافق الزوجان على الاستشارة قبل الزواج"

الحاخامات الذين يوافقون على التزويج بوجود قسيس نادرون جداً ومرغوبون جداً.

حتى لو لم يكن الدين مؤذياً بنفسه بأي شيء آخر، فإن ميله وتغذيته الدائمة للتفريق بين البشر، وتعزيزه للميول البشرية نحو من هو "داخل المجموعة" وتجنّب من هو خارجها سيكون كافياً لجعله أداة قوية للشر في العالم.

روح العصر الأخلاقي

بدأ هذا الفصل ببيان أننا – وحتى المتدينين منا – لا نبني أخلاقنا على الكتب المقدسة، بغض النظر عن كيفية تخيّلنا للموضوع. كيف نقرر إذن، ما هو خطأ؟ بغض النظر عن إجابتنا على هذا السؤال، فهناك إجماع على ما نعتبره بالواقع صح أو خطأ: إجماع يفاجئنا بشيوعه. ذاك الإجماع ليس له صلة واضحة بالدين. ولكنه يمتدّ لمعظم المُتدينين سواء اعتقدوا بأن أخلاقهم أصلها من الكتب المقدسة أو لا. باستثناء أمثال طالبان الأفغان أو ما يساويهم من المسيحيين الأمريكان، فإن الغالبية من البشر تصمت حيال ذاك الاجماع الحرّ والعام عن مبدأ الأخلاق. الغالبية منا لا يسبب معاناة للآخرين بدون سبب، نؤمن بحرية الرأي حتى وإن كنا نعارض ما يُقال: ندفع الضرائب، ولا نغش، ولا نقتل، ولا نزني مع المحارم، ولا نتصرف حيال الآخرين بغير ما نريد أن يتصرفوا حيالنا. بعض تلك المبادئ الحميدة موجودة في الكتب المقدسة جنباً لجنب مع الكثير مما لا يريد أي إنسان جيد أن يتبعه، والكتاب المقدس لا يعطي أي قواعد للتمييز بين المبادئ الجيدة من السيئة.

إحدى الطرق للتعبير عن التزامنا المُشترك بالأخلاق هي "الوصايا العشر الجديدة". العديد من الأفراد والمؤسسات حاولوا هذا. ما هو مميّز في هذا الموضوع هو أن نتائجهم كانت متشابهة بشكل كبير، والنتائج لها مواصفات تتبع الزمن الذي كانوا يعيشون فيه. إليكم لائحة بـ "الوصايا العشر الجديدة" من عصرنا والتي وجدتها على إحدى صفحات الانترنت للمُلحِدين[103].

- لا تتصرف حيال الآخرين بالطريقة التي لا تريدهم أن يتصرفوا بها تجاهك.
- إسعَ في كل الأحوال ألاَّ تسبَب أذىً.
- عامل إخوانك بالإنسانية، والكائنات الحية الأخرى، والعالم بشكل عام، بحُبّ وأمانة وإخلاص واحترام.

- لا تتغاضى عن الشرّ، أو تتقاعس عن نشر والعدل، ولكن كن مستعداً دائماً لغفران الإساءة التي تمّ الإعتراف بها بحرية، وتمّ النَّدم عليها بصدق.
- عِشْ حياتك بفرح واندهاش.
- إسعَ دائماً لتعلُّم شيء جديد.
- إختبر كل شيء: قارن أفكارك مع الوقائع، كن مُستعداً لترك حتى أهم ما تؤمن به إذا لم يتطابق مع الوقائع.
- لا تفرض الرقابة على أحد أو تبتعد عن آراء من يخالفك؛ إحترم دائماً حق الآخرين بالأختلاف معك.
- شكِّل آراءَ مُستقلة مبنية على أُسُس منطقكَ العقلاني وتجربتك الخاصة؛ لا تسمح بأن يقودك الآخرون بشكل أعمى.
- تساءل عن كلَّ شيء.

هذه المجموعة الصغيرة ليست من أعمال حكيم عظيم، أو نبي، أو حتى أخلاقي مُحترف. بل مجرد كاتب أنتَرنت عادي حاول تلخيص مبادئ الحياة الصالحة المعاصرة للمقارنة بالوصايا الإنجيلية العشر. إنها أول صفحة وجدتُها عندما كتبت "الوصايا العشر الجديدة" في محرك البحث، وتعمّدت ألاَّ أبحث أبعد من ذلك. كل المسألة هنا هي أن لائحة كتلك يمكن لأي شخص أن يأتي بها في أيامنا. طبعاً لن يكتب الجميع نفس الوصايا بالضبط. ربما يضع الفيلسوف جون راولز عبارة مشابهة لما يلي: "إختر قوانينك كما لو لم تعلم إن كنت ستكون على رأس الهرم أو أسفله". إن ما يُشاع عن طريقة قبيلة الإنْوِت في تقاسم الطعام لهي مثال عملي عن مبدأ راولز: من يقسِم الطعام يكون آخر من يختار حصته.

وفيما يختصّ بوصاياي العشر، سأختار بعضاً مما سبق وسأحاول إفساح المجال لأمور أخرى:

- تمتّع بحياتك الجنسية (على شرط ألاَّ تؤذي الآخرين)، ودَعِ الآخرين يفعلون الشيء نفسه في حياتهم الخاصة، بغضِّ النظر عن ميولهم التي ليست من شأنك أبداً.
- لا تقلِّلْ من شأن الآخرين ولا تظلمهم على أساس الجنس، أو العرق، أو (على قدر الامكان) على أساس أنهم أجناس أخرى.
- لا تلقِّنْ أطفالك تلقيناً، بل علِّمهم طريقة التفكير المُستقلة، وكيفية التأكُّد من الأدلة، وكيفية مخالفتك في الرأي.
- إحسِبْ حساب المُستقبل بمقياس زمني أطول من حياتك.

ليست الفروق والأولويّات مهمّة في مثل هذه الحالات. النقطة هي أننا جميعاً تقريباً قطعنا شوطاً كبيراً منذ زمن الكتب المقدسة. العبودية التي كانت تُعتبر عادية في الكتاب المُقدس وعبر معظم التاريخ إختفت في الدول المتحضِّرة في القرن التاسع عشر. كُل الأمم المُتحضرة الآن تقبل ما كان محظوراً حتى عام 1920

بأن النساء تستطيع الاشتراك في الانتخابات، وصوت المرأة في الانتخابات أو في هيئة المحلَّفين مساوٍ لصوت الرجل. في المجتمعات المتحضرة اليوم (تلك المجتمعات التي لا تنتمي إليها السعودية مثلاً)، لا تُعتبر النساء كممتلكات، كما كان عليه الحال في أيام الكتب المُقدسة. أي نظام قانوني عصري سيقاضي إبراهيم بتهمة سوء معاملة الأطفال. ولو كان مضى في خطته للتضحية باسحاق، لكان سيحاكم بتهمة القتل العمد. ورغم كُل ذلك، فإن تصرّفه الأخلاقي في زمنه كان موضوع إعجاب لأنهُ كان طاعة لأوامر الله. متدينون أم لا، فقد تغيرنا بشكل كبير تجاه ما نعتبرهُ صحيحاً أو خطأً. ما طبيعة ذلك التغيير وما سببه؟

في أي مجتمع توجد هُناكَ قوانين غامضة غير مكتوبة تتغير عبر العقود، وسنستعير من العبارة الألمانية Zeitgeist (روح العصر) للتعبير عن ذلك. قلت قبل قليل بأن حق المرأة في التصويت موجود الآن في جميع الديمقراطيات في العالم، ولكن هذا الإصلاح أتى في وقت مُتأخِّر جداً لحدٍّ مدهش. إليكم بعض التواريخ التي سُمح فيها للنساء فيها بالتصويت.

نيوزيلندا	1893
أستراليا	1902
فنلندا	1906
النرويج	1913
أمريكا	1920
بريطانيا	1928
فرنسا	1945
بلجيكا	1946
سويسرا	1971
الكويت	2006

تلك التواريخ الممتدة عبر القرن العشرين هي مقياس للتغيّر بروح العصر. والمؤشّر الآخر هو سلوكنا تجاه العِرْق. في أوائل القرن العشرين، كان الجميع تقريباً في بريطانيا (ودول كثيرة أخرى) سيحْسَبون كعنصريين بمقاييس اليوم الحالي. معظم البيض كانوا يؤمنون بأن السود (فئة تتضمّن الأفريقيين ومن لا يقاربهم أبداً من الهنود وسكان أستراليا الأصليين) هم فئة وضيعة بالنسبة للبيض فيما يتعلق بكل شيء تقريباً ما عدا - بصورة متعالية - إحساسهم بالايقاع. ما يُعادل عشرينات (1920) جيمس بوند تلك الأيام، كان البطل البشوش بولدوغ دراموند. في إحدى الروايات، "العصابة السوداء"، يشير دراموند إلى "يهود وأغراب وآخرين من الشعوب القذرة". وفي رواية "أنثى المخلوقات"، يتنكَّر دراموند بزيّ بيدرو، الخادم الأسود للأمير الوغد. وعند الكشف الدرامي عن هويته للقارئ كما للأمير، يظهر بيدرو هو دراموند نفسه، كان يستطيع القول: "هل ظننت بأني بيدرو. لم تلاحظ أبداً بأني عدوّك اللدود دراموند، متنكِّراً كأسود". لكنه بدلاً عن ذلك قال: "ليست كُل الذُّقون مُستعارة، ولكن كُل عبد له رائحة كريهة. هذه اللحية ليست مستعارة، وهذا العبد لا رائحة كريهة له. ولذلك أظن بأن هُناكَ خطأ ما في مكان ما". قرأت تلك الرواية

عام 1950، بعد كتابتها بثلاثة عقود، وكان من الممكن (بعد) لصبي أن يتأثر بالدراما ولا يلاحظ العنصرية. في أيامنا هذهِ لا يُمكن تخيّل ذلك.

كان توماس هنري هكسلي، بمقاييس عصره، رجلاً متنوراً وتحرّرياً متقدماً. ولكن زمانه ليس زماننا، وفي 1871 كتب ما يلي:

"ليس هُناكَ إنسان عقلاني، مدركٌ للحقائق يؤمن بأن الزِّنجي العادي مساوٍ أو متفوَق على الرجل الأبيض. وإنْ كان ذلك صحيحاً، فإنه ببساطة من غير المعقول أنه عندما تُزال كل إعاقاته ويحصل على حقِّه الخاصّ، وبدون أي مساعدات أو قمع، سيكون قابلاً لمقارَعة نظيره الأكبر مُخّاً والأصغر فكّاً في أي مسابقة تستدعي التفكير وليس العضّ. إن المراكز العليا في المجتمع المُتحضر بالتأكيد لن تكون من نصيب أولاد عمنا الداكنين"[104].

من المتَّفَق عليه أنَّ المؤرخين الجيِّدين لا يحكمون على أقوالِ من الماضي بمقاييس حاضرهم. إبراهام لينكولن مثل هاكسلي، كان سابقاً لعصره، ولكن آراؤه بالنسبة للعرق تبدو مُتخلِّفة وعنصرية في أيامنا. وإليكم ما قاله في مناظرة مع ستيفن دوغلاس عام 1858:

"سأقول إذن بأنني لست، ولم أكن أبداً، من مناصري أو مؤيِّدي موضوع المساواة بين البيض والسود فيما يتعلق بالأمور الاجتماعية والسياسية: أنا لست، ولم أكن أبداً، مؤيِّداً لحقوقهم في أن يكونوا ناخبين أو مُحَلَّفين، أو اعتبارهم مؤهَّلين لتولي مناصب، أو أن يتزوجوا من البيض: وسأقول بَالإضافة لما قلت بأن هُناكَ فروقاً فيزيائية بين البيض والسود والتي أعتقد أنها ستمنعهم من العيش جنباً إلى جنب على مستوى المساواة الاجتماعية والسياسية. ستتطلَّب الحياة التي يعيشونها بوجودهم مع بعض أن يكون هُناكَ رئيس وتابع، وأنا، كما هو الحال مع الجميع، أؤمن بأن الجنس الأبيض مقدَّرٌ له أن يكون متفوقاً"[105].

لو كان هكسلي ولينكولن وُلدوا وتثقّفوا في عصرنا هذا، لكانوا أول من يستنكر معنا جميعاً تلك المشاعر الفيكتورية المتعالية والنبرة الزَّلِقة. لقد اقتبستُ منهم فقط لأبيِّن كيف مضت روح العصر إلى الأمام. حتى هاكسلي أحد أكبر العقول المُتحرِرة في عصرِه، ولينكولن الذي حرر العبيد، استطاعوا قول أشياء كهذه، فكِّر فقط بالفرد العادي كيف كان تفكيره في العصر الفيكتوري. بالعودة للقرن الثامن عشر، فمن المعروف أن واشنطن، وجفرسون، وغيرهم من العصر المتنور كان لديهم عبيد. روح العصر مضت للأمام بشكل محتوم لدرجة أننا نعتبرها كأمر مفروغ منه اليوم، وننسى بأن التغيير هو ظاهرة حقيقية خاصة بحد ذاتها.

هناك الكثير من هذه الأمثلة. عندما حَطَّ البحارةُ الأوروبيون على سواحل موريتيوس ورؤوا طيور الدودو اللطيفة، لم يخطر ببالهم سوى ضربها بالعصيِ حتى الموت. لم يكونوا حتى يفكرون بأكلها (فقد وُصف لحمها بأنه غير مُستساغ). يظهر أنَّ ضَرْبَ طيرِ مُسالِمٍ لا يستطيع الدفاع عن نفسه، أو حتى الطيران،

بالعصا على رأسه، كان فقط شيئاً لتمضية الوقت. في أيامنا هذه يُعتبر سلوك كهذا غير معقول، وانقراض ما يوازي طائر الدودو، حتى بسبب حادثة عرضية وليس بسبب القتل المتعمّد من قِبَل الإنسان، يُعتبر أمراً مأساوياً.

وفقاً للعادات الثقافية الرّائجة في أيامنا هذه، فإن انقراض فصيلة الثيلاسينوس (Thylacinus) والمعروف بالذئب التاسماني، هي إحدى تلك المآسي. ذاك المخلوق المُرْثى له الآن، كانت هُناكَ جائزة لرأسه حتى عام 1909. وفي روايات العصر الفيكتوري الأفريقية، "الفيل"، و "الأسد"، و"الظبي" (لاحظ صيغة المفرد الفاضحة) "البري" كانوا "لعبة"، وماذا نفعل باللعبة، نرميها بالرّصاص بدون أي تفكير. ليس من أجل الأكل. ليس للدفاع عن النفس. بل "للرِياضة". تغيّرت روح العصر الآن. وللأمانة، هُناكَ من الأغنياء "الرياضيين" من لايزال يرمي حيواناً أفريقياً بالرصاص من سيارة لاندروفر ويأخذ معه الرأس المُحنَّط إلى البيت. ولكنهم يدفعون الغالي ليفعلوا ذلك، وهم مُحتَقَرون بشكل كبير لفعلهم هذا. الحفاظ على الحيوانات البرية، والحفاظ على البيئة، أصبحا من القيم المقبولة بنفس الدرجة من الأهمية الأخلاقية التي كانت في الحفاظ على يوم السبت وتجنّب نحت أصنام كآلهة.

عقد الستينات المتحرر، أصبح مثالاً أسطورياً لتحرّره العصري. ولكن في بداية ذلك العقد، كان بإمكان قاضي التحقيق تماشياً مع العُرف، في قضية كتاب "عشيق السيدة شاترلي"، كان بإمكانه سؤال المحلَّفين: "هل تقبل على أن يقرأ أبناؤك أو بناتك اليافعون - لأن البنات قادرات على القراءة كالشَباب (هل تصدق أنه قال ذلك؟) - هذا الكتاب؟ هل ستترك هذا الكتاب في متناول الجميع في بيتك؟ هل تتمنى حتى أن تقرأ زوجتك أو خادمتك هذا الكتاب؟ إن بلاغة السؤال الأخير تدلُّنا على السرعة التي تغيرت بها روح العصر.

إحتلال أمريكا للعراق مُستَنْكَر من قِبَل الأغلبية بسبب الضحايا المدنيين، ولكن هؤلاء الضحايا عددياً أقلّ بكثير من ضحايا الحرب العالمية الثانية. يبدو بأن هُناكَ انزياحاً مُستمراً في مقاييسِ ما هو مقبول أخلاقياً. دونالد رامسفيلد، الذي يبدو لنا مُقرفا وقاسياً في أيامنا، سيبدو كرحيم قلبٍ مُتحرر لو قال نفسَ ما قاله خلال الحرب العالمية الثانية. شيء ما تغيّر خلال العقود. شيء تغير فينا جميعاً، وهذا التغيّر ليسَ مُتعلّقاً بالدين. بل هو حدث بالرغم من الدين وليس بسببه.

هذا التغيير يتجه بشكل واضح باتجاه واحد، وأغلبنا يتفق على أنه تطوّر نحو الأفضل. حتى أدولف هتلر، والذي يُعتبر بشكل واسع أنه أحد الذين دفعوا بالشر إلى أبعد ما نتخيّل من حدود، لا يُقارَن بغاليغولا أو جينكيز خان. لا شك بأن هتلر قتل عدداً أكبر من الناس من جينكيز خان، ولكنهُ امتلك تكنولوجيا القرن العشرين لخدمته. هل حصل هتلر على متعته العظمى، كما عُرف عن جينكيز خان، من رؤية "أقارب ومقربيين ضحاياه يستحمون بالدموع"؟ نحكم على مستوى الشر عند هتلر بمعايير اليوم، وروح العصر مضت للأمام منذ عهد غاليغولا كما فعلت التكنولوجيا. هتلر بالأخص يبدو شريراً فقط بالمعايير الأكثر لطفاً لعصرنا.

خلال فترة حياتي تناقَص تداوُل بعض الكلمات التَّحقيرية فيما يتعلَّق بالدَّمِ والأفكار الشائعة عن بعض الجنسيات: ضفدع (اللقب الانكليزي للفرنسيين)، وكلب (لقب القادمين من أمريكا اللاتينية)، وديك (لليونانين)، وفاصوليا أو حمصة (لليهود)... الخ. لن أزعم بأن تلك الكلمات قد اختفت، ولكنها مُستهجَنة بشكل واسع في الأوساط المؤدَّبة. كلمة "زِنجي" على الرغم من أنه لا يُقصد بها الإهانة، يمكن استخدامها لتاريخ نص من النثر الانكليزي. التحامُل هو بالفعل كشفٌ غير متعمّد لتاريخ قطعة من الأدب. عالم الدين المُحترم في وقته، أ. سي. بوكيت من كامبردج، كان قادراً على أن يبدأ فصلاً عن الإسلام في كتابه "الدين المقارن" بالكلمات التالية: "السامي ليس مُوحَداً طبيعياً، كما كان يُفتَرَض في منتصف القرن التاسع عشر، بل هو إحيائي[1]". إنَّ الهَوَس بالعِرق (كنقيض للثقافة)، ومدلولية استعمال صيغة المفرد "السامي... إحيائي" لتصغير كامل تعدَّدية شعبٍ ما إلى "نمط" واحد هي غير شائنة بأي من المقاييس. ولكنها مؤشر صغير آخر على تغيّر روح العصر. لن يستعمل أيَ عالم من كامبردج، سواء في الحقل الديني أو في أي مجال آخر، كلمات كتلك. تلميحات غير واضحة لتغيّر العادات والتقاليد كتلك تخبرنا أنَّ بوكيت كان يكتب لما قبل منتصف القرن العشرين. في الواقع كانت كتابته عام 1941.

لو عدنا أربعة عقود إلى الوراء، لتوضَّح تغيّر المعايير بدون أي شك. في أحد كتبي السابقة اقتبستُ من يوتوبيا اتش. جي. ويللز "الجمهورية الجديدة"، وسأفعل ذلك الآن مجدداً لأن في ذلك توضيح صاعق للنقطة التي أُريد التأكيد عليها:

> "وكيف ستعامل الجمهورية الجديدة الأعراق الأقل شأناً؟ كيف ستعامل السود؟ ... الصّفر؟ اليهود؟ تلك الموجات من السود، والبنيين، والبيض الوسخين، والصّفر، والذين لم يصلوا بعد للفعالية المطلوبة؟ حسناً، العالم هو العالم وليس جمعية خيرية، وأعتقد أن عليهم أن يذهبوا... والنظامِ الأخلاقي لهؤلاء الرجال في الجمهورية الجديدة، النظام الأخلاقي الذي سيسود العالم، سيصاغ بالدرجة الأولى لدعم كُل ما هو إبداعي وعملي وجميل في الإنسانية. أجسام جِميلة وقوية، وعقول نيِرة وقادرة... والطريقة التي اتبعتها الطبيعة في صياغة العالم، حيث مُنِعَ الضعيف من نشر الضعف... هي الموت... إن البشر في الجمهورية الجديدة... سيكون لَديهم مثال أعلى سيجعل القتل مُبرراً".

كُتب ذلك عام 1902، وكان ويللز يُعتبر من التقدَّميين في عصره. في 1902، وعلى الرغم من أن شعوراً كهذا لم يكن مقبولاً بشكل واسع، فإنه كان من الممكن مناقشة فكرة كتلك خلال حفلة عشاء. وعلى العكس من ذلك، فإن قرّاء العصر سيشهقون برعب عند رؤيتهم لعبارات كهذه. نحن مُجبَرون على اعتبار أن هتلر، على الرغم مما كان عليه، لم يكن بعيداً عن دائرة روح العصر في زمانه كما يبدو لنا من خلال نظرتنا

1 . الإحيائية (بالإنجليزية: Animism) هي الاعتقاد بوجود الأرواح وأن أي نظام حي أو كائن أو حتى المواد الجامدة أحياناً تمتلك نوعاً من الروح مثل الحجارة، والنباتات، وكذلك في الظواهر الطبيعية مثل الرعد، وحتى بداخل المعالم جغرافية كالجبال والأنهار. (المترجم)

العصرية المُتفتِّحة. كم تتغير روح العصر بسرعة، ويحدث ذلك بالتوازي على جبهة واسعة عبر كل العالم المثقف.

ماهو إذن مصدر تلك التغييرات الثابتة الموحّدة الاتجاه في الوعي الاجتماعي؟ الإجابة لا تقع على عاتقي. لأن هدفي هو أن أبرهن بأنها لم تأت من الدين بشكل مؤكَّد. إذا أُجبرت على وضع نظرية لذلك، فإنني سأقاربها فيما يلي. نحتاج لشرح لماذا التغيرات الأخلاقية في روح العصر متزامنة بشكل واسع في عدد كبير من البشر، وعلينا أيضاً أن نشرح سبب اتِّجاهها المتناسق نسبياً.

أولاً، لماذا تتزامن عبر العديد من البشر؟ تنتشر من عقل لعقل من خلال المُحادثات في البارات وحفلات العشاء، ومن خلال الكُتب والمُراجعات، ومن خلال الجرائد والبرامج التلفزيونية، وفي أيامنا هذه من خلال الانترنت. تغيرات المناخ الأخلاقي يُشار إليها في المقالات، والراديو، والبرامج الحوارية، والخطابات السياسية، وفي الكوميديا، وفي مسلسلات التلفزيون، وفي انتخابات مجالس الشعب التي تصنع القوانين، وفي قرارات القضاة التي تفسرها. ويمكن أن يُعبّر عنها بتغيّر تردُّد الميمة في بنك الميمات، ولكن لن أخوض في هذا الموضوع أكثر من ذلك.

بعضنا يتخلَّف عن موجة التغيير الأخلاقية لروح العصر، والبعض الآخر يتقدَّم عليها بشكل بسيط، ولكن الغالبية منا في القرن الواحد والعشرين متقاربة ومتقدمة عن أسلافنا في العصور الوسطى، أو زمن إبراهيم، أو حتى الأزمنة الحديثة نسبياً في العشرينات من القرن الماضي. الموجة تتحرك باستمرار، وسيجد المتقدِّمون في قرن مضى (مثل ت. هـ. هاكسلي) أنفسهم مُتخلِّفين كثيراً عمّن يُعتَبَر متخلِّفاً في قرن لاحق. بالطبع، ذلك التطور لم يكن سَلساً في صعوده، بل كان مُتعرِجا كأسنان المنشار. كان هُناكَ عقبات محلية ووقتية، كما كان الحال في معاناة الولايات المتحدة من حكومتها في مطلع القرن الحالي. ولكن على المدى الطويل، فإن الاتجاه في التطور التدريجي لا شك فيه وسيستمر.

ما الذي يدفع روح العصر بذلك الاتجاه؟ لا نستطيع انكار دور القادة الذين كانوا سابقين لعصرهم، لقد نهضوا وأقنعوا الآخرين بأن يسيروا معهم. في أمريكا دُفِعَتْ الفكرة المثالية عن مساواة الأعراق من قِبَل قادة مثل مارتن لوثر كينغ، ومن قِبَل الكوميديين، ورجال الرياضة، وآخرين من الشخصيات المشهورة شعبياً، مثل بول روبنسون، وسيندي بواتييه، وجسي أُوينز، وجاكي روبنسون. كذلك يدين إعتاق العبيد والنساء إلى شخصيات من القادة اللامعين. بعضهم كان مُتديناً، والبعض الآخر لم يكن كذلك. بعض المُتدينين فعلوا ذلك لأنهم مُتدينون. ولكن بالنسبة للبعض الآخر كان الدين مجرد صدفة. وعلى الرغم من أن مارتن لوثر كينغ كان مسيحياً، فإنه استقى فلسفته عن العصيان المدني اللّاعنفي مباشرة من غاندي الذي لم يكن كذلك.

كذلك لدينا تحسّن مستوى التعليم، وبالأخص تزايد فهمنا بأننا نشترك مع الاخرين بالإنسانية، حتى مع الاشخاص من عرق آخر أو جنس آخر - فكرتان مضادَّتان بصراحة لمحتوى الكتاب المقدس، ومصدرهما

الأصلي هو علم الأحياء وخصوصاً التطور. إن أحد أسباب سوء مُعاملة السود، والنساء، وفي أيام ألمانيا النازية، اليهود، والغجر، كان بسبب عدم اعتبارهم سواسية مع البشر. الفيلسوف بيتر سينغر في كتابه "تحرير الحيوان"، هو أبلغ مُدافع عن وجهة النظر بأنَّ علينا أن نلغي حاجز الأجناس في تعاملاتنا مع الكائنات الأخرى بما يضمن سعادتها بقدر ما يسمح لها مخُّها الخاص تقدير ذلك. ربما هذا تنويه عن الاتجاه الذي ستتحرك به روح العصر في القرون القادمة. سيكون ذلك أستنباطاً طبيعياً للاصلاحات السالفة، مثل تحرير العبيد وتحرير المرأة.

ان مؤهلاتي كهاوي في علم الاجتماع و علم النفس لا تؤهلاني لشرح سبب التناسق الواسع في تغيرات روح العصر. يكفي ما ذكرته لشرح الغرض الذي أقصده بأنها تتغير، وأنها غير مدفوعة من الدين، وبالتأكيد ليس بسبب الكتب المقدسة. ربما هي ليست قوة وحيدة كالجاذبية، إنما عدة قوى مُختلفة تتفاعل فيما بينها، مثل القوة التي تدفع قانون مور الذي يشرح سبب التَّصاعُد في قوة الحواسيب الالكترونية. مهما كان سببه، فإن التقدُّم الجَلِيّ لظاهرة روح العصر هو أكثر من كافٍ لنقض الزعم بأننا بحاجة للإله من أجل أن نكون صالحين، أو لتحديد ما هو صالح.

ماذا عن هتلر وستالين؟ ألم يكونا مُلحِدَيْن؟

ربما أن روح العصر تسير قدماً و بشكل عامٍ للامام، ولكن حركتها كما قلت كأسنان المنشار وليست بتطوّرٍ سلس، هناك العديد من الانتكاسات المروِعة. انتكاسات عظيمة وعمقية ومرعبة، سببها طغاة القرن العشرين. من المُهم أن نفصل النوايا الشريرة لرجالٍ مثل هتلر وستالين عن القوة العظيمة التي مكَّنتهم من تحقيق تلك الشرور. لقد لاحظتُ مسبقاً أن أفكار هتلر الشريرة ومقاصده لم تكن أكثر شراً بشكل بديهي من التي كانت عند غاليغولا، أو حتى عند بعض سلاطين الأتراك الذين وصف نويل باربر مفاخرهم المدهشة بقذارتها في كتابه "سادة القرن الذهبي". لكن هتلر توفَّرت له أسلحة القرن العشرين وتكنولوجيا الاتِّصالات. وبالرغم من ذلك، فإنَّ هلتر وستالين يُعْتَبَران أشراراً بشكلٍ مريع بمختلف المقاييس.

"هتلر وستالين كانا مُلحدَيْن، ماذا تقول عن ذلك؟". يُطرح السؤال في كُل مُحاضرة عامة ألقيتُها عن موضوع الدين، وفي كُل مقابلاتَ الراديو كذلك. يُطرَح السؤال بشكل مشاكس ومشحون بالسّخط مع فرضيتين. أولهما: هتلر وستالين كانا مُلحدَيْن. وثانيهما: لقد فعلا كل ما فعلاه لأنهما كانا مُلحدَيْن. الإفتراض الأول صحيح في حالة ستالين، ومشكَوك به في حالة هتلر. الفرضية الثانية لا اعتبار لها لأَنها خاطئة، ومن غير المنطقي أن نستنتجها من الفرضية الأولى. حتى لو قبلنا بأن الإلحاد كان الصفة المشتركة لهتلر وستالين، كلاهما أيضاً كان له شارب كما كان لصدام حسين. ماذا يعني ذلك؟ السؤال المُثير ليس عما إذا كان الشرير (أو الطيب) مُلحداً أو مُتديِّناً. لسنا بصدد عدّ الرؤوس الشريرة واستخلاص لائحتين من الأضداد المتنافسة. واقع أن أحزمة اَلنازيين منقوش عليها "الله معنا" لا يبرهن على أي شيء، على الأقل ليس بدون مناقشات

معمّقة. ما يهم هنا ليس موضوع كون هتلر وستالين مُلحدين، وإنما موضوع إذا ما كان الإلحاد يؤثر على الناس بشكل منتظم ليرتكبوا أشياء شريرة. ليس هُناكَ أيَ دليل ولو صغيراً يدلُّ على ذلك.

ليس هُناكَ شك بأن ستالين كان مُلحداً، بالواقع أنه تلقى تعليمه في دير أرثوذوكسي روسي، ولم تُخْف أمّه خيبة أملها في أنه لم يصبح قسيساً كما أرادت له - وبناءَ على رأي آلان بولاك - فإن ذلك كان ممتعاً لستالين[106]. ربما بسبب تدريبه الكهنوتي كان ستالين الناضج لاذعاً على الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، وكذلك على المسيحية والدين بشكل عام. ولكن ليس هُناكَ أيّ أدلة عن أن إلحاده كان سبباً لعنفه. وربما تربيته الدينية المبكرة أيضاً لم يكن لها تأثير إلا من خلال تلقينها له أن يوقّر الإيمان المُطلق، والسلطة القوية، والإيمان بأن الغاية تبرر الوسيلة.

أما الإشاعة بأن هتلر كان مُلحداً، فقد تمَّت زراعتها بعناية فائقة لدرجة أن العديد من الناس يصدقونها بدون سؤال، وتُطرَح تلك الفكَرة بشكل دائم ومتحدي من محبيها المدافعين عن الدين. إلا أن الواقع بعيد عن أن يكون واضحاً. هتلر وُلد لعائلة كاثوليكية، ودرس في مدرسة كاثوليكية، وزار الكنائس الكاثوليكية في طفولته. طبعاً لا يُمكن اعتبار ذلك ذا قيمة: لأنه من المُمكن بدون شك أن يكون قد تخلَّى عن التدين لاحقاً كما فعل ستالين عندما تخلى عن كنيسة الروس الارثوذوكسية بعد أن ترك الدَّيْر في تبيليسي. ولكن هتلر لم يعلن تخليه عن معتقده الكاثوليكي علناً، وهناك بعض الدلائل من خلال حياته تنبِئنا عن أنهُ بقي مُتديناً. حتى لو لم يبقَ معتقدهُ كاثوليكياً، فإنه على الأغلب ظلَّ مؤمناً بوجود سلطة مُقدسة. كمثال, أعلن في كتابه "كفاحي" بأنه عندما سمع خبر إعلان الحرب العالمية الأولى، "جَثَوْتُ على ركبتيَ، وشكرت من كُل قلبي السماء التي جعلتني أعيش في الزمان الذي حصل فيه ما يحصل الآن"[107]. لكن ذلك كان عام 1914، عندما كان في عمر الخامسة والعشرين فقط. ربما تغيّر بعد ذلك؟

في 1920، عندما كان هتلر في الحادية والثلاثين، كتب أخلص معاونيه رودولف هيس الذي أصبح فيما بعد نائبه، رسالة الى رئيس وزراء بافارياو: "أعرف هتلر شخصياً معرفة جيدة، وأنا قريب جداً لهُ. إنه شخصية بمواصفات نبيلة غير عادية، إنه مليء باللطف، وهو مُتدين وكاثوليكي جيد"[108]. بالتأكيد بما أن هيس أخطأ تماماً وبشكل فاضح في موضوع "شخصية نبيلة ومليئة باللطف"، فربما أخطأ أيضاً في موضوع "الكاثوليكي الجيد"، ليس هُناكَ ما يمكن وصفه بـ "الجيد" في هتلر بأي شكل، وهذا يذكِّرني بالحجة الهزلية التي كنت قد سمعتها عن وجوب أن يكون هتلر مُلحداً. هتلر كان إنسانا سيئاً، والمسيحية تعلِّمنا ما هو جيد، ولذلك فإنه ليس بالامكان أن يكون هتلر مسيحياً! مقولة غورينغ عن هتلر كانت، "فقط إنسان كاثوليكي هو من يستطيع توحيد ألمانيا"، وأنا أفترض أن ذلك يعني شخصاً تربّى على الكاثوليكية، وليس شخصاً مؤمناً بها.

في خطابه عام 1933 في برلين، قال هتلر: "إقتنعنا بأن الناس يحتاجون ويريدون هذا الإيمان. إننا لذلك أخذنا على عاتقنا أن نحارب الحركة الإلحادية وليس بشكل إعلانٍ نظري فقط، بل قضينا عليها"[109]. ربما يشير ذلك الى أن هتلر، كما هو الحال مع الكثيرين، "يؤمن بالإيمان". لكنه في 1941، قال لمُساعده الجنرال غيرهارد أنجل: "سأبقى كاثوليكياً للأبد".

حتى ولو لم يبقَ هتلر مسيحياً صادقاً، فإنه من غير العادي بالتأكيد ألا يكون متأثّراً بالأفكار المسيحية التقليدية الأزلية التي تلوم اليهود كقتلة المسيح. في خطابه عام 1923 في ميونيخ، قال: "أول ما يجب أن نفعله هو أن ننقذ ألمانيا من اليهود الذين يفسدون بلادنا... علينا أن نحمي ألمانيا من المعاناة التي عاناها الذي مات على الصليب"[110]. وفي كتاب "أدولف هتلر: سيرة الحياة المؤكدة"، كتب جون تولاند عن موقف هتلر الديني أوقات "الحل الأخير"[1]:

"لازال عضواً مُميزاً في كنيسة الروم الكاثوليك، وعلى الرغم من كرهه للقائمين عليها، فهو لايزال يحمل تعاليمها عن أن اليهود هم قتلة الإله. ولذلك كان القضاء عليهم مُمكناً بدون أي تأنيب ضمير إذ أنه كان يتصرف كَيَد الإله المنتقِمة، طالما أن ذلك تمّ بشكل غير شخصي وبدون أي قسوة".

إنَّ الكره المسيحي لليهود ليس فقط تقليداً كاثوليكياً. مارتن لوثر كان معادياً للسامية بشدة. وكتب في مجلس الشعب في مدينة وُرمز بأنه "يجب طرد جميع اليهود من ألمانيا". وكتب كتاباً كاملاً "عن اليهود وأكاذيبهم" والذي ربما كان له تأثير على هتلر. لوثر وصف اليهود بـ "ذريّة الأفاعي"، والعبارة نفسها استخدمها هتلر في خطابه المشهور عام 1922 الذي كرر فيه مراراً بأنه مسيحي:

"شعوري كمسيحي يوجّهني نحو إلهي ومخلّصي كمحارب. يوجهني نحو الرجل الذي في وحدته محاطاً بقليل من الأتباع عرف حقيقة هؤلاء اليهود ودعى الرجال ليحاربوهم، وأكاد أقسم بأنهُ كمُحارب أعظم منه كمُتألّم. بحُبَ لامتناهي كمسيحي وكإنسان، قرأتُ تلك العبارات التي تقول لنا كيف قام الإله بقدرته أخيراً وأخذ السوط بيده لطرد ذريّة الأفاعي من المعبد. كم كانت حربهُ عظيمة من أجل العالم ضد السمّ اليهودي. إلى اليوم، وبعد ألفي عام، وبأعمق العواطف، أعرف بثقة لم أعرفها قبلاً بأنه من أجل ذلك قد بذل دماءه على الصّليب. كمسيحي، لا واجب عليّ أن أسمح لنفسي بأن تُخْدَع، ولكن عليّ واجب أن أكون مُحارباً للحق والعدالة...إن كان هناك أي شيء يدلّ على أننا نتصرف بشكل صحيح، فهو الكرب والضيق الذي يكبر يومياً. كمسيحي فإن لدي أيضاً واجباً تجاه شعبي"[111].

من الصعب معرفة ما إذا كان هتلر قد انتَقى عبارة "ذرية الأفاعي" من لوثر، أو أخذها مباشرة من إنجيل متى (3:7) كما نفترض أن لوثر قد فعل. لكن بالنسبة لموضوع مقاضاة اليهود كرغبة من الإله، فإن هتلر عاد إليها في كتابه "كفاحي": "ولذلك أؤمن اليوم بأنني أتصرف وفقاً لرغبة الخالق الأعظم: وبالدفاع عن نفسي ضد اليهود، فإنني أقاتل من أجل الاله". ذلك كان عام 1925. وقد كرر ذلك ثانية في خطابه في البرلمان عام 1938، وقال أشياء مشابهة على الدّوام خلال حياته المهنية.

---

1 . الحل الأخير، خطّة ألمانية أطلق تسميتها النازي ادولف ايخمان ابان الحرب العالمية الثانية. ودعت الخطة إلى الترحيل القسري المنظم لليهود إلى معسكرات الأعمال الشاقة بهدف القضاء عليهم وإبادتهم. (المترجم)

إنَّ مقولات كهذه لها ما يوازنها من العبارات التي طرحها في "أحاديث طاولة هتلر"، والتي عبّر فيها عن آراء معادية للمسيحية، تمّ تسجيلها من قبل سكرتيرهُ الخاص. وما يلي حدث عام 1941:

"إن الضربة الأقوى التي أصابت الإنسانية هي قيام المسيحية. البَلْشفيّة هي الطفل غير الشرعي للمسيحية. وكلاهما من اختراع اليهود. إن الكذبة المدبّرة فيمَا يختصّ بالدين هي ما قدَّمته المسيحية للعالم...

إن السبب الحقيقي في كون العالم القديم نقيّاً، وصادقاً، ومضيئاً، هي أنهم لم يعرفوا الكارثتَين الكبيرتَين ... الوباء والمسيحية.

بعد كُل ما قيل، لا أجد سبباً لأتمنى للإيطاليين والأسبان أن يتخلَّصوا من مُخدِّر المسيحية، دعونا نكون الوحيدين الذين لديهم مناعة ضدَّ ذلك المرض".

إنَّ "أحاديث طاولة هتلر" يحتوي الكثير من تلك الاقتباسات، غالباً ما يقارن المسيحية بالبلشفية، وبعض الأحيان يقارن ماركس بالقديس بولس، ولا ينسى أبداً أن كلاهما كان يهودياً (بالرغم من أن هتلر، للغرابة، كان مصراً دائماً على أنَّ المسيح لم يكن يهودياً). من الممكن أن يكون هتلر قد مرّ حتى عام 1941 بنوع من تجربة فقدان الإيمان، أو التحرر من الوهم مع المسيحية. أو هل أن سبب التناقضات هو ببساطة أنه كان كاذباً، إنتهازياً، ممّن لا يُمكن أن نثق بكلامه في كلٍّ من الإتّجاهين؟

من الممكن الجدل حول مسألة أنه على الرغم من كلمات هتلر وآراء أتباعه عنه، فإنه لم يكن متديِّناً، إنما كان فقط مُحتالاً يستخدم ويستغلُّ تديّنَ مستمعيه. ربما يكون قد وافق مع نابليون الذي قال: "الدين شيء مُمتاز لإبقاء العامة من الناس هادئين". وأيضاً مع سينيكا الأصغر[1]: "الدين بنظر العامة حقيقة، وبنظر الحُكماء كذبة، وبنظر الحُكّام مُفيد". لا أحد يُمكنهُ أن ينكر بأن هتلر كان قادراً على مثل ذلك رياء. إذا كان هذا هو دافعهُ للتظاهُر بالتديّن، فعلينا أن نذكر أيضاً بأن هتلر لم يرتكب ما ارتكبهُ من ظلم وحده. الأفعال المَهولة ذاتها ارتُكبت بأيدي العديد من الجنود وضُباطهم، وغالبيتهم كانوا مسيحيين بالتأكيد. إن اعتقاد الألمان بالمسيحية هو بالفعل وراء الفرضية التي نناقشها الآن، الفرضية التي تشرح لنا عدم صدق هتلر الديني واستغلاله! أو ربما يكون الأمر بأن هتلر فقط أراد أن يبدي بعض التعاطف مع المسيحية وإلا فلن يحظى نظامه بالدعم الذي حصل عليه من الكنيسة. ذلك الدَّعم أخذ أشكالاً متنوعة، منها إصرار البابا بيوس الثاني عشر على رفض اتخاذ موقف معادي للنازية؛ وهذا موضوع يسبب الإحراج للكنيسة اليوم. إما أن يكون هتلر صادقاً في مسيحيته، أو أنه كذبَ فيما يتعلق بذلك ليربح -بنجاح- تعاون المسيحيين الألمان والكنيسة الكاثوليكية. في كلتا الحالتين، فإن شرّ النظام الهتلري لا يُمكن اعتباره نتيجة لإلحاده.

---

1. لوكيوس سينيكا. (المترجم)

حتى عند هجومه على المسيحية، لم يتوقف هتلر عن استخدام لغة العناية الإلهية: قدرة غامضة كان يعتقد أنها اختارتهُ شخصياً من بين الجميع في مهمة مقدسة لقيادة ألمانيا. كان يدعو تلك القدرة بالقُدّوس، وفي أحيان أخرى بالرب. وبعد "الآنشلوس"[1]، عندما عاد هتلر منتصراً من فيينا عام 1938، ذكر الله في خطابهِ المُبتهج وألبسهُ شخصية القدرة هذه: "أؤمن بأنها إرادة الله بأن يرسل صبياً إلى الرّايخ، ويتركه ليكبر، ويرفعه ليكون قائد الأمة ليتمكن من إعادة أرض وطنه إلى الرايخ"[112].

وعندما نجا بأعجوبة من حادثة الاغتيال في ميونيخ في شهر تشرين الثاني 1939، حمدَ هتلر تلك القدرة المقدسة لإنقاذه بأن جعلت سبب إنقاذه هو تغيير برنامجه يومها: "أنا الآن مسرور تماماً. إنَّ تركي للبرغربروكيلير بوقت أبكر من المعتاد كان تعزيزاً لرغبة تلك الرعاية العليا كي أصل هدفي"[113]. بعد فشل هذا الهجوم، أمر بطريرك ميونيخ، الكاردينال ميشال فاولابر، بأن تُتلى تي ديوم[2] (*Te Deum*) في كاتدرائيته "لشكر الرعاية الإلهية بإسم الأبرشية لنجاة القائد". بعض أتباع هتلر، وبدعم من غوبلز، لم يُخْفوا الرغبة في أن يؤسِسوا ديناً مُستقلاً مبنياً على الفكرة النازية. والنصّ التالي، مكتوب من قِبَل رئيس نقابة التجار، يعطي شعوراً بأنهُ نصّ دعاء، وحتى له إيقاع الصلاة لإله المسيحيين (أبانا) أو قانون الإيمان المسيحي:

> "آدولف هتلر! نحن متحدون معك وحدك! نريد أن نجدد عهدنا هذه الساعة: على هذه الأرض نؤمن فقط بآدولف هتلر. نؤمن بأن الفكر الإشتراكي القومي هو وحده الذي سيحفظ إيمان شعبنا. نؤمن بوجود الرب في السماوات هو الذي خلقنا، الذي يقودنا ويوجِهنا ويباركنا بشكلٍ واضح. ونؤمن بأن هذا الرب أرسل آدولف هتلر لنا حتى تصبح ألمانيا أساساً لكُل الأبديةَ"[114].

يذكر جوناثان كلوفر في كتابه المُميّز والمُرعب، "الإنسانية: تأريخ الأخلاق في القرن العشرين" (Yale University Press 2001)، التَالي: الكثيرون قبلوا بتلك الثقافة الدينية عن ستالين التي تمّ صياغتها من قِبَل كاتب ليتْواني: "إقتربتُ من صورة ستالين، أنزلتُها عن الجدار ووضعتُها على الطاولة، وضعتُ رأسي بين يَديّ، حدّقتُ وتأملتُ. ماذا سأفعل؟ وجه القائد باعث على السلام كالعادة، بعينيه الصافيتين اللتين تخترقان كل المسافات. إنني أشعر وكأن نظرته تخترقني في غرفتي الصغيرة هذه وتنطلق لتحتضن العالم أجمع... مع كل شريان وكل عصب، مع كل قطرة دم في جسدي، أستشعِر أنا في هذه اللحظة بأن كل شيء اختفى من الكون إلا هذا الوجه المحبوب والغالي". هذا الشكل من التعبّد المُزيّف يبدو شديد القباحة في كتاب كلوفر عندما نقرأ مباشرة بعدهُ عن جرائم ستالين البشعة.

1 . آنشلوس بالألمانية ANSCHLUSS :وأيضاً ANSCHLUSS ÖSTERREICHS هو الاسم الذي أطلق على العملية التي تمّ بموجبها ضّم النمسا إلى ألمانيا الكبرى على يد ألمانيا النازية، وذلك بتاريخ 13 مارس/آذار عام 1938. (المترجم).

. ترنيمة تبدأ بحمد الإله تُغَنَّى عند الصباح أو بمناسبات خاصة كعيد الشكر للتعبير عن الشكر والابتهاج. (المحرَر)2

ستالين كان مُلحداً، وهتلر من المُحتمل أنه لم يكن كذلك. لكن حتى لو كان، فإن المهم في حوارنا حول تديّن ستالين وهَتلر هو محور محدَّد وبسيط. وهو أن بعض المُلحدين يفعلون الشر، ولكنهم لا يفعلونها باسم الإلحاد. ستالين وهتلر فعلوا العظيم من الشرور باسم العقيدة والتَّلقين الماركسي وما يماثلها باسم نظرية تحسين النسل اللَّاعلمية، والمجنونة، والمخضَّبة بهذيانات فاغنرية[1]. الحروب الدينية حصلت حقيقةً باسم الدين، وتكررت بشكلٍ مُرعب عبر التأريخ. لا أذكر أيَ حرب حصلت تحت اسم الإلحاد. ولماذا تحصل؟ الدافع للحرب قد يكون طمعاً اقتصادياً، أو طموحاً سياسياً، أو تعصّباً عرقياً، أو عنصرياً، أو تظلُّماً عميقاً، أو انتقاماً، أو بدافعٍ من الإيمان الوطني بحقِّ الأمّة. وحتى أن الدافع الأكثر معقولية للحرب هو القناعة التي لا تتزعزع بأن الدين الذي يؤمن به البعض هو الدين الوحيد الحق، ومدعوماً من كتابِ مقدس يكرس اللعنة بوضوح ضد كُل الكفار وأتباع الديانات الأخرى حتى الموت، ويَعدُ بشكل علني المقاتلين في سبيل الله بجنة الشهداء. سام هاريس، كالعادة، يصيب كبد الحقيقة في كتابه "نهاية الإيمان":

> "إنَّ خطر الدين هو في أنه يسمح لأشخاص طبيعيين بجَنْي ثمار الجنون واعتبارها مقدسة. لأن كُل جيل جديد من الاطفال يُلقَّن بأن ما يطرحه الدين لا يحتاج لأي نقاش لإثباته كما هو الأمر في الطروحات الأخرى، فإنَّ الحضارات لاتزال مهدَّدة بجيوش اللَّاعقلانية. نحن، وحتى اللحظة، نبرر قَتْلَ بعضنا البعض على كتابات قديمة. مَنْ كان يعتقد بأن شيئاً مأساوياً كهذا يمكن أن يحصل؟".

على النقيض من ذلك، لماذا سيخرج أيّ أحد للحرب في سبيل غياب الإيمان؟

1. نسبة إلى الموسيقار الالماني ريتشارد فاغنر. (المترجم)

الفصل الثامن

ما المُشكلة في الدين؟

ما سبب كُل هذهِ العدائية؟

الدّين أقنع الناس بأن هُناكَ رجلاً خفياً يعيش في السماء ويراقب كُل ما تفعله في كُل لحظة من كُل يوم. وهذا الشخص الخفي لديه لائحة بعشرة أشياء لا يريدك أن تفعلها. وإنْ فعلتَ أيّاً من تلك العشرة، فإنَّ لديهِ مكاناً خاصاً مليئاً بالنار والدخان، والحريق، والتعذيب، والألم، وسيرسلكَ إلى هناك حيث تعيش، وتعاني، وتحترق، وتختنق، وتصرخ، وتبكي إلى أبد الآبدين وحتى نهاية الزمان ...... ولكنه يحُبّك!

جورج كارلين

أنا بطبعي لستُ ذلك الشخصِ الذي يحبّ المواجهة. ولا أظنَّ أنَّ العَداء طريقة مناسبة للوصول إلى الحقيقة، وأرفض بشكل مستمر الدَّعوات للمشاركة في مناظرات. دُعيتُ مرة لمناظرة مع مطران منطقة يورك في أدنبره. شعرتُ بالاعتزاز لتلك الدعوة وقبلتها. وبعد النقاش، كتب الفيزيائي المُتدين راسل ستانارد رسالة أدرجها في كتابه "التخلُّص من الله؟" ووجّهَها لصحيفة الاوبزرفر:

"سيدي، تحت العنوان المبتهج "الله يأتي بالمرتبة الثانية أمام عظمة العلم"، كتب مراسلكم لشؤون العلم (في يوم الأحد الموافق لعيد الفصح دوناً عن باقي الأيام) كيف أن ريتشارد دوكنز "سبّب أذىً فكرياً بالغاً" لمطران منطقة يورك في نقاشهما عن العلم والدين. لقد أَخْبِرنا عن "مُلحِدين مبتسمين بتعجرف" و "الأسود عشرة؛ المسيحيون صفر"".

ومضى ستانارد بتوبيخه لصحيفة الاوبزرفر لفشلها في نشر خبر عن لقاء لاحق بيننا نحن الاثنين مع المطران من برمنجهام وعالم الفضاء السير هيرمان بوندي في الأكاديمية الملكية للعلوم. ذلك اللقاء لم تخصّص له دعاية كافية، لهذا كان بنّاءً أكثر بكثير. أستطيع الموافقة فقط على ما يبديه من سخط تجاه شكلية الدعاية للنقاش. لأسباب شرحتُها في كتابي "قسيس الشيطان"، فأنا لا أشارك في مناظرات مع الخلوقيين.

بالرغم من عدم محبتي للصِّراعات، يبدو لي بأني اكتسبتُ شهرةً كمُحارب ضدَّ الدين. الزُّملاء الذين يتَّفقون معي بأنه ليس هُناكَ إله، والذين يتفقون بأننا لا نحتاج للدين كي نكون أخلاقيين، يتفقون كذلك على أننا قادرون على شرح مصدر التديّن والأخلاق بتعابير غير دينية، هؤلاء يعودون إليّ محتارين قليلاً. لما أنتَ عَدائيّ لهذه الدرجة؟ ما المُشكلة في الدين حقاً؟ هل يُسبِب فعلاً كل هذا الأذى لدرجة أنهُ يجبَ علينا فعلاً أن نُحاربهُ؟ لماذا لا نعيش ونترك الآخرين يعيشون، كما نفعل في حالة برج الثور والعقرب، والإيمان بقوة الأحجار الكريمة، وقراءة الكف؟ أليس كُل ما سبق هُراءَ لا يؤذي؟

ربما أردُّ بحسمٍ بأن العداء الذي أمارسه أو يمارسه بعض المُلحدين الآخرين تجاه الدين لا يتعدّى الكلمات. أنا لا أفكر بأن أفجِر أحداً ما، أو أقطع رأسهُ، أو أرجمه، أو أحرقه على السّيخِ، أو أصلبه، أو أحلِّق بطائرة في ناطحات السحاب التابعة له، فقط لأنني لا أتفق مع توجهه الديني. لكن مُحاوِري لا يتوقَّف عند ذلك عادة. قد يمضي في قول شيء على وزن: (ألا يجعلك عداؤكَ بهذا الشكل تبدو وكأنك مُلحد مُتطرِف، مُتطرف بطريقتك الخاصة كما هو الحال مع الذين تصفهم بالتطرف من ذوي الحزام الإنجيلَي؟). أحتاج هنا أن أفنِّد هذا الاتهام بالتطرّف، لأنه اتِّهام شائع بشكل مزعج.

الأصولية وتقويض العِلم

المتطرَفون يعلمون بأنهم على حقّ لأنهم قرؤوا الحقيقة في كتابٍ مُقدس، ويعرفون مقدَّماً بأنهُ ليس هناك من شيء يمكن أن يحرفهم عن إيمانهم. الحقيقة في كتابهم المقدس بديهية وليست نتيجة برهان عقلي. الكتاب على حق، وعندما تبدو الأدلة وكأنها تناقضه، فعندها يجب رفض الأدلَّة وليس الكتاب. على العكس من ذلك، فإن ما أؤمن به كعالِم (كنظرية التطور مثلاً)، لا أؤمن به لأنني قرأت كتاباً مُقدَّساً، بل لأنني درست الأدلَّة. وهذا موضوع مُختلف تماماً. إنَّ التَّصديق بكتب التطوّر لا يأتي عن كونها مُقدسة، بل لأنها تقدِّم أدلة كثيرة ومسندة بشكل دامغ. مبدئياً، فإن كل قارئ يستطيع أن يفحص الأدلة. عندما يخطئ كتاب علمي ما، فإن شخصاً ما سيكتشف الخطأ وسيتمّ تصحيحهُ في الكتب التي تليه. شيء كهذا لا يحصل أبداً مع الكتب المقدسة.

الفلاسفة، وخصوصاً الهواة منهم مع معرفة قليلة عن الفلسفة، وبالأخص أكثر هؤلاء المُصابين بما يسمى بـ (النسبية الثقافية)، يأتون بشكوك مُنهكة مشتِّتة عند هذه النقطة كقولهم: إن إيمان العلماء بـ(الأدلة) هو بحد ذاته إيمان مُتطرف. لقد عالجت تلك الفكرة في مكان آخر، وسأعيد الفكرة بشكل مختصر هنا. كلنا نؤمن بالأدلة في حياتنا الخاصة، مهما صرّحنا وتفلسفنا. إذا كُنتُ مُتَّهَماً بجريمة قتل وسألني المدعي العام عما إذا كنتُ في شيكاغو ليلة الجريمة، فلن أستطيع التملُّص بالمراوغة الفلسفية: "هذا يعتمد على ما تعنيه بكلمة (الحقيقة)". ولا بالتماس مبدأ النسبية الإنسانية كقولي: "إنها فقط بمفهومك الغربي لكلمة (في)، نستطيع أن نقول إنني كنت في شيكاغو. قوم البونغول لديهم معنى مختلف تماماً لكلمة (في)، ويُستعمل هذا التعبير بشكلٍ صحيح فقط عندما تكون مؤهَّلاً لأن تأخذ التَّبْغَ من كيس خصْيَتَي الماعز المُجفَّف"[115].

ربما أن العُلماء متطرفون عندما يتعلَّق الأمر بتحديد ماذا نعني بـ "الحقيقة" ببعض الطرق التجريدية. ولكن ذلك ينطبق على كُلِّ الناس. أنا لن أكون مُتطرفاً عندما أقول بأن التطور حقيقي، أكثر من قولي بأن نيوزيلندا تقع في القسم الجنوبي من الكرة الأرضية. نؤمن بالتطور لأن الأدلة تدعمها. وسنرفضها بين ليلة وضحاها عندما تظهر أدلَّة تدحضها. المُتطرِف الحقيقي لن يقول شيئاً كهذا أبداً.

من السّهل جداً الخَلْط بين التطرف والعاطفة، ولربما أبدو عاطفياً عندما أدافع عن التطور أمام المُتطرفين الخلوقيين، ولكن ذلك لا يأتي من تطرفٍ مقابل من جهتي. بل إن ذلك بسبب أنَّ الادلة الداعمة للتطور قوية بشكل هائل، وأشعر بضيق عميقٍ لأن خصمي لا يراها، أو غالباً يرفض الالتفات إليها لأنها تتعارض مع كتابهُ المقدس. عواطفي تتأجّج أكثر عندما أفكِّر بما يفتقدهُ هؤلاء المُتطرفون المساكين، وكلُّ مَنْ يتأثَّر بهم. حقيقة التطور، والحقائق العلمية العديدة الأخرى، ساحرة بشكل رائع وجميلة جداً؛ كم هو مؤسف أن يموت المرء دون أن يدرك ذلك! بالطبع ذلك يجعلني عاطفياً. وكيف لا؟ لكن تصديقي بالتطور ليس تطرفاً وليس إيمانا عقائدياً، لأنني أعرف تماماً ما يمكن أن يغير تفكيري، وسأغيره بكل سرور عندما تظهر الأدلة الكافية على ذلك.

ذلك يحدث في الواقع. لقد ذكرت قصة رجل كبير مُحترم في قسم دراسة الحيوانات في أوكسفورد عندما كنتُ طالباً في الجامعة. لسنوات عديدة، كان يؤمن ويعلِّمُنا بحماس بأن جهاز غولجي (قسم مجهري داخل الخلية) لم يكن ظاهرة حقيقية، بل نوع من الوهم. كانت العادة أن نستمع لمحاضرة من أستاذ ضيف على الجامعة بعد ظهيرة كُل يوم إثنين. وفي أحد تلك الأيام كان الأستاذ الزائر أمريكياً متخصصاً في علم الخلية، وقد عرض أدلة قاطعة ومُقْنعة عن أن جهاز غولجي كان حقيقياً. في نهاية المحاضرة تقدَّم الرجل الكبير من المَنَصّة وصافح الاستاذ الأَمريكي بحرارة قائلاً بحماس: "يا زميلي العزيز، أُريد أن أعبرَ عن شكري لك، لقد كُنتُ مُخطئاً لخمسة عشرة سنة مضت". حينها صفَّقنا حتى احمرّت أيدينا. ليس هُناكَ من مُتطرف سيقول ذلك يوماً ما. عملياً، لا يفعل ذلك كُل العلماء. ولكن كل العلماء يؤيدون ويدعمون هذا التصرّف ويعتبرونهُ كمثل يقتدى به، على العكس من السياسيين مثلاً الذين قد يُدينون هذا التصرّف ويعتبرونه تقلُّباً بالرأي. إن ذكريات تلكَ الحادثة التي وصفتُها لا تزال تهزُّ مشاعري حتى اليوم.

أنا، كرجل علم، أحمل العداء للتطرف الديني لأنه يقوم بإفساد المشاريع العلمية بفعالية. إنه يُعلِّمنا ألاَّ نُغيرَ رأينا، ولا يريد لنا أن نتعلَّم المعلومات المثيرة المُتوفرة للمعرفة. إنه يقوِّض العلم ويستنزف الفكر. وأكثر الأمثلة إثارةً للحزن مما أعرف هو عالم طبقات الارض الأمريكي كيرت وايز الذي يدير الآن مركز الأبحاث عن الأصول في كلية بريان في دايتون بولاية تنيسي. ليس من الصّدفة أن كلية بريان سُمِّيَتْ على إسم ويليام جينيكس بريان، المدَّعي العام الذي قاضى أستاذ العلوم الطبيعية جون سكوبس فيما يُسمّى (محاكمة القرد) عام 1825 في دايتون. كان بإمكان وايز أن يُحقق حلم صباه في أن يكون أستاذاً للآثار في جامعة حقيقية، جامعة من أهدافها الحثّ على (التفكير النقدي) بدلاً عن التفكير الذي يعرضه موقع كلية بريان على الانترنت والذي يناقض نفسهُ بوضوح: "فَكِّر بشكل نقدي وإنجيلي". بالتأكيد لقد حصل على شهادة حقيقية في علم طبقات الارض من جامعة شيكاغو، وحصل على شهادتي دراسات عليا في علم طبقات الارض وعلم المُستحثات من هارفرد (ليس أقل من ذلك)، حيث درس تحت إشراف ستيفن جاي غولد (ليس أقل من ذلك). كان مؤهَّلاً وواعداً بمستقبل علمي كباحث شاب، كما كان على الطريق الصحيح ليحقق حلمهُ بالتدريس وإجراء الأبحاث في جامعة لائقة.

ثمّ حصل شيء مأساوي. لم يأت من الخارج، ولكنه أتى من داخل عقله، عقل أضعفتهُ وخرّبتهُ نشأة دينية مُتطرفة طلبت منه أن يصدقَ بأن الأرض -موضوع دراستهُ في شيكاغو وهارفارد- عمرها أقل من عشرة آلاف عام. لقد كان أكثر ذكاءً من أن يتجاهل التناقض بين دينهُ وعلمهُ، وهذا التناحر في عقله لم يكن سهلاً. في أحد الأيام، لم يَعُدْ يحتمل التوتُّر الناتج عن هذا التعارُض، فحسم الموضوع بالمقصّ. أخذ الكتاب المقدس وبدأ بقراءته من البداية، وبدأ يقصّ ويرمي كُلَّ جملة يتوجّب رميها فيما لو كان العلمُ صحيحاً. في نهاية تلك المحاولة الأمينة بشكل هائل، والمُتطلِّبة لجهد كبير، لم يتبقَّ الكثير من كتابه المُقَدس، بحيث أنهُ كتَبَ:

"بعد التجربة، حتى بوجود الهوامش النافعة على صفحات الكتاب المقدس، وجدتُ أنهُ من المُستحيل أن ألتقط الكتاب المقدس دون تمزيقه إلى قطعتين. كان عليّ أن أختار بين التطور والكتاب المقدس. إما أن الكتاب المُقدس صحيح والتطور خاطئ، أو أن التطور صحيح وعليّ أن أرمي الكتاب المُقدس بعيداً... في تلك الليلة قررتُ أن أتقبّل كلمة الله وأرفض كُل ما يمكن أن يتعارض معها، بما فيه التطور. وبذلك، وبحزن شديد، رميتُ العِلمَ وكل آمالي وأحلامي العلمية في النار".

أجد ذلك محزناً بشكل رهيب، فبينما قصة جهاز غولجي تملأ عيني بالدموع إعجاباً، أجد قصة كيرت وايز مأساة تثير الشفقة. الشفقة لوضاعتها. الأذى والجرح في مُستقبله المهني وسعادته في الحياة هو منْ عمل يديه، لم يكن ضرورياً، كان من السهل تفاديه. كُل ما كان عليه أن يفعله هو أن يرمي الكتاب المقَدس، أو يفسّره بشكل رمزي، أو مجازي، كما يفعل رجال الدين. بدلاً من ذلك، فعل ما يفعله المُتطرَفون ورمى العلم والدليل والمنطق، ورمى معهم كُل أحلامه وآماله.

كورت وايز إنسان صادق، صادق بشكل مؤلم، صِدْقٌ يصيبَك بالصّدمة، وهذا شيء ربما فريد بين المتطرَفين. أعْطِه جائزة تمبلتون، ربما سيكون مُتلقيها الصَادق الأول بحق. وايز يكشف لنا ما يجري في الخفاء في عقولَ المُتطرفين بشكل عام عندما تناقض الأدلة العلمية إيمانهم. لنستمع لخطبته المُنمّقة:

"على الرغم من وجود أسباب علمية للتصديق بأن الأرض ذات عمر قصير، فأنا من الخلوقيين المؤمنين بصغر عمر الأرض لأن ذلك ما أفهمه من الكتاب المقدس. كما قلت لأساتذتي في الجامعة سابقاً، لو كُل أدلة العالم نقضت معتقد الخلق، فسأكون أول من يعترف بها، ولكنني سأبقى خلوقياً لأن ذلك ما تشير إليه كلمة الله. وهذا هو موقفي"[116].

يبدو أنهُ يقتبس من لوثر الذي ثبّت أطروحته الدينية بمسمار على باب الكنيسة في ويتنبرغ، ولكن المسكين وايز يذكرني أكثر بونستون سميث في قصة "1984" لجورج اورويل، والذي يسعى ويعاني لتصديق أن اثنان زائد اثنان يجب أن تساوي خمسة إذا قال الأخ الكبير ذلك. لكن ونستون كان تحت التعذيبِ. التفكير المزدوج لوايز لم يأت من أوامر تحت التعذيب، إنما من أوامر تبدو غير قابلة للإنكار من قِبل البعض، مصدرها الإيمان الديني الذي يمكن اعتبارهُ هنا كتعذيب عقلي. أنا عدائي تجاه الدين بسبَب ما فعله بكورت وايز. عندما يكون الدين قادراً على فعل ذلك مع عالم طبقات أرض من هارفارد، فكر فقط بما يمكن أن يفعله بآخرين أقل قدرة على التفكير، وأقل قابلية على التعقُّل.

التطرّف الديني نزعة بدون رحمة لتخريب الثقافة العلمية للآلاف مما لا يُحصى من الأبرياء ذوي النَّوايا الطيبة، والعقول الشابة المُندفعة. والدين المُعتدل (اللامتطرف) ربما لن يفعل ذلك، ولكنه يجعل الطريق ممهَّداً للمتطرفين عندما يتمّ تعليم الأطفال منذ نعومة أظافرهم بأن الإيمان بدون شكّ قيمة عليا.

الوجه المُظلِم للأحكام المطلقة

في الفصل السابق، عندما حاولتُ شرح الانزياح الأخلاقي لروح العصر، أدرجتُ المضامين الواسعة المتَّفَق عليها بين الأحرار المتنوَرين والشَّرَفاء من الناس. رسمت مشهداً افتراضياً وَرْدياًّ بأننا جميعاً نوافق على ذلك الاجماع، والبعض منا يتفق أكثر من الآخرين، ووضعتُ في اعتباري أغلبَ من سيقرأ هذا الكتاب، بغض النظر عن كونهم مُتدينين أم لا. ولكن بالطبع، ليس الجميع مع هذا الاجماع (ولن يكون للجميع الرغبة في قراءة الكتاب). يجب الاعتراف بأن الاحكام المطلقة بعيدة جداً عن أن تكون ميتة. بالطبع هي تتحكَّم بعقول الكثير من البشر في العالم اليوم. الخطورة معظمها تقع في العالم الإسلامي والحكومة الدينية الأمريكية (أنظر كتاب كيفن فيليبس، بعنوان:"الثيوقراطية الأمريكية الناشئة")[1]. الأحكام المطلقة في أغلب أشكالها هي نتيجة إيمان ديني قوي، وتشكِّل سبباً رئيسياً للفكرة التي تقول بأن الدين يمكن أن يكون قوة شريرة في العالم.

إن أحد أعنف العقوبات في العهد القديم هي التي تُنفَّذ بحقِّ الكافر. ولا تزال تُطبّق في بعض الدول. القانون رقم 295 في القانون الباكستاني، يفرض عقوبة الموت لهذه (الجريمة). في 18 آب 2001، حُكم على الطبيب المُحاضر يونس شيخ بالموت لكفره. وجريمتهُ كانت بأنه قالَ لطلابه بأن محمداً لم يكن مُسلماً قبل أن يخترع ذلك الدين في الأربعين من عمره. أحد عشر طالباً من طلابه كَتبوا به تقريراً للسلطات عن (مُخالفته). قانون الكفر في باكستان يُطبّق بشكَل خاص ضد المسيحيين مثل أوغستين آشيق كنْغري مسيح الذي حُكَم عليه بالموت في فيصل آباد عام 2000. أوغستين مسيح، كمسيحي، لم يكن مسموحاً له بالزواج من حبيبة قلبه لأنها كانت مُسلمة -وبشكل لا يصدَّق- لا يسمح القانون الباكستاني (والإسلامي) بزواج المسلمة ممن هو غير مسلم. وبالتالي حاول أن يعتنق الإسلام، عندها اتُّهِمَ بأنه يفعل ذلك لدوافع أخرى. ليس من الواضح في التقرير الذي قرأته بأن تلك كانت هي الجريمة الرئيسية، أو أنها كانت بسبب الزعم بأنه قال شيئاً سيئاً عن أخلاق النبي. في كلتا الحالتين، فإن الأمر بالتأكيد لا يستدعي عقوبة الموت في أي بلد لديها قانون مُستقل عن التعصب الديني.

في أفغانستان 2006، حُكم على عبد الرحمن بالموت لانه اعتنق المسيحية. هل قتل أحداً؟ هل أذى أحداً؟ سرق شيئاً؟ تسبب بالضرر لأحد؟ لا. كُل ما فعله هو أنه غيّر رأيه. بشكل شخصي وداخلي غيّر رأيه. أصبح تفكيرهُ مُختلفاً عن التفكير الذي يروق للحزب الحاكم في بلده. ولنتذكر بأن ذلك لم يحدث في فترة طالبان بل في أفغانَستان "المحررة" تحت حكم حامد كرزاي، والذي تسلم السلطة من الحلفاء الذين قادتهم أمريكا. السيد عبد الرحمن تخلص من الإعدام بعد كُل ذلك، ولكن فقط بادِّعائه الجنون، وبعد الكثير من الضغوط العالمية. هو الآن لاجئ في إيطاليا ليتفادى القتل من قِبل المتطرفين المتحمسين لآداء واجبهم

1. The Incipient American Theocracy

الإسلامي. لا يزال ذلك القانون نافذاً في أفغانستان (المحرّرة)، بأن عقوبة الرِدَّة هي الموت. ولنتذكر هنا بأن الرِدَّة لا تعني أيّ ضرر يلحق بشخص أو أي شيء آخر. إنها فقط جريمة فكرية، كما وصفها جورج أورويل في كتابه "1984"، والعقوبة الرسمية في الشريعة الإسلامية هي الموت. وكمثال على تنفيذ ذلك الحكم، في 3 أيلول عام 1992، تمّ قطع رأس صادق عبد الكريم مال الله[1] أمام الجموع في السعودية لأنه اتُّهم رسمياً بالكفر والارتداد[117].

التقيتُ مرةً في برنامج تلفزيوني مع السيد أقبال ساكراني الذي ذكرته في الفصل الأول كونه قيادي مسلم "معتدل" في إنكلترا. واجهتهُ بمدى لامنطقية حكم الردَّة في الإسلام. حاول التَّلَوي في الرد، ولكنه لم يستطع نفيها أو يأسف لها. ظلَّ يحاول تغيير الموضوع قائلا بأنها تفاصيل غير مهمة. هذ الرجل أُعطي لقب فارس من الحكومة البريطانية لعمله على بناء (علاقات جيدة بين المعتقدات).

لكن دعونا ألاَّ نكون متواطئين مع العالَم المسيحي. ففي عام 1922، وفي بريطانيا، حُكم على جون ويليامز غوت بالسجن لتسعة أشهر مع الأشغال الشاقة بتهمة ازدراء الأديان، لقد شبّه المسيح بالمُهرج. وبشكل يكاد لا يصدق، لايزال ازدراء الأديان جريمة في كتب القانون في بريطانيا[118]. في عام 2005، حاولت جماعة مسيحية مقاضاة محطة البي بي سي بتهمة ازدراء الأديان لعرضها برنامج جيري سبرينغر الأوبرا.

في الولايات المتحدة، لسنوات حديثة بدأت عبارة (طالبان الأمريكية) تُصاغ، وفي بحث سريع في غوغل نجد أكثر من دزّينة من المواقع التي قد طرحتها. المُختارات التي جمعوها من القادة المُتدينين الأمريكان، والسياسيين ذوي القواعد الدينية تذكِّر بالتعصّب الأعمى الضيق الأفق، والقسوة الخالية من الرحمة، والسلوك البغيض بشكل تام لكلٍّ من حركة طالبان الأفغانية، وآية الله الخميني، والسلطة الوهابية في السعودية. الموقع المدعو "طالبان الأمريكية" مصدر غني بشكل خاص بتلك الإقتباسات البغيضة المجنونة، ابتداءً بأهمها من شخصية تدعى آن كولتر والتي، كما قال لي زملاء أمريكيون، ليست ساخرة بأقوالها أو مختَرَعة من قِبَل الصحيفة الأميركية الساخرة "ذا أونيون The Onion"، آن كولتر هذه تقول: "يجب أن نحتلَّ بلادهم ونقتل زعماءهم ونحولهم إلى المسيحية"[119]. جواهرَ أخرى، من بينهم عضو الكونغرس بوب دورنان، قال: "لا تستعمل الكلمة Gay (كلمة تطلق على المثليين جنسياً) إلا في حالة كونها اختصاراً لجملة (Got Aids Yet?) والتي تعني هل أصابك الايدز بعد؟ الجنرال وليام جي بويكين قال: "جورج بوش لم يُنتَخَب من أغلبية المصوِّتين في أمريكا، ولكنه عُيِّنَ في منصبه من قِبَل الله". كل المكوِّنات موجودة: إلتصاق صاغر بنص قديم مُساء فهمه؛ كره للنساء، حداثة، أديان منافسة، علم ولذة؛ حب للعقاب، تنمّر، عقل ضيق محدَّد، تدخُّل متسلِّط بكل جانب من جوانب الحياة. طالبان الأفغانية وطالبان الأمريكية مثال جيد على ما يحدث عندما يأخذ الناس كتبهم المقدس بشكل حرفي وجاد. إنهم يقدمون لنا مثالاً عصرياً مرعباً

1 . صادق عبد الكريم مال الله، البالغ من العمر 25 عاماً، ويسكن مدينة القطيف ـ حي القلعة، وهو من عائلة فقيرة. الحكومة السعودية ادّعت عبر بيان صادر من وزارة الداخلية أُذيع عبر التلفزيون ونُشر في الصحف المحلية جاء فيه (بأن المدعو صادق عبد الكريم مال الله قد أقدم على سبّ الله وعلى سبّ القرآن، وسبّ النبي محمد). (المترجم).

عما سيؤول إليه الحال تحت السلطة الدينية للعهد القديم. كتاب كيمبرلي بلاكر، "أُسس التطرف: اليمين المسيحي في أمريكا"، هو كتاب مكرّس لفضح خطر المسيحية الطالبانية (ليس تحت هذا الاسم).

الإيمان والمِثْلِية الجنسية

في أفغانستان، وتحت حكم طالبان، كانت العقوبة الرسمية للمثلية الجنسية هي الإعدام، وبطريقة تبدو شهية للبعض، وذلك بدفن الشخص حياً تحت جدار يُدفع فوق الضحية. "الجريمة" بذاتها هنا تمت بشكل شخصي وموروِست بين شخصين بالغين لم يتسببوا بالأذى لأيٍّ كان، وهنا لدينا مرة ثانية علامة فارقة لتلك الأحكام الدينية المُطلقة. بلدي أنا ليس له الحق في التَّعالي هنا. المثلية الجنسية الشخصية كانت تُعتبر جريمة حتى -وللدهشة- عام 1967. في عامٍ 1954، إنتَحر عالم الرياضيات البريطاني آلان تورينغ الذي كان مؤهَّلاً الى جانب جون فون نيومان للقب مُخترع الكومبيوتر بعد أن أدين بجريمة ممارسة المثلية الجنسية في السرّ. أعترف هنا بأن تورينغ لم يُدفن حياً بهدم حائط على رأسه بواسطة دبابة. لقد أُعْطِيَ الخيار بين عامين في السجن (تستطيع تخيل معاملة بقية السجناء له)، وبين مُعالجة هرمونية، والتي كانت في واقعها محاولة خصي كيميائي كانت ستؤدي إلى نمو أثداء لهُ. خياره الشخصي الأخير كان تفاحة قام بحقنها بالسيانيد[120].

كان لتورينغ دوره المحوري في تحطيم الشيفرة الألمانية الغامضة أثناء الحرب العالمية الثانية بذكائه المتميز، نستطيع أن نعتبر مساهمة تورينغ في هزيمة النازية الألمانية كانت أكبر من تلك التي لآيزنهاور أو تشرشل. بفضل تورينغ وزملائه اللامعين في مركز باتشلي بارك للأبحاث، عرف جنرالات الحلفاء، وخلال فترات طويلة وبشكل متواصل، معلومات دقيقة عن تحركات القطعات الألمانية قبل أن يتمكن الضباط الألمان من تنفيذها. بعد الحرب، عندما لم يعد دور تورينغ سرياً جداً، كان يجب تكريمهُ بلقب فارس والإحتفاء به كبطل قومي. عوضاً عن ذلك، فإن هذا العبقري، اللطيف والغريب الأطوار، دُمِّر تماماً لـ "جريمة" أرتُكبت بمعزل عن الجميع ولم تؤذِ أحداً. مرة أخرى نرى تلك العلامة الفارقة للَّذين تقوم أخلاقهم على أَساس الإيمان، ألا وهي أن يهتمّواَ بما يفعله الآخرون (وحتى بما يفكرون) حتى في عزلتهم.

إن موقف "طالبان الأمريكية" تجاه المثلية يجسد أحكام تديّنهم المُطلقة. إستمع للأب جيري فالْويل، مؤسس جامعة الحرية: "الآيدز ليس فقط عقوبة الله للمثليين الجنسيين، بل إنهُ عقوبة الله للمُجتمع الذي يتقبل المثليين"[121]. الشيء الذي ألاحظهُ في أؤلئك الناس هو ذلك العطاء المسيحي الرائع. من ذا الذي يصوت مرة بعد أخرى لرجل قليل الاطِّلاع ومتعصب مثل السيناتور جيسي هلْمز، الجمهوري في كارولينا الشمالية؟ الرجل الذي قال بهزء: "صحيفة النيويورك تايمز والواشنطن بوست متخمتان بالمثليين. تقريباً كلهم مثليون أو سُحاقيّات"[122]. أفترض أن الجواب هو إنهم أمثال أؤلئك المصوّتين الذين يرون الأخلاقيات من منظارها الديني الضيق، ويشعرون بالتهديد من أي شخص لا يشاركهم إيمانهم المطلق.

لقد اقتبست عن بات روبرتسون سابقاً، مؤسس التحالف المسيحي. كان مرة مرشحاً جاداً لمنصب الرئاسة الأمريكية من قبَل الحزب الجمهوري عام 1988، وحصل على أكثر من ثلاثة ملايين مُتبرِع للعمل في حملته الانتخابية، إضافَة إلى ما يوازيها من الدولارات. هذا الدعم مثير للقلق حين نعلم بأن العبارات التالية هي نموذج متكرر في خطابه: "المثليون يُريدون أن يأتوا للكنيسة ويعرقلوا القدّاس ويرشُّون الدم حولهم محاولين إصابة الناس بالآيدز والبصق في وجه القساوسة". "مؤسسة بلاند بارنتهود[1] تعلِّم الأطفال على الزنا، وتعلم الكبار على الزنا وكل أنواع البهيمية واللواط والسحاق؛ كُل ما يحرمهُ الكتاب المقدس". مواقف روبرتسون نحو المرأة أيضا تدفئ القلوب السوداء لطالبان الأفغان: "أعرف بأنه من المؤلم للنساء أن يسمعن ما أقول، ولكنكِ حينما تتزوجين فأنتِ قد قبلتِ برئاسة الرجل، زوجكِ. المسيح هو رأس البيت، والزوج هو رأس الزوجَة، وذلك هو الطريق الَصحيح، نقَطة".

غاري بوتر، رئيس الكاثوليك للحركة السياسية المسيحية، قال: "عندما تتسلَّم الأغلبية المسيحية قيادة هذا البلد، فلن يبقى هُناكَ مذاهب شيطانية، ولا توزيع مجاني للأفلام الإباحية، ولا مزيد من الكلام عن حقوق المثليين. بعد أن تستلم الأغلبية المسيحية زمام الأمور، ستصبح التعدَّدية غير أخلاقية وشريرة، ولن تسمح الدولة لأيٍ كان بارتكاب الشر". "الشرّ" كما هو واضح من العبارة لا يعني عمل أشياء قد يكون لها عواقب سيئة للآخرين. بل تعني الأفكار والأعمال الشخصية التي لا تروق لـ (الأغلبية المسيحية).

الأب فريد فَلْبِس من كنيسة واست بورو المعمدانية، هو خطيب لامع آخر مهووس بكره شديد للمثليين. عندما ماتت أرملة مارتن لوثر كينغ، رتَّب الأب فريد مظاهرة في جنازتها وأعلن: "الله يكَره اللوطيين وكل الذين يقبلون بهم، ولهذا، فإن الله يكره كوريتا سكوت كينغ، وهو الآن يُعذِّبها بالنار والكبريت حيث لا تموت الديدان أبداً ولا تخبو النار، ودخان عذابها يصعد عالياً لأبد الآبدين"[123]. من السهل أن نأخذ كلمات فريد فَلْبِس على أنه مجنون، المشكلة أن لديه عدداً هائلاً من الأتباع وأموالهم. بناءَ على موقعه في الأنترنت، فقد نظَّم فلبس 22000 مظاهرة مناهضة للمثلية منذ عام 1991 (أي بمُعدل أربع مظاهرات في اليوم) في أمريكا، وكندا، والأردن، والعراق، رافعين شعارات مثل "نشكر الله على الايدز". ومن الأمور الجذابة في موقعه بشكل خاص، هو العدّاد الآلي لعدد الأيام التي تحترق فيها بعض الشخصيات المثلية المتوفية في الجحيم.

المواقف تجاه المثليين تفضح الكثير عن شكل الأخلاقيات المُستوحاة من الدين. أمثِلةٌ مُشابهة نتعلم منها بشكل مُماثل، هي عن الإجهاض وقدسية الحياة الإنسانية.

1 . PLANNED PARENTHOO.

الإيمان وقدسية الحياة الإنسانية

الأجنَّة هي أمثلة على الحياة الإنسانية. لذلك، وفي ضوء القيم الدينية المُطلقة، فإن الإجهاض ببساطة خطأ. جريمة كاملة. لا أعرف كيف سأشرح تلك المفارقة العجيبة، حيث أن أولئك الذين يُعارضون بشدة إطفاء حياة جنينية، يتحمسون بشكل عام أكثر من المعتاد لإهلاك حياة شخص بالغ. وللإنصاف، فإن ذلك لا ينطبق على الروم الكاثوليك الذين يُعدّون من ألدِّ أعداء الإجهاض. جورج بوش الابن، هو نموذج مثالي لتصاعد السلطة الدينية. هو، وهم، من أشدِّ المدافعين عن الحياة الإنسانية طالما هي في المرحلة الجنينية (أو مريضة بمرض مُميت) -لدرجة منع أبحاث طبية كانت ستنقذ حياة الكثيرين[124]. إنَّ السّبب الرئيسي لرفض عقوبة الإعدام هو احترام حياة الإنسان. منذ 1976، حين رفعت المحكمة العليا المنع عن عقوبة الإعدام، أصبحت تكساس مسؤولة عن حوالي ثلث الإعدامات التي جرت في كُل الولايات الخمسين. والرئيس بوش ترأس عدداً من الإعدامات عندما كان حاكماً للولاية أكثر من أي حاكم آخر في تأريخها، بمُعدل إعدامٍ واحد كُل تسعة أيام. ربما كان ببساطة يقوم بواجبه وينفذ قانون الولاية؟[125] لكن، عندئذ ماذا تقول عن التقرير الشهير للمحرر تاكر كارلسون في سي أن أن؟ كارلسون، الذي يُقرّ بأهمية عقوبة الإعدام، صُدِمَ عندَ مشاهدته بوش يسخر مُقلِّداً سجينة تنتظر الإعدام وتلتمس من العمدة التأجيل: "أرجوك"، يئنَّ بوش ويزمّ شفتيه بيأس زائف، "لا تقتلني"[126]. ربما كانت تلك المرأة وجدت تعاطفاً أكبر لو أنها أشارت إلى أنها يوماً ما كانت جنيناً. إنَّ التفكُّر في موضوع الجنين يبدو له الأثر الأكبر على العديد من المؤمنين. الأم تريزا قالت في خطابها عند حصولها على جائزة نوبل للسلام: "الإجهاض هو الخطر الأكبر على السلام". ماذا؟ كيف يمكن لامرأة تمتلك حكماً سخيفاً كهذا أن تؤخذ بجِدِّية في أي موضوع جِدّي. ناهيك عن أخذها بجِدِّية لتستحق جائزة نوبل؟ أي شخص إنجذب وترك نفسه يُخدع بمظاهر التقوى المنافقة للأمّ تريزا، عليه أن يقرأ كتاب كريستوفر هيتشينز "الوضعية التبشيرية: الأمّ تريزا بين النظرية والواقع".

بالعودة إلى طالبان الأمريكية، دعونا نستمع إلى راندال تيري، مؤسس (حركة الانقاذ)، وهي مؤسسة تتدخل لإدخال الرعب في الكادر الطبي العامل في مؤسسات الإجهاض. "عندما أصبح أنا أو أحد مثلي حاكماً للبلد، من الأفضل لكم أن تهربوا لأننا سنجدكم وسنحاكمكم وسنعدمكم. وأعني كُل كلمة قلتها. سأجعل ذلك جزءاً من مهمّتي بأن تُحاكَموا جميعكم وتُعْدَموا". تيري هنا يقصد الأطباء الذين يعملون عمليات الإجهاض، ومصدر إلهامه المسيحي يظهر بوضوح في تعليق آخر:

> "أريد موجة من عدم التسامح تجتاحكم. أريد موجة من الكره تجرفكم. نعم، الكره جيد... هدفنا هو دولة مسيحية. لدينا واجبات إنجيلية، والله نادانا لفتح هذا البلد. نحن لا نريد مساواة ولا نريد تعدُّدية.
> هدفنا يجب أن يكون بسيطاً. علينا أن نكون دولة مسيحية مبنية على قوانين الله، على الوصايا العشر. لا حرج علينا في هذا"[127].

هذا الطموح بقيام، أقلّ ما يمكن تسميته، دولة فاشية مسيحية، يعتبر الطموح النموذّجيّ لطالبان الأمريكية. كأنها انعكاس لصورة الدولة الإسلامية الفاشية التي يطمح إليها الكثيرون في أجزاء أخرى من العالم. راندال تيري ليس في مركز سياسي حتى الآن. ولكن ليس هُناكَ من مُراقب للمسرح السياسي الأمريكي حتى وقت كتابة هذا الكتاب (2006) بإمكانه أن يكون متفائلاً.

نصير المذهب النفعي، أو العواقبي، سيتناول السؤال عن الإجهاض بطريقة مغايرة على الأغلب، وذلك بقياس حجم المُعاناة. هل يعاني الجنين؟ (المُفترض أن الجواب لا إذا ما أُجهِضَ قبل امتلاكه لجهاز عصبي، وحتى لو كان كبيراً كفاية بحيث أن لديه جهاز عصبي، فإنه بالتأكيد يعاني أقل من بقرة بالغة في المسلخ على سبيل المثال). هل تعاني المرأة الحامل أو عائلتها لو لم تجهض؟ مُمكن جداً، وفي أية حال، وبما أن الجنين لا يمتلك جهازاً عصبياً، ألا يجب أن يكون للأمّ ذات الجهاز العصبي المُكتمل الرأي؟

مع ذلك فلن أنكر أنهُ من المُمكن أن يمتلك العواقبي أرضيةً لمُعارضة الإجهاض. حجة "المنحدَر الزّلِق" يمكن أن يتبناها العواقبيون، (لكنني لن أفعل هذا في هذه الحالة). ربما أن الجنين لا يعاني، ولكن في مجتمع يُسمَح فيه بإزهاق الحياة البشرية، تتعدى الأخطار المرحلة الجنينية: أين سنرسم تلك الحدود؟ وَأدُ الأطفال؟ إن لحظة الولادة تعطينا مؤشراً طبيعياً لتعريف القواعد والحدود، وبالإمكان الجدل بأنه من الصعب إيجاد لحظة أبكر من مراحل تطور الجنين. إن حُجة المُنحدر الزّلِق يمكن أن تجعلنا نعطي للحظة الولادة مُميزات أكبر مما تتمنى النفعية المفسّرة بشكل ضيق.

الجدلية حول الموت الرّحيم أيضاً يُمكن أن توضع في إطار المُنحدر الزلق. لنتخيل عبارة من فيلسوف أخلاقي: "عندما تسمح للأطباء بأن يضعوا حدّاً لمعاناة المُحتضر، فسيضرب كُل واحد جدته لحدِّ الموت للحصول على أموالها. نحن الفلاسفة ربما نضجنا عن الأحكام المطلقة، ولكن عامة الشعب تحتاج أن تلتزم بقوانين مُطلقة مثل "لا تقتل"، وإلا فإنهم لن يعرفوا أين الحدود. تحت طائلة بعض الظروف، يمكن للأحكام المطلقة، أحياناً ولأسباب خاطئة في مجتمع غير مثالي، أن يكون لها نتائج أفضل من العواقبية الساذجة! نحن الفلاسفة ربما نجد صعوبة في منع أكل الإنسان الميت وغير المَرثي - كالمتشردين المقتولين بسبب حادث على حافة طريق. ولكن، ولأسباب المُنحدر الزلق، فإن الحكم المطلق بتحريم أكل البشر قَيِم جداً لنخاطر بخسارته".

ربما تُعتبر حجة المُنحدر الزلق طريقة تمكِّن العواقبيين من إدخال شكل من الحكم المُطلق غير مباشر. لكن خصومة الأديان للإجهاض لا تزعج نفسها بالمنحدرات الزلقة. بالنسبة لهم الموضوع أبسط بكثير. الجنين هو "طفل" قتْلُهُ هو جريمة قتل، هذا كُل شيء، إنتَهى النقاش. يتبع ذلك الكثير من المواقف المُطلقة. كبداية، إن كل الأبحاث الجنينية المُتعلقة بالخلايا الجذعية يجب أن تتوقف برغم الفوائد الهائلة في البحوث الطبية، وذلك لأن الخلايا الجنينية تموت أثناء العمل عليها. المفارقة واضحة عندما نعرف بأن المُجتمع يتقبّل مسبقاً تخصيب البويضة في الأنابيب خارج الجسم، والذي يستحثُّ فيه الأطباء بشكل دوري جسم المرأة لإنتاج عدد إضافي من البويضات لإخصابها خارج الجسم. العدد قد يصل لدزينة من

البويضات المخصّبة، منها إثنتان أو ثلاثة تُزرَع في الرحم. التوقُّعات تقول بأن من هذه الثلاثة واحدة، وبعض الأحيان إثنتان، سوف تعيش. لذلك فإن الإخصاب الأنبوبي يقتل بويضات صالحة للحياة في مرحلتين من مراحله، والمجتمع بشكل عام ليس لديه أي اعتراض على ذلك. إن الإخصاب بالأنابيب منذ خمسة وعشرين عاماً هو الإجراء النموذجي لإدخال البهجة على حياة الأزواج التائقين للأطفال.

ربما يكون للمُتدينين المُطلَقين مُشكلة مع الإخصاب الخارجي أو أطفال الأنابيب. صحيفة الغارديان في 3 حزيران 2005، كتبت قصة مُحيِرة تحت عنوان (إستجابة زوج وزوجة مسيحيين لنداء من أجل إنقاذ أجنَّة زائدة من عملية إخصاب خارجي). القصة تدور حول مؤسسة تسمى (نُدَفُ الثَّلج) التي تهتم بإنقاذ الأجنَّة الزائدة من عيادات الإخصاب الخارجي. "لقد شعرنا حقيقة بأن الرب يدعونا لمُحاولة إعطاء أحد هذه الأجِنَّة -الأطفال - فرصة للحياة". قالتها إمرأة من ولاية واشنطن، والتي كان طفلها الرابع نتيجة ذلك "التحالف غير المتوقع للمسيحيين المُحافظين مع عالم أطفال الأنابيب". ولقلقها من هذا التحالف، فقد قام زوجها باستشارة الكاهن في الكنيسة والذي أسدى إليه هذه النصيحة: "لو أردتَ تحرير العبيد، فعليك في بعض الأوقات أن تتعاقد مع تاجر العبيد". أتساءلُ عمّا سيقوله هؤلاء لو عرفوا بأن غالبية البويضات المُلقَّحة تُجْهَض بشكل عفوي بكل الأحوال. ربما الأفضل النظر إليها على أنها نوع من "التحكم بالنوعية".

بعض المُتدينين لا يستطيعون التمييز بين قتل بضعة خلايا مجهرية من ناحية، وبين قتل طبيب مُكتمل النمو من الناحية الأخرى. لقد اقتبستُ من راندال تيري مسبقاً ومنظمته "مهمّة الإنقاذ". مارك يورغينسماير، في كتابه الذي يصيب بالقشعريرة، "الإرهاب في عقل الإله"، عرض فيه صورة الأب مايكل باري مع صديقه الأب بول هيل ممسكان بلافتة تقول: "هل من الخطأ منع قتل الأطفال الأبرياء؟". الإثنان شابان يافعان يبتسمان بودٍ، يبدوان لطيفان بملابس أنيقة، صورة معاكسة تماماً للمجانين كما نتخيلهم. رغم ذلك، وبمشاركة زميلهما الثالث من جيش الإله، جعلوا مهمتهم إحراق عيادات الإجهاض، ولم يتردَّدوا في البوح برغبتهم بقتل الأطباء. في 29 تموز 1994، قتل بول هيل الدكتور جون بريتون ومرافقه جيمس باريت ببندقية صيد خارج عيادة بريتون في بنساكولا بولاية فلوريدا. بعدها سلَّم نفسه للشرطة قائلا بأنه قتل الطبيب ليمنع أي قتل "للأطفال الأبرياء" على يده بالمستقبل.

مايكل براي دافع عن مثل هذا التصرف في كُل مقابلة يجريها كهدف أخلاقي نبيل، كما اكتشفتُ عندما أجريتُ معه مُقابلة في حديقة عامة في كولورادو سبرينغس، وذلك من أجل برنامجي الوثائقي عن الدين[1]. وقبل أن نأتي إلى موضوع الإجهاض، فحصتُ معايير براي عن الأخلاق المبنية على الكتاب المقدس بسؤاله بعض الأسئلة التمهيدية. أشرت الى أن القانون الإنجيلي يحكم على الزاني بالموت رجماً. وتوقَّعت أن ينكر هذا المثال الخصوصي لوضوح كونه خارج حدود المعقول، ولكنه فاجأني. لقد أبدى رغبتهُ بأن يُعدَم الزاني بعد محاكمة قانونية عادلة. بعد ذلك أشرتُ إلى أن بول هيل، مع كُل دعم براي، لم يتبع الإجراءات، بل تصرّف وكأنَّ القانون بيده وقتل الطبيب. براي دافع عن تصرّف صديقه الكاهن بنفس الطريقة التي

1 . النشطاء المُدافعون عن حقوق الحيوان، الذين يهددون بالعنف ضد الباحثين الذين يستخدمون الحيوانات في الابحاث الطبية، يبرّرون أعمالهم بنفس الأهداف الأخلاقية النبيلة تلك.

إتَّبَعها عندما أجرى يورغينسماير المُقابلة معه بأن ميّز بين القتل الإنتقامي، كقتل طبيب مُتقاعد مثلاً، وقتل طبيب لازال يعمل، وذلك كوسيلة لمنعه من "قتل الأطفال بانتظام". عندها وضعتهُ في الصورة التالية، بفرض أنَّ معتقد بول هيل لا شكَ في أمانَته، فإن المجتمع سيغرق في فوضى مُرعبة عندما يتَّخذ كُل فرد فيه قناعاته الشخصية كقانون ويتصرّف على أساسها، بدلاً من طاعة قانون البلد. أليس من الصحيح مُحاولة تغيير القانون ديمقراطياً؟ أجاب براي: "تلك هي المشكلة عندما لا يكون لدينا قانون حقيقي قائم ومُسند، عندما تكون قوانيننا موضوعة من قِبَل بشر تتحكم بهم النَّزوات، كما رأينا في حالة القانون المدعو قانون حق الإجهاض، حيث مجموعة من القضاة قاموا بفرضه على الشعب...". بعدها واصلنا الجدل حول الدستور الأمريكي ومن أين أتت القوانين. موقف براي من ذلك ظهر مُشابهاً جداً لمواقف المتطرفين الإسلاميين الذين يعيشون في بريطانيا، والذين يصرحون علانية بأنهم يخضعون للشرع الإسلامي فقط، وليس للقوانين الديمقراطية المسنونة في الدولة التي تبنَّتهم.

في 2003، أُعْدم بول هيل لقتله الدكتور بريتون ومرافقه الشخصي قائلاً بأنه لو استطاع لفعلها ثانية لإنقاذ الأجنة. وقالَ في مؤتمر صحَفي بأنه سعيد بأن يموت من أجل قضيته، "أؤمن بان إعدامي من قِبَل الدولة سيجعل مني شهيداً". اليمين المتطرف المناهض للإجهاض تظاهر ضد الإعدام في حلف غير مقدس مع اليسار المناهض لحكم الإعدام. تلك المظاهرة حرّضتْ حاكم فلوريدا جيب بوش (الاخ الأصغر لجورج بوش) كي "يوقف استشهاد بول هيل". حيث زعموا أن القتل القانوني لبول هيل سيشجع حدوث المزيد من جرائم القتل المماثلة، وهذا تماماً عكس الهدف المزعوم من عقوبة الإعدام. هيل كان مُبتسماً طوال الطريق إلى غرفة الإعدام قائلاً، "أتوقع جزاءَ عظيماً في الجنة... وأنتظر الفوز العظيم بفارغ الصبر"[128]. واقترح بأن على الآخرين أن يحذو حَذْوَهُ بذلك العنف. توقَّع القضاء هجوماً إنتقامياً "لاستشهاد" بول هيل، فصعَّدت الشرطة من مستوى الإنذار إلى أعلى مُستوى بينما كان هيل يُعدَم، والعديدون ممن لهم علاقات بالقضية تلقوا رسائل تهديد بداخلها رصاصات مسدس.

كل ذلك الرعب مصدرهُ اختلاف بسيط في وجهات النظر. هُناكَ من الناس، وبسبب قناعاتهم الدينية، يظنُّون بأن الإجهاض قتلٌ، وهم مُستعدون للقتل دفاعاً عن الأجنة التي اختاروا أن يسمونها "أطفال رُضَّع". من جهة أخرى هُناكَ من هم مؤيدون للإجهاض صادقون بشكل مماثل، ومنهم من لديه قناعات دينية مختلفة أو لادينة، مع أخلاق مبنية على العواقبية. هؤلاء يرون أنفسهم أيضاً مثاليين يقدمون خدمة طبية للمرضى المحتاجين، والذين لولا ذلك، لكانوا قد وضعوا أنفسهم تحت رحمة طبيب دجّال جاهل في شارعٍ خلفي. كُل طرف يرى الطرف الآخر قاتلاً أو داعياً للقتل. الطرفان متساويان في الصدق حسب اعتقاد كلٍّ منهما.

إحدى المتحدثات بإسم عيادة إجهاض أخرى وصفت بول هيل كمجنون خطر. ولكن من هُم مثله لا يفكرون بأنهم مجانين خطرون، بل يفكرون بأنهم طيبون وأخلاقيون ومقادون من قِبَل الإله. بالتأكيد، لا أظن أن بول هيل كان مُضطَّرباً عقلياً، ولكنه فقط مُتدين. هل هو خَطِرٌ؟ نعم، ولكن ليس مضطرباً عقلياً. مُتدين بشكلٍ خطر. من وجهة نظر إيمانه الديني، فإن هيل كان مُحقاً وأخلاقياً تماماً عندما رمى الدكتور

بريتون بالرصاص. ما هو خاطئ في هيل هو إيمانه الديني بحد ذاته. مايكل براي أيضاً، عندما قابلتهُ لم يعطني إنطباعاً عن أنهُ مُضطرب عقلياً. بل إنهُ حتى أعجبني. فكرت بأنهُ إنسان أمين ومُخلص، يتكلم بهدوء وعمق تفكير، ولكنَّ عقله للأسف كان غارقاً في تُرّهاتٍ دينيةٍ مسمومة.

إن مُعظم مُعارضي الإجهاض بقوة هم من المُتدينين المتشدّدين. مؤيدي الإجهاض الصادقين، بغض النظر عن كونهم مُتدينين شخصياً أم لا، يتّبعون غالباً فلسفة أخلاقية عواقبية غير دينية، وربما يستعملون سؤال جيرمي بويثام: "هل يستطيعون المعاناة؟". بول هيل، ومايكل براي لم يريا فرقاً أخلاقياً بين قتل جنين وقتل طبيب، غير أن الجنين بالنسبة لهما هو "طفل" بريء لا يُلام. العواقبيون يرون كلَّ الاختلاف هنا. إن جنيناً في مراحله المُبكرة له قابلية إحساس، كما له شكل الشرغوف (جنين الضفدع). الطبيب هو إنسان بالغ لهُ آمال وتطلُّعات ومخاوف، مخزن إنساني مدهش مليء بالمعرفة والقدرة على الشعور العميق، ومن المرجّح أن هُناكَ أرملة يائسة، ويتامى، وربما أهل كبار في السن يحبونه جداً.

بول هيل سبّبَ معاناة عميقة وحقيقية ودائمة لبشر لديهم أجهزة عصبية قادرة على المعاناة. بينما ضحيتهُ، الطبيب، لم يفعل شيئاً كهذا. الأجنة في مراحلها المبكرة ليس لها جهاز عصبي، وبالتأكيد لا تعاني. إذا كان الجنين المُجْهَض في مراحله المُتأخرة مع جهاز عصبي يعاني، فذلك ليس لأنه بشر، بالرغم من أن كُلَّ معاناة هي مدعاةٌ للأسى. ليس هُناكَ سبب عام لافتراض أن الجنين البشري في أي عمر كان يعاني أكثر من جنين بقرة أو خروف في نفس مرحلة التطور. وهناك كُل الأسباب لافتراض أن الأجنة كلها، بشرية أو غيرها، تعاني أقل بكثير من البقرة البالغة أو الخروف البالغ في المسلخ، خصوصاً في المسالخ الشرعية حيث، ولأسباب دينية، يجب أن تكون في كامل وعيها عند إجراء طُقْس قَطْع حناجرها.

من الصعب قياس المُعاناة[129]، والتفاصيل من المُمكن نقاشها. لكن هذا لا يؤثر على المبدأ الأساسي والذي يركز على الفرق بين الفلسفة الأخلاقية العلمانية العواقبية، وتلك الدينية المطلقة[1]. إحدى المدرستين تهتمّ فيما إذا كانت الأجنة تُعاني. الأخرى تهتمّ في إذا ما كانوا بشراً. يُسْمَعُ الأخلاقيون المتدينون وهم يناقشون أسئلة من قبيل "متى يصبح الجنين قيد النمو إنساناً؟". إن الأخلاقيين العلمانيين على الأغلب يسألون: "ليس من المهم إذا ما كان الجنين إنساناً أم لا (ماذا يعني ذلك لمجموعة صغيرة من الخلايا؟)؛ في أي عمر يصبح أي جنين في طَوْرِ النمو، لأيِّ كائنٍ كان، قادراً على الشعور بالألم؟"

مغالطة بيتهوفن الكبرى

1 . هذا لا يعني بأن كل الحلول مستنفذة. جزء كبير من الأغلبية المسيحية الأمريكية لا تتخذ هذا الموقف المُطلق من مسألة الإجهاض، بل ترغب بتشريعه. راجع مثلاً (Religious Coalition for Reproductive CHOICE، www.rcrc.org).

النَّقلة التالية التي يستخدمها المُناهضون للإجهاض في هذا الشطرنج الفكري تأتي عادة بالشكل التالي. إن المُشكلة ليست فيما إذا كان الجنين يشعر أو لا يشعر بالمُعاناه الآن. النقطة تتركَّز حول "قدراته الكامنة". الإجهاض انتزع منه فرصة أن يكون حياة إنسانية مُتكاملة في المستقبل. هذه الفكرة تمّ تلخيصها في حُجة بلاغية، غباؤها الشديد هو عذرها الوحيد ضدَّ تهمة خداعها الخطير. أتحدث هنا عن مغالطة بيتهوفن الكُبرى، والتي تتواجد بأشكال عدة. في كتابهما "علم الحياة"، يُرجِع بيتر وجان ميداور[1] النسخة التالية للقصة لنورمان سانت جون ستيفاس (والذي هو الآن اللورد سانت جون)، وهو عضو في البرلمان البريطاني ومن أعلام الروم الكاثوليك. بدوره أخذ القصة من موريس بارينغ (1874-1945)، أحد مُعتنقي مذهب الروم الكاثوليك، وأحد الرفاق المقَربين لخادمي الكنيسة ج. ك. تشيستيرتون وهيلاري بيلاوك. حيث قام بصياغة المغالطة بشكل حوار إفتراضي بين طبيبين.

-"حول موضوع إنهاء الحمل، أُريد رأيك. الأب كان مُصاباً بالزهري والأم كانت مُصابة بالسلّ. من أطفالهم الأربعة الذين وُلدوا، الأول كان أعمى، والثاني مات، والثالث كان أطرش ومتخلِّف، والرابع كان مُصاباً بالسلّ أيضاً. ماذا كُنت لتفعل؟"

-"كنت لأنهي الحمل"

-"إذن لكنت قد قتلت بيتهوفن"

الأنترنت مليء بالمواقع التي تلقِّب نفسها بـ (أنصار الحياة) ممَن يكرَرون هذه القصة السخفية، ويغيَرون مقدِّماتها الحقيقية بشكلٍ عَرَضي بحيوية طائشة. إليكم نسخة أخرى للقصة:"لو علمتَ بأن امرأة كانت حاملاً، وقد كان لديها ثمانية أولاد مُسبَقاً، ثلاثة منهم طرشان، واثنان عميان، وواحد متخلِّف عقلياً (كلُّ ذلك لأنها مصابة بالزهري) هل ستنصحها بالإجهاض؟ في هذه الحالة فأنت قتلت بيتهوفن إذن"[130]. هذه الصياغة تنزل بترتيب الموسيقار العظيم من خمسة إلى تسعة في ترتيب الإخوان، وترفع عدد المولودين طرشاناً إلى ثلاثة، والعميان إلى إثنين، وتعطي الزهري للأمّ بدلاً عن الأب. أغلب المواقع الثلاثة والأربعين التي وجدتها عند بحثي عن صياغات مختلفة لهذه القصة، لا تُرجِعها لموريس بارينغ، وإنما لبروفيسور يسمى ل. ر. آغنيو من جامعة كاليفورنيا للطب، والذي وضع اللغز لطلابه وقال لهم: "تهانينا، لقد قتلتم بيتهوفن للتوّ". دعونا هنا نعذر البروفيسور ل. ر. آغنيو نظراً للشكِّ الكبير بوجود مثل هذه الشخصية. من المدهش كيف تنتشر تلك الأساطير الدينية. لا أستطيع معرفة فيما إذا كان بارينغ هو من أسّس هذه الأسطورة أم أنها أُختُرِعَت قبلهُ.

أما عن كونها مُلفَّقة فهذا أكيد. إنها مزيّفة بكاملها. الحقيقة أنَّ لودفيغ فان بيتهوفن لم يكن الطفل التاسع أو الخامس، لقد كان الأكبر، بالتحديد الثاني، لكن أخوه الأول مات في المهد وكان ذلك شائعاً أيامها، ولم يكن، على حدِّ علمنا، أعمى، أو أطرش، أو مُتخلِّف عقلياً، أو غبي. ليس هُناكَ أي أدلة على أنَّ أيّاً من أبويه كان مريضاً بالزهري، مع العلم أن أمّه ماتت بداء السلّ، وكان ذلك مرضاً منتشراً حينها.

---

1 . بيتر ميداور حصل على جائزة نوبيل للفيزياء والطب عام 1960.

إنَّ هذه القصة في الحقيقة أسطورة متكاملة، مُفبركة ومحاكة بشكل مدروس، وتنتشر من قِبَل أناس مهتمين بنشرها. ولكن كونها كذب فاضح فهذا نقطة جانبية تماماً. حتى لو لم تكن كذبة، فإن الحجة المُستقاة منها سيئة للغاية. بيتر وجين ميداور لم يحتاجا للشك بالقصة ليثبتا مغالطة الحجة: "المنطق وراء تلك الحجة الصغيرة خاطئ بشكل يقطع الأنفاس. طالما أنه ليس هُناكَ علاقة سببية تذكر بأنه إذا كانت الأم مُصابة بداء السل والأب مُصاب بالزهري، فهذا سيؤدي لولادة عبقري موسيقي مثل بيتهوفن، فإن احتمالية أن يُحرم العالَم منه بواسطة الإجهاض ليس أكبر من احتمالية حرمانه منه بسبب البتولية"[131]. إن النَّقض الساطع للحجة من الزوجين ميداور لا غبار عليه (كي أستعير هنا إحدى قصص روالد داهل القصيرة السوداء، فإن القرار العشوائي برفض إجهاض مماثل عام 1888 كانت نتيجتهُ آدولف هتلر). لكنك لست بحاجة كي تكون عبقرياً -ولا حتى متحرر من نوع معين من التربية الدينية- لتعرف القصد. من المواقع الثلاثة والأربعين لـ (أنصار الحياة) التي تعرض أوجهاً مُختلفة لقصة بيتهوفن الأسطورية، والتي أتاني بها غوغل بينما كنت أكتب هذا المقطع، لم ينتبه أيّ منهم للامنطقية الحجة. بل كلُّها، (وكلها مواقع دينية) وقعت ضحية المغالطة بنجاح. أحد تلك المواقع ذكر بأن المصدر هو ميداور. هؤلاء الأشخاص كانوا مُتحمِّسين جداً لتصديق كذبة متجانسة مع معتقداتهم، لدرجة أنهم لم يلاحظوا حتى بأن ميداور اقتبس هذه الحجة فقط كي ينسفها من أساسها.

إن ميداور كان على حق تماماً عندما أشار بأن الاستنتاج المنطقي لحجة "القدرة الإنسانية الكامنة" هو أننا نمنع إنساناً من نعمة الوجود كلما فوّتنا فرصة لممارسة الجنس. كُل رفض لأي عرض للمُجامعة بين شخصين خصبين هو، وفقاً لمنطق (أنصار الحياة المختلّ)، مساوٍ لقتل طفل مُحتمل! حتى الدفاع عن النفس في حالة الاغتصاب يمكن أن يعتبر قتلاً لطفل مُحتمل (وهُناكَ الكثير من "أنصار الحياة" من الذين يرفضون الإجهاض حتى للمرأة التي حملت بعد تعرضها لحادثة اغتصاب شرسة). نرى بوضوح سوء المنطق لحُجة ببيتهوفن. إنها غباء غير طبيعي يُعَبّر عنه بالأغنية اللامعة، "كل نطفة مقدسة"، والتي يغنهيا مايكل بالين مع كورس من مئات الأطفال في فيلم مونتي بايتون "معنى الحياة" (شاهده من فضلك إذا لم تفعل بعد). إن مغالطة بيتهوفن الكبرى هي مثال نموذجي لشكل الفوضى المنطقية التي نغرق فيها عندما تمتلىء عقولنا بالأحكام الدينية المُطلقة.

لاحظ بأن "أنصار الحياة" هنا لا تعني بشكل ما نصرة الحياة بكل أشكالها على الإطلاق. بل إنها تعني نصرة الحياة الإنسانية فقط. إن المطالبة بحقوق خاصة فريدة من نوعها لخلايا الصنف (الانسان العاقل) يصعب أن تتفق مع واقع التطور. وهذا بالطبع لا يقلق المناهضين للإجهاض الذين لا يفهمون بأن التطور هو حقيقة واقعة! لكن دعوني باختصار أوضح الحجة للمناهضين للإجهاض والذين هم ربما أقل جهلاً بالعلم.

إن وجهة نظر التطور بسيطة جداً. إن الجزء الإنساني لخلايا الجنين لا يمكن أن تمنحها مركزاً أخلاقياً مُطلقاً. لا يُمكن ذلك بسبب تطورنا المُتواصل مع الشمبانزي، ومع الأكثر بُعداً، ومع كُل كائن حي على الكوكب. لفهم هذه النقطة، تخيّل بأن كائناً مُتوسطاً، ولنقل أوسترالوبيثيكوس أفارينيسيس، قد نجح بالبقاء وتمّ

اكتشافهُ في منطقة نائية من أفريقيا. هل يُعتبر هذا الكائن إنسانا أم لا؟ بالنسبة لشخص عواقبي مثلي، السؤال لا يستحق الإجابة لأن ذلك لن يغير شيئاً. يكفي أننا سننبهر ونتشرّف بلقاء "لوسي" جديدة. أما من جهة أخرى، فإن المؤمن بالأحكام المطلقة عليه أن يجيب على هذا السؤال ليستطيع أن يطبق المبادئ الأخلاقية الخاصة والتي تضمن مميزات خاصة وفريدة للبشر لأنهم بشر. وإذا احتاج الأمر، فإن هؤلاء المؤمنين بالأحكام المطلقة ربما سيحتاجون إلى محاكم، كما كان الحال في زمن التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، لتحديد إذا ما كان يجب اعتبار كائن مُعيّن إنساناً.

وحتى لو كان هُناكَ جواب واضح في حالة الأوسترالوبِثيكوس، فإن الاستمرارية المُتدرجة التي لا مهرب منها في التطور الطبيعي تقول لنا بأنه يجب أن يكون هنالك كائنٌ ما "متوسط" قريبٌ بشكل كافي "للحدود" بين الأنواع كي تصبح تلك المبادئ الأخلاقية غير واضحة وغير مُطلقة. الطريقة الأفضل هنا هي أن نقول بأنه ليس هُناكَ حدود طبيعية في التطور. الحدود الوهمية هذه تظهر بسبب أن أشكال الحياة المتوسطة في تأريخ التطور قد انقرضت. بالطبع، من الممكن الجدل في أن الإنسان لديه القدرة على المعاناة أكثر من أي كائن آخر. ويُمكن أن يكون ذلك حقيقياً فعلاً، وبالتالي يمكن أن نعطي الإنسان وضعاً خاصاً بسبب تلك القيمة. لكن استمرار التطور يرينا بأنه ليس هُناكَ فرق مُطلق. إن التطور يهدم بشكل صارخ التمييز الذي تمارسه الأحكام المُطلقة. إن الإدراك لتلك الحقيقة ليس هيناً، وربما إن الدافع الرئيسي للخلوقيين ليعارضوا التطور هو خوفهم مما يعتقدون بأنه النتائج الأخلاقية المترتِّبة عليه. إنهم مُخطئون بفعل ذلك، لكن على أيِّ حال، من المؤكّد أنه أمرٌ غريب أن نفكر بأن الحقيقة المتعلِّقة بالعالم الواقعي يمكن أن تتغير بأخذ الاعتبار لما هو مرغوب أخلاقياً.

كيف "الإعتدال" الديني يفتح الباب للتعصب

لتوضيح الجانب المظلم للأحكام المطلقة، أشرت إلى مسيحيي أمريكا الذين يفجِّرون عيادات الإجهاض، وطالبان في أفغانستان، الذين أجد أن لائحة قسوتهم، خصوصاً تجاه النساء، أكثر إيلاماً من أن تُحصى. كُنت أستطيع أن أتوسّع لإيران تحت حكم آيات الله، أو السعوديين تحت حكم أمراء سعود حيث لا يُسمح للنساء بقيادة السيارة، ويتعرّضْنَ للتعنيف لمجرد خروجهن من المنزل بدون مرافقة محرم من الأقارب (والذي قد يكون، كمثال لكرم الأخلاق، ولداً صغيراً ذكراً). جان غودْون في كتابه "ثمن الشرف"، يفضح المُعاملة المدمرة للمرأة في السعودية وفي دول دينية أخرى في زماننا هذا. جوهان هاري، أحد أنشط الكتَّاب في صحيفة الاندبندنت في لندن، كتب مقالاً عنوانه يشرح نفسه: "أفضل طريقة لتقويض الجهاديين هي دفع المرأة المسلمة للثورة"[132].

من جهة أخرى، بالعودة للمسيحية، أستطيع الاستشهاد بأؤلئك المسيحيين الأمريكيين "المُخَلَّصين" الذين نفوذهم القوي في السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط محكوم باعتقاداتهم الإنجيلية بأن إسرائيل لديها حق إلهي بكل أراضي فلسطين[133]. بعض هؤلاء المُنتشين يذهب لأبعد من ذلك تَوّقاً لحرب نووية حيث

يفسرونها على أنها "أرمجدون"[1] التي حسب تفسيرهم الغريب والمنتشر لدرجة مُقلقة لكتاب الوحي، سوف تُعجل القدوم الثاني للمُخلِّص. يشير سام هاريس في كتابه "رسالة الى أمة مسيحية" إلى المضاعفات الخطرة لمثل هذا الاعتقاد، والتي لا أحلم بأن أكتب أفضل منها:

" لهذا السبب فليس من المبالغة القول بأن نسبة لابأس بها من ألأمرَيكيين سينظرون بغمرة الى سحابة عش الغراب النووية إذا تحولت نيويورك مثلاً الى كرة من النار، هذا حسب مُعتقدهم، يشير إلى أنَّ أفضل ما يمكن أن يحصل هو على وشك الحصول: عودة المسيح. يجب أن يكون واضحاً تمام الوضوح بأن إيماناً بهذا الشكل لن يساعدنا في بناء مُستقبل متين إجتماعياً، واقتصادياً، وبيئياً، أو في الجغرافيا السياسية. تخيل العواقب لو أن مكوِناً معتَبَراً من الحكومة الأمريكية يؤمن فعلاً بأن العالم على وشك الإنتهاء، وأن نهايتهُ ستكون رائعة. أن الواقع بأنَّ حوالي نصف الأمريكيين يبدو أنهم يؤمنون بذلك، بناء على معتقد ديني بحت، يجب أن يعتبر ذلك حالة طارئة أخلاقياً وفكرياً".

إذن، هُناكَ أناس ممن يأخذهم إيمانهم الديني تماماً خارج حدود الإجماع الثقافي لأخلاق "روح العصر". إنهم يُمثِّلون ما أسميتهُ الجانب المُظلم من الأحكام الدينية المُطلقة، وغالباً ما يُسمّون بالمُتطرفين. لكن نقطتي في هذا الفصل هي في أن المُتدينين، وحتى المُعتدلين منهُم، يساعدون في تأمين جو الإيمان الديني الذي يزدهر فيه التطرف.

في تموز عام 2005، وقعت لندن ضحية لهجوم إنتحاري مُنظَّم: ثلاث قنابل في قطار الأنفاق، وواحدة في باص. لم يكن بنفس درجة السوء للهجوم على برجي مركز التجارة العالميين في 2001، ولم يكن غير متوقَّع -فبالتأكيد لندن أصبحت مهدَّدة بحادثة كتلك منذ اليوم الذي تبرّع فيه طوني بلير بنا نحن الرافضين كأصدقاء بوش في احتلال العراق- بالرغم من ذلك فإن تفجيرات لندن نشرت الرعب في كل بريطانيا. إمتلأت الصحف بتحليلات غير مُجدية عن الأسباب التي تدفع أربعة شباب لتفجير أنفسهم إلى أشلاء وقتل الكثير من الأبرياء معهم. القتلة كانوا مواطنين بريطانيين عاديين، يلعبون الكريكت ويتصرّفون بلطف، إنهم تماماً ذلك النوع من الشباب الذين يستمتع المرء بصحبتهم.

لماذا فعل أؤلئك الشباب محبي الكريكت فعلتهم هذه؟ على النقيض من نظرائهم الفلسطينيين، أو الكاميكاز في اليابان، أو نمور التاميل في سريلانكا، هؤلاء القنابل البشرية لم يكن لديهم توقُّعات بأن عائلاتهم الثَّكْلى سيَحتفى بها، أو يُهتَمّ بها، أو أنها ستعيش على تقاعد الشهيد. على العكس، فبعض أقاربهم كان عليهم الهروب والاختباء. أحدهم رمّلَ زوجته الحامل، ويَتَّمّ طفلهُ الرضيع بشكل تعسّفي مُتعمّد. إن تصرف هؤلاء الشباب الأربعة لا يُمكن أن يوصف بأقل من أنه كارثي، ليس فقط لهم ولضحاياهم، بل لعائلاتهم ولكل الجالية المُسلمة في بريطانيا، والتي يجب عليها الآن مواجهة ردة الفعل. الاعتقاد الديني

1 . أرمجدون، أو هرمجدون، هي كلمة جاءت من العبرية هار-مجدون أو جبل مجدو، حسب المفهوم التوراتي هي المعركة الفاصلة بين الخير والشر، أو بين الله والشيطان، وتكون على إثرها نهاية العالم. (المترجم)

حصراً لديه قوة كافية ليدفع شخصاً سليماً ومُحترماً بشكل عام إلى مثل هذا الجنون التام. ومرة أخرى، سام هاريس يتناول هذه النقطة بصراحة مُتبصِّرة آخذاً أسامة بن لادن قائد منظمة القاعدة كمثال (والذي بالمناسبة ليس له علاقة بتفجيرات لندن) ويشرح الموضوع بوضوح رائع. ما الذي يدفع أي شخص لتدمير مبنى مركز التجارة العالمي وكل من فيه؟ إن وصف بن لادن بـ(الشرير) هو مُحاولة للتهرب من مسؤوليتنا في الإجابة اللائقة عن سؤال مهم كهذا.

> "إن الاجابة على هذا السؤال واضحة، حتى ولو كانت فقط قد طُرِحَت بوضوح تام لدرجة الغثيان من بن لادن نفسه. الإجابة هي في أن رجالاً أمثال بن لادن يؤمنون حقيقة بما يقولون بأنهم يؤمنون به. إنهم يؤمنون بحقيقة القرآن حرفياً. لماذا يستبدل تسعة عشر شخصاً مثقَّفاً من الطبقة الوسطى حياتهم في هذا العالم لنيل شرف قتل الآلاف من جيراننا؟ ببساطة لأنهم يؤمنون بأنهم سيذهبون مباشرة إلى الجنة بعملهم هذا. من النادر الحصول على مثل هذا التفسير المُرضي والتام لسلوك بشر. لماذا نحن متردِّدون في قبول هذا التفسير؟"[134]

الصحفي المُحترم موريل غراي، الذي يكتب في صحيفة هيرالد في مدينة غلاسكو، كتب في 25 تموز 2005 شيئا مماثلاً، في هذه الحالة كان الحديث عن حادثة لندن.

> "لقد ألقي اللوم على الجميع، بدأً بثنائي الشرّ جورج بوش الابن وطوني بلير، إلى تقاعس (الجالية) المُسلمة. لكن الموضوع لم يكن أكثر وضوحاً مما هو عليه الآن بأن هُناكَ مكاناً واحداً لإلقاء اللّوم، وهكذا كان دائماً. إنَّ سبب كل هذا البؤس، والفوضى، والعنف، والإرهاب، والجهل، هو بالطبع الدين بنفسه، وحتى لو بدا من السخف أن نوضح شيئا بديهياً كهذا، فإن الحقيقة أن الحكومة والإعلام ماهران جداً بالتظاهر بأن الأمر ليس كذلك".

سياسيونا الغربيون يتفادون الإشارة للدين، وبدلاً عن ذلك يصفون حربهم بالحرب ضدَّ (الإرهاب)، كما لو أن الإرهاب هو نوع من روح أو قوة بإرادة وعقل خاصّين بها. أو إنهم يصفون الإرهابيين كما لو أنهم مدفوعون بـ "شرّ" خالص. ولكنهم ليسوا مدفوعين من قبل الشرّ. مهما كنا نظن بأنهم مخدوعون، فإنهم مدفوعون، كما المسيحيين الذين يقتلون أطباء الإجهاض، بما يعتقدون بأنه الحق، ويفعلون بصدق ما يقولهُ دينهم لهم. إنهم ليسوا مجانين، بل هم مُتدينون مثاليون، ومن وجهة نظرهم، عقلانيون. ينظرون إلى تصرفاتهم على أنها صالحة، ليس بسبب نظرة شخصية مشوّهة للواقع، وليس بسبب أن الشيطان قد تلبّسَهم، بل لأنهم قد تربّوا، من المهد، كي يكون لهم إيمان ديني كامل بدون تساؤل. سام هاريس يقتبس من إنتحاري فلسطيني فشل بتفجير نفسه قوله بأن ما دفعه لقتل الإسرائيليين هو (حُبهُ للشهادة... لم أطمح للانتقام لشيء. فقط أردتُ أن أصبح شهيداً). في 19 تشرين الثاني 2001، نشرت صحيفة النيويوركر مُقابلة أجراها نصرا حسن مع إنتحاري آخر فشل في محاولته، شاب فلسطيني مؤدَّب عمرهُ 27 سنة رمِزَ

له بـ(س). إن بلاغتهُ في وصف سحر الجنة بشاعرية كما بُشِّرَ بها من قِبَل الزعماء الدينيين المُعتدلين والمدرِّسين جعلني أفكر بأنها تستحق أن أعطيها هنا مساحة أكبر قليلاً:

"سألتهُ، ما هي الجاذبية في الشهادة؟
أجاب إن قوة الروح تجذبنا للأعلى، بينما قوة المادة تجذبنا للأسفل، واسترسل قائلاً إن المُصمِّم على الشهادة يصبح منيعاً ضد جاذبية المادة. مُخطط العملية سألنا ماذا لو فشلت العملية؟، فقلنا له إنه مهما حصل، فإننا اليوم سنقابل النبي والصحابة إنْ شاء الله".

ثم أكمل: "لقد كنا نحلِّق ونسبح في الشعور بأننا سندخل الأبدية حالاً. لم يكن لدينا أي شك. أقسمنا على القرآن وأمام الله قسماً لا عودة عنه. هذا القَسم الجهادي يُدْعى بيت الرَضوان، وسُمِّي على اسم حديقة في الجنة مُخصّصة للأنبياء والشهداء. أعرف بأن هُناكَ طرقاً أخرى للجهاد. ولكن هذه حلوة، بل أحلاها. كُل العمليات الاستشهادية عندما تتمّ في سبيل الله فإن ألمها أقلّ من عضة بعوضة".

(س) عرض عليّ الشريط الذي وثَّق المُخططات النهائية للعملية. في هذا الفيلم المغبّش رأيته مع اثنين آخرين في حوار ديني بأسئلة وأجوبة حول مجد الشهادة....

بعد ذلك ركع الشباب، ومعهم قائد العملية، ووضعوا يدهم اليمنى على القرآن. المخطِّط قال: (هل أنتَم جاهزون؟ غداً ستكونون في الجنة)"[135].

لو كنت أنا (س) فستعتريني الرغبة بأن أسأل قائد العملية: "حسناً، في هذه الحالة، لماذا لا تقف عند كلمتك؟ لماذا لا تؤدي العملية الانتحارية بنفسك وتأخذ أسرع الطرق للجنة؟". ما هو عصيّ على فهمنا، وأكرر النقطة لأنها مهمة جداً؛ إنَّ هؤلاء الناس يؤمنون فعلاً بما يقولون إنهم يؤمنون به. ما يجب أن نفهمهُ هو أنهُ علينا أن نلوم الدين نفسه، وليس "التطرف" الديني كما لو أنه صنف مُرعب من النشوز عن الدين الحق والمُسالم. لقد أصاب فولتير كبد الحقيقة من زمن بعيد: "هؤلاء الذين بإستطاعتهم أن يدفعوك للتصديق باللامعقول، يستطيعون دفعك لارتكاب الأعمال الوحشية"، وأيضاً بيرتراند راسل: "الكثيرون من الناس يفضلون الموت على التفكير، وهم يموتون فعلاً".

طالما أننا نتقبّل بأنهُ يجب علينا احترام الإيمان الديني فقط لأنه إيمان ديني، فسيكون من الصعب علينا أن نستثني إيمان أسامة بن لادن والانتحاريين من هذا الاحترام. البديل بديهي لدرجة لا يحتاج التوضيح، إهمال مبدأ الاحترام التلقائي للإيمان الديني. هذا سبب من الأسباب التي تجعلني أفعل كُل ما بوسعي لأحذِّر الناس ضدَّ الإيمان الديني بحد ذاته، وليس فقط ضد ما يسمى الإيمان "المتطرف". إن تعاليم الدين "المعتدل" برغم أنها ليست متطرفة بحد ذاتها إلا أنها دعوة مفتوحة للتطرف.

قد يقول قائل بأنه ليس هناك شيء مميّز حول الإيمان هنا. حُبّ الوطن أو المجموعة العرقية يُمكن أن تكون مهداً لنوعها الخاص من التطرف، أليس كذلك؟ نعم، يمكنها ذلك، كما حصل مع الكاميكاز اليابانيين، ونمور التاميل السريلانكيين. ولكن الإيمان الديني هو مبيد فعّال لكل أنواع المنطق العقلاني والذي يتفوّق عادةً على كُل الأشكال الأخرى. ذلك غالباً بسبب الوعود البسيطة والخادعة بأن الموت ليس هو النهاية، وأن هُناكَ جنة خاصة للشهداء بِمُتَعٍ إضَافية. وكذلك لأن الإيمان بطبيعته لا يشجِع أي شك او تساؤل.

المسيحية تماماً كالإسلام، تُعَلِّم الأطفال بأن الإيمان دون سؤال هو فضيلة. لا يجب عليك أن تبرهن على ما تؤمن به. عندما يُعلن أحد ما بأن شيئاً ما هو جزء من مُعتقده الديني، فإن بقية المجتمع، سواء كان مؤمناً بنفس الشيء أو بشيءٍ مُختلف، أو حتى بلا شيء، فهو مجبَر وبشكل مزوعٍ فينا، على "احترام" ذلك بدون أي سؤال؛ يحترمه إلى أن يأتي الوقت الذي يكشف فيه عن نفسه بمجزرة مُرعبة، كما في تدمير برجي مركز التجارة العالمي أو تفجيرات لندن أو مدريد. عندئذ سنسمع جوقة عظيمة من النقّاد، كرجال الدين وقادة الجاليات (بالمُناسبة، من الذي انتَخبهم؟) يصطفّون لشرح أن هذا التطرف هو تشويه للدين "الحقيقي". لكن كيف يمكن أن يكون هُناكَ تشويه للدين عندما الدين نفسهُ مُفتقراً لقاعدة ثابتة للتعريف بأن كل ما يخالفها يصبح نشوزاً و تشويه؟

منذ عشر سنِين ذكر ابن وراق[1]، في كتابه المُمتاز "لماذا أنا لستُ مسلماً"، نقطة مُشابهة من وجهة نظر دارسٍ مثلهُ مُتعمِّق بالإسلام. البديل الجيد لعنوان الكتاب ممكن أن يكون "أسطورة الإسلام المُعتدل"، والذَي هو عنوان حقيقي لمقال أحدث في مجلة سبكتايتور في لندن 30 تموز 2005، كتبه دارس آخر هو باتريك سوكديو، مدير مؤسسة الدراسات الإسلامية والمسيحية. "غالبية المُسلمين يعيشون حياتهم اليوم بدون اللجوء للعُنف، إذ أن القرآن خليط من كل شيء، لو أردتَ السلام، فهُناك آيات مُسالمة، ولو أردتَ الحرب، فستجد آيات جهادية".

سوكديو يشرح كيف طوّر عُلماء الإسلام في محاولة للإلتفاف حول التناقضات العديدة في القرآن، مبدأ الناسخ والمنسوخ، حيث أن النصوص المُتأخِّرة تنسخ النصوص المُبكرة. للأسف فإن الآيات السلمية في القرآن مُعظمها كان في المرحلة المبكرة، وتأريخها يعود إلى الوقت الذي كان فيه مُحمد في مكة. والآيات العدائية تأريخها مُتأخِّر، بعد نزوحهِ إلى المدينة. والخلاصة هي:

> "سحر كلمة "الإسلام سلام" بطلت منذ حوالي 1400 سنة. فقط لمدة 13 عاماً كان الاسلامُ سلاماً ولا شيء غير السلام... لكن بالنسبة للمُسلمين المُتعصبين -كما هو الحال عند مُشرَعي القرون الوسطى والذين طوّروا الإسلام التقليدي- فإنه من الأصحّ أن يُقال "الإسلام هو الحرب". أحد تلك الأحزاب الإسلامية الأكثر تعصّباً في بريطانيا، "الغرباء"، أكَّد بعد تفجيرات

1 . ابن ورّاق ولد عام1946 ، هو اسم القلم لمؤلف علماني من أصل باكستاني ومؤسس المعهد العلماني للمجتمع المسلم INSTITUTE FOR THE SECULARISATION OF ISLAMIC SOCIETY، كما أنه عضو في زمالة البحوث العليا في مركز التحقيق والبحث CENTER FOR INQUIRY ، حيث يركِّز في دراساته على النقد القرآني. (المترجم).

لندن أنَّ "أي مُسلم لا يعترف بأن الإرهاب هو جزء من الإسلام يُعتبر كافراً"، والكافر هو غير المؤمن (أي غير المسلم)، وهي كلمة تُعتبر إهانة كبيرة للمُسلم.

هل يمكن أن يكون الشباب الذين نفَّذوا العمليات الانتحارية ليسوا من هامش المُجتمع الإسلامي في بريطانيا، ولا يتبعون تفسيراً غريباً ومُتعصباً لإيمانهم، لكنهم حقيقة جاؤوا من صميم المُجتمع الإسلامي وكانوا مدفوعين من التفسير الشائع للإسلام؟".

بشكل عام، (وهذا ينطبق على المسيحية تماماً كما هو الحال مع الإسلام)، إن الخبيث والضارّ حقاً هو أن الأطفال يتمّ تلقينهم بأن الإيمان بحد ذاته فضيلة. إن الإيمان تحديداً شرّ لأنه لا يتطلَّب أي تبريرات ولا يتحمل أدلة مضادّة. إن تدريس الأطفال بأن الإيمان بدون سؤال فضيلة بحد ذاته يوفِّر أرضاً خصبة - وبوجود عناصر أخرى ليس من الصعب توفيرها- كي يصبحوا أدوات قتل جاهزة للحروب الجهادية أو الصليبية في المُستقبل. إن المناعة ضد الخوف بسبب الوعود بجنة الشهداء تجعل من الإيمان الديني يستحق مكانة عالية في تأريخ السلاح، جنباً الى جنب مع القوس، والخيل، والدبابة، والقنبلة العنقودية. لو دُرِّسَ الأطفال بأن يتساءلوا ويفكِّروا بما يؤمنون به، بدلاً من تعليمهم أن الإيمان بدون سؤال هو من أسمى الفضائل، فلن يكون هُناكَ على الأرجح انتحاريون. الانتحاريون يفعلون ما يفعلونه لأنهم يؤمنون حقيقةً بما تعلَّموه في مدارسهم الدينية: بأن واجباتهم تجاه الله تسبق كُل الأولويات الأخرى، وأن الشهادة في سبيله ستكافأ بجنة الفردوس. وليس من الضروريّ أن يكونوا قد درسوا هذا على يد مُتطرَف مُتعصِب، بل ربما رجل مُحترم ولطيف، مدرِس دين عادي أجلسهم في الصف وعلمهم وهم يهزون رؤوسهم البريئة بشكل إيقاعي، بينما يتعلمون كُل كلمة من كتابهم المُقدس كالببغاوات. الإيمان يُمكن أن يكون خطيراً جداً، وزَرعُه بشكل مدروس في عقول الأطفال البريئة السهلة المنال خطأ جسيم. إلى الطفولة نفسها وانتهاك حقوق الطفولة باسم الدين، ننتقل إلى الفصل التالي.

الفصل التاسع

الطفولة

وسوء المعاملة والهرب من الدين

هناك في كُل قرية شعلة - المعلم

و هناك من يطفأها - رجل الدين

فيكتور هوغو

سأبدا بقصة قصيرة من القرن التاسع عشر في إيطاليا. لا أقصد هنا بأن قصة مرعبة كهذه يمكن أن تحصل اليوم. لكن الموقف العقلي الذي تنبئنا عنه لا يزال متداولاً للأسف، حتى وإن كانت التفاصيل العملية ليست كذلك. إن تلك المأساة الإنسانية من القرن التاسع عشر تلقي الضوء وبدون رحمة على المواقف الدينية الحالية للدين حيال الأطفال.

عام 1858، تمّ أخذ إدغاردو مورتارا، طفل في السادسة من العمر لأبوين يهوديين يعيشان في بولونيا، عنوة وبالقانون من الشرطة البابوية بأمر من محاكم التفتيش. إدغاردو تمّ أخذه بالقوة من أمه التي تشهق بالبكاء وأبيه المذهول الى بيت التنصير (بيت مُخصص لتحويل المسلمين واليهود للمسيحية) في روما، ومن وقتها نشأ كرومي كاثوليكي. باستثناء بضعة زيارات تحت مراقبة شديدة من القساوسة، لم يستطع أهله رؤيته أبداً. القصة رواها دايفيد كَرِتْزِر في كتابه الرائع "اختطاف ادغاردو مورتارا".

قصة ادغاردو لم تكن بشكل من الأشكال غير عادية في إيطاليا وقتها، والسببِ لهذه الاختطافات الرهبانية كان نفسهُ دائماً. في كُل حالة من الحالات كان يتمّ تعميد الطفل بشكل سرّي في وقت مبكر، عادة من قبل مربية كاثوليكية، وتأتي لاحقاً محاكم التفتيش الكنسية لتسمع بالتعميد[1]. لقد كان من أحد الأمور المركزية في الإيمان الرومي الكاثوليكي وقتها، أنه بمجرد تعميد الطفل، مهما كانَ غير رسمي أو سري، فإن الطفل قد تحوّل بلا رجعة للمسيحية. في عالمهم، فإنه من غير المعقول السّماح لـ "طفل مسيحي" بالبقاء مع أبوين يهوديين. استمرّوا في هذا الموقف الغريب والقاسي بثبات وبكل إخلاص، بالرغم من الغضب الذي واجهه على نطاق العالم. ذلك الغضب المنتشر على نطاق عالمي قد رفضته الصحيفة الكاثوليكية "سيفيلتا كاتوليكا" وعزتهُ للسلطة العالمية لليهود الأغنياء؛ الاتهام يبدو مألوفاً، أليس كذلك؟

بغض النظر عن الشهرة التي سبّبَتها، فإن قصة ادغاردو مورتارا برمّتها قصة نموذجية للكثير غيره. كانت قد تولَّت رعايته مرةً آنا موريسي، فتاة أُمِّيّة كاثوليكية كانت في الرابعة عشر من عمرها آنذاك. مرض حينها الطفل، وأصيبت الفتاة بالفزع لخوفها من أن يموت. وبما أنها تربّت على الإيمان الأعمى بفكرة أنَّ الطفل الذي يموت بغير معمودية سيعاني في جهنم للأبد، فقد سألت النصيحة من جار كاثوليكي الذي علَّمها كيفية تعميده. فعادت إلى المنزل ورشَّت بعض الماء من سطل على رأس الطفل ادغاردو، وقالت: "أعمِّدُكَ بإسم الأب والإبن والروح القدس". وهذا كان كُلُّ شيء. مُنذ تلك اللحظة، أصبح ادغاردو مسيحياً بشكل رسمي. بعد أعوام، عندما سمع قساوسة محاكم التفتيش الكنسية بالحادثة، تصرّفوا فوراً، وبشكل حاسم، ودون أي تفكير بالنتائج المأساوية لتصرفهم.

من المدهش بأن الكنيسة الكاثوليكية سمحت بأن يقوم أيّ كان بطقس كهذا يمكن أن يؤثر بشكل عظيم على عائلة كاملة، فالكنيسة سمحت (ولاتزال تسمح) بأن يُعمّد أيَ شخص من قِبَل أي شخص آخر. المعمدانَ لا يجب أن يكون قسيساً. لا يحتاج الأمر موافقة من الطفل، أو من أيٍ منَ أفراد عائلته، أو أي أحد آخر. لا شيء للتوقيع. ولا يحتاج الأمر لأيٍّ شهود. كُل ما هو ضروري رشة من الماء، وبعض الكَلمات،

1 . المعمودية هي طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية. تتمثل المعمودية باغتسال المتعمّد بالماء بطريقة أو بأخرى. (المُترجم).

وطفل لا حيلة له، ومربِّية مغسولة الدماغ بالغيبيات. الواقع، أن تلك الأخيرة هي الوحيدة الضرورية، فبافتراض أن الطفل صغير جداً ليعرف ما الذي يحدث، فمن سيدري بالأمر؟ إحدى الزميلات الأمريكيات التي تربّت على الكاثوليكية كتبت لي ما يلي: (كنا نُعمِّد ألعابنا. لا أذكر أنَّ أحداً منَّا عمّدَ أحد أصدقائنا البروتستانتيين، ولكني متأكدة من أنَّ ذلك قد حصل ويحصل اليوم. لقد جعلنا من ألعابنا كاثوليكيين صغاراً، وأخذناهم للكنيسة، وعملنا لهم مناولة الخ. لقد تمّ غسل أدمغتنا لنصبح أمهات كاثوليكيات صالحات في وقتٍ مبكّر جداً).

لو أن فتيات القرن التاسع عشر كنَّ مثل زميلتي كاتبة الرسالة، فإنه من المفاجئ بأن قضايا مثل إدواردو مورتارا لم تكن شائعة أكثر مما كانت فعلاً. مثل هذه القصص كانت شائعة بشكل مزعج في إيطاليا القرن التاسع عشر، والتي تتركنا مع السؤال البديهي: لماذا استخدم اليهود في دولة الباباوية بنات كاثوليكيات كخادمات مع العلم بالمخاطر المترتِّبة على ذلك؟ لماذا لم يحرصوا على توظيف مُستخدَمة يهودية؟ الجواب، مرة أخرى، ليس لهُ علاقة بالمنطق، بل متعلق بالدين كلياً. اليهود احتاجوا خادمات ممن لا يمنعهم دينهم من العمل يوم السبت. من الممكن ضمانة أن الخادمة اليهودية لن تقوم بتعميد طفلك لينتهي في ملجأ الأيتام الروحي، لكنها لن تشعل ناراً أو تنظف بيتاً يوم السبت. ولهذا السبب، فإن معظم العائلات اليهودية التي تستطيع تأمين خادمة في بولونيا الإيطالية في ذلك الزمن، إختارت الكاثوليكيات لهذا العمل.

في هذا الكتاب تعمّدتُ غض الطرف عن ذكر تفاصيل الرّعب الذي ارتكبه الصليبيون ومحاكم التفتيش الأسبانية. الأشرار والقساة موجودون في جميع الأديان، وفي كُل زمان ومكان. لكن هذه القصة عن المحاكم الإيطالية وموقفها حيال الأطفال مثال عملي يكشف لنا العقل الديني والشرّ الذي ينتج عنه، بالأخصّ لأنه ديني. أولاً الاعتقاد الديني الغريب بأن رشة ماء وبعض الأدعية يُمكن أن تغيِّر حياة الطفل بشكل كليّ، دون احترام رغبة الأهل، أو موافقة الطفل نفسه، أو سعادته وصحته العقلية... بل بدون أدنى احترام لكُل ما يمليه المنطق العادي وما يراه الشعور الإنساني مهمّاً. الكاردينال آنتونيللي قالها علناً حينها في رسالة الى ليونيل روتشيل، أول عضو برلمان يهودي في بريطانيا، والذي كتب مُحتجّاً على قضية اختطاف ادغاردو. أجاب الكاردينال بأنه لم يستطع التدخل، وأضاف: "ربما تلك فرصة للإشارة الى أنه وإن كان صوت الطبيعة قوياً، فإن صوت الواجبات الدينية المُقدسة أقوى". وبهذه الجملة، فإن واجبه تجاه هذه القضية قد انتهى أليس كذلك؟

ثانياً، الحقيقة غير العادية حيث أن القساوسة والكاردينالات والبابا، يبدون بشكل حقيقي أنهم لم يفهموا مدى الأذى الذي تسببوا به للمسكين إدغاردو مورتارا. ذلك يتجاوز قدرتنا على الفهم، لكنهم يؤمنون بصدق بأنهم يفعلون الخير لهُ بأخذه من أهله واعطائه تربية مسيحية. يبدو وكأنهم يشعرون بواجب الحماية تجاههُ! إحدى الصحف الأمريكية الكاثوليكية دافعت عن موقف البابا في قضية مورتارا، وقالت بأنهُ من غير المعقول في بلد مسيحي أن يتم (ترك طفل مسيحي ليربيه يهودي)، ونادت هنا بمبدأ الحرية الدينية، "حرية الطفل في أن يكون مسيحياً دون إلزامه بأن يكون يهودياً...حماية الأب المُقدس للطفل في وجه كُل شراسة تطرف الكفار والمتعصبين، هو المثال الأكبر للأخلاقيات التي لم يرَ مثلها العالم منذ أجيال".

هل يوجد تضليل فاضح لاستعمال كلمات مثل (إلزام)، و (شرس)، و (متطرف)، و (متعصب)، أكثر من ذلك؟ رغم ذلك، فكل المؤشِّرات تشير إلى أن المُؤمنين الكاثوليكيين، من البابا ونزولاً، يؤمنون بصدق بأن ما يفعلونهُ صحيح: أخلاقي بشكل مطلق، ومهم لسلامة الطفل. تلك هي سلطة (الأغلبية "المعتدلة") الدين التي تطغي على الحكم المنطقي وتشوه الأخلاق الإنسانية. إن صحيفة "إلْكاتوليكو" صرّحت بحيرتها حول السبب الذي يجعل الغالبية تفشل في رؤية حجم المعروف الذي أسدته الكنيسة لإدغاردو مورتارا عندما أنقذته من عائلته اليهودية:

> "لو أن أيّاً منّا فكَّر بالأمر بقليل من الجدية وقارن ظروف اليهود: بدون كنيسة حقيقية، وبدون ملك، وبدون وطن، مُتفرقين ويُعتبرون غرباء أينما كانوا على وجه الأرض، بل أكثر من ذلك، مكروهين أيضاً للوصمة البشعة التي تلاحقهم كقتلة المسيح... سيفهم فوراً الميزة الكبيرة التي مَنَّ البابا بها على مورتارا الصبي".

ثالثاً، الغطرسة والوقاحة حيث أن الأشخاص المُتديِّنين يعرفون، وبدون أي دليل، أن الإيمان الذي وُلدوا عليه هو الإيمان الوحيد الصحيح، وكل المعتقدات الأخرى هي انحرافات أو بكل بساطة مزيفة. إن الاقتباس أعلاه يُعطينا مثالاً حيّاً عن موقف الجانب المسيحي. وربما يبدو من الجَوْر أن نساوي بين الطرفين في هذه القضية، لكن الوقت مُناسب لنلاحظ بأن عائلة مورتارا كانت لتستطيع استرداد إدغاردو بنفس الوقت لو أنهم قبلوا بعرض القساوسة ووافقوا على أن يتعمّدوا هم أنفسهم. لقد أختُطِفَ ادغاردو بالأساس بسبب رشة ماء وبضع كلمات بلا معنى. تلك هي حماقة العقول المُلقَّنة بالدين، رشَتان من الماء هما كُل ما كان يحتاجه الموقف كي تعود الأمور لمجاريها. رفض الأهل، بالنسبة للبعض منا، يشير إلى عناد غاشم. بالنسبة لآخرين، يعتقدون بأن التزامهم المبدئي يدخلهم في لائحة الشهداء الطويلة لكل الأديان عبر الأجيال.

(لتكن مُطمئناً سيد ريدلي كن رجلاً: بإذن الله سنشعل شمعة بيومنا هذا في إنكلترا وثق بأنها لن تُطفأ أبداً). لا شك بأن هُناكَ أسباباً تجعل الموت في سبيلها نُبْلاً. لكن كيف تسنّى للشهداء ريدلي، ولاتيمر، وكرانمر، أن يتركوا أنفسهم يُحرقون بدلاً عن ترك التزامهم بالأقلية البروتستانتية لمصلحة الأكثرية الكاثوليكية - هل لها معنى حقيقي من أي طرف تؤكل البيضة المسلوقة؟ هكذا يكون الاعتقاد العنيد، أو المثير للإعجاب إذا كنت تعتقد ذلك، للعقل الديني، لدرجة أن الزوجان مورتارا لم يستطيعا أن يستغلَّا الفرصة المعروضة عليهما والمتمثلة بطقس التعميد التافه. ألم يكن بإستطاعتهما الضغط على أنفسهما والهمس بكلمة (لا) أثناء تعميدهما؟ لا، لم يكن بمقدورهما، وذلك لأنهما تربّيا في وسطٍ مُتديِّن (مُعتدل) وأخذا التمثيلية السخيفة بشكل جادّ. بالنسبة لي، أعتقد بأن المسكين ادغاردو الصغير، وُلد بدون رغبته في عالم يسيطر عليه الفكر الديني، لا حول له وسط جبهات مُختلفة، حُرِم من أبويه من خلال فعلٍ تمّ بنيّةٍ طيبة، لكن مُضاعفاته كانت شديدة القسوة لطفل صغير بمثل عمره.

رابعاً، ولنتابع في الموضوع ذاته، الافتراض بأن طفلاً في السادسة من عمره يمكن أن يقال عنهُ بأن لهُ دين على الإطلاق، سواء كان يهودياً، أو مسيحياً، أو أي شيء آخر. إن فكرة تعميد طفل بدون علمه أو فهمه

للموضوع يستطيع تغييره من دين لآخر في لحظات يبدو سخيفاً، لكن ليس أسخف من وَسْمِ طفل بأيٍّ من الأديان في المقام الأول. ما كان مُهمّاً في حالة ادغاردو لم يكن (دينه) - لأنه كان صغيراً جداً ليمتلك رأيهُ الديني الخاص، بل الحبّ والاهتمام من أبويه وأهله الَّذان حُرِمَ منهما بسبب قساوسة يعيشون البتولية، أولئك الذين كانت قسوتهم الفظيعة مخفَّفة ببلادة إحساسهم وعدم فهمهم لشعور الإنسان الطبيعي؛ تلك القسوة التي تأتي بسهولة لنفوس اختطفها الإيمان الديني.

حتى بدون الاختطاف الجسدي، أليس نوعاً من سوء معاملة الطفل أن نفرض على الأطفال بأن لديهم معتقدات هم في الحقيقة أصغر من أي يتفكَّروا بها بأنفسهم؟ رغم ذلك، فإن تلك الممارسة تستمرّ حتى يومنا هذا، وتقريباً بدون أي استغراب. التساؤل عن هذا الموضوع بالذات هو هدفي الأساسي في هذا الفصل.

سوء المعاملة الجسدية والنفسية

عندما نتحدث عن اعتداء الكهنة على الأطفال، يتصوّر الكثيرون في أيامنا هذه بأننا نتحدث عن اعتداء من نوع جنسي، وأشعر بأني مجبر من البداية على أن أضع موضوع الاعتداء الجنسي في مكانه الصحيح أولاً ثم تركهُ جانباً. آخرون لاحظوا بأننا نعيش في زمن هستيري فيما يتعلق باستغلال الأطفال جنسياً (الغلمانية)[1]، هذه الهستريا الجماعية تذكرنا بشكل أو بآخر بظاهرة مطاردة الساحرات في مدينة سالم في أمريكا عام 1962. في تموز عام 2000، نظمت صحيفة "أخبار العالم"، التي تُعتبر، برغم المنافسة، الصحيفة الانكليزية الأكثر إثارة للقرف، نظَّمت حملة أطلقت عليها اسم "اسمٍ وعارٍ"، والتي قامت بما يشبه تحريض الناس على الهجوم على الغلمانيين. وهوجم منزل طبيب للأطفال من قِبل متطرفين لا يعرفون الفرق بين طبيب الأطفال والغلماني (Pediatrician و Pedophile)[136]. الغوغاء الهستيرية ضدَّ الغلمانيين وصلت لأبعاد وبائية، والأهالي شعروا بالرعب. إن الأطفال اليوم ممنوعون من حرية التجوّل بحرية كالتي كانت من مُتع الطفولة في الماضي (عندما كان خطر التحرّش الفعلي ربما ليس أقل من الخطر الموجود حالياً).

لإنصاف صحيفة "أخبار العالم"، ففي الوقت الذي طرحتُ فيه تلك الحملة، كانت المشاعر متأجِّجة بسبب جريمة مروِّعة حقاً، وبدافع جنسي، أرتُكِبَت بحق طفلة في الثامنة أختُطِفَت في مقاطعة ساسكس. بالرغم من ذلك، فإنه من غير العدل بشكل واضح معاقبة كُل الغلمانيين بانتقامٍ ملائمٍ للقلة، الذين هم، إضافة لشذوذهم، قَتَلة. المدارس الداخلية الثلاث التي درستُ فيها كان يعمل فيها أساتذة مودَّتهم للأولاد الصغار تتعدَّى حدود المسموح به. وهذا في الحقيقة كان يجب أن يكون داعياً للتعنيف. رغم ذلك، لو أنهم، وبعد خمسين عاماً، طورِدوا من قِبَل مُراقبين أو مُحامين على أنهم ليسوا أفضل من قتلة الأطفال، سأكون

---

1 . الغلمانية، أو الاشتهاء والوَلَعُ بالأطفال (Pedophilia)، من الاضطرابات الجنسية، يتميز هذا الاضطراب بوجود خيالات جنسية مثيرة مرتبطة بالأطفال غير البالغين الذين تقل أعمارهم عن 13 سنة . (المترجم).

مجبراً كي أدافع عنهم، حتى وإن كنتُ ضحية أحدهم في وقتِ ما (موضوع محرج، فيما عدا ذلك كانت تجربة عديمة الأذى).

لقد حملت الكنيسة الكاثوليكية حملاً ثقيلاً من الخزي ذي الأثر الرّجعي. أنا لا أحبّ الكنيسة الرومية الكاثوليكية لأسباب عديدة، لكنني لا أحبّ الظلم بدرجة أكبر. ولا أستطيع إلاَّ التساؤل عما إذا كانت تلك المنظمة قد تحمّلت سوء السّمعة بشكل غير عادل فيما يتعلق بهذه القضية، وخصوصاً في أيرلندا وأمريكا. أفترض أنَّ استياءَ إضافياً نتج بشكل كبير من الكهنة المنافقين الذين حياتهم الوظيفية مكرّسة بصورة عامة في إثارة الشعور بالذنب حول "الخطيئة". بعد ذلك تأتي الخيانة للثقة من قبل شخص ذي سلطة، والذي تدرّب الطفل على توقيره منذ نعومة أظافره. هذه الأسباب الإضافية للإستياء يجب أن تجعلنا أكثر حذراً في المسارَعة بالحكم. كذلك علينا أن ندرك مدى قدرة العقل على إعداد ذكريات مزيّفة، خصوصاً عندما يكون قد حُرِضَ عليها من قِبَل مُعالجين عديمي الضمير، ومُحامين جشعين مأجورين. إن العالمة النفسية اليزابيت لوفتوس أبدت شجاعة عظيمة في وجه المصالح الشخصية الخبيثة، وذلك في شرحها كم هو من السهل لأشخاص أن يخترعوا ذكريات كاذبة تماماً بالرغم من أنها تبدو بالنسبة للضحية وكأنها ذكريات حقيقية[137]. هذا مضادٌّ بشكلٍ صارخ للحدس، حيث القضاة وهيئة المحلَّفين يتأثّرون بسهولة بشهادة صادقة من الشهود، لكنها بالرغم من ذلك مزيّفة.

في تلك الحالة الخاصة في أيرلندا، حتى لو لم يكن هُناكَ إيذاء جنسي، فإن عنف الإخوان المسيحيين[138]، المسؤولين عن تعليم قسم كبيرٍ من ذكور البلد، هو عنفٌ أسطوري. الشيء نفسه يمكن أن يُقال عن الراهبات الساديّات اللَّواتي يُدِرْنَ العديد من مدارس البنات في آيرلندا. ملاجئ المجدلية سيئة الصيت، التي كانت موضوع فيلم بيتر مولان "الأخوات المجدليات"، استمرت بالوجود حتى عام 1996. بعد أربعين عاماً، يكون من الأصعب أن تأخذ تعويضاً عن الجلْد من أن تأخذ تعويضاً عن مداعبة جنسية، ولا يوجد نقص في المحامين الناشطين في البحث عن الضحايا الذين ربما ما كانوا ليأبهون بالماضي البعيد. هناك ذَهَبٌ في ذلك التحرّش الجنسي الذي حدث في حجرات الإجتماعات الكنسية منذ زمن بعيد، بعضها حدث فعلاً منذ فترة بعيدة جداً، لدرجة أنَّ المُدَّعى عليه قد مات على الأغلب ولا يمكنه أن يعرض القصة من وجهة نظره. الكنيسة الكاثوليكية على النطاق العالمي دفعت أكثر من مليار دولار كتعويضات[139]. ربما تكاد أن تتعاطف معهم إلى أن تتذكر من أين جاءت أموالهم بالمقام الاول.

مرةً، في وقت الأسئلة بعد مُحاضرة في دبلن، سُئلت عن رأيي بتلك الحوادث البارزة لقضايا الاعتداء الجنسي من قبل القساوسة الكاثوليكيين في أيرلندا. أجبتُ، إن الاعتداء الجنسي شيئاً مروّعاً بلا شكّ، لكن حجم الأذى يمكن أن يُقال إنه كان أقلّ من الأذى النفسي الذي يتعرّض له الطفل على المدى الطويل جرّاء نشأته الكاثوليكية في المقام الأول. كان الردُّ آنياً وجاء وليد اللحظة، تفاجأتُ حقيقة بأنهُ أُسْتُقْبِلَ بالتصفيق الحماسي من الجمهور الأيرلندي (والذي كان مؤلَّفاً من النُّخبة المثقفة في دبلن، ولا يمكن اعتبارهم يمثلون البلد بشكل عام). لكن تمّ تذكيري بتلك الحادثة لاحقاً عندما وصلتني رسالة من امرأة أمريكية في الأربعينات من عمرها، وقد نشأت على الكاثوليكية. قالت بأنها عندما كانت في السابعة من عمرها، مرت

بحادثتين مؤلمتين. حيث قام قسّ أبرشيّتها بالتحرّش بها جنسياً في سيارته، وتقريباً في نفس الوقت ماتت صديقتها الصغيرة في المدرسة، وذهبت لجهنم لأنها كانت بروتستانتية. هذا ما كان على كاتبة الرسالة التصديق به على أي حال بسبب التلقين الرسمي للكنيسة التي تنتمي عائلتها إليها. نظرتها كبالغة لهاتين الحادثتين اللتين تشكلان مثالين على إساءة الكاثوليك الروم في معاملة الأطفال، المثال الأول جسدي والآخر معنوي، كان الحادث الثاني يفوق الأول سوءاً بكثير. حيث كتبت:

"التعرض للتحرش الجنسي من قسيس يترك خلفهُ شعوراً بالقرف في عقل فتاة في السابعة من عمرها، لكن ذكرى صديقتي تذهب للجحيم، كان شعوراً لا حدود له من الخوف البارد. لم أفقد القدرة على النوم أبداً بسبب حادثة القسيس، لكني قضيتِ ليال من الرعب أفكر بأن أناساً أحبهم سيذهبون للجحيم. ذلك الأمر تسببَ لي بالكوابيسَ".

يجب الاعتراف، بأن التحرّش الجنسي الذي عانته في سيارة القسّ كان خفيفاً بالمقارنة مثلاً بالألم والقرف لصبي كنيسة تمّ اغتصابهُ شرجياً. وفي أيامنا هذه، لا تتكلم الكنيسة الكاثوليكية عن الجحيم بكثرة كما فعلت سابقاً. لكن المثال يرينا على الأقلّ بأن الأَذى النفسي يمكن أن يتجاوز الأذى الجسدي. يُقال بأن ألفرِد هتشكوك، المُخرج السينمائي العظيم المتخصِص في فن إرعاب الناس، كان يقود سيارتهُ عبر سويسرا عندما أشار فجأة عبر زجاج السيارة قائلاً، "هذا أكثر مشهد مرعب رأيته في حياتي". كان عبارة عن قسيس يتكلم مع طفل صغير ويدهُ على كتفِ الصبي. هتشكوك أخرج رأسهُ من نافذة السيارة وصرخ "اركض يا بني، أنجو بحياتك".

(العصي والحجارة يمكن أن تكسر عظامي، لكن الكلمات لا يُمكن أن تؤذيني). هذا المثل صحيح طالما أنك لا تؤمن حقيقةً بالكلمات. لكن في حال أن تربيتك كلها، وكل ما قيل لك من الأهل، والأساتذة، ورجال الدين، والرهبان، قادك لأن تؤمن، حقاً تؤمن، بصدق وبشكل كامل، بأن المذنبين سيحترقون في الجحيم (أو أي شيء آخر من التلقين المتزمِت مثل كون المرأة مُلكٌ تابعٌ لزوجها)، فإنه من المُمكن تماماً أن يكون للكلمات أثر مُستمر ومؤذٍ أكثر من الأفعال. أنا مقتنع بأن عبارة "سوء معاملة الأطفال" ليس فيها مبالغة عندما نصف ما يفعله المعلمون ورجال الدين بالأطفال حين يشجعونهم على الإيمان بأشياء، مثل أن عقوبة عدم الاعتراف بالذنوب المميتة هي الجحيم الأبدي.

في الوثائقي التلفزيوني "أساس كُلِّ الشرّ؟"[1]، والذي ذكرته سابقاً، أجريتُ مقابلات عدة مع ممثلي الطوائف الدينية، حيث قوبلت بالنّقد لأنني اخترت أحد الأمريكيين المُتطرفين وليس أحد القادة المُعتدلين المحترمين، مثلاً رؤساء الأساقفة[2]. يبدو وكأنه نقدٌ في محله، بإستثناء أن ما يبدو مُتطرفاً في عيون الناس ما هو إلا التيار السائد في أمريكا في بدايات القرن 21. أَحد الأشخاص الذين أجريتُ معهم مقابلة، والذي روّع جمهور بريطانيا، كان الأب تيد هاغارد من كولورادو سبرينغس. لكنهُ أبعد ما يكون من أن يكون متطرفاً

1 . الوثائقي مترجم الى العربية متوفر على شبكة الانترنت. (المترجم).

2 . تمنيت مقابلة أسقف مدينة كانتربيري، وكاردينال مدينة ويستمنستر وكذلك الحاخام الأكبر في بريطانيا. جميعهم اعتذروا عن المُقابلة وبالتأكيد فإن لهم أسبابهم المُقنعة. أسقف مدينة أوكسفورد وافق على لقائي وكان شخصية محببة وأبعد ما يكون من أن يكون مُتطرفاً، تماماً مثل الآخرين الذين بالتأكيد لكانوا مثلهُ.

في أمريكا بوش. "الأب تيد" هو رئيس الجمعية الإنجيلية الوطنية التي لها ثلاثين مليون عضو، ويزعم بأن كان له الشرف بمكالمة هاتفية كل يوم إثنين حيث يشاوره الرئيس بوش. لو أردت ان أجري مُقابلة مع مُتطرف حقيقي بمعايير أمريكا العصرية، لكان عليّ أن أقابل أحد هؤلاء الذين يدْعون للدولة الدينية في أمريكا بشكل علني. زميل أمريكي قلِق كتب لي:

> "الأوروبيون بحاجة لمعرفة أن هُناكَ شراذم متدينة تتنقل مُبشِّرة بالعودة لقوانين العهد القديم -قتل المثليين جنسياً وما شاكله- وبحصر المناصب العامة بالمسيحيين فقط، بل حتى حقّ التصويت. إن الطبقة المتوسطة تهلِّل لمثل هكذا خطاب. إن لم يتيقَّظ العلمانيون، فسيكون هؤلاء هم التيار السائد في دولة أمريكا الدينية"[1].

شخصٌ آخر أجريت لقاء معهُ في البرنامج كان الأب كينان روبرتس، من ولاية كولورادو. كالأب تيد، الأب روبرتس لهُ جنونهُ الخاص الذي هو عبارة عما يسميه دور الجحيم. دار الجحيم هو مكان يُجلَب الأطفال إليه من أهاليهم أو مدارسهم المسيحية، حيث يتمّ زرع الذُّعر بهم لما يُمكن أن يحدث لهم بعد الموت. مُمثلون يلعبون أدواراً ولوحات عن بعض أنواع "الخطايا" مثل الإجهاض، أو المثلية الجنسية، كذلك شيطان يقف مرتدياً ملابس قرمزية يشمتُ ضاحكاً. هذه كانت المُقدمة فقط. أما الجحيم، فسيتمّ تمثيله بصورة أكثر واقعية حيث رائحة الكبريت المُحترق، وصراخ الملعونين إلى الأبد، وكل لوازمها الأخرى.

بعد أن شاهدتُ تلك التمارين المسرحية، والتي بدا فيها الشيطان شريراً بشكل أشبه بوغد في مسرحية درامية من العصر الفيكتوري، أجريت مقابلة مع الأب روبرتس بوجود الممثلين. قال لي بأن العمر الأمثل للأطفال لزيارة دار الجحيم هو إثني عشر عاماً. صُدمتُ لوهلة، لكنني سألته عما إذا كان هذا يقلقهُ، أن يعاني طفل في الثانية عشرة من كوابيس بعد رؤيته للعرض. أتوقع أن جوابه التالي كان صريحاً:

> "شخصياً، أفضِّل أن يفهموا بأن الجحيم هو المكان الذي لا يريدون الذهاب إليه إطلاقاً. الأفضل أن تصلهم رسالتي هذه وهم في الثانية عشر من ألاَّ تصل لهم مطلقاً، وأتركهم يعيشون حياة الخطيئة وفقدانهم للرب يسوع المسيح. ولو سبّب ذلك لهم بعض الكوابيس، فإني أعتقد أن هناك شيء أسمى وأنبل سوف يحققونه في النهاية في حياتهم من مجرد بعض الكوابيس".

---

1 . المقطع القادم يبدو حقيقياً، بالرغم من أنني شككت بأنه ليس سوى خدعة هجائية لبرنامج (The Onion) الساخر: http://www.talk2action.org/story/2006/5/29/195855/959 هذه ليست سوى لعبة الكترونية باسم دعهم خلفك: (تخيل أنك جندي مشاة في فرقة شبه عسكرية لمجموعة تعمل من أجل تحويل أمريكا لدولة مسيحية دينية وتحقق حلمها بسلطان المسيح الدنيوي الكامل فوق جميع الخلائق.... أنت في مهمة – دينية وعسكرية – كي تقوم بتنصير او قتل كل الكاثوليكيين واليهود والمسلمين والبوذيين والمثليين وكل الآخرين الذين يطمحون للفصل بين الدين والدولة...). راجع العنوان التالي: http://scienceblogs.com/pharyngula/2006/05/gta_meet_lbef.php: كذلك توجد مراجعة على العنوان التالي: http://select.nytimes.com/gst/abstract.html?res=F1071FFD3C550C718CDDAA0894DE404482

أفترض أنه إذا ما كنتَ أنتَ شخصاً يؤمن بما يقول الأب روبرتس فعلاً، فستشعر أنهُ من المقبول ترويع الأطفال أيضاً.

لا يُمكننا إهمال الأب روبرتس باعتباره مُتطرِف مجنون. مثل تيد هاغارد، فهو ينتمي للتيار السائد في أمريكا المعاصرة. بل كنتُ لأتفاجأ إذا كانوا حتى سيصدقون مُعتقَد بعض أقرانهم في التدين، بأن المرء قادر على سماع صراخ الملعونين فيما لو أصغى بحدَّة لانفجار البراكين[140]. وأن الديدان الانبوبية الكبيرة التي يُعْثَر عليها في جيوب رملية حارة في أعماق البحار ما هي إلا تحقُّق لنبوءات إنجيل مرقس الاصحاح التاسع 43-44 :"وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ فَاقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ يَدَانِ وَتَمْضِيَ إِلَى جَهَنَّمَ إِلَى النَّارِ الَّتِي لاَ تُطْفَأُ. حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ". مهما كانت صورتهم عن الجحيم، يبدو أنَّ كل هؤلاء المُتحمسين لنيرانها يشتركون بلذَّة الشَّماتة من الخاسرين، وبالرضا عن النفس لأنهم يعرفون أنهم من بين الناجين، أول من قال بذلك من عُلماء الدين القديس توماس الأكويني في كتابه "سوما ثيولوجيكا": (القديسون سينعمون بالحياة السعيدة وبركة الإله الوافرة، بحيث يُسمح لهم برؤية عقوبة الملعونين في جهنم). إنه رجل لطيف[1].

الخوف من نار الجحيم يمكن أن يكون حقيقياً، حتى بين العقلانيين في أمور أخرى. بعد برنامجي الوثائقي عن الدين، حصلتُ، من بين الرسائل العديدة التي تلقَّيتُها، على الرسالة التالية من سيدة تبدو بلا شك ذكية وصادقة:

> "داومتُ في مدرسة كاثوليكية منذ الخامسة من عمري، ولُقِّنْتُ من قِبَل الراهبات اللواتي استخدمن العصي والسِياط والقضبان. في سنِّ المراهقة قرأتُ لداروين، وما قاله عن التطور بدا طبيعاً جداً للجزء المنطقي من عقلي. لكنني قد مررت بالكثير من المعاناة في حياتي، والخوف العميق من الجحيم ونيرانها يطفو دائماً على السطح. خضعت للمعالجة النفسية، وبفضل هذا استطعتُ التغلب على بعض المصاعب السابقة، لكنني لا أشعر بأنني تغلَّبتُ على هذا الخوف العميق.
>
> أكتب لك الآن كي أرجو منك إرسال اسم وعنوان المُعالجة النفسية التي أجريتَ معها اللقاء في حلقة هذا الأسبوع، والمُتخصِّصة بهذا النوع من الخوف".

تأثرتُ كثيراً برسالتها، (وكبتُّ أسفي لحظياً على أنهُ ليس هُناكَ جحيم لمثل هذه الراهبات)، وأجبتُها بأن عليها الثقة بعقلانيتها كهبة عظيمة، والتي هي -على عكس البعض الآخر الأقل حظاً- من الواضح أنها تمتلكها. إقترحتُ أن القساوسة والراهبات الذين يختلقون كل هذه العذابات الجهنمية التي لا نهاية لها، يضخِّمونها في مُحاولة منهم لتغطية مدى لامعقوليتها. يكفي لجحيم حقيقي أن يكون سيئاً بشكل معتدل

---

1 . على نفس المنوال نرى آن كولتير تعبِّر عن التعاطف الانساني المسيحي بقولها: (أنا أتحدى أي أحد من إخوتي بالإيمان أن يقول لي أنهم لا يضحكون سعداء بفكرة احتراق دوكينز في الجحيم). (Coulter 2006:268).

كي يكون رادعاً. لكن عليهم تصويرهُ على درجة أقسى ما يمكن للإنسان تخيله من رعب، كي يكون التفكير في احتمالية عدم وجوده مُحاطَة بشيء من الرَهبة. ساعدتٌها كذلك على الاتصال بالمعالجة النفسية التي نوّهت عنها، جيل ميتونَ، امرأة لطيفة وصادقة بعمق، كُنتُ قد أجريت معها مُقابلة أمام العدسة. جيل نفسها تربّت في كَنَف طائفة أكثر من مُقرفة تسمى (الأخوة الخالصة): سيئة لدرجة أن هُناكَ موقع أنتَرنت مُخصّص كلياً لرعايةَ الذين استطاعوا الهرب منها www.peebs.net .

جيل ميتون نفسها نشأت كي تكون مرعوبة من الجحيم، لقد هربت من المسيحية كبالغة، والآن تساعد وترشد المصدومين في طفولتهم مثلها: "عندما أرجع بذاكرتي للطفولة، أرى الخوف هو المسيطر عليها. الخوف كان من عدم قبولي في الحياة ولكن أيضاً من اللعنة الأبدية. وبالنسبة لطفل، فإن صور نيران الجحيم، وصرير الأسنان، حقيقية جداً وليست مجازية على الإطلاق". طلبتُ منها أن تقصّ لنا ما قيل لها عن الجحيم في طفولتها، وإجابتها كانت مثيرة للعواطف، تماماً كتعابير وجهها خلال فترة الصمت الطويل والتردد قبل أن تجيب: "إنهُ لغريبٌ جداً... أليس كذلك؟ بعد كُل هذا الوقت يبدو وكأنه لايزال لذلك القدرة على ... التأثير عليّ.... عندما... عندما تسألني هذا السؤال. الجحيم هو مكان مُخيف. إنه الرَفض الكامل من الله. إنها اللعنة التامة، حيثُ النار حقيقية، والعذاب حقيقي وسيستمر للأبد، وليس هُناكَ من مفرّ".

ثم استطردتْ تخبرني عن مجموعة الدَّعم التي تقودها لمساعدة الهاربين من طفولة مشابهة لطفولتها، وشرحت مدى صعوبة الهروب بالنسبة للبعض: "إن عملية الترك صعبة بشكل غير عادي. إنك تترك وراءك مجموعة كبيرة من العلاقات الاجتماعية، ونظاماً مُتكاملاً قد نشأتَ وترعرعتَ فيه، تترك خلفك نظاماً إيمانياً كنتَ قد تمسّكتَ به لسنوات طويلة. وفي كثير من الحالات تخسر عائلتك وأصدقاءك... وتصبح ببساطة غير موجود بالنسبة لهم". إستطعتُ أن أعطي خبرتي الخاصة بالموضوع من خلال الرسائل التي وصلتني من العديد من قرائي الأمريكيين الذين تركوا دينهم نتيجة قراءتهم لكتبي. البعض يستطرد بارتباك ليقول بأنه لم يجرؤ على إخبار أقربائه، أو أنه أخبرهم وكانت النتائج كارثية. ما يلي هو نموذج لذلك. الكاتب طالب طب أمريكي شاب.

> "أحسست بدافع لكتابة البريد الالكتروني هذا لأني أشاركك وجهة نظرك بالنسبة للدين، وجهة النظر التي، كما تعرف بالتأكيد، تؤدي إلى العزلة في أمريكا. نشأتُ في عائلة مسيحية، وبرغم أن فكرة الدين لم تَرَقْ لي أبداً إلا أنني وفقط منذ مدة قصيرة صارت لي الجرأة لأخبر أحداً. ذلك الأحد كانت صديقتي التي... انتَابها الرعب. كُنت أعرف بأن إعلان الإلحاد يمكن أن يسبِب صدمة، ولكنها الآن تنظر لي كشخص مُختلف. حيث لا تستطيع الوثوق بي، وتعلِّل ذلك بأن أخلاقياتي لا تأتي من الله. لا أعرف إن كنا سنجتاز هذه المحنة سوية، ولا أُريد أن أشارك أحداً من المُقربين لي بمُعتقداتي لأني أخاف ردة فعل الكراهية... لا أتوقع رداً منك. أنا أكتب فقط لأني آمل أنك تتعاطف معي وتشاركني إحباطي. تخيل أن تخسر شخصاً تحبهُ ويحُبك بسبب الدين. عدا عن رؤيتها لي بأني وثني من غير إله، فقد كنا

ممتازين لبعضنا البعض. ذلك يُذكرني بملاحظتك بأن الناس يفعلون أموراً لا معقولة باسم معتقداتهم. شكراً لإصغائك".

أجبت على رسالة الشاب السيء الحظّ، وأشرت إلى أنه أيضاً اكتشف شيئاً عن صديقتهِ في نفس الوقت الذي اكتشفت هي شيئاً عنه. هل هي حقيقة شخص مُناسب له؟ أشك في ذلك.

لقد ذكرت مسبقاً الكوميدية الأمريكية جوليا سويني وكوميديتها العنيدة والمُضحكة عن معاناتها لإيجاد شيء ما في الدين يستحق لأجلهُ إنقاذ هذا الإله الذي آمنت به بطفولتها من شكوكها كإنسانة بالغة. بالنتيجة انتَهت مساعيها نهاية سعيدة، وهي الآن نموذج محبّب للمُلحدين الشباب في كُل مكان. ربما تكون الخاتمة هي أكثر المشاهد إثارة للمشاعر في عرضها "ترك الله". لقدَ جربَتْ كُل شيء. ومن ثم ...

"...بينما كنت أمشي من مكتبي إلى بيتي عبر حديقتي الخلفية، انتَبهتُ لذلك الصوت الخافت الصغير الهامس في رأسي. لست متأكدة من طول الفترة، ولكن فجأة أصبح الصوت أعلى بديسيبل واحد. وهمس: "ليس هُناكَ إله".
وحاولتُ أن أتجاهلهُ، ولكنه أصبح أعلى بشكل بسيط. "ليس هُناكَ إله. ليس هُناكَ إله. يا إلهي، ليس هُناكَ إله"...
إرتعشتُ في كُل جسمي... أحسست وكأنني أنزلق من على عوّامة.
ثم فكرتُ "ولكني لا أستطيع. لا أعرف إذا ما كان بإمكاني عدم الإيمان بالله. أحتاج الله... لدينا تأريخ سويةً"
"لكني لا أعرف كيف لا أؤمن بالله. لا أعرف كيف يفعل المرء ذلك. كيف تستيقظ، كيف تمضي يومك؟" أحسست وكأن الأرض تتأرجح تحتي.
ثم فكرتُ... "حسناً، لأتمالك نفسي. لنجرب وضع نظارات اللاإيمان بالله للحظة، لثانية فقط. فقط ضعي نظارة اللاإيمان بالله وألْقي نظرة حولكِ، ثم ألْقِها بعيداً" ووضعتُ النظّارة ونظرتُ حولي.
يُحرجني أن أقول لكم بأنني أصبتُ بالدوار. بالواقع فكرت "كيف يمكن للأرض أن تبقى معلّقة في السماء؟ هل تعني بأننا نتجوّل في الفضاء؟ هذا يبدو خطيراً جداًا!" أردتُ أن أجري وألتقط الأرض عند وقوعها من الفضاء بيدي.
عند ذلك تذكرت "آها... نعم بالتأكيد، الجاذبية والزّخْم المحوري سيحافظان على دوراننا حول الشمس، وربما لفترة طويلة جداً".

عندما شاهدتُ عرض "ترك الله" في مسرح لوس أنجلس، هزتني مَشاهدُهُ بعمق. وخصوصاً عندما قصّتْ جوليا عن ردَّة فعل أبويها عندما علموا من مقال صحفي بأنها قد شُفيت من المسيحية:

المُكالمة الأولى كانت أشبه بالصراخ من أمي. "مُلحِدة؟ مُلحِدة ؟!؟!"

ثم اتَّصل أبي وقال: "لقد خُنت عائلتك ومدرستك ومدينتك" أحسستُ وكأنني قد بعتُ أسراراً عسكرية للروس. كلاهما قال بأنهما لن يتكلما معي بعد الآن. أبي قال: "لا أريدك حتى أن تأتي لجنازتي". بعد أن أغلقتُ سماعة الهاتف قلتُ في نفسي: "حاول فقط أن تمنعني".

إنَّ من موهبة جوليا سويني هي أنها تجعلك تضحك وتبكي في آنٍ واحد:

"أعتقد بأن أهلي كانوا سيصابون بخيبة أمل بسيطة لو قلت لهم بأني لا أؤمن بالله بعد الآن، ولكن أن أكون مُلحِدة، فهذا شيء آخر تماماً".

كتابَ دانِ باركر، "فقدان الإيمان بالإيمان: من خطيب إلى مُلحد"، يروي قصة انقلابه التدريجي من كاهن مُتطرِف مُخلص، يسافر من مكان لآخر ليخطب في الجموعَ، إلى مُلحد قوي وواثق من نفسه اليوم. ما تجدر الإشارة إليه هو أن باركر استمرّ بالحفاظ على القناع الديني فيَ خُطبه الدينية لفترة حتى بعد أن أصبح مُلحداً، ذلك لأنها المهنة الوحيدة التي يعرفها، وشعر بأنه حبيس شبَكة من العلاقات والعادات الاجتماعيةَ. والآن يعرف باركر الكثير من رجال الدين الأمريكيين الآخرين الذين يعانون من الموقف نفسه الذي كان هو فيه، وأفصحوا لهُ عن أحاسيسهم بعد قراءتهم لكتابه. لايجرؤون على إعلان إلحادهم حتى لأقرب الناس، إلى حدٍّ الرعب من ردة الفعل المُتوقَّعة. إن قصة باركر تنتهي نهاية سعيدة. بدايةً، صُعِقَ أبواه بشكلٍ عميق ومُحزن، ولكنهما أصغيا إلى عقلانيته الهادئة، وانتهى الأمر بأن أصبحا مُلحِدين أيضاً.

كتبَ لِي أستاذان في جامعة أمريكية واحدة، كلٌّ على حدَة، عن أهاليهما. أحدهما قال بأن أمهُ تعاني من حزن مزمن لأنها تخاف على روحه الخالدة. والآخر كتب بأن أباه تمنى أنهُ لم يولد، مُقتنع تماماً بأن ابنه سيخلد في جهنم. هؤلاء أساتذة جامعيون على درجة عالية من الثقافة، واثقون من دراساتهم ونضجهم العقلي. بل يُفترض أنهم تركوا أهلهم خلفهم بمسافة بعيدة في كُل مواضيع المعرفة، وليس فقط في الدين. تخيل الآن فقط كيف يبدو عذاب القبر لمن هم أقلُّ ثقافةً، وأقلُّ استعداداً علمياً وبلاغياً من هؤلاء الأساتذة؟ أو من جوليا سويني، ليستطيعوا النقاش من زاويتهم الخاصة أمام أفراد العائلة القساة. كما كان الحال ربما مع العديد من مرضى جيل ميتون.

في بداية حديثنا التلفزيوني، وصفتْ جِيلّ هذا النوع من التربية الدينية بأنه شكل من أشكال العنف النفسي، وقد عدتُ لتلك النقطة كما يلي: "لقد أستعملتِ عبارة سوء المعاملة الديني. ولو طلبتُ منك المقارنة بين الأذى الحاصل من تربية الطفل ليؤمن بالجحيم... فكيف تكون المقارنة بين ذلك وبين الصدمة الحاصلة من الاعتداء الجنسي؟"، فأجابت: "هذا سؤال صعب جداً... أعتقد أنَّ هُناكَ الكثير من التشابه بالواقع، لأنه في كلا الحالتين هو استغلال للثقة. إنهُ حرمان للطفل من حق الإحساس بالحرية والانفتاح، وبأنه قادر على التواصل بالعالم من حوله بطريقة طبيعية... إنه نوع من الاستصغار، إنه حرمان للفرد من أن يكون هو نفسهُ في كلا الحالتين".

دفاعاً عن الاطفال

زميلي الطبيب النفسي نيكولاس هامفري استعمل تعبير (العصي والحجارة) في محاضرة العفو في أوكسفورد عام 1997[141]. بدأ همفري قوله بأن هذا التعبير ليس صحيحاً دائماً، ملقياً الضوء على الهايْتيين المؤمنين بالفودو الذين يبدو أنهم يموتون لأسباب نفسجسمانية[1] بفعل الرعب، بعد أيام قليلة من وقوعهم تحت "لعنة" مؤذية. بعدها تساءل عما إذا كان يجب على منظمة العفو الدولية، المستفيدة من سلسلة المحاضرات التي شارك بها، أن تنظِّم حملة ضد الخطابات والنشرات المؤذية والمخرَبة. جوابهُ كان صارخاً بالرفض لمثل تلك الرّقابة: "إن حرية التعبير هي حرية أثمن من أن نتدخَّل بها". ولكنه استطرد بعدها ليفاجئ حتى نفسه كتقدمي عندما دعا لاستثناء مهم في حالة خاصة جداً: الرّقابة من أجل حماية الأطفال...

"... تعليم الأطفال الديني والأخلاقي، وخاصة ما يحصل عليه الأطفال في المنزل، حيث يُسمح للأهل -وحتى يُتوقَّع منهم- أن يقرَروا لأطفالهم ما هو الحق وما هو الباطل، ما هو الصحيح وما هو الخاطئ. ما أقوله هو بأن للطفل حقه الإنساني بأن لا تتمّ إعاقة عقله بتعريضه لأفكار مؤذية من الآخرين، كائناً من كانوا. فالأهل هنا لا يملكون رخصة إلهية لحشو أولادهم بأفكارهم الشخصية، لا حق لهم بالحدِّ من أفق المعارف لأطفالهم وتربيتهِم في بيئة من العقائد والغيبيّات، أو الإصرار عليهم بأن يتبعوا نفس سبيل معتقدهم الضيق والشائك.
باختصار، إنَّ للأطفال الحق بأن لا تُحشى عقولهم بهُراء لا معنى لهُ، ومن واجبنا كمجتمع أن نحميهم من هذا. وبالتالي يجب علينا ان لا نسمح للأهل بأن يلقِّنوا أولادهم على سبيل المثال الإيمان بحرفية الكتاب المقدس، أو بأن الكواكب تؤثر على حياتهم، تماماً كما لا نسمح لهم باستخدام العنف ضد أطفالهم، أو حبسهم في زنزانة".

بالتأكيد إن بياناً قوياً كهذا يحتاج، وتلقَّى، الكثير من المؤهلات. أليس اعتبار شيء ما كهراء هو مسألة رأي فقط؟ ثم ألا يدفعنا تغيير مفاهيمنا العلمية التقليدية بشكل جذري للعديد من المرات إلى أن نكون حذرين؟ قد يعتقد العلماء بأنه من الهراء أن نعلِّم التنجيم أو حرفية الكتاب المقدس، لكن هُنالكَ آخرون يفكرون عكس ذلك تماماً، أليس لهم الحق في أن يُعلّموا ذلك لأطفالهم؟ أليس من الغرور الإصرار على أن يُعَلَّمَ الأطفال العِلْمَ؟

1 . الامراض النفسجسمانية هي أمراض تؤثر فيها العوامل الذهنية والنفسية للمريض تأثيراً كبيرا في نشوئها وتطورها وتعكرها، وفي حالة إجراء فحص طبي، لا يظهر لهذه الأمراض أي أسباب جسمية أو عضوية. (المترجم)

أنا ممتنٌّ لأهلي لأنهم أدركوا بأنهُ من حق الطفل أن يتعلم **كيف** يفكر وليس بماذا سيفكر. لو أن الأدلَّة العلمية عُرِضَت على الأطفال بشكل كامل وصادق، ثم كبروا وقرروا بأن الكتاب المقدس حرفياً صحيح، وأن حركة الكواكب تُسيِّر حياتهم، فهذا من حقهم. النقطة المهمة هنا هي أنه من حقهم وحدهم أن يقرروا ما سيعتقدون ويفكرون به، وليس من حق آبائهم أن يفرضوا عليهم ذلك. ذلك بالطبع مهم بشكل خاص عندما نتذكر بأن هؤلاء الأطفال سيكونون آباء الجيل التالي، وحينها يستطيعون تمرير ما تربّوا عليه من التلقين الذي شكَّلهم.

يقترح همفري، بأنه طالما أن الأطفال صغارٌ وضعفاء وبحاجة للحماية، فإن الوصاية الأخلاقية بحق تظهر كمحاولة أمينة لتوقع تلك الاختيارت التي كان سيفعلها الطفل لصالحه فيما لو كان كبيراً وقادراً على الاختيار. وقد ذكر مثالاً مؤثراً عن فتاة صغيرة لقبائل الأنكا وُجدت بقاياها المتجمدة من 500 عام في جبال البيرو عام 1995. إن عُلماء الإنسانيات الذين وجدوها توصلوا إلى أنهُ تم التضحية بها بطُقْسٍ ديني. حسب رواية همفري، فإن فيلماً وثائقياً عن هذه (العذارء المتجمدة) الصغيرة تمّ عرضهُ في التلفزيون الأمريكي. وقد دُعي المُشاهدون لـ:

"الاندهاش بهذا الالتزام الروحي لكهنة الأنكا وليقاسموا الفتاة كبرياءها في رحلتها الأخيرة، وفرحتها بأنها قد أُخْتيرت لشرف التضحية. رسالة البرنامج في الواقع كانت بأن الذبائح الإنسانية بطريقتها الخاصة كانت إحدى الاختراعات الثقافية المُدهشة، جوهرة أخرى في تاج التعدُّدية الثقافية، إذا أردت القول".

همفري مصدوم، وكذلك أنا.

"كيف يمكن لأحد أن يجرؤ حتى على أن يقول ذلك؟ كيف يجرؤون على دعوتنا حيث نجلس في بيوتنا ونشاهد التلفاز بأن نشعر بالنَّشوة ونحن نتأمل طُقْساً إجرامياً، قتل طفل غير بالغ من قِبَل جماعة من كبار السن الأغبياء والمُنتفخين بالغيبيات والجهل؟ كيف يجرؤون على دعوتنا لأن نجد شيئاً جيداً في تأمّل فعل لاأخلاقي ضد شخص آخر؟".

ومرة أخرى، ربما يشعر القارئ المُتحرر الصادق بوخزة من التقزّز. لاأخلاقية بمقاييسنا بلا شك وغبية، ولكن ماذا عن مقاييس قبائل الأنكا؟ بالتأكيد، ألم تكن التضحية بالأطفال بالنسبة للأنكا فعلاً أخلاقياً وأبعد من أن يكون سخيفاً، بل ومُشرّعاً من قِبَل كل ما يعتقدونه مقدَّساً؟ الفتاة الصغيرة تلك كانت بلا شك مؤمنة بصدق بالدين الذي نشأت عليه. ومن نظن أنفسنا لنستعمل كلمات مثل "جريمة قتل"، ونحكم على كهنة الانكا بمقاييسنا عوضاً عن مقاييسهم؟ ربما كانت تلك الفتاة منتشية بالسعادة لقَدَرِها، وكانت تؤمن حقيقةً بأنها ذاهبة مباشرة لجنة أبدية، متدفِّئة برفقة إله الشمس. أو ربما كانت تصرخ من الرعب، وهذا أكثر واقعية على الغالب.

إن نقطة همفري هنا -نقطتي أيضاً- هي أنه بغضِّ النَّظر عن كونها ضحية برغبتها أو لا، فإن هُناكَ سبباً يجعلنا نفترض بأنها لن تكون راغبة بذلك لو كانت تمتلك الوقائع. وكمثال، لنفترض بأنها تعرف بأن الشمس هي عبارة عن كرةٍ من الهيدروجين حرارتها أكثر من مليون درجة كالفن تتحول تلقائياً للهيليوم بالانصهار النووي، وأنها تكوّنت من قرص غازي تشكَّلت منه بقية أجزاء المجموعة الشمسية بما فيها الأرض، بالتَّكاثف... يمكن الافتراض عند ذلك أن الفتاة لن تعبدها كإله، وهذا بدوره كان سيغيِّر اعتباراتها بأن تكون ضحية لإكرامها.

لا يُلامُ كهنة الأنكا لجهلهم، وربما من القسوةِ نعتهم بالغباء والبلادة. لكنهم يلامون لإملاء معتقداتهم الخاصة على طفلة أصغر من أن تستطيع أن تقرر إذا ما كانت تريد عبادة الشمس أم لا. والنقطة الإضافية لهمفري هي أن منتجي الوثائقي اليوم ونحن جمهورهم، يمكن لومنا لرؤيتنا شيئاً جميلاً في موت طفلة صغيرة "كشيء يُغْني ثقافتنا المُشتركة". نفس الميل لتمجيد العادات الغريبة للطوائف الدينية وتبرير العنف باسمها، يظهر مرة تلو الأخرى. إنه المصدر الأساسي لإرتباك الصراع الداخلي في عقول الأشخاص المتحررين اللُّطَفاء، والذين لا يستطيعون تحمّل المعاملة القاسية من جهة، ومن جهة أخرى قد تمّ تدريبهم من دُعاة النسبية وما بعد الحداثة على احترام ثقافة الآخرين بنفس مستوى احترامهم لثقافتهم. إن بتر العضو الجنسي للنساء (يدعى أحياناً بختان البنات) مؤلم لدرجة فظيعة جداً، إنهُ يقضي على المتعة الجنسية للمرأة (ربما يكون هذا هو الهدف بالأصل). النصف الأول من العقول المُتحررة تُريد القضاء على تلك المُمارسات، والنصف الآخر، على أية حال، "يحترم" الثقافات المذهبية، ويشعر بأنه ليس علينا أن نتدخل إذا كانوا يريدون "هم" أن يبتروا "بناتهم"[1]. النقطة بالطبع هي أن "بناتهم" هنَّ في الحقيقة بنات أنفسهن، ورغباتهنَّ لا يجوز أن يتمّ التغاضي عنها. سيقول أحدهم: ماذا لو أرادت الفتاة نفسها أن تَخْتَتِن؟ لكن السؤال هنا هل ستتمنى أن ذلك لم يحصل لها أبداً عندما تكبر وتصبح على اطِّلاع كامل كامرأة بالمضاعفات التي يعنيها أن تكون مختونة؟ همفري يشير إلى أنه ليس هُناكَ من امرأة ناضجة بشكل ما نجت من الختان عندما كانت طفلة، تتطوّع لإجراء تلك العلمية لاحقاً في حياتها.

بعد مناقشة دارت حول الآميش وحقوقهم في تربية "أطفالهم" بطريقتهم، انزعج همفري من حماسنا كمجتمع لـ:

> "الحفاظ على التعدُّدية الثقافية. حسناً، ربما تودُّ أن تقول إنه من الصّعب على الطفل أن يربّى لأبوين من الآميش، أو الهسيد، أو الغجر، ويصبح بهذا الشكل الذي يشكِّلهُ أبويه عليه، ولكن على الأقل ستكون النتيجة استمرار تلك التقاليد الثقافية الساحرة. ألن تفقر حضارتنا الإنسانية باختفاء تلك العناصر؟ إنه لمن المُشين أن يضحّى ربما بأفراد للمحافظة على تعدُّدية كهذه. لكن رأيكم هو بأنهُ هذا هو الثمن الذي يدفعهُ المُجتمع. باستثناء، وأجد نفسي مرغماً على تذكيركم، أننا لسنا نحن من يدفعهُ، بل هُم "الأطفال" الذين يدفعونهُ".

---

1 . لقد أصبحت هذه الممارسة عادية في بريطانيا اليوم. أحد مُفتشي المدارس ذو المراكز العليا روى لي عن بنات في لندن عام 2006 والذين تم إرسالهم لأحد (الأقرباء) في برادفورد لختانها. والدوائر الرسمية تتحاشى التدخل لخوفها من اتهامها بالعنصرية من قبل (الجالية) المسلمة.

حَظِيَ هذا الموضوع باهتمام شعبي عام 1972 عندما أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة قراراً نهائياً في قضية ويسكنسون ضد يودر، والتي تناولت حق الأهل في إخراج أولادهم من المدرسة لأسباب دينية. الآميش هم مجاميع تعيش في مجتمعات مُغلقة في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة الأمريكية، وغالباً ما يتكلمون لهجة ألمانية قديمة تسمى بالدوتش البنسلفاني، ويتجنَّبون بدرجات مُختلفة كلاً من الكهرباء، ومُحركات الحرق الداخلي، والأزرار في الملابس، ومظاهر أخرى من الحياة العصرية. هُناكَ بالتأكيد شيء جذاب في العيش بجزيرة حياة القرن السابع عشر. ألا يستحق ذلك الحفاظ عليه من أجل الحفاظ على هذه التنوع الإنساني؟ الطريقة الوحيدة للحفاظ عليه هي في السماح للآميش بأن يربّوا أبناءهم بطريقتهم الخاصة، وحمايتهم من التأثير المُخرِب للحياة العصرية. لكن هنا يجب علينا أن نسأل، أليس للأطفال الحق في أن يكون لهم رأيهم الخاص بالموضوع؟

طُرِحَت القضية على المحكمة العليا عام 1972، عندما سَحَبَ بعض آباء الآميش أبناءهم من المدرسة الثانوية. فكرة التعليم نفسها بعد سنٍّ معين كانت مُناهضة للقيم الدينية لطائفة الآميش، خاصة المناهج العلمية منها. ولاية ويسكنسون قاضت الأهل بدعوى حرمان الأبناء من حقهم في التعليم. وبعد مرورها بالعديد من المحاكم، وصلت الدعوى للمحكمة العليا في الولايات المتحدة التي حكمت لصالح الآباء (ست قضاة مقابل واحد)[142]. رأي الأغلبية، كما كتبه رئيس المحكمة وارن برغر، جاء فيه ما يلي: "كما نرى من السجلات، أن التعليم الالزامي لأطفال الآميش بعد سن السادسة عشر يشكل تهديدا حقيقياً يُمكنهُ تقويض مجتمع الآميش ومُمارساته الدينية الموجودة حالياً، وعليهم إما أن يتركوا الإيمان وينصهروا في المجتمع العريض، أو أن يُرْغَموا على الهجرة لأماكن أكثر تقبّلاً لأمور كهذه".

الرأي المعارض للقاضي ويليام دوغلاس كان أنه يجب استشارة الأولاد أنفسهم، هل يَوَدُّون فعلاً أن يقطعوا دراستهم؟ هل يودون فعلاً البقاء على دين الآميش؟ نيكولاس همفري ربما كان سيذهب لأبعد من ذلك. حتى لو وافق الأولاد على أن يبقوا ضمن الآميش، فهل سيكون رأيهم هو نفسهُ لو عِرفوا عن الخيارات الأخرى؟ كي يكون لذلك مصداقية ألا يجبِ أن نرى بعض الشباب من العالم الخارجي مُعلنين عن رغبتهم بالانضمام للآميش؟ القاضي دوغلاس استمر، ولكن بطريقة أخرى. فهو لم يجد أي سبب خاص للأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر الأهل الدينية في القرار عما إذا كان سيسمح لهم بمنع أبنائهم من الدراسة. لأنه لو كان الدين سبباً للإستثناءات، أفلن يكون هُناكَ رأي علماني يعطيهم هذا الحق؟

إن الأغلبية في المحكمة العليا أخذوا قراراتهم بناء على الفكرة الايجابية بأن وجود نظام رهباني يغني مجتمعنا. لكن كما أشار همفري، فهناك فارق جوهري. إن الرهبان يتطوعون لحياة الرهبنة بمحض إرادتهم. أطفال الآميش ما كانوا أبداً ليتطوعوا للدخول لهذه الطائفة. لقد وُلدوا داخلها ولم يكن لهم أي رأي في الموضوع.

هناك شيء استصغاري بشكل مذهل، وأيضاً لا إنساني في التضحية بأي أحد، وخاصة الأطفال، على مذبح (التعدُدية) للحفاظ على مجموعة من التقاليد الدينية. نحنُ الآخرون سعداء بسياراتنا، وحواسيبنا، ولقاحاتنا، ومُضاداتنا الحيوية. لكنكم أيها النماذج المضحكة الصغيرة بقبعاتكم، وسراويلكم الطويلة، وعربات الأحصنة، ولهجتكم القديمة، ومراحيضكم الترابية، أنتم تغنون حياتنا بذلك. بالطبع يجب أن تبقوا أنتم وأولادكم قابعين بالفخ الزمني للقرن السابع عشر وإلا فإننا سنفقد شيئاً لا يعوّض: جزء من التنوع الرائع للثقافة الإنسانية. إن جزءاً صغيراً مني يرى شيئاً في ذلك، ولكن الجزء الأكبر مِني يحسّ بالغثيان لمجرد التفكير به بالفعل.

فضيحة تربوية

رئيس مجلس الوزراء في بلدي، طوني بلير، استعان بمصطلح (التنوع) عندما تحداه أحد أعضاء المجلس العمومي، جيني تونغ، ليبرِّر المنحة الحكومية لمدرسة في شمال شرق إنكلترا، والتي (تقريباً حالة وحيدة في إنكلترا) تدرِّس نظرية الخلق الإنجيلية بحرفيتها. السيد بلير أجاب بأنه من المؤسف أن يكون نقاشاً في موضوع كهذا سيضع مانعاً أمام امتلاكنا لـ (نظام مدرسي متنوَع قدر الإمكان)[143]. المدرسة هنا هي كلية إيمانويل في غايتسهَد، وهي إحدى (أكاديميات البلدة) وأنشئت بمبادرة حكومة بلير بفخر. بعض الأغنياء طلب منهم وضع مبالغ بسيطة (2 ميلون جنيه أسترليني في حالة إيمانويل) التي تدفع الحكومة مقابلها حوالي (20 مليوناً للمدرسة إضافة لمصاريفها والرواتب المستقبلية)، كما تعطي للمتبرِعين حق تقرير المبادئ الأخلاقية التي تسعى لها المدرسة، وتعيين أغلبية المُدراء والمُوظفين، وأيّ الطلبة يحقّ له الدخول ومن لا يحقّ له ذلك، وأشياء كثيرة أخرى.

عشرة بالمائة من التبرّعات تأتي من السير بيتر فاردي، بائع سياراتٍ غني وعنده رغبة أمينة بإعطاء أطفال اليوم التعليم الذي يتمنّى لو حصل عليه، ورغبة أقل ريعية بدسِ قناعاته الدينية الخاصة[1]. يبدو كما لو أن فاردي تورط مع مجموعة من الأساتذة المتطرفين دينياً والمتأثرين بالَنموذج الأمريكي، وعلى رأسهم نيغل ماكويد، الذي يدير كلية إيمانويل بعض الأحيان وهو الآن مدير كُل مدارس فاردي. إن مستوى فهم ماكوي للعلوم يمكن أن نحكم عليه من خلال إيمانه بأن العالم خُلِقَ منذ أقل من عشرة آلاف سنة، ومن قوله التالي: "لكنّ القول بأننا تطوّرنا من انفجار، وبأننا كنا قردة، شيء غير معقول خصوصاً عندما ننظر لتعقيد الجسم الإنساني... عندما نقول للأطفال بأنهُ ليس هنا أية غاية من حياتهم، وبأنهم عبارة عن طفرة كيميائية ليس إلا، فإنَّ ذلك لا يرجح أي ثقة بالنفس"[144].

ليس هُناكَ من عالم يعتقد بأن الطفل هو (طفرة كيميائية). إن استعمال العبارة هذه في ذلك السياق هو هراء أُمِيَ، كما هو الحال في تصريح (الخوري) واين مالكولم، رئيس كنيسة حياة المدينة في هاكني في شرق

1 . يبدو كأن هـ أل. مينكين كان يتنبأ عندما كتب (في أعماق قلب كل إنجيلي يوجد بائع سيارات فاشل).

لندن والذي، بحسب مقال في الغارديان في 18 نيسان 2006، "يشكك بالأدلة العلمية للتطور". إن فهم مالكولم للأدلة التي يشكك بها يمكن قياسهُ من تصريحه بأنهُ "من الواضح أن هُناكَ حلقة مفقودة في سجلات الحفريات لكائنات متوسطة المُستوى في التطور. لو أن ضفدعاً تحول لقرد، ألا يجب أن يكون هُناكَ مجموعة كبيرة من (القرادع)"؟

المناهج العلمية ليست من اختصاص ماكويد أيضاً وعلينا، للأمانة، أن نتوجّه للمسؤول عن المناهج العلمية في هذا المَشروع، ستيفن لايفيلد. في 21 أيلول 2001، ألقى السيد لايفيلد محاضرة في كلية إيمانوئيل عن (التدريس العلمي: وجهة نظر الكتاب المُقدس). نص المُحاضرة نُشر على موقع مسيحي في الانترنت (www.christian.org.uk). ولكنك لن تجده الآن هناك. لقد رفعته المنظمة المسيحية في اليوم التالي لإشارتي لهُ في مقال كتبتهُ في صحيفة "الدايلي تلغراف" في 18 اذار 2002، وعرضتُ أفكاره لتشريح مُحرج دقيق[145]. على أية حال، فإنه من الصعب محو أي شيء بشكل دائم من الشبكة العنكبوتية. ذلك لأن مُحركات البحث، من أجل الإسراع من عملها ولو بشكل جزئي، تقوم بتخزين نسخ من المعلومات في حواسيبها، وهذه المعلومات تبقى لبعض الوقت حتى بعد إزالة المعلومة الأصلية. أحد الصحفيين البريطانيين، آندور براون، المسؤول الأول عن مواضيع القسم الديني في "الأندبندنت"، استطاع الحصول على مُحاضرة لايفيلد وتحميلها من غوغل، ونشرها على موقعه الخاص حيث لا يستطيع أحد محوها.

http://www.darwinwars.com/lunatic/liars/layfield.html

ستلاحظ بأن الكلمات المُختارة من قبل براون للرابط لها معنى مُسلي بحد ذاتها. ولكنها تفقد قدرتها على الإدهاش عندما تطّلِع على محتويات المُحاضرة ذاتها.

وبخصوص الموضوع ذاته، فعندما كتب أحد القراء يسأل كلية إيمانويل عن سبب رفعها للمحاضرة من الموقع، حصل على الإجابة المراوغة التالية من الإدارة، ومرة أخرى يسجلها آندرو براون:

> "إن كلية إيمانويل كانت مركزاً لمناظرة تتعلّق بتدريس الخلوقية في المدارس. عملياً، فإن كلية إيمانويل تلقّت العدد الكبير من المكالمات الصحفية. ذلك تطلّب كمية كبيرة من وقت المدير ومساعديه. وكلّهم لديهم واجبات أخرى ليقوموا بها. لذلك قمنا برفع مُحاضرة ستيفن لايفيلد مؤقتاً من موقعنا".

لا شكّ في أن إدارة المدرسة كانت مشغولة جداً بشرح موقفهم للصحفيين عن سبب تدريسهم للخلوقية. لكن لماذا إذن رفعوا نص المحاضرة من الموقع والتي تشرح تماماً موقفهم من الموضوع، حيث كان بإمكانهم الطّلَب من الصحفيين الرّجوع إليها وتوفير الكثير من الوقت على أنفسهم؟ لا، لقد رفعوا مُحاضرة رئيس قسم العلوم لأنهم لاحظوا أن عليهم أن يُخفوا شيئاً. إليكم هذا المقطع من بداية نص المحاضرة:

> "دعونا نقول منذ البداية بأننا نرفض تلك الفكرة التي، وربما بشكل غير مقصود، انتشرت بواسطة فرنسيس بيكون في القرن السابع عشر، بأنه هُناكَ كتابان (كتاب الطبيعة والكتاب

المقدس) اللذان يبحثان عن الحقيقة بشكل مُستقلّ. لكننا مقابل ذلك، نقف بحزم وراء القول بأن الله تكلَّم بشكل سلطوي ومعصوم عن الخطأ في صفحات الكتاب المقدس. ومهما بدا ذلك هشّاً وبسيطاً وقديماً، بالأخص لثقافة مدمنة التلفزيون وفاقدة للإيمان، فنحن متأكدون أنه من أمتن القواعد للتأسيس والبناء عليه".

عليك أن تقرص نفسك باستمرار لتعرف بأنك لا تحلم. ليس هذا كاهناً في خيمة في آلاباما، ولكنه رئيس الهيئة العلمية في مدرسة تصبّ فيها الحكومة البريطانية المال، ومحلّ فخر واعتزاز لطوني بلير. السيد بلير نفسهُ يعترف بأنه مسيحي مؤمن، كان على رأس حفل الافتتاح عام 2004 لإحدى المدارس الجديدة في سلسلة مدارس فاردي[146]. ربما تكون التعدُدية ذات قيمة مرغوبة، لكن التعدُدية هنا قد فقدت صوابها.

يمضي لايفيلد بتحديد مُقارنات بين العلم وقصة الخلق، وفي كُل مرة يظهر هناك تناقضاً، فإنهُ يفضِّل الكتاب المقدس. إنهُ يشير إلى أن علم الأرضَ الآن أصبح ضمن منهج الدراسة الوطني، ويعلق على ذلك بقوله: "إنه من الحكمة لكل المُدرسين في هذا الاختصاص في المنهج الدراسي أن يطَّلعوا على مقالات وايتكومب وموريس حول جيولوجيا الطوفان". نعم، "جيولوجيا الطوفان" تعني ما تفكرَ أنها تعني. نحن نتكلم عن سفينة نوح هنا. سفينة نوح! في حين أن الأطفال يتعلمون المثير من الحقائق، مثل أن أفريقيا وأمريكا الجنوبية كانتا مُلتصقتين وابتعدتا عن بعضيهما بالسرعة التي تنمو بها الأظافر. وإليك مقطعاً آخر من لايفيلد (رئيس الهيئة العلمية) عن طوفان نوح كتفسير سريع لظاهرة، التي تبعا للأدلة علم طبقات الارض، استغرقت ملايين السنين لتتشكل:

" علينا الاعتراف ضمن نموذج فيزياء الارض الكبير لدينا، بالأحقية التاريخية لطوفان عالمي كما هو مذكور في سفر التكوين (الفصل 6-10). وإذا كانت القصة المقدسة ذات مصداقية وأن سلالة الأنساب (مثلاً في التكوين 5، ومتى 1، ولوقا 3) متكاملة بشكل كبير، علينا توقُّع بأن تلك الكارثة العالمية حدثت في الماضي القريب. تأثيرها شامل وواضح في كُل مكان. من أهم هذه الأدلة هي تلك التي توجد في الأحفوريات الصخرية، ومخزون الطاقة الهيدروكربونية الكبير (بترول وغاز وفحم)، وتكرّر تلك القصص (الأسطورية) لطوفان عظيم عند العديد من الحضارات في العالم. إن أمكانية بناء سفينة مليئة بممثلين عن جميع الكائنات الحية، وبقاءهم واستمرار حياتهم فيها لسنة كاملة حتى وقت انحسار الماء، مدوّن وبشكل جيد من قِبَل العديدين، ومنهم جون وودموراپي".

بشكل ما، يبدو ذلك أسوأ من التصريحات لأشخاص لا يعلمون شيئاً، كأمثال نايغل ماكويد أو الأسقف واين مالكولم أعلاه، ذلك لأن لايفيلد شخص متخصِّص علمياً. وإليكم مقطعاً آخر مثيراً للدهشة:

"كما ذكرت سابقاً، فإن المسيحيين، ولأسباب جيدة جداً، يعتبرون العهد القديم والعهد الجديد مصدرين موثوقين لما يجب علينا الإيمان به. إنهما ليسا وثيقتين دينيتّين فقط. بل يوفّران صورة دقيقة لتاريخ الأرض الذي نتجاهلهُ على مسؤوليتنا".

إن الادعاء بأن الكتاب المقدس يقدم لنا صورة دقيقة للتاريخ الجيولوجي سيصيب أي باحث ديني ذي سمعة طيبة بالإستياء. أنا وصديقي ريتشارد هاريس، بطريرك أكسفورد، كتبنا رسالة مشتركة لطوني بلير وجمعنا تواقيع ثمانية أساقفة وتسعة عُلماء طبيعيين مرموقين[147]. من العلماء التسعة رئيس الجمعية العلمية الملكية (سابقاً أقرب مُستشار علمي لطوني بلير)، ومُديرا قسمَي الفيزياء والطبيعيات في الجمعية الملكية، والفلكي رئيس المرصد الملكي (رئيس الجمعية الملكية حالياً)، ومدير متحف التأريخ الطبيعي في لندن، والفارس دايفيد آتينبورو، الذي هو ربما الشخصية الأكثر تقديراً في إنكلترا. ومن القساوسة كان واحداً من الروم الكاثوليك، وسبعة من الإنجيليين – رؤساء الطوائف الدينية في كُل أنكلترا. وَصَلَنا رد متثاقل وغير شافي من مكتب رئيس الوزراء يلمِح فيه إلى النتائج الجيدة للخريجين من المدرسة، والتقرير الجيد من قبل دائرة الإشراف التربوي. ربما لم يخطر للسيد بلير أن هناك مشكلة ما في هيئة الإشراف التربوي إذا كان مفتشو مكتب الرقابة على التعليم قد أعطوا تقريراً جيداً عن مدرسة يتم فيها التعليم بأن كُل الكون بدأ بعد أن تمكَّن الإنسان من جعل الكلاب حيوانات أليفة.

ربما يكون المقطع الأكثر إزعاجا في مُحاضرة لايفيلد هو نهايتها "ما الذي يمكن فعله؟". حيث يذكر بعض الأساليب لاستعمالها من قبل الأساتذة الراغبين بإدخال المسيحية المُتطرفة في المناهج العلمية. وكمثال فهو يحث الأساتذة على:

"إنتبه لكُل موقف يتم فيه طرح فكرة قدم الأرض (ملايين أو مليارات السنين) بشكل صريح، أو يتمّ التنويه لها في كتاب، أو سؤال، أو من قبل زائر، ثم أشر بلطف بأنَّ الطرح خاطئ. وكُلَّما كان ذلك مُمكناً علينا أن نعطي البديل (الأفضل دوماً) الإنجيلي الذي يفسر هذه المعلومات. علينا تناول بعض الأمثلة من كُل كتب الفيزياء والكيمياء والأحياء في المقرّرات المفروضة، وكُلٌ بدوره".

بقية محاضرة لايفيلد لا تعدو عن كونها برنامجاً دعائياً ومصدراً لأساتذة مادة الأحياء، والكيمياء، والفيزياء، المُتدينين من الذين يرغبون بهدم المناهج المثبتة علمياً وإبدالها بنصوص من الكتاب المُقدس، دون الخروج عن حدود المناهج المقررة تربوياً لكل المدارس.

في الخامس عشر من نيسان عام 2006، أجرى جايمس نوتي، أحد أكثر محرَري البي بي سي خبرة، مُقابلة إذاعية مع السير بيتر فاردي. الموضوع الأساسي كان عن تحقيق جنائي لاتهامات أنكرها فاردي عن رشاوي مختلفة -مثلاً ألقاب نبيلة بمستويات مختلفة- قد عُرِضَت من قبل حكومة بلير لبعض الأغنياء كمحاولة لإشراكهم في مخطَّط أكاديميات المدن. نوتي سأل فاردي أيضاً عن موضوع نظرية الخلق، وفاردي نفى

جملة وتفصيلاً بأن تكون كلّية إيمانويل تدرِّس طلابها أفكار الخلوقية. أحد خريجي كلية إيمانويل، بيتر فرنش[148]، صرح بإصرار مماثل على أنه "تمّ تدريسنا بأن عمر الأرض ستة آلاف عام"[1]، فمن منهم يقول الحقيقة؟ لا نعرف ذلك، ولكن محاضرة ستيفن لايفيلد وضعت الخطوط العريضة لتدريس المناهج العلمية بشكل صريح وواضح جداً. ألم يقرأ فاردي مُحاضرة لايفيلد؟ ألا يعرف فعلاً ما ينوي رئيس قسم العلوم فعله في أكادميته؟ لقد جمع بيتر فاردي أمواله من بيع السيارات المُستعملة. هل ستشتري واحدة منه؟ وهل ستبيعه -كما فعل طوني بلير- مدرسة بعُشْرِ ثمنها وتعرض دفع كُل مصاريف تشغيلها؟ لنكن مُتسامحين مع بلير ونفترض بأنه، على الأقلّ، لم يقرأ محاضرة لايفيلد. أظنُّ بأن الأمل بأن ينتبه للموضوع الآن سيكون مبالغاً فيه.

قدَّم المدير ماكويد دفاعاً عما يعتقد بأنهُ روح الإنفتاح في مدرستهِ، دفاع مثير للملاحظة للهجته الاستصغارية الصَّلِفة:

> "المثال الأفضل الذي يمُكنني أن أعطيه عن الإنفتاح هنا في شكل محاضرة فلسفية كنت أعطيها لطلبة الصف السادس. شاكيل كان جالساً هناك يقول بأن "القرآن صحيح وفيه نجد كلَّ الحقّ"، بينما كلارا تجلس هناك وتقول "لا، الإنجيل فيه كل الحق"، وبدأنا بالحوار حول التشابهات والتناقضات الموجودة في تلك الكتب. واتفقنا بأنهُ لا يُمكن أن يكون كلاهما على حق. وأخيراً قلت "آسف يا شاكيل، أنتَ مُخطئ، الإنجيل هو الكتاب الذي فيه كلّ الحق"، فقال: "آسف يا سيد ماكوي، أنتَ مُخطىء، بل هو القرآن". بعدها ذهبا للغداء في صالة الطعام واستمر النقاش هناك. هذا هو ما نريدهُ. نريد لأطفالنا أن يعرفوا لماذا يؤمنون بما يؤمنون بهِ وليدافعوا عنه"[149].

يا لها من صورة جذابة! شاكيل وكلارا ذهبا للغداء سوية، يناقشان بحماس البراهين ويدافعانِ عن اعتقاديهما غير المتوافقين. لكن هل فعلاً هذا شيء جذابٍ في الحقيقة؟ أليست في الحقيقة صورة مُحزنة تلك التي رسمها ماكويد؟ ما الذي يبني شاكيل وكلارا حُجَجِهِما عليه؟ ما هي الأدلة التي أتى بها كلاهما لدعم كلامه في نقاشهما الحماسي والبنَّاء؟ كلارا وشاكيل كلاهما زعم ببساطة أن كتابهُ المقدس أفضل من الكتاب الآخر. وهذ كل شيء. هذا كُل ما يبدو أنهم قالوه، وهذا كُل ما يُمكنك قوله بالتاكيد عندما يكون ما درستهُ هو أن الحقيقة تأتي من كتاب مقدس عوضاً عن الأدلة. كلارا وشاكيل، وكل أصحابهما، لم يكونوا يحصِّلون ثقافة وتعليماً. لقد خُذِلوا من قِبَل مدرستهم، ومسؤولوها كانوا يؤذونهم، ليس جسدياً، ولكن عقلياً.

1 . لكي يتخيل القارئ حجم الخطأ في هذا التصوّر، أستطيع أن أذكر بأن هذا الاعتقاد أشبه بالاعتقاد بأن المسافة بين نيويورك وسان فرانسيسكو هي 7.1 متر.

رفع الوعي مرة أخرى

والآن إليكم صورة جذابة أخرى. في أحد أيام عيد الميلاد كانت صحيفتي اليومية، "الأندبندنت"، تبحث عن صورة مناسبة للموسم، وعثرت على واحدة عالمية حميمة في مسرحية الميلاد في مدرسة للأطفال. حيث لعب دور الحكماء الثلاثة، كما هو مكتوب بالخط العريض في العنوان، شادبريت (من ديانة السيخ)، ومُشَرّف (مسلم)، وعادل (مسيحي)، وجميعهم في الرابعة من العمر.

جذابة؟ تدفئ القلب؟ لا، ليست كذلك، لا هذه ولا تلك، بل هي بشعة. كيف يمكن لإنسان محترم أن يعتقد بأنه من الصواب وسْمُ طفل في الرابعة من عمره بموقف والديه من مسائل كونية ودينية؟ لتوضيح ذلك، تخيّل الصورة نفسها مع عنوان مغاير بالشكل التالي: "شادبريت (كينيزي)، ومُشَرّف (نقدي)، وعادل (ماركسي)، جميعهم في الرابعة". ألن يؤدّي هذا إلى موجة عارمة من رسائل الإحتجاج الغاضبة؟ بالتأكيد هذا ما يجب أن يكون. بالرغم من ذلك، وبسبِب الامتياز الغامض الذي تتمتع به الأديان، لم يُسمع أي صرير، ولم يُسمع أي صوت آخر في أي مناسبة مماثلة. تخيل فقط بأن العنوان أصبح "شادبريت (مُلحد)، ومُشَرّف (لاأدريّ)، وعادل (علماني إنساني)، جميعهم في الرابعة من العمر". ألا يجب التحقق في هَذه الحالة من أن آباءهم أهل لتربية الأطفال؟ في بريطانيا، حيث ينقصنا قانون يفصل الدين عن الدولة، يسبح الأهل المُلحدون مع التيار، ويتركون المدارس تعلِّم أولادهم الديانة التي تصدف هيمنتها على الثقافة المعاصرة. هُناكَ موقع أمريكي ذا برايت (*Thebright.net*) يحاول إعطاء المُلحدين لقب (الأذكياء) للتميّز عن التيار العام، تماماً كما حصل مع المثليين بإعطائهم لقب (Gay)، ويحدِّد هذا الموقع بدقة كل ما يخص الأطفال حيث: "أن القرار بأن ينتمي الطفل إلى طائفة "الأذكياء" يجب أن يكون قرار الطفل نفسه. أي طفل يقال لهُ بأنه يجب، أو يفترض به، أن يكون كذلك **لا** يُسمح بانتمائه". هل تستطيع أن تتخيّل كنيسة أو جامعاً يُصدر قراراً بمثل هذا التواضع؟ ألا يجب أن يُجبَروا على ذلكَ؟ أنا شخصياً انتسبتُ إلى طائفة (الأذكياء)، وأحد الأسباب لذلك هو أنني كنُتُ فضولياً لأرى إذا ما كان ممكناً لكلمة كهذه أن تُهَنْدَسَ وتُدْفَعَ لتدخل ميمية اللغة. لا أعرف، وأودُّ أن أعرف فيما إذا كانت كلمة (Gay)، والتي تعني سعيد ومرح أساساً، قد هُنْدسَت ودخلت اللغة بطريقة مدروسة، أو أنها حصلت صدفة[150]، إن حملة (الأذكياء) قابلت معارضة شديدَة في بداياتها عندما رفضها بعض المُلحدين خوفاً من أن يوصَفوا بالتكبّر. إن حركة الفخر بالمثلية "برايد" (Pride)، لحسن الحظّ، لم تعاني من ذلك التواضع الزائف، وربما ذلك كان سبب نجاحها.

في فصل سابق كنت قد طرحت موضوع "رفع الوعي" بصورة عامة، وبدأت بمنجزات مناصري المرأة التي جعلتنا ننتبه عند سماعنا عبارةً مثل "رجال النوايا الحسنة" بدل "أناس النوايا الحسنة". وهنا أُريد أن أرفع الوعي بطريقة أخرى. أعتقد بأن علينا جميعاً أن نجفل عند سماعنا بأن طفلاً صغيراً يوسَم بأنه يتبع ديناً ما. الأطفال صغار جداً على أن يقرِروا وجهة نظرهم عن نشأة الكون والحياة والأخلاق. إن العبارة ذاتها (طِفل مسيحي) أو (طفلٌ مسلم) يجب أن تزعج السّمْع كصرير الأظافر على السبّورة.

إليكم هذا التقرير بتأريخ 3 أيلول 2001 من راديو آيرلندا أف أم.

"تلميذات كاثوليكيات واجهْنَ معارضةً من المُوالين عند محاولتهنَّ الدخول لمدرسة الصليب المقدَّس الابتدائية للبنات الكائنة في شارع آرديون في شمال بلفاست. كان على ضبّاط الشرطة الملكية والجيش البريطاني إزاحة المعارضين الذين حاولوا سدَّ طريق المدرسة. تمّ رصْفُ حاجز من شرطة مكافحة الشغب للسّماح للأطفال بالمرور عبر المُحتجِّين إلى المدرسة. الموالون إستهزؤوا وصرخوا كلمات طائفية بينما أهل الأطفال، منهنَّ من هي في سن الرابعة، رافقوا بناتهم إلى المدرسة. عندما دخل الآباء والأطفال من باب المدرسة، رمى الموالون المدرسة بالزّجاجات الفارغة والحجارة".

أيّ شخص عادي سيَصدَم من حدث كهذا يحصل لفتيات صغيرات. أحاول هنا بكل الوسائل أن أدفع الجميع للشعور بالصّدمة أيضاً ضد فكرة وسْمهِنَّ بـ (تلميذات كاثوليكيات) بالأساس. (وكما أشرت إليهم في الفصل الأول، فإن كلمة المُوالين هي كناَية لوصف الأيرلنديين الشماليين البروتستانتيين، تماماً كما تُستعمل كلمة الوطنيين كناية عن الكاثوليكيين. الأشخاص الذين لا يتردَّدون في وصف أطفال صغار ككاثوليكيين أو بروتستانتيين، يتردَّدون بإطلاق نفس المواصفات الدينية، مع أنها أكثر موضوعية، على البالغين من الإرهابيين والعصابات).

مجتمعنا، ويتضمن أيضاً اللادينيين، قد تقبّل فكرةً غير معقولة عن أنه من الطبيعي ومن الحقّ أن يتمّ تلقين الأطفال الصِّغار دين آبائهم وإلصاق علامات دينية عليهم؛ "طفل كاثوليكي"، "طفل بروتستانتي"، "طفل يهودي"، "طفل مسلم"، والخ. لكن لا توجدِ أسماء أو نعوت مناظرة، مثلاً: ليس هُناكَ طفل محافظ، أو ليبرالي، ولا طفل جمهوري، أو ديمقراطي. رجاءً، أرجوكم أن ترفعوا وعيكم بهذا الموضوع، عند سماعكم شيئاً كهذا، إفعلوا شيئاً. الطفل ليس طفلاً مسيحياً أو مسلماً، بل هو طفل لأبوين مسيحيين أو مسلمين. تلك التعاريف، بالمناسبة، هي طريقة عظيمة لرفع وعي الأطفال أنفسهم. الطفل الذي يقال لهُ بأنهُ (طفل لأبوين مسلمين)، سيعرف فوراً بأنَّ الدين هو شيء لهُ أن يختاره -أو يرفضه - عندما يصبح في عمر يؤهِّله لذلك.

دراسة الأديان المُقارنة ذات فائدة عظمى. شخصياً بدأت شكوكي عندما كنت في حوالي التاسعة من العمر، عندما عرفت (من أهلي وليس من المدرسة) بأن المسيحية التي تربّيتُ عليها هي أحد الأنظمة الإيمانية العديدة المُتناقضة في العالم. المدافعون عن الأديان لاحظوا هذا الشيء، وهو أحياناً يخيفهم. بعد قصة مسرحية الميلاد تلك في "الاندبندنت"، لم تصل أي رسالة للمُحَرر تشتكي من تمييز الأطفال ذي الأربع سنوات ووصفهم بدياناتهم. الرسالة السلبية الوحيدة وصلت من "حملة التعليم الحقيقي" والتي قال المتحث بإسمها نيك سيتون، بأن تدريس الديانات المُتعددة خطر لأن "الأطفال في أيامنا هذه يتعلمون أن الديانات جميعها ذات قيمة متساوية، وهذا يعني بأن دينهم ليس له أي قيمة خاصة". بالتأكيد، هذا هو المقصود من ذلك، وهذا المتحدث بإسم المنظمة له كل الحق في أن يكون قلقاً. في مناسبة أخرى قال الشخص نفسه: "إن التعريف بأن كُلَّ الدِّيانات لها نفس المصداقية هو خطأ. الكلُّ له الحقّ بالإعتقاد بأن

إيمانه أفضل من الآخرين، سواء كانوا من الهندوس، أو اليهود، أو المسلمين، أو المسيحيين وإلا فما المعنى من امتلاكنا للإيمان؟"[151]

بالفعل ما المعنى؟ وأي هُراء مفضوح هذا! إن الأديان مُتناقضة فيما بينها. فماذا يعني أن يكون إيمانك أفضل؟ غالبيتهم لا يمكن، لأجل ذلك، أن يكونوا "أفضل من الآخرين". لندع الأطفال يتعلمون الأديان المُختلفة، ولندعهم يلاحظون التناقض، وليستخلصوا آراءهم الخاصة بهم عن نتائج هذا التناقض. أما بخصوص أيّ منها "صحيح" أو لا، فلندعهم يقرروا ذلك بأنفسهم عندما يصبحون في عُمْرٍ يؤهِّلُهُم لذلك.

التعليم الديني كجزء من الثقافة الأدبية

عليّ أن أعترف بأنني مندهش من الجهل العام بالكتاب المقدس في العقود الأخيرة. ربما أن الأمر ليس موضوع عقود من الزمن فقط. حيث يذكر روبرت هيند في كتابه الفكري "لماذا تستمر الآلهة" إستطلاعاً للرأي تمّ في الولايات المتحدة عام 1954، وجد بأن ثلاثة أرباع الكاثوليكيين والبروتستانتيين لم يستطيعوا تسمية نبي واحد من العهد القديم. وأكثر من الثلثين لم يعرفوا من ألقى موعظة الجبل. وعدد كبير ظنّ بأن موسى هو أحد تلاميذ يسوع الإثني عشر. وأكرر، كان هذا في الولايات المتحدة الأمريكية التي هي أكثر تديّناً وبشكل درامي من كُل البلاد الأخرى في العالم المتحضِّر.

إن إنجيل الملك جيمس من 1611 -الطبعة المُعترف بها- يتضمن بعض المقاطع من الأدب البارز بحد ذاته، مثل سفر نشيد الانشاد، وسفر الجامعة (وقد قيل لي بأن الطبعة العبرية الأصلية تتضمّن ذلك أيضاً). لكن السبب الرئيسي لأن يكون الإنجيل الإنكليزي أحد أجزاء التعليم الأدبي، هو أنه مصدر رئيسي للثقافة الأدبية. الشيء نفسه ينطبق على الآلهة الأغريقية والرومانية، فقد درسناهم دون المُطالبة بالإيمان بهم. وإليكم الآن لائحة سريعة عن جمل أدبية إنجيلية أستُوحيَتْ من الإنجيل، والتي تُستعمل بشكل شائع في الإنكليزية المكتوبة أو المحكية، ومن بعض الأشعار العظيمة للكليشيهات المبتذلة، ومن الأمثال، وحتى الثَّرْثَرة.

جنة عدن • ضلع آدم • أكْرِم قريبك • إشارة قابيل • قديم قدم ميتوشالح • صحن حساء • باع حقوق بكريته • سلم يعقوب • معطف بألوان كثيرة • وسط الذرة الغريبة • أعمى في غزة • دهن الأرض • العجل المُسمن • غريب في أرض غريبة • العليقة المشتعلة • أرض العسل واللبن • العين بالعين والسن بالسن • لؤلؤة العين • النجوم في فصولها • زبدة في طبق رباني • مضيفات مدين • من القوي تخرج الحلاوة • رجل يتبع قلبه • مثل داوود وجوناثان • تجاوز حب النساء • كيف سقط الجبابرة؟ • خروف نعجة • رجل من بيليال • لم اعلم بالنصف • ضحية الفداء • ملكة سبأ •

حكمة سليمان • صبر أيوب • الحكمة أغلى من الياقوت • ليفياثانو، وحش البحر • اذهب إلى نملة الكسلان ؛ ضع في اعتبارك طرقها ، وكن حكيماً • كلمة في وقتها • كله غرور من الغرور• كلٌ بميعاد •السباق ليس سريعًا ، ولا هي معركة للأقوياء • أنا وردة شارون• حديقة مُغلقة • الثعالب الصغيرة. • الكثير من المياه لا تستطيع إخماد نيران الحب • من السيوف مناجل • يسكن الذئب أيضًا مع الخروف ، ويضع النمر مع الطفل • لنأكل ونشرب فغداً سنموت • أحكم بيتك • صوت صارخ في البراري • لا سلام للأشرار • انقطعت عن أرض المعيشة • بلسم في جلعاد • سترى عيونكم • زنابق الأرض • هل يمكن أن يغير النمر مواقعه؟ • دانيال في قفص الأسد • إزرع ريحاً واحصد العواصف • سدوم وعمورة • ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان • ملح الأرض • أدرْ خدك الآخر • إرمي اللآلئ للخنازير • ذئب بثياب الحملان • البكاء وصرير الأسنان • نبيذ جديد في زجاجات قديمة • تخلص من غبار قدميك • من ليس معي فهو ضدي • حكم سليمان • لا كرامة للأنبياء في أرضهم • فتات مائدة الأغنياء • إجمعوا كنوزكم في السموات • علامة الزمان • عرين اللصوص • فريسي • القبر الأبيض • الحروب وأخبار حروب • أيها العبد الصالح المؤمن • إعزل الخراف عن الجداء • إنني أغسل يدي • جُعل السبت من أجل الإنسان ولم يُجعل الإنسان من أجل السبت • دع الأطفال يأتون إليّ • سوس الأرامل • طبيب يداوي نفسه • السامري الصالح • يمشي على الماء • الخروف الضال • الابن الضال • ألقي الحجارة الأولى • يسوع بكى • توما الشكاك • الطريق إلى دمشق • من خلال كوب مظلم • أيها الموت أين شوكتك • ظفر في العين • أساس الشرّ • جاهد في طريق الصلاح • كل اللحم قش • المركب المتأرجح • أنا البداية والنهاية • اليوم العظيم • من الأعماق أصرخ إليك، إلهي • الشمس تشرق على الأشرار والأبرار.

كل واحدة من هذه التعابير والجمل، أو الكليشيهات، آتية مُباشرة من إنجيل الملك جيمس. إن الجهل بالإنجيل يؤدي لفقر في إمكانية تقدير الآداب، أليس كذلك؟ وليس فقط الأدب الرفيع والجاد. ما يلي قصيدة من إبداع اللورد جاستيس باون، والذي كان عضواً في محكمة بريطانيا العليا، غنية بالإبداع.

المطر النازل على الأخيار
لا يؤثّر بشيء على الأشرار
لأنهم يحتمون من هذه الأمطار
بمظلأت يصنعها الأخيار

لكن المتعة تخبو إن لم تكن تعرف تلميحات المقطع من إنجيل متى 45:5 "فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ". وكذلك النقطة التي أشارت لها أليزا دوليتل في "سيدتي الجميلة"،

وهي تحلم بما تتمنّاه لمن جعل نفسه عليها مُعلّماً، سوف لن تُفْهَم هذه النقطة من قِبَل من هو جاهل بنهاية يوحنا المعمدان الذي فقد رأسهُ:

شكراً أيها الملك، قلتها بصدق شديد
رأس هنري هيكنز هو كل ما أريد

شخصياً، أرى بي. جي. وولدهاوس أعظم كاتب إنكليزي للكوميديا الخفيفة، وأراهن أن نصف جمل اللائحة الإنجيلية التي نوّهتُ عنها يمكن العثور عليها في نصوصه. إن كتب وولدهاوس غنية بعبارات إنجيلية أخرى وليست مما تضمّنتها لائحتي، وليست مما يُستعمل في اللغة التعبيرية، أو الأمثال. لنستمع إلى وصف لبيرتي ووستر عن الاستيقاظ مع صداعٍ سببه الكحول: "حلمت بأن أحداً يغرسُ مساميرَ في رأسي، ليست مسامير عادية من التي تستعلمها جيل زوجة هيبير، بل حارّة لدرجة الإحمرار". بيرتي نفسه فخور جداً بفوزهِ بنجاحهِ الفكري الوحيد الذي حصل عليه من خلال دراسته للكتاب المقدس في المدرسة.

ما ينطبق على النصوص الكوميدية الإنكليزية، ينطبق بشكل أكبر على النصوص الأدبية الجادة. نصيب شاهين قام بحساب عدد الاقتباسات الإنجيلية في روايات شكسبير ووصل حتى 1300 عبارة، رقم منتشر بشكل واسع وجدير بالثقة[152]. تقرير الأدب الإنجيلي المنشور في فيرفاكس في فيرجينيا (المموّلة من سيئة الصّيت مؤسسة تيمبلتون) يُعطينا أمثلة كثيرة، ويبين بشكل واسع اتّفاق أساتذة الأدب على أن عبارات الإنجيل ضرورية لتقدير المادة الدراسية[153]. وبدون شك، الموضوع هو نفسه بخصوص الأدب الفرنسي، والألماني، والروسي، والإيطالي، والاسباني، وكل اللغات الأوروبية الأخرى. بالنسبة للمتكلّمين بالعربية، أو الهندية، فمعرفتهم بالقرآن والبهاغافاد غيتا ضرورية أيضاً لجعلهم قادرين على تقدير التراث الأدبي للغاتهم. وأخيراً، ولختم الموضوع، فإنك لا تستطيع تقدير فاغنر (والذي قيل عن موسيقاه بأنها أفضل مما تبدو لسامعيها) بدون أن تمرّ في طريقك على آلهة الشمال القديمة.

لا أريد أن أكونِ مملّاً بالتفاصيل. ربما قلت ما يكفي لإقناع قرائي الأكبر سناً، على الأقل، بأن وجهة النظر الإلحادية لا تبرر رمي الإنجيل وباقي الكتب المقدسة خارج نطاق مناهجنا الدراسية. وبالتأكيد لا شيء يمنعنا من أن نُكنَّ الولاء للتقاليد الثقافية والأدبية تجاه، على سبيل المثال، اليهودية والمسيحية أو الإسلام، بل وحتى الاشتراك في الطقوس الدينية المُتَّبَعة في الزواج والعزاء، بدون أن نحتاج لأن نقتبس إيمانهم بالخوارق التي ترعرت إلى جانب تلك التقاليد تأريخياً. نستطيع ترك الإيمان بالله دون خسران العلاقة مع التراث الثمين.

الفصل العاشر

فجوة ضرورية جداً؟

ما الذي يستطيع أن يحرك المشاعر الروحية أكثر من النظر في تلسكوب عملاق إلى مجرّة بعيدة، أو أن تكون بين يديكَ مُتحجرة عمرها 100 مليون عام، أو أداة حجرية عمرها 500000 سنة وأنت تنظر إليها. أو وقوفك أمام الهوّة الهائلة للمكان والزمان في وادي غراند كانيون، أو الإصغاء لعالِم يحدِّق في وجه الكون دون أن يرمش له جفن؟ ذلك هو العِلم العميق والمقدس.

مايكل شيرمر

"هذا الكتاب يملأ فجوة ضرورية جداً". تلك الدَّعابة تصلُح لأننا نفهم المعنيَين المُتضادَّيْن لها معاً. بالمصادفة، كنت أعتقد بأنها نكتة مُخترَعة، ولكن ولدهشتي، وجدت أنها استُعْمِلَت فعلاً وبكل براءة من قبل ناشرين. راجع: www.amazon.co.uk/Tel-Quel-Reader-Patrick-Ffrench/dp/0415157145
هناك يتمّ الحديث عن كتاب "يملأ فجوة ضرورية جداً في الأدب الموجود عن حركة ما بعد البنيوية". يبدو أنه من المناسب جداً أن يكون هذا الكتاب المعترَف به كزائد عن الحاجة، كله عن ميشيل فوكو، ورونالد بارث، وجوليا كريستيڤا، وآخرون من رموز الفرانكوفونية.

هل يملأ الدين فجوة ضرورية في حياتنا؟ غالباً ما يُقال بأن هُناكَ فجوة في الدماغ على شكل إله يجب ملؤها: هناك حاجة نفسية للإله -صديق مُتخَيل، أب، أخ أكبر، أب الاعتراف، شخص حافظ للأسرار، وهذه الحاجة يجب إشباعها سواء كان الإله موجوداً أم لا. لكن هل من المُمكن أن يكون من الأفضل أن نملأ تلك الفجوة بشيء آخر غير الإله يجعلنا بحالة أفضل؟ علمٌ ربما؟ فنْ؟ صداقة؟ إنسانية؟ حُبّ الحياة في العالم الحقيقي بدون الحاجة للإيمان بحياة أخرى ما وراء القبر؟ حُبّ الطبيعة، أو ما سمّاه عالِم الحشرات العظيم أي. أو. ويلسون بـ "بيوفيليا"[1].

خلال عصور مختلفة، لعب الدين أربعة أدوار رئيسية في حياة الإنسان وهي: تفسير، وحثّ، وعزاء، وإلهام. تأريخياً، طمح الدين لتفسير وجودنا والطبيعة من حولنا والكون الذي وجدنا أنفسنا به. دورهُ هذا في أيامنا هذه قد تولّاه العلم بشكل كامل، وقد تعرّضتُ لتلك الفكرة في الفصل الرابع. أما بالنسبة للحثّ، فما أعنيه هو تلك التعاليم الأخلاقية لما يفترض أن نعيش وفقاً لها، وقد غطيت ذلك في الفصل السادس والسابع. حتى الآن لم أتناول موضوعَي العزاء والإلهام، وفي هذا الفصل الأخير سوف نتعرض لهما بشكل وجيز. كتمهيد للعزاء نفسه، أُريد أن أبدأ بظاهرة طفولية تسمى بـ (الصديق المُتخيّل)، والتي باعتقادي، لها علاقة مباشرة بالإيمان الديني.

بينكر

في اعتقادي أن كريستوفر روبين لم يصدِّق أن صغير الخنزير بيغليت، والدبدوب ويني ذا بو (شخصيات كارتونية) تكلّما معهُ. ولكن هل كان وضْعُ بينكر مُختلفاً؟

بينكر -هذا ما أدعوه- هو سرّي الكبير
بينكر هو السّبب في أنني لا أشعر بالوحدة أبداً
لو جلستُ على السلالم أو لعبتُ على السّرير
أو أينما ذهبتُ، فبينكر سيكون معي
نعم... أبي ذكي، إنه من نوع الرجال الأذكياء

1 . Biophilia، يُقصَد بها هنا هو التشدد و المبالغة بحب الطبيعة لدرجة عالية جداً من أجل الحفاظ عليها و حمايتها. (المترجم).

وأمي هي الأفضل منذ بداية العالم
ونانا هي نانا وأنا أناديها نان
ولكنهم جميعاً لا يرون بينكر
بينكر يتكلم دائماً، لأني أعلمه الكلام
بعض الأحيان يتكلم بشكل مُضحك كالصّرير
وبعض الأحيان يصرخ بزمجرة...
ويجب أن أساعده لأن حنجرته تؤلمه
نعم... أبي ذكيّ، إنه من نوع الرجال الأذكياء
وأمي تعرف كُل ما يمكن للمرء معرفتهُ
ونانا هي نانا وأنا أناديها نان
ولكنهم لا يعرفون بينكر
بينكر شجاع كالأسد عندما يركض في الحديقة
بينكر شجاع كالنَّمر عندما يستلقي في الظلام
بينكر شجاع كالفيَل وأبداً ... أبداً لا يبكي
إلاَّ (مثل الآخرين) عندما يدخل الصابون في عينيه...
نعم... أبي هو أبي ... إنه من النوع الأبويّ من الرجال
وأمي هي أمي ... كما تستطيع الأمّهات أن تكون
ونانا هي نانا ... وأنا أناديها نان
ولكنهم لا يحبون بينكر
بينكر ليس طمّاعاً، ولكنه يحب كل شيء يؤكل
لهذا فعليّ أن أقول للناس عندما يعطوني قطع الحلوى
"آه... بينكر يريد أيضاً، فهل يمكن أن تعطيني اثنين؟"
وبعد ذلك آكل أنا نيابةً عنهُ "لأن أسنانهُ جديدة"
حسناً، أنا أحُبّ أبي ... ولكنه لا يملك الوقت للَّعب
وأحُبّ أمي كثيراً... ولكنها مشغولة بعض الأحيان
وعادة أنا في خلاف مع نانا عندما تريد تمشيط شعري بالفرشاة
ولكن بينكر دائماً بينكر، ودائماً موجود معي

أ. أ. ميلن، من قصيدة، "الآن أصبحنا ستة"

هل ظاهرة الصديق المُتخيّل وهمٌ أكبر، من صنف مُختلف عن خيال الأطفال العادي؟ إن تجربتي بهذا الصدد لن تُساعد كثيراً هنا. كالكثير من الأهل، فقد قامت أمي بتدوين كل عباراتي الطفولية. باستثناء بعض الألعاب التقمّصية (أنا الآن هو الرجل على القمر... أقود السيارة... وأنا البابلي)، فمن الواضح أنني كنت من مُعجَبي التظاهر من الدرجة الثانية (أنا الآن بومة تتظاهر بأنها ناعورة) والتي ممكن إسقاطها

على (أنا الآن صبي صغير يتظاهر بأنه ريتشارد). لم أؤمن على الإطلاق بأني أحد تلك الأشياء، وأعتقد أن الحال نفسه في أغلب ألعاب الصبيان التمثيلية. ولكن لم يكن لديّ بينكر. وفقاً لاعترافات أؤلئك البالغين عن أصدقاء طفولتهم المتخيّلين، فإن بعض هؤلاء الأطفال الطبيعيين على الأقل كان مؤمناً حقاً بأن لديه صديقاً خيالياً، وفي بعض الأحيان يرونهم كهلوسة حقيقية واضحة. أشتبه بأن هذه الظاهرة الطفولية يمكن أن تكون نموذجاً جيداً لفهم الإيمان التوحيدي لدى البالغين. لا أعرف إذا ما كانَ علماء النفس قد درسوا تلك الظاهرة من وجهة النظر تلك، ولكن بحثاً كهذا جدير بالاهتمام. رفيق وحافظ أسرار، بينكر لمدى الحياة: ذلك بدون شك أحد الأدوار التي يلعبها الله؛ إنها الفجوة التي قد تبقى فارغة إذا ما اختفى الله.

طفلٌ آخر، فتاة، لديها "رجل صغير بنفسجي"، والذي كانَ حقيقياً ومرئياً بالنسبة لها. ويظهر بلمعة خاطفة في الهواء مع أصوات رنَّانة. يزورها بانتظام وخصوصاً عندما تشعر بالوحدة، وبتواتر يقلُّ مع تقدَّمها في العمر. في أحد الأيام، وقبل أن تذهب للروضة، الرجل الصغير البنفسجي أتى إليها، مسبوقاً بالصوت الرنّان، ليعلن لها بأنه لن يزورها بعد الآن. أحزنها ذلك، ولكن الرجل البنفسجي قال لها بأنها تكبر الآن ولن تحتاج إليه في المُستقبل. الآن عليه تركها ليتمكن من الإهتمام بأطفال آخرين. ووعدها بأنه سيعود إليها في حال حاجتها إليه بشكل ضروري فعلاً. وقد عاد إليها بعد عدة أعوام في حلم، عندما كان لديها مشاكل شخصية تتعلق بما تريد أن تفعل في حياتها. حيث فُتح باب غرفة نومها وظهرت عربة مُحمّلة بالكتب يدفعها... الرجل البنفسجي الصغير. فسّرت ذلك كنصيحة بأن عليها أن تذهب للجامعة، نصيحة أخذت بها وحكمت بأنها جيدة فيما بعد. القصة تدفعني تقريباً لذَرْف الدموع، وقد جعلتني أقترب قدر ما يجب، ربما، لتَفَهّم دور المواساة والنصح للإله المُتخيل في حياة النَاس. كائن يمكن أن يكون موجوداً فقط في المخيلة، ومع ذلك يبدو حقيقياً جداً لطفل، ويعطيه راحة حقيقية ونصائح جيدة. بل ربما أفضل من ذلك: الأصدقاء الخياليون – والآلهة الخياليون – يملكون كل الوقت والصبر لتكريس كُل انتباههم لمن يعاني من صعوبات. وهم أرخص بكثير من الأطباء النفسيين، أو المُعالجين المحترفين.

هل تطورت الآلهة كناصحة ومواسية من هذه الظاهرة (بينكر) كصنف من " استدامة المرحلة اليرقية" النفسي؟ استدامة المرحلة اليرقية هو استمرار الشخصية الطفولية لما بعد البلوغ. الكلاب البيكينية لها تلك الخاصية، فالبالغون منها يشبهون الجراء. ذلك أحد الأنماط المعروفة من تأريخ التطور، ومقبول بشكل واسع كنمط مهم يفسر بعض الصفات الإنسانية، كالجبين المُنتفخ والحنك الضيق عند الإنسان. التطوريون وصفونا كقرود يافعة، وذلك صحيح بالتأكيد لأن أحداث الشمبانزي والغوريلا تشبه الإنسان أكثر من كبارها. هل يمكن أن يكون الدين قد تطوّر بالأصل من تأجيلات متدرجة عبر الأجيال، بداية من النقطة التي يترك فيها الأطفال "بينكراتهم". تماماً كما تباطأنا نحن خلال التطور في تسطيح جبهاتنا وظهور النتوءات في أحناكنا؟

وكي نكون موضوعيين ، أفترض أنه علينا أن نأخذ بعين الإعتبار الاحتمال المعاكس. عوضاً عن أن يتطور الإله من سلفه بينكر، فهل يمكن أن يكون بينكر قد تطور من سلفه الإله؟ يبدو ذلك أقلّ احتمالاً بالنسبة لي. لقد دفعني للتفكير بذلك عندما كنت أقرأ للطبيب النفسي الأمريكي جوليان جاينس في كتابه "أصل

الوعي في انهيار العقل المزدوج"، كتاب غريب كما ينبئ عنوانه عنه. إنه أحد تلك الكتب التي هي إما نفايات بكاملها، أو إنتاج لعبقري. ولا شيء بينهما! ربما الاحتمال الأول، لكنني لا أريد الرهان عليه.

لاحظ جاينس بأن أكثر الناس يدركون عملياتهم الفكرية كنوع من المخاطبة بين "الأنا" ونصير داخلي آخر في الرأس. اليوم نعلم بأن كلا "الصوتين" يعودان لنا، وعندما لا نعرف ذلك، فإننا نعامَل على أننا مرضى نفسيين. حدث ذلك لفترة وجيزة مع ايفلين ووف. حيث قال لصديق بصورة مباشرة: "أنا لم أرَكَ منذ فترة طويلة، ولكني أيضاً لم أقابل الكثير من الناس لأنني – هل تعلم؟ - كنت مجنوناً لفترة"، بعد شفائه، كتب ووف رواية "محنة جلبرت بينفولد" حيث يصف فيها فترة الهلوسة والأصوات التي سمعها في رأسه.

جاينس يقترح في نظريّته بأنه في وقت ما قبل 1000 ق. م. لم يكن الناس مُنتبهين لوجود الصوت الآخر - نفس الصوت الذي سمعه جلبرت بينفولد- يأتي من الشخص نفسه. بل إنهم تصوّروا بأنه كان صوت الإله: أبولو مثلاً، أو عشتار، أو يهوه، أو أغلب الظنّ إله محلي منزلي، يعطي نصائح أو أوامر. جاينس استطاع تحديد منطقة صوت الآلهة في القسم المعاكس للقسم المتحكّم بالنُّطق المسموع من الدماغ. إن انهيار نظرية العقل الثنائي (المزدوج)، وفقاً لجاينس، هو تحوّل تاريخي. إنهُ ذلك المفصل الزمني عندما عرف البشر بأن الأصوات التي تبدو خارجية هي في الحقيقة داخلية. جاينس يذهب حتى لأبعد من ذلك بتحديد أن الفترة الزمنية لذلك الحدث التاريخي هي نفسها الفترة التي بدأ فيها وعي الإنسان بالبزوغ.

يوجد مخطوط مصري قديم عن الإله الخالق بتاح والذي تصف الآلهة المُختلفة الأخرى كأوجه مُختلفة لـ "صوت"، أو "لسان" بتاح. الترجمة العصرية رفضت كلمة "صوت" واستبدلتها بـ "مفاهيم مجسّمة لعقل بتاح". جاينس رفض تلك القراءة المُتكلِّفة وفضَّل أن يأخذ المعنى الحرفي بشكل جدي. الآلهة كانت هلوسات صوتية تتكلم داخل رأس الإنسان. يذهب جانيس باقتراحاته لأبعد من ذلك بأن الآلهة تطورت من ذكريات الملوك الميتين الذين، بشكل أو بآخر، أبقوا على سيطرتهم على رعاياهم من خلال الأصوات المتخيّلة في رؤوس أتباعهم. بغضّ النَّظر عن كونك تجد لذلك أي مصداقية أو لا، فإن كتاب جاينس مُثير للفضول بشكل كافٍ ليستحقَّ الذكر في كتاب عن الدين.

والآن لنتحول الى إمكانية الإستعارة من كتاب جاينس لبناء نظرية حول أن الآلهة وأصدقاء الطفولة الخياليين يسلكون نفس المنحى التطوري، لكن بطريقة معاكسة لنظرية استدامة المرحلة اليرقية. نستطيع تلخيصها بأن تلاشي العقل الثنائي لم يحصل بصورة مفاجئة في التاريخ، بل تطور بشكل تدريجي بالتراجع نحو الطفولة عند تلك اللحظة، حيث الهلوسات الصوتية والرؤى تمّ تجاهلها كأشياء غير حقيقية. بشكل معاكس لفرضية استدامة المرحلة اليرقية، الآلهة المتخيلة اختفت من عقول الكبار أولاً، وبدأت بالاختفاء في فترات أبكر وأبكر وصولاً للطفولة، حتى لم يبقَ منها اليوم إلا ظواهر مثل بينكر، أو الرجل النفسجي الصغير. المُشكلة في هذه الفرضية أنها لا تفسر بقاء الإله عند البالغين في يومنا هذا.

ربما كان من الأفضل ألاّ نعامل الآلهة كأسلاف لبينكر، أو العكس بالعكس، لكن أن نعتبر كلاهما كأعراض جانبية لنفس الظاهرة النفسية. الآلهة والأصدقاء الخياليين لديهم القدرة على تحقيق الطّمأنينة وإعطاء مساحة واسعة لتجربة أفكارنا الجديدة. وبهذا لا نكون قد ابتعدنا كثيراً عن الفصل الخامس، حيث تناولتُ النظرية التي تقول بتطوّر الدين كنتاج نفسي عَرَضي.

العزاء

حان الوقت لنواجه الدَّوْر المهمّ الذي يلعبه الدين في تعزيتنا، والتحدي الإنساني فيما لو لم يوجد دين، إيجاد شيء يحل محله. العديد من الناس الذين يعترفون بأنه ربما لا يوجد إله، وأنه ليس ضرورياً للأخلاقيات، لا زالوا يرجعون بما يظنون أنه الورقة الرابحة: الزّعْم بحاجة نفسية أو عاطفية لإله. لو رميتَ بالدين بعيداً، يسألون بعصبية، ما الذي ستضعه محلّه؟ ما هو الشيء الذي ستوفّره للمرضى على فراش الموت، أو المفجوعين الباكين، أو المعزولين عن المجتمع والذين يعتبرون الإله هو صديقهم الوحيد؟

أول شيء يقال هنا في الإجابة على ذلك هو شيء ليس من المفروض أن نحتاج لقوله. إن قدرة الدين على تقديم العزاء للناس لا يجعلهُ حقيقياً. حتى لو أننا قدَّمنا تنازلاً كبيراً، وحتى لو تبيّن بشكل حاسم بأن الإيمان بوجود الإله ضروري وأساسي للإستقرار النفسي والعاطفي، حتى لو كان كُل المُلحدين مُصابين بقلق انتحاري بسبب الشعور بالفراغ الكوني، فلن يساهم شيء مما سبق، وبأي شكل مهما كان صغيراً، كدليل على أن الإيمان الديني حقيقي. ربما يكون دليلاً يدعم الرغبة بإقناع ذاتك بأن الله موجود، حتى لو لم يكن موجوداً. كما أشرت سابقاً، فإن الفيلسوف دانيال دينيت في كتابه، "كسر التعويذة"، يفرق بين الإيمان بالله والإيمان بالإيمان، ذلك النوع من الإيمان الذي نرغب أن نؤمن به حتى لو كان الإيمان بحد ذاته خاطئاً: "أنا أُؤْمِنُ يَا ربي، فَأَعِنْ عَدَمَ إيماني" (مرقس 24:9). يتمّ حثّ المؤمنين لترديد إيمانهم، بغض النظر عن اقتناعهم به أم لا. ربَما لو كررت شيئاً بشكل كاف، فإنك ستنجح بإقناع نفسك بأنه حقيقي. وأعتقد أننا جميعاً نعرف البعض ممن يبتهجون بالإيمان الديني ويرفضون أي هجوم عليه، بينما يعترفون بتردُّد بأنهم أنفسهم لا يمتلكونه. لقد دهشت أنا شخصياً عندما اكتشفت كتاباً من الطِّراز الأول لبطلي الشخصي بيتر ميداور "حدود العلم"، من إصدار جامعة أوكسفورد، 1984، ص96: "أنا آسف لعدم إيماني بالله ولا بالأجوبة الدينية بشكل عام، لأنني أعتقد بأن هذا كان سيعطي الرِضا والراحة للكثير من المحتاجين لذلك، في حال كان من المُمكن اكتشاف أسباب علمية وفلسفية جيدة للإيمان بالله".

مُنذ قراءتي لتفريق دينيت، بدأت أجد مناسبة لاستخدامها مرةً تلو الأخرى. بالكاد أكون مُبالغاً عندما أقول بأن غالبية المُلحدين الذين أعرفهم يُخفون إلحادهم خلف واجهة دينية. هم أنفسهم لا يؤمنون بأي شيء خارق، ولكنهم يحتفظون بنقطة ضعف ضبابية أمام الإيمان اللاعقلاني. يؤمنون بالإيمان. إنه لمن المذهل عدد البشر الذين لا يستطيعون التمييز بين (س هي قضية صحيحة) وبين (إنه من المرغوب به أن تؤمن

الناس بأنَّ س هي قضية صحيحة). ربما هم أنفسهم لا ينتمون للفئة التي تقع بهذا الخطأ المنطقي، ولكنهم يعتبرون الحقيقة غير ذات أهمية مقارنةً بالمشاعر الإنسانية. لا أُريد الانتقاص من المشاعر الإنسانية، لكن لنكن صريحين فيما نتكلم عنه هنا: هل نتحدث عن المشاعر أم الحقائق؟ من المُحتمل أن كليهما مهمّان لكنهما ليسا الشيء نفسه.

على أي حال، إن فرضيتي كانت مبالغاً فيها وخاطئة. لا أملك أي أدلة على أن المُلحدين لديهم أي ميول عامة نحو البؤس أو اليأس المليء بالقلق. بعض المُلحدين سعداء. آخرون بؤساء. وبصورة مُماثلة، فإن بعض المسيحيين، واليهود، والمسلمين، والهندوس، والبوذيين تعساء، بينما البعض الآخر منهم سعداء. ربما تكون هُناكَ أدلة إحصائية عن العلاقة بين السعادة والإيمان (أو عدمه)، ولكني أشك بأن هُناكَ تأثير قوي بطريقة أو بأخرى. أنا أجد أن السؤال عما إذا كان هُناكَ سبباً ما كاف للشعور بالاكتئاب لو عشنا بدون الله هو سؤال أكثر إثارة للإهتمام. بل على العكس، سأنهي هذا الكتاب بالمُحاججة بأنهُ من السهل أن نصرِح بأنه من الممكن لأحدنا أن يعيش حياة سعيدة ومفعمة بدون دين الخوارق. لكن أولاً عليّ أن أمرّ على الزّعم القائل بأن الدين يعطينا العزاء.

العزاء، وفقاً لمعجم أوكسفورد اللغوي الموجز، هو تخفيف الحزن أو القلق النفسي. سأقسِم العزاء إلى صنفين.

- أولاً: العزاء المباشر المحسوس. عندما يعلق شخص على جبل بارد في الليل، فإنه ربما يجد العزاء في كلب السانت برنارد الكبير الدافئ، ولن ننسى بالطبع برميل الكونياك المُعلَّق حول رقبته. طفل يبكي يمكن أن يُعزّى بضمّة من سواعد قوية، وبكلمات مُطَمْئنة تُهْمَس في أذنه.
- ثانياً: العزاء باكتشاف واقع لم يكن يُحسب لهُ حساب سابقاً، أو اكتِشاف طريقة جديدة للنظر إلى واقع موجود. إمرأة قُتل زوجها في الحرب، ربما تشعر ببعض العزاء عندما تعرف بأنها حامل بطفله، أو بأنه مات بطلاً. بإمكاننا أن نجد العزاء بالعثور على طريقة تفكير جديدة بموضوع ما. يشِير أحد الفلاسفة بأن لا شيء يستحق الذِّكر يحصل عندما يموت إنسان كبير في السن. فالطفل الذي كان هو مرةً قد مات منذ فترة طويلة، وليس بسبب توقفه عن الحياة فجأة، بل بسبب نموه ليصبح بالغاً. إن كُل واحد من أعمار الرجل السبعة، كما ذكرها شكسبير، "يموت" بانتقاله ببطء من مرحلة لأخرى. من وجهة النظر هذه، فإن تلاشي الرجل العجوز لا يختلف كثيراً عَن "موتاته" البطيئة خلال حياته[154]. الشخص الذي يكتئب من فكرة موته، ربما يجد العزاء في وجهة النظر الجديدة هذه. وربما لا. لكن هذا مثال فقط عن قدرة العزاء بالتأمل. أما طريقة مارك توين باستبعاد الخوف من الموت، فهي شيء آخر:"أنا لا أخاف الموت. لقد كنتُ ميتاً لمليارات السنين قبل أن أولد ولم يسبب لي ذلك أيّ حرج". ذلك البيان المُختصر لا يغير شيئاً من الواقع بحتمية الموت، لكنه يعطينا طريقة جديدة لرؤية تلك الحتمية، وربما يكون فيها بعض العزاء. توماس جيفرسون أيضاً لم يكن يخاف الموت، ولم يكن يؤمن بأي نوع من حياة ما بعد الموت. حسب ما يرويه كريستوفر هيتشنز في مذكراته: "عندما بدأتْ حياتهُ

بالغروب، كتب جيفرسون أكثر من مرة لأصدقائه بأنه يواجه النهاية الحتمية بدون أي أمل أو خوف. هذا يؤكد لنا بصورة غير قابلة للشك بأنَّه لم يكن مسيحياً".

الآن ربما يكون المفكرون الجادّون جاهزين لتصريح بيرتراند راسل الدَّسم في أطروحته عام 1925 "ما أؤمن به":

"أؤمن بأنني عندما سأموت فإنني سأتعفَّن، ولن يبقى شيء من أناي. لستُ شاباً وأحَب الحياة. لكن عليّ أن أزدري الارتعاشِ من رعب فكرة الزّوال. السعادة بحد ذاتها سعادة حقيقية لأن لها نهاية، ولا يفقد الحَبّ أو الفكر قيمتهُ بسبب عدم دوامه. الكثيرون من الرجال وقفوا بفخر مرفوعي الرأس على المشنقة، هذا الفخر ذاتُه يُرشدنا لمكانة الإنسان في الكون. حتى لو أنَّ نوافذ العلم المفتوحة جعلتنا نرتجف بالبداية بعد الطمأنيية الدافئة للأساطير الإنسانية التقليدية، فإنَّ الهواء النقيّ في النهاية يمنحنا قوة، والفضاءات العظيمة لها روعة بذاتها".

لقد تأثرت كثيراً بأطروحة راسل عندما قرأتُها في مكتبة المدرسة في عمر السادسة عشر، لكنني نسيتها. من الممكن أنني لا شعورياً بجلّتُ راسل (كما لا شعورياً بجلّتُ داروين) عندما كتبت "قسيس الشيطان" عام 2003.

"هناك شيء أكثر من مجرد العظمة في تلك النظرة للحياة، رغم ما تبدو عليه من كآبة وبرود، هي غطاء واقي من الجهل المريح. هُناكَ شيء منعش بعمق في الوقوف منتصباً وجهاً لوجه أمام ريح الفهم القوية: عبارة ييتس (شاعر آيرلندي) "الريح التي تعصف عبر ممرات النجوم"".

كيف يمكن أن يقارَن الدين مع العلم مثلاً في تأمين هذين النوعين من العزاء؟ لننظر إلى الصنف الأول، فمن المعقول جداً بأن أذرع الإله القوية، حتى ولو كانت خيالية تماماً، تستطيع العزاء بنفس طريقة ذراعي صديق حقيقيّين، أو كلب السانت برنارد مع برميل الكونياك حول عنقه. لكن بالطبع يمكن للطب العلمي أيضاً أن يعطي عزاء أكثر فعالية من الكونياك بشكل عام.

لننتقل الآن للنوع الثاني من العزاء، فمن السهل الإعتقاد بأن الدين يمكن أن يكون فعالاً بشكل كبير. الناس الواقعون في كوارث عظيمة كالزلزال يقولون غالباً بأنهم حصلوا على العزاء بالتفكير بأن ذلك كله جزء من المخطط الإلهي الأعظم، وبأن شيئاً جيداً سيأتي من ذلك عندما يحين الوقت. بالنسبة لمن يخاف الموت، فإن الإيمان بأن يمتلك روحاً لا تفنى يمكن أن يكون له عزاء، إلا إذا كان يؤمن بأنه سيذهب للجحيم أو عذاب القبر. المُعتقدات الكاذبة يمكن أن تكون معزِّية بنفس قدر المعتقدات الحقيقية، حتى اللحظة التي ينجلي فيها الوهم. هذا ينطبق على المُعتقدات غير الدينية أيضاً. إن شخصاً مصاباً بسرطان مميت

ربما يتعزى بكذبة من طبيب يقول لهُ بأنه قد شفي، تماماً كشخص قيل له بأنه شفي بشكل صادق. والإيمان القلبي الصادق بحياة ما بعد الموت لهُ من المناعة ضد انجلاء الوهم أكثر من الطبيب الكاذب. إن كذبة الطبيب تبقى فعالة حتى تُصبح أعراض المرض غير قابلة للشك. لكن المؤمن بحياة ما بعد الموت لا يمكن أن ينجلي الوهم عنهُ أبداً.

إستطلاعات الرأي تُظهر بأن 95% من الشعب الأمريكي يؤمنون بأنهم سيقومون من موتهم. بغض النظر عن كل الشهداء الملهمين، لا أمتلك تحاشي سؤالي عما هو عدد الأفراد بين المتديّنين المُعتدلين الذين يزعمون مثل ذلك المعتَقَد الديني، يؤمنون به فعلاً من صميم قلبهم. لو كانوا فعلاً صادقين، ألا يجب عليهم جميعاً أن يتصرّفوا مثل رئيس الدير في آمبلفورث؟ عندما قال له الكاردينال بازل هيوم بأنه يحتضر، شعر رئيس الدير بالفرح لأجله وقال: "مبروك! إنها أخبار سارّة فعلاً، كم كنت أتمنى أن أرافقك"[155]. رئيس الدير على ما يبدو كان مؤمناً صادقاً. لكن قصته فعلاً نادرة وغير متوقعة، ولهذا السبب بالضَّبط تشدُّ انتباهنا، تقريباً لدرجة التسلية، بطريقة تذكِّرنا بالرسوم الكرتونية التي تظهر فيها امرأة شابة عارية تحمل يافطة "مارس الحُبّ لا الحرب"، وبجانبها رجل يقول لنفسه "هذا ما أدعوه صدقاً بحق!". لماذا لا يتصرف كُل المسيحيين والمُسلمين بطريقة رئيس الدير عندما يسمعون بأن صديقاً قد توفي؟ عندما يقول طبيب لامرأة مؤمنة بأن لها بضعة أشهر فقط في الحياة، لماذا لا تشعُّ بالفرح واللهفة كما لو كانت قد ربحت إجازة في سيشيل؟ "لا أستطيع الانتظار". لماذا لا يعطيها زوارها المؤمنون رسائل لتوصلها لمن رحلوا قبلها؟ "قولي لعمي روبرت أني أحبه عندما تلتقينه".

لماذا لا يتكلم المؤمنون بتلك الطريقة عندما يكونون في حضرة إنسان يحتضر؟ هل لأنهم لا يؤمنون بتلك الأمور التي يتظاهرون بالإيمان بها؟ أو أنهم يؤمنون بذلك، ولكنهم يخافون الموت نفسه. ولسبب وجيه، لأن جنسنا هو الجنس الوحيد الذي لا يُسمح له بالذهاب للبيطري ليضع حدّاً لمعاناته بدون ألم. لكن في تلك الحالة، لماذا يأتي الاعتراض الأكبر على الموت الرّحيم والانتحار المسهَّل من المتدينينَ؟ في نموذج الموت لرئيس الدير، ألا تتوقع أن يكون المُتدينون هم الأقل تعلُّقاً بالحياة الأرضية؟ لكن بالرغم من ذلك، فإنك عندما تقابل شخصاً مُعارضاً بشكل عاطفي لموضوع الموت الرحيم أو المساعدة على الموت، فإنك تستطيع المراهنة بكمية كبيرة من المال على كونهُ مُتديّناً. السبب الرسمي يمكن أن يكون بأن كل أشكال القتل خطيئة. ولكن لماذا تعتبرها خطيئة إذا كنت تعتقد بصدق بأنك تُسارع برحلة هذا الشخص إلى الجنة؟

أما موقفي من المساعدة على الموت، فإنه مشتقٌّ من ملاحظات مارك توين التي اقتبستها أعلاه. الموت لا يختلف عن عدم الولادة – سأكون تماماً كما كنت في أيام وليام الفاتح، أو زمن الديناصورات، أو التريلوبايت. ليس هُناكَ ما أخافه في ذلك. لكن تجربة الموت بحد ذاتها يمكن، وتبعاً لحظّنا، أن تكون مؤلمة وغير سارة – تجربة من النوع الذي أصبحنا مُعتادين بالحماية منه بالتخدير العام، مثل استئصال الزائدة الدودية. لو كان حيوانك الأليف يتألم مُحتضراً، فسيتمّ إتهامك بقسوة القلب إذا لم تأخذهُ للبيطري ليعطيه مُخدِّراً عاماً لا يستيقظ منه أبداً. لكن عندما يمارس طبيبك نفس الخدمة الرحيمة عليك وأنت تعاني آلام الموت، فهو يُخاطر بأن يصبح مُلاحقاً قانونياً بتهمة القتل. عندما سأشرف على الموت، فإني أرغب

بأن تُؤْخَذ حياتي تحت المُخدِّر العام، تماماً كما لو كانت زائدة دودية مُلتهبة. لكن لن يُسْمَح لي بذلك الإمتياز لأنَّ حظي العاثر جعلني عضواً في فصيلة "الإنسان العاقل" عوضاً عن، على سبيل المثال، كلب أو قطة. هذا سيكون حالي على أية حال إلا إذا انتقلتُ إلى مكان آخر أكثر تنوّراً مثل سويسرا، أو هولندا، أو أوريغون. لماذا تلك الأماكن المتنورة نادرة جداً؟ غالباً بسبب النفوذ الديني.

ربما يقال، أليس هُناكَ فرق هام بين سماحك استئصال الزائدة الدودية وانتزاع الحياة؟ في الحقيقة لا، ليس هُناكَ فرق إذا ما كنتَ ستموت قريباً بأي حال من الأحوال. وليس إذا كنتَ ممن لديهم إيمان صادق بحياة ما بعد الموت. لو كان لديك هذا الإيمان، فإن الموت لا يعدو عن كونه ممراً من هذه الحياة لحياة أخرى. لكن عندما يكون الممرّ مؤلماً، فإن الحاجة لعبوره بدون التخدير العام تبدو أشبه بالرغبة باستئصال الزائدة الدودية بدون مخدِّر. إن أمثالنا الذين يرون في الموت نهاية بدلاً عن كونه ممراً، هم الذين يُتَوَقَّع منهم أن يرفضوا بسذاجة الموت الرحيم والمساعدة على الموت. إلا أننا نحن هم الذين يدعمون ذلك[1].

بنفس المعنى، ماذا نستخلص مما رصدَتْهُ كبيرة الممرضات التي أعرفها مع خبرتها الطويلة بإدارة دار للعجزة، حيث حالات الموت حَدَثٌ يتكرّر بشكل شبه متواصل؟ لقد لاحظتْ عبر السنين بأن الأفراد الأكثر خوفاً من الموت هم المُتدينون. كنت أتمنى أن يتمّ تدعيم ملاحظاتها إحصائياً، ولكن على فرض أنها على حق، فما الذي يحدث هنا؟ مهما كان الأمر، فإنه لا يدعم قدرة الدين على طمأنة المُحتضرين[2]. في حالة الكاثوليك، ربما هم يخافون حياة البرزخ؟ الكاردينال المُقدس هيوم ودَّع صديقاً بالكلمات التالية: "حسناً، وداعاً إذن. أراك في البرزخ، على ما أعتقد". على ما أعتقد هنا تبدو لي كغمزة من الشكّ في تلك العينين اللطيفتين العجوزتين.

إن التلقين عن حياة البرزخ يكشف لنا لامعقولية الطريقة التي يعمل بها العقل الديني. إنها شكل من أشكال جزيرة آليس الإلهية، غرفة انتظار لأرواح الموتى ذوي الذنوب التي لا تكفي لإرسالهم مباشرة إلى الجحيم، ولكنهم لا يزالون يحتاجون للتطهير والفحص قبل أن يتم إرسالهم الى الجنة الخالية من الذنوب[3]. في العصور الوسطى قامت الكنسية ببيع صكوك الغفران مقابل المال. الناس كانت تدفع لتقليل عدد معين من الأيام في البرزخ، والكنيسة (وبافتراض منقطع النظير) أصدرت شهادات موقعة تحدد عدد الأيام المحسومة التي تمّ شراؤها. الكنيسة الكاثوليكية مؤسسة قام ربحها ربما على كلمة "الحرام" التي أخْتُرِعَت خصيصاً لأجلها. ومن بين كُل الطرق والحيل لقنص الأموال، فإن بيع "صكوك الغفران" هو أحد أبشع طرق

1 . في استطلاع للرأي عن الموقف منَ الموت بين المُلحدين الأمريكان وجد مايلي: 50% أرادوا احتفاءً طقسياً بذكراهم، 99% أيدوا فكرة المساعدة على الموت منْ قبَل متختصين للذين يرغبون بذَلك. 75% أرادوها لأنفسهم، 100% رفضوا أي علاقة بالعاملين بالمستشفيات التي تروج للأفكار الدينية. راجَع .HTTP://NURSESTONER.COM/MYRESEARCH.HTML

2 . لي صديق أسترالي طبع في رأسي عبارة رائعة حول ظاهرة زيادة التدين في خريف العمرعلى شكل سؤال: "هل تحشو رأسك بالمعلومات في آخر أيام الدراسة قبل الإمتحان النهائي؟".

3 . لا يجب الخلط بين حياة البرزخ والاعراف، حيث يُرسل الأطفال الرضع غير المعمّدين بعد موتهم. وكذلك الأطفال المجهضين؟ والموؤدين؟ حالياً فإن البابا بينيدكتوس السادس عشر قام بإلغاء الاعراف. هل هذا يعني بأن أرواح كل الأطفال التي سقطت هناك فجأة بدأت تحلق في السماوات؟ أم أنهم سيبقون في مكانهم بينما الموتى الجدد يتم العفو عنهم؟ أم أن جميع البابوات السابقين قد كانوا على خطأ بالرغم من عصمتهم؟ هذه هي الأشياء التي يُفترض علينا جميعاً (احترامها).

النَّصب في التأريخ، ما يقابلها اليوم هي محاولات النصب على الانترنت، لكن صكوك الغفران كانت أكثر نجاحاً.

وحتى زمان متأخر كعام 1903، فإن البابا بيوس العاشر قام بتحديد جداول بعدد الأيام التي يستطيع كل من في التدرّج الكنسي إعطاءها للإعفاء من عذاب البرزخ: الكاردينالات مئتي يومٍ، ورؤساء الأساقفة مئة يومٍ، والأساقفة خمسون يوماً فقط. في هذا الوقت على أي حال، لم تُبَعْ صكوك الغفران بالمال مباشرة. حتى في القرون الوسطى، لم يكن المال هو العملة الوحيدة التي يستطيع البشر دفعها للحصول على إجازة من البرزخ. كان بالإمكان الدَّفْع من خلال الصّلوات أيضاً، الصّلوات الشخصية خلال حياتك، أو صلوات الآخرين لأجلك بعد موتك. الدعاء كان للبيع أيضاً. لو كان الفرد غنياً، فباستطاعته شراء الراحة لروحه إلى الأبد. الكليّة التي أعمل بها في أوكسفورد، الكليّة الجديدة، أنشئت عام 1379 من قِبَل أحد أعظم المُحسنين في ذلك القرن، ويليام ويكيهام، الذي كان أسقف ونشستر. إن أسقفاً من العصور الوسطى يمكن أن يصبح بيل غيتس عصره، ويتحكَّم بما يوازي الطريق السريع (نحو الله) ويحشد الأموال الطائلة. أبرشيته كانت واسعة بشكل غير عادي، وقد استعمل ويكيهام غناه ونفوذه لتأسيس مؤسستين تعليميتين عظيمتين، إحداهما في وينشستر، والأخرى في أوكسفورد. التعليم كان مهمّاً لويكيهام، وبكلمات تاريخ الكلية الجديدة الذي نُشر عام 1979 في الذكرى الستمائة للتأسيس، فإن الهدف الرئيسي للكلية كان "كمعبد كبير حيث الصلوات تُقرأ شفاعةً لروحه. لقد خُصِّصَتْ موارد لخدمة عشرة قساوسة، وثلاثة كُتَّابِ صلوات، وستة عشر مُرنِّماً، وأوصى بأنه في حالة ضعف موارد الكلية مالياً، فسيكونون هم الوحيدين الذين يبقى دخلهم سارياً". ويكيهام ترك الكلية الجديدة بأيدي الهيئة الإدارية، مجموعةٌ ذاتيةُ الانتقاء ما تزال مستمرة في الوجود كبنيان واحد لأكثر من ستمائة عامٍ. يبدو أنه كان واثقاً بأننا سنستمر بالصلاة لروحه خلال هذه القرون.

الآن يوجد قس واحد[1] في الكلية، وبدون أي كاتب صلوات، وهذا السيل الجارف المتواصل من الصلوات على روح ويكيهام في البرزخ عبر القرون تقلَّص إلى صلاتين في العام. فرقة الترنيم وحدها مازالت تحصد النجاحات بموسيقاها التي أقل ما يقال عنها إنها ساحرة. حتى أنني أشعر ببعض الذنب، كأحد أعضاء تلك الهيئة الإدارية، لخيانة الأمانة. إن ويكيهام، بمفهوم زمانه، كان يفعل ما هو مشابه لفعل شخص غني في أيامنا، الذي يَهِبُ الكثير من المال لمؤسسة تضمن له تجميد جسده وإبقاءه معزولاً عن الهزّات الأرضية، والحروب النووية، والأخطار الأخرى، حتى زمن لاحق، حيث يكون الطب قد توصل لمعرفة كيفية إرجاعه وشفاء العلَّة التي كان يشكو منها. هل نحن الأعضاء الإداريون اللاحقون في الكلية الجديدة نتنصّل من العقد المُبْرَم مع مؤسِسنا؟ إذا كان الأمر كذلك، فنحن إذن في شراكة جيدة. المئات من المُحسنين في العصور الوسطى ماتوا واثقين من أن ورثتهم الذين دُفِعَ لهم جيداً سيصلُّوا لهم في البرزخ. لا أستطيع تمالك نفسي من التساؤل كم من نسبة الأعمال الفنية، والكنوز المعمارية في القرون الوسطى في أوروبا بدأت كعربون من أجل الأبدية، والتي تمَّت خيانتها الآن.

---

1 . القسّ هي إمرأة – ماذا كان سيقول الأسقف ويليام؟

لكن ما يسحرني فعلاً في عقيدة حياة البرزخ هو تلك "الأدلة" التي يعرضها رجال الدين لإثبات وجودها، دليل ضعيف بشكل صارخ، لدرجة أن الجدية التي ترافق طرحهُ تجعلُهُ يبدو كوميدياً. إن النص حول البرزخ في الموسوعة الكاثوليكية فيه جزء يسمى "البراهين". الدليل الأساسي على وجود البرزخ هو ما يلي: لو أن الموتى ذهبوا مباشرة للجنة، أو لجهنم وفقاً لذنوبهم على الأرض، لما كان هُناكَ أي معنى للصلاة من أجلهم. "فلماذا الدعاء للميت إذا لم يكن هُناكَ إيمان بأن قوة الدعاء تؤمِّن بعض العزاء لأولئك الذين لم تنقطع عنهم بعد رحمة الله". نحن فعلاً ندعو للميت، أليس كذلك؟ ولهذا فإن البرزخ موجود وإلا فإن صلواتنا ليس لها معنى! هذا هو مثال لما يتم القبول به بكل جدية كبرهان في الفكر الديني.

هذا الأسلوب غير العادي و"العقيم" في الإستنتاج يتم استخدامهُ بإطار أوسع في تدعيم الحجة من العزاء. يجب أن يكون هنالك إله، هكذا يبدأ البرهان، لأنه لو لم يكن هناك إله، فإن الحياة ستكون خالية وعديمة المعنى كصحراء قاحلة من العبثية، حيث لا شيء يعني شيئاً. كيف يمكن أن يكون من الضروري الإشارة إلى أن المنطق هنا يسقط عند الحاجز الأول؟ ربما الحياة فعلاً خالية. وربما تكون صلواتنا للموتى عديمة المعنى. إفتراض العكس هو افتراض صحة كل نتيجة نريد إثباتها. إن ما يُدَّعى أنَّه إستنتاج منطقي هو بالحقيقة تفكير دائري واضح. الحياة لرجل ما بدون زوجته يمكن أن تكون حقاً لا تُحتمل، عقيمة وفارغة، ولكن ذلك لا يمنعها للأسف من أن تكون ميتة. هُناكَ شيء طفولي في الإفتراض بأن شخصاً آخر (الأهل في حالة الأطفال، والإله في حالة البالغين) لديه مسؤولية إعطاء حياتك معنى وهدفاً. إنها تشبه بعض الأشخاص الغير ناضجين الذين في اللحظة التي يلوون بها كاحلهم، ينظرون حولهم لإيجاد شخص ليقاضوه. أحدٌ ما يجب أن يكون مسؤولاً عن صحتي، وأحد ما يجب أن يكون مذنباً عندما أتألم. هل هو اللانضوج وراء تلك "الحاجة" لله؟ هل سنعود إلى بينكر مرة أخرى؟

وجهة نظر الناضج الحقيقي هي على عكس ذلك، تقول بأن حياتنا مفعمة المعنى، مليئة ورائعة بقدر ما نختار لها أن تكون. ونستطيع بالفعل أن نجعلها رائعة جداً. إذا كان العِلم يعطي عزاءَ من النَّوعِ غير المادي، فإن هذا يظهر في آخر موضوع سأتناوله هنا، ألا وهو الإلهام.

الإلهام

الإلهام هو مسألة ذوق شخصي، أو تقدير فردي، والذي للأسف له تأثير خفيف، بحيث أن أسلوب البرهان الذي يجب أن أستخدمهُ هنا هو برهان خطابي، وليس برهاناً منطقياً. لقد فعلتُ ذلك مسبقاً، وكثيرون فعلوا ذلك أيضاً ومن ضمنهم، كأمثلة من العصر الحديث، كارل ساغان في "النقطة الزرقاء الباهتة"، وإ.أ. ويلسون في "بيوفيليا"، مايكل شرمر في "روح العلم"، وبول كورتس في "إثباتات". في كتابي "تفكيك قوس قزح"، كنت قد جربت أن أنقل كم نحن محظوظون بأننا على قيد الحياة، بالمقارنة مع غالبية البشر الذين يمكن أن ينشؤوا من قرعة الحمض النووي في الواقع لن يولدوا إطلاقاً. ولهؤلاء المحظوظين منا بشكل كافٍ

ليكونوا هنا، أوضحت مدى قصر الحياة نسبياً كبقعة ضوء تزحف على مسطرة زمن عملاقة. كُل ما هو قبل وبعد تلك البقعة يقع في ظلام الماضي الميت، أو المستقبل المجهول. نحن محظوظون بشكل غير عادي لنجد أنفسنا داخل بُقعة الضوء تلك. مهما كان زمن وجودنا قصيراً تحت الشمس، إذا ضيّعْنا ثانية منه، أو اشتكينا بأنه قاحل، أو غير مثير، أو (كالأطفال) مملّ، فإننا نرتكب ظلماً كبيراً بحق كل هؤلاء المليارات من الذين لم يحصلوا على الحياة أساساً؟ كما قال العديد من المُلحدين بطريقة أفضل مما قلتها أنا، إن معرفتنا بأننا نملك حياة واحدة فقط يجعلها أعظمُ قيمة. إن وجهة النظر الإلحادية الموازية لذلك هي داعمة للحياة ومعزِّزة لها، وبالوقت نفسه لا تتلوث بالأوهام الشخصية، أو التفكير المتمني، أو الإشفاق على الذات، كأولئك الذين يتصوّرون بأن الحياة تدين لهم بشيء ما. تماماً كما كتبت آميلي ديكنسون:

لأن كل لحظة فيها لا تعود
هذا ما يجعلها بهذه الروعة

لو أن موت الله سيترك خلفهُ فجوة، فإن كل شخص سيملؤها بطريقته الخاصة. طريقتي الخاصة تحتوي على جرعة كبيرة من العلم، المسعى الأمين المُنتظم للوصول الى الحقيقة عن العالم الحقيقي. نظرتي لمساعي البشر في فهم الكون كمشروع لبناء النماذج. كُلٌّ منا يبني في رأسه نموذجاً للعالم الذي نحن فيه. النموذج الأصغر للعالم هو النموذج الذي احتاجَهُ أسلافنا للبقاء في عالمِهم. الانتخاب الطبيعي قام ببناء برنامج للمُحاكاه وطهَّرهُ من فيروساته، وجعله مُتأقلماً مع العالم المُحيط بأسلافنا في الأحراش الأفريقية: عالَمٌ ثلاثي الأبعاد من عناصر متوسطة الحَجم، تتحرك بسرعات متوسطة بالنسبة لبعضها. كعلاوة غير متوقَّعة، فإن أدمغتنا أصبحت قوية بشكل كاف لاستيعاب نموذج لعالَم أكثر غنىً من تلك البيئة المتوسطة النفعية التي احتاجها أسلافنا من أجل البقاء. الفنَّ والعلم أمثلة ساطعة علَى تلك العلاوة. دعوني أرسم صورة أخيرة لإيصال فكرة قوة العلم في الإرتقاء بالوعي ومنح السلام للنفس.

أمَّ كلِّ البراقع

أحد أكثر المشاهد المحزنة التي نراها في شوارعنا وساحاتنا هذه الأيام هي لامرأة متَّشحة بسواد لا شكل لهُ من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، ترى العالم من خلال شقٍّ ضيق. البرقُع ليس أداةً لظلم المرأة وقمع حريتها وجمالها فحسب، وليس فقط إشارة للسيطرة الذكورية القاسية، والإستسلام المُؤسف للأنثى. أريد هنا أن أستخدم الشِقّ في الحجاب كرمز لشيء آخر.

إن أعيننا ترى العالم من خلال فسحة ضيقة في الطّيف الكهرومغناطيسي. الضوء المرئي لا يعدو عن كونه بصيصاً ساطعاً في الطَّيِّف المظلم الواسع المُمتد بين موجات الراديو في الطرف الطويل، وأشعة غاما على الطرف القصير. من الصعب استيعاب مدى ضيق الفسحة، ومن التَّحدي شرحها. لنتخيّل برقعاً عظيماً

أسود، وشقّ الرؤيا فيه مماثل تقريباً لعرضه المتعارَف عليه، لنقل سنتيمترين ونصف. لو كان القسم العلوي فوق الشق يمثل طرف الموجات القصيرة غير المرئية، والقسم السفلي تحت الشق يمثل الموجات الطويلة غيرالمرئية، فكم يجب أن يكون طول البرقع كي يكون شق الطّيف المرئي فيه الذي هو بعرض سنتيمترين ونصف متناسباً مع القياسات نفسها؟ من الصعب شرح ذلك بدون استعمال الأرقام اللوغاريتمية، هائلة جداً الأطوال التي نتعامل معها هنا. ليس بالمكان المناسب البدء برمي معادلات لوغاريتمية حولي في الفصل الأخير من الكتاب، لكن خذها مني، إنَّ ذلك البرقع سيكون أم البراقع جميعها. الشقّ الصغير بعرض سنتيمترين ونصف للطّيف المرئي لا يعدو عن كونه جزءاً مثيراً للسخرية بصغره مقارنة بالأميال العديدة من القماش الأسود التي تُمثّل الطّيفَ غير المرئي، بدءاً بالأمواج الراديوية عند أخمص القدم، وحتى أشعة غاما عند قمّة الرأس. ما يفعله العلم لنا هو أنهُ يوسع لنا تلك النافذة. يفتحها لدرجة أن ذلك اللباس الأسود يسقط تقريباً عنا كلياً، ويعرض حواسنا لريح الحرية المنعشة والنقية.

التلسكوبات البصرية تستعمل عدسات ومرايا لدراسة السماء، وما تراه هو عبارة عن نجوم تشعّ ضوءاً يقع في حيز ضيق للأمواج الطولية الذي ندعوه بالضوء المرئي. لكن تلسكوبات أخرى "ترى" من خلال الاشعة السينية أو الموجات الراديوية، وتعطينا صوراً خصبة مختلفة لسماوات ليلية بديلة. بصورة أبسط، فإن بعض الكاميرات مع فلتر مناسب تستطيع "رؤية" الأشعة فوق البنفسجية، وأخْذ صور لزهور تُظهر مجالاً غريباً من الخطوط والبقع التي هي مرئية من قبل عيون الحشرات، وتبدو كأنها "مصممة" لذلك، والتي لا تستطيع أعيننا المجردة رؤيتها أبداً. عيون الحشرات لديها نافذة طيفية مشابهة لعيوننا، لكنها مزاحة بشكل بسيط لأعلى البرقع: الحشرات عمياء بالنسبة للضوء الأحمر، وهي تُبصر بصورة أكثر منا في الأشعة فوق البنفسجية في أعماق تلك "الحديقة فوق البنفسجية"[1].

إن الاستعارة المجازية للنافذة الضيقة، والتي تتسع لاستقبال طيف أكبر، يمكن استخدامها في مجالات علمية أخرى. نحنُ نعيش قريباً من المركز لمتحف عملاق من الأحجام الضخمة، ونرى العالم بأعضائنا الحسية، وجهازنا العصبي الذي بدوره لهُ القدرة لمعرفة وفهم مجال ضيق من المجاميع المتوسطة الحجم والمُتحركة بسرعات متوسطة. نشعر بالقدرة على الاستيعاب عندما يتعلق الأمر بأشياء تتراوح مساحاتها بين بضعة كيلومترات (منظر من قمة الجبل)، إلى أعشار المليمترات (رأس الدبوس). خارج هذا النطاق، فإن حتى مخيلتنا تقف مشلولة، وحينها نحتاج لمُساعدة الأجهزة والرياضيات التي لحسن الحظ نستطيع تعلّمَ استعمالها. إن تراوح الأحجام، والمسافات، أو السرعات التي تتعامل معها مخيلتنا براحة هو نطاق ضيق يقع في وسط حيزٍ عملاق من المُمكن، بداية من القياسات الغريبة على المستوى الكمي في الطّرَف الأصغر، إلى مقياس الأحجام الفلكية الآينشتاينية في الطرف الأكبر.

إن مخيلتنا قاصرة بشكل مؤسف عن التعامل مع مسافات خارج النطاق المتوسط الذي ألفهُ أسلافنا. نحنُ نحاول تخيل الألكترون كأنهُ كرة صغيرة في مدار حول مجموعة من كريات أكبر هي البروتونات

1 . الحديقة فوق البنفسجية: كان عنوان إحدى محاضراتي في الجمعية الملكية، والتي قامت البي بي سي ببثها في التلفزيون تحت اسم أكثر عمومية (النضوج في الكون). السلسلة كلها بخمسة حلقات موجودة على قرص دي في دي وبالإمكان شرائها على: .www.RichardDawkins.net/home

والنيوترونات. لكنها ليست كذلك على الإطلاق. الألكترونات ليست كريات صغيرة، بل ليس كمثلها شيء نستطيع التشبيه به. بل ليس من المؤكد حتى أن كلمة "شبه" تعني أي شيء عندما نحاول التحليق قريباً من أفق الحقيقة البعيد هذا. مخيلتنا ليست مؤهَّلة بعد لاختراق هذا الوسط الكمي. لا شيء في هذا النطاق يتصرف بالطريقة التي تتصرف بها المادة في الوسط الذي تطوّرنا فيه، واعتقدنا بأن المادة يجب أن تتصرف بقوانينه. ولا نستطيع حتى التعامل مع الأشياء التي تسير بسرعات قريبة من سرعة الضوء. حواسّنا العامة تخذلنا لأن هذه الحواسّ تطورت في عالَم لا شيء فيه يتحرك بسرعات عالية، وليس فيه أشياء صغيرة جداً أو كبيرة جداً.

في نهاية مقالة مشهورة عن "العوالم الممكنة"، كتب العالم في طبقات الارض العظيم جي. بي. أس. هالدين: "شخصياً أنا أشكُّ بأن الكون ليس فقط أغربَ مما نعتقد، وإنما أغربَ مما نستطيع أن نتخيل... وأعتقد بأنه توجد أشياء أخرى في السماء والأرض أكثر بكثير مما حلمت به فلسفة ما، أو تقدر أن تحلم به".

إن الشخص الذي أكتبُ هذا الكتاب لذكراه اعتاش على غرائب العلم التي كان يدفعها إلى حدود الفكاهة. ما يلي مأخوذ من نفس الخطاب الإرتجالي في كامبريدج عام 1998 الذي اقتبستُ منه سابقاً في الفصل الأول: "إن الواقع بأننا نعيش في قعر بئر الجاذبية على سطح كوكبٍ يغطيه غاز، ويدور حول كرة نووية ملتهبة على بعد تسعين مليون ميل، واعتبارنا أنَّ كل ذلك أمر طبيعي، يجب أن يعطينا فكرة عن مدى انحراف الاعتبارات لدينا". فبينما لعب كُتَّاب الخيال العلمي على ساحة الغرائب العلمية لإيقاظ فضولنا لهذا الغموض، استعمل دوغلاس آدمز نفس الأفكار لإضحاكنا (الذي قرأ كتابه "دليل المسافر الى المجرة" ربما يفكر بـ "عامل اللاإحتمالات اللانهائية" مثلاً). الضَّحك ربما يكون أفضل ردٍّ فعلٍ على بعض الغرائب المُحيرة في الفيزياء الحديثة. البديل هو البكاء، أفكِّر بعض الأحيان.

الفيزياء الكمية، ذروة إنجازات الجهود العلمية للقرن العشرين، تعطينا تنبّؤات دقيقة بشكل مدهش عن العالم الحقيقي. ريتشارد فاينمان شبّه دقتها في قياس المسافات بعظمة دقة قياس عرض أمريكا الشمالية مع هامشٍ خطأ بعرض شعرة من رأس الإنسان. هذا النجاح في التنبؤ، يجعل نظريات فيزياء الكم صحيحة بمعنى ما، صحيحة كأي شيء نعرفهُ، حتى أكثر الحقائق الحسية العادية. بالرغم من ذلك، فإن الافتراضات التي تتطلبها نظرية الكم لإعطاء تلك الدقة في التنبؤ غريبة جداً، لدرجة أن فاينمان العظيم بذاته أُجبر على التصريح بالعبارة التالية (هناك العديد من الروايات عن تلك العبارة، وما سأذكره هو التعبير الأكثر أناقة): "إذا كنتَ تعتقد بأنك تفهم نظرية الكم... فأنتَ لا تفهم نظرية الكم"[1].

نظرية الكم غريبة جداً، لدرجة أن الفيزيائيين يلجؤون لبعض "التفسيرات" المُتناقضة لها. ويلجؤون هنا هي الكلمة الصحيحة. في كتابه "نسيج الحقيقة"، يلجأ دايفيد دويتش للتفسير القائل بـ "العوالم المتعددة" لنظرية الكم، ربما لأنَّ أسوأ ما يمكن أن نقوله عن هذا التفسير بأنهُ تبذير غير مبرّر. إنها تشترط وجود عدد كبير ومتزايد بسرعة من الأكوان المتوازية، والتي لا يُمكن لأحدها اكتشاف الآخر إلا من خلال المتنفَّس

1 . هناك تعبير مشابه منسوب لنيلز بور "من لم يصعق لنظرية الكم فهو لم يفهمها بعد".

الضيق لتجارب الفيزياء الكمية. في بعض هذهِ الأكوان أنا ميت منذ زمن، وفي البعض الآخر أنتَ تمتلك شوارب خضر، وهكذا.

التفسير البديل غير المعقول الآخر هو "تفسير كوبنهاغن"، ليس تبذيراً، ولكنهُ مُتناقض بشكل صارخ. أرفين شرودينغر سخر منه بمثاله الشهير عن القطة. حيث قطة شرودينغر محبوسة في علبة تحتوي على نظام قتل يقدحهُ حَدَثٌ ميكانيكي كمّي. قبل فتح العلبة نحن لا نعرف إذا ما كانت القطة ميتة أم لا. الإحساس العام لنا يحدثنا بأن القطة بداخل العلبة إما حية أو ميتة. تفسير كوبنهاغن يناقض الحسّ العام: حيث كل ما لدينا داخل العلبة قبل أن نفتح العلبة هو الاحتمالية. وفي اللحظة التي نفتح بها العلبة، فان العامل الموجي يسقط لنقف حينها مع حدث واحد: القطة ميتة أو القطة حية. حتى لحظة فتح العلبة فإن القطة ليست بحية وليست بميتة.

تفسير "العوالِم المتعددة" لنفس الحدث هو أن القطة في بعض الأكوان ميتة وفي البعض الآخر حية. كلا التفسيرين لا يُرضيان الحسّ العام، أو الحدس لدى الإنسان. الفيزيائيون المتمرسون لا يأبهون بأي منهما. ما يهمهم هو أنَّ الحسابات الرياضية تعمل، وأن التنبؤات تؤكدها التجارب المخبرية. الكثير منا يبدو متردداً للَّحاق بهم. نبدو وكأننا نحتاج الى تصور مرئي لما يحدث "حقيقةً". وأنا أفهم بأن شرودينغر بالأصل قد عرض مسألة التجربة الفكرية للقطة بهدف استعراض ما بدا له غير عقلاني في تفسير كوبنهاغن.

عالم الاحياء لويس ولبريت يؤمن بأن غرابة الفيزياء المعاصرة ما هي إلا قمة من جبل الجليد الذي يختفي تحتها. العلم بشكل عام، بعكس التقنيات، يعارض الحس العام[156]. ولبرت يعطينا مثالهُ المُفضل: بأن عدد الجزيئاتَ في كأس الماء أكثر من عدد كؤوس الماء في البحر". وبما أن للماء دورة على الأرض، فيبدو أنه في كُل مرة يشرب أحدنا فيها كأساً من الماء، فإن جزيئاً واحداً على الأقل قد مرّ في مثانة أوليفر كرومويل. بالطبع لا يوجد شيء مميز فيما يخص كرومويل أو المثانات. ألم تتنفس الآن جُزَيْئاً من النتروجين من الذي تنفسته الإغوانة الثالثة على يسار شجرة السيكاد الطويلة؟ ألستَ سعيداً لكونك تعيش في عالم حيث يمكن إطلاق تخمينات كهذه، ولديك الملكات لمعرفة السبب؟ كذلك إمكانية تفسيرها للآخرين ليس كرأي أو اعتقاد فقط، ولكن كواقع يُرغَمون على تقبله عندما يفهمون وجهة النظر العقلانية لطرحك؟ ربما هذا ما قصده كارل ساغان عندما شرح الدافع لكتابة "العالم المسكون بالشياطين: العلم كشمعة في الظلام":"عدم تفسير العلم يبدو لي شيئاً غير عقلانيٍ. فعندما تقع في الحُبّ فإنك تودُّ إخبار العالم كلهُ بذلك. هذا الكتاب هو إعترافَ شخصي يعكس قصة الحبّ الطويلة في حياتي للعلم".

التطور لأشكال الحياة المُعقدة، بل وجودها في كون يقبع تحت ظل قوانين فيزيائية، هو شيء مدهش بشكل مذهل، أو ممكن أن تكون كذلك لأن الدهشة هي شعور موجود فقط في الأدمغة التي هي عبارة عن ناتج عن تلك العملية المذهلة. إذن، هُناكَ حس إنساني بأن وجودنا لا يجب أن يكون مذهلاً. أودُّ أن أعتقد أنني أتحدث بالنيابة عن أخوتي في الإنسانية، وأصرّ على أن وجودنا، بالرغم من كُل شيء، مذهل للغاية.

فكِّرّ بالموضوع. على كوكب واحد، ربما الوحيد في الكون، تتجمع جزيئات، والتي بشكل طبيعي لا تؤَسس أي شيء معقد أكثر من قطعة صخر رمادية. تكتّلات من هذه الجزيئات تتجمع بِتعقيد هائل يجعلها قابلة للركض، والقفز، والسباحة، والطيران، والرؤية، والسمع، والتقاط وأكل قطع معقدة حية أخرى، في بعض الأحيان تستطيع التفكير، والشعور، والوقوع في حُبّ تجمعات مُعقدة أخرى من الجزيئات. نحن نفهم اليوم كيف أن كل هذا ممكناً، ولكن فقط منذ عام 1859. قبل ذلك كانت بالتأكيد تبدو غريبة جداً جداً. الآن والفضل لداروين، فإنها غريبة فقط. داروين أمسك بالنافذة الضيقة للبرقع وسحبها فاتحاً إياها تاركاً طوفاناً من المعرفة يتدفّق، معرفة جديدة ومثيرة للشغف، قوتها ترفع الروح الإنسانية لمستويات لا مثيل لها إلا اكتشاف كوبرنيكوس بأن الأرض ليست مركزاً للكون.

"قل لي": سأل فيلسوف القرن العشرين العظيم لودفيغ ويتغينشتاين صديقه "لماذا يقول الناس دائماً بأنهُ كان من الطبيعي للإنسان أن يفترض بأن الشمس تدور حول الأرض، وليس بأن الأرض تدور؟" أجاب الصديق: "ذلك حدث بالتأكيد لأن الأمر يبدو وكأن الشمس تدور حول الأرض". فأجاب ويتغينشتاين مُصراً: "لكن كيف كان يجب أن تبدو عليه الأرض لتبدو وكأنها تدور؟" بعض الأحيان أقتبس هذه العبارة من ويتغينشتاين في محاضراتي وأتوقع أن يضحك المُستمعون، لكنهم بدلاً من ذلك يغرقون في صمت عميق.

في هذا العالم المحدود الذي تطورت فيه أدمغتنا، يبدو معقولاً بصورة أكبر أن الأشياء الصغيرة تتحرك، بينما الكبيرة تبدو وكأنها خلفية لهذه الحركة. عندما تدور الأرض، فإن الأشياء التي تبدو كبيرة لأنها قريبة، مثل الجبال، والأشجار، والأبنية، وحتى الأرض، كلها تتحرك بتزامن مع بعضها ومع الملاحظ لها بحركة نسبية بالنسبة للأجرام السماوية، مثل الشمس والنجوم. إن أدمغتنا التي تطورت تعطينا وهماً عن حركاتها، عوضاً عن الجبال والأشجار على هذا السطح.

أود الآن أن أتابع الكلام عن النقطة أعلاه، أن الطريقة التي نرى بها العالم، والسبب لماذا نجد بأن بعض الأشياء سهلة الفهم بشكل حدسي والأخرى صعبة، هو أن أدمغتنا نفسها هي أعضاء تطورت: حواسيب داخلية تطورت لتُساعدنا على البقاء في العالم -سأستعمل مصطلح العالم المتوسط- حيث الأشياء المُهمة للبقاء لم تكن كبيرة أو صغيرة جداً، عالم كانت فيه الأشياء إما ساكنة أو تتحرك ببطء مقارنة بسرعة الضوء، وحيث كانت الأشياء ذات الاحتمالات الصغيرة تُعتبر ببساطة مُستحيلة. إن النافذة في برقعنا الفكري ضيقة جداً لأن أسلافنا لم يحتاجوا لنافذة أوسع لتساعدهم على البقاء.

العلم علّمنا، تماماً على العكس من حدسنا المتطور، بأن ما يبدو صلباً كالكريستال والحجر، يتألّف في الحَقيقة بشكل كلي تقريباً من الفراغ. الشرح المألوف لذلك هو تشبيه نواة الذرة بذبابة في مُنتصف ساحة كرة قدم. الذرة التالية لها تقع خارج هذا الملعب. هذا يعني بأنَّ أكثف، وأقسى، وأصلب حجر في "الحقيقة"

هو عبارة عن فراغ تتناثر فيه بعض الجزيئات البعيدة عن بعضها، لدرجة أنهُ من المفترض إهمالها. لماذا إذن تبدو الصخرة صلبة وتعطينا الشعور بأنها منيعة الاختراق؟

لن أحاول تخيّل كيف ستكون إجابة ويتغينشتاين على سؤالي هذا. لكن كعالم في التطور، سأجيب بالشكل التالي. إن أدمغتنا تطورت لتساعد أجسامنا لإيجاد طريقها عبر العالم الذي هو على المستوى الذي تعمل به تلك الأجسام. لم نتطور للتجوّل في عالم الذرات. ولو كان الأمر كذلك، فلربما كانت أدمغتنا قادرة على رؤية الحجارة مليئة بالفراغ. الحجارة تبدو صلبة وقاسية لأيدينا لأنَّ أيدينا لا تستطيع اختراقها. وهذا لا علاقة لهُ بالمسافات التي تفصل بين الجزيئات التي تشكل المادة أو أحجامها، لكن له علاقة بحقول القوى الملازمة لتلك الجزيئات المتباعدة في تلك الأشياء "الصلبة". من المفيد لأدمغتنا أن تقوم بـ "بناء" مُصطلحات مثل الصلابة والقسوة لأن ذلك يساعدنا على أن نحرك أجسامنا عبر عالم تكون فيه الأجسام -التي ندعوها بالصلبة- غير قادرة على احتلال مكان غيرها.

الآن سنأخذ إستراحة كوميدية قصيرة مع قصة من كِتاب لجون رونسون "الرجال الذين يحدّقون بالعنزات":

> "هذه قصة حقيقية. في صيف عام 1983. الجنرال ألبرت ستوبلبين الثالث يجلس خلف مكتبه في آرلينغتون، فرجينيا، ويُحدِّق بالحائط الذي تملؤهُ الجوائز العسكرية. إنها تعطي صورة مفصّلة عن سيرته العسكرية الطويلة والمُميّزة. إنه رئيس المُخابرات العسكرية الأميريكية، ولديه ستة عشر ألف جندي تحت إمرته. ... يترك نظراتهُ تمر عبر تلك الجوائز وصولاً للحائط ذاته. هُناكَ شيء يشعر بأن عليه أن يفعله حتى لو كانت الفكرة ذاتها تشعرهُ بالرعب. يُفكر بالخيارات التي أمامه. يستطيع البقاء في مكتبه هذا، أو أن يدخل المكتب المُجاور. هذه هي الخيارات التي يقف أمامها. لقد عقد العزم على فعل ذلك. سيدخل للمكتب المَجاور. ينتَصب واقفاً ويأخذ خطوة من خلف طاولة مكتبه، ويبدأ بالمشي. قصدي هو، يفكر الجنرَال، ممّ تتألف الذرة؟ فراغ! وأسرع الخطى. ممّ أتألف أنا؟ فكرَ ملياً. ذرات! بدأ بالهرولة تقريباً. ومما يتشكل معظمِ الحائط؟ يفكِّر ملياً. ذرات! كل ما عليّ هو أن أقوم بدمج هذه الفراغات... حينها صدمَ الجنرال أنفهُ بشدة على حائط مكتبه. اللعنة، لقد فشل الجنرالَ ستوبيلين بالذهاب للمكتب المجاور عبر الحائط. ما هو الخطأ الذي يعاني منه والذي يجعلهُ عاجزاً عن فعلِ ذلك؟

الجنرال ستوبيلين يتم وصفه بأنهُ "مُفكر خارج النمط السائد" في موقع لمنظمة يديرها الآن مع زوجته بعد تقاعده[1].

---

1 .WWW.HEALTHFREEDOMUSA.ORG/ABOUTUS/PRESIDENT.SHTML.

ولأننا تطورنا في العالم المتوسط، فإننا نجد من السهولة وبشكل بديهي فهم أفكار مثل: "عندما يتحرك الجنرال بسرعة متوسطة والتي تتحرك بها أشياء أخرى في هذا العالم المتوسط، ويصطدم بشيء جامد ينتمي للعالم المتوسط كحائط مثلاً، فإن تقدمه يتوقف باصطدام مؤلم". أدمغتنا ليست مجهزة لتخيل كيف لو كنا نيوترينو نعبر الحائط من خلال الفجوات الواسعة التي "حقيقة" يتشكل منها الحائط. ولا يستطيع فهمنا التعامل مع ما يحدث عندما تتحرك الأشياء بسرعات قريبة لسرعة الضوء.

الحدس الإنساني بدون مساعدة، تطور وتعلم في العالم المتوسط كما هو، بل يجد من الصعب تصديق غاليليو عندما قال بأن قذيفة مدفع وريشة ستصلان سوية للأرض عند وقوعهما من برج عال بشرط عدم وجود احتكاك مع الهواء. ذلك لأنهُ في العالم المتوسط يوجد احتكاك بالهواء بصورة دائمة. لو تطورنا في الفراغ، لتوقعنا أن تصل الريشة وقذيفة المدفع في نفس اللحظة. نحن كائنات تطورنا في العالم المتوسط، وهذا يحدُّ من قدراتنا التخيلية. لان النافذة الصغيرة في برقعنا تسمح لنا برؤية العالم المتوسط فقط، إلا إذا كنا موهوبين بشكل خاص، أو متعلمين بشكل جيد.

هناك شعور علينا نحن الحيوانات أن نعايشه، ليس في العالم المتوسط فقط، لكن في العالم المجهري للذرات والألكترونات أيضاً. الإشارات العصبية التي نفكر من خلالها ونعتمد عليها في تخيلاتنا تقع في العالم المجهري. لكن أسلافنا في الغابات لم يحتاجوا لعمل أي شيء، أو اضطروا لإتخاذ أي قرار احتاجوا فيه لفهم العالم المجهري. لو أننا كنا بكتيريا ونكافح بشكل دائم ضدَّ حركات الجزيئات حولنا، سيكون الأمر مُختلفاً. لكننا المتوسطيون كبيرون جداً في الحجم لنلاحظ الحركة الصغيرة. بنفس الشكل، فإن حياتنا محكومة بالجاذبية، لكننا لا نأبه تقريباً لقوة الشدّ السطحي المرهفة على سطح الماء. إن حشرة صغيرة ستلتزم بعكس تلك الأولوية، ولن تجد أن قوة الشدِّ السطحي مرهَفة مطلقاً.

ستيف غراند، في كتابه "الخلق: الحياة وطريقة صناعتها"، ينتقد بشدة تقريباً استغراقنا بالمادة نفسها. لدينا هذه الميول للتفكير بأنُ "الأشياء" المادية الصّلبة فقط هي أشياء "حقيقية". تردَّد الأمواج الكهرومغناطيسية في الفراغ تبدو "غير حقيقية". عُلماء العصر الفيكتوري تخيلوا بأن الأمواج يجب أن تكون أمواجاً تتحرك "في" وسط مادي ما. ولم يكن هكذا وسط معروفاً لأحد، لذلك اخترعوا وسطاً وأطلقوا عليه اسم الأثير حامل الضوء. لكننا نجد من السهولة فهم المادة "الحقيقية" فقط لأن أسلافنا تطوّروا للبقاء على قيد الحياة في العالم المتوسط، حيث للمادة مفهوم قابل للإستعمال.

من ناحية أخرى، حتى نحن كائنات العالم المتوسط نستطيع أن نرى بأن الدوامة المائية هي "شيء" حقيقي تماماً كالحجارة، حتى لو كانت المادة في الدوامة تتغير باستمرار. في الصحراء التنزانية، وتحت ظل البركان المقدس لقبائل الماساي، توجد كومة هائلة من الرماد منذ الانفجار عام 1969، حيث قامت الريح بإعادة تشكيلها. لكن الجميل في الأمر هو أنها "تتحرك" فيزيائياً. إنها ما يعرف بالبارشان (تلفظ باهكاهن). الكومة كلها تمشي عبر الصحراء باتِّجاه الغرب وبسرعة حوالي 17 متراً في العام. إنها تحافظ على شكلها

الهلالي، وتزحف بإتجاه القرون. الريح تهب وتحمل الرمل إلى أعلى المنحدر الأقل ضحالة، وعندما تصل كل حبة رمل للقمة، تهبط للأسفل على المنزلق الحادّ داخل الهلال.

في الواقع، حتى البارشان هو "شيء" أكثر منه موجة. الموجة تبدو وكأنها تتحرك بشكل أفقي عبر البحر، لكن جزيئات الماء تتحرك بشكل عمودي. بشكل مشابه، فإن الأمواج الصوتية تنتقل من المُتكلم للمستمع، لكن جزيئات الهواء لا تفعل ذلك: لأن ذلك سيكون ريحاً وليس صوتاً. وقد أشار ستيف غراند بأننا أشبه ما نكون بالأمواج من أن نكون "أشياء" ثابتة. ودعى القراء للتفكير بـ...:

> "... بتجربة من زمن طفولتكَ. شيء ما تتذكره بشكل واضح، شيء باستطاعتك رؤيته والإحساس به، بل حتى الإحساس برائحته كما لو أنك كنت هناك. فقد كنتَ هُناكَ في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ وإلا فكيف يمكنك أن تتذكره؟ والآن إليكم المفاجئة المُذْهلة: أنتَ لم تكن هناك. ولا ذرة واحدة من جسمك اليوم كانت هُناكَ عندما حصلت تلك الحادثة... المادة تتنقل من مكان لآخر وتتجمع بشكل مؤقت لتشكِّلك. فمهما كنتَ، فإنك لستَ المادة التي تتكون منها. إذا لم تشعر بالقشعريرة في مؤخرة عنقك، فإقرأ هذا ثانية حتى يحصل ذلك، لأنه مهم"[1].

"الواقع" ليست كلمة علينا استخدامها بثقة بسيطة. لو أن للنيوترينو دماغاً تطور من أسلاف نيوترينية الحجم لقال بأن الصخور في "الواقع" تتكون على الغالب من فراغ. لدينا أدمغة تطورت في العالم المتوسط لأسلافنا الذين لم يستطيعوا المشي عبر الصخور، وبالتالي فإن "الواقع" الذي نعرفهُ هو "الواقع" الذي تكون فيه الصخور صلبة. "الواقع" بالنسبة لحيوان ما هو ما يحتاجهُ دماغهُ لمساعدته على البقاء. ولأن أجناس مختلفة من الكائنات تعيش في عوالم مُختلفة، فسيكون لدينا بالمحصلة مجموعة متنوعة مُحيِرة من "الواقعات" المُختلفة.

ما نراه في العالم الحقيقي هو ليس العالم الحقيقي بدون طلاء، ولكنه نموذج للعالم الحقيقي، منظَّم ومنسق بمعلوماتنا الحسية، نموذج مبني بشكل مفيد للتعامل مع العالم الحقيقي. طبيعة هذا النموذج تعتمد على نوعنا كحيوانات. الحيوان الطائر يحتاج لعالم بنموذج مُختلف عن الحيوان الماشي، أو المتسلِّق، أو السابح. إن للمُفترس نموذج مُختلف عن الضحية حتى لو كانت عوالمهم مُتقاطعة. دماغ القرد يجب أن يكون لهُ برنامج ثلاثي الأبعاد في عالمه المليء بالأغصان، بينما دماغ حشرة البوتمان لا يحتاج برنامجاً ثلاثي الأبعاد لأنه يعيش على سطح المستنقعات في عالم أدوِن آبت (كاتب إنكليزي) المسطَّح. دماغ الخلد يستدعي برنامجاً مُخصّصاً للتعامل مع عوالم ما تحت الأرض. فأر الخلد العاري ربما كان له برنامجاً مشابهاً لحيوان الخلد. لكن السنجاب، على الرغم من أنه من القوارض كفأر الخلد العاري، فالاحتمال الأكبر أنَّ لهُ برنامجاً أشبه ببرنامج القردة عن العالم الذي حوله.

---

1. ربما يشكك أحد بمدى مصداقية الحقيقة التي يتطرق لها غراند هنا، مثلاً فيما يتعلق بالعظام. لكن المعنى المقصود من هذه الفرضية بدون أي شك صادق. نحن أشبه بأمواج أكثر من كوننا أجساماً مادية.

لقد استعرضتُ في كتابي، "صانع الساعات الأعمى" وغيرهُ، بأن الوطاويط يمكن أن "ترى" الألوان بآذانها. نموذج العالم الذي يحتاجه الوطواط لمساعدته في التوجه خلال العالم الثلاثي الأبعاد لالتقاط الحشرات يجب أن يكون مماثلاً بالتأكيد للنموذجِ الذي يحتاجهُ طائر السنونو لتنفيذ نفس العلمية. واقع أنَّ الوطواط يستعمل الصدى لتعديل المُتغيرات في نموذجه، بينما يستعمل طائر السنونو الضوء، هو فقط مسألة عَرَضية. شخصياً أعتقد بأن الوطواط يستعمل ألوان مثل "الأحمر" و "الأزرق" مفهومة له كرموز داخلية لبعض الجوانب النافعة للأصداء الصوتية، ربما مثل التردُّد الصوتي للأسطُح، تماماً كما يفهم طائر السنونو نفس الألوان كأشكال متمثلة بأمواج الضوء الطويلة والقصيرة. النقطة هنا هي أن طبيعة النماذج محكومة بكيفية استعمالها، وليس بشعور نموذجي تجاهها. الدرس الذي نستقيه من الوطواط هو أن الشكل الداخلي العام للنموذج – على عكس المُتغيرات التي تتجدد دائماً بسبب المتحسّسات العصبية – لا يعدو عن كونه تأقْلُم لطريقة الحيوان في العيش، تماماً كما هي أجنحته، وأرجله، أو ذيله.

جي. بي. أس. هالداين، في مقاله عن "العوالم المُحتملة" والذي اقتبستُ منهُ أعلاه، قال شيئاً مُماثلاً عن الحيوانات التي تسيطر حاسة الشمِ على عوالمها. كتب بأن الكلاب تستطيع التمييز بين نوعين مُتشابهين جداً من الحموض الدسمة – حمض الكابريليك وحمض الكابرويك – كل منهما تم تخفيفهُ بنسبة واحد إلى مليون. الفرق الوحيد بين هذين الحمضين هو أن سلسلة كابريليك أطول من سلسلة كابرويك بذرتي كربون فقط. هالداين إعتقد أنه ربما كان من المُمكن للكلاب أن تصنّف الحموض "حسب ترتيب وزنها الجزيئي" بناء على رائحتها، تماماً كما أن الإنسان قادر على ترتيب أوتار البيانو بحسب أطوالها بناء على النغمات.

هناك حمض دسم آخر، كابريك، مُماثل للحمضين الآخرين باستثناء أنَّ عنده ذرتي كربون إضافيتين في سلسلته الأساسية. ربما يستطيع الكلب الذي لم يقابل حمض الكابريك من قبل أن يتخيل رائحتهُ، تماماً كما نحن نستطيع أن نتخيل بوقاً يعزف نغمة أعلى من التي سمعناها مسبقاً. بالنسبة لي، يبدو معقولاً جداً افتراض أن الكلب، أو وحيد القرن يمكن أن يُعالجا مزيجاً من الروائح كما هو الحال في الموسيقى المُتناغمة. ربما يكون هُناكَ اختلافات. ربما ليست لحناً، لأن الألحان مبنية على نغمات تبدأ أو تنتهي بفوارق زمنية محددة، على عكس الروائح. ربما تستطيع الكلاب ووحيدي القرن أن تستوعب الروائح بالألوان. هذه الفكرة من المُمكن أن تكون هي نفسها فيما يخصّ الوطاويط.

مرة أخرى، إنَّ الإشارات التي ندعوها بالألوان هي أدوات تستعملها أدمغتنا للتمييز بين الظواهر الهامة في العالم الخارجي. الألوان المرئية – ما يدعوه الفلاسفة بـ كواليا – ليس لها معنى ذاتي متصل بطول معين لموجة الضوء. بل إنها مجرد علامات متوفرة للدماغ عندما يبني على أساسها نموذجهُ للعالم الخارجي، وذلك لخلق تمايزات، والتي بدورها مهمة بشكل خاص للحيوان المعني بالأمر. في حالتنا، أو حالة الطير، فإنها تعني اختلاف طول الموجة الضوئية. في حالة الوطاويط، أنا افترضتُ، أنها ربما تعني اختلاف الأسطح باختلاف نوع موجة الصدى أو قوامها، ربما حمراء بالنسبة للسطح اللامع، وزرقاء بالنسبة للمخملي،

وخضراء للمادة الخشنة. في حالة الكلب أو وحيد القرن، لماذا لا تكون رائحة؟ إن القدرة على تخيل عالم غريب كالذي للوطاويط، أو لوحيد القرن، أو لعالم الزواحف، أو الخلد، أو عالم البكتيريا، أو الصراصير، هي واحدة من الهِبات التي يضمنها العِلْمُ لنا عندما يقوم بسحب ذلك القماش الأسود لبرقعنا، ويرينا المدى الأوسع لما هو موجود هناك في الخارج لبهجتنا.

إن الاستعارة اللغوية للعالم المتوسط ــ للمدى المتوسَط للظواهر التي تسمح لنا فتحة البرقع الضيق برؤيتها ــ يمكن تطبيقها أيضاً على قياسات و"أطياف" أخرى. يمكننا أن نفترض سلم قياس من اللاإحتمالات، بنافذة ضيقة أيضاً تسمح لإمكانياتنا الحدسية والتخيّلية النفاذ خلالها. على أحد أطراف طيف اللاإحتمالات نجد الحوادث المستحيلة. المعجزات ضئيلة الاحتمال جداً. قد يلوِح تمثال لمادونا لنا بيده. إن الذرات الكريستالية التي يتكون منها هذا النَّصُب تتذبذب للأمام والخلف، ولأن عددها كبير جداً، ولعدم وجود إتفاق مسبق على الحركة بإتجاه معين، فإن اليد تبقى ساكنة صخرية تماماً كما نراها في العالم المتوسط. لكن من المحتمل أن الذرات المهتزة في تلك اليد تتحرك "صدفة" كلها بإتجاه واحد وفي الوقت نفسه. ومرة أخرى، وأخرى... في هذه الحالة ستتحرك اليد وسنراها تلوِح لنا. ذلك يمكن أن يحدث، ولكن إحتمال عدم حدوث هذا كبير جداً، بحيث أنك لو بدأت بكتابة النسبة الإحتمالية عند بداية الكون، فإنك لن تكون قد انتهيتَ بعد من كتابة الأصفار حتى يومنا هذا. إن القدرة على حساب احتمال كهذا ــ القدرة على أن نحدِّد إحتمالية أشياء شبه مستحيلة بدل من إهمالها لعجزنا ـ هو مثال آخر لذلك التحرّر الفكري الذي أغنى به العلم الروح البشرية.

إن التطور في العالم المتوسط قد زوّدنا بإمكانيات ضعيفة للتعامل مع أحداث ذات لاإحتمالية عالية. لكن في الفضاء الكوني الواسع، وفي الأزمنة الجغرافية، فإن الأحداث التي تبدو مُستحيلة في عالمنا المتوسط تصبح حتمية. العلمُ يفتح لنا تلك النافذة الضيقة التي تعوّدنا رؤية طَيف الإحتمالات من خلالها. لقد تحررنا بفضل قدرَاتنا الحسابية والفكر العقلاني، لدرجة أنهُ صار بإمكاننا التعامل مع مجالات من الاحتمالات كانت في زمن ما خارج نطاق قدراتنا، أو كانت مسكونة بالتّنانين. لقد استغلّينا توسيع هذه النافذة مُسبقاً في الفصل الرابع، حيث تعرّضنا لإحتمالية نشوء الحياة، وكيف يمكن لحدث كيميائي كهذا باحتمالية تقترب من المستحيل أن يحصل بوجود عدد كاف من السنين الكوكبية. هناك تناولنا أيضا موضوع الأكوان المُحتملة، لكل منها قوانينه، وثوابته، والضرورة الإنسانية التي تنصّ على أننا نتواجد في أحد هذه الأكوان القليلة القابلة لنشوء الحياة.

كيف يمكننا تفسير مقولة هالداين "مُحيَر أكثر مما نستطيع أن نتخيل"؟ محيَر أكثر من أن نستطيع مبدئياً أن نتخيل؟ أم فقط مُحيَر أكثر من قدرتنا على التخيّل، مع الأخذ بعين الإعتبار مدى محدودية عقولنا المتطورة في العالم المتوسط؟ هل نستطيع بالتمرين والتجربة أن نعتق أنفسنا من العالم المتوسط، ونمزق برقعنا الأسود، ونصل لمستوى فهم حدْسيّ ــ وكذلك رياضي ــ لفهم الأمور الصَغيرة جداً، والكبيرة جداً، والسريعة جداً؟ لا أعرف الإجابة على ذلك صراحة، لكنني سعيد جداً كوني أحيا في الزمن الذي تُدفع فيه

الإنسانية باتجاه حدود الفهم القصوى لما نستطيع تعلمهُ. بل ربما سنكتشف يوماً ما بأنهُ ليس هُناكَ حدود لذلك.

المصادر

- Adams, D. (2003). The Salmon of Doubt. London: Pan.
- Alexander, R. D. and Tinkle, D. W., eds (1981). Natural Selection and Social Behavior. New York: Chiron Press.
- Anon. (1985). Life - How Did It Get Here? By Evolution or by Creation? New York: Watchtower Bible and Tract Society.
- Ashton, J. E, ed. (1999). In Six Days: Why 50 Scientists Choose to Believe in Creation. Sydney: New Holland.
- Atkins, P. W. (1992). Creation Revisited. Oxford: W. H. Freeman.
- Atran, S. (2002). In Gods We Trust. Oxford: Oxford University Press.
- Attenborough, D. (1960). Quest in Paradise. London: Lutterworth.
- Aunger, R. (2002). The Electric Meme: A New Theory of How We Think. New York: Free Press.
- Baggini, J. (2003). Atheism: A Very Short Introduction. Oxford: Oxford University Press.
- Barber, N. (1988). Lords of the Golden Horn. London: Arrow.
- Barker, D. (1992). Losing Faith in Faith. Madison, WI: Freedom from Religion Foundation.
- Barker, E. (1984). The Making of a Moonie: Brainwashing or Choice? Oxford: Blackwell.
- Barrow, J. D. and Tipler, F. J. (1988). The Anthropic Cosmological Principle. New York: Oxford University Press.
- Baynes, N. H., ed. (1942). The Speeches of Adolf Hitler, vol. 1. Oxford: Oxford University Press.
- Behe, M. J. (1996). Darwin's Black Box. New York: Simon & Schuster.
- Beit-Hallahmi, B. and Argyle, M. (1997). The Psychology of Religious
- Behaviour, Belief and Experience. London: Routledge.
- Berlinerblau, J. (2005). The Secular Bible: Why Nonbelievers Must Take Religion Seriously. Cambridge: Cambridge University Press.
- Blackmore, S. (1999). The Meme Machine. Oxford: Oxford University Press.
- Blaker, K., ed. (2003). The Fundamentals of Extremism: The ChristianRight in America. Plymouth, MI: New Boston.
- Bouquet, A. C. (1956). Comparative Religion. Harmondsworth: Penguin.
- Boyd, R. and Richerson, P. J. (1985). Culture and the Evolutionary Process. Chicago: University of Chicago Press.
- Boyer, P. (2001). Religion Explained. London: Heinemann.
- Brodie, R. (1996). Virus of the Mind: The New Science of the Meme. Seattle: Integral Press.
- Buckman, R. (2000). Can We Be Good without God? Toronto: Viking.
- Bullock, A. (1991). Hitler and Stalin. London: HarperCollins.
- Bullock, A. (2005). Hitler: A Study in Tyranny. London: Penguin.
- Buss, D. M., ed. (2005). The Handbook of Evolutionary Psychology. Hoboken, NJ: Wiley.

- Cairns-Smith, A. G. (1985). Seven Clues to the Origin of Life.
- Cambridge: Cambridge University Press.
- Comins, N. F. (1993). What if the Moon Didn't Exist? New York: HarperCollins.
- Coulter, A. (2006). Godless: The Church of Liberation. New York:
- Crown Forum.
- Darwin, C. (1859). On the Origin of Species by Means of Natural Selection. London: John Murray.
- Dawkins, M. Stamp (1980). Animal Suffering. London: Chapman & Hall.
- Dawkins, R. (1976). The Selfish Gene. Oxford: Oxford University Press.
- Dawkins, R. (1982). The Extended Phenotype. Oxford: W. H. Freeman.
- Dawkins, R. (1986). The Blind Watchmaker. Harlow: Longman.
- Dawkins, R. (1995). River Out of Eden. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Dawkins, R. (1996). Climbing Mount Improbable. New York: Norton.
- Dawkins, R. (1998). Unweaving the Rainbow. London: Penguin.
- Dawkins, R. (2003). A Devil's Chaplain: Selected Essays. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Dennett, D. (1995). Darwin's Dangerous Idea. New York: Simon & Schuster.
- Dennett, D. C. (1987). The Intentional Stance. Cambridge, MA: MIT Press.
- Dennett, D. C. (2003). Freedom Evolves. London: Viking.
- Dennett, D. C. (2006). Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon. London: Viking.
- Deutsch, D. (1997). The Fabric of Reality. London: Allen Lane.
- Distin, K. (2005). The Selfish Meme: A Critical Reassessment. Cambridge: Cambridge University Press.
- Dostoevsky, F. (1994). The Karamazov Brothers. Oxford: Oxford University Press.
- Ehrman, B. D. (2003a). Lost Christianities: The Battles for Scripture and the Faiths We Never Knew. Oxford: Oxford University Press.
- Ehrman, B. D. (2003b). Lost Scriptures: Books that Did Not Make It into the New Testament. Oxford: Oxford University Press.
- Ehrman, B. D. (2006). Whose Word Is It? London: Continuum.
- Fisher, H. (2004). Why We Love: The Nature and Chemistry of Romantic Love. New York: Holt.
- Forrest, B. and Gross, P. R. (2004). Creationism's Trojan Horse: The Wedge of Intelligent Design. Oxford: Oxford University Press.
- Frazer, J. G. (1994). The Golden Bough. London: Chancellor Press.
- Freeman, C. (2002). The Closing of the Western Mind. London: Heinemann.
- Galouye, D. F. (1964). Counterfeit World. London: Gollancz.
- Glover, J. (2006). Choosing Children. Oxford: Oxford University Press.
- Goodenough, U. (1998). The Sacred Depths of Nature. New York: Oxford University Press.
- Goodwin, J. (1994). Price of Honour: Muslim Women Lift the Veil of Silence on the Islamic World. London: Little, Brown.
- Gould, S. J. (1999). Rocks of Ages: Science and Religion in the Fullness of Life. New York: Ballantine.
- Grafen, A. and Ridley, M., eds (2006). Richard Dawkins: How a Scientist Changed the Way We Think. Oxford: Oxford University Press.
- Grand, S. (2000). Creation: Life and How to Make It. London: Weidenfeld & Nicolson.

- Grayling, A. C. (2003). What Is Good? The Search for the Best Way to Live. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Gregory, R. L. (1997). Eye and Brain. Princeton: Princeton University Press.
- Halbertal, M. and Margalit, A. (1992). Idolatry. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Harris, S. (2004). The End of Faith: Religion, Terror and the Future of Reason. New York: Norton.
- Harris, S. (2006). Letter to a Christian Nation. New York: Knopf.
- Haught, J. A. (1996). 2000 Years of Disbelief: Famous People with the Courage to Doubt. Buffalo, NY: Prometheus.
- Hauser, M. (2006). Moral Minds: How Nature Designed our Universal Sense of Right and Wrong. New York: Ecco.
- Hawking, S. (1988). A Brief History of Time. London: Bantam.
- Henderson, B. (2006). The Gospel of the Flying Spaghetti Monster. New York: Villard.
- Hinde, R. A. (1999). Why Gods Persist: A Scientific Approach to Religion. London: Routledge.
- Hinde, R. A. (2002). Why Good Is Good: The Sources of Morality. London: Routledge.
- Hitchens, C. (1995). The Missionary Position: Mother Teresa in Theory and Practice. London: Verso.
- Hitchens, C. (2005). Thomas Jefferson: Author of America. New York: HarperCollins.
- Hodges, A. (1983). Alan Turing: The Enigma. New York: Simon & Schuster.
- Holloway, R. (1999). Godless Morality: Keeping Religion out of Ethics. Edinburgh: Canongate.
- Holloway, R. (2001). Doubts and Loves: What is Left of Christianity? Edinburgh: Canongate.
- Humphrey, N. (2002). The Mind Made Flesh: Frontiers of Psychology and Evolution. Oxford: Oxford University Press.
- Huxley, A. (2003). The Perennial Philosophy. New York: Harper.
- Huxley, A. (2004). Point Counter Point. London: Vintage.
- Huxley, T. H. (1871). Lay Sermons, Addresses and Reviews. New York: Appleton.
- Huxley, T. H. (1931). Lectures and Essays. London: Watts.
- Jacoby, S. (2004). Freethinkers: A History of American Secularism. New York: Holt.
- Jammer, M. (2002). Einstein and Religion. Princeton: Princeton University Press.
- Jaynes, J. (1976). The Origin of Consciousness in the Breakdown of the Bicameral Mind. Boston: Houghton Mifflin.
- Juergensmeyer, M. (2000). Terror in the Mind of God: The Global Rise of Religious Violence. Berkeley: University of California Press.
- Kennedy, L. (1999). All in the Mind: A Farewell to God. London: Hodder &c Stoughton.
- Kertzer, D. I. (1998). The Kidnapping ofEdgardo Mortara. New York: Vintage.
- Kilduff, M. and Javers, R. (1978). The Suicide Cult. New York: Bantam.
- Kurtz, P., ed. (2003). Science and Religion: Are They Compatible? Amherst, NY: Prometheus.
- Kurtz, P. (2004). Affirmations: Joyful and Creative Exuberance. Amherst, NY: Prometheus.
- Kurtz, P. and Madigan, T. J., eds (1994). Challenges to the Enlightenment: In Defense of Reason and Science. Amherst, NY: Prometheus.

- Lane, B. (1996). Killer Cults. London: Headline.
- Lane Fox, R. (1992). The Unauthorized Version. London: Penguin.
- Levitt, N. (1999) Prometheus Bedeviled. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.
- Loftus, E. and Ketcham, K. (1994). The Myth of Repressed Memory: False Memories and Allegations of Sexual Abuse. New York: St Martin's.
- McGrath, A. (2004). Dawkins' God: Genes, Memes and the Meaning of Life. Oxford: Blackwell.
- Mackie, J. L. (1985). The Miracle of Theism. Oxford: Clarendon Press.
- Medawar, P. B. (1982). Pluto's Republic. Oxford: Oxford University Press.
- Medawar, P. B. and Medawar, J. S. (1977). The Life Science: Current Ideas of Biology. London: Wildwood House.
- Miller, Kenneth (1999). Finding Darwin's God. New York: HarperCollins.
- Mills, D. (2006). Atheist Universe: The Thinking Person's Answer to Christian Fundamentalism. Berkeley: Ulysses Books.
- Mitford, N. and Waugh, E. (2001). The Letters of Nancy Mitford and Evelyn Waugh. New York: Houghton Mifflin.
- Mooney, C. (2005). The Republican War on Science. Cambridge, MA: Basic Books.
- Perica, V. (2002). Balkan Idols: Religion and Nationalism in Yugoslav States. New York: Oxford University Press.
- Phillips, K. (2006). American Theocracy. New York: Viking.
- Pinker, S. (1997). How the Mind Works. London: Allen Lane.
- Pinker, S. (2002). The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature. London: Allen Lane.
- Plimer, I. (1994). Telling Lies for God: Reason vs Creationism. Milsons Point, NSW: Random House.
- Polkinghorne, J. (1994). Science and Christian Belief: Theological Reflections of a Bottom-Up Thinker. London: SPCK.
- Rees, M. (1999). Just Six Numbers. London: WeidenfeJd & NicoJson.
- Rees, M. (2001). Our Cosmic Habitat. London: Weidenfeld & NicoJson.
- Reeves, T. C. (1996). The Empty Church: The Suicide of Liberal Christianity. New York: Simon & Schuster.
- Richerson, P. J. and Boyd, R. (2005). Not by Genes Alone: How Culture Transformed Human Evolution. Chicago: University of Chicago Press.
- Ridley, Mark (2000). Mendel's Demon: Gene Justice and the Complexity of Life. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Ridley, Matt (1997). The Origins of Virtue. London: Penguin.
- Ronson, J. (2005). The Men Who Stare at Goats. New York: Simon & Schuster.
- Ruse, M. (1982). Darwinism Defended: A Guide to the Evolution Controversies. Reading, MA: Addison-Wesley.
- Russell, B. (1957). Why I Am Not a Christian. London: Routledge.
- Russell, B. (1993). The Quotable Bertrand Russell. Amherst, NY: Prometheus.
- Russell, B. (1997a). The Collected Papers of Bertrand Russell, vol. 2: Last Philosophical Testament, 1943-1968. London: Routledge.
- Russell, B. (1997b). Collected Papers, vol. 11, ed. J. C. Slater and P. Köllner. London: Routledge.
- Russell, B. (1997c). Religion and Science. Oxford: Oxford University Press.

- Ruthven, M. (1989). The Divine Supermarket: Travels in Search of the Soul of America. London: Chatto & Windus.
- Sagan, C. (1995). Pale Blue Dot. London: Headline.
- Sagan, C. (1996). The Demon-Haunted World: Science as a Candle in the Dark. London: Headline.
- Scott, E. C. (2004). Evolution vs. Creationism: An Introduction.
- Westport, CT: Greenwood.
- Shennan, S. (2002). Genes, Memes and Human History. London: Thames & Hudson.
- Shermer, M. (1997). Why People Believe Weird Things: Pseudoscience, Superstition and Other Confusions of Our Time. New York: W. H. Freeman.
- Shermer, M. (1999). How We Believe: The Search for God in an Age of Science. New York: W. H. Freeman.
- Shermer, M. (2004). The Science of Good and Evil: Why People Cheat, Gossip, Care, Share, and Follow the Golden Rule. New York: Holt.
- Shermer, M. (2005). Science Friction: Where the Known Meets the Unknown. New York: Holt.
- Shermer, M. (2006). The Soul of Science. Los Angeles: Skeptics Society.
- Silver, L. M. (2006). Challenging Nature: The Clash of Science and Spirituality at the New Frontiers of Life. New York: HarperCollins.
- Singer, P. (1990). Animal Liberation. London: Jonathan Cape.
- Singer, P. (1994). Ethics. Oxford: Oxford University Press.
- Smith, K. (1995). Ken's Guide to the Bible. New York: Blast Books.
- Smolin, L. (1997). The Life of the Cosmos. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Smythies, J. (2006). Bitter Fruit. Charleston, SC: Booksurge.
- Spong, J. S. (2005). The Sins of Scripture. San Francisco: Harper.
- Stannard, R. (1993). Doing Away with God? Creation and the Big Bang. London: Pickering.
- Steer, R. (2003). Letter to an Influential Atheist. Carlisle: Authentic Lifestyle Press.
- Stenger, V. J. (2003). Has Science Found God? The Latest Results in the Search for Purpose in the Universe. New York: Prometheus.
- Susskind, L. (2006). The Cosmic Landscape: String Theory and the Illusion of Intelligent Design. New York: Little, Brown.
- Swinburne, R. (1996). Is There a God? Oxford: Oxford University Press.
- Swinburne, R. (2004). The Existence of God. Oxford: Oxford University Press.
- Taverne, R. (2005). The March of Unreason: Science, Democracy and the New Fundamentalism. Oxford: Oxford University Press.
- Tiger, L. (1979). Optimism: The Biology of Hope. New York: Simon & Schuster.
- Toland, J. (1991). Adolf Hitler: The Definitive Biography, New York: Anchor.
- Trivers, R. L. (1985). Social Evolution. Menlo Park, CA: Benjamin/ Cummings.
- Unwin, S. (2003). The Probability of God: A Simple Calculation that Proves the Ultimate Truth. New York: Crown Forum.
- Vermes, G. (2000). The Changing Faces of Jesus. London: Allen Lane.
- Ward, K. (1996). God, Chance and Necessity. Oxford: Oneworld.
- Warraq, I. (1995). Why I Am Not a Muslim. New York: Prometheus.
- Weinberg, S. (1993). Dreams of a Final Theory. London: Vintage.
- Wells, G. A. (1986). Did Jesus Exist? London: Pemberton.

- Wheen, F. (2004). How Mumbo-Jumbo Conquered the World: A Short History of Modern Delusions. London: Fourth Estate.
- Williams, W, ed. (1998). The Values of Science: Oxford Amnesty Lectures 1997. Boulder, CO: Westview.
- Wilson, A. N. (1993). Jesus. London: Flamingo.
- Wilson, A. N. (1999). God's Funeral. London: John Murray.
- Wilson, D. S. (2002). Darwin's Cathedral: Evolution, Religion and the Nature of Society. Chicago: University of Chicago Press.
- Wilson, E. O. (1984). Biophilia. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Winston, R. (2005). The Story of God. London: Transworld/BBC.
- Wolpert, L. (1992). The Unnatural Nature of Science. London: Faber & Faber.
- Wolpert, L. (2006). Six Impossible Things Before Breakfast: The Evolutionary Origins of Belief. London: Faber & Faber.
- Young, M. and Edis, T., eds (2006). Why Intelligent Design Fails: A Scientific Critique of the New Creationism. New Brunswick: Rutgers University Press.

ملاحظات باللغة الإنكليزية

Notes

1. Wendy Kaminer, 'The last taboo: why America needs atheism', *New Republic*, 14 Oct. 1996; http://www.positiveatheism.org/writ/kaminer.htm.
2. Dr Zoë Hawkins, Dr Beata Adams and Dr Paul St John Smith, personal communication.

Chapter 1: A deeply religious non-believer *Deserved respect*

3. The television documentary of which the interview was a part was accompanied by a book (Winston 2005).
4. Dennett (2006).

Undeserved respect

5. The full speech is transcribed in Adams (2003) as 'Is there an artificial God?'
6. Perica (2002). See also http://www.historycooperative.org/journals/ahr/108.5/br_151.html.
7. 'Dolly and the cloth heads', in Dawkins (2003).
8. http://www.oyez.org/cases/2000-2009/2005/2005-04-1084/.
9. R. Dawkins, 'The irrationality of faith', *New Statesman* (London), 31 March 1989.
10. *Columbus Dispatch*, 19 Aug. 2005.
11. *Los Angeles Times*, 10 April 2006.
12. http://gatewaypundit.blogspot.com/2006/02/islamic-societyof-denmark-used-fake.html.
13. http://news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/4686536.stm; http://www.neandernews.com/?cat=6.
14. *Independent*, 5 Feb. 2006.
15. Andrew Mueller, 'An argument with Sir Iqbal', *Independent on Sunday*, 2 April 2006, Sunday Review section, 12–16.

Chapter 2: The God Hypothesis

16. Mitford and Waugh (2001).

Polytheism

17. http://www.newadvent.org/cathen/06608b.htm.
18. http://www.catholic-forum.com/saints/indexsnt.htm?NF=1.

Secularism, the Founding Fathers and the religion of America

19. *Congressional Record*, 16 Sept. 1981.
20. http://www.stephenjaygould.org/ctrl/buckner_tripoli.html.
21. Giles Fraser, 'Resurgent religion has done away with the country vicar', *Guardian*, 13 April 2006.
22. Robert I. Sherman, in *Free Inquiry* 8: 4, Fall 1988, 16.
23. N. Angier, 'Confessions of a lonely atheist', *New York Times Magazine*, 14 Jan. 2001: http://www.geocities.com/mindstuff/Angier.html.
24. http://www.fsgp.org/adsn.html.

25. An especially bizarre case of a man being murdered simply because he was an atheist is recounted in the newsletter of the Freethought Society of Greater

Philadelphia for March/April2006. Go to http://www.fsgp.org/newsletters/newsletter_2006_0304.pdf and scroll down to 'The murder of Larry Hooper'.

26. http://www.hinduonnet.com/thehindu/mag/2001/11/18/stories/2001111800070400.htm.

The poverty of agnosticism

27. Quentin de la Bédoyère, *Catholic Herald*, 3 Feb. 2006.
28. Carl Sagan, 'The burden of skepticism', *Skeptical Inquirer* 12, Fall 1987.
29. I discussed this case in Dawkins (1998).
30. T. H. Huxley, 'Agnosticism' (1889), repr. in Huxley (1931). The complete text of 'Agnosticism' is also available at http://www.infidels.org/library/historical/thomas_huxley/huxley_wace/part_02.html.
31. Russell, 'Is there a God?' (1952), repr. in Russell (1997b).
32. Andrew Mueller, 'An argument with Sir Iqbal', *Independent on Sunday*, 2 April 2006, Sunday Review section, 12–16.
33. *New York Times*, 29 Aug. 2005. See also Henderson (2006).
34. Henderson (2006).
35. http://www.lulu.com/content/267888.

The Great Prayer Experiment

36. H. Benson et al., 'Study of the therapeutic effects of intercessory prayer (STEP) in cardiac bypass patients', *American Heart Journal* 151: 4, 2006, 934–42.
37. Richard Swinburne, in *Science and Theology News*, 7 April 2006, http://www.stnews.org/Commentary-2772.htm.
38. *New York Times*, 11 April 2006.

The Neville Chamberlain school of evolutionists

39. In court cases, and books such as Ruse (1982). His article in *Playboy* appeared in the April 2006 issue.
40. Jerry Coyne's reply to Ruse appeared in the August 2006 issue of *Playboy*.
41. Madeleine Bunting, *Guardian*, 27 March 2006.
42. Dan Dennett's reply appeared in the *Guardian*, 4 April 2006.
43. http://scienceblogs.com/pharyngula/2006/03/the_dawkinsdennett_boogeyman.php; http://scienceblogs.com/pharyngula/2006/02/our_double_standard.php; http://scienceblogs.com/pharyngula/2006/02/the_rusedennett_feud.php.

Little green men

44. http://vo.obspm.fr/exoplanetes/encyclo/encycl.html.
45. Dennett (1995).

Chapter 3: Arguments for God's existence

The ontological argument and other* a priori *arguments

46. http://www.iep.utm.edu/o/ont-arg.htm. William Grey: 'Gasking's proof', *Analysis,* Vol 60, No 4 (2000), pp. 368–70.

The argument from personal 'experience'

47. The whole subject of illusions is discussed by Richard Gregory in a series of

books including Gregory (1997).
48. My own attempt at spelling out the explanation is on pp. 268–9 of Dawkins (1998).
49. http://www.sofc.org/Spirituality/s-of-fatima.htm.

The argument from scripture

50. Tom Flynn, 'Matthew vs. Luke', *Free Inquiry* 25: 1, 2004, 34–45; Robert Gillooly, 'Shedding light on the light of the world', *Free Inquiry* 25: 1, 2004, 27–30.
51. Erhman (2006). See also Ehrman (2003a, b).

The argument from admired religious scientists

52. Beit-Hallahmi and Argyle (1997).
53. E. J. Larson and L. Witham, 'Leading scientists still reject God', *Nature* 394, 1998, 313.
54. http://www.leaderu.com/ftissues/ft9610/reeves.html gives a particularly interesting analysis of historical trends in American religious opinion by Thomas C. Reeves, Professor of History at the University of Wisconsin, based on Reeves(1996).
55. http://www.answersingenesis.org/docs/3506.asp.
56. R. Elisabeth Cornwell and Michael Stirrat, manuscript in preparation, 2006.
57. P. Bell, 'Would you believe it?', *Mensa Magazine*, Feb. 2002, 12–13.

Chapter 4: Why there almost certainly is no God

The Ultimate Boeing 747

58. An exhaustive review of the provenance, usages and quotations of this analogy is given, from a creationist point of view, by Gert Korthof, at http://home.wxs.nl/~gkorthof/kortho46a.htm.

Natural selection as a consciousness-raiser

59. Adams (2002), p. 99. My 'Lament for Douglas', written the day after his death, is reprinted as the Epilogue to *The Salmon of Doubt*, and also in *A Devil's Chaplain*, which also has my eulogy at his memorial meeting in the Church of St Martin-in-the-Fields.
60. Interview in *Der Spiegel*, 26 Dec. 2005.
61. Susskind (2006: 17).

The worship of gaps

62. Behe (1996).
63. http://www.millerandlevine.com/km/evol/design2/article.html.
64. This account of the Dover trial, including the quotations, is from A. Bottaro, M. A. Inlay and N. J. Matzke, 'Immunology in the spotlight at the Dover "Intelligent Design" trial', *Nature Immunology* 7, 2006, 433–5.
65. J. Coyne, 'God in the details: the biochemical challenge to evolution', *Nature* 383, 1996, 227–8. The article by Coyne and me, 'One side can be wrong', was published in the *Guardian*, 1 Sept. 2005: http://www.guardian.co.uk/life/feature/story/0,13026,1559743,00.html.
The quotation from the 'eloquent blogger' is at

http://www.religionisbullshit.net/blog/2005_09_01_archive.php.

66. Dawkins (1995).

The anthropic principle: planetary version

67. Carter admitted later that a better name for the overall principle would be ‘cognizability principle’ rather than the already entrenched term ‘anthropic principle’: B. Carter, ‘The anthropic principle and its implications for biological evolution’, *Philosophical Transactions of the Royal Society of London A*, 310, 1983, 347–63. For a book-length discussion of the anthropic principle, see Barrow and Tipler (1988).

68. Comins (1993).

69. I spelled this argument out more fully in *The Blind Watchmaker* (Dawkins 1986).

The anthropic principle: cosmological version

70. Murray Gell-Mann, quoted by John Brockman on the ‘Edge’ website, http://www.edge.org/3rd_culture/bios/smolin.html.

71. Ward (1996: 99); Polkinghorne (1994: 55).

An interlude at Cambridge

72. J. Horgan, ‘The Templeton Foundation: a skeptic’s take’, *Chronicle of Higher Education*, 7 April 2006. See also http://www.edge.org/3rd_culture/horgan06/horgan06_index.html.

73. P. B. Medawar, review of *The Phenomenon of Man*, repr. in Medawar (1982: 242).

74. Dennett (1995: 155).

Chapter 5: The roots of religion

The Darwinian imperative

75. Quoted in Dawkins (1982: 30).

76. K. Sterelny, ‘The perverse primate’, in Grafen and Ridley (2006: 213–23).

Group selection

77. N. A. Chagnon, ‘Terminological kinship, genealogical relatedness and village fissioning among the Yanomamö Indians’, in Alexander and Tinkle (1981: ch. 28).

78. C. Darwin, *The Descent of Man* (New York: Appleton, 1871), vol. 1, 156.

Religion as a by-product of something else

79. Quoted in Blaker (2003: 7).

Psychologically primed for religion

80. See e.g. Buss (2005).

81. Deborah Keleman, ‘Are children “intuitive theists”?’, *Psychological Science* 15: 5, 2004, 295–301.

82. Dennett (1987).

83. *Guardian*, 31 Jan. 2006.

84. Smythies (2006).

85. http://jmm.aaa.net.au/articles/14223.htm.

Chapter 6: The roots of morality: why are we good?

86. The movie itself, which is very good, can be obtained at http://www.thegodmovie.com/index.php.

A case study in the roots of morality

87. M. Hauser and P. Singer, 'Morality without religion', *Free Inquiry* 26: 1, 2006, 18–19.

If there is no God, why be good?

88. Dostoevsky (1994: bk 2, ch. 6, p. 87).
89. Hinde (2002). See also Singer (1994), Grayling (2003), Glover (2006).

Chapter 7: The 'Good' Book and the changing moral *Zeitgeist*

90. Lane Fox (1992); Berlinerblau (2005).
91. Holloway (1999, 2005). Richard Holloway's 'recovering Christian' line is in a book review in the *Guardian*, 15 Feb. 2003: http://books.guardian.co.uk/reviews/scienceandnature/0,6121,894941,00.html. The Scottish journalist Muriel Gray wrote a beautiful account of my Edinburgh dialogue with Bishop Holloway in the (Glasgow) *Herald*: http://www.sundayherald.com/44517.

The Old Testament

92. For a frightening collection of sermons by American clergymen, blaming hurricane Katrina on human 'sin', see http://universist.org/neworleans.htm.
93. Pat Robertson, reported by the BBC at http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/4427144.stm.

Is the New Testament any better?

94. R. Dawkins, 'Atheists for Jesus', *Free Inquiry* 25: 1, 2005, 9–10.
95. Julia Sweeney is also right on target when she briefly mentions Buddhism. Just as Christianity is sometimes thought to be a nicer, gentler religion than Islam, Buddhism is often cracked up to be the nicest of all. But the doctrine of demotion on the reincarnation ladder because of sins in a past life is pretty unpleasant. Julia Sweeney: 'I went to Thailand and happened to visit a woman who was taking care of a terribly deformed boy. I said to his caretaker, "It's so good of you to be taking care of this poor boy." She said, "Don't say 'poor boy,' he must have done something terrible in a past life to be born this way."'
96. For a thoughtful analysis of techniques used by cults, see Barker (1984). More journalistic accounts of modern cults are given by Lane (1996) and Kilduff and Javers (1978).
97. Paul Vallely and Andrew Buncombe, 'History of Christianity: Gospel according to Judas', *Independent*, 7 April 2006.
98. Vermes (2000).

Love thy neighbour

99. Hartung's paper was originally published in *Skeptic* 3: 4, 1995, but is now most readily available at http://strugglesforexistence.com/?p=article_p&id=13.
100. Smith (1995).
101. *Guardian*, 12 March 2002:

http://books.guardian.co.uk/departments/politicsphilosophyandsociety/story/0,,664342,00.html.

102. N. D. Glenn, 'Interreligious marriage in the United States: patterns and recent trends', *Journal of Marriage and the Family* 44: 3, 1982, 555–66.

The moral Zeitgeist

103. http://www.ebonmusings.org/atheism/new10c.html.
104. Huxley (1871).
105. http://www.classic-literature.co.uk/american-authors/19th-century/abraham-lincoln/the-writings-of-abraham-lincoln-04/.

What about Hitler and Stalin? Weren't they atheists?

106. Bullock (1991).
107. Bullock (2005).
108. http://www.ffrf.org/fttoday/1997/march97/holocaust.html. This article by Richard E. Smith, originally published in *Freethought Today*, March 1997, has a large number of relevant quotations from Hitler and other Nazis, giving their sources. Unless otherwise stated, my quotations are from Smith's article.
109. http://homepages.paradise.net.nz/mischedj/ca_hitler.html.
110. Bullock (2005: 96).
111. Adolf Hitler, speech of 12 April 1922. In Baynes (1942: 19–20).
112. Bullock (2005: 43).
113. This quotation, and the following one, are from Anne Nicol Gaylor's article on Hitler's religion, http://www.ffrf.org/fttoday/back/hitler.html.
114. http://www.contra-mundum.org/schirrmacher/NS_Religion.pdf.

Chapter 8: What's wrong with religion? Why be so hostile?

Fundamentalism and the subversion of science

115. From 'What is true?', ch. 1.2 of Dawkins (2003).
116. Both my quotations from Wise come from his contribution to the 1999 book *In Six Days*, an anthology of essays by young-Earth creationists (Ashton 1999).

The dark side of absolutism

117. Warraq (1995: 175).
118. John William Gott's imprisonment for calling Jesus a clown is mentioned in *The Indypedia*, published by the *Independent*, 29 April 2006. The attempted prosecution of the BBC for blasphemy is in BBC news, 10 Jan. 2005: http://news.bbc.co.uk/1/hi/entertainment/tv_and_radio/4161109.stm.
119. http://adultthought.ucsd.edu/Culture_War/The_American_Taliban.html.

Faith and homosexuality

120. Hodges (1983).
121. This and the remaining quotations in this section are from the American Taliban site already listed: http://adultthought.ucsd.edu/Culture_War/The_American_Taliban.html.
122. http://adultthought.ucsd.edu/Culture_War/The_American_Taliban.html.
123. From Pastor Phelps's Westboro Baptist Church official website, godhatesfags.com: http://www.godhatesfags.com/fliers/jan2006/20060131_coretta-scott-king-

funeral.pdf.

Faith and the sanctity of human life

124. See Mooney (2005). Also Silver (2006), which arrived when this book was in final proof, too late to be discussed as fully as I would have liked.
125. For an interesting analysis of what makes Texas different in this respect, see http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/execution/readings/texas.html.
126. http://en.wikipedia.org/wiki/Karla_Faye_Tucker.
127. These Randall Terry quotes are from the same American Taliban site as before: http://adultthought.ucsd.edu/Culture_War/The_American_Taliban.html.
128. Reported on Fox news: http://www.foxnews.com/story/0,2933,96286,00.html.
129. M. Stamp Dawkins (1980).

The Great Beethoven Fallacy

130. http://www.warroom.com/ethical.htm.
131. Medawar and Medawar (1977).

How 'moderation' in faith fosters fanaticism

132. Johann Hari's article, originally published in the *Independent*, 15 July 2005, can be found at http://www.johannhari.com/archive/article.php?id=640.
133. Village Voice, 18 May 2004: http://www.villagevoice.com/news/0420,perlstein,53582,1.html.
134. Harris (2004: 29).
135. Nasra Hassan, 'An arsenal of believers', *New Yorker*, 19 Nov. 2001. See also http://www.bintjbeil.com/articles/en/011119_hassan.html.

Chapter 9: Childhood, abuse and the escape from religion

Physical and mental abuse

136. Reported by BBC news: http://news.bbc.co.uk/1/hi/wales/901723.stm.
137. Loftus and Ketcham (1994).
138. See John Waters in the *Irish Times:* http://oneinfour.org/news/news2003/roots/.
139. Associated Press, 10 June 2005: http://www.rickross.com/reference/clergy/clergy426.html.
140. http://www.av1611.org/hell.html.

In defence of children

141. N. Humphrey, 'What shall we tell the children?', in Williams (1998); repr. in Humphrey (2002).
142. http://www.law.umkc.edu/faculty/projects/ftrials/conlaw/yoder.html.

An educational scandal

143. *Guardian*, 15 Jan. 2005: http://www.guardian.co.uk/weekend/story/0,,1389500,00.html.
144. *Times Educational Supplement*, 15 July 2005.
145. http://www.telegraph.co.uk/opinion/main.jhtml?
146. *Guardian*, 15 Jan. 2005: http://www.guardian.co.uk/weekend/story/0,,1389500,00.html.
147. The text of our letter, drafted by the Bishop of Oxford, was as follows:
 Dear Prime Minister,

We write as a group of scientists and Bishops to express our concern about the teaching of science in the Emmanuel City Technology College in Gateshead. Evolution is a scientific theory of great explanatory power, able to account for a wide range of phenomena in a number of disciplines. It can be refined, confirmed and even radically altered by attention to evidence. It is not, as spokesmen for the college maintain, a 'faith position' in the same category as the biblical account of creation which has a different function and purpose.

The issue goes wider than what is currently being taught in one college. There is a growing anxiety about what will be taught and how it will be taught in the new generation of proposed faith schools. We believe that the curricula in such schools, as well as that of Emmanuel City Technical College, need to be strictly monitored in order that the respective disciplines of science and religious studies are properly respected.

Yours sincerely

148. *British Humanist Association News*, March–April 2006.
149. *Observer*, 22 July 2004: http://observer.guardian.co.uk/magazine/story/0,11913,1258506,00.html.

Consciousness-raising again

150. The Oxford Dictionary takes 'gay' back to American prison slang in 1935. In 1955 Peter Wildeblood, in his famous book *Against the Law*, found it necessary to define 'gay' as 'an American euphemism for homosexual'.
151. http://uepengland.com/forum/index.php?showtopic=184&mode=linear.

Religious education as a part of literary culture

152. Shaheen has written three books, anthologizing biblical references in the comedies, tragedies and histories separately. The summary count of 1,300 is mentioned in http://www.shakespearefellowship.org/virtualclassroom/StritmatterShaheenRev.htm.
153. http://www.bibleliteracy.org/Secure/Documents/BibleLiteracyReport2005.pdf.

Chapter 10: A much needed gap?

Consolation

154. From memory, I attribute this argument to the Oxford philosopher Derek Parfitt. I have not researched its origins thoroughly because I am using it only as a passing example of philosophical consolation.
155. Reported by BBC News:

http://news.bbc.co.uk/1/hi/special_report/1999/06/99/cardinal_hume_funeral/376263.stm.

156. ***The mother of all burka***

Wolpert (1992).

ملاحظات باللغة العربية

ويندي كامينر، "آخر المحرّمات: لماذا تحتاج أميركا إلى الإلحاد"، نيو ريبابليك، 14 تشرين الأول 1.1996
HTTP://WWW.POSITIVEATHEISM.ORG/WRIT/KAMINER.HTM.
د. زوي هوكينز، د. بيتا آدامز، ود. بول سانت جون سميث، اتصالات شخصية.2

الفصل الأول: مؤمن بعمق غير متديّن

إحترام مستَحَق

الفيلم الوثائقي التلفزيوني الذي كانت المقابلة جزءاً منه مصحوباً بكتاب (وينستون 2005).3
دينيت (2006).4

إحترام غير مستَحَق

تمّ كتابة الخطاب الكامل في آدامز(2003) على أنه "هل هناك إله إصطناعي؟" 5
6 بيريكا (2002). أنظر أيضاً
"دوللي ورؤوس القماش"، في دوكينز(2003). 7
HTTP://WWW.OYEZ.ORG/CASES/2000-2009/2005/2005-04-1084/. 8
ر.دوكينز، "لا عقلانية الإيمان"، نيو ستايتسمان(لندن)،31 آذار9.1989
كولومبس ديسباتش، 19 آب. 10.2005
لوس أنجلوس تايمز، 10 نيسان 11.2006
HTTP://GATEWAYPUNDIT.BLOGSPOT.COM/2006/02/ISLAMIC-SOCIETYOF-DENMARK-USED-FAKE.HTML. 12
HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/2/HI/SOUTH_ASIA/4686536.STM;
HTTP://NEWS>BBC.CO.UK./2/HI/SOUTH_ASIA/4686536.STM;
HTTP://WWW.NEANDERNEWS.COM/?CAT=6.13
الاندبندنت، 5 شباط. 14.2006
أندرو مولر، "حجة مع السير إقبال" الاندبندنت، الأحد 2 نيسان 2006، قسم مراجعة الأحد،12-15.16
ميتفورد، وو(2011).16
HTTP://WWW.NEWADVENT.ORG/CATHEN/06608B.HTM. 17
HTTP://WWW.CATHOLIC-FORUM.COM/SAINTS/INDEXSNT.HTM?NF=1.18
سجل الكونغرس، 16 أيلول. 19.1981
HTTP://WWW.STEPHENJAYGOULD.ORG/CTRL/BUCKNER_TRIPOLI.HTML.20
جيل فرايزر، " الدين العائد بقوة وقد تخلّص من كاهن البلدة"، الغارديان، 13 نيسان 21.2006
روبرت آي. شيرمان، في فري إنكواري 8:4، خريف 1988، 16. 22
23 ان. انجييه، "إعترافات ملحد وحيد"، مجلة نيويورك تايمز، 14 كانون الثاني 2001:
HTTP://WWW.GEOCITIES.COM/MINDSTUFF/ANGIER.HTML.
HTTP://WWW.FSGP.ORG/ADSN.HTML.24
يتم سرد حالة غريبة بشكل خاص عن مقتل رجل لمجرد أنه كان ملحداً في الرسالة الإخبارية "لمجتمع التفكير الحرّ 25
لفيلادلفيا العظمى لآذار/ نيسان 2006.إذهب إلى:
HTTP://WWW.FSGP.ORG/NEWSLETTERS/NEWSLETTER_2006_0304.PDF
HTTP://WWW.HINDUONNET.COM/THEHINDU/MAG/2001/11/18/STORIES/2001111800070400.HTM.
26

فقر اللاأدرية

كوينتين دي لا بيدر، "هيرالد الكاثوليكية"، 3 شباط 27.2006
كارل ساغان، "عبء الشكوكية"، سكابتيكال إنكويرار 12، خريف 28.1987
لقد ناقشت هذه الحالة في "دوكينز(1998)".29

ت. هـ هاكسلي، "اللاأدرية" (1889)، أعيد طبعه في هاكسلي (1931). النص الكامل لـ "اللاأدرية" متاح أيضاً 30
HTTP://WWW.INFIDELS.ORG/LIBRARY/HISTORICAL/THOMAS_HUXLEY/HUXLEY_WACE/PART_02.HTML.

راسل، " هل هناك إله؟" (1952)، أعيد طبعه في راسل (1997 ب).31

32 أندرو موللر، "حجة مع السير إقبال"، الاندبندنت يوم الأحد، 2 نيسان 2006، مراجعة قسم الأحد،12-16.

نيويورك تايمز، 29 آب 2005. أنظر أيضاً هندرسون(2006).33

هندرسون(2006).34

35 HTTP://WWW.LULU.COM/CONTENT/267888.

تجربة الصلاة الكبرى

36 هـ بنسون وآل، "دراسة الآثار العلاجية لصلاة الشفاعة في مرضى القلب المفتوح"، أمريكان هارت جورنال 151 : 4، 2006، 934-42.

ريتشارد سوينبورن، في ساينس آند ثيولوجي نيوز، 7 نيسان 37.2006
HTTP://WWW.STNEWS.ORG/COMMENTARY-2772.HTM.

نيويورك تايمز، 11 نيسان 38.2006

مدرسة نيفل نشامبرلين للتطوّريين

في قضايا المحكمة، وفي كتب مثل روس(1982). ظهر مقاله في البلاي بوي في عدد نيسان 39.2006

ظهر رد جيري كوين على روس في آب 2006 لعدد البلاي بوي.40

مادلين بونتنغ، الغارديان، 27 آذار 41.2006

ظهر رد دانيال دانيت في الغارديان، 4 نيسان 42.2006

المواقع التالية43
HTTP://SCIENCEBLOGS.COM/PHARYNGULA/2006/03/THE_DAWKINSDENNETT_BOOGEYMAN.PHP; HTTP://SCIENCEBLOGS.COM/PHARYNGULA/2006/02/OUR_DOUBLE_STANDARD.PHP; HTTP://SCIENCEBLOGS.COM/PHARYNGULA/2006/02/THE_RUSEDENNETT_FEUD.PHP.

الأقزام الخضر

HTTP://VO.OBSPM.FR/EXOPLANETES/ENCYCLO/ENCYCL.HTML44

دانيت (1995).45

الفصل الثالث: حجج على وجود الله

الحجة الوجودية وحجج أخرى سالفة لها

ويليام غراي: "برهان غاسكينغ"، تحليل، المجلد 60، رقم 4 (2000)، صفحة 368-70. موقع 46
HTTP://WWW.IEP.UTM.EDU/O/ONT-ARG.HTM

الحجة القائمة على التجربة الشخصية

موضوع الأوهام بأكمله مُناقَش من قِبَل ريتشارد غريغوري في سلسلة من الكتب بما في ذلك غريغوري (1997).47

محاولتي الخاصة لتوضيح الشرح موجودة في "دوكنز(1998)" من صفحة 9 إلى صفحة 268. 48

موقع 49
HTTP://WWW.SOFC.ORG/SPIRITUALITY/S-OF-FATIMA.HTM.

الحجة من الكتاب المقدّس

توم فلين،" ماثيو مقابل لوقا"، فري إنكواري 25: 2004،1، 34-45؛ روبرت جيلولي، "إلقاء الضوء على ضوء العالم"50 فري إنكواري 25: 1، 2004، 27 – 30.

إرهمان (2006). أنظر أيضاً إهرمان (2003 أ، ب). 51

الحجة من العلماء الكبار المتديِّنين

بيت هالاهمي وآرجيل (1997). 52

إي. جاي. لارسن وأل وِتام،"العلماء الكبار لا زالوا يرفضون الإله"، نيتشر 394، 1998، 53.313
54 HTTP://WWW.LEADERU.COM/FTISSUES/FT9610/REEVES.HTML موقع يقدم تحليلاً مثيراً للإهتمام للإتجاهات التاريخية في رأي المتدين الأمريكي لتوماس س. ريفز، أستاذ التاريخ في جامعة ويسكانسن، بناء على ريفز(1996).
55 HTTP://WWW.ANSWERSINGENESIS.ORG/DOCS/3506.ASP
ر. إليزابيث كورنويل ومايكل ستيرات، مخطوطة قيد الإعداد، 56.2006
بِ. بيل، "هل تصدق ذلك؟"، منسا ماغازين، شباط 2002، 12-57.13

الفصل الرابع: لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود الله

طائرة البوينغ 747 الكبرى

تم تقديم مراجعة شاملة للمصدر، استعمالات واقتباسات لهذا القياس، من وجهة نظر خلقي، بواسطة جيرت كورثوف 58 HTTP://HOME.WXS.NL/~GKORTHOF/KORTHO46A.HTM.

الانتخاب الطبيعي كرافعة للوعي

آدمز (2002)، ص. 99. "رثاء إلى دوغلاس" الذي كتبته بعد وفاته بيوم قد أُعيدت طباعته كخاتمة لـ 59 سالمون أوف داوْبت، وأيضاً في كتابي "قسيس الشيطان"، والذي أيضاً فيه تأبيني له في ذكراه في كنيسةَ سانت مارتن.
مقابلة في دير شبيغل، 26 كانون الثاني 60.2005
ساسكيند (2006: 61.(17

عبادة الفجوات

بيهي (1996).62
63HTTP://WWW.MILLERANDLEVINE.COM/KM/EVOL/DESIGN2/ARTICLE.HTML
هذا الحساب الخاص بتجربة دوفر، بما في ذلك الاقتباسات، مأخوذ من أ. بوتارو، أم. آ. إنلاي وأن.جاي.ماتزكي،64
"علم المناعة في دائرة الضوءفي تجربة دوفر لـ " التصميم الذكي" "، نيتشير إميونولوجي 7، 2006، 433-5.
جاي. كويْن، "الإله في التفاصيل: التحدي الكِيميائي الحيوي للتطوّر"، نيتشير 383، 1996، 227-8. مقالة لي ولكويْن 65 تحت عنوان " أحد الجانبين يمكن أن يكون على خطأ" كانت قد نُشرَت في الغارديان، 1 أيلول 2005 على: HTTP://WWW.GUARDIAN.CO.UK/LIFE/FEATURE/STORY/0,13026,1559743,00.HTML.
الاقتباس من "المدوّن البليغ" موجود على:
HTTP://WWW.RELIGIONISBULLSHIT.NET/BLOG/2005_09_01_ARCHIVE.PHP.
دوكينز (1995).66

المبدأ الإنساني: النسخة الكوكبية

إعترف كارتر لاحقاً أن الاسم المفضل للمبدأ بشكل عام سيكون " المبدأ الإدراكي" بدلاً من المصطلح الراسخ 67 "المبدأ الأنثروبي": بِ. كارتر،"المبدأ الأنثروبي وآثاره على التطور البيولوجي"، فيلوسوفيكال ترانس أكشن أوف ذا رويال سوسايتي أوف لندن أ، 310، 1983، 347-63. لمناقشة كتاب مطوّلة للمبدأ الأنثروبي، أنظر بارو وتريبلَر(1988).
كومينس (1993).68
شرحت هذه الحجة بوضوح بشكل كامل في كتابي " صانع الساعات الأعمى" (دوكينز 1986). 69

المبدأ الإنساني: النسخة الفلكية

موراي جيل مان، مقتَبس من جون بروكمان على موقع "أدج"، 70
HTTP://WWW.EDGE.ORG/3RD_CULTURE/BIOS/SMOLIN.HTML.
وارد (1996: 99)؛ بولكينغهورن (1994: 71.(55

إستراحة في كامبردج

ج. هورغان، "مؤسسة تمبلتون: " نظرة متشكّكة"، سجل التعليم العالي، 7 نيسان (2006). أنظر أيضاً 72
HTTP://WWW.EDGE.ORG/3RD_CULTURE/HORGAN06/HORGAN06_INDEX.HTML.
بي. ب. مداوار، مراجعة " ظاهرة الرجل"، أعيد طبعه في مداوار (1982: 73.(242
دينيت (1995: 74.(155

الفصل الخامس: جذور الدين

الحسم الداروينيي

75 مقتبس في دوكينز (1982: 30).

ك. ستيريلني، "كبير الأساقفة الفاسد"، في غرافن وريدلي (2006: 213-23).76

الانتخاب الجماعي

ن. آي.تشاغنن، " القرابة المصطلحية، الترابط النَّسَبي والانشطار القروي بين هنود يانومامو"، في ألكسندر وتينكل77 (1981: الفصل 28).

س. داروين، "أصل الإنسان" (نيويورك: آبلتون، 1871)، مجلد 1، 78 .156

الدين كناتج عَرَضي لشيء آخر

مقتبس في بلايكر (2003: 7).79

الإعداد النفسي للدين

أنظر مثلاً بص (2005).80

ديبورا كليمان، " هل الأطفال هم "ألوهيون بالفطرة"؟"، سايكولوجيكال ساينس 15: 5، 2004، 295-81.301

دينيت (1987).82

الغارديان، 31 كانون الثاني 83.2006

سميثيس (2006).84

HTTP://JMM.AAA.NET.AU/ARTICLES/14223.HTM.85

الفصل السادس: جذور الأخلاق: لماذا نحن صالحون؟

الفيلم نفسه، الذي هو جيد جداً، يمكن الحصول عليه على موقع 86 HTTP://WWW.THEGODMOVIE.COM/INDEX.PHP.

دراسة حالة في جذور الأخلاق

م. هوسر وب. سينغر، " الأخلاق بدون الدين"، فري إنكواري 26: 1، 2006، 18-87.19

لماذا أكون صالحاً إن لم يكن هناك إله؟

دوستويفسكي (1994: كتاب 2، فصل 6، ص. 87).88

هندي (2002). أنظر أيضاً سينغر (1994)، غرايلنغ (2003)، كلوفر (2006).89

الفصل السابع: الكتاب "الصالح" وأخلاقيات روح العصر المتغيِّرة

لين فوكس (1992)؛ برلينربلو (2005).90

هولواي (1999، 2005). ريتشارد "التعافي من المسيحية" سطر في مراجعة كتاب في الغارديان، 15 شباط 91:2003 HTTP://BOOKS.GUARDIAN.CO.UK/REVIEWS/SCIENCEANDNATURE/0,6121,894941,00.HTML.

الصحفي الأسكتلندي موريل غراي كتب رواية جميلة عن حواري في أدنبرة مع الأسقف هولُواي في (غلاسغو) هيرالد: HTTP://WWW.SUNDAYHERALD.COM/44517

العهد القديم

للإطّلاع على مجموعة مخيفة من خطب رجال الدين الأميركيين الذين يدَّعون أن "ذنب" الإنسان هو السبب في حدوث 92 إعصار كاترينا، أنظر HTTP://UNIVERSIST.ORG/NEWORLEANS.HTM.

بات روبرتسون، ذُكر في ال بي بي سي على 93 HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/2/HI/AMERICAS/4427144.STM.

هل العهد الجديد بأفضل حال؟

94 ر.ريتشارد دوكينز، "ملحدون لأجل يسوع"، فري إنكواري 25: 1، 2005، 9-10.

جوليا سويني هي أيضاً محقَّة تماماً عندما تذكر باختصار البوذية. مثلما يُعتَقَد في بعض الأحيان أن المسيحية هي دين 95 ألطف من الإسلام، فإن البوذية غالباً تصدع لتكون الألطف على الإطلاق. لكن مذهب التخفيض على سلَّم التناسخ بسبب

الخطايا في الحياة الماضية هو أمر غير سارّ بالكامل. جوليا سويني تقول: "ذهبت إلى تايلاند وحدث أني زرتُ امرأة كانت تعتني بصبيّ مشوّه بشكل فظيع. قلتُ لها:"من الجيد أنك تعتنين بهذا الولد المسكين". قالت: "لا تقولي "مسكيناً"، لا بد أنه فعل شيئاً فظيعاً في الحياة الماضية حتى يولد بهذه الطريقة"".
للحصول على تحليل مدروس للتقنيات المستَخْدَمة من قبَل الطوائف، أنظر باركر (1984). يتم تقديم المزيد من الروايات96
الصحفية عن الطوائف الحديثة من قبَل لين (1996) وكيلَدوف وجافرز (1978).
بول فاليلي وأندرو بونكومب، " تاريخَ المسيحية: إنجيل حسب يهوذا"، الإندبندنت، 7 نيسان 97.2006
فرمِس (2000).98

أحبّ جاركَ

نُشرَت ورقة هارتنغ في الأصل في مجلة سكابتك 3: 4، 1995، ولكنها الآن متاحة بسهولة أكبر على الموقع التالي99
HTTP://STRUGGLESFOREXISTENCE.COM/?P=ARTICLE_P&ID=13.
سميث (1995).100
الغارديان، 12 آذار 101:2002
HTTP://BOOKS.GUARDIAN.CO.UK/DEPARTMENTS/POLITICSPHILOSOPHYANDSOCIETY/STORY/0,,664342,00.HTML.
ن.د. غلن، "الزواج بين الأديان في الولايات المتحدة: الأنماط والاتجاهات الحديثة"، مجلة الزواج والأسرة 44: 102،3
1982، 555- 66.

روح العصر الأخلاقية

HTTP://WWW.EBONMUSINGS.ORG/ATHEISM/NEW10C.HTML.103
هاكسلي (1871).104
موقع:105
HTTP://WWW.CLASSIC-LITERATURE.CO.UK/AMERICAN-AUTHORS/19TH-CENTURY/ABRAHAM-LINCOLN/THE-WRITINGS-OF-ABRAHAM-LINCOLN-04/.

ماذا عن هتلر وستالين؟ ألم يكونوا ملحدين؟

106 بولوك (1991).
بولوك (2005).107

108 HTTP://WWW.FFRF.ORG/FTTODAY/1997/MARCH97/HOLOCAUST.HTML.
109 HTTP://HOMEPAGES.PARADISE.NET.NZ/MISCHEDJ/CA_HITLER.HTML.
بولوك (2005: 96).110
آدولف هتلر، خطاب 12 نيسان 1922. في بافنيس (1942: 19- 20).111
بولوك (2005: 43).112
هذا الاقتباس، والاقتباس التالي مأخوذان من مقالة آن نيكول غايلور حول دين هتلر،113
HTTP://WWW.CONTRA-MUNDUM.ORG/SCHIRRMACHER/NS_RELIGION.PDF.114

الفصل الثامن: ما الخطأ في الدين؟ لماذا تكون عدائياً جداً؟

الأصولية وتقويض العلم

115 من "ما هو صحيح؟"، الفصل 1. 2 من "دوكينز" (2003).
كلا اقتباساتي من وايز تأتي من مساهمته في كتاب عام 1999 "في ستة أيام"، مختارات من مقالات من قبَل الذين 116

الوجه المظلم للأحكام المطلقة

وراّق (1995: 175).117
تمّ سجن جون ويليام غوت بسبب وصفه يسوع بأنه مهرَج في الإنديبيديا، الذي نشرته الإندبندنت، 29 نيسان 118.2006
HTTP://ADULTTHOUGHT.UCSD.EDU/CULTURE_WAR/THE_AMERICAN_TALIBAN.HTML.119

الإيمان والمثْلية الجنسية

هودجز (1983).120

هذا والاقتباسات المتبقية في هذا القسم هي من موقع طالبان الميركية المدرَجة بالفعل: 121

.122HTTP://ADULTTHOUGHT.UCSD.EDU/CULTURE_WAR/THE_AMERICAN_TALIBAN.HTML

123 GODHATESFAGS.COM من الموقع الرسمي لقسيس كنيسة ويستبورو المعمدانية فيلبس:

الإيمان وقدسية الحياة الإنسانية

أنظر موني (2005). أيضاً سيلفر (2006)، الذي وصل عندما كان هذا الكتاب في المرحلة الأخيرة من طباعته، 124

للحصول على تحليل مثير للاهتمام لما يجعل ولاية تكساس مختلفة في هذا الصّدد، أنظر125

.126HTTP://EN.WIKIPEDIA.ORG/WIKI/KARLA_FAYE_TUCKER

اقتباسات راندال تيري هذه مأخوذة من نفس موقع طالبان الأمريكي كالسابق:127

ذُكر بشكل رسمي على فوكس نيوز:128

م. ستامب دوكينز (1980).129

مغالطة بيتهوفن الكبيرة

.130HTTP://WWW.WARROOM.COM/ETHICAL.HTM

ميداوار وميداوار (1977).131

كيف يرعى "الإعتدال" الديني التطرّف

يمكن الاطِّلاع على مقالة يوهان هاري التي نُشرَت في الأصل في مجلة الاندبندنت، 15 تموز 2005، على الموقع132

HTTP://WWW.JOHANNHARI.COM/ARCHIVE/ARTICLE.PHP?ID=640.

فيلاج فويس، 18 أيّار 2004: 133

هاريس (2004: 29).134

نصرة حسن، "ترسانة المؤمنين"، نيو يوركر، 19 تشرين الثاني 2001. أنظر أيضاً135

HTTP://WWW.BINTJBEIL.COM/ARTICLES/EN/011119_HASSAN.HTML

الفصل التاسع: الطفولة، التعرُّض لإساءة المعاملة والهرب من الدين

سوء المعاملة الجسدية والنفسية

ذُكرت رسمياً في بي بي سي نيوز:136

HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/1/HI/WALES/901723.STM.

لوفتوس وكيتشام (1994).137

أنظر ووترز في ذا آيْريش تايمز:138

HTTP://ONEINFOUR.ORG/NEWS/NEWS2003/ROOTS/.

آسوشييتدبرس، 10 حزيران 2005:139

HTTP://WWW.RICKROSS.COM/REFERENCE/CLERGY/CLERGY426.HTML.

.140HTTP://WWW.AV1611.ORG/HELL.HTML

ن. همفري، "ماذا يجب أن نخبر الأطفال؟"، في ويليامز (1998)؛ أعيد طبعه في همفري (2002).141

.142HTTP://WWW.AV1611.ORG/HELL.HTML

الغارديان، 15 كانون الثاني 2005:143

HTTP://WWW.GUARDIAN.CO.UK/WEEKEND/STORY/0,,1389500,00.HTML.

تايمز أديوكايشنال سابليمانت، 15 تموز 2005. 144

?145HTTP://WWW.TELEGRAPH.CO.UK/OPINION/MAIN.JHTML

الغارديان، 15 كانون الثاني 2005:146

HTTP://WWW.GUARDIAN.CO.UK/WEEKEND/STORY/0,,1389500,00.HTML.

نص رسالتنا، مُصاغ من قبل مطران أوكسفورد، كان كالتالي:147

"دولة رئيس الوزراء!

نحن مجموعة من العلماء ورجال الدين، نكتب لك للتعبير عن مدى قلقنا بخصوص المناهج العلمية في كلية إيمانويل التكنولوجية في كايتسهَد. التطور هو نظرية علمية ذات قيمة معرفية كبيرة وقادرة على شرح الكثير من الظواهر في كثير من المجالات. وبالإمكان تشذيبها وتأكيدها، بل وقابلة للتطويع من خلال تدقيق حريص على الدلائل المطروحة. المُتحدث الرسمي للمدرسة المذكورة أعلاه يزعم بأنهُ مسألة (موقف إيماني) على نفس المستوى مع قصة الخلق المذكورة في الكتاب المُقدس، والتي لها وظيفة ثانية وهدف آخر. إن هذا الزعم يجانب الصواب.

المسألة تتخطى ما يتم تعليمهُ في مدرسة معينة ما. حيث يزداد القلق الآن حول ما سوف يتم تعليمهُ، وكيف سيتم إعادة هيكلة المناهج في الجيل القادم من المدارس الدينية. نحنُ نرى بأن المنهج التدريسي في مدارس مشابهة لكلية إيمانويل التكنولوجية يجب ان يخضع لرقابة شديدة لضمان احترام متبادل للمناهج العلمية والدينية.
مع كل التقدير".
بريتيش هيومانيست آسوشيياشن نيوز، آذار-نيسان 2006. 148
الأوبزارفر، 22 تموز 149:2004
[HTTP://OBSERVER.GUARDIAN.CO.UK/MAGAZINE/STORY/0,11913,1258506,00.HTML](http://observer.guardian.co.uk/magazine/story/0,11913,1258506,00.html).

رفع الوعي مرة أخرى

يعيد قاموس أوكسفورد كلمة "المثْليين" إلى اللغة العامية في السجن الأمريكي في عام 1935. في عام 1955، وجد بيتر150
وايلدبلود في كتابه الشيء ضد القانون، أنه من الضروري تعريف "مثليي الجنس" على أنه تعبير أمريكي غريب عن المثلية الجنسية".
[HTTP://UEPENGLAND.COM/FORUM/INDEX.PHP?SHOWTOPIC=184&MODE=LINEAR](http://uepengland.com/forum/index.php?showtopic=184&mode=linear).151

التعليم الديني كجزء من الثقافة الأدبية

كتب شاهين ثلاثة كتب، مقتطفاً مراجع الكتاب المقدس في الكوميديا والمآسي والتاريخ بشكل منفصل. تمّ ذكر عدد 152
الملخَّص البالغ 1300 في:
[HTTP://WWW.SHAKESPEAREFELLOWSHIP.ORG/VIRTUALCLASSROOM/STRITMATTERSHAHEENREV.HTM](http://www.shakespearefellowship.org/virtualclassroom/StritmatterShaheenRev.htm).
[HTTP://WWW.BIBLELITERACY.ORG/SECURE/DOCUMENTS/BIBLELITERACYREPORT2005.PDF](http://www.bibleliteracy.org/Secure/Documents/BibleLiteracyReport2005.pdf).153

الفصل العاشر: أفجوة ضرورية جداً؟

العزاء

من الذاكرة، أعزو هذه الحجة إلى فيلسوف أوكسفورد ديريك بارفيت. لم أقم بالبحث في أصولها تماماً لأنني أستخدمها 154
فقط كمثال عابر على العزاء الفلسفي.
ذُكرت بشكل رسمي في بي بي سي نيوز:155
[HTTP://NEWS.BBC.CO.UK/1/HI/SPECIAL_REPORT/1999/06/99/CARDINAL_HUME_FUNERAL/376263.STM](http://news.bbc.co.uk/1/hi/special_report/1999/06/99/cardinal_hume_funeral/376263.stm).

أمّ كل البراقع

ولبرت (1992).156